جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله

كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية

قسم التاريخ

أوجاق الإنكشارية بإيـالـة الجزائر في عهد الدايات (1671-1830م).

دوره و تنظيمه من خلال الوثائق العثمانية : دفاتر المواجبات

أطروحة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث و المعاصر

الجزء الأوّل

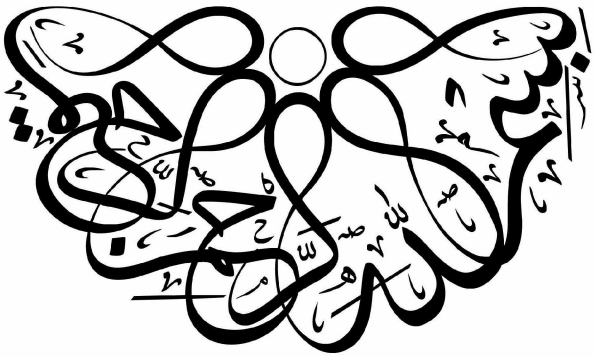
إعداد الطالب :

أمين محرز

إشراف الأستاذ الدكتور :

شكيب بن حفري

السنة الجامعية 2019-2020م





سورة طه، الآيات 25-28.

الإهداء

أهدي هذا العمل المتواضع،

إلى روح والدي، رحمه الله، الّذي علّمني التّأني و المثابرة.

إلى والدتي العزيزة، الّتي حثّتني على العمل، أطال الله في عمرها.

و إلى روح أستاذتي الفاضلتين، عائشة غطّاس و زهرة زكية، تغمّدهما الله برحمته.

إلى زوجتي أمّ عبد الكريم، الّتي صبرت علي كلّ تلك السنين.

إلى إخوتي : محمّد بلال، و گوسم، و عبد المجيد.

و إلى كلّ من مدّ لي يد المساعدة.

كلمة شكر و عرفان

لا يسعني، و أنا أتقدّم بهذه الأطروحة للمناقشة، إلاّ أن أعرب عن جزيل شكري و امتناني إلى الأستاذ المشرف، الدكتور شكيب بن حفري، لمساعدته و تشجيعه لي على متابعة البحث و إنجاز هذه الرسالة المتواضعة.

كما أسجّل تشكّراتي إلى إداريي و مكتبيي و عمّال المكتبة الوطنية الجزائرية، و لا سيّما القائمين على مصلحة المخطوطات، إذ وجدت منهم كلّ التسهيلات المرجوة الّتي سمحت لهذا العمل بأن يرى النور.

هذا، و لا يفوتني أن أسجّل شكري إلى كلّ من وجدت منه عونًا و مساعدة من أفراد أسرتي و أساتذتي و زملائي، و كذلك أعضاء لجنة المناقشة الأفاضل لقبولهم قراءة هذا العمل و مناقشته و إثرائه بتوجيهاتهم و نصائحهم.

محرز أمين

الجزائر في 27 نوفمبر 2020

تنبيه

لقد قمنا، نظرًا لطبيعة موضوع دراستنا، بتوظيف العشرات من الألفاظ العثمانية، الّتي أوردنا ثبتها في قسم الفهارس ؛ و كون الأتراك العثمانيين استخدموا الحروف العربية كأساس في نظام كتابة لغتهم، فإنّنا ارتأينا توضيح الحروف الّتي لا مقابل لها في اللسان العربي، تجنّبًا للعُجمة :

- پ : يلفظ كالحرف اللاتيني p.

- چ : يقابل اللفظة الإسبانية ch، و يوافق نطق الحروف tch في الفرنسية.

- ژ : حرف فارسي الأصل، يلفظ بصوت مليّن كالحرف الفرنسي j ؛ و قد أوردناه للبيان فقط، إذ لم يرد في أيٍّ من الألفاظ الّتي استخدمناها.

- گ : الكاف الفارسي - كما يعرف - يلفظ مثل الحرف الإنكليزي g ؛ و لقد اعتمدناه - بالموازاة مع حرف غ - في الكتابة الصوتية لبعض أسماء الأعلام الواردة بالأجنبية (بدل حرف غ، الّذي له نفس النطق).

- ڭ : يلفظ الكاف النوني - مثلما يدلّ عليه اسمه - تقريبًا مثل الحرف العربي ن.

- ۏ : هذا الحرف، الّذي يعرف بالكاف اليائي، ينطق ياءً مخفّفة.

و تجدر الملاحظة أنّه في أغلب الأحيان لا توضع في الوثائق المخطوطة علامات مميّزة لحروف الكاف المذكورة آنفًا، و تتبيّن طريقة نطقها بالمداومة و الحفظ، مثل بكلربك (بايلرباي).

- و : عند استخدامه كحرف صوتي بما يشبه الضمّة في العربية، فإنّ نطقه يختلف بحسب الألفاظ الّتي يرد فيها : خفيف مبسوط، حيث ينطق كاللفظة الفرنسية eu - خفيف مقبوض، حيث ينطق كالحرف الفرنسي u - ثقيل مبسوط، حيث ينطق كالحرف الفرنسي o - ثقيل مقبوض، حيث ينطق كاللفظة الفرنسية ou ؛ و تميّز طرق نطق الواو بالمداومة و الحفظ ؛ كما ينطق الواو عندما يكون صامتًا مثل الحرف اللاتيني v. و الجدير بالإشارة في هذا الصدد أنّه لدى كتابتنا بالعربية لأسماء الأعلام الأجنبية، فإنّنا استخدمنا الحرف ڤ كمقابل لفظي لـ v.

قائمة المختصرات

أ- باللغة العربية :

ج. : جزء.

جـ. : جماعة.

د.ت. : دون تاريخ.

د.ط. : دون طبعة.

د.م.ج. : ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

د.ن. : دون ناشر.

ر.د.أ.ع. : رئاسة دائرة الأرشيف العثماني، اسطنبول.

ش.و.ن.ت. : الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر.

ص. : صفحة.

ص ص. : صفحات.

ط. : طبعة.

ظ° : ظهر.

م.ت.ح.م. : مجلة تاريخ و حضارة المغرب، الجزائر.

م.ت.ع.د.ع. : المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، زغوان/تونس

م.ت.م. : المجلة التاريخية المغاربية، تونس.

م.د.ب.و.ع.ع.ع. : مركز الدراسات و البحوث عن الولايات العربية في العهد العثماني، زغوان.

م.د.ت.ح. : مجلة الدراسات التاريخية و الحضارية، تكريت.

م.م.د.ت.ا. : المجلة المغاربية للدراسات التاريخية و الاجتماعية، سيدي بلعباس.

م.و.د.ب. : مجلة الواحات للبحوث و الدراسات، غرداية.

مج. : مجلّد.

م.و.ج. : المكتبة الوطنية الجزائرية، الجزائر.

م.و.ف.م : المؤسّسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر.

م.و.ك. : المؤسّسة الوطنية للكتاب، الجزائر.

م. : ميلادي.

ه. : هامش.

هـ. : هجري.

و° : وجه.

و. : ورقة.

وو. : ورقات.

ب- باللغات الأجنبية :

A.A.S. : Asian and African Studies, London.

A.B. : Africana Bulletin, Varsovie.

A.E.P./M.D. : Archives du Ministère des Affaires Étrangères/Série Mémoires et Documents, Paris.

A.E.P./C.C.C. : Archives du Ministère des Affaires Étrangères/Correspondance consulaire et commerciale, Paris.

A.E.S.C. : Annales Économie, Société et Civilisation, Paris.

A.H.R.O.S. : Arab Historical Review for Ottoman Studies, Tunis.

A.I.E.O. : Annales de l'Institut d'Études Orientales, Alger.

A.M.G. : Arts et Métiers Graphiques, Paris.

A.N.P. : Archives Nationales, Paris.

A.O.M. : Archives d'Outre-Mer, Aix-en-Provence.

A.S.A.P.C. : Annuaire de la Société Archéologique de la Province de Constantine, Constantine.

B.G.D.H. : Bulletin de Géographie Historique et Descriptive, Paris.

B.H. : Bulletin Hispanique, Bordeaux.

B.N.A. : Bibliothèque Nationale d'Algérie, Alger.

B.S.G.A.A.N. : Bulletin de la Société de Géographie d'Alger et de l'Afrique du Nord, Alger.

C.M. : Cahiers de la Méditerranée, Nice.

C.N.R.S. : Centre National de Recherche Scientifique, Paris.

C.T. : Cahiers de Tunisie, Tunis.

éd. : édition.

E.P.H.E. : École pratique des hautes études, Paris.

f. : folio.

ff. : folios

H.T. : Hespéris Tamuda, Rabat.

G.A.L. : Grand-Alger Livres, Alger.

G.F. : Gazette de France, Paris.

Ibid. : Ibidem.

Id. : Idem.

J.A. : Journal Asiatique, Paris.

J.S.H. : Journal of Social History, Oxford.

ms. : manuscrit.

M.F. : Mercure de France, Paris.

M.G.F.N. : Militär und Gesellschaft in der Frühen Neuzeit, Potsdam

n. : note.

O.P.U. : Office des Publications Universitaires, Alger.

Op. cit. : Opere citato.

r° : recto.

R.A. : Revue Africaine, Alger.

R.A.S.J.É.P. : Revue Algérienne des Sciences Juridiques, Économiques et Politiques, Alger.

R.F.H.O.M. : Revue française d'histoire d'outre-mer, Paris.

R.H. : Revue Historique, Paris.

R.H.C.F. : Revue de l'Histoire des Colonies Françaises, Paris.

R.H.D. : Revue d'Histoire Diplomatique, Paris.

R.H.M. : Revue d'Histoire Maghrébine, Tunis.

R.H.R. : Review of Historical Research, Ankara.

R.O.M.M. : Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée, Aix-en-Provence.

R.S.A.C. : Recueil de la Société Archéologique de Constantine, Constantine.

R.S.P. : Revue des Sciences Politiques, Paris.

R.T. : Revue Tunisienne, Tunis.

s.d. : sans date.

S.I. : Studia Islamica, Paris.

s.l. : sans lieu.

sqq. : sequunturque.

t. : tome

T.H.R. : Turkish Historical Review, Leiden.

trad. : traduit.

v° : verso.

vol. : volume.

المقدّمة

المقدّمة

يشكّل موضوع الإنكشارية حجر الزاوية في كلّ ما يتعلّق بتاريخ الجزائر في العهد العثماني، إذ كانت العناصر "التركية"، الّتي يعود أصلها إلى ما عرف بـ "برّ الترك" - أي المناطق الأناضولية أساسًا، و بعض المناطق المجاورة من الإمبراطورية العثمانية المترامية الأطراف -، هي ركيزة الإيالة الجزائرية الرئيسية بفعل تأصّلها في جهاز الدولة الإداري و هيمنتها على القطاع العسكري. و تلك المكانة المهيمنة، الّتي لا يمكن فصلها عن حقيقة كونها أهمّ قوة عسكرية في الجيش الجزائري، جعلتها تضطلع بدور محوري في السياسة العليا للإيالة، بإجماع كافّة المصادر الّتي تطرّقت إلى الجزائر تحت الحكم العثماني.

على كلٍّ، لقد استرعى انتباهنا أنّ أوجاق الإنكشارية في الجزائر لم يحظ بالكثير من الدراسات الوافية و التفصيلية، استنادًا إلى الدفاتر و الوثائق العثمانية الأصلية[1] ؛ و ذلك على الرغم من الأهمّية الأكيدة الّتي تنطوي عليها من الجانب التاريخي.

و الواقع أنّ اختيارنا للبحث في هذا الموضوع كان نوعًا ما صدفة، إذ خلال سعينا لإيجاد مصادر جديدة في إطار التحضير لرسالة الماجستير قبل قرابة العقد و نصف استلفت أنظارنا بخزانة مصلحة المخطوطات بالمكتبة الوطنية الجزائرية (الحامّة) وجود العشرات من السجلات ذات حجمٍ كبيرٍ غير مألوف، هي "دفاتر الإنكشارية" الّتي يغطّي تاريخها إجمالاً فترة حكم الدايات، حيث يعود أقدمها إلى سنة 1100هـ الموافقة لـ 1689م ؛ و لا ننكر أنّ مقال جان دُني (Jean Deny) الّذي خصّه لتلك الدفاتر في المجلّة الإفريقية كان بمثابة محفّز مبدئي و مفتاح لمحاولة فكّ رموزها، ففكّرنا في العودة إليها مستقبلاً قصد استثمارها في بحث دكتورالي يكون بمثابة دراسة أوّلية لإماطة اللثام عن جوانب مجهولة من التنظيم الداخلي للأوجاق، و السعي لتقويم الدور الّذي اضطلع به أفراده في تاريخ الجزائر.

---

1. من الأمثلة القليلة الّتي يمكننا أن نسوقها في هذا الصدد : جميلة معاشي، **الإنكشارية و المجتمع ببايلك قسنطينة في نهاية العهد العثماني**، دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث، جامعة منتوري، قسنطينة، 2008 ؛ فهيمة عمريوي، **الجيش الإنكشاري بمدينة الجزائر خلال القرن 12هـ/18م. دراسة اجتماعية - اقتصادية من خلال سجلات المحاكم الشرعية**، ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2009 ؛ فهيمة عمريوي، **أوقاف الجيش الإنكشاري بمدينة الجزائر من 1009 إلى 1246هـ/1600-1830م**، دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر 2، 2019.

و كان ترحيب أستاذتنا المشرفة الأولى عائشة غطّاس بالموضوع و تشجيعها لنا على الخوض فيه أكبر محفِّزٍ للمضي في هذه الدراسة، رغم تخوّفنا - لا نخشى من قول ذلك - من أن يتعذّر علينا استخلاص المادة التاريخية المتضمّنة في الدفاتر المذكورة آنفًا أو أن نفشل في توظيفها بشكلٍ مدروس في ثنايا البحث.

و على هذا الأساس، كان غرضنا من القيام بهذه الدراسة ما أمكننا إلى ذلك سبيلاً تقصّي الحقائق التاريخية، و بالتالي تجاوز الأحكام المسبقة و الاستنتاجات السطحية و التعميمات الّتي روّجت لها المصادر الغربية عن التاريخ السياسي و العسكري للجزائر ؛ و نضرب عن ذلك مثلاً أنّ جلّ الكتّاب الأوربيين و من تأثّر بهم اعتبروا الجزائر العثمانية مجرّد "مستعمرة تركية"، و جهازها الإداري و العسكري مجرّد وسيلة موجّهة للجباية، لا تهتمّ بأمور البلاد بقدر ما تتطلّع، دومًا، إلى تعزيز نشاط القرصنة سعيًا للحصول على مزيد من الغنائم[1].

و الواقع أنّ هذا الوصف المنافي للحقيقة التاريخية ناتج عن تجاوز الوثائق باللغتين العثمانية و العربية الخاصّة بالجزائر، و ناتج أيضًا عن كون الكثير ممّا كُتب عن العهد العثماني حتّى وقتٍ قريب، لا يخرج عما سجّلته أقلام الكتّاب الفرنسيين - بالأخصّ إبّان القرن التاسع عشر -، الّذين أطلقوا من الأحكام المسبّقة و دسّوا من الأخبار المغلوطة ما لا يخدم الحقائق التاريخية المنشودة، و جعلوا من تاريخ الجزائر في العهد العثماني لا يعدو عن كونه مجرّد ملامح مضطربة لم تتوضّح صورتها أحيانًا حتّى في الأحداث البارزة، كما ركّزوا دراساتهم حول مواضيع تهمّهم بالدرجة الأولى مثل العلاقات السياسية و الاقتصادية مع الدول الأوروبية، و مسائل القرصنة و الأسرى و الغنائم البحرية ؛ و لم يكلّف أولئك الكتّاب أنفسهم في ذلك عناء النّظرة الفاحصة الّتي لا تقرّ بالحقائق من خلال مظاهرها الخارجية فقط، و إنّما بتفحّص الواقع التاريخي من خلال دراسة مجريات الأحداث الداخلية و الخارجية - دون إغفال الأوضاع الاجتماعية الاقتصادية -، و مدى الارتباط بينها[2].

و عليه، لا يسعنا سوى الإشهاد بأنّه لم تحظ مرحلة الدايات، مثلما هو الحال بالنسبة للعهد العثماني بأكمله، بدراسة تاريخية معمّقة و وافية من طرف الدارسين و المؤرّخين، على غرار أعمال يلماز أوزتونا و خليل اينالجيك و جوزيف ڤون هامر پرگستال بخصوص تاريخ الدولة العثمانية - و ذلك أساسًا لعدم

---

1. انظر في هذا الصدد :

- L. Merouche, **Recherches sur l'Algérie à l'époque ottomane : II. La course, Mythes et réalités**, Éditions Bouchène, Paris, 2007, pp. 12-14.

2. ناصر الدين سعيدوني، "**طبيعة الكتابات التّاريخية المتعلّقة بالجزائر العثمانية**"، في : مجلة الثّقافة 45، 1978، ص ص. 30-31.

اعتمادها على الأرشيف العثماني -، بحيث بقيت البعض من جوانبها و وقائعها مبهمة أو حتّى منسية ؛ كما أنّه، إذا ما استثنينا عددًا لا بأس به من الدراسات الدسمة المنتقاة بعناية - غير أنّها تبقى جزئية -، لا يزال عددٌ أكبر من الدراسات يولي حرصه بالمقام الأوّل على النمط السردي للأحداث مهما تفاوتت أهمّيتها ؛ و هو منهج ضعيف تعوزه الدقّة و الموضوعية، حيث يغلب عليه في غالب الأحوال طابع التبسيط المخلّ و الانسياق وراء الأحكام المسبقة، قد يصل إلى درجة تناقل الافتراءات و الأغاليط بدون تبصّر.

بعد أن تشكّلت لدينا صورة عامّة عن جوانب البحث، و بناءً على المعطيات الّتي بحوزتنا، قمنا بصياغة الإشكالية الّتي يقوم عليها البحث كالتالي : **كيف تطوّر أوجاق الإنكشارية في ظلّ حكم الدايات، و بشكل أخصّ خلال العقود المضطربة الأخيرة من الوجود العثماني؟ و إلى أيّ درجة ساهم انحطاطه المفترض في سقوط الجزائر؟**

و قادتنا هذه الإشكالية إلى حصر عددٍ من المسائل الفرعية تهمّ الموضوع بشكلٍ مباشر، ممّا أتاح لنا طرح جملة من التساؤلات الّتي كانت بمثابة معالم اهتدينا بفضلها إلى معالجة ثنايا هذه الدراسة و ضبطها ؛ و لقد ارتأينا تقسيمها إلى مجموعتين : المجموعة الأولى حاولنا من خلالها تسليط الضوء على الأدوار الّتي أدّاها أوجاق الإنكشارية في تاريخ الإيالة، و الثانية خصصنا بها جانبًا من المسائل التنظيمية لأوجاق الإنكشارية بالأساس، و نبذة عن شتّى الأنشطة العسكرية الّتي كان يضطلع بها أفراده.

بالنسبة لتساؤلات المجموعة الأولى، فإنّها جاءت كما يلي :

- كيف تطوّر الصراع الّذي نشب بين أوجاق الإنكشارية و الطوائف البحرية بُعيد منتصف القرن السادس عشر؟
- كيف ارتقى ديوان الإنكشارية من هيئة عسكرية ترعى شؤون الأوجاق إلى هيئة متنفّذة سياسيًّا لها نظر في جميع شؤون الحكم؟
- ما طبيعة العلائق الّتي كانت سائدة بين الإنكشارية و الكراغلة من جهة؟ و بتعبير آخر كيف تطوّرت "المشكلة الكرغلية" خلال عهد الدايات؟
- هل يمكن اعتبار رفض استقبال الولاة المعيّنين من قبل الباب العالي "محاولة للانفصال" عن الدولة العثمانية؟ و كيف كان تعامل الباب العالي تجاه الإيالة المعاندة؟
- هل حافظ الأوجاق على نفوذه السياسي خلال القرن الثامن عشر؟ و كيف تطوّرت العلاقة بين أوجاق الإنكشارية و حكومة الدايات؟
- هل صحيح أنّ قوّة الأوجاق تضعضعت في السنون الأخيرة من العهد العثماني؟ و في حالة الايجاب، ما أسباب ذلك؟ و إلى أي درجة ساهم ذلك في انهاء الحكم العثماني في سنة 1830؟

- ما هي مجمل العوامل الأخرى الّتي أسهمت في الهزيمة أمام الفرنسيين؟ و ما كان مصير الإنكشاريين بعد سقوط الجزائر؟

أمّا تساؤلات المجموعة الثانية، فأمكن تلخيصها في النقاط التالية :

- كيف كان يتمّ الترقي في سلم الرتب العسكرية داخل أوجاق الإنكشارية؟
- على اعتبار تنفّذ الأوجاق على مراكز القرار في الدولة، ما هي الهياكل التنظيمية أو الهيئات الّتي أتاحت له تبوّأ تلك المكانة و بلوغ ذلك النفوذ؟
- إلى جانب الخدمة النظامية الّتي اضطلع بها العسكر الإنكشاري، ما طبيعة الوظائف الأمنية الّتي امتهنها أفراده؟
- أتصحّ تسمية "الجيش الإنكشاري" الّتي درج عددٌ من الباحثين إضفائها على الأوجاق، أو بتعبير آخر هل استوفى الأوجاق في تركيبته و مواصفاته الشروط الّتي تسمح بأن يسمّى كذلك؟

و لدراسة الموضوع دراسة وافية في المجالين الموضوعي و الزمني، كان لزامًا علينا ربط فترة الدراسة بتاريخ دفاتر علوفات الإنكشارية الّتي تشكّل عماد البحث ؛ و هذه الدفاتر تغطّي معظم الفترة الممتدّة من السنوات الأخيرة للقرن السابع عشر إلى غاية نهاية العهد العثماني بالجزائر، 1100-1246هـ/1689-1830م، أي قرابة قرنٍ و نصف من الزمن. و عليه، وافق الإطار الزمني للبحث فترة حكم الدايات على وجه التقريب. بيد أنّ مقتضيات البحث استلزمت منّا قبل الخوض في دور الأوجاق و تنظيمه خلال الفترة المذكورة، إبراز ظروف نشأته و تطوّره مرحليًا خلال الفترات السابقة.

و كما سبق و أشرنا إلى ذلك، شكّلت دفاتر الإنكشارية المحفوظة في مصلحة المخطوطات بالمكتبة الوطنية الجزائرية المصدر الأساس في هذا البحث ؛ و هي في الحقيقة عبارة عن دفاتر العلوفات الّتي كان يتقاضاها كلّ منتسبٍ لأوجاق الإنكشارية في أوقات معلومة كلّ شهرين هجريين. و هذه الدفاتر، الّتي يبلغ عددها أربعة و ثلاثين دفترًا بالضبط، تمّ ترقيمها في بداية الفترة الاستعمارية عدّة مرّات بشكل فوضوي، لم تراع فيها أيّة اعتبارات ؛ و لأجل ذلك، ضربنا صفحًا عن ذكر تلك الترقيمات، و لم نعرها أيّ اعتبار. و كان الّذي احتفظنا به عندما عكفنا على تصنيف الدفاتر الّتي فقدت رقمها أو تجميع أجزاء الدفاتر الأخرى الّتي كانت خِلط مِلط بعد إعادة ترتيب أوراقها المبعثرة، هو الترقيم المضبوط بحسب فهرسة فانيان (Fagnan) - المتدرّج من 1960 إلى 1986، بالإضافة إلى وجود سبعة أرقام مكرّرة -، و الّذي اعتمد من قبل مصلحة المخطوطات ؛ و لو أنّ هذا الترقيم - مثل سابقيه - لم يراع قطّ ترتيبها حسب التسلسل الزمني، كما تأكّد لنا بعد الاطّلاع عليها.

و نتبيّن أمر بقاء الدفاتر المذكورة مهملة لكونها كتبت بلغة عثمانية تخلّلتها في بعض الأحيان ألفاظ أو عبارات عربية مشوبة بالدارجة، فضلاً على أنّها كانت مقيّدة بالسياقت - خط سلجوقي الأصل استخدم في الدوائر المالية العثمانية - المندغم و عديم التنقيط، إلى جانب خط الرقاع الّذي كتبت به ببنط صغير جدًّا العبارات الهامشية ؛ و ممّا زاد من صعوبة قراءتها، ركاكة الخطّ الّتي ميّزت بعض ماسكي تلك الدفاتر من كبار الخوجات (الدفتردار و المقاطعجي).

و علاوةً على ذلك، يمكننا أن نضيف إلى الأمور الّتي عقّدت دراسة الدفاتر نوعًا ما أنّ أغلبها كبير الحجم نسبيًا، حيث من 52 سنتيمتر طولاً و 25 سنتيمتر عرضًا بالنسبة لأبعاد أقدمها يزداد حجمها تدريجيًا حتّى يصل إلى ما يقارب 56 سنتيمتر و 42 سنتيمتر على التوالي بالنسبة لأواخرها كما يبيّنه الجدول الوارد أدناه ؛ ناهيك أنّ عددًا منها ناقصة فقدت تجليدها و بعضًا من أوراقها، أو تالفة كونها تأثّرت بعوامل الرطوبة و الجفاف، الحشرات (الأرضة، السوسة) و الفطريات.

رقم الدفتر	التاريخ (هجري/ميلادي)	الأبعاد (سم)	التجليد	الحالة العامّة	ملاحظات أخرى
1960	1105-1100هـ/1694-1689م	25 x 52	تجليد متضرّر	متوسّطة	كامل
1961	1121-1114هـ/1709-1702م	34 x 52	تجليد مفقود	جيّدة	شبه كامل
1962	1126-1121هـ/1714-1709م	34 x 51,2	تجليد مفقود	متوسّطة	كامل
1963	1134-1126هـ/1722-1714م	39,1 x 47,7	تجليد مفقود	رديئة	مبتور - تالف
1964	1148-1140هـ/1735-1727م	36 x 52,5	تجليد مفقود	رديئة	مبتور
1965	1156-1148هـ/1743-1735م	36 x 54	تجليد مفقود	متوسّطة	مبتور
1966	1164-1156هـ/1751-1743م	37 x 55,2	تجليد متضرّر جدًا	متوسّطة	مبتور
1967	1171-1164هـ/1758-1751م	37,7 x 55	فقد نصف غلافه	رديئة جدًا	كامل (؟) - تالف
1968	1140-1138هـ/1728-1725م	36,4 x 51,4	تجليد مفقود	رديئة	مبتور
1969	1183-1177هـ/1769-1764م	36 x 55,2	فقد نصف غلافه	متوسّطة	مبتور
1970	1189-1183هـ/1775-1770م	41 x 54	فقد نصف غلافه	متوسّطة	مبتور
1971	1195-1189هـ/1781-1775م	38 x 55	تجليد متضرّر جدًا	جيّدة	كامل
1972	1203-1195هـ/1789-1781م	39 x 54,5	تجليد مفقود	رديئة جزئيًا	شبه كامل
1973	1214-1210هـ/1799-1795م	39 x 56	تجليد مصون	جيّدة	كامل
1974	1178-1171هـ/1765-1758م	37,2 x 54,2	تجليد مصون	متوسّطة/رديئة	شبه كامل - تالف

1975	1235-1226هـ/1820-1811م	41 x 58	تجليد مفقود	جيّدة	كامل
1976	1241-1235هـ/1826-1820م	41 x 57	تجليد مصون	ممتازة	كامل
1977	1246-1241هـ/1830-1826م	40,8 x 57,5	تجليد مفقود	جيّدة	كامل
1978	1121-1114هـ/1709-1702م	34,8 x 51,3	تجليد مفقود	جيّدة	شبه كامل
1978 مكرّر	1226-1214هـ/1811-1799م	58,1 x 40,2	تجليد مفقود	جيّدة نسبيًا	كامل
1979	1126-1121هـ/1714-1709م	32,7 x 52	تجليد مفقود	تلف جزئي	مبتور
1979 مكرّر	1246-1240هـ/1830-1825م	42 x 55,7	تجليد مصون	جيّدة جدًا	كامل
1980	1152-1147هـ/1739-1735م	37 x 55	تجليد مفقود	رديئة	مبتور
1981	1158-1152هـ/1745-1739م	37,3 x 55,5	تجليد مصون	جيّدة	كامل
1982	1162-1158هـ/1749-1745م	38,3 x 55	تجليد مفقود	جيّدة	شبه كامل
1982 مكرّر	1169-1162هـ/1756-1749م	38,2 x 55	تجليد مفقود	متوسّطة نسبيًا	مبتور
1983	1177-1169هـ/1764-1756م	—	تجليد مفقود	رديئة جدًا	مبتور - تالف
1983 مكرّر	1184-1178هـ/1770-1765م	38 x 55	تجليد متضرّر	جيّدة نسبيًا	شبه كامل
1984	1191-1184هـ/1777-1770م	37,8 x 55,5	تجليد مفقود	متوسّطة	مبتور
1984 مكرّر	1200-1191هـ/1786-1777م	38,3 x 54,8	تجليد مفقود	متوسّطة	كامل
1985	1206-1200هـ/1792-1786م	40 x 58,3	تجليد متضرّر	جيّدة	كامل
1985 مكرّر	1217-1206هـ/1802-1792م	39,5 x 55,7	تجليد مصون	جيّدة	كامل
1986	1234-1225هـ/1819-1810م	41,3 x 55,1	تجليد مصون	جيّدة جدًا	كامل
1986 مكرّر	1240-1234هـ/1825-1819م	41 x 55	تجليد مصون	جيّدة جدًا	كامل

لقد أمكنتنا دراسة دفاتر الجرايات بتعمّق و بشكلٍ متأنٍ، أكملها تفحّصٌ للكمّ المعتبر من الوثائق الأرشيفية العثمانية مثل مجموعة المراسلات، و الدفاتر العثمانية ذات الصلة بالموضوع كسجلاّت البايلك، - الّتي وجدناها محفوظة و استطعنا الاطّلاع عليها بقسم المخطوطات في المكتبة الوطنية الجزائرية أو في أرشيف ما وراء البحار (A.O.M.) باكس اون بروڤانس (Aix-en-Provence) - من رسم صورة أكثر من تقريبية عن الجانب العسكري للجزائر خلال الفترة العثمانية.

و بطبيعة الحال، لم نقتصر في دراستنا على الدفاتر و الوثائق العثمانية كمصادر أساسية، بل عدنا أيضًا إلى مختلف المصادر المخطوطة و المطبوعة و كذا الوثائق المنشورة، كما اعتمدنا أيضًا على

الدراسات الحديثة المتوّفرة حول موضوع بحثنا من رسائل جامعية و كتب و مقالات سواء المتخصّصة منها أو العامّة[1].

حاولنا في خضم بحثنا أن نتوصّل إلى الهدفين الأساسين الّتي قامت عليهما الرسالة : أوّلهما إبراز الدور الرئيسي الذي لعبته المؤسسة العسكرية المتمثّلة في أوجاق الإنكشارية في تاريخ الجزائر العثمانية، و ثانيهما، استجلاء صورة أكثر واقعية عن التنظيم موضوع الدراسة سياسيًا و عسكريًا مع الجوانب الفاعلة الأخرى ؛ و ذلك بشكلٍ يمكّننا من تسليط الضوء على أسباب نجاح الحملة الفرنسية على الجزائر و تهاوي الوجود العثماني عام 1830م.

و عكفنا خلال دراستنا للموضوع أن ننقد الحقائق التاريخية، و اتّبعنا في ذلك منهج التحليل النقدي القائم على مقابلة النصوص و الوثائق و تحليلها توطئة لاستنباط الحقائق الّتي يمكن أن نوظّفها في البحث ؛ كما استعننا أيضًا بالمنهج المقارن كلّما توفّرت لنا شروط تطبيقه، حيث يسّر لنا على سبيل المثال استيعاب الاستراتيجيات الحربية المتّبعة و تحديد درجات النصر و الهزيمة، و كذا تبيّن أدوار الضعف و القوّة، و الأهمّ من ذلك تقييم الشخصيات التاريخية من حكّام و قادة و غيرهم. علاوةً على ذلك، استخدمنا لاستطلاع بعض جوانب الموضوع أو إثرائها أداة الإحصاء لنتوصّل إلى تعداد جزئي أو شامل يكون منوطًا بمؤشّرات معيّنة كعدد حالات الفرار أو الوفيات أو القوّة العددية لقوّات الإنكشارية.

لم نبتغ من هذه الدراسة معرفة الأحداث التاريخيّة فقط، بل كانت المعلومات الّتي جمعناها، وسيلة أردنا منها فهم الدوافع، الّتي تمخّضت عنها تلك الأحداث، و النّتائج الّتي أسفرت عنها ؛ و قمنا بذلك مستعينين بعددٍ كبير من المصادر العربية و الأجنبية و الدراسات الحديثة، الّتي تعرّضت من قريب أو بعيد لموضوع الدراسة. و على هذا النحو، ارتأينا تقسيم موضوع الأطروحة إلى بابين رئيسيين، تسبقهما دراسة تمهيدية (مدخل)، علاوةً على المقدّمة و الخاتمة.

كان من رأينا في المدخل أن نلقي نظرة سريعة على التشكيلات العسكرية العثمانية الأولى الّتي سبقت الفرقة الجديدة "يكّي چري" – و الّتي عرفت فيما بعد بالإنكشارية -، و كان لها بلا ريب دورٌ و أثرٌ في تأسيسها ؛ كما عالجنا ظروف نشأة أوجاق الإنكشارية في الثلث الأخير من القرن الرابع عشر ميلادي، و من ثمّ تطوّره حتّى حدود القرن السادس عشر، حيث شرحنا دون اسهاب أهمّ العوامل التي أثرت في صيرورته على الشكل و التنظيم الّذي سيكون عليه حينما سيرسل السلطان سليم الأوّل قسمًا من أفراده في 1520م إلى إيالة الجزائر الناشئة.

---

1. انظر في هذا الصدد النبذة عن الببليوغرافيا المعتمدة في هذه الدراسة، الّتي أثبتناها في قسم الببليوغرافيا.

في الباب الأوّل، قمنا بتخصيص الفصل الأوّل - الّذي يمكن اعتباره بمثابة فصل تمهيدي، كونه خارج الإطار الزمني للبحث - منه لدراسة نشأة أوجاق الإنكشارية و تطوّره في إيالة الجزائر خلال الفترات السابقة لعهد الدايات ؛ و تجدر الإشارة في هذا الخصوص أنّنا خالفنا التقسيم الشائع الاستخدام (بايلربايات - "باشوات" - آغوات - دايات) الّذي وضعه دلماس دي غرامون (Delmas de Grammont) و عمّمه، على اعتبار أنّه بناه معتمدًا على وثائق فرنسية بشكلٍ يكاد يكون حصريًا، و أغفل في ذلك الوثائق العثمانية بشكلٍ معني. و على هذا الأساس، بعد توطئة تطرّقنا فيها لأوضاع المغرب الأوسط بين التبعية الإسبانية و بداية النفوذ التركي العثماني، قمنا بالتعرّض إلى أهمّ الأحداث العسكرية الّتي عرفتها الجزائر في عهد خير الدين باشا و خلفائه خلال الفترة (1519-1556م)، و هي الفترة الّتي وسمناها بفترة التأسيس حيث انتهت بثلاثة أحداث في غاية الأهمّية هي فتح بجاية، ضمّ إمارة تلمسان و المحاولة الأولى لفتح وهران ؛ و أتبعناها بفترة تثبيت الأوجاق الّتي امتدّت قرابة القرن (1556-1659م)، و عرفت عدّة أدوار تدرّجت فيها قوّة الحكّام العثمانيين - الّذين عرفوا تارةً بالبايلربايات و طورًا بالباشوات - من الأوج إلى الانحطاط، و قد تناولنا في هذا الصدد بشيء من التحليل موضوع عوامل انحطاط نظامهم بالموازاة مع تنفّذ أوجاق الإنكشارية ؛ و أخيرًا، درسنا بشيءٍ من الاسهاب فترة الآغوات (1659-1671م)، و ذلك نظرًا لأهمّيتها كتوطئة لفترة حكم الدايات.

أمّا الفصل الثاني، فقد تناولنا فيه التطوّر السياسي و العسكري الّذي عرفه الأوجاق خلال الأدوار الأولى من عهد الدايات (1671-1791م)، الّذي عرف - و لو بشكلٍ متقطّع - تعزّز السلطة الدايلكية شيئًا فشيئًا على حساب ديوان الإنكشارية ؛ و قد قسّمناه بشكلٍ مستجّد على غرار الفصل الأوّل إلى ثلاثة مباحث شمل أوّلها فترة ازدواجية الحكم (1671-1711م) بين دايٍ حاكم و باشا ممثّل عن السلطان ليس له من الحكم شيء سوى قدرته على حبك المؤامرات لإضعاف غريمه، و من ثمّ تلته فترة الانفراد بالحكم الّتي رأت جمع الحاكم لسلطتي الداي الفعلية و إمرة الأمراء أو الباشوية الشرفية ؛ و هذه الفترة الّتي عرفت أوج عهد الدايات (1711-1791م)، و نظرًا لامتدادها الزمني، فقد قمنا بتقسيمها، آخذين بعين الاعتبار في ذلك عاملي القوة و الاستقرار، إلى فترتين ثانويتين هما : فترة تثبيت السلطة الدايلكية (1711-1748م)، و فترة استقرار الحكم (1748-1791م)، اللّتان خصّصنا لهما المبحثين الثاني و الثالث على التوالي.

و أفردنا الفصل الثالث بأواخر العهد المذكور (1791-1817م)، لأجل الأهمّية الّتي تكتسيها تلك الفترة بالنسبة لموضوع البحث عن أسباب ضعف الأوجاق، و كذا حصر بعض العوامل المتسبّبة في انهيار النظام العثماني ؛ و قد جعلناه في مبحثين، خصصنا بهما مجمل الفترة الّتي امتدّت على عقدين و نصف، حيث قسّمناهما إلى فترتين ثانويتين : فترة التزعزع (1791-1805م)، أعقبتها فترة تأزّم الأوضاع (1805-1817م).

و تناول الفصل الرابع نهاية عهد الدايات (1817-1830م)، حيث قسّمناه إلى فترة ما قبل سقوط الجزائر، خلال السنوات الأخيرة من الحكم العثماني، فيما يتعلّق بالمبحث الأوّل ؛ أمّا بالنسبة للثاني، فارتأينا أن نسلّط ضوءًا جديدًا على مجريات الأيّام الأخيرة الّتي عاشها أوجاق الجزائر، مع محاولة استجلاء الأسباب المباشرة لسقوطه.

أمّا الباب الثاني من الأطروحة، فتضمّن ثلاثة فصول، أفردنا أوّلهما، أي الفصل الخامس، لدراسة تكوين أوجاق الإنكشارية من خلال التطرّق لمسائل التجنيد و التكوين الحربي، و كذا سلّم التراتب العسكري الّذي عرّفنا فيه أهمّ الرتب الّتي كان يترقّى فيها الجندي الإنكشاري.

و تناولنا فيما يخصّ الفصل السادس جوانب من تنظيمه من خلال إعطاء نبذة عن مختلف هيئات أوجاق الإنكشارية و أقسام الجيش الجزائري الّتي كان يؤطّرها ضبّاطه، و قمنا كذلك بالخوض بشيءٍ من التفصيل في الخدمات النظامية، من المحلّة و النوبة إلى نشاط القرصنة و الدونانمة، مرورًا بشتّى المهام الشرطية و الأمنية الّتي كان يتولاّها أفراده.

أمّا في الفصل السابع، فقد قمنا بتسليط الضوء على جانب غير معروف من بنية أوجاق الإنكشارية، حيث تطرّقنا إلى جماعاته الفرعية، سواء التابعة له مثل الشوّاش و الأهجية (الطبّاخين) أو تلك الملحقة به مثل الطوبجية و الباروتجية و غيرها.

و في النهاية، ختمنا بحثنا بجملة من الاستنتاجات الّتي شملت فصوله السبعة، و قادتنا إلى الإجابة عن الإشكالية الّتي طرحناها في البداية، مع التأكيد على أهمّية توسيع آفاق البحث في هذا الموضوع الواسع مستقبلاً ؛ إذ أنّه يجب أن ننوّه أنّه مهما اجتهد الباحث، فإنّه من الصعب عليه الاطّلاع عن كلّ ما كتب حول الموضوع المقترح للدراسة خلال تلك الفترة الطويلة، و البحث فيه ؛ فالبحث الأكاديمي هو عمل دؤوب، و كتابٌ دومًا مفتوح، بحاجة إلى اثراء متواصل، إمّا من صاحبه أو من غيره.

أمّا بالنسبة للصعوبات الّتي واجهتنا، فهي - دون أن نكرّر ما ذكرناه بشأن نوع الخطّ - تتمثّل أساسًا في صعوبة قراءة و فهم مدلول بعض الاختصارات الواردة على شكل رموز في دفاتر علوفات الإنكشارية، و كذا معرفة معاني عددٍ من المصطلحات الّتي دوّنها الخوجات الأتراك بلا أدنى شكّ بشكلٍ مغلوط أو محرّف، كوننا لم نجدها في أيٍّ من قواميس اللغة العثمانية الّتي عدنا إليها ؛ فقد فوّت علينا الوقت الكبير الّذي استغرقنا لفهم معنى معظمها إمكانية أن نولي اهتمامنا لجوانب عديدة أخرى من البحث، الّتي نتأسّف لعدم التعمّق أو الخوض فيها. و من جهة أخرى، شكّلت الحالة السيئة لعدد غير قليل من الدفاتر عائقًا جدّيًا لدراستها ؛ و كانت حالة أحدها من السوء بسبب التصاق أوراقه جرّاء الرطوبة و العفن، حتّى أنّنا لم نتمكّن من تصفّحه و إلقاء نظرة في محتواه، ما خلا البعض من أوراقه الخارجية.

و لا يفوتنا في الأخير أن نتوجّه بجزيل الشكر و الامتنان إلى الأستاذ المشرف الموقّر **شكيب بن حفري**، الّذي لن ننسى فضله و لا فضل أستاذتينا الكريمتين **عائشة غطّاس** و **زكية زهرة** رحمهما الله و طيّب ثراهما، لأجل العون و التوجيهات و النصائح السديدة الّتي أسدوها، و الأخطاء و الهفوات العديدة الّتي صوّبوها، و كذا تحمّلهم معنا مشقّة البحث حتّى أناروا لنا دروبه ؛ و لأجل ما ذكرناه و الكثير ممّا لم نذكره، فإنّنا لن ننسى فضلهم ما كتبت لنا حياة.

و في هذا المقام، لا يسعنا إلاّ أن نحمد الله أوّلاً و آخرًا على توفيقه لإتمام هذا العمل المضني، و الّذي نتمنّى أن نكون قد وفّقنا فيه للمساهمة و لو بقسط يسير في التأريخ دون كثيرٍ من الأغلاط لفئةٍ سادت في هذه البلاد ثمّ بادت، علّنا نتعلّم من أخطائهم و نقتدي بمآثرهم، و ما توفيقنا إلاّ بالله.

المدخل :

نشأة أوجاق الإنكشارية و تطوّره (ق. 14–16م)

1. التشكيلات العسكرية العثمانية الأولى

2. تأسيس أوجاق الإنكشارية

3. تطوّر أوجاق الإنكشارية (ق. 15–16م)

المـدخـل :
نشأة أوجاق الإنكشارية و تطوّره (ق. 14–16م)

كانت الدولة العثمانية عند بداية نشأتها إمارة حدودية في القطاع الشمالي الغربي للأناضول، متاخمة للثغور البيزنطية ؛ و لقد أوجب هذا الوضع على مؤسّسها عثمان بك[1] أن يتّخذ الحذر الدائم، و أن يكون على أهبة الاستعداد للقتال و الغزو عند اللزوم. و كان الجيش العثماني في عهده عبارة عن حشد من القوّات غير النظامية، أغلبهم من الآقينجي[2]، و هم فرسان من القبائل التركمانية المنضوية تحت الراية العثمانية أو المتطوّعة من الإمارات الأناضولية الأخرى، إلى جانب فرق البيادة[3]، و هي قوّات صغيرة من المشاة يجنّدون من القرويين و أفراد جماعات الآخيان[4] وقت الحاجة إليهم في الحروب و الغزوات.

---

1. عثمان بك : هو عثمان بن أرطغرل بك (656-726هـ/1258-1326م)، تولّى الإمارة بعد وفاة والده سنة (688هـ/1289م). و انحصرت اهتماماته في توطيد أسس دولته و التوسّع على حساب البيزنطيين، حيث فتح العديد من القلاع و المدن أهمّها يكّي شهر و بورصة، و استحقّ بذلك لقب الغازي. و في سنة (699هـ/1299م)، استقلّ بإمارته بعد تضعضع دولة السلاجقة في عهد السلطان علاء الدين كيقباذ الثالث (698-702هـ/1298-1302م) ؛ و يعتبر عثمان بك لذلك بحقّ مؤسّس السلالة العثمانية. انظر: محمّد فريد بك المحامي، **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، تحقيق إحسان حقّي، ط. 1، دار النفائس، بيروت، 1981، ص. 118.

و يجدر التنويه إلى أنّ لقب "بك"، أي أمير، الّذي حمله عثمان غازي راجع إلى كونه برتبة اوج بكي، و معناها "محافظ الثغور"، في ظلّ السلطنة السلجوقية المتهالكة. انظر في هذا الصدد : عبد العزيز محمّد الشناوي، **الدولة العثمانية، دولة إسلامية مفترى عليها**، ج. 1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2004، ص ص. 44 و 47-48.

2. الآقينجي : كلمة تركية معناها "غازي، مغير"، و هي فرقة من الفرسان غير النظاميين لم يكونوا يتلقون أجورًا و يعتمدون في إقامة أودهم على السلب و الغنائم. انظر : أحمد عبد الرحيم مصطفى، **في أصول التاريخ العثماني**، ط. 2، دار الشروق، القاهرة، 1993، ص. 45.

و تجب الإشارة إلى أنّ فصائل الفرسان التركمان المتجمّعة على أساس قبلي كانت تدعى "يوروك". انظر في هذا الصدد :

- D. Nicolle & A. McBride, **Armies of the Ottoman Turks, 1300-1774**, Osprey. London, 1996, p. 8.

3. البيادة : كلمة پياده فارسية الأصل معناها "جندي مشاة، راجل"، و تقابلها في اللغة التركية "يايا" بالمعنى نفسه. انظر : فارس أفندي الخوري، **كنز لغات**، مطبعة المعارف، بيروت، 1876، ص ص. 102 و 357.

4. الآخيان : كلمة في صيغة الجمع الفارسي (مفردها آخي)، و كانت تعني جماعات الفتوّة، الّتي نشطت في مدن الأناضول في مرحلة تفكّك الدولة السلجوقية ؛ و قد اضطلعت بدور ضدّ الظلم الاجتماعي و السياسي يشبه إلى حدّ ما دور "الأحداث" في الشام، كما كان لها دور جهادي في مواجهة الغزاة. انظر : محمد فؤاد كوپريلي، **قيام الدولة العثمانية**، دار الكتاب العربي للطباعة و النشر، القاهرة، 1967، ص ص. 155-162 ؛ حسن الضيقة، **الدولة العثمانية : الثقافة، المجتمع و السلطة**، دار المنتخب العربي، بيروت، 1997، ص ص. 16-18.

انظر أيضا : الشناوي، نفس المرجع السابق، ج. 1. ص ص. 63-65.

غير أنّه، على قدر أهمّية وجود أولئك المحاربين الأشدّاء، لم يكن هناك نظام معيّن يقيّدهم، حيث كانوا يستطيعون العودة إلى مواطنهم متى شاؤوا ؛ و قد كانت القوّة العسكرية الدائمة للإمارة هي أفراد عشيرة عثمان[1] و حرسه الخاصّ.

أوّلاً : التشكيلات العسكرية العثمانية الأولى

تجلّت قدرات أورخان غازي[2] الحربية في عهد أبيه و بعد أن تولّى الحكم، حيث قام بمدّ الفتوحات العثمانية و زيادة رقعة الإمارة ؛ إلاّ أنّ المذكور أدرك خلال حروبه حاجته الملحّة إلى قوّات منضبطة من الخيالة و المشاة، يستطيع بواسطتها أن يفتح القلاع و يقتحم الأسوار المنيعة الّتي اشتهر بها البيزنطيون بشكل خاصّ[3].

لذلك، أمر أورخان بك بعقد ديوان للمشورة حضره أخوه الأكبر، الوزير علاء الدين، و أصحاب الرتب العليا في الدولة لبحث إنشاء تشكيلات عسكرية جديدة كانت أولاها :

---

1. عشيرة تركمانية تنتمي إلى قبيلة قايي، كانت مضاربها بمنطقة سكود (Söğüt) الواقعة قرب إسكي شهر (Eskişehir) (دوريلايوم Dorylaeum قديما)، على الحدود مع الدولة البيزنطية ؛ و كانت هذه العشيرة موالية لسلاطين السلاجقة في قونية الخاضعين بدورهم للمغول الإيلخانيين بفارس : كوپريلي، المرجع السابق، ص. 126 ؛ أحمد فؤاد متوليّ و هويدا محمّد فهمي، **تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتّى نهاية العصر الذهبي**، إيتراك للطباعة و النشر و التوزيع، القاهرة، 2002، ص. 35.

للمزيد من التفاصيل حول أصول آل عثمان، انظر : سيّد محمّد السيّد محمود، **تاريخ الدولة العثمانية، وفق المصادر العثمانية المعاصرة و الدراسات التركية الحديثة**، مكتبة الآداب، القاهرة، 2007، ص ص. 78-81.

2. أورخان بك : هو أورخان بن عثمان بك (680-763هـ/1281-1362م)، تولّى السلطة في حياة أبيه عثمان سنة (724هـ/1324م)، و كان ذا عقلية إدارية تنظيمية. بمساعدة أخيه علاء الدين، تمكّن من فتح العديد من المدن البيزنطية كان أوّلها بورصة، و من ثمّ إزنيق (نيقيا) و إزميت (نيكوميديا). خلال الفترة (736-747هـ/1336-1346م)، ضمّ أورخان إلى أملاكه إمارة قره سي بعد وقوع نزاع بين أمرائها على العرش. و في (755هـ/1354م)، استنجد به مغتصب العرش البيزنطي يوحنا الرابع كانتاكوزين ضدّ الصرب، فعبرت القوّات العثمانية بقيادة ابنه سليمان إلى الضفة الأوروبية و استولت إثر ذلك على قلعة غاليبولي، فكانت مقدّمة الفتوحات في إقليم الروملي. أسّست في عهده أوّل دار لسكّ النقود ببورصة (727هـ/1327م)، و حلّت النقود العثمانية تدريجيا محلّ النقود السلجوقية و البيزنطية ؛ كما قام أورخان بتأسيس مساجد و تكايا و مدارس كثيرة. مات و دفن إلى جانب أبيه في بورصة. انظر : روبير مانتران، **تاريخ الدولة العثمانية**، ترجمة بشير السباعي، ج. 1. دار الفكر للدراسات و النشر و التوزيع، القاهرة، 1993، ص ص. 24-32 ؛ كوپريلي، نفس المرجع السابق، ص. 181.

3. على سبيل المثال، امتدّ حصار بورصة قرابة تسع سنوات، من (717هـ/1317م) إلى (726هـ/1326م)، حاول الأتراك العثمانيون خلالها إحكام الطوق على المدينة عبر بناء قلعتين بجوارها ؛ و كانت الخيالة تنطلق منهما للإغارة على القرى و قطع الاتصالات. انظر : عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص. 37.

و لم يفتح العثمانيين بورصة، إلاّ عقب استيلائهم على ميناء مودانيا (Mudanya) على بحر مرمرة، آخر نقطة إمداد بيزنطي ؛ كما استغرقهم حصار إزميت (نيكوميديا) ستّة سنوات بعد أن قطعوا اتصالها مع القسطنطينية، و استولوا على القلاع المحيطة بها. انظر : متوليّ و فهمي، نفس المرجع السابق، ص ص. 37 و 39.

● **اليايا** : كانت فرق مشاة اليايا، أولى القوّات الّتي جرى تنظيمها، في حدود سنة (729هـ/1329م)[1]، حيث كلّف چاندرلي قره خليل[2] بتجنيد هذه الفرق من بين عشائر التركمان القارّة[3]، و كذا أفراد الآخيان و مسيحيي غرب الأناضول الّذين اعتنقوا الإسلام[4] ؛ و لتشجيعهم على الانضمام إلى تلك القوّات، قدّمت لهم أراضٍ زراعية (چفتلك) في المناطق المفتوحة بشكل فردي أو جماعي، كما تمّ إعفاؤهم من الضرائب، حيث كانوا يدفعون العشور و الزكاة فقط[5].

و في الواقع، كانت مشاة اليايا قوّاتا شبه نظامية، فلم تكن تصرف لهم علوفة دائمة : لقد كانت يوميتهم وقت الحرب آقجة واحدة[6] ؛ و بانتهائها تقطع، فيعودون للعمل في مزارعهم[7].

بدأ چاندرلي بفيلق واحد ضمّ ألف جندي من اليايا، عيّن على رأسهم باش ياي باشي برتبة بيكْباشي "قائد الألف"، كما عيّن على المئة نفر من الجنود قائد هو اليايا باشي برتبة يوزباشي "قائد المائة"، و على كلّ جماعة من عشرة أنفار قائد برتبة اوكْباشي "قائد العشرة"[8].

---

1. ذكر نقفوروس غريغوراس (Nikêphoros Gregoras)، أحد المؤرخين البيزنطيين المعاصرين، في تاريخه بأنّ اليايا قد ظهروا عام (729 هـ/1329 م) في غزوة ملتبه (Maltepe) و بلقانون (Pelekanon) : سونيا محمّد سعيد البنا، **فرقة الإنكشارية : نشأتها و دورها في الدولة العثمانية من خلال المصادر التركية**، إيتراك للطباعة و النشر و التوزيع، القاهرة، 2006، ص. 52.

2. چاندرلي قره خليل : أحد كبار رجال الدولة العثمانية، تولّى القضاء في عهد أورخان غازي في إزنيق (Iznik). و بعدما تولّى مراد الأوّل الحكم، عيّن چاندرلي قاضيا للعسكر، و بحكم وظيفته رافق السلطان في الحروب ؛ و من ثمّ، ارتقى إلى منصب الوزارة. توفي إثر مرضه في المعسكر في شهر (ذو الحجّة 789هـ/ديسمبر 1387م) و دفن في إزنيق : نفسه، ص. 13.

3. هاملتون جب و هارولد بوون، **المجتمع الإسلامي و الغرب**، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى، مراجعة أحمد عزت عبد الكريم، ج. 1، دار المعارف، القاهرة، 1971، ص. 78. انظر أيضا : متوليّ و فهمي، المرجع السابق، ص. 44.

4. D. Nicolle & C. Hook, **The Janissaries**, Osprey, London, 1995, p. 5.

انظر أيضا : محمّد سهيل طقّوش، **العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة**، دار بيروت المحروسة، بيروت، 1995، ص. 24.

5. تجدر الإشارة إلى أنّ كلّ واحدة من تلك الجماعات من "الجنود الفلاحين" نظّمت وفق نظام عامّ مشابه جدّا لتشكيلات الستراتيوتس (stratiotes) البيزنطية : خليل اينالجيك و دونالد كواترت، **التاريخ الاقتصادي و الاجتماعي للدولة العثمانية**، ترجمة د. عبد اللطيف حارس، مج. 1، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2007، ص. 160. للمزيد من التفاصيل حول تنظيم الستراتيوتس، انظر :

- I. Heath & A. McBride, **Byzantine armies 1118-1461 AD,** Osprey, London, 1995, pp. 12-13.

6. الآقجة : اللفظة العثمانية آقچه تخصّ عملة فضية صغيرة كانت تعتبر الوحدة النقدية الأساسية في الدولة العثمانية ؛ و كان الأوروبيون يعبّرون عنها باللفظة الفرنسية القديمة (aspre "أسپر"). انظر : خليل اينالجيك، **تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار**، ترجمة محمّد م. الأرناؤوط، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2002، ص. 303.

7. Conte de Marsigli, **L'Etat militaire de l'Empire Ottoman, ses progrès et sa décadence**, T. 1, La Haye & Amsterdam, 1732, pp. 85 & 95.

- السيّد محمود، المرجع السابق، ص. 97.

8. هذا النظام المتبّع في تقسيم الجنود داخل فرق الجيش يعود إلى الفترة العباسية، حيث كان يعيّن على كلّ عشرة جنود "عريف"، و على كلّ مئة جندي " نقيب"، و على كلّ ألف جندي "قائد"، و على كلّ عشرة آلاف جندي "أمير" : فاتن محمّد البنداري الشيخ، **الجيش في مصر في العصرين الطولوني و الإخشيدي**، دار العالم العربي، القاهرة، 2010، ص. 109.

و قد وصل عدد فيالق اليايا إلى أربعة عشر فيلقًا من المشاة، أي حوالي أربعة عشر ألف جندي، في عهد السلطان مراد الأوّل (761-791هـ/1359-1389م)[1] ؛ في حين تشير بعض التقديرات إلى أنّ عدد مشاة اليايا المشاركين في معركة قوصوه (كوسوفا) عام (791هـ/1389م) بلغ نحو العشرين ألف جندي[2].

بالإضافة إلى المهام العسكرية المتمثّلة في المشاركة بالمعارك و حراسة المواقع الهامّة مثل الطرقات و الجسور، كانت توكل إلى فرق اليايا مهام أخرى كالحفاظ على الأمن و القيام بالخدمات اللوجستية (السوقيات) مثل نقل المؤن و الجرحى و إيصال الأخبار ؛ كما كانوا يكلّفون في بعض الأحيان بحراسة القلاع و الأبراج و السجون[3].

• **المسلّمين** : بالموازاة مع قوّات المشاة السالفة الذكر، كوّن القاضي چاندرلي قره خليل، بأمر من الوزير علاء الدين، قوّاتا شبه نظامية من الفرسان التركمان[4]. و لقد تمّت تسميتهم المسَلّمين - مفرده مسلَّم، أي "ممنوح" - كونهم يقطعون أرضًا زراعية في وقت السلم لا يدفعون عنها إلاّ ضرائب يسيرة[5] ؛ في حين كانت تدفع لهم وقت الحرب آقجتين اثنتين يوميًا[6].

أنشأ چاندرلي، على غرار تنظيم اليايا، فيلقا من ألف فارس عيّن لقيادته بيكْباشي، و قسّمه إلى عشرة بلوكات (بلوك بالعثمانية تعني "كتيبة") من مئة خيّال، يقود كلّ واحد منها بلوك باشي، كما عيّن على كلّ جماعة من عشرة فرسان قائد برتبة اوكْباشي[7].

و لمّا كثر عدد قوّات المسلّمين، تمّ تقسيمهم إلى أوجاقات (وحدات) يشتمل الواحد منها على 25 أو 30 فردًا، و كانوا عادةً من عشيرة واحدة يزرعون أراضي متجاورة، بحيث كان يخرج منهم في كلّ مرّة للحرب خمسة أفراد بالتناوب، بينما يساهم غير المشاركين بمبلغ معيّن من المال في مصاريفهم[8]. و يبدو أن المسلّمين شكّلوا نواة السباهية، و هم الجنود الإقطاعيون من الفرسان، إذ أنّ فريقًا منهم قد اندمج بعد ذلك في قطاع التيمار[9].

---

1. A. C. Barbier de Meynard, **Dictionnaire turc-français**, 2ème vol., Ernest Leroux, Éditeur. Paris, 1886, p. 874.

2. البنا، المرجع السابق، ص. 53.

3. نفسه.

4. متوليّ و فهمي، المرجع السابق، ص. 36.

5. اينالجيك و كواترت، المرجع السابق، مج. 1، ص. 160.

6. متوليّ و فهمي، نفس المرجع السابق، ص. 43.

7. السيّد محمود، المرجع السابق، ص.97. انظر أيضا : - Nicolle & McBride, Op. cit., p. 9.

8. اينالجيك و كواترت، نفسه ؛ السيّد محمود، نفسه.

9. البنا، نفس المرجع السابق، ص. 12 ؛ طقّوش، المرجع السابق، ص. 36.

و على الرغم من أن تنظيم كلّ من اليايا و المسلّمين كان بسيطًا، و عدد أفرادهما كان محدودًا في البدء، إلاّ أنّه ازداد مع اتّساع رقعة الدولة، بحيث ساهم التشكيلان بدور كبير في عمليّات ضمّ إمارة قره سي - الّتي كانت واقعة غرب الإمارة العثمانية -، و من ثمّ في التوسّعات الأولى على البرّ الأوروبي.

• **السباهية**[1] : دعما لوتيرة التوسّعات العثمانية في البلقان و آسيا الصغرى، شهد عهد مراد الأوّل[2] نشوء تشكيل جديد لفرق الخيالة قائم على النظام الإقطاعي. ذلك أنّه بعد وفاة القائد العثماني لالا شاهين، أوّل بكلربك للروميلي[3]، في سنة (777هـ/1376م)، عيّن السلطان مكانه القائد قره تيمورطاش الّذي نُسب إليه تنظيم فرق "سباهية الإقطاع"[4] ؛ و لقد دعي أولئك الفرسان بالإقطاعيين لأنّهم كانوا يمنحون إقطاعات من أراضي الدولة أو من البلاد المفتوحة يتعهّدها سكّانها المحلّيون سواء أكانوا مسلمين أو مسيحيين.

كان السباهي يتصرّف بإيرادات إقطاعه من عشور و رسوم بشرط الإقامة به في وقت السلم، و تأمين عدد من الفرسان المجهّزين تحت قيادته يتناسب مع مقدار إيراداته في أوقات الحرب، أو يقوم بدفع مبالغ تكفي للإنفاق على قوّات بديلة[5]. و كان الإقطاع يسحب من السباهي الّذي يهمل تربية و تدريب

---

1. السباهية : كلمة سپاهي تركية ذات أصل فارسي، و معناها فارس ؛ و يقابلها في اللهجة الجزائرية لفظة "صبايحية".

2. مراد الأوّل : هو مراد بن أورخان غازي (726-791هـ/1326-1389م)، تولّى السلطة في سنة (763هـ/1362م)، و مضى في سياسة الفتح و التوسّع في البلقان و آسيا الصغرى في آن واحد. استولى على أدرنة، و اتّخذها عاصمة له سنة (770هـ/1368م). و أتاح انتصار ماريتزا (Maritza) سنة (765هـ/1364م) ضدّ الصرب و البلغار لقوّاته استكمال فتح إقليمي تراقيا و مقدونيا و التوسّع في جنوبي بلغاريا و شرقي صربيا. و تكوّن حلف بلقاني جديد عام (789هـ/1387م) لصدّ الأتراك العثمانيين، أفضى إلى معركة قوصوة الأولى، حيث انهزم المسيحيون شرّ هزيمة لكن السلطان استشهد خلالها بعد أن غدر به نبيل صربي (791هـ/1389م). تكمن أهمّية مراد الأوّل في أنّه تمكّن من مدّ حدود الدولة العثمانية إلى ضفة نهر الدانوب و جهات البوسنة في عمق أوروبا الشرقية كما اكتسب أقاليم عدّة في الأناضول، بحيث توسّعت رقعة الدولة في عهده خمس مرّات عمّا كانت عليه ؛ و الجدير بالذكر أنّ مراد الأوّل هو أوّل حاكم عثماني حمل ألقابا سلطانية، من بينها السلطان العادل و خداوندگار، و يعني "عاهل". انظر : يلماز أوزتونا، **تاريخ الدولة العثمانية**، ترجمة عنان محمود سلمان، مراجعة و تحقيق محمود الأنصاري، مج. 1، منشورات مؤسّسة فيصل للتمويل، استانبول، 1988، ص ص. 98-102. انظر أيضا : مانتران، المرجع السابق، ج. 1، ص ص. 49-60.

3. بكلربك : كلمة تركية معناها أمير الأمراء، و تنطق "بايلرباي". و كان شاغل هذا المنصب مسؤولاً على الإشراف و مراقبة بكوات السناجق، أي الممثّلين المحلّيين للسلطة العثمانية، الّذين كانوا يديرون الألوية (السناجق) و المدن بالاشتراك مع القضاة.

تجدر الإشارة إلى أنّ منصب بكلربك الروميلي أنشأه السلطان مراد الأوّل على الأرجح في عام (763هـ/1362م) ؛ بينما أنشأ السلطان بايزيد الأوّل منصب بكلربك الأناضول في عام (795هـ/1393م). انظر : مانتران، نفس المرجع السابق، ص. 60.

4. تقتضي الدقّة في الصياغة اللفظية أن تقرن كلمة الإقطاعيين بلفظة سباهية تمييزًا لهم عن إحدى فرق فرسان القپو قولي، الّتي أطلق عليها أيضا اسم السباهية. انظر : الشناوي، المرجع السابق، ج. 1، ص. 115.

5. المحامي، المرجع السابق، ص. 132 ؛ السيّد محمود، المرجع السابق، ص ص. 430-431. انظر أيضا :

- Nicolle & McBride, Op. cit., pp. 10-11 ; Mevlüt Bozdemir, **Türk Ordusunun Tarihsel kaynaklari**, Ankara Üniversitesi Siyasal Bilgiler Fakültesi Publication, Ankara, 1982, pp. 51-52.

الخيول أو الّذي لا يخرج للحملات العسكرية دون عذر وجيه، في حين كانت تمنح علاوات أو أرض إضافية للّذي يقوم بالمهام الموكلة إليه أحسن قيام[1].

و كانت الإقطاعات الحربية تنقسم وفق أهمّيتها إلى ثلاثة أصناف :

- التيمار[2] : هو إقطاع صغير يقلّ إيراده السنوي عن عشرين ألف آقجة.

- الزعامت[3] : هو إقطاع متوسّط يتراوح إيراده السنوي بين عشرين ألف و مائة ألف آقجة.

و كان السلطان يمنح أحد هذين الإقطاعين مكافأة للفارس الّذي يظهر كفاءة قتالية في الحرب، على أن يقدّم صاحب التيمار (تيمارجي) أو الزعامت (زعيم) خيالاً واحدًا كامل التسليح عن كلّ ثلاثة آلاف آقجة.

- الخاص : هو إقطاع كبير يزيد إيراده السنوي عن مئة ألف آقجة. و لقد كان يمنح لخاصّة السلطان أي شاغلي المناصب الكبرى في الدولة، على أن يقدّم صاحب الخاصّ خيالاً واحدًا عن كلّ خمسة آلاف آقجة[4].

كانت هذه الإقطاعات لا يرثها إلاّ الذكور من الأعقاب ؛ و إذا انقرضت ذرية الذكور يعود الإقطاع إلى الدولة، الّتي تقطعه إلى فارس آخر[5].

و كان سباهية الإقطاع في كلّ سنجق (لواء)ينقسمون إلى عدّة بلوكات ؛ و كان لكلّ بلوك قائد يدعى صوباشي، يعِينه في مهامه ضابطين : بايرقدار أو بيراقدار (حامل الراية) و چاوش (رقيب). و كانت كلّ عشرة بلوكات تحت إمرة أمير آلاي[6]. و قد حقّق تنظيم سباهية الإقطاع للعثمانيين عدّة أهداف في

---

1. السيّد محمود، المرجع السابق، ص. 430 ؛ الشناوي، المرجع السابق، ج. 1، ص ص. 117-118.

2. تيمار : كلمة تركية تعني "إقطاع" اقتبسها العثمانيون من كلمة فارسية معناها "النظارة، الوصاية على شيء" :

- Barbier de Meynard, Op. cit., 1er vol., pp. 508-509.

3. زعامت : كلمة تركية اشتقّت من الكلمة العربية زعامة، و معناها "قيادة"، "إقطاع تحت قيادة زعيم" : - Id., 2ème vol., pp. 39-40.

4. طقّوش، المرجع السابق، ص. 36 ؛ الشناوي، نفس المرجع السابق، ص ص. 116-118.

انظر أيضًا : مرادجه دوسون، **نظام الحكم و الإدارة في الدولة العثمانية في عهد مرادجه دوسون**، ترجمة و تقديم فيصل شيخ الأرض، رسالة أستاذية في العلوم، الجامعة الأمريكية، بيروت، 1942، ص ص. 167-168.

- H. Grenville, **Observations sur l'état actuel de l'Empire ottoman**, The University of Michigan Press, Ann Arbor, 1965, pp. 25-26.

5. المحامي، المرجع السابق، ص. 132.

6. السيّد محمود، نفس المرجع السابق، ص. 431.

الوقت نفسه، إذ وفّر قوّة خيّالة معتبرة بلغ تعدادها عشرات الآلاف، و ربطت أولئك الفرسان رابطة ولاء قويّة بالسلطان، كما حفّزت المكافآت الجند غير النظامي للاستبسال في القتال[1].

● **العزب** : هم فرقة شبه نظامية من جنود المشاة أنشئت خلال الربع الثالث من القرن الرابع عشر، و كانوا يختارون من الشباب التركماني الأعزب، ممّن كانت لهم كفاءات قتالية مميّزة، حيث يؤخذ جندي عزب واحد من بين عشرين أو ثلاثين موقدًا (أوجاق) طبقًا لاحتياجات الجيش. و كانت مصاريف هؤلاء تلقى على عاتق المناطق الّتي جمعوا منها، و كانوا يتلقون راتبًا خلال فترة الحرب فقط[2].

كانت فرقة العزب من طلائع القوّات العثمانية و تتّخذ موقعها في ميدان القتال إزاء قلب الجيش، حيث كانت تتلّقى الصدمة الأولى عند الالتحام، و خلفها كانت تتّخذ المدفعية مواقعها. و عند بداية المعركة، كان جند العزب يفرجون صفوفهم يمينًا و يسارًا، كي يتيحوا لفرق المدفعية فتح نيرانها على العدو[3].

و لقد استحدثت في القرن الخامس عشر فرق نظامية من العزب : قلعه عزب، الّتي رابطت في القلاع الواقعة في المناطق الحدودية ؛ و دكّز عزب، الّتي خدمت كقوّات بحرية في الموانئ أو على متن سفن الدولة[4]. و قد بلغ عدد بلوكات العزب خلال القرن السادس عشر حوالي 92 بلوك، بحيث ضمّ كلّ واحد حوالي 70-80 فرد[5].

ثانيًا : تأسيس أوجاق الإنكشارية

مع مطلع ستّينات القرن الرابع عشر الميلادي، نشطت حركة الفتوحات العثمانية في إقليم تراقيا، ممّا أدّى إلى تدفّق عدد كبير من أسرى الحرب. و كان للدولة الخمس من إجمالي الأسرى، الّذين كان أغلبهم يتمّ اختياره من فئة الغلمان، أي الّذين تراوح عمرهم بين ثمان إلى ثمانية عشر عامًا (پانچيک أوغلانلرى)[6].

---

1. كان من الممكن بالنسبة للجند غير النظامي من الغزاة (آقينجي) أو المتطوّعين (كوكّللى) على التخوم أن يمنحوا إقطاعًا بترخيص خاصّ من السلطان، إذا حقّقوا أعمالاً شجاعة مميّزة :

- Stephen Turnbull, **The Ottoman Empire, 1326-1699**, Osprey Publishing, London, 2004, pp. 17-19.

2. السيّد محمود، المرجع السابق، ص. 431 ؛ اينالجيك و كواترت، المرجع السابق، مج. 1، ص ص. 162-163.

3. صالح أحمد هريدي علي، "**الأوجاقات العثمانية في مدينة الإسكندرية، من خلال محكمة الإسكندرية الشرعية خلال القرن الثامن عشر**"، في م.ت.ع.د.ع.، 35، 2007، ص. 424.

4. Nicolle & Hook, Op. cit., pp. 44-46.

5. السيّد محمود، نفس المرجع السابق، ص. 432.

6. پانچيک أوغلانلرى : معناها بالعثمانية "غلمان الخمس" ؛ و قد فرضت ضريبة الپانچيک في بداية عهد مراد الأوّل، حيث كان يستخلص في غاليبولي خمس أسرى الحرب أو ما يعادل خمس قيمة مائة و عشرين آقجة للأسير الواحد. انظر :

-Barbier de Meynard, Op. cit., 1er vol., pp. 47 & 411.

و كان قاضي العسكر چاندرلي قره خليل أوّل من اقترح توظيف خمس أسرى الحرب بصفة خدم أو حرس في القصور السلطانية في عام 763هـ/1362م[1] ؛ و بعد أن عرض قره خليل على مراد الأوّل هذه الفكرة و لاقت القبول، كلّف قره مانلي مولا قره رستم بأن يجمع الأسرى من غلمان الپانچيک، و يضمّ إليهم الأيتام و التائهين الّذين فقدوا آباءهم خلال الحرب، في معسكر أنشئ خصيصًا في غاليبولي[2].

في بادئ الأمر، كان يتّم اختيار الغلمان المؤهّلين للخدمة[3]، على أساس حسن المحيّا و بنية الجسم السليمة و النسب المعلوم ؛ و بعد ختانهم، تقيّد أسماؤهم و أوصافهم بالدفاتر و يلقنون مبادئ الدين الإسلامي، بالموازاة مع تلقيهم تدريبات صارمة ؛ و من ثمّ، يقسّمون إلى فئتين : يصطفى أفراد الفئة الأولى، و هم الايچ أوغلان[4]، من ذوي الصفات المميّزة من الناحية العقلية و الجسمية، ليصبحوا خدمًا للسلطان، و يبعثون إلى القصر السلطاني ببورصة حيث يتلقون تعليمًا مكثّفًا و يخضعون لنظام متشدّد[5].

و لقد كان يجري تقسيم أسرى الحرب من قبل الأتراك العثمانيين إلى مجموعات حسب شريحتهم العمرية :

- جماعة شيرخور : لفظة مركّبة معناها حرفيا "شارب الحليب"، و هم أطفالٌ رضع إلى عمر ثلاث سنوات.
- جماعة پچه : هم أطفالٌ صغار تتراوح أعمارهم بين ثلاث سنوات إلى سبع سنوات.
- جماعة غلامچه : هم أولادٌ من سن الثامنة إلى الثانية عشر، أي على وشك البلوغ.
- جماعة غلامان : هم غلمانٌ تتراوح أعمارهم بين الثالثة عشر و الثامنة عشر، أي الّذين خطّ لهم شارب.
- جماعة صقاللو : لفظة معناها حرفيا "صاحب اللحية"، و هم الرجال الّذين نضجوا و ظهرت لهم لحية.
- جماعة پير : هم جماعة الشيوخ أو المسنّين.

انظر في هذا الصدد : ايلبير أورتايلي؛ **إعادة استكشاف العثمانيين**، ترجمة بسام شيحا، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، 2012، ص. 31 ؛ البنا، المرجع السابق، ص. 18.

1. البنا، نفس المرجع السابق، ص ص. 16-17 ؛ السيّد محمود، المرجع السابق، ص. 424 ؛ أحمد آق كندز و سعيد أوزتورك، **الدولة العثمانية المجهولة**، وقف البحوث العثمانية، اسطنبول، 2008، ص ص. 71-72. انظر أيضًا :

- Demetrius Cantimir, **L'Empire othoman**(sic)**, où se voyent les causes de son agrandissement et de sa décadence**, Trad. de M. de la Jonquieres, T. 1, Despilly, Paris, 1743, p. 34.

2. طقّوش، المرجع السابق، ص ص. 25-26 ؛ البنا، نفس المرجع السابق، ص ص. 17-18.

انظر أيضا : زياد أبو غنيمة، **جوانب مضيئة من تاريخ العثمانيين الأتراك**، دار الفرقان للنشر و التوزيع، عمّان، 1983، ص. 129.

3. تجدر الإشارة إلى أنّ الغلمان الّذين لا يقع عليهم الاختيار أو لا يقبلون البتّة اعتناق الإسلام، يظلّ وضعهم كأسرى مجرّدين من الحرية و قد يباعون بصفتهم عبيدًا لأشخاص مختلفين. انظر : البنا، نفس المرجع السابق، ص. 19. و هذا ما يدحض بشكل كبير الطرح الشائع عند الغربيين بأنّ هذا النظام شكّل وسيلة للتحوّل القسري إلى الإسلام بالنسبة لغلمان الپانچيک. انظر في هذا الصدد : عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص. 43.

4. ايچ أوغلان : معناها "غلمان الداخل"، و كانوا الغلمان المكلّفين بالخدمة الداخلية في البلاط العثماني :

- Nicolle & Hook, Op. cit., pp. 12-13.

5. عبد الرحيم مصطفى، نفس المرجع السابق، ص ص. 122-123.

و بعد انقضاء حوالي أربع سنوات، يخضعون لعملية انتقائية أخرى : فكان يخصّص أحسنهم للخدمة في القصر بينما كان يلحق الباقون بفرقة خيالة جديدة، هي فرسان القپو قولى[3].

أمّا الفئة الثانية، و الّذين عرفوا بالعجمي أوغلان[4]، فكانوا يرسلون للعمل في مزارع معيّنة بقرى الأناضول، من أجل تعلّم اللغة التركية (العثمانية) و الشعائر الإسلامية خلال احتكاكهم بالأتراك العثمانيين في ظرف يتراوح من ثلاث إلى أربع سنوات[5]، ثمّ يستكمل تدريبهم العسكري في معسكر أوجاق العجم بغاليبولي[6]. و بعد انقضاء سنتين أو ثلاث سنوات، كان العجمي أوغلان يخضعون لعملية انتقائية أخيرة، حيث كان يخصّص أحاسنهم للخدمة حرسًا سلطانيًا بالقصر في أوجاق البوستانجية[7]، جماعة السكبان[8]، البالطه جية[1] أو جماعات مماثلة غيرها ؛ في حين كان الأدنون كفاءة منهم يعيّنون للعمل في صناعة السفن في ترسانة غاليبولي أو يقومون بأعمال أخرى مثل بناء الجسور، رصف الطرق السلطانية، إلخ.

ليس واضحًا بالضبط تاريخ ظهور أولى جماعات الإنكشارية في الجيش العثماني[2]، و المرجّح أنّه تأخرّ بسبب سقوط مدينة غاليبولي الاستراتيجية في 15 ذو الحجّة 767هـ/23 أغسطس 1366م، بيد

---

1. القپو قولى : (الجمع قپو قوللرى) لفظ مركّبة من قپو أو قاپي بمعنى "باب" و قول بمعنى "عبد، خادم" ؛ و هو يشمل كلّ الأفراد في وضع العبودية ممّن يقومون بالخدمة في الأبواب السلطانية ؛ و قد استعمل هذا المصطلح بوجه خاصّ للإشارة إلى العسكر الملازم للسلطان حيثما كان في وقت السلم و الحرب، و الّذين كانوا يتقاضون أجورًا تمييزًا لهم عن أفراد الأوجاقات الإقطاعية : جب و بوون، المرجع السابق، ج. 1، ص. 64. انظر أيضًا : عبد الرحيم مصطفى، نفس المرجع السابق، ص. 123.

- Nicolle & Hook, Ibid., p. 13.

2. عجمي أوغلان : معناها "غلمان العجم"، و هم الغلمان من أبناء النصارى المنتسبين لأوجاق العجم، الّذين يدرّبون ليصبحوا عسكرًا أو عمّالاً في وحدات ملحقة بالجيش العثماني : عبد الرحيم مصطفى، نفس المرجع السابق، ص ص. 122-123.

3. البنا، المرجع السابق، ص ص. 18-19 ؛ محمود شوكت، **التشكيلات و الأزياء العسكرية العثمانية منذ بداية تشكيل الجيش العثماني حتّى سنة 1825م**، ترجمه عن التركية يوسف نعيسة و محمود عامر، طلاسدار، دمشق، 1988، ص ص. 44-45.

- Id.

4. السيّد محمود، المرجع السابق، ص. 424.

5. البوستانجية : أوجاق من عسكر القپو قوللرى، كان مكلّفًا بحراسة و صيانة حدائق القصور السلطانية. انظر : البنا، نفس المرجع السابق، ص. 20، ه. 1.

6. السكبان : جماعة من عسكر القپو قوللرى، كانت مكلّفة بتربية كلاب الصيد و مرافقة السلطان خلال رحلات الصيد الصيفية ؛ و الجدير بالذكر أنّ هذه الجماعة ضمّت إلى أوجاق الإنكشارية في سنة 854هـ/1451م. انظر : نفسه، ص ص. 53-55.

7. البالطه جية : جماعة قپو قوللرى كانت مسلّحة بطبرزين "بلطة"، و كلّفت أساسًا بحراسة جناح الحريم السلطاني. انظر :

- Barbier de Meynard, Op. cit., 1er vol., pp. 277-278.

8. متوليّ و فهمي، المرجع السابق، ص. 56 ؛ البنا، نفس المرجع السابق، ص. 16 ؛ جب و بوون، نفس المرجع السابق، ص ص. 105-106.

الدوق أميديه دي ساڤوى (Amédée de Savoie)، الّذي أعادها ثانيةً للبيزنطيين[1]. و بالنسبة للأتراك عثمانيين، كان فقدان غاليبولي حدثًا رئيسيًا ؛ فالسلطان مراد الأوّل، الّذي توسّعت قوّاته الغازية بشكلٍ جزئي في إقليم تراقيا، كان حتّى ذلك الحين لا يمتلك قوّة بحرية فاعلة، ممّا أعاق إرسال الإمدادات العسكرية إلى الجانب الأوروبي، كما عرقل على الأرجح نظام تطويع و تدريب العجمي أوغلان.

رغم ذلك، نقل الأتراك العثمانيون إلى ديمتوقه[2] مركز عمليّاتهم العسكرية[3]، و انطلاقًا منها واصلوا تقدّمهم في الروميلي، إذ استولى قره تيمورطاش على قزل آغاچ[4] و برغوس[5] سنة 768هـ/1367م في شرق تراقيا[6] ؛ و تمكّن السلطان مراد الأوّل بنفسه من فتح قرين أباد[7]، و سوزه بولي[8] و مدنًا أخرى في الشمال سنة 769هـ/1368م[9]، ممّا أتاح له عزل عاصمة الإقليم عن مملكة البلغار. و بعد أن تمّ الاستيلاء

تذكر ايرينا بيتروسيان في هذا الصدد : "**من البديهي أنّه بسبب عدم وجود مؤلّفات عثمانية تاريخية مكتوبة في عهد الحكّام الأوائل، و أن المؤلّفات التاريخية الأولى - الّتي ألّفت بطلب الحكّام العثمانيين المتأخرين نسبيًا - كانت كلّها معتمدة على الروايات الشعبية الشفهية، ليس في استطاعتنا رسم صورة دقيقة للأحداث المرتبطة بظهور الجيش الإنكشاري ؛ فما قام به مدوّنو التاريخ العثمانيون الأوائل من الاعتماد على المصادر المكتوبة و الروايات الشفهية في آنٍ واحد، أدّى إلى ظهور اختلاطات كثيرة في الأحداث الّتي حالت دون معرفة الترتيب الصحيح للوقائع التاريخية...**" : إيرينا بيتروسيان، **الإنكشاريون في الإمبراطورية العثمانية**، مركز جمعة الماجد للثقافة و التراث، دبي، 2006، ص. 20.

انظر أيضًا :

- Mesut Uyar & Edward J. Erickson, **A military history of the Ottomans**, ABC-CLIO, Santa Barbara, 2009, p. 18.

1. مانتران، المرجع السابق. ج. 1، ص. 51 ؛ محمود محمّد الحويري، **تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى**، المكتب المصري لنشر المطبوعات، القاهرة، 2002، ص ص. 52-54 ؛ السيّد محمود، المرجع السابق، ص. 101.

- Colin Imber, **The Ottoman Empire, 1300-1650 : The Structure of Power**, Palgrave Macmillan, New York, 2002, p. 11.

2. ديمَتوقه أو دوموتيكا (باليونانية ديديموتيخوس Didymotichos) : مدينة من إقليم تراقيا، تبعد حوالي 40 كلم جنوب أدرنه و تقع اليوم في دولة اليونان : س. موستراس، **المعجم الجغرافي للأمبراطورية العثمانية**، ترجمة عصام محمّد الشحادات، دار ابن حزم، بيروت، 2002، ص. 273.

3. متوليّ و فهمي، المرجع السابق، ص. 55، ه. 2.

4. قزل آغاج : بلدة في إقليم تراقيا، تبعد حوالي 110 كلم شرق أدرنه : موستراس، نفس المرجع السابق، ص. 497.

5. برغوس (قديما أپولينا Apollina) : مدينة مطلّة على البحر الأسود، في شمال شرق تراقيا، و تقع حاليًا في بلغاريا : نفسه، ص. 155.

6. متوليّ و فهمي، نفس المرجع السابق، ص. 55.

7. قرين أباد : مدينة في أقصى شمال تراقيا، هي اليوم كرنوبات (Karnobat) البلغارية : موستراس، نفس المرجع السابق، ص. 397.

8. سوزه بولي (سوزوپول Sozopol) : بلدة مطلّة على البحر الأسود، في شمال شرق تراقيا، و تقع حاليا في بلغاريا : نفسه، ص. 308.

9. متوليّ و فهمي، نفسه. انظر أيضًا :

- Yavuz Bahadıroğlu. **Resimli Osmanlı Tarihi**. Nesil Yayinları, Istanbul, 2009, p. 43.

كان العثمانيون، قد قطعوا إمكانية وصول إمدادات لأدرنه من جانب مملكة الصرب، باحتلالهم لمدينتي گوملجنه (كوموتيني Komotini) و فلبه (فليپوپوليس Philippopolis، حاليًا پلوڤديف Plovdiv) في سنة 764هـ/1363م. انظر : السيّد محمود، نفس المرجع السابق، ص. 100.

على قلاع ويزه[1]، و پيكار حصاري[2] و قرق كليسه[3]، سيطر العثمانيون على آخر الطرق الرابطة بين مدينتي القسطنطينية و أدرنه[4]، و ضيّقوا الخناق على هذه الأخيرة بحيث لم تلبث أن فتحت و اتّخذت عاصمة للدولة العثمانية في ذات السنة[5].

كان اتّخاذ مراد الأوّل لأدرنه مقرّا لحكمه و قاعدة عسكرية لقوّاته إيذانًا بخططه في مدّ فتوحاته في البلقان من جهة و بدء تطويق القسطنطينية من جهة أخرى[6]. و بُعيد إتمام بناء السرايا و ملحقاتها، شرع في إرسال أغلب الايچ أوغلان الجدد إلى أدرنه ؛ بينما وضع العجمي أوغلان تحت عهدة أڤرينوس أو أورانوس بك[7]، أحد كبار القادة العثمانيين في الروميلي[8]، و جرى تدريبهم على الأرجح في أحد معسكرات الجيش العثماني بديمتوقه، بعد فترة التأقلم وسط الأتراك.

في خريف سنة 778هـ/1376م، استردّ السلطان مراد الأوّل مدينة غاليبولي من الإمبراطور البيزنطي أندرونيكوس الرابع باليولوغس (Andronikos IV Palaiologos)، لقاء مساعدته في صراعه من أجل العرش ضدّ أبيه و أخيه[9]. إثر ذلك، أمر مراد بترميم و تعزيز تحصينات و منشآت المدينة العسكرية، و من

---

1. ويزه (قديمًا بيزيا Bizya) : بلدة صغيرة في إقليم تراقيا، تبعد حوالي 100 كلم شرق أدرنه : موستراس، المرجع السابق، ص. 489.

2. پيكار حصاري : بلدة في إقليم تراقيا، عند السفح الجنوبي لجبل إسترانجه (Istranca)، تبعد حوالي 80 كلم شرق أدرنه. انظر : نفسه، ص. 209.

3. قرق كليسه (حاليًا قرقلرلي Kirklareli) : مدينة في إقليم تراقيا، عند السفح الغربي لجبل إسترانجه (Istranca) المعروف أيضا بجبل يلديز (Yeldiz)، و تبعد حوالي 55 كلم شرق أدرنه. انظر : نفسه، ص. 389.

4. Bahadıroğlu, Op. cit., p. 43.

قبل توليه الحكم، كان الأمير مراد قد استولى سنة 762هـ/1361م على قلاع چورلي (Çorlu)، لوله برغوسي (Lüleburgaz) و بابا إسكي (Babaeski)، قاطعًا الطريق الرئيسي الرابط بين القسطنطينية و أدرنه : مانتران، المرجع السابق، ج. 1، ص. 50.

5. الحقيقة أنّه تعدّدت الروايات حول التاريخ القطعي لفتح أدرنه، حيث تراوحت التواريخ الّتي اقترحها الباحثون بين عامي 1361 و 1371م. و كان من المسلّم به منذ زمن بعيد أنّ مراد قد استولى على المدينة في عام 762هـ/1361م، أي بشكل متناقض قبل اعتلائه سدّة الحكم ؛ و المؤكّد أنّ البيزنطيين كانوا ما يزالون يسيطرون عليها في عام 767هـ/1366م : مانتران، نفس المرجع السابق، ص. 52.

إلاّ أنّنا اطمأننا إلى الرواية الّتي تشير إلى أنّها فتحت في عام 770هـ/8-1369م، و هو العام الّذي اتّخذها السلطان مقرّا لحكمه. انظر :

- Imber, Op. cit., p. 11.

انظر أيضا : السيّد محمود، المرجع السابق، ص. 100، ه. 87 ؛ مانتران، نفس المرجع السابق، ص. 111، ه. 2.

6. طقّوش، المرجع السابق، ص. 40.

7. أڤرينوس أو أورانوس بك (Evrenos Bey) : قائد بيزنطي من إمارة قره سي، دخل بعد أن أسلم في خدمة سليمان باشا، شقيق السلطان مراد ؛ و ارتقى إلى منصب اوج بكي "قائد الثغور"، حيث فتح العديد من مدن إقليمي تراقيا و مقدونيا : مانتران، المرجع السابق. ج. 1، ص ص. 52 و 55 ؛ متوليّ و فهمي، المرجع السابق، ص. 63. انظر أيضًا :

- Godfrey Goodwin, **The Janissaries**, Saqi Books, London, 1994, pp. 27 & 236.

8. البنا، المرجع السابق، ص ص. 14 و 18-19.

9. مانتران، نفس المرجع السابق. ص. 54. - Imber, Ibid.

بينها معسكر العجمي أوغلان، الّذي حوّل إلى مجموعة ثكنات. و ابتداءً من سنة 779هـ/1377م، تزايد أفراد أوجاق العجم سريعًا، بحيث بلغ عددهم في الثكنات بعد بضع سنين أربع مائة أو خمس مائة فرد[1]، و تمّ تقسيمهم إلى ثمان بلوكات[2]. أوانئذ، اقترح قره مانلي مولا قرة رستم إنشاء فرق مشاة من العساكر السلطانية يختارون من أوجاق العجم[3]، بعد أن يكون أفراده قد خضعوا لفترة تكوين عسكري تقارب سبع سنوات[4]. و هذا التأريخ يتوافق مع أوّل إشارة تاريخية لفرقة الإنكشارية في سنة 787هـ/ 1385م[5]، و مع واقع مشاركتهم في آخر معركة استشهد فيها مراد الأوّل في سهل قوصوه (كوسوڤو) في سنة 791هـ/1389م[6].

لاقى مقترح المولا قره رستم موافقة السلطان، الّذي أصدر أوامر بإنشاء الفرقة الجديدة من عساكر القپو قولى، مع بناء ثكنات لها في أدرنة[7]. أطلق على هذه الفرقة اسم سرپياده‌گان أو پياده‌گان، أي "المشاة"[8]، كما عرفت أيضًا باسم مرادف، اليايا[9]. أمّا فيما يخصّ تسمية الإنكشارية[10]، فيعود أصلها حسب الرأي السائد إلى الكلمة العثمانية المركّبة من يكْي "جديد" و چرى "فرقة".

---

1. البنا، المرجع السابق، ص. 27.

2. السيّد محمود، المرجع السابق، ص. 424.

3. البنا، نفس المرجع السابق، ص. 17.

4. نفسه، ص. 18. - Nicolle & Hook, Op. cit., p. 13.

5. مانتران، المرجع السابق، ج. 1، ص. 60. انظر أيضًا :

- Nicolas Vatin, "**Les Janissaires, fer de lance de la conquête ottoman**", in Clio, septembre 2002, p. 1.

6. المحامي، المرجع السابق، ص. 135 ؛ البنا، نفس المرجع السابق، ص ص. 16 و 309-310.

7. بيتروسيان، المرجع السابق، ص. 20.

8. آق كندز و أوزتورك، المرجع السابق، ص ص. 78-79. انظر أيضًا :

- Rhoads Murphy, **Ottoman warfare, 1500-1700**, UCL Press, London, 1999, p. 47.

9. البنا، المرجع السابق، ص. 52. و تجدر الإشارة إلى أنّ هذه التسمية الأخيرة أدّت إلى وقوع التباس في الكتابات التاريخية بين هذه الفرقة و سميّتها الّتي أنشأها أورخان قبل نحو خمسين سنة من ذاك التاريخ.

10. بعض المؤرّخين شكّكوا في أصل كلمة الإنكشارية المذكور أعلاه. انظر على سبيل المثال : - Vatin, Op. cit., p. 1.

مهما يكن، اعتمدنا بالمقام الأوّل مقاربة اشتقاقية أتاحت لنا ربطها بالكلمة اليونانية ianitsarai، الّتي عنت فرقة خيالة خفيفة أنشأها الأباطرة البيزنطيون، في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي، اقتداءً بخيالة جماعات المرتزقة القطلونيين ؛ و قد اشتقّت الكلمة المذكورة لفظيًا من القطلونية ginetari (و يقابلها janizzeri في اللاتينية القروسطية)، الّتي يعود أصلها للعربية زناتي، المشتقّة من زناتة، و هو اسم قبيلة بربرية اشتهر فرسانها بمهارتهم في ميادين المعارك. و المرجّح أنّ البيزنطيين خصّوا بالكلمة ianitsarai كذلك فرسان القپو قولى، الّذين كانوا يميّزون عن باق فرق الجيش العثماني لاعتمارهم قلانس بيضاء ؛ فاقتبسها الأتراك العثمانيون بدورهم، بعد أن قرّبوا مدلولها من كلمة تركية مركّبة (يكْيچرى) تعني "فرقة جديدة"، و افترضوا أنّ المقصود بها فرقة المشاة السلطانية ؛ و منها اشتقّت كلمة الإنكشارية. انظر في هذا الصدد :

- Nicolle & Hook, Ibid., p. 7 ; Amine Mahrez, **Glossaire raisonné des mots français d'origine arabe**, Éditions El-Othmania, Alger, 2006, p. 97.

و في الواقع، تمّ تقسيم أولى فرق الإنكشارية إلى مئة و واحد جماعة، بحسب عدد الأورطات[1] أو الأوضات[2] الموجودة في الثكنات ؛ و منه جاءت تسميتها بجماعات المشاة أو اليايا. و يتّضح من الدفاتر العثمانية أنّ عديد الأورطة لم يكن موحّدًا بين مختلف جماعات الإنكشارية.

و كانت كلّ أورطة تحت قيادة ضابط برتبة يايا باشي (رئيس المشاة)، يدعى كذلك چورباجي[3] ؛ كان يعتمر غطاء رأس مميّز مزيّن بالريش، و يتقاضى راتبًا يوميًا قدره أربعة و عشرون آقجة يدفع له كلّ ثلاثة أشهر[4]. و لقد كان أقدم أولئك الضبّاط يدعى الباش ياي باشي (قائد قوّاد المشاة)[5]، و في بعض الأحيان صوباشي[6].

و كان الكتخدا[7] بمثابة القائد الأعلى لجماعات الإنكشارية، و يخضع فقط لأوامر مباشرة من السلطان نفسه ؛ و من جملة اختصاصاته السهر على الانضباط و النظر في الترقيات و الشكاوى و قيادة أركان الأوجاق[8].

---

1. الأورطة : كلمة مأخوذة من العثمانية اورته "مركز، مجمع"، و أطلقت على الوحدة الأساسية في الفرق الإنكشارية : طقّوش، المرجع السابق، ص. 28 ؛ بيتروسيان، المرجع السابق، ص. 43.
- Barbier de Meynard, Op. cit., 1er vol., pp. 149-150.

2. الأوضة : بالعثمانية اوده "مهجع، حجرة، غرفة" ؛ و كان يطلق على ثكنة الإنكشارية أيضًا اوده لر، بصيغة الجمع : الخوري، المرجع السابق، ص. 45 ؛ البنا، المرجع السابق، ص. 130.

3. البنا، نفس المرجع السابق، ص. 53.

چوربه جي : كلمة تركية تعني حرفيًا "مقدّم الشوربة"، كون اليايا باشي - حسب القائلين بهذا الاشتقاق - يتوّلى توزيع الطعام على أفراد الأورطة. انظر :
- Id., p. 606.

بيد أنّنا نشكّك في أن تستوحى رتبة سامية في الإنكشارية من خدمة بعيدة كلّ البعد عن المهام العسكرية المنوطة بها، مهما بلغت أهمّية توزيع الأكل في نظر الجند ؛ بل نعتقد أنّ چورباجي ما هي إلاّ تحريف لكلمة چري باشي "قائد الفرقة" المثْبتة في اللغة العثمانية. و هذا التحريف، الّذي ننسبه لجنود الفرقة أنفسهم، لا ينمّ - حسب رأينا - عن تهكّم مقصود بقدر ما يكشف عن المودّة الّتي كانوا يكنّوها لقائدهم :
شمس الدين سامي، **قاموس تركي**، مج. 1، د.ط.، منشورات صاغري، إسطنبول، 2009، ص ص. 338-339.
- Id., p. 585.

4. بيتروسيان، نفسه.

5. البنا، نفس المرجع السابق، ص ص. 53 و 69.

6. صوباشي : كلمة تركية تعني حرفيا "قائد الماء"، و لو أنّنا نفضّل تقريبها من الكلمة صوپه "عصا غليظة كانت دوريات العسس تستخدمها لتأديب الأشقياء" ؛ فقد أطلق هذا الاسم بالأخصّ على قدامى اليايا باشية الّذين كانت توكل إليهم مهمّة قيادة حامية برج أو قلعة، و الحفاظ على أمن المناطق المحيطة بها. انظر : نفسه.
- Id., 2e vol., pp. 224-225.

- J. D. Kieffer & T. X. Bianchi. **Dictionnaire turc-français**. 2e vol., Imprimerie Royale, Paris, 1837, p. 127.

7. كتخدا : كلمة فارسية معناها "وكيل، قهرمان" ؛ و كان كتخدا الإنكشارية أو القول كتخداسي هو أعلى مسؤول عسكري و إداري للأوجاق، قبل إنشاء منصب الآغا في عهد محمّد الفاتح : سهيل صابان، **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2000، ص. 188.
- Barbier de Meynard, Ibid., pp. 162-163.

انظر أيضًا : بيتروسيان، نفس المرجع السابق، ص. 133 ؛ المحامي، المرجع السابق، ص. 177.

8. البنا، نفس المرجع السابق، ص. 60.

و كلّما وصلت دفعة جديدة من المجنّدين، كان الكتخدا يقوم بجمع أفرادها - بمحضر القدامى من فرقة الإنكشارية -، و يجري بينهم سباقًا ؛ فمن كان يدخل إلى رواق الأوضات أوّلاً يصير المقدّم، أيّ الّذي يفوز بالرتبة الأعلى في صفّه[1].

و كان يعطى لكلّ مجنّد جديد الجوخ الكافي لخياطة زيّه، و قلنسوة بيضاء من اللباد ؛ و يتقاضى راتبًا يوميًا قدره آقجتان يدفع له كلّ ثلاثة أشهر[2]. و إضافة لذلك، كان الانكشاري يحصل على جراية يومية تتمثّل في خبزتين[3]، و تدعى الفودله[4].

و كان يكلّف أحدث نفر أو نفرين في كلّ أوضة خلال فترة محدّدة القيام بتنظيفها و قطع الحطب و الذهاب إلى السوق لشراء المؤونة و إضاءة القناديل في المساء، بالإضافة إلى مسح أحذية و غسل أواني الإنكشاريين الأعلى رتبة، و كانت هذه الفئة من الأغرار تدعى قره قوللقجي (العبيد السود)[5].

لقد كان الحرس الإنكشاري يخضعون لنظام صارم في الثكنات، من حيث السلوك و الانضباط و التدريب ؛ فمن يخالفه كأن يعصي مثلا أوامر أحد ضبّاطه أو الكتخدا يكون عقابه غالبًا الضرب أو الجلد أو السجن، كما كان يحظر عليهم أن يتزوّجوا حتّى سنّ الإحالة على التقاعد، حفاظًا على تفانيهم و روحهم القتالية.

و الجدير بالذكر أنّ الإنكشارية كانت تلازم السلطان عند خروجه في الحملات الحربية، بحيث لا يتخلّف في الثكنات سوى المرضى و حرس السرايا ؛ و في حالة عدم خروج السلطان إلى الحملة، كانت قيادتهم توكل إلى أكبر ضبّاط الأوجاق رتبة، و ذلك لأنّ كتخدا الإنكشارية كان لا يخرج إلاّ بصحبة السلطان نفسه[6].

خلال الحملات الحربية، كانت أورطات الإنكشارية تأوي إلى خيام واسعة مستديرة، تعلّم بألوان و شارة مميّزة لكلّ واحدة منها. إذ أنّ كلّ جماعة تخصّ بشارة توضع على باب أوضتها و على بيرقها[7]

---

1. بيتروسيان، المرجع السابق، ص. 42 ؛ البنا، المرجع السابق، ص. 32.
2. البنا، نفس المرجع السابق، ص. 201.
3. نفسه، ص ص. 181-183.
4. فودله أو فودوله : كلمة تركية مشتّقة من العربية فضلة "بقية"، "رجيع النخالة" ؛ و تطلق على خبز سميك يصنع من دقيق غير منخول حتّى لا يتفتّت، و كان يدعى أيضا ونديك اكمكى "خبز بندقي". انظر : - Barbier de Meynard, Op. cit., 2e vol., p. 432.
5. بيتروسيان، نفسه ؛ البنا، نفس المرجع السابق، ص ص. 32 و 96.
6. السيّد محمود، المرجع السابق، ص. 426.
7. بيرق : راية كبيرة ذات سارية حديدية تغرز في الأرض. انظر : - Id., 1er vol., p. 283.

و على خيامها ؛ و كانت هذه الشارات تتّخذ شكل سيف ذي الفقار، وردة، طوغ[1]، سلّم، أهلّة، مدافع متشابكة، صقر، إلخ[2]. و تجدر الإشارة إلى أنّه جرت لدى الجند الإنكشاري عادة رسم الشارة المميّزة لأورطتهم على أذرعهم و سيقانهم مستخدمين طريقة الوشم[3].

في ميدان القتال، كان الجند الإنكشاري يتموقع في قلب الجيش العثماني عن يمين و يسار السلطان و من حوله، حيث كانت تصطفّ أمامه فرق المدفعية ؛ و أمام المدفعية كانت تأخذ فرق مشاة العزب و اليايا شبه النظامية مواقعها في مقدّمة الجيش[4]. و وفق هذا النسق، كانت الإنكشارية تشكّل عادةً الساقة أو القوّات الاحتياطية للجيش العثماني.

انضباط أفراد الإنكشارية الممتاز و قوّتهم الضاربة، بفضل براعتهم في الرمي بالقوس و الزنبورك[5] - أسلحة بقيت زمنًا طويلاً فعّالة - و اعتمادهم التدريجي للأسلحة النارية (البندقية)، جعلت منهم قوّة مغاوير مرهوبة الجانب في ساحات القتال. فبعدما تخلخل المدفعية صفوف العدو و تضعف الفرق العثمانية الأخرى قواه، كانت الإنكشارية تنقضّ ببسالة و استماتة منقطعة النظير عليه، و غالبًا ما كان ذلك يرجّح كفّة النصر إلى الجانب العثماني.

---

1. طوغ : ذيل حصان كان يعلّق على سارية تعلوها كرة مذهّبة، اتّخذ منذ عهد السلاجقة شعارًا للسلطة. عند العثمانيين، كان الطوغين يرمزان لسلطة البكلربك (بايلرباي)، و الثلاثة أطواغ يرمزان للوزير، و الأربعة تمنح للسردار، قائد الجيش العثماني ؛ بينما كان شعار السلطان يتكوّن من سبعة أطواغ : - Barbier de Meynard, Op. cit., 2e vol., p. 315.

انظر أيضًا :

- Robert Mantran, « **L'évolution des relations entre la Tunisie et l'Empire Ottoman du XVIe au XIXe siècle** ». in : CT, 26-27 (1959), p. 321, n. 4.

2. البنا، المرجع السابق، ص ص. 451-455. انظر أيضًا :

- Goodwin, Op. cit., p. 64 ; Nicolle & Hook, Op. cit., p. 25.

3. طقّوش، المرجع السابق، ص. 28.

4. السيّد محمود، المرجع السابق، ص. 426.

5. زنبورك أو زنبرك : سلاح رمي يشبه القوس كان يستخدم في الفترة الوسيطة و بداية الفترة الحديثة، و يدعى أيضًا قوس بندق. انظر : مرفت عثمان حسن علي، **التحصينات الحربية و أدوات القتال في العصر الأيوبي بمصر و الشام زمن الحروب الصليبية**، دار العالم العربي، القاهرة، 2010، ص ص. 266-267. انظر أيضًا : - Barbier de Meynard, Ibid., p. 45.

ثالثًا : تطوّر أوجاق الإنكشارية (ق. 15–16م)

ابتداءً من عهد بايزيد يلدريم[1]، اعتمد السلاطين العثمانيون بشكلٍ متزايد على قوة الإنكشارية في بسط نفوذهم على الإمارات التركية الأخرى في إقليم الأناضول، مثلما استندوا عليهم لتقوية سلطتهم المركزية إزاء بكوات الثغور، الّذين علا شأنهم في إقليم الروميلي و تدخّلوا مرارًا في تنازع أمراء البيت العثماني حول العرش[2].

بيد أنّه يتضّح أنّ قلّة عدد أفراد الإنكشارية في البداية جعلهم أشبه بالجيش الخاصّ، إذ بلغوا عند معركة قوصوه الأولى، الّتي قتل فيها السلطان مراد الأوّل (791هـ/1389م)، زهاء الألفين فقط[3] ؛ و نخلص من ذلك أنّ الإنكشارية لم يكونوا - كما هو شائع - العنصر الرئيسي لقوّة العثمانيين القتالية خلال فترة الفتوح، الّتي تمّت قبل منتصف القرن الخامس عشر الميلادي[4].

---

1. بايزيد يلدريم : هو بايزيد الأوّل ابن مراد الأوّل بن أورخان بك (748-805هـ/1347-1403م)، رابع السلاطين العثمانيين ؛ أطلق عليه لقب يلدريم "الصاعقة" لسرعة تحرّكه للانقضاض على أعدائه . خلف والده السلطان مراد الأوّل في الحكم عام 791هـ/1389م ؛ و جرى على سياسته في الغزو و التوسّع الإقليمي، إذ ضمّ إلى ممتلكاته أغلب الإمارات التركمانية في الأناضول، بينما استكملت قوّاته بأوروبا فتح تساليا و بلغاريا. أحدث سقوط بلغاريا دويًا هائلاً في أوروبا، فدعا سيجسموند (Sigismund) ملك المجر و البابا بونيفاس التاسع (Bonifatius IX) (792-807هـ/1389-1404م)، إلى حرب صليبية لطرد الأتراك من البلقان ؛ و التقى التحالف الصليبي بجيش بايزيد في معركة نيكوبوليس (Nicopolis) عام 798هـ/1396م، حيث سحق الأوروبيون. سنة من قبل، كان بايزيد قد بدأ بعملية تطويق القسطنطينية، الّتي تحوّلت إلى حصار طويل الأمد، غير أنّه اضطرّ إلى رفعه عندما علم بتقدّم جيش تركي مغولي بقيادة تيمور لنك تجاه آسيا الصغرى. و وقعت في نواحي أنقرة عام 805هـ/1402م المواجهة الحاسمة (انظر أدناه)، الّتي انهزم فيها السلطان العثماني و أسر، و مات في الأسر بعد حوالي سنة : أوزتونا، المرجع السابق، ص ص. 103-110.

2. انظر في هذا الصدد : نفسه، ص ص. 105-106، و ما بعدها.

انظر أيضًا : مانتران، المرجع السابق، ج. 1، ص ص. 62-94 ؛ بيتروسيان، المرجع السابق، ص ص. 75-83، و ما بعدها.

3. بيتروسيان، نفس المرجع السابق، ص. 52. انظر كذلك :

- Halil Inalcik, **Fatih devri üzerinde tetkikler ve vesikalar**, Ankara, 1954, p. 118, n. 9.

نقلاً عن :

- Bodo Hechelhammer, « **Das Korps der Janitscharen. Eine militärische Elite im Spannungsfeld von Gesellschaft, Militär und Obrigkeit im Osmanischen Reich** », in : MGFN, 14 (2010), p. 46.

تذكر بعض المراجع أنّ كلاً من مراد الأوّل و بايزيد الأوّل كانت لديهما قوّة قوامها ألف إنكشاري أو تقلّ عن ذلك ؛ كما لم يوجد في عهد محمّد الفاتح سوى 1200 إنكشاري. انظر في هذا الصدد : عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص. 43 ؛ البنا، المرجع السابق، ص. 109. انظر أيضًا : - Nicolle & Hook, Op. cit., p. 9.

4. بعبارة أخرى، ذلك يفنّد الرأي القائل بأنّ السلاطين العثمانيين فتحوا البلقان بالاستعانة بالإنكشارية. انظر : عبد الرحيم مصطفى، نفس المرجع السابق، ص ص. 44 و 49.

بعد معركة أنقره[1]، تباطأت وتيرة الفتوحات العثمانية في إقليم الروميلي قرابة العقدين من الزمن[2] ؛ و استمرّ نظام الپانچيک مع ذلك مصدرًا رئيسيًا للعجمي أوغلان، و بالتالي لمجنّدي الإنكشارية. و لقد أدّى تعرّض الأتراك العثمانيين ما بين شهري ذو الحجّة 845هـ/أبريل 1442م و رمضان 847هـ/يناير 1444م لسلسة من الهزائم الفادحة[3]، على يد القائد المجري جانوس هونيادي (János Hunyadi)[4]، و الانتصار

1. معركة أنقرة : وقعت هذه المعركة، الّتي تعرف في المصادر العثمانية بمعركة چوبوق اوه، عند مشارف مدينة أنقره ؛ و كانت أكبر حرب ميدانية على وجه البسيطة خلال القرون الوسطى، حيث جمعت بين جيشين جرّارين : 160 ألف مقاتل بالنسبة لجيش تيمورلنك، و 70 ألف مقاتل بالنسبة لجيش بايزيد. بدأ القتال صبيحة يوم الجمعة (27 ذو الحجّة 804هـ/28 يوليو 1402م)، و استمرّ للمغيب. لكن بسبب خيانة الفرسان الأناضوليين و انضمامهم لأمرائهم السابقين المرافقين للجيش التيموري، انكشف قلب الجيش العثماني و مالت الكفّة للمغول. و بعد أن قطع الوزير علي بن قره خليل چاندرلي و وليّ العهد سليمان الأمل في النصر، تركا ساحة القتال مع قرابة 30 ألف مقاتل، من ضمنهم القسم الأكبر من الإنكشارية. أمّا السلطان بايزيد الأوّل، فوجد نفسه مجبرًا على الهرب بعد فوات الأوان و وقع في الأسر.

لقد نكبت هزيمة أنقره الدولة العثمانية الفتية، لكنّها لم تقض عليها : فالقوّات العثمانية لم تسحق (قتل خلال المعركة قرابة 10 آلاف من الجيش العثماني، مقابل 40 ألف من الجيش التيموري)، بل انفصمت عراها ؛ كما أنّ الدولة العثمانية ستعود إلى سابق عهدها بعد مرحلة "الفترة" (فترة تصارع أبناء بايزيد : سليمان، موسى، عيسى و محمّد على عرش السلطنة)، و الّتي دامت أحد عشر عامًا إلى حين انفراد محمّد چلبي بالحكم (816-824هـ/1413-1421م). انظر في هذا الصدد : بيتروسيان، المرجع السابق، ص ص. 65-68 ؛ أوزتونا، المرجع السابق، ص ص. 109-111 ؛ مانتران، المرجع السابق، ج. 1، ص ص. 75-76 ؛ متوّلي، المرجع السابق، ص ص. 82-86 ؛ عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص ص. 57-60 ؛ آق كندز و أوزتورك، المرجع السابق، ص ص. 90-100.

2. أوزتونا، نفس المرجع السابق، ص ص. 117، 122 و ما بعدها ؛ بيتروسيان، نفس المرجع السابق، ص ص. 81-84. انظر أيضًا : نيقولو باربارو، **الفتح الإسلامي للقسطنطينية : يوميات الحصار العثماني، 1453م**، دراسة و ترجمة و تعليق حاتم عبد الرحمن الطحاوي، عين للدراسات و البحوث الانسانية و الاجتماعية، الهرم، 2002، ص. 31.

3. كانت فاتحة الهزائم العثمانية قرب هرمانشتاد (Hermannstadt، حاليًا سيبيو في جمهورية رومانيا) حيث سارع قائد ترانسيلفانيا، هونيادي، لفكّ الحصار عن قلعتها، و قتل في المعركة 20 ألف تركي عثماني، بما فيهم قائد الجيش ؛ إثر ذلك، سيّر السلطان جيشًا آخر قوامه 80 ألفا، هزم كذلك قرب بلدة وازاج الصربية في جمادى الأوّل 846هـ/سبتمبر 1442م، و أسر قائده رفقة 500 جندي. هذين الانتصارين شجعا الممالك الأوروبية على تشكيل حملة صليبية تحرّكت صيف 847هـ/1443م من عاصمة المجر بودين (بودا)، و توّغلت في الأراضي الصربية التابعة للعثمانيين، حيث انهزم جيش عثماني قرب نيش. عندئذ، تولّى السلطان مراد قيادة القوّات العثمانية بنفسه، غير أنّها انهزمت عند مجاز إزلادي، و في كونوفيتسا، ثمّ مرّة ثالثة عند بلدة يالواج البلغارية ؛ فانسحب السلطان إلى أدرنه، و طلب صلحًا من ملك بولندا و المجر لاديسلاس الثالث في 25 صفر 848هـ/12 يونيو 1444م، مدّته عشر سنوات، لقاء التخلّي عن بلاد الأفلاق و جزء من الأراضي الصربية و التعهّد بإيقاف غزوات بكوات الحدود على الأراضي المسيحية (معاهدة سغدين). انظر : متوّلي، نفس المرجع السابق، ص ص. 100-101 ؛ أوزتونا، نفس المرجع السابق، ص. 124 ؛ المحامي، المرجع السابق، ص ص. 156-157.

4. جانوس هونيادي : قائد مجري (789-860هـ/1387-1456م). أعلت كفاءته العسكرية مقامه إلى منصب قائد مقاطعة ترانسيلفانيا (الأردل) في 843هـ/1439م. بعد انتصاره في هرمانشتاد على جيش عثماني غازي في ربيع سنة 845هـ/1442م، كلّفه الملك لاديسلاس بتنظيم "الحملة الطويلة" ضدّ الأتراك العثمانيين (847هـ/43-1444م). قضى سنة 860هـ/1456م متأثّرًا بجراحٍ أصابته أثناء دفاعه عن مدينة بلگراد (Beograd)، عند حصار محمّد الفاتح لها. انظر : المحامي، نفس المرجع السابق، ص. 156، ه. 3 ؛ مانتران، نفس المرجع السابق، ص. 102.

الساحق لمراد الثاني[1] في معركة وارنه (Varna)[2] - الّذي يعود كامل الفضل فيه للإنكشارية -، إلى اقتناع السلطان العثماني و وليّ عهده الطموح محمّد بضرورة تعزيز قوّات الإنكشارية المستنزفة ؛ و من هنا جاءت فكرة اعتماد نظام تكميلي لتجنيد الفتيان المسيحيين من رعايا الدولة، عرف بنظام الدوشرمه[3]، بالموازاة مع نظام الپانچيک الّذي تواصل العمل به[4].

---

1. مراد الثاني : هو مراد بن محمّد شلبي بن بايزيد، اعتلى عرش السلطنة العثمانية مرّتين (824-848هـ/1421-1444م) و (850-855 هـ/1446-1451م). بعد توليه الحكم، عكف مراد على إعادة المناطق الأناضولية الّتي فقدتها الدولة عقب هزيمة جدّه بايزيد أمام تيمورلنك. و في الروميلي، تمكن من فتح مدينة سالونيك (Thessaloníki) في رجب 833هـ/مارس 1430م ؛ و استكمل فتح البلقان عقب انتصاريه في معركة وارنه في 848هـ/1444م و في معركة قوصوه الثانية في 852هـ/ 1448م. انظر : إبراهيم بك حليم، **تاريخ الدولة العثمانية العلية**، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1988، ص ص. 56-62 ؛ مانتران، المرجع السابق. ج. 1، ص ص. 89-110.

2. معركة وارنه : نكث ملك المجر لاديسلاس بمعاهدة سلام سغدين أيّامًا قلائل بعد إبرامها، بإيعاز من مبعوث البابا، الكاردينال سيزاريني، الّذي دعاه إلى قيادة حملة صليبية جديدة لطرد الأتراك من أوروربا. و بينما أغلق أسطول بندقي المضائق لمنع مراد الثاني من العبور إلى إقليم الروميلي، توّغل جيش صليبي جرّار في بلغاريا. غير أنّ مراد استطاع بمساعدة الجنويين الانتقال إلى البرّ الأوروبي و سار على رأس جيش تعداده 40 ألفًا لملاقاة الصليبيين عند مدينة وارنه المطلّة على البحر الأسود. عند بداية المعركة، قتل الصليبيون جميع الأسرى الأتراك لتحطيم معنويات العثمانيين، و أمر هونيادي بهجوم كاسح على جناحي الجيش العثماني اللّذان انكسرا، و ثبت السلطان في القلب محاطًا بقوّات القپو قولي. عند المساء، تراجعت الإنكشارية بانتظام إلى رابية قريبة حيث طاردها حرس لاديسلاس الملكي، و لكنّها تمكنت من صدّ الهجوم العنيف، و قتل في الاشتباك الملك لاديسلاس و المبعوث البابوي، اللّذين علّق رأسيهما على حربتين، بينما علّق على حربة ثالثة نصّ معاهدة سغدين ؛ عندئذ، تضعضعت القوّات المسيحية و ولّت الأدبار منهزمة. و تمّ هذا النصر يوم 28 رجب 848هـ/10 نوفمبر 1444م. انظر : بيتروسيان، المرجع السابق، ص ص. 87-88 ؛ أوزتونا، المرجع السابق، ص ص. 125-127 ؛ المحامي، المرجع السابق، ص ص. 157-158.

3. دوشرمه أو ديوشرمه : كلمة تركية تعني "تجميع، حشد" و "التقاط"، و أطلقت على نظام تجنيد عسكري. انظر :

- Barbier de Meynard, Op. cit., 1er vol., p. 760.

تجدر الإشارة إلى أنّه اختلف المؤرّخون حول تاريخ تأسيس نظام الدوشرمه، إذ بينما يذكر روبير مانتران و كذا عبد الرحيم مصطفى إلى أنّ أقدم الإشارات لنظام الدوشرمه ترجع إلى عهد بايزيد الأوّل - و هما هنا بلا شكّ يخلطان بين نظامي الپنچيک و الدوشرمه -، يشير آخرون إلى أنّ النظام المذكور اعتمد في عهد محمّد الأوّل أو عهد ابنه مراد الثاني، و فيما يخصّنا، نرجّح مثل إيلبير أورتايلي و إيرينا بيتروسيان "**تشكّل نظام ديوشرمه في الدولة العثمانية في منتصف القرن الخامس عشر**"، أي على الأرجح بضع سنوات بعد فتح القسطنطينية.

انظر في هذا الصدد : مانتران، المرجع السابق. ج. 1، ص. 73 ؛ عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص ص. 57-60 ؛ متوليّ و فهمي، المرجع السابق، ص ص. 91-92 ؛ أورتايلي، المرجع السابق، ص. 37 ؛ بيتروسيان، المرجع السابق، ص. 30.

- Nicolle & Hook, Op. cit., p. 8 ; Imber, Op. cit., pp. 134-135.

4. آق كندز و أوزتورك، المرجع السابق، ص. 71 ؛ بيتروسيان، نفس المرجع السابق، ص ص. 30 و 37.

و ذلك في حين تذكر سونيا البنا أنّ بعد هزيمة أنقرة توقّفت الفتوحات العثمانية مؤقّتًا في الروميلي، و بالتالي تعطّل نظام الپنچيک ؛ لذا، اضطرّ العثمانيون لتعويض الخسائر إلى اعتماد الديوشرمه. انظر : البنا، المرجع السابق، ص ص. 22-23.

دحضًا لما سبق، نذكر على سبيل المثال، أنّه في عام 865هـ/1461م حين استولى الأتراك على إمارة طرابزون البيزنطية أرسل ثمانمائة صبي أسير بصفتهم پانچيک أوغلانلرى "غلمان الپانچيک" : بيتروسيان، نفس المرجع السابق، ص. 27.

بدأت الدوشرمه في المناطق الروميلية المفتوحة حديثًا، ثمّ امتدّت إلى منطقة الأناضول و حتّى منطقة القفقاس (القوقاز) مع نهاية القرن الخامس عشر الميلادي[1]. كانت عمليات الدوشرمه تتمّ وفق الحاجة على فترات متباعدة تتراوح بين ثلاث أو خمس سنوات، و أحيانًا فترة أزيد[2] ؛ و كي تنطلق عملية التجنيد، كان لا بدّ لأعيان المنطقة المعنية أن يمنحوا رضاهم الجماعي أوّلاً، و يستصدر فرمان سلطاني لأجل ذلك[3]. و في هذا الصدد، حظر تجنيد أبناء المسلمين، غير أنّه سمح للبشناق[4] و للپوماق[5] – بناءًا على طلبهم – استثنائيًا ؛ و إضافةً إلى ذلك، كان نظام التجنيد يمنع أخذ غلمان من اليهود، و الغجر، و الفرس و الروس[6].

بعد اطّلاعهم على سجلات التعميد، كان مسؤولو التجنيد يستعرضون غلمان القرى و يختارون الّذين تنطبق عليهم المواصفات الملائمة، بنسبة غلام واحد من كلّ أربعين موقد (أسرة)[7]. كان غلمان الدوشرمه تسجّل أسماؤهم و أوصافهم في دفترين و يرسلون مشيًا على الأقدام إلى عاصمة الدولة تحت الحراسة، في مجموعات يتراوح عدد أفرادها ما بين المئة و خمسين و المئتين ؛ و عند وصولهم، يتمّ فرزهم و توجيههم وفق نفس نمط غلمان اليانچيک تمامًا[8].

عام اعتلاء السلطان محمّد[9] الثاني العرش (855هـ/1451م)، طلب الإنكشارية "منحة الجلوس الملكي السعيد"، و لمّا رفض مطلبهم قاموا بإثارة القلاقل ؛ و إزاء ذلك، قام السلطان بعزل بعض قادتهم

---

1. آق كندز و أوزتورك، المرجع السابق، ص. 75 ؛ بيتروسيان، المرجع السابق، ص. 32. انظر أيضًا : صابان، المرجع السابق، ص. 115.
2. آق كندز و أوزتورك، نفسه ؛ متوليّ و فهمي، المرجع السابق، ص. 92.
3. أورتايلي، المرجع السابق، ص. 30.
4. البشناق : شعب صقلبي مسلم يقطن بلاد البوسنة و الهرسك، أحد أقاليم جمهورية يوغوسلافيا سابقًا.
انظر فيما يخصّ التحاق أبناء هذه القومية بنظام الدوشرمه : البنا، المرجع السابق، ص ص. 28-29.
- Imber, Op. cit., pp. 136-137.
5. الپوماق : شعب صقلبي يدين بالإسلام، يقطن في سلسلة رودوب الجبلية بجنوب شرق بلغاريا و شمال شرق اليونان. انظر فيما يخصّ التحاق أبناء هذه القومية بنظام الدوشرمه :
- Evgeni Radushev, « **Peasant janissaries ?** », in : JSH (2008), pp. 449-450.
6. آق كندز و أوزتورك، نفسه ؛ أورتايلي، نفس المرجع السابق، ص. 29.
- Radushev, Ibid., p. 450 ; Uyar & Erickson, Op. cit., p. 37.
7. آق كندز و أوزتورك، نفسه. انظر أيضًا :
- Imber, Ibid., p. 135.
8. البنا، نفسه.
- Nicolle & Mcbride, Op. cit., pp. 9-10 ; Imber, Ibid., pp. 138-140.
9. محمّد الثاني : هو محمّد الفاتح بن مراد الثاني بن محمّد، (848-850هـ/1444-1446م) و (855-886هـ/1451-1481م). بعد توليه الحكم، عكف على التحضير لحملة محكمة ضدّ القسطنطينية. في ربيع الأوّل 857هـ/مارس 1453م، تحرّكت القوّات العثمانية من أدرنة و وصلت العاصمة البيزنطية بداية الشهر التالي. صمدت المدينة لحصار دام 53 يومًا، حيث تولّى الدفاع عنها قرابة 42 ألف مدافع، منهم 7 آلاف جندي محترف مقابل 100 أو 120 ألف محاصر من الجانب العثماني ؛ و سقطت بعد قتال شديد بيد قوّات السلطان العثماني يوم الثلاثاء 20 جمادى الأولى 857 هـ/29 مايو 1453م، الّذي اتّخذ منذئذٍ لقب "الفاتح".

و أمر بضمّ بلوكات السكبان "حرس كلاب الصيد" إلى أوجاق الإنكشارية، إلاّ أنّه جعل منها فرقةً مستقلّة[1]. الجدير بالذكر أنّ رتبة قائد هذه الفرقة، السكبان باشي، كانت تأتي بعد الكتخدا مباشرةً[2]. و بانضمام 500 فرد من فرقة السكبان، ارتفع عدد أفراد الأوجاق بشكل ملموس إلى 3.000 إنكشاري[3].

بُعيد فتح القسطنطينية، الّتي كان للقوّات الإنكشارية السبق في اقتحام أسوارها خلال الهجوم الأخير[4]، أمر محمّد الفاتح ببناء ثكنات للإنكشارية في حيّ آق سراي[5]، و ثكنات أخرى غير بعيدة منها للعجمي أوغلان[6] ؛ فعلاوة على جعل المدينة عاصمةً لدولته، كان السلطان ينوي من وراء ذلك زيادة أعداد الإنكشارية خدمةً لرؤاه التوسّعية.

و بعد إتمام بناء ثكنات العجمي أوغلان في استانبول[7]، ارتفع عدد أورطاتهم إلى 31 ؛ و قد ضمّت تلك الثكنات قبل نهاية القرن الخامس عشر ما بين 2.200 و 2.500 نفر[8].

و واصل محمّد الفاتح التوسّعات العثمانية في المورة (864هـ/1460م)، و البوسنة (867هـ/1463م)، و القرم (879هـ/1475م) ؛ و في الأناضول، استولى على إمارة طرابزون البيزنطية (865هـ/1461م)، كما ضمّ الإمارة القرمانية نهائيًا إلى الدولة العثمانية (878هـ/1474م). و لقد وافته المنية يوم 4 ربيع الأوّل 886هـ/ 3 مايو 1481م، بينما كان الجيش العثماني يستعدّ لغزو جنوب إيطاليا. انظر : المحامي، المرجع السابق، ص ص. 160-177 ؛ أوزتونا، المرجع السابق، ج. 1، ص ص. 131-185.

انظر بخصوص فتح القسطنطينية : باربارو، المصدر السابق، ص ص. 113-174 ؛ متوليّ و فهمي، المرجع السابق، ص ص. 124-138 ؛ مانتران، المرجع السابق. ج. 1، ص ص. 117-123 ؛ سيّد رضوان علي، **السلطان محمّد الفاتح. بطل الفتح الإسلامي في أوروبا الشرقية**، الدار السعودية للنشر و التوزيع، جدّة، 1982، ص ص. 19-38. انظر أيضًا :

- D. Nicolle, J. Haldon & S. Turnbull, **The fall of Constantinople. The Ottoman conquest of Byzantium**, Osprey Publishing, Oxford, 2007, pp. 198-238 ; Heath & McBride, Op. cit., pp. 36-38.

1. البنا، المرجع السابق، ص ص. 55 و 328 ؛ مانتران، المرجع السابق، ج. 1، ص. 115.

2. البنا، نفسه.

3. نفسه، ص. 110. انظر أيضًا : - Hechelhammer, Op. cit., p. 46.

4. باربارو، المصدر السابق، ص ص. 170 و 172.

5. تفيد روايات غير مؤكّدة بأنّ الثكنات شيّدت في الموضع المسمّى (آق سراي)، كونه أوّل موطئ قدم للإنكشارية على أرض القسطنطينية بعد اقتحامهم لها : بيتروسيان، المرجع السابق، ص. 43. انظر أيضًا : البنا، نفس المرجع السابق، ص. 31.

6. البنا، نفس المرجع السابق، ص. 32.

7. استانبول أو استامبول : (تصحيف اسلامبول "مدينة الإسلام" أو كلمة مركّبة من الفارسية آستان أو آستانه "عتبة، باب ؛ بلاط" و بول المتأتية من اليونانية polis "مدينة") الاسم الّذي أطلقه الأتراك العثمانيون على القسطنطينية بعد فتحها من قبل محمّد الفاتح و اتّخاذها عاصمة للدولة العثمانية. انظر : صابان، المرجع السابق، ص. 15.

- Barbier de Meynard, Op. cit., 1er vol., pp. 48-49 ; Kieffer & Bianchi, Op. cit., 1er vol., pp. 30-31.

8. البنا، نفس المرجع السابق، ص. 33.

جديرٌ بالذكر أنّه ظلّ قسمٌ من العجمي أوغلان في ثكناتهم الأصلية في غاليبولي ؛ بينما نقلت دار صناعة السفن (الترسانة)، الّتي اشتغل فيها العجمي أوغلان كيد عاملة، من غاليبولي إلى حي قاسم باشا في استانبول. انظر : نفسه، ص ص. 30 و 32.

قام محمّد الفاتح، بعد اتّخاذ استانبول عاصمة في سنة 862هـ/1458م، بإنشاء آخر فرقة إنكشارية ؛ و أطلق على تلك الفرقة الجديدة اسم بلوكات الآغا[1]، و كانت تتشكّل من 61 بلوكًا ضمّ كلّ واحدٍ منها نحو خمسين إنكشاريًا[2].

و بذلك، أصبح عدد أفراد فرق الأوجاق الثلاث (الجماعات، و السكبان، و بلوكات الآغا) قرابة 6.000 إنكشاري بحلول سنة 879هـ/1475م[3]، و من ثمّ ارتفع إلى ما يقارب 8.000 إنكشاري في أواخر عهد السلطان المذكور[4]. و مع تضاعف عددهم، قام السلطان بتزويد الجند الإنكشاري بأسلحة نارية متطوّرة، جاعلاً منهم نواة الجيش العثماني بأكمله[5].

استحدث السلطان منصب الآغا لقيادة فرقة البلوكات ؛ و باعتبارها أقوى الفرق الثلاث، جعله يكْيچري آغاسي، أي القائد الأعلى للجيش الإنكشاري[6]، و لقد كان يساعده في مهامه السكبان باشي و كتخدا الإنكشارية[7]. و تبوّأ آغا الإنكشارية مقامًا رفيعًا حيث كان يحضر اجتماعات الديوان الهمايوني[8]، و يتقدّم على كلّ من تقلّ مرتبته عن مرتبة وزير ؛ كما كان أيضًا بصفته أعلى قائد عسكري باستانبول، يتولّى حفظ النظام، و توفير أسباب الأمن، و حماية الأملاك ؛ و لم يكن يخرج عن اختصاصه سوى القصر السلطاني، و المنطقة المحيطة به[9].

---

1. انظر : المحامي، المرجع السابق، ص. 177.

2. بيتروسيان، المرجع السابق، ص. 46.

3. Hechelhammer, Op. cit., p. 46 ; Nicolle & Hook, Op. cit., p. 8.

4. البنا، المرجع السابق، ص. 435.

5. Nicolle & Hook, Ibid. ; Uyar & Erickson, Op. cit., pp. 36-37.

6. المحامي، نفسه ؛ طقّوش، المرجع السابق، ص. 28.

7. البنا، نفس المرجع السابق، ص ص. 58-60.

8. الديوان الهمايوني : مجلس السلطنة العثمانية، و كانت وظيفته مناقشة قضايا الدولة الهامّة و إصدار قرارات بشأنها، علاوة على استماع شكاوى الرعية و الفصل فيها. و ينسب تنظيم هذا الديوان إلى السلطان محمّد الفاتح الّذي جعل من أعضائه : الصدر الأعظم، و وزراء القبّة (الوزراء من داخل استانبول)، و قاضي عسكر الروميلي، و قاضي عسكر الأناضول، و الدفتردار (ناظر المالية) و النيشانجي (كاتب سرّ السلطان). انظر في هذا الصدد : صابان، المرجع السابق، ص. 119 ؛ المحامي، المرجع السابق، ص. 177 ؛ مانتران، المرجع السابق، ج. 1، ص. 173.

9. الشناوي، المرجع السابق، ج. 1، ص. 376 ؛ طقّوش، نفسه.

انظر أيضًا : - Barbier de Meynard, Op. cit., 1er vol., p. 48.

و عندما اعتلى العرش ابنه بايزيد الثاني[1]، طلب منه الإنكشارية توزيع "منحة الجلوس" ابتهاجًا بتعيينه، فأجابهم إلى طلبهم ؛ و صارت هذه سنّة لكلّ من تولىّ بعده[2]. و أثناء حكم السلطان المذكور و الّذي حكم قرابة الثلاثين سنة، بقيت أعدادهم مستقرّة نسبيًا[3].

لكن عند تولّي السلطان سليم الأوّل[4] في عام 926هـ/1512م، أصدر أوامره بتعزيز القوّات العثمانية تحسّبًا للحرب الطاحنة الّتي كان يخطّط لها ضدّ عدوّه الشاه إسماعيل الأوّل الصفوي[5] ؛ فارتفع عدد الإنكشارية إلى ما يربو عن 10.000[6] في 920هـ/1514م، بالموازاة مع تزايد عمليات التجنيد (الدوشرمه)[7]. و عند نهاية عهد السلطان سليم، انخفض عدد الإنكشارية مجدّدًا إلى نحو 8000 فرد، بسبب الخسائر

---

1. بايزيد الثاني (886-918هـ/1481-1512م) : هو بايزيد بن محمّد الفاتح، ولد في عام 851هـ/1448م ؛ و تولّى الحكم بمساعدة الإنكشارية ضدّ أخيه الأصغر جمّ. استجابةً لنداءات استغاثة الغرناطيين، أرسل حملة بحرية بقيادة كمال رايس في عام 890هـ/1485م لمساعدة الإمارة الأندلسية الآيلة للسقوط ؛ غير أنّ حربه الخاسرة ضدّ الدولة المملوكية (890-896هـ/1485-1491م) أعاقت إرسال المزيد من الحملات. شكّل انتصار جيشه في معركة بوكوفينا (Bukovina) ضدّ ملك لهستان (بولونيا) عام 3-904هـ/1498م و انتصار بحريته على البنادقة في ليبانتو (Lepanto) عام 904هـ/1499م، أهمّ حدثين عسكريين خلال عهده. عرف بايزيد، الّذي لقّب بالوليّ، بحبّه للعلم و الفنون، و بميله للسلم أكثر من الحرب. و بسبب تزايد الخطر الشيعي في الأناضول و تنامي قوّة الدولة الصفوية الناشئة، أجبرته الإنكشارية على التنازل عن الحكم لصالح ابنه سليم في عام 918هـ/1512م، و توفي بعيد ذلك مرضًا. انظر : يلماز أوزتونا، المرجع السابق، مج. 1، ص ص. 185-213 ؛ مانتران، المرجع السابق. ج. 1، ص. 151-167 ؛ المحامي، المرجع السابق، ص ص. 179-187.

2. متوليّ و فهمي، المرجع السابق، ص. 167. تجدر الإشارة إلى أنّ منحة الجلوس أبطلها السلطان عبد الحميد الأوّل في سنة 1187 هـ/1774م، إثر الحرب الروسية العثمانية. انظر في هذا الصدد : المحامي، نفس المرجع السابق، ص. 179.

3. انظر بخصوص أعداد الإنكشارية : البنا، المرجع السابق، ص ص. 58-60. انظر أيضًا : - Uyar & Erickson, Op. cit., p. 38.

4. سليم الأوّل : هو السلطان سليم بن بايزيد (918-926هـ/1512-1520م)، الّذي لقب بياوز "الصارم". لمجابهة خطر المدّ الشيعي في الأناضول، هاجم الصفويين في فارس و دحرهم في معركة چالديران عام 920هـ/1514م ؛ و ضمّ بذلك كردستان و أذربيجان إلى الدولة العثمانية ؛ كما كفل له انتصاره على المماليك (922-923هـ/1516-1517م) ضمّ الشام، مصر و الحجاز. و إثر ذلك، أعلن نفسه خليفة للمسلمين و خادمًا للحرمين. و قد بدأ في عهده مدّ النفوذ العثماني على شمالي إفريقيا، و بخاصّة في الجزائر، و ارتبط ذلك بنشاط الإخوة بربروس : المحامي، نفس المرجع السابق، ص ص. 188-197.

5. إسماعيل الأوّل الصفوي : هو شاه فارس (907-930هـ/1501-1524م)، و مؤسّس السلالة الصفوية. فرض المذهب الشيعي الاثنا عشري بالقوّة في بلاد فارس و خراسان و قسم من العراق. تمّ احتواء طموحاته التوسّعية غربًا من قبل السلطان العثماني سليم الأوّل و شرقًا من قبل الأوزبك : محمد عبد اللطيف هريدي، **الحروب العثمانية الفارسية و أثرها في انحسار المدّ الإسلامي عن أوروبا**، دار الصحوة للنشر و التوزيع، القاهرة، 1987، ص ص. 43-44.

6. يلماز أوزتونا، نفس المرجع السابق، ص. 217 ؛ عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص. 79 ؛ بيتروسيان، المرجع السابق، ص. 130.

انظر أيضًا : - Hechelhammer, Op. cit., p. 46.

7. تجدر الإشارة إلى أنّه بعد أن تزايدت حملات الدوشرمه خلال القرن السادس عشر، فإنّها بدأت تعرف تراجعًا تدريجيًا مع اقتراب القرن المذكور من نهايته. انظر : - Imber, Op. cit., p. 140.

و مع أنّ الدوشرمه ألغيت مرّة أولى في نهاية عهد السلطان مراد الرابع في سنة 1049هـ/1639م، غير أنّها استؤنفت بشكل متقطّع حتّى نهايتها الفعلية سنة 1115هـ/1703م. انظر : البنا، المرجع السابق، ص. 36.

الناجمة عن حروبه ضدّ الصفويين و المماليك[1]. و أثناء حكم سليمان القانوني[2]، تزايد عدد أفراد تلك القوّات بشكل منتظم من 8.000 إلى قرابة 13.000 إنكشاري[3]، بسبب اعتمادهم ركيزةً في الفتوحات و الحملات العسكرية الكثيرة الّتي ميّزت ذاك العهد الطويل.

أمّا بالنسبة لعلوفات الجند في الجيش الإنكشاري، فقد كان على الجندي في وقت السلم أن يخدم ثلاث سنوات حتّى يصبح له الحق بالراتب و المعاش، و كان يبدأ بآقجة واحدة في اليوم ؛ إلاّ أنّ الجندي الّذي يبدي شجاعة و تميّز في القتال، يمنح زيادة تتراوح بين آقجتين و ثلاث آقجات. و ظلّ هذا النظام معمولاً به حتّى عهد السلطان سليمان القانوني الّذي أعاد تنظيم رواتب الجند، فوضع ثلاثة أصناف من الرواتب : الصنف الأوّل خاصّ بالجنود الأحداث (كوچك أو يكّي يولداش)، و يتراوح راتبهم من ثلاث إلى سبع آقجات يوميًا لجنود الخدمة الفعلية ؛ و الصنف الثاني للجنود القدماء (اسكي يولداش) الّذين تميّزوا بشجاعتهم أثناء القتال في الحروب، و يتراوح مقدار رواتبهم من ثمان إلى تسع و عشرين آقجة يوميًا ؛ و خصّص الصنف الثالث للضبّاط و كذا الجنود من معوّقي الحرب أو المتقاعدين (اوتوراق)، و حدّدت رواتبهم من ثلاثين إلى مائة و عشرين آقجة يوميًا[4].

وفقًا للمعلومات الّتي قدّمها الرحّالة العثماني الشهير أوليا جلبي، تمّ تجنيد نحو 8.000 فتى خلال حكم مراد الرابع (1032-1049هـ/1623-1640م)، بينما انخفض الرقم إلى ما يقارب 1.000 غلام في عهد أحمد الثالث (1115-1143هـ/1703-1730م). انظر في هذا الصدد : أورتايلي، المرجع السابق، ص. 37.

1. البنا، المرجع السابق، ص. 435. انظر أيضا : - Uyar & Erickson, Op. cit., p. 38.

2. سليمان القانوني : هو سليمان الأوّل بن سليم ياوز (926-973هـ/1520-1566م)، أشهر السلاطين العثمانيين. استهلّ عهده بفتح بلگراد، قصبة بلاد الصرب في 927هـ/1521م، ثمّ جزيرة رودس في 929هـ/1522م، الّتي كانت بيد فرسان القديس يوحنا الصليبيين. بعد انتصاره الساحق في معركة موهاكس (Mohács) في 932هـ/1526م، أضحت المجر تحت النفوذ العثماني. كما تقدّمت قوّاته في أراضي النمسا و حاصرت عاصمتها ويانه (فيينا) في 935هـ/1529م، دون أن تتمكّن من اقتحامها. و في 941هـ/1534م، افتكّ القانوني العراق من الصفويين. و ضمّ إلى ممتلكاته اليمن سنة 945هـ/1538م، مكملاً بذلك سيطرته على البحر الأحمر حتّى مضيق باب المندب. شهد عهد سليمان كذلك امتداد النفوذ العثماني إلى الجزائر و طرابلس الغرب و جنوب تونس، بفضل نشاط خير الدين باشا الدؤوب، الّذي جابه الغزو الإسباني للمنطقة المغربية ؛ و ابتداءً من 942هـ/1535م، أفضى التقارب العثماني الفرنسي - بسبب العدو الإسباني المشترك - إلى منح فرنسا امتيازات اقتصادية واسعة و معاضدة عسكرية فعلية. و بلغت الدولة العثمانية في عهده أوج قوّتها سياسيًا و حضاريًا و عسكريًا. اشتهر بالقانوني نظرًا للقوانين التنظيمية الّتي وضعها، كما اهتمّ بالثقافة و العمارة، حيث شيّد مساجد كثيرة، أهمّها مسجدي السليمانية و السليمية : المحامي، المرجع السابق، ص ص. 198-252 ؛ يوسف بك بن همام آصاف، **تاريخ سلاطين بني عثمان من أوّل نشأتهم حتّى الآن**، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995، ص ص. 60-66 ؛ متوليّ و فهمي، المرجع السابق، ص ص. 232-276. انظر أيضًا : - Turnbull, Op. cit., pp. 45-57.

3. البنا، نفس المرجع السابق، ص. 111.

4. مرادجه دوسون، المصدر السابق، ص. 148 ؛ ياسين سويد، **التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عهد الإمارتين : الإمارة المعنية، 1516-1697**، ج. 1، بيروت، 1980، ص ص. 93-94. انظر أيضًا : البنا، نفس المرجع السابق، ص. 247.

بيد أنّ هذا النظام لم يكن يطبق على فرقة العجمي أوغلان المقيمين في العاصمة بصورة دائمة، فقد كانت رواتب الضبّاط و الأنفار في هذه الفرقة تتراوح بين اثنتين و تسع وثلاثين آقجة في اليوم، و ذلك حسب الرتبة و سني الخدمة[1].

أمّا الضبّاط العاملون في الخدمة الفعلية، فكانت رواتبهم اليومية تتراوح في عهد السلطان المذكور بين مائة و عشرين آقجة، و هو الحدّ الأدنى لراتب قائد الأورطة، و ألف و خمسمائة آقجة، و هو الحدّ الأعلى لراتب الآغا بصفته القائد الأعلى للفرق الإنكشارية ؛ و كان أولئك الضبّاط يقبضون رواتبهم مع باقي الجند[2].

من جانبٍ آخر، بعد أن كان الزواج محظورًا عليهم، حظي أفراد الإنكشارية في عهد سليم الأوّل ببعض التحسينات في قواعد المعيشة، إذ نال الإنكشاريون القدماء الّذين حنّكتهم الحروب الحقّ بالزواج و العيش خارج الثكنات بموجب إذنٍ خاصّ من السلطان[3] ؛ ثمّ بدأ هذا الحقّ يسري على الآخرين، و بخاصّة الأقلّ رتبة، ممّا كان له أثرٌ أكيد في روح التنظيم[4].

يمكن الخلوص إلى أنّ الإنكشاريين أدّوا دورًا كبيرًا في توسيع رقعة الدولة العثمانية و تثبيت أركانها، لا سيّما خلال القرنين الخامس عشر و السادس عشر. بيد أنّه إذا كانت الدولة قد استفادت منهم في ساحات القتال في تلك الحقبة، فقد أزعجها مع ذلك نزوعهم بعض الأحيان إلى حركات العصيان و التمرّد لتحقيق مطالب لهم حينًا و للتدخّل في السياسة العليا للدولة أحيانًا أخرى متجاوزين اختصاصاتهم كمحاربين محترفين[5].

---

1. أحمد رفيق، **توركيه تاريخي**، استانبول، 1923، ص ص. 295-298. نقلاً عن : يوسف عبد الكريم طه مكي الرديني، **المؤسّسة العسكرية العثمانية، 1299-1839. دراسة تاريخية**، دار الحامد، عمّان، 2014، ص. 81.

2. مرادجه دوسون، المصدر السابق، ص. 148. انظر أيضًا : جب و بوون، المرجع السابق، ج. 1، ص. 90.

بالإضافة إلى تلك الرواتب، كان للآغا و كبار القادة امتيازات مادية إضافية يستفيدون منها عند ترقي الضبّاط، و لدى تغيّب الجنود عن استلام رواتبهم ؛ كما كان لهم الحقّ في أن يرثوا نسب متفاوتة من تركات ضبّاط الجيش و جنوده المتوّفين. انظر في هذا الصدد : مكي الرديني، نفس المرجع السابق، ص ص. 81-83.

للمزيد من المعلومات حول علوفات الإنكشارية و ضبّاطها، انظر : البنا، المرجع السابق، ص ص. 240-247.

3. بيتروسيان، المرجع السابق، ص. 127 ؛ عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص. 44.

قبل ذلك، كان على الإنكشاري أن لا يتزوّج حتّى سنّ الإحالة على التقاعد. انظر : طقّوش، المرجع السابق، ص. 117. كما كان الإنكشاري المحنّك يكتسب هذا الحقّ إذا ترّقى إلى فارس قپو قولي أو تيماري، و انقطعت علاقته بالأوجاق. انظر في هذا الصدد : البنا، نفس المرجع السابق، ص ص. 106-107 ؛ السيّد محمود، المرجع السابق، ص. 426.

4. بيتروسيان، نفس المرجع السابق، ص. 220. انظر أيضًا : - Hechelhammer, Op. cit., p. 53.

5. علاء موسى كاظم نورس، "**مدى مسؤولية الإنكشارية في تدهور الدولة العثمانية**"، في : م.ت.م.، 25-26، 1982، ص ص. 102-103.

القسم الأوّل :

نشأة أوجاق الإنكشارية و تطوّره في إيالة الجزائر

الفصل الأوّل :

الأوجاق خلال عهدي الولاة و الآغوات (1519-1671م)

1. الأوجاق خلال عهد الولاة : فترة التأسيس (1519-1556م)

2. الأوجاق خلال عهد الولاة : فترة التثبيت (1556-1659م)

3. الأوجاق خلال عهد الآغوات (1659-1671م)

الفصل الأوّل :

الأوجاق خلال عهدي الولاة و الآغوات (1519-1671م)

1. الأوجاق خلال عهد الولاة : فترة التأسيس (1519-1556م)

1-1. المغرب الأوسط بين التبعية الإسبانية و النفوذ التركي العثماني (1510-1519م)

1-1-1. المغرب الأوسط في زمن التبعية الإسبانية (1510-1516م)

عجّل سقوط إمارة غرناطة، آخر معاقل بلاد الأندلس يوم 2 يناير 1492م، بانطلاق الحملات الإسبانية نحو المدن الساحلية لبلاد المغرب، إذ سرعان ما خضعت مليلة في عام 1497م، و تمّ احتلال المرسى الكبير يوم 23 أكتوبر 1505م، و تلاه حجر بادس (Peñon de Velez) بشمال المغرب الأقصى في عام 1508م، ثمّ سقطت بعدها وهران في 18 مايو 1509م، الّتي قتل بها 4000 مسلم و وقع 8000 في الأسر، ثمّ جاء الدور على بجاية يوم 6 يناير 1510م، الّتي قتل بها 4550 مسلم و تمّ استرقاق نحو 5000 آخرين[1].

و لتلافي المصير الّذي حلّ بالمدن الآنفة الذكر، آثرت مملكة تلمسان الزيانية و عددٌ من المدن المستقلّة عنها مثل تنس، و شرشال، و مزغران، و مستغانم، حفاظًا على أرواح سكّانها وممتلكاتهم الخضوع للإسبان و دفع الجزية[2]. نفس الدافع حمل أعيان مدينة الجزائر على إعلان ولائهم للإسبان، حيث وجّهوا وفدًا يقوده شيخ البلد سالم التومي بن ابراهيم الثعالبي[3] إلى بجاية، لمقابلة غازيها پيدرو ناڤارو (Pedro Navarro).

---

1. عبد القادر فكاير، **آثار الاحتلال الإسباني على الجزائر خلال العهد العثماني (10-12هـ/16-18م)**، أطروحة دكتوراه في التاريخ، جامعة الجزائر، 2008-2009، ص ص. 30-34. انظر أيضًا :

- L. Charles Féraud, "**Conquête de Bougie par les Espagnols, d'après un manuscript arabe**", in : R.A. 12, 1868, pp. 245-256 ; Andrew C. Hess. **The forgotten frontier. A history of the sixteenth century Ibero-African frontier**, The University of Chicago Press, Chicago & London, 1978, pp. 36-42.

- نيقولاي ايڤانوف، **الفتح العثماني للأقطار العربية، 1516–1574**، ترجمة يوسف عطا الله، دار الفارابي، بيروت، 1988، ص ص. 120-121.

2. Robert & Marianne Cornevin, **Histoire de l'Afrique**, T. 2, Payot, Paris, 1966, p. 406 ; Moulay Belhamissi, **Histoire de Mostaganem**, C.N.E.H., Alger, 1976, pp. 60-64.

- فكاير، نفس المرجع السابق، ص ص. 34-37.

3. أبو عبد الله الأعرج السليماني، **تاريخ الجزائر بين قيام الدولة الفاطمية و نهاية ثورة الأمير عبد القادر، عن كتاب الشماريخ**، تحقيق مختار حساني، م.و.ج.، الجزائر، د.ت.، ص. 193.

نهاية شهر يناير، وقّع الوفد الجزائري مع القائد الإسباني اتّفاق تبعية مدّته عشر سنوات[1]. و على إثر ذلك، توجّه سالم التومي صحبة وفدٍ من أعيان المدينة إلى بورغوس (Burgos)[2]، لإعلان الولاء رسميًّا أمام ملك إسبانيا فرناندو الثاني (Fernando II)[3] ؛ و كان يرافقه في رحلته مولاي أبو عبد الله بن محمّد صاحب مدينة تنس[4]، الّذي سبق له أن أعلن تبعيته للإسبان تحت نفس الشروط.

سلّم الوفد للملك بعض الهدايا كعربون ولاء، بالإضافة إلى مائة و ثلاثين أسيراً نزولاً عند بنود الاتفاق[5] ؛ كما اضطرّ للموافقة على تسليم الجزيرة الصخرية الواقعة قبالة المدينة[6]، متراجعًا عن موقفه السابق ببجاية الّذي عارض فيه التنازل عن الجزيرة لإدراكه الخطر الكامن[7].

تجدر الإشارة إلى أنّ مشيخة الجزائر كانت في عهد سالم التومي تابعة لإمارة بجاية، و تمتدّ من دلّس شرقًا إلى نواحي قبر الرومية غربًا. انظر في هذا الصدد : الحسن بن محمّد الوزّان الفاسي، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمّد حجي و محمّد الأخضر، ج. 2، ط. 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص ص. 34 و 42. انظر أيضًا :

- A. Berbrugger, **Le Pégnon d'Alger**. Imprimerie d'A. Bourget, Alger, 1860, pp. 30-31.

1. أهمّ ما جاء في اتّفاق التبعية : الاعتراف بسيادة الملك الكاثوليكي على مدينة الجزائر، و دفع سكّانها لإتاوة سنوية للإسبان تعادل ما كانوا يدفعونه لحكّام بجاية من قبل، و إطلاق سراح جميع الأسرى المسيحيين، بالإضافة إلى مساعدة القوّات الإسبانية في البحر عند الحاجة. انظر في هذا الصدد :

- Diego de Haëdo, "**Topographie et histoire générale d'Alger**", Trad. A. Berbrugger & Dr. Monnereau, in : R.A. 14, 1870, p. 415.

2. بورغوس أو برغش : مدينة تقع في إقليم قشتالة (Castilla)، على بعد 210 كلم شمال العاصمة الإسبانية مدريد :

- **Le grand livre du Monde**, Sélection du Reader's Digest, Bruxelles, 1990, p. 127.

3. فرناندو الثاني الكاثوليكي (1452-1516م)، أدّى زواجه بابنة عمّه إيزابيلا الأولى في عام 1469م إلى اتحاد قشتالة و أرغونة أكبر مملكتين في إسبانيا. و لقد شهد عهده ضمّ مملكة غرناطة، آخر دولة مسلمة في الأندلس بعد حرب طويلة في عام 1492م، و هي نفس السنة الّتي اكتشف خلالها كريستوف كولمبس العالم الجديد (الهند الغربية) لصالح العرش الإسباني ؛ كما شكّلت محاكم التفتيش الّتي أقامها ابتداءً من عام 1487م منطلق الاضطهاد الديني ضدّ المسلمين. بعد وفاة إيزابيلا في 1504م، ضمّ فرناندو إلى مملكته نابولي وإقليم نافار ؛ و من الألقاب الّتي عرف بها : ملك قشتالة تحت لقب فرناندو الخامس (1474-1504م)، ملك أرغونة و صقلية من 1479 إلى 1516م، تحت لقب فرناندو الثاني، و ملك نابولي من 1504 إلى 1516م، تحت لقب فرناندو الثالث : **الموسوعة العربية الميسّرة**، مج. 3، ط. 2، دار الجيل (بيروت) و الجمعية المصرية لنشر المعرفة و الثقافة العالمية (القاهرة)، ص. 1733.

4. Berbrugger, Ibid., p. 15 ; C. Chevallier, **Les trente premières années de l'État d'Alger : 1510-1541**, O.P.U., Alger, 1986, p. 23.

5. A. Devoulx, "**Alger, étude archéologique et topographique sur cette ville**", in R. A. 20, 1876, p. 66.

6. كانت الجزيرة زمن البكري تدعى اسطفلة (Stofla)، و قد تجزّأت على مرّ الزمن بفعل الحتّ البحري مشكّلة مجموعة أربعة جزيْرات تتموضع وفق محور شمال جنوب ؛ و تعتبر تلك الجزر الصخرية أصل تسمية المدينة "الجزائر" الّتي حرّفت في اللهجة المحلية إلى "دزاير". انظر : أبي عبيد البكري، **كتاب المسالك و الممالك**، تحقيق و تقديم أدريان فان ليوفن و أندري فيري. ج. 2، الدار العربية للكتاب - المؤسّسة الوطنية للترجمة و التحقيق و الدراسات (بيت الحكمة). تونس، 1992، ص ص. 732 و 756–757. انظر أيضًا :

- Y. Laye, **Le port d'Alger**, Chambre de commerce, Alger, 1952, p. 16.

7. Chevallier, Ibid., p. 18.

فور إبرام الاتفاق المذكور، سارع پيدرو ناڤارو بإرسال أحد المهندسين العسكريين، و هو مارتينو دي رنتيرا (Martino de Rentira)، للإشراف على بناء قلعة[1]، و الّتي صارت بعد اكتمالها في ظرف سنتين تعرف باسم "پنيون دي أرخل" (Peñon de Argel)[2].

ضاق سكّان مدينة الجزائر درعًا سريعًا من "هذا الخنجر المسلّط على رقابهم"، إذ حينما كانوا يتأخرون عن دفع الإتاوة المفروضة عليهم لسبب أو لآخر، فإنّ الحامية الإسبانية كانت تقوم بقصف المدينة بمدفعيتها ؛ كما عانوا أيضًا من التضييق على تجارتهم، ففي سنة 1511م، فرض الإسبان مرسوم ضريبة إضافية قدرها خمسون بالمائة على مستورداتهم من الصوف، و ذلك كي يحمّلوهم قسط من تكاليف حملتهم ضدّ جزر جربة و قرقنة[3].

---

1. تجدر الإشارة إلى أنّ الأندلسيين بنوا برجًا أو بالأحرى فنارًا لمراقبة و إرشاد السفن بإحدى الجزيْرات، و أحاطوه بحصن اثنا عشري الأضلاع، في السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر الميلادي. انظر في هذا الصدد : المنوّر مروش، **القرصنة، الأساطير و الواقع**، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2008، ص. 163.

- Chevallier, Op. cit., p. 18.

احتفظ الإسبان بذلك البرج و أدخلوا عليه بعض التعديلات، كما قاموا ببناء برج محصّن آخر في الجزيرة الكبيرة الواقعة إلى الجنوب، و الّتي لم تكن تفصلها عن الجزيرة الأولى سوى قناة بحرية ضيّقة عرضها بضعة أمتار. و علاوة على ذلك، قاموا بإحاطة كلا الحصنين بسورٍ عالٍ و مسنّن تتخلّله العديد من الفتحات للرمي و أربعة معاقل - اثنان منها يقابلان المدينة و الآخران بإزاء عرض البحر - ؛ و هكذا، أضحت بيد الإسبان قلعة منيعة يمكنها الحصول على إمدادات و مؤونة من جهة البحر. انظر :

- Ph. Gauckler, **Le port d'Alger, 1530-1902**, Imprimerie-Librairie L. Chaix, Alger, 1902, p. 33 ; G. Marçais, **Architecture Musulmane d'Occident, Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne et Sicile**, A.M.G., Paris, 1954, p. 447 ; Berbrugger, **Le Pégnon…**, Op. cit., p. 16.

انظر أيضًا :

- Alfred Imbert, **L'Amirauté d'Alger**, Imprimerie Typo-lithographique S. Léon. Alger, 1908, p. 4 ; Diego de Haëdo, **De la captivité d'Alger**, Trad. Moliner-Volle, Alger, 1911, p. 212.

كانت هذه القلعة، الّتي تستطيع أن تأوي حامية قدرها مئتين و خمسين رجلا تقريبًا، تشكّل تهديدًا مستمرًا للمدينة و أهلها، حيث كان في مقدورها ضرب المدينة بالمدفعية في أيّ وقت، كونها واقعة على بعد ثلاثمائة متر فقط منها. و قد وصف حسن الوزّان (ليون الإفريقي) هذه الوضعية بقوله أنّه كانت تنطلق من القلعة "**قذائف المدفعية تصل إلى اليابسة، بل و تمرّ فوقها، من سور إلى سور**". انظر : الوزّان، المصدر السابق، ج. 2، ص. 38.

2. peñon : كلمة إسبانية تعني "صخرة عالية"، فيما تحمل piñón القريبة لفظًا مدلول "إطار دائري مسنّن" ؛ و نعتقد أنّ سبب التسمية عائد إلى بناء الحصن على قاعدة صخرية أكثر من كونه ناجم عن شكله المميّز :

- **Gran diccionario Español Francés – Francés Español**, 2e éd., Larousse-Bordas, Paris, 1998, p. 513.

3. وليم سبنسر، **الجزائر في عهد ريّاس البحر**، تعريب و تقديم عبد القادر زبادية، ش.و.ن.ت.، الجزائر، ص. 28.

بسبب ذلك، شهدت المدينة تنامي معارضة تزعّمها بالأخصّ العلماء، إزاء دفع الإتاوة و تصرّفات الجنود الإسبان مع السكّان[1]؛ و لتهدئة الوضع، دعا سالم التومي مخالفيه إلى احترام المعاهدة المبرمة إلى حين إيجاد مخرج مؤات[2].

بعد وفاة الملك الإسباني فرناندو يوم 23 يناير 1516م، اغتنم الجزائريون الفرصة لنبذ معاهدة الذلّ، فقاموا في خطوة جريئة بالامتناع عن تموين جنود الحامية الإسبانية و منعهم من التزوّد بالماء من عيون المدينة[3]. و لمّا لم تكن لديهم المنعة للتصدّي للإسبان، ارتأى أعيان مدينة الجزائر الاتّصال بالريّسين أورچ بن يعقوب التركي، الشهير ببابا عرّوج، و أخيه خضر - الّذي سيلقّبه السلطان سليم الأوّل لاحقًا بـ"خير الدين" -، اللّذان ذاع صيتهما بسبب مآثرهم الغزوية[4] ؛ لذا، وجّهوا وفدًا إلى جيجل ليستنجدوا بهما من إسبان البنيون.

1-1-2. المغرب الأوسط في زمن آل بربروس (1513-1519م)

كان هذين الريّسين التركيين قد تمركّزا في جزيرة جربة و ميناء تونس (حلق الوادي) منذ عـام 1513م بقصد الجهاد البحري ؛ و اشتدّ أزرهم بالعديد من البحّارة الأتراك الّذين التحقوا بهما، فارّين من ملاحقة السلطان سليم لأتباع أخيه الأمير قورقود[5].

---

1. محمّد درّاج، "**تدمير حصن البنيون و أثره في تثبيت الوجود العثماني بالجزائر**"، محاضرة ألقيت بالمركز الوطني للأرشيف (بئر خادم – الجزائر)، 21 مايو 2010، ص. 1.

ذكر مارمول في هذا الصدد أنّ قبل قدوم عرّوج كانت مدينة الجزائر تموّن حامية البنيون، و لا نتصوّر بأيّ حال من الأحوال أنّ الجنود الإسبان كانوا يرضون بالبقاء داخل ذاك الحصن لا يبرحونه و المدينة على مرمى حجر فقط ! و يؤكّد ذلك ما ورد في كتاب "الغزوات" من أنّ حامية الحصن كانت تقوم يوميًّا بإهانات جديدة لسكّان الجزائر. انظر :

- Luis del Màrmol y Carbajal, **L'Afrique,** trad. Nicolas Perrot, sieur d'Ablaucourt, T. 2, Paris, 1667, p. 402 ; L. Sander-Rang & F. Denis, **Histoire des frères Aroudj et Khaïr-ed-Din**, T. I, Dar Alif, Aïn Defla, 2013, p. 159.

2. Devoulx, "**Alger…**", Op. cit., 1876, p. 67.

3. Berbrugger, **Le Pégnon…**, Op. cit., p. 17 ; Imbert, Op. cit., p. 4.

4. عزيز سامح التر، **الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية**، ترجمة د. محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بـيروت، 1989، ص ص. 43-47.

5. انظر في هذا الصدد :

- Nicolas Vatin, « **"Comment êtes-vous apparus, toi et ton frère ?" Note sur les origines des frères Barberousse.** », in : S.I., nouvelle édition, 1 (2011), pp. 112-119 ; Emrah Safa Gürkan, **Ottoman corsairs in the western Mediterranean and their place in the Ottoman-Habsburg rivalry (1505-1535)**, Master of Arts in History, Bilkent University, 2006, pp. 44-47.

في صيف عام 1514م، خلّص الأخوان عرّوج و خير الدين جيجل من الجنويين، ثمّ حاولا تحرير بجاية من الإسبان المحتلّين، إلاّ أنّهما لم يفلحا في ذلك بسبب نقص العدّة و العتاد[1]. صحيح أنّ الآلاف من أهالي البلاد انضمّوا إليهما بغرض الجهاد، إلاّ أنّهم لم يكونوا جنودًا متمرّسين[2] ؛ فقد كان عماد قوّاتهم آنذاك يرتكز على 1000 بحّار تركي فقط[3]، قضى أزيد من ربعهم نحبه في مختلف العمليات القتالية خلال السنة المذكورة[4].

إنّ الحاجة الشديدة إلى جلب جنود بحريين تفسّر عودة الأخوين إلى مسقط رأسهم جزيرة مدللي في خريف تلك السنة، حيث تمّ تجنيد المئات من البحّارة من الأناضول و الروميلي[5] ؛ و حلاًّ لمشكلة المعدّات الحربية، أرسلا محي الدين پيري ريّس نهاية ربيع سنة 1515م محمّلا بالهدايا في مهمّة لدى السلطان سليم الأوّل، الّذي تكرّم بإهدائهما قادرغتين كبيرتين، محمّلتين بقذائف المدفعية خصوصًا، مع ما يلزمهما من رجال بحر[6].

---

1. Nicolas Vatin, « **Études ottomanes** », in : Annuaire de l'EPHE, Section des sciences historiques et philologiques, 143, 2012, pp. 51-52.

انظر أيضًا : مجهول، **كتاب غزوات عرّوج و خير الدين**، تعليق نور الدين عبد القادر، المطبعة الثعالبية و المكتبة الأدبية، الجزائر، 1934، ص. 25 ؛ الوزّان، المصدر السابق، ج. 2، ص. 51.

2. في هذا الصدد، ذكر خير الدين بربروس في مذكّراته : "**في الحقيقة كان بينهم شجعان يجيدون الفروسية، إلاّ أنّ طريقة ركوبهم للخيل كانت بدائية جدّا ؛ فضلا عن كونهم لا يملكون أسلحة جيّدة، و حتّى لو وجدت، فهم لا يجيدون استعمالها، كما أنّهم لم تكن لهم أسلحة نارية جيّدة. و السبب الأوّل في انهزامهم يرجع إلى كونهم لا يعرفون إطلاقًا فنون القتال بشكل جماعي.**" انظر : **مذكّرات خير الدين بربروس**، ترجمة محمّد درّاج، الأصالة للنشر و التوزيع، الجزائر، 2010، ص. 107.

3. Diego de Haëdo, **Histoire des rois d'Alger**. Trad. H.-D. de Grammont, Adolphe Jourdan, Alger, 1881, p. 7.

4. كان الحدثين الأكثر دموية هما المعركة البحرية مع بطسة إسبانية اسمها "سفينة الخيالة" (Nave de la Caballeria) الّتي انتهت بالاستيلاء عليها، حيث قتل خلالها حوالي 150 بحّار تركي و جرح 86، و الهجوم الأوّل ضدّ بجاية، حيث أفضى إلى مقتل 60 بحّار تركي و عدد كبير من الجرحى، من بينهم عرّوج الّذي فقد ساعده الأيسر : نفسه، ص ص. 49 و 52. انظر أيضًا :

- F. Lopez de Gomara, **Crónica de los Barbarrojas**, in : Memorial Histórico Español, vol. VI, Imprenta de la real academia de la historia, Madrid, 1853, pp. 356-361.

5. نفسه، ص. 59.

6. تجدر الإشارة إلى أنّ مهمّة محي الدين پيري ريّس لدى السلطان سليم كانت بمثابة إعلان ولاء، إذ تمخضّت عن إرسال رموز تبعية للأخوين متمثّلة في سيفين مرصّعين، خلعتين سلطانيتين و نيشانين، و الأهمّ خطّ همايوني يخوّل لهما تجنيد جنود بحريين من الأناضول و ابتياع ما يحتاجان إليه من المعدّات الحربية. انظر في هذا الصدد :

- نفسه، ص ص. 64-68 ؛ مجهول، نفس المصدر السابق، ص. 24 ؛ أوزتونا، المرجع السابق، مج. 1، ص ص. 246-247.

سمح هذان المددان للأخوين برفع تعداد قوّاتهما إلى 2033 بحّارا[1]، و تجريد حملة ثانية ضدّ بجاية في شهري أغسطس وسبتمبر 1515م[2] ؛ و رغم نجاحهم الأوّلي ضدّ القصبة القديمة، إلاّ أنّ محاولتهم أخفقت بعد أن استعصت عليهم قلعة البحر الّتي تحصّن فيها الإسبان، بسبب نفاذ البارود و وصول أسطول نجدة للأعداء[3].

بعدئذ، حلّ الأخوان بمدينة جيجل حيث قصدتهم وفود عديدة من الأهالي، كان أهمّها وفد مدينة الجزائر الّتي كانت تمثّل مركز البلاد ؛ و شكا الجزائريون ظلم الإسبان، و رجوا تدخّل الأتراك لإنقاذهم[4]. فاستجاب عرّوج لطلبهم، و قام في شهر أبريل 1516م بجمع قوّاته و توجيه سفينتين حربيتين تحملان على متنهما 500 بحّار تركي مع المؤونة و البارود و أدوات الحرب[5]، و اتّجه برًّا و معه ما يربو عن الألفي متطوّع من أهالي جيجل و القبائليين و الأندلسيين، الّذين انضمّوا إليه في طريقه إلى مدينة الجزائر بنيّة الجهاد[6] ؛ و فور وصوله، باشر عرّوج ببناء استحكامات و بحفر خندق على طول محيط المدينة، كما نصب مدفعيته في أماكن متفرّقة مواجهة لحصن البنيون[7].

---

1. **مذكّرات خير الدين**، المصدر السابق، ص. 70.

2. Haëdo, **Histoire…**, Op. cit., pp. 13-14.

- سامح التر، المرجع السابق، ص ص. 47-48.

انظر أيضًا :

- Hess, Op. cit., p. 63 ; Vatin, « **Études ottomanes** », Op. cit., p. 51.

3. مجهول. **كتاب…**، المصدر السابق، ص. 26 ؛ الوزّان، المصدر السابق، ج. 2، ص. 51.

أورد المدني أنّ خلال هذه المحاولة استشهد ثلاثة أرباع الأتراك، من دون ذكر المصدر الّذي استقى منه هذه المعلومة :

- أحمد توفيق المدني، **حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر و إسبانيا، 1492–1792**، ش.و.ن.ت.، الجزائر، 1968، ص. 171.

4. **مذكّرات خير الدين**، نفس المصدر السابق، ص. 74.

5. نفسه.

انظر أيضًا : أوزتونا، المرجع السابق، مج. 1، ص. 247.

6. Haëdo, Ibid., p. 17 ; **Chroniques de la régence d'Alger traduites d'un manuscrit arabe intitulé *El-zohrat el-nayerat***, trad. d'A. Rousseau, Imprimerie du Gouvernement, Alger, 1841, pp. 14-16.

ورد في كتاب "غزوات عرّوج و خير الدين" أنّ عرّوج لحق به أخوه الأكبر إسحاق ريّس بدعم مرسل من خير الدين قوامه 280 تركي و أربع سفن صغيرة و مدفعية متمثّلة في حوالي خمسة عشر قطعة متفاوتة العيار ؛ و ذلك في حين نستشفّ من "مذكّرات خير الدين" أنّ إسحاق لم يلتحق بأخيه على الأرجح إلاّ مع نهاية سنة 1516م. انظر في هذا الصدد :

- مجهول، نفس المصدر السابق، ص. 28 ؛ **مذكّرات خير الدين**، نفس المصدر السابق، ص ص. 79-80.

7. إنّ الأرشيف الإسباني يحتفظ برسالة أحد مساعدي قائد البنيون موسن نيكولاس كنت (Mossen Nicolao Quint) مؤرّخة في 27 أغسطس 1516م، و الّتي تصف لنا مجمل البطاريات الّتي نصبها عرّوج إزاء القلعة الإسبانية. انظر :

- **Apéndice de documentos**, in : Memorial Histórico Español, vol. VI, Imprenta de la real academia de la historia, Madrid, 1853, pp. 457-458.

انظر أيضًا :

- Berbrugger, **Le Pégnon…**, Op. cit., pp. 20-21 ; Hess, Ibid.

في 12 أغسطس، قبل قصف القلعة، أرسل عرّوج إنذارًا إلى قائدها يدعوه إلى التسليم والعـودة إلى بلاده. و إزاء رفض القائد الإسباني، أعطى الأمر بالشروع في قصفها بالمدافع ؛ لكن قلّة البارود و السفن الحربية الكافية لمهاجمة الإسبان بإحكام جعلته يدرك بعد أيّام عدم جدوى الاستمرار في العمليّة[1].

و عقب تلك المحاولة الفاشلة و كردّ فعل على امتداد النفوذ التركي العثماني إلى مدينة الجزائر الّذي بات يهدّد وجود قلعة البنيون، وجّه الإسبان حملة عسكرية كبـيرة تحـت قيـادة دييگو دي ڤيرا (Diego de Vera) غادرت ميناء قرطاجنة (Cartagena) في أواخر شهر سبتمبر[2].

مع بداية شهر أكتوبر، رسا أسطول الحملـة غـرب خلـيج الجزائـر و نـزل نحـو عشرة آلاف جنـدي إسباني بشاطئ الرميلة ناحية باب الوادي ؛ غير أنّ عرّوج أعدّ خطّة محكمـة لمواجهـة العـدوان، حيـث تسلّل على رأس ثلاثة آلاف رجل تحت جنح الظلام من أحد أبواب قصبة سيدي رمضان[3]، و قام بحركة التفافية خلف المرتفعات باغت بها الإسبان من الوراء ؛و من ثمّ خرج نحو ألف رجل من المدينة بحيـث وضعوا الأعداء بين فكي كمّاشة[4]، و ألحقوا بهم هزيمة نكراء قتل فيهـا بضـعة آلاف و تـمّ أسر قرابـة ألفين و سبعمائة منهم، بينما استشهد ثلاثمائة من الأتراك و المغاربة[5].

---

1. سامح التر، المرجع السابق، ص ص. 51-52. انظر أيضًا : - Berbrugger, **Le Pégnon…**, Op. cit., pp. 20-22.

2. تباينت تقديرات تعداد الحملة الإسبانية الأولى ضدّ مدينة الجزائر : فحسب "كتاب غزوات عرّوج و خير الدين"، تكوّنت الحملة من 320 سفينة حربية و سفينة نقل حملت على متنها ما يقرب من 15000 مقاتل ؛ بينما حدّد عدد الإسبان الّذين تمّ إنزالهم في "مذكّرات خـير الدين" بعشرة آلاف جندي : مجهول. **كتاب…**، المصدر السابق، ص. 29 ؛ **مذكّرات خير الدين**، المصدر السابق، ص. 77.

و ذكر ألفونس روسو، مترجم "الزهرة النيّرة"، بأنّ الحملة ضمّت من 60 إلى 80 سفينة أقلّت ما بين 8000 و 10000 رجل. انظر : - ***El-zohrat el-nayerat***. Op. cit., p. 18.

لكن الوثائق الإسبانية اكتفت - لتحجيم الهزيمة - بذكر أنّ الحملة تكوّنت من ثلاثين سفينة تحمل 1000 جندي و 2000 من البحّارة : - Berbrugger, Ibid., pp. 38-39.

3. قصبة سيدي رمضان هو الاسم الّذي عرفت به القصبة القديمة لمدينة الجزائر، و تعود تسميتها إلى وقوعها على مستوى جامع سيدي رمضان. انظر : - F. Cresti, « **Description et iconographie de la ville d'Alger au XVIe siècle** ». In : R.O.M.M. 34, 1982, p. 13.

4. **مذكّرات خير الدين**، نفس المصدر السابق، ص. 78.

انظر تفاصيل الحملة وفق الرواية الإسبانية، الّتي تجعل من هبوب عاصفة هوجاء السبب الرئيسي للهزيمة، في : - F. Lopez de Gomara, **Crónica de los Barbarrojas**, in : Memorial Histórico Español, vol. VI, Imprenta de la real academia de la historia, Madrid, 1853, p. 369 ; E. Pellissier, « **Mémoires historiques et géographiques sur l'Algérie** », in : Exploration scientifique de l'Algérie pendant les années 1840, 1841, 1842. Imprimerie Royale, Paris, 1844, pp. 27-28.

انظر أيضًا الرواية المفصّلة الّتي أوردها توفيق المدني : المدني، المرجع السابق، ص ص. 181-183.

5. **مذكّرات خير الدين**، نفس المصدر السابق، ص. 79.

و يذكر المدني من جهته أن خسائر الإسبان بلغت ثلاثة آلاف قتيل و ثمانمائة أسير : المدني، نفس المرجع السابق، ص. 183.

في غضون ذلك، قام خير الدين بإرسال عمارة بقيادة كورد أوغلو مصلح الدين ريّس[1] إلى المشرق في شهر سبتمبر[2]، بقصد الغزو[3] و استجلاب متطوّعين. و لئن كلّلت العملية الأولى بالنجاح، فإنّ نتيجة مهمّة التجنيد كانت محدودة بسبب تسخير القپودان دريا[4] جعفر بك الإمكانيات البحرية للدولة لتوجيه أسطول تموين حملة السلطان سليم ضدّ دولة المماليك، إلى الساحل الشامي[5] ؛ فقفل مصلح الدين راجعًا بعد أن استغرقت رحلته أزيد من شهرين[6]، مستصحبًا معه إسحاق بن يعقوب، أخّ عرّوج الأكبر.

أدرك الأخوان عرّوج و خير الدين أنّ الإسبان لن يسكتوا عن هزيمتهم في وادي المغاسل، و أنّه سيتعذر عليهما بسط نفوذهما على البلاد الجزائرية المنقسمة و المهدّدة دون الجند الكافي لمجابهة تلك الصعاب ؛ لأجل ذلك، قاما بإرسال كورد أوغلو مصلح الدين ثانية، رفقة محي الدين بيري ريّس في نهاية شتاء سنة 1517م، إلى السلطان سليم بمصر يعرضان عليه الوضع في البلاد و يستمدّانه بالجنود و قطع المدفعية[7]. في انتظار وصول المدد، بسط عرّوج نفوذه على المدية، ثمّ واجه أمير تنس أبو عبد الله الزياني الموالي للإسبان عند واد جرّ، فهزمه و تعقّب فلوله حتّى ضفّة وادي الشلف، ثمّ ضمّ مدينة مليانة في طريق إيابه[8]. و بعيْد ذلك، كلّف عرّوج أخاه خير الدين على رأس قوّة من ألف و خمسمائة

---

1. ورد في "كتاب غزوات عرّوج و خير الدين" ذكر هذا الريّس بشكل يوهم أنّ الأمر يتعلّق بشخصيتين مختلفين (قرط علي رئيس و مصلح الدين رئيس). انظر : مجهول، **كتاب...**، المصدر السابق، ص. 28.

2. J.-L. Bacqué-Grammont. « **Soutien logistique et présence navale ottomane en Méditerranée en 1517** », in : R.O.M.M. 39, 1985, p. 11.

3. **مذكّرات خير الدين**، المصدر السابق، ص. 75.

4. قپودان دريا : كلمة عثمانية مركّبة معناها "قبطان البحر"، و هو لقب أمير البحر العثماني قبل أن يرقى من رتبة البكوية (دريا بكى) إلى الباشوية (قپودان باشا) في عهد السلطان سليمان القانوني. انظر : - Barbier de Meynard. Op. cit., 1er vol., p. 737 & 2ème vol., p. 498.

5. السيّد محمود، المرجع السابق، ص. 243. انظر أيضًا : - Bacqué-Grammont, Ibid., pp. 10-16.

6. **مذكّرات خير الدين**، نفس المصدر السابق، ص ص. 76-77.

يعتري رواية "مذكّرات خير الدين باشا" عن رحلة مصلح الدين ريّس اضطراب، فالريّس المذكور لم يقابل حسب علمنا السلطان سليم في الإسكندرية في خريف سنة 1516م، بل في القاهرة مطلع يونيو 1517م. انظر في هذا الصدد : أحمد فؤاد متولي، **الفتح العثماني للشام و مصر و مقدّماته من واقع الوثائق و المصادر التركية و العربية المعاصرة له**، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1995، ص ص. 227-228. انظر أيضًا : - J. de Hammer-Purgstall, **Histoire de l'empire Ottoman depuis son origine jusqu'à nos jours**. Trad. J.J. Hellert, T. 4. Bellizard, Barthès, Dufour et Lowell. Paris, 1836, p. 335.

إضافةً إلى ذلك، لا تشير المذكّرات إلاّ لرحلة واحدة دامت شهرين فقط إلى شرق البحر المتوسّط ؛ و إن أخذنا بعين الاعتبار نشاط مصلح الدين و قيادته لأسطول لتموين الجيش العثماني بمصر في ربيع 1517م، فإنّنا نخلص إلى نتيجة أنّ هذا الريّس الشهير قام برحلتين مختلفتين. انظر : - Bacqué-Grammont, Ibid., pp. 19-23.

7. **مذكّرات خير الدين**، نفسه.

8. سامح الترء المرجع السابق، ص ص. 57-58 ؛ المدني، المرجع السابق، ص. 185.

جندي بمهاجمة أمير تنس الزياني و الحامية الإسبانية المعاضدة له ؛ فدانت له المدينة عقب فرار أميرها، و تمّ دحر الإسبان[1].

صادف رجوع خير الدين إلى الجزائر، عودة مصلح الدين ريّس من مصر بعد أن قابل السلطان العثماني، الّذي أمدّه بقرابة الألف جندي[2]، معظمهم من قوّات العزب و المتطوّعين (اللوند) و السواري (الفرسان)[3]، بالإضافة إلى عددٍ من المدافع[4] ؛ و الأهمّ من ذلك، سلّمه خلعتين سلطانيتين و خطًّا همايونيًا أضفى على عرّوج و أخيه رتبة أمير لواء بحري الّتي تخوّلهما حمل لقب بك (باي)[5]، و هذا ما يفسّر اقتسامهما مناصفة البلاد الجزائرية المفتوحة، "**فكانت الناحية الشرقية لخير الدين و الغربية لأخيه ؛ و استوطن خير الدين مدينة تدلس[6] من الناحية الشرقية، و جعل معه عسكرًا من جماعة غزاته، و قرّر لهم**

- Henri-Delmas de Grammont, **Histoire d'Alger sous la domination turque, 1515-1830**. Éditions Bouchène, Paris, 2002, p. 43.

1. **مذكّرات خير الدين**، المصدر السابق، ص ص. 80-82.

2. يمكن استنتاج هذا الرقم، بمقارنة عدد أفراد حملة عرّوج بمعركة واد جرّ في يونيو 1517م و حملة خير الدين ضدّ تنس في أغسطس: 1000 تركي و 500 أندلسي، مع الجيش الّذي قاده عرّوج في تلمسان في خريف تلك السنة : 4000 جندي، أزيد من نصفهم من الأتراك. انظر : نفسه، ص ص. 81 و 87. انظر أيضًا : - Haëdo, **Histoire…**, Op. cit., p. 26.

3. اللوند : كلمة فارسية الأصل تعني "حرّ" ؛ و كانت تطلق على الجندي المتطوّع، بالأخصّ الّذي يخدم في البحرية، أو فرق الحرس الخاصّ لبعض حكّام الأقاليم العثمانية. انظر :

- Barbier de Meynard, Op. cit., 2e vol., p. 709 ; Kieffer & Bianchi, Op. cit., 2e vol., pp. 720-721.

و لقد ذكر هايدو بشأنهم : "**أولاء الجنود هم… من الأعلاج و من بعض الأتراك الّذين لا يكسبون رزقهم إلاّ من تلك المهنة. و جميع جنود البحر أولئك يدعون اللوند ؛ ليس لهم راتب و لا مكسب سوى ممّا يحصّلونه من السلب. و لتدبّر أمر نفقاتهم الخاصّة، يشتركون في زمرٍ من عشرة أو اثنا عشرة فردًا، و أكثر**" :

- Fray Diego de Haedo, **Topographia e Historia general de Argel**, Diego Fernandez de Cordova y Oniedo, Valladolid, 1612, f. 16 v°.

4. **مذكّرات خير الدين**، نفس المصدر السابق، ص ص. 76-77. انظر أيضًا : سامح التر، المرجع السابق، ص ص. 58-59.

5. أوزتونا، المرجع السابق، مج. 1، ص. 253.

في رسالة أعيان الجزائر إلى السلطان المؤرّخة في أوائل ذو القعدة 925 هـ/نهاية أكتوبر 1519م، ذكر اسم عرّوج تحت الشكل "أروج بك" (في الأصل العثماني)، علما أنّ "بك (باي)" بالمقام الأوّل لقب وظيفة يحمله [ا]مير لوا أو سنجق بكي، أي حاكم مقاطعة عثمانية برتبة باشا ذو طوغ (ذيل حصان) واحد ؛ و لا نعتقد أنّ "بك" يحمل في الوثيقة المذكورة أي تضمين تشريفي مغاير. انظر : عبد الجليل التميمي، **"أوّل رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأوّل سنة 1519"**، في : م.ت.م.، 6 (يوليو 1976)، ص. 120 ؛ كاتب چلبي، **تحفة الكبار في أسفار البحار**، دار الطباعة المعمورة، القسطنطينية، 1141هـ/1724م، وو. 14-15.

– R. Mantran, "**L'évolution des relations entre la Tunisie et l'Empire ottoman du XVIe au XIXe siècle**", in : C.T., 26-27, 1959, p. 327, n. 22.

6. تدلس : الاسم القديم لمدينة دلّس، و قد أشار الوزّان أنّها كانت وقتذاك تتبع دائمًا الجزائر في كلّ شيء، حكومة و إمارة. انظر : الوزّان، المصدر السابق، ج. 2، ص. 42.

المرتّب ليستعين بهم على فتح ما بقي من تلك الناحية، و جعل في كلّ موضع من تلك العمالة نائبًا من قبله، فكان عدد نوّابه (قوّاده) **أربعة**"[1]. و هكذا، قاما بتنظيم سنجقيهما وفق أسس الإدارة العثمانية[2]، كما أمرا بالدعاء للسلطان سليم رسميًا على منابر المساجد و ضرب السكّة باسمه[3].

على إثر رجوع الأمير الزياني[4] إلى تنس بدعم من الإسبان، خرج عرّوج في حملة لاسترجاع المدينة و دحر العميل ؛ و خلال مقامه هناك، جاءه وفد من أعيان تلمسان يشكو السلطان أبو حمّو الثالث المتحالف مع الإسبان، الّذي اغتصب العرش من ابن أخيه أبي زيّان الثالث و رماه في السجن[5]. بادر عرّوج إلى طلب المدد و المدفعية من أخيه خير الدين الّذي استخلفه على الجزائر. و بعدما تعزّز صفّه بالقوّة المؤلّفة من ألف جندي تركي و ألفي فارس عربي تحت إمرة أخيه الأكبر إسحاق الّتي أرسلها خير الدين[6]، بالإضافة إلى حوالي ألف و خمسمائة فارس من الموالين للسلطان المخلوع الّذين انضمّوا له[7] ؛ عجّل عرّوج المسير إلى تلمسان و سيطر في طريقه على مستغانم و قلعة بني راشد[8] الاستراتيجيتين[9]، و ترك فيهما حاميتين لبسط النفوذ و تأمين خطّ المواصلة مع الجزائر.

تواجه جيش عرّوج البالغ تعداده نحو خمسة آلاف، منهم ألف و خمسمائة أو ألف و ستّمائة من حملة البنادق[10]، مع جيش أبي حمّو المؤلّف من ستّة آلاف فارس و ثلاثة آلاف راجل في أوائل سبتمبر عند سهل أغبال[11] ؛ و كان النصر حليفًا لعرّوج، الّذي دخل تلمسان ظافرًا و أجلس أبا زيّان الثالث على كرسي السلطنة، بدل أبي حمّو الّذي فرّ إلى فاس، ومن ثمّ إلى وهران حيث أجمع مع قائدها الإسباني المركيز دو كومارس (Marquis de Comares) و أمير تنس على ضرورة طرد الأتراك من البلاد.

---

1. مجهول. **كتاب...**، المصدر السابق، ص. 31.

2. سامح التر، المرجع السابق، ص. 58 ؛ المدني، المرجع السابق، ص ص. 185–186 ؛ أوزتونا، المرجع السابق، مج. 1، ص. 248.

3. أوزتونا، نفس المرجع السابق، ص. 253.

4. هذا الأمير الزياني يعرف أيضًا في بعض المصادر باسم حميد العبدي أو حميدة العبد (نسبةً إلى عبد الواد ؟) :

- F. Élie de la Primaudaie, « **Documents inédits sur l'histoire de l'occupation espagnole de l'Afrique (1506-1574)** », in : R.A. 19, 1875, p. 152, n. 2 ; Haëdo, **Histoire...**, Op. cit., p. 26, n. 1.

5. Haëdo, Ibid., p. 27 ; Élie de la Primaudaie, Ibid, p. 149, n. 1.

6. **مذكّرات خير الدين**، المصدر السابق، ص ص. 88-89.

7. Haëdo, Ibid., p. 28.

8. قلعة بني راشد : قلعة منيعة تعرف أيضا بقلعة هوّارة و قلعة القلاع، تقع عند منحدر جبل بين الشعاب، منتصف الطريق بين غليزان و معسكر : الوزّان، المصدر السابق، ج. 2، ص. 26 ؛ المدني، نفس المرجع السابق، ص. 188 ؛ سامح التر، نفس المرجع السابق، ص. 61، ه. 3.

9. Élie de la Primaudaie, Ibid., pp. 148-153 ; Haëdo, Ibid.

10. E. Mercier, **Histoire de l'Afrique septentrionale**, Vol. 3. Leroux. Paris, 1891, p. 19.

11. سهل أغبال : سهل يقع جنوب شرق سبخة وهران، و يبعد حوالي خمسة و عشرين كيلومتر جنوب وهران. انظر :

من جهته، قام عرّوج بإرسال مفارز عسكرية إلى النواحي لبسط النظام و جمع الضرائب، و أقام حاميات في النقاط المهمّة مثل هنين[1] و وجدة[2] ؛ كما قام بترميم الأسوار و الأبراج استعدادًا للتصدّي لتحرّكات محتملة من الإسبان و المرجفين[3]. و فعلاً، قام أبو حمّو على رأس جموع الأعراب، و مستعينًا بفرقة إسبانية من ثلاثمائة جندي[4]، بحصار قلعة بني راشد في ديسمبر، قصد قطع خطّ الرجعة و الإمداد عن عرّوج في تلمسان[5]. و الجدير بالذكر أن هذا الأخير كان قد ترك في القلعة حامية من مئتي جندي تركي تحت قيادة أخيه إسحاق ؛ و فور علمه بالأمر، أرسل قوّة نجدة من خمسمائة أو ستّمائة جندي يقودها العلج الكورسيكي القائد إسكندر[6]، اخترقت صفوف المحاصِرين، في 30 يناير 1518م، إلاّ أنّها تكبّدت خسارة مائة و ثمانين رجلاً[7].

بعد ستّة أشهر من الحصار، اضطرّ استشهاد ثلثي أفراد الحامية و نفاذ المؤن إسحاق إلى الاتّفاق مع القائد الإسباني على إخلاء القلعة، شريطة انسحاب جنوده بكامل أسلحتهم إلى تلمسان ؛ لكن بمجرد خروج الأتراك، هاجمهم الإسبان و مواليهم العرب غدرًا و تتبعوهم تقتيلاً حتّى أفنوهم، ما عدا ستّة عشر رهينة صيرّوهم أسرى[8]. بعدها، قام المركيز دو كومارس بتسيير القوّات المرسلة من إسبانيا، و البالغ عددها عشرة آلاف، من منطقة رشقون[9] إلى تلمسان، حيث انضمّت إليها جموع أبي حمّو في الطريق[10].

- Élie de la Primaudaie, Ibid., p. 173, n. 3.

1. Élie de la Primaudaie, Op. cit., 1875, pp. 151 & 153.

2. سامح التر، المرجع السابق، ص. 58.

3. نفسه، ص. 63. أثارت هذه التدابير تخوّف السلطان أبو زيّان من انفلات الحكم من يديه، غذّاه التجاء عمّه للإسبان لطلب المساعدة و تهويل رجال البلاط، و نرجّح أنّه من أرسل القائد أحمد إلى المركيز دي كومارس كي يستميله ؛ و عندما اكتشف عرّوج خيوط المؤامرة، قام بإعدام أبي زيّان و جميع المتواطئين معه. انظر في هذا الصدد : - Id., pp. 152-153.

- المدني، المرجع السابق، ص. 189 ؛ سامح التر، نفس المرجع السابق، ص. 62، ه. 2 ؛ كليل صالح، **سياسة خير الدين في مواجهة المشروع الإسباني لاحتلال المغرب الأوسط**. ماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر، جامعة باتنة، 2007، ص. 100.

4. يذكر صاحب غزوات عرّوج و كاتب چلبي أنّ القوّات المحاصرة بلغت خمسة عشر ألف عربي، يعاضدهم ألف و خمسمائة إسباني مسلّحين بالبنادق : مجهول. **كتاب...**، المصدر السابق، ص. 33 ؛ چلبي، المصدر السابق، و. 14.

5. سامح التر، نفس المرجع السابق، ص. 64. انظر أيضًا : - Mercier, Op. cit., p. 21.

- المدني، نفس المرجع السابق، ص. 188. 6. Élie de la Primaudaie, Ibid., p. 149 ; Haëdo, **Histoire...**, Op. cit., p. 28.

7. Élie de la Primaudaie, Ibid.

8. أحمد بن محمّد بن علي بن سحنون الراشدي، **الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني**، تحقيق و تقديم المهدي البوعبدلي، الجزائر، 1973، ص. 440 ؛ مجهول، نفس المصدر السابق، ص ص. 33-34 ؛ سامح التر، نفس المرجع السابق، ص. 65 ؛ المدني، نفس المرجع السابق، ص ص. 189-190 ؛ كليل، نفس المرجع السابق، ص. 101.

9. أرشقول : مدينة تدعى حاليًا رشقون، تقع على بعد خمسة و أربعين كيلومتر شمال تلمسان، عند مصبّ نهر التافنة.

10. سامح التر، نفس المرجع السابق، ص ص. 65-66 ؛ المدني، نفس المرجع السابق، ص. 190.

بادر عرّوج إلى مهاجمتهم قبل أن يحكموا الحصار على المدينة ؛ و كانت تلك المعركة الّتي دامت ثلاثة ساعات و نصف بادئة سلسلة مواجهات عنيفة دامت ثلاثة أشهر و أسفرت عن خسائر فادحة للطرفين[1]، و بالأخصّ قوّات عرّوج الأقلّ عدديًا، كما أدّت إلى انفضاض الأهالي، بل و انقلابهم عليه[2]. و في نهاية المطاف، تمكّن الإسبان من ثلم الأسوار و دخلوا المدينة، فاضطرّ عرّوج و خمسمائة من جنوده المتبقين للانسحاب إلى حصن المشور، حيث بقوا محاصَرين مدّة ستّة و عشرين يومًا[3]. و على إثر نفاذ المؤن و الذخيرة، قرّر عرّوج الهروب ليلاً عبر بوابة سرّية مخترقًا صفوف الأعداء، الّذين لم يتفطّنوا له إلاّ بعد ساعات، و قاموا بملاحقته بمن معه من الجنود حتّى أدركوهم اليوم التالي و قتلوهم عن آخرهم[4].

بعد مقتل عرّوج قرب تلمسان في أكتوبر 1518م[5]، خلفه خير الدين في حكم الجزائر بمبايعة أعيان المدينة و قادة الجند ؛ و لكنّه وجد نفسه في موقفٍ صعبٍ للغاية، نظرًا لقلّة جنوده إزاء ثورة المناطق المحيطة بالجزائر[6]، و إعادة بسط أبي حمّو نفوذه حتّى مليانة[7]، ناهيك عن الخطر الإسباني المحدق. لذلك، سارع خير الدين إلى أخذ احتياطاته عبر ترميم التحصينات و خندقة محيط المدينة و تخزين المؤن الكافية، كما أمر باستكمال تجهيز سفنه[8] ؛ و في ربيع سنة 1519م، خرج إلى الناحية الغربية بمحلّة[9]، لتلقي فروض الطاعة، ثمّ رابط بأحواز الجزائر يترقّب قوّات سلطان تلمسان[10].

---

1. **مذكّرات خير الدين**، المصدر السابق، ص ص. 89-90.

2. سامح التر، المرجع السابق، ص. 66 ؛ المدني، المرجع السابق، ص. 191.

- de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 45 ; Mercier, Op. cit., p. 22.

3. كليل، المرجع السابق، ص ص. 101-102.

4. de Grammont, Ibid., p. 46 ; J.-J.-L. Bargès, **Compléments de l'histoire des Beni-Zeiyan, rois de Tlemcen**. Dar Alif, Aïn Defla, 2011, p. 444.

انظر أيضًا في هذا الصدد : **مذكّرات خير الدين**، نفس المصدر السابق، ص ص. 91-92.

5. بخصوص تاريخ استشهاد عرّوج، انظر : سامح التر، نفس المرجع السابق، ص. 69، ه. 1.

6. كليل، نفس المرجع السابق، ص. 106.

7. سامح التر، نفس المرجع السابق، ص. 71. انظر أيضًا : - de Grammont, Ibid., p. 47.

8. **مذكّرات خير الدين**، نفس المصدر السابق، ص. 93.

9. حسب كتاب "غزوات عرّوج و خير الدين"، ضمّت المحلّة ستمائة جندي من المشاة و عشرين ألف فارس ؛ و هذا الرقم الأخير يبدو لنا مبالغًا فيه، حيث نعتقد أنّ الرقم الحقيقي بالنسبة لتعداد الفرسان أقرب إلى الألفين منه إلى الرقم المذكور، بالنظر إلى طلب خير الدين من سكّان الناحية الغربية مصانعة سلطان تلمسان و إطاعته ظاهريًا : مجهول. **كتاب…**، المصدر السابق، ص. 34.

10. نفسه، ص. 35. انظر أيضًا : ابن رقية محمّد بن عبد الرحمن بن الجيلاني الجديري التلمساني، **الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة**، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 1626، 1194هـ/1780م، و. 4.

و مثلما كان متوقّعًا، فقد أمر الإمبراطور شارلكان، الّذي كان متأثرًا بهزيمة قائده دييگو دي ڤيرا و مصمّمًا على القضاء نهائيًّا على الوجود التركي في شمال إفريقيا، نائبه على صقلية هيگو دي منكادا (Hugo de Moncada) بتجهيز حملة لاحتلال الجزائر ؛ كما وجّه في ذات الوقت أمرًا إلى حاكم وهران بتكليف سلطان تلمسان بتوجيه قوّاته إلى المدينة لمعاضدة القوّات الإسبانية. تحرّك الأسطول من صقلية في يوليو من سنة 1519م، و توقّف في وهران و من ثمّ بجاية حيث انضمّت إليه قوّات إضافية ؛ ثمّ توّجه منكادا إلى خليج الجزائر، الّذي وصله منتصف شهر أغسطس[1].

بعث قائد الحملة رسالة تحذير إلى خير الدين يطلب منه الاستسلام، فردّ هذا الأخير عليها بجرأة و أنفة "**فما دمنا في قيد الحياة فإنّكم لا تظفرون من الجزاير بحجر من أحجارها، و ليس بيننا و بينكم إلاّ السيف**"[2] ؛ عندئذٍ، بدأت القوّات الغازية عمليات الإنزال جنوب شرق المدينة. و بينما كان خير الدين يعدّ جنوده للقتال، شرعت القوّات الإسبانية بتطويق جزئي للمدينة بعد أن انقسمت إلى قسمين، الأوّل يهاجمها من الغرب من موقع كدية الصابون و الآخر من جهة الجنوب، بينما اصطفّت السفن الحربية في صفٍّ واحد قبالة المدينة و بدأت تقصف استحكاماتها الساحلية[3].

من جانبه، قسّم خير الدين جيشه الّذي يتكوّن من خمسة آلاف رجل إلى ثلاثة أقسام، تاركًا 300 تركي و 300 جزائري داخل المدينة لحمايتها. و قبل أن يقرّر الإسبان تنفيذ هجومهم، أرسل خير الدين مفرزة من خمسمائة جندي لتهاجم معسكر الإنزال ؛ فأحدث عنصر المفاجأة خللاً و إرباكًا في صفوف القوّات الإسبانية الّتي تضعضعت و غذت تتقهقر بلا نظام باتجاه البحر، في حين أمعن الأتراك و الجزائريون في أفرادها أسرًا و تقتيلاً[4].

كان صنيعة الإسبان، السلطان الزياني أبو حمّو الثالث، قد قضى نحبه على الأرجح بضعة أشهر بعد استشهاد عرّوج، و تولّى المُلك بعده أخوه عبد الله الثاني، الّذي أطاح به خير الديّن لصالح أخيه مسعود، بسبب تحالفه مع الإسبان قبيل حملة منكادا. انظر : سامح التر، نفس المرجع السابق، ص. 210.

1. سامح التر، المرجع السابق، ص. 76.

2. ابن رقية، المصدر السابق، و. 4.

3. ***El-zohrat el-nayerat***, Op. cit., p. 63.

4. تذكر المصادر المحلية أنّ تعداد أفراد الحملة الإسبانية بلغ 20.000، استطاع 6.000 منهم فقط النجاة من قبضة المسلمين ؛ في حين لا تورد المصادر الإسبانية سوى مشاركة 4.500 أو 5.000 جندي فقط. و من جهته، يذكر البندقي سانوتو (Sanuto) أنّ عددهم بلغ 10.000، و هذا الرقم هو الّذي نأخذ به، لأنّه يتوافق نسبيًا مع أعداد الغرقى و الأسرى المستقاة من المصادر المذكورة. انظر :

- Lopez de Gomara, Op. cit., p. 380 ; Haëdo, **Histoire…**, Op. cit., p. 36.

- مجهول، **كتاب…**، المصدر السابق، ص. 36 ؛ ابن رقية، نفسه ؛ چلبي، المصدر السابق، و. 14. انظر أيضًا :

- Marino Sanuto, **I Diarii**, Vol. 26, eds. Federico Stefani, Guglielmo Berchet, and Nicolò Barozzi, Venice, 1889, p. 58.

نقلاً عن :

- Gürkan, **Ottoman…**, Op. cit., p. 67.

1-2. الجزائر في عهد خير الدين باشا و خلفائه (1519-1556م)

1-2-1. الجزائر في عهد خير الدين باشا (1519-1533م)

بعد هذا الانتصار، قرّر خير الدين توطيد ارتباط الجزائر بالدولة العثمانية، و أقنع أعيان المدينة بتجديد فروض الولاء و الطاعة للسلطان سليم الأوّل ؛ و أشار عليهم بأن يكتبوا للسلطان بـذلك[1]، كـما كتب هو الآخر رسالة مماثلة يعلم فيها السلطان بمقتل أخيه عرّوج و حراجة موقفه رغم انتصاره الأخـير. و كلّف الفقيه أبا العبّاس أحمد بن القاضي[2] برئاسة الوفد، و أرفقه برسوله الخاصّ حاجي حسـين آغـا[3] ؛ و جهّز أربعة سفن محمّلة بمختلف الهدايا مـع أربعـين أسـيرًا و أربعـة قباطنـة مسـيحيين، لتقـلّ الوفـد الجزائري إلى الآستانة[4].

قبِل السلطان سليم الأوّل التماس الوفد الجزائري، وأرسل لخير الدين سيفًا مرصّعًا و سنجقًا و خلعة سلطانية و فرمانًا يقضي فيه بتعيينه بايلربايًا على الجزائر، و زوّده بعدد من رجال الحرس[5]. و إثر عودة

للمقارنة، إنّ حملة هيگو دي منكادا و دييگو دي ڤيرا ضدّ جزيرة جربة - الّتي ظلّت مركز عبور للمتطوّعين الأتراك القادمين من الشرق -، في مايو 1520م، استخدمت فيها نفس أعداد السفن تقريبًا (13 قادرغة و 70 سفينة أخرى) و ضمّت 13.000 جندي مشاة. انظر :

- Hess, Op. cit., p. 67 ; Gürkan, Ibid., p. 72.

1. چلبي، المصدر السابق، و. 15.

انظر نصّ الرسالة المعرّب، الّتي يعود تاريخها لأواخر أكتوبر 1519م : التميمي، "**أوّل...**"، المرجع السابق، ص ص. 119-120.

2. أحمد بن القاضي : ينسب إلى أبي العبّاس القاضي الغبريني، الّذي اشتغل بالقضاء في بجاية، في عهد السلطان أبي البقاء الحفصي الّذي قتله في مطلع القرن الرابع عشر بتهمة تدبير مؤامرة لاغتياله ؛ و لأنّ أبو العبّاس ينحدر من قبيلة أولاد غبري، في جرجرة، فإنّ عائلته انتقلت من بجاية إلى أورير. و عند سقوط بجاية بيد الإسبان، استغلّ أحمد بن القاضي الفراغ السياسي في منطقة القبائل و أنشأ الإمارة الّتي عرفت باسم إمارة أولاد القاضي أو باسم إمارة كوكو، نسبة لعاصمتها. و تعود العلاقة بين خير الدين و أخيه عرّوج و ابن القاضي إلى سنة 1513م خلال الهجوم الأوّل على بجاية المحتلّة من قبل الإسبان. كلّفه خير الدين برئاسة الوفد الجزائري إلى السلطان سليم، لكنّه توفي على الأرجح غرقًا في طريق العودة، في فبراير 1520م. انظر : صالح عبّاد، **الجزائر خلال الحكم التركي : 1514-1830**، دار هومه، الجزائر، 2005، ص. 34.

3. انظر في هذا الصدد : محمّد درّاج، **الدخول العثماني إلى الجزائر و دور الإخوة بربروس (1512-1543)**، الأصالة، الجزائر، 2012، ص ص. 229-230، ه. 3.

4. **مذكّرات خير الدين**، المصدر السابق، ص. 93 ؛ مجهول، **كتاب...**، المصدر السابق، ص. 42 ؛ چلبي، نفسه ؛ سامح التر، المرجع السابق، ص ص. 72-73.

5. چلبي، نفسه ؛ سامح التر، نفس المرجع السابق، ص. 72.

دامت رحلة الوفد الجزائري قرابة الأربعة أشهر و نصف، إذ أنّه في طريق العودة اعترضت ثمان قادرغات بندقية سفنه، فأغرقت ثلاثًا منها و تعقّبت رجال السفينة الرابعة، الّتي جنحت إلى الساحل ؛ و لم ينجُ من الغرق، القتل أو الأسر إلاّ حاجي حسين مع ثلاثة من رجاله، فاتّجه إلى بلدة ميثوني - الواقعة أقصى جنوب غرب شبه جزيرة المورة - و منها عاد إلى الآستانة، حيث هدّد الصدر الأعظم سفير البندقية بإعلام السلطان إن لم تعوّض السفن بمعدّاتها مع ردّ الأسرى. بعد أن امتثل البنادقة، كمّل حاجي حسين طواقم السفن و شحنها بالمتطوّعة ؛ ثمّ أبحر عائدًا إلى الجزائر. انظر في هذا الصدد : مجهول، نفس المصدر السابق، ص ص. 42-44 ؛ چلبي، نفسه.

الوفد إلى الجزائر في منتصف شهر أبريل 1520م، جمع خير الدين أعيان و رجال دولته في ديوان عامّ، و أعلمهم أنّ السلطان رفع الجزائر إلى مصاف إيالة عثمانية و أنّه رقّاه إلى رتبة بكلربك (بايلرباي)[1] ؛ و تخليدًا لهذه الذكرى، أمر ببناء مسجدٍ حمل اسمه بجوار قصر الإمارة[2].

لقد قام السلطان العثماني بحلّ مسألة احتياج خير الدين للسلاح و الذخيرة، كما زوّده بآلاف الجنود، حيث أرسل له ألفين من عسكر القپو قولي[3]، معظمهم من أوجاق الإنكشارية، إلى جانب مئات من الصبايحية و الطوبجية، و عزّزهم بحوالي أربعة آلاف متطوّع من الأناضول أدرجهم خير الدين في قوّاته البحرية (العزب و اللوند)[4].

كان أوّل عمل قام به خير الدين، عقب وصول تلك القوّات، تهيئة أماكن إقامة للجنود، فأمر ببناء عدّة ثكنات داخل المدينة[5] ؛ و في انتظار إتمامها، وزّع قسمًا منهم على حاميات الحصون و الأبراج، في حين أشغل الباقين بالحملات العسكرية. إذ في ربيع السنة المذكورة، أرسل خير الدين محلّة، بالموازاة مع عمارة بحرية، إلى الناحية الغربية بهدف استعادة تنس ؛ فاستنجد أميرها بالإسبان، الّذين أرسلوا له خمس عشرة سفينة لمساعدته، إلاّ أنّ القوّات الجزائرية انتصرت على الإسبان و سيطرت على المدينة[6]. و قاد البايلرباي بنفسه عمارة أخرى، و توجّه بها مباشرة إلى تنس. هناك، قبِل ولاء حميد العبدي، الّذي كان أخوه

- Sander-Rang & Denis, Op. cit., T. I, pp. 88-91 ; Asma Moalla, **Sous le toit de l'Empire. La Régence de Tunis 1535-1666 : Genèse d'une province ottomane au Maghreb**, T. 1, Éditions Script, Tunis, 2012, p. 62.

فيما يخصّ تحديد تاريخ رحلة الوفد الجزائري، انظر : التميمي، نفس المرجع السابق، ص. 120 ؛ سامح التر، نفس المرجع السابق، ص ص. 72-73، ه. 2 ؛ **مذكّرات خير الدين**، المصدر السابق، ص ص. 95-98 و 109.

1. بكلربك : لفظ عثماني ينطق بايلرباي، و يعني "أمير الأمراء" ؛ و هو لقب وظيفة يحمله حاكم إيالة عثمانية برتبة باشا ذو طوغين (ذيل حصان). انظر : - Mantran, « **L'évolution des relations entre…** », Op. cit., p. 321, n. 4.

2. Gabriel Colin, **Corpus des inscriptions arabes et turques de l'Algérie. I. Département d'Alger**, Ernest Leroux, Paris, 1901, pp. 13-15.

انظر بخصوص مسجد خير الدين، المعروف أيضًا بمسجد الشوّاش :

- A. Devoulx, « **Les édifices religieux de l'ancien Alger** », in : R.A. 11, 1867, pp. 454-457.

3. انظر المبحث الثاني من المدخل.

4. Haëdo, **Histoire…**, Op. cit., p. 36. - **مذكّرات خير الدين**، المصدر السابق، ص. 100.

انظر أيضًا : سامح التر، المرجع السابق، ص ص. 72-73 ؛ مبارك بن محمّد الهلالي الميلي، **تاريخ الجزائر في القديم و الحديث**، ج. 3، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 1964، ص ص. 52-53 ؛ كورين شوفالييه، **الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر، 1510–1541**، ترجمة جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص. 41 ؛ عائشة التمالي، **التشكيلات العسكرية الأهلية في الجزائر خلال العهد العثماني (1518-1830م)**، ماجستير في التاريخ الاجتماعي و الثقافي المغاربي عبر العصور، جامعة أحمد دراية، أدرار، 2015-2016، ص. 28.

5. انظر فيما يخصّ الثكنات ثالث مطالب الفصل الخامس.

6. سامح التر، نفس المرجع السابق، ص. 78، ه. 1.

عرّوج قد نحّاه عن الحكم، لقاء تأدية إتاوة سنوية[1]، و ترك حامية بقلعة المدينة قبل أن يغزو بكامل أسطوله سواحل بلنسية الإسبانية ؛ و من ثمّ، توجّه إلى مستغانم الّتي فتحها دون عناء[2].

في مستغانم، أرسل خير الدين محلّة قوامها ألف جندي إلى تلمسان، ليدعم جانب الأمير الزياني عبد الله في صراعه ضدّ أخيه مسعود على العرش ؛ و تمكّن الإنكشارية و جنود البحرية من دحر هذا الأخير و تنصيب مولاي عبد الله مجدّدًا شريطة إعلان ولائه للسلطان العثماني و دفع إتاوة لعامله[3].

و هكذا، نرى أنّ خير الدين وضع ثقته في الزعماء المحلّيين - رغم تقلّب بعضهم - واعتمد عليهم في حكم أنحاء البلاد الجزائرية ؛ و وفق نفس المنظور، كان قد قسّم عمالة الجزائر السنة الفارطة إلى سنجقين : سنجق شرقي عهِد به إلى أحمد بن القاضي، يشمل مجمل البلاد القبائلية الشرقية، بين دلّس و بجاية، و سنجق غربي عهِد به إلى محمّد بن علي[4]، يتضمّن إمارة تنس السابقة، و يمتّد إلى حدود المملكة الزيانية[5] ؛ و ذلك، فيما احتفظ تحت إدارته المباشرة إجمالاً بإقليم متيجة، الّذي سيعرف منذئذٍ بدار السلطان.

و في الوقت الّذي كان فيه خير الدين يحاول تثبيت نفوذه في الجزائر، راسل السلطان الحفصي مولاي محمّد أحمد بن القاضي الابن[6] محرّضًا له على الثورة ضدّ "الأتراك"، فقد تخوّف بعد فتح مصر و صيرورة الجزائر إيالة عثمانية من امتداد النفوذ التركي إلى بلاده[7] ؛ و بعد أن تواثق الرجلان على محاربة خير الدين، قاد الحفصي جيشه إلى عمق الأراضي الجزائرية، فخرج إليه بربروس في جيش من حوالي اثني عشر ألف رجل و هزمه عند سهل يسّر. لكن بينما كان المنتصر قافلاً إلى عاصمته، كمن له ابن القاضي بقوّاته في الشعاب الجبلية بفليسة أوملال و باغته بهجوم من كلّ جانب، فانهزم الأتراك العثمانيون و انسحبوا بصعوبة بالغة إلى الجزائر، بعد أن تكبّدوا خسارة 750 قتيل و 500 أسير[8].

---

1. Haëdo, **Histoire…**, Op. cit., p. 36.

2. **مذكّرات خير الدين**، المصدر السابق، ص. 105.

انظر أيضًا : أوزتونا، المرجع السابق، مج. 1، ص. 254.

3. **مذكّرات خير الدين**، نفس المصدر السابق، ص ص. 105-108.

4. بالرغم من بحثنا في المصادر، لم نجد أيّة معلومات عن هذه الشخصية، سوى أنّه شيخ عربي متنفّذ يتزعّم قبيلة كبيرة (ريغة ؟).

5. المدني، المرجع السابق، ص. 211 ؛ درّاج، **الدخول...**، المرجع السابق، ص. 248.

6. تجدر الإشارة إلى أنّ المصادر - باستثناء مذكّرات خير الدين - تخلط بين الشيخ الفقيه أحمد بن القاضي و ابنه الّذي حمل نفس الاسم، ممّا حيّر المؤرّخين بشأن دوافع انقلاب ابن القاضي على خير الدين. انظر في هذا الصدد : **مذكّرات خير الدين**، نفس المصدر السابق، ص. 109.

7. نفسه.

8. نفسه، ص ص. 110-111.

انظر أيضًا : مجهول. **كتاب...**، المصدر السابق، ص ص. 50-51 ؛ درّاج، نفس المرجع السابق، ص ص. 250-251.

اغتنم ابن القاضي الفرصة من أجل مدّ نفوذه على المنطقتين الشرقية و الوسطى للجزائر، و إثارة سكّانها ضدّ الوجود العثماني ؛ و لم يبق بيد خير الدين إلاّ مدينة الجزائر و فحوصها القريبة. و في خريف تلك السنة، حاصر ابن القاضي العاصمة و ضيّق عليها، غير أنّ مع بداية موسم الأمطار، أراد أتباعه الانفضاض لأجل بذر أراضيهم، و بسبب ذلك، جنح للصلح و تراضى مع خير الدين على تبادل الأسرى[1]. لكن بعد مرور أربعة أشهر، نقض ابن القاضي الصلح و أرسل جيشًا قوامه أربعون ألف رجل بقيادة أخيه، فتصدّى له جيش عثماني من عشرة آلاف رجل، الّذي رجحت له كفّة النصر رغم خسارته لألفي قتيل و عدد مماثل من الجرحى[2]. و انتهز سكّان المدينة قلّة الجند التركي للثورة على خير الدين، و لكنّهم انهزموا و ضربت أعناق زعماء التمرّد، و على رأسهم شيخ البلد بن التومي الّذي قطّع جسده إلى أربع قطع علّقت على أبواب المدينة للعبرة[3].

بعد تلك الواقعة، وجّه خير الدين جيشًا أمّر عليه قارة حسن في هجوم مضاد، فتمكّن من استعادة قسم كبير من الناحية الشرقية، إلاّ أنّ ابن القاضي أغراه باقتسام البلاد و نبذ طاعة خير الدين[4]. كانت هذه الخيانة القشّة الّتي قصمت ظهر البعير، إذ فقد خير الدين في ظرف سنة واحدة أقلّ بقليل من نصف تعداد قوّاته في المواجهات الدامية مع قوّات ابن القاضي، مع احتساب الجنود الّذين فضّلوا الرجوع إلى إقليم الروم[5] ؛ و فوق ذلك، شقّت أغلب المناطق عصا الطاعة، فانقطعت الميرة عن الجزائر. لأجل كلّ ذلك، ارتأى خير الدين الانسحاب إلى معقله القديم جيجل، و ترك الجزائر التي سقطت سريعًا في يد ابن القاضي في صيف سنة 1521م.

و خلال ثلاث سنوات و نصف حكم فيها ابن القاضي إمارته من مدينة الجزائر[6]، كان خير الدين بربروس في ذات الوقت يعيد، انطلاقًا من جيجل، بناء قوّاته من جديد عبر تكثيف نشاط القرصنة و مدّ نفوذه في الشرق[7]. فقد قام خير الدين ببسط سيطرته على القلّ في 1521م، و ركّز بها حامية من 200 جندي

---

1. مجهول، **كتاب...**، المصدر السابق، ص. 52.

2. **مذكّرات خير الدين**، المصدر السابق، ص. 114.

3. نفسه، ص ص. 114-117. انظر الرواية المفصّلة للتمرّد في : مجهول، نفس المصدر السابق، ص ص. 52-56. انظر أيضًا :

- L.-Ch. Féraud, « **Lettres arabes de l'époque de l'occupation espagnole en Algérie** », in : R.A. 17, 1873, p. 314 ; **Apéndice de documentos**, in : Memorial Histórico Español, vol. VI, Imprenta de la real academia de la historia, Madrid, 1853, p. 456.

4. مجهول، نفس المصدر السابق، ص. 52.

5. نفسه، ص. 56. تجدر الإشارة إلى أنّ "إقليم الروم" يقصد به في المصادر التاريخية إقليمي الأناضول و الروميلي، اللّذان شكلا قلب الدولة البيزنطية البائدة في الفترة القروسطية.

6. **مذكّرات خير الدين**، نفس المصدر السابق، ص. 125.

7. نفسه، ص ص. 120-126.

إنكشاري، و غزا في العام الموالي مدينتي عنّابة، حيث ترك بها 1500 من جنوده البحريّين (اللونـد)، و قسنطينة حيث ركّز فيها حامية من 600 جندي من الإنكشارية[1] و العزب ؛ و بفضل تلك العمليات التوسعية، استطاع إنشاء منطقة عازلة بين إمارة ابن القاضي و الدولة الحفصية المتحـالفتين ضـدّه، كـما كسب دعم القبائل الشرقية القوية، و على رأسها إمارة بني عبّاس، في صراعه المقبل ضدّ ابن القاضي[2]، علمًا بأنّ الدولة العثمانية لم تقدّم له خلال تلك الفترة الحرجة أيّة مسـاعدات ماديـة أو معنويـة مبـاشرة، بسبب انشغال السلطان سليمان بالفتوحات بأروبا و أعمال التمرّد في مصر و الشام[3].

و في ربيع سنة 1525م، عاد خير الدين إلى إقليم الجزائر مدعمًا بقوّة حليفه شيخ بني عبّـاس، عـلى رأس جيشٍ قوامه أربعة آلاف فارس و ثمانية آلاف من المشاة، حيث نزل في دلّـس ثـمّ صـعد إلى وادي بوقدورة، أحد روافد سباو ؛ و هناك التحم مع جموع ابن القاضي الّذي انهزم و لم يلبث أن قتل على يـد أتباعه[4]. أمّا خير الدين، فقد رجع إلى مدينة الجزائر حيث واصل منها بسط نفوذه السـابق في المنطقـة، الأمر الّذي استغرق منه سنتين كاملتين[5] : قام باسترجاع الناحية الغربية سنة 1526م، دون أن يتوقّف عـن قتال فرحات، ابن أخّ أحمد بن القاضي، الّذي خلفه على إمـارة كوكـو[6]. و في السـنة التاليـة، هـزم السلطان الزياني الّذي فرّ أمامه، ثمّ لم يلبث أن بعث له معتذرًا عن تمرّده و متعهّدًا بقراءة الخطبة و ضرب النقود باسم السلطان العثماني[7]. و من ثمّ، صبّ خير الدين اهتمامه على تهدئة الناحية الشرقية، إذ ثارت

---

1. محمّد صالح بن العنتري، **فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة و استيلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة**، مراجعة و تقديم و تعليق يحي بوعزيز، دار هومة، الجزائر، 2005، ص. 39.

نجد في تقرير جاسوس إسباني عائد لسنة 1533م أنّ تعداد حامية قسنطينة بلغ 300 "إنكشاري" ؛ و هذا يعني أنّ خير الدين قلّص العدد المذكور أعلاه في عام 1525م لمحاربة ابن القاضي : - Élie de la Primaudaie, Op. cit., 1875, p. 67.

2. عبّاد، المرجع السابق، ص. 52 ؛ سامح التر، المرجع السابق، ص. 84 ؛ درّاج، **الدخول...**، المرجع السابق، ص. 252.

3. سامح التر، نفسه ؛ عائشة غطّاس و آخرون، **الدولة الجزائرية الحديثة و مؤسّساتها**، منشورات المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أوّل نوفمبر 1954، الجزائر، 2007، ص. 26 ؛ أحمد حسين عبد و رائد سامي حميد الدوري، "**أعمال العصيان و التمرّد الّتي واجهتها الدولة العثمانية في مصر ما بين عامي (1518-1524م)**"، في : م.د.ت.ح. 14، 2012، ص ص. 7-17. انظر أيضًا :

- Mercier, Op. cit., p. 28.

4. **مذكّرات خير الدين**، المصدر السابق، ص. 128 ؛ مجهول، **كتاب...**، المصدر السابق، ص.63.

انظر أيضًا : شوفالييه، المرجع السابق، ص. 45 ؛ الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص ص. 55-56.

- A. Berbrugger, **Les époques militaires de la Grande Kabilie**, Bastide, Libraire-Éditeur, Paris, 1857, pp. 71-74.

5. de Grammont, **Histoire d'Alger...**, Op. cit., p. 50.

6. **مذكّرات خير الدين**، نفس المصدر السابق، ص. 133.

7. چلبي، المصدر السابق، و. 16. في رواية مغايرة، ورد في "مذكّرات خير الدين" أنّه أعدم مولاي عبد الله، سلطان تلمسان، الّذي تنصّل عن دفع الإتاوة و صرف الخطبة عن السلطان العثماني، و عيّن بدله ابنه الأمير محمّد : **مذكّرات خير الدين**، نفس المصدر السابق، ص. 132.

قسنطينة على الحامية التركية و قتلت الآغا التركي، بإيعاز من القائد علي بن فرح، الّذي أرسله السلطان مولاي حسن لبسط النفوذ الحفصي مجدّدًا على المنطقة[1].

و لم تأت سنة 1529م حتّى كان الأمر قد استتّب نسبيًا لخير الدين، لا سيّما أنّه ألقى القبض على فرحات بن القاضي، الّذي أذعن و قبل دفع الإتاوة لخزينة الدولة[2]. عندئذٍ، وجّه البايلرباي نظره إلى قلعة البنيون، الّتي استعصت على أخيه عرّوج ثلاثة عشر سنة من قبل ؛ و في شهر مايو، بعد قصف دام قرابة عشرين يومًا، أمر بمهاجمة الإسبان المتحصنين في الجزيرة من عدّة جهات لإشغالهم، فيما قامت قوّات أغلبها من الأتراك[3] بالإنزال على أرض الجزيرة، تمكّنت بعد قتال شديد من أسر أفراد الحامية الناجين[4].

بمجرّد تحرير البنيون، أمر خير الدين بتدمير معظم أجزاء القلعة[5] و استخدام حجارة أنقاضها لردم القنوات الفاصلة بين الجزيرات الصخرية و ربطها بالبرّ، بحيث تشكّل رصيف الميناء الّذي أزمع على إقامته[6]. و على صعيد آخر، أرسل سفارة إلى سلطان تلمسان مولاي عبد الله و سلطان فاس أحمد الوطاسي يدعوهم إلى توحيد جهودهم من أجل شنّ هجومٍ مشترك على وهران و مرسى الكبير برًّا و بحرًا، غير أنّهما لم يتجاوبا معه[7] ؛ لذلك، اغتنم خير الدين انتصار بحريته على الإسبان في موقعة فورمنتيرا

بيد أنّه يظهر من خلال المراسلات الإسبانية أنّ سياق هذه الأحداث وقع في عام 1533م فقط :

- Élie de la Primaudaie, Op. cit., 1875, pp. 272-273, n. 2.

1. Mercier, Op. cit., p. 29.

2. **مذكّرات خير الدين**، المصدر السابق، ص. 133.

3. ذكر هايدو أنّه شارك في الهجوم الأخير ألف و مائتي تركي مسلّحين بالبنادق و الأقواس، إضافةً إلى مئات الأهالي :

- Haëdo, **Histoire…**, Op. cit., p. 43.

4. مجهول، **كتاب…**، المصدر السابق، ص ص. 66-68. انظر تفصيل أحداث تدمير البنيون الإسباني في : فهيم لقوارة، **ميناء مدينة الجزائر و دوره الاقتصادي في العهد العثماني (ق. 10-11هـ/16-17م)**، ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر 2، 2012، ص ص. 27-30.

5. **مذكّرات خير الدين**، نفس المصدر السابق، ص. 136.

لم يترك خير الدين من القلعة سوى الحصن المثمّن ذو الطابقين (برج الفنار) الّذي كان قد بناه الأندلسيون، بحيث يستخدم كبطارية من جهة البحر، بالإضافة إلى معقل في الجهة الجنوبية يكون بمثابة برج مراقبة عند مدخل المرسى. انظر :

- Élie de la Primaudaie, Op. cit., 1875, p. 165 ; Imbert, Op. cit., pp. 5-6.

6. تجدر الإشارة إلى أنّ حجارة القلعة لم تكن كافية لمشروع إنشاء ميناء الجزائر ؛ و لأجل ذلك، تمّ نقل قطع الحجارة من الأطلال الرومانية من موقعي ريسقونيا (تامنفوست) و تيبازة (تفساد)، بالإضافة إلى محجر باب الوادي (طاش معدني). انظر : المدني، المرجع السابق، ص. 218.

- A. Devoulx, « **Quelques tempêtes à Alger** », in : R.A. 15, 1871, p. 342 ; Laye, Op. cit., pp. 27-28 ; Gauckler, Op. cit., p. 34.

7. Élie de la Primaudaie, Ibid., p. 35.

انظر أيضًا : عمّار بن خروف، **العلاقات بين الجزائر و المغرب، 923-1069هـ/1517-1659م**، ماجستير في التاريخ، جامعة دمشق، 1983، ص ص. 30 و 137.

(Formentera) بجزائر البليار[1]، كي يوجّه بعثة برئاسة آيدين ريّس محمّلة بالهدايا و ثلاثمائة من الأسرى إلى السلطان العثماني سليمان في ربيع سنة 1531م[2] ؛ و قد استجاب السلطان لطلب خير الدين حيث أمدّه بالعتاد العسكري[3]، و تعزيزات كبيرة من الجند الانكشاري تمّ إنزالهم في شرشال[4].

التجأ الأمير رشيد الحفصي إلى خير الدين في الجزائر طالبًا مساعدته لتبوّأ عرش أبيه، على اعتبار أنّه أولى به كونه أكبر إخوته[5] ؛ كما راسله أعيان تونس يشتكون له جور السلطان الحسن و يناشدونه التدخّل[6]. و عليه، أرسل خير الدين آيدين ريّس في شتاء 1532م إلى السلطان سليمان يبيّن له أوضاع المنطقة، و يستأذنه في غزو تونس و ضمّها إلى الدولة العثمانية[7]. كانت خطّة خير الدين تتطلّب دعمًا بآلاف الجنود العثمانيين و عتاد حربي معتبر ؛ غير أنّ سليمان أرجأ البتّ في موضوع تونس إلى ما بعد رجوعه من حملته إلى تخوم النمسا، الّتي تجدر الإشارة شكّلت منطلق الصراع العثماني الإسباني الشامل في البحر المتوسّط[8]، و اكتفى بتزويد بايلرباي جزائر الغرب بعدد محدود من المجنّدين و مهندسي المدافع بالأخصّ[9]. هذه القوّات الإضافية سمحت برفع عدد أفراد الأوجاقات العثمانية - دون حسبان جنود البحرية - في الإيالة إلى نحو 2600 جندي، وفق تقرير جاسوس إسباني يعود على الأرجح لربيع 1534م[10].

---

1. انظر بعض تفاصيل المعركة البحرية المذكورة في : **مذكّرات خير الدين**، المصدر السابق، ص ص. 139-141.

انظر أيضًا : المدني، المرجع السابق، ص ص. 218-220. - Haëdo, **Histoire…**, Op. cit., pp. 38-40.

2. **مذكّرات خير الدين**، نفس المصدر السابق، ص. 142.

3. نفسه، ص ص. 143-144.

4. Élie de la Primaudaie, Op. cit., 1875, p. 182.

تجدر الإشارة إلى أنّ تلك التعزيزات العثمانية واجهت حملة أندريا دوريا على شرشال في شهر يوليو، و انهزمت بعد الصدمة الأولى قبل أن تعود - لدى رؤيتها تفرّق الجنود المسيحيين و انهماكهم بالنهب - في هجوم مضادّ موفّق : نفسه، ص ص. 149-150.

- Haëdo, Ibid., pp. 44-45 ; Élie de la Primaudaie, Ibid. ; Mercier, Op. cit., p. 33.

5. محمّد العروسي المطوي، **السلطنة الحفصية. تاريخها السياسي و دورها في المغرب الإسلامي**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ص ص. 684-685.

6. Haëdo, Ibid., p. 46.

7. **مذكّرات خير الدين**، نفس المصدر السابق، ص ص. 154-155.

8. خرج سليمان القانوني من عاصمته في 19 رمضان 938هـ الموافق 25 أبريل 1532م، و عاد من حملته الّتي باءت بالفشل في 19 ربيع الثاني 939هـ الموافق 18 نوفمبر سنة 1532م ؛ و خلال الحملة، قام أندريا دوريا لتحويل أنظار العثمانيين عن تخوم النمسا باحتلال مينائي كورون (Coron) و بتراس (Patras) الاستراتيجيين في شبه جزيرة المورة، بأمر من شارلكان : سامح التر، المرجع السابق، ص. 97، هـ. 2. انظر أيضًا :

– E. Charrière, **Négociations de la France dans le Levant**, T. I, Imprimerie nationale, Paris, 1848, pp. 233-245 ; Élie de la Primaudaie, Ibid., p. 271, n. 1. - **مذكّرات خير الدين**، نفس المصدر السابق، ص. 161.

9. نفسه، ص. 154.

10. Élie de la Primaudaie, Ibid., pp. 266-267.

1-2-2. الجزائر في عهد خلفاء خير الدين (1533-1556م)

عام 1533م، قام السلطان سليمان باستدعاء خير الدين باشا إلى إسطنبول قصد تعيينه في منصب "قپودان باشا"[1]، و خوّله الاحتفاظ بحكم إيالة جزائر الغرب ؛ و لذلك قام هذا الأخير باستخلاف ابنه بالتبني حسن آغا الخادم[2].

و بعد أن أتمّ استعداداته للحملة على تونس، غادر القبودان باشا خير الدين إسطنبول على رأس أسطول من 84 قادرغة و غليوطة[3] حمل على متنه نحو 8000 من الجنود و البحّارة ؛ و لقد عرّج على عنّابة حيث قام بضمّ قسم من القوّات العسكرية لإيالة الجزائر[4]، بحيث ارتفع تعداد قوّاته العسكرية إلى 1800 جندي من الإنكشارية، 6500 من العزب و الفرق الأخرى، بالإضافة إلى 600 علج من حرسه الخاصّ المكوّن بشكل أساسي من جنود إسبان سابقين[5]. و من ثمّ، توجّه إلى بنزرت و منها إلى ميناء حلق الواد، الّذي بلغه منتصف شهر أغسطس 1534م[6]. و في ظرفٍ قصير، أخضع خير الدين العاصمة تونس و سائر نواحي المملكة للحكم العثماني، بينما فرّ السلطان حسن الحفصي الّذي لم يتمكن من المقاومة و استنجدّ بالإمبراطور شارلكان لاستعادة عرشه[7].

يؤرّخ دي لا پريمودي هذه الوثيقة بسنة 1533م، رغم تضمّنها استخبارًا عن صناعة و تخزين كمّيات كبيرة من البقسماط أو البشماط (خبز مجفّف يبقى صالحًا للأكل عدّة أشهر، و يستهلك عادةً من قبل البحّارة) في الجزائر ؛ بيد أنّه شرع في ذلك - كما تفيد به رسالة لقائد بجاية پرافان دي ريبيرا (Perafan de Ribera) مؤرّخة في 17 مايو 1534م - بناءً على أمر من خير الدين باشا أبلغته غليوطتين عثمانيتين في منتصف الشهر المذكور : - Id., p. 278.

1. كان القپودان باشا هو القائد الأعلى للأسطول العثماني و صاحب السلطة المطلقة على جميع سواحل و جزائر الدولة، بما فيها من موانئ و مدن و ترسانات. أنظر : - Haëdo, **Histoire…**, Op. cit., p. 161, n. 1.

2. **مذكّرات خير الدين**، المصدر السابق، ص ص. 159 و 164. انظر أيضًا : السيّد محمود، المرجع السابق، ص. 276.

3. Élie de la Primaudaie, Op. cit., 1875, p. 348.

4. يذكر تقرير جاسوس إسباني عائد لربيع 1534م عسكرة حسن آغا بعين الربط مع 700 إنكشاري، 1000 خيّال و 2000 جندي مشاة من الأهالي ؛ و غالب الظنّ أنّ هذه المحلّة تمثّل قوّات الإيالة الّتي أمر بايلرباي الجزائر بإشراكها في المجهود الحربي العثماني في تونس : - Élie de la Primaudaie, Ibid., p. 267.

5. Lopez de Gomara, Op. cit., p. 410 ; Élie de la Primaudaie, Ibid. ; Mercier, Op. cit., p. 37 ; P. Mesnard, « **Charles-Quint et les barbaresques** », In : B.H. T. 61, N° 2-3, 1959, p. 226.

انظر أيضًا : درّاج، **الدخول…**، المرجع السابق، ص. 283.

6. Élie de la Primaudaie, Ibid., p. 345 ; Mercier, Ibid., pp. 34-35 ; Mesnard, Ibid., p. 227.

و ذلك في حين ذكر الراهب الإسباني دييگو دي هايدو أنّ القوّات الجزائرية انضمّت إلى الأسطول العثماني قرب الرأس الطيب (Cap Bon)، الطرف الشرقي لخليج تونس : - Haëdo, Ibid., p. 47.

7. **مذكّرات خير الدين**، نفس المصدر السابق، ص ص. 171-172. انظر أيضًا : السيّد محمود، نفسه.

في نهاية مايو 1535م، خرج شارلكان بنفسه على رأس حملة كبيرة لغزو تونس، و أسند قيادة الأسطول المكوّن من 500 سفينة للأميرال الجنوي أندريا دوريا[1]. و استطاعت قوّات خير الدين الصمود شهرًا كاملاً، رغم تكبّدها خسائر فادحة، قبل أن يسقط ميناء تونس في أيدي الغزاة في منتصف يوليو[2].

و إثر خروج المدينة من يده، وجد القبودان باشا نفسه مجبرًا على الانسحاب برًّا إلى عنّابة، الّتي ترك بها مائتي جندي عثماني، و منها أقلّته سفنه مع فلول قوّاته إلى الجزائر[3] ؛ فيما انفصل عنه خليفته حسن آغا و واصل المسير إلى قسنطينة، حيث عزّز حامية المدينة بحوالي 1000 جندي[4].

الجدير بالذكر أن خير الدين استخدم مفرزة قوامها 1800 من جنود الإنكشارية و الأعلاج من حرسه الخاصّ للاستيلاء على مدينة تونس.

انظر في هذا الصدد رواية الراهب خوان دي ايريبس (Juan de Iribès) حول وقائع تونس : - Élie de la Primaudaie, Ibid., p. 346.

و قد أورد دي ايريبس أحداث أولى تمرّدات الجند العثماني، حيث أفاد أنّه في 23 من شهر أكتوبر 1534م : "**وقع عصيان مهول للإنكشارية الّذين طالبوا برواتبهم. لقد أرادوا قتل بربروس، الّذي اضطرّ حتّى للاختباء ؛ بيد أنّ هذا الأخير دفعها لهم، و هدأت الأمور. يوم 28 نوفمبر، تمرّد جديد للأتراك : خرج 400 جندي من المدينة قائلين أنّهم سينضمّون لمولاي حسن، فأمر بربروس مرتدّيه بملاحقتهم. تمّ قتل 180 من المتمرّدين، و شنق سبعة أو ثمانية من الّذين أسروا عند شرفات القلعة ؛ أمّا الباقين، و عددهم 260، ففرّوا في الأرياف.**" : - Id., p. 348.

انظر أيضًا : - de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 53.

1. درّاج، **الدخول…**، المرجع السابق، ص. 288.

تشكّلت القوّات المسيحية، حسب الراهب الإسباني پرودنسيا دي ساندوڤال (Prudencia de Sandoval)، من حوالي 26000 جندي مشاة، 2000 خيّال و 16000 مغامر من مختلف الأجناس:

- Fray Prudencia de Sandoval, **Historia de la vida y Hechos del Emperador Carlos V**, vol. II., ed. Carlos Seco Serrano, Madrid, 1955, p. 510.

نقلاً عن : - Gürkan, **Ottoman…**, Op. cit., p. 117.

2. بلغت قوّات القبودان باشا خير الدين بشكل إجمالي 12000 جندي، بالإضافة إلى 6000 من الخيّالين العرب الّذين انضمّ معظمهم لاحقًا إلى صفّ شارلكان و حليفه مولاي حسن : نفسه، ص ص. 288-291.

و لقد شكّلت خيانة القايد جعفر فرنك الّذي أوكل له خير الدين مهمّة حراسة قلعة تونس قاصمة الظهر، حيث قام بتحرير آلاف الأسرى المسيحيين من زنازينهم ؛ فاندفعوا في أنحاء المدينة و سيطروا عليها مدعومين بأنصار السلطان المخلوع. انظر في هذا الصدد :

- M. Fendri, "**Un allemand à Tunis en 1535. Le témoignage de B. Sturmer sur l'expédition de Charles Quint**", in : R.H.M. 107-108, 2002, pp. 129-130.

و بعد دخول شارلكان تونس، سمح لجنوده بنهب المدينة طيلة ثلاثة أيّام، فقاموا بتقتيل بضعة آلاف من اليهود و "**ثلاثين ألف مسلم عربي و استرقاق عشرة آلاف امرأة و طفل، و خرّبوا المساجد و المدارس و المقابر و نهبوا محتويات القصور ؛ كما قاموا بحرق آلاف المخطوطات و الكتب…**" : **مذكّرات خير الدين**، المصدر السابق، ص ص. 176 و 178.

ذكر الإمبراطور شارلكان في رسالة إلى قائد بجاية أنّ القبودان باشا انسحب من تونس مع فلول القوّات العثمانية، الّتي تراجع عددها إلى 3000 جندي مشاة و 2000 خيّال : - Élie de la Primaudaie, Op. cit., 1875, pp. 495-496 ; Ibid., 1876, p. 128.

3. نفسه، ص. 177. انظر أيضًا : درّاج، نفس المرجع السابق، ص. 291.

- Élie de la Primaudaie, Ibid., 1876, pp. 326 & 328-329.

4. Élie de la Primaudaie, Ibid., p. 328 ; Mercier, Op. cit., p. 41. - كليل، المرجع السابق، ص. 143.

دامت إدارة خير الدين باشا للبلاد التونسية أحد عشر شهرًا تقريبًا ؛ و رغم خضوع العاصمة تونس و المناطق القريبة منها لتابع شارلكان حسن الحفصي، فإنّ المناطق الجنوبية و معظم السواحل الشرقية بقيت خاضعة للنفوذ العثماني[1].

و كما أسلفنا أمر القبودان باشا بمرابطة قوّة عسكرية قوامها 1500 من الإنكشارية و العزب، إلى جانب عددٍ مماثل من الأهالي تحت قيادة حسن آغا بالقرب من قسنطينة ؛ و لقد ساهمت القوّة المذكورة في الحفاظ على النفوذ العثماني في تلك المناطق الشرقية و حماية تخوم إيالة الجزائر من الخطر الإسباني[2]. رغم ذلك، ما إن غادر خير الدين عنّابة حتّى احتلّها جند شارلكان طبقًا لمعاهدة تبعية مبرمة مع حسن الحفصي، و وضعوا حامية من 800 جندي في المدينة و قصبتها ؛ و كانت الحامية العثمانية الّتي بلغ عددها 230 جنديًا قد انسحبت بعد مقاومة ضعيفة إلى جبل إيدوغ، و واصلت انطلاقًا منه بمعاضدة قوّات محلية التضييق على الإسبان[3]. و من جانب آخر، قام خير الدين باشا بإرسال قوّة دعم صغيرة من الجند الإنكشاري على دفعات إلى سلطان تلمسان مولاي محمّد، بغية تأمين الناحية الغربية و تضليل إسبان وهران و أتباعهم من الأهالي بخصوص خطوته القادمة [4]. و قبل رحيله إلى إسطنبول في منتصف أكتوبر 1535م، استدعى خير الدين حسن آغا من قسنطينة لاستخلافه مجدّدًا على إيالة الجزائر[5].

أسفر التوزيع الجديد للحاميات التركية الّذي فرضته الظروف الإقليمية الصعبة عن تناقص عدد الجنود المتمركزين في عاصمة الإيالة إلى قرابة النصف ممّا كان عليه قبل حملة تونس، أيّ أقلّ من الألف[6] ؛

---

1. **مذكّرات خير الدين**، المصدر السابق، ص. 179. انظر أيضًا : - Élie de la Primaudaie, Op. cit., 1877, pp. 25-26.

أشار سلطان تونس الحفصي في رسالة عائدة لسنة 1536م إلى أحد رجال البلاط المقرّبين من الإمبراطور عن وجود 500 من الجنود الأتراك العثمانيين في المناطق الخارجة عن سلطته : - Id., p. 211.

2. Id., 1876, p. 412.

3. أثمرت مناوشات المفرزة العثمانية المتواصلة في إجهاد الحامية الإسبانية و خلق طوق عازل منع وصول أيّ تموين من جهة الأهالي ؛ و هذا ما حمل الإسبان - إضافة إلى عوامل أخرى - في الأخير إلى سحب الحامية خلال خريف عام 1540م :

- Id., 1876, pp. 243-244 & 326-329 ; 1877, p. 220, n. 1.

انظر أيضًا : - R. Pouyac, **Histoire de Bône**, Imprimerie du Courrier de Bône, Bône, 1891, p. 83.

4. انظر بهذا الصدد مراسلات حاكم وهران الكونت ألكوديت (Comte d'Alcaudète) المؤرّخة في 21 سبتمبر 1535 :

- Élie de la Primaudaie, Ibid., 1876, pp. 397-401.

5. Id., 1877, p. 25 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 54.

6. ذكرت وثيقة إسبانية مؤرّخة في 29 مارس 1536م بأنّ عدد الأتراك ناهز 2000 في مختلف حاميات الجزائر، بينما أشارت إلى وجود حوالي 1500 جندي عثماني تحت قيادة العلج علي في قسنطينة : - Élie de la Primaudaie, Ibid., 1877, p. 85.

إلاّ أنّ هذا الرقم الأخير مغلوط فيه، إذ عاد الخليفة حسن آغا إلى الجزائر في أواخر سنة 1535م مستصحبًا معه 400 من الجنود المعسكرين في قسنطينة ؛ و عليه، كانت حامية قسنطينة في الواقع تضمّ حينئذٍ أزيد من 1000 جندي بقليل : - Id., p. 25.

و هذا ما يفسّر عدم استطاعة حسن آغا إرسال تعزيزات إلى قائد قسنطينة، الّتي طلبها بناءً على أنباء تحضير حسن الحفصي و الإسبان لحملة مشتركة ضدّ المدينة[1].

و لقد فاقم الوضع عدد من عمليّات الفرار من الجندية، الّتي نوّهت بها تقارير جواسيس إسبان تعود لسنة 1536، و لم يستطع حسن آغا وضع حدٍّ لها[2]. لأجل ذلك، لن يجد المذكور للدفاع عن مدينة الجزائر حين قدوم حملة الإمبراطور شارلكان لغزوها في يوم 19 أكتوبر 1541م سوى 800 جندي إنكشاري[3]، 600 جندي بحري (اللوند)[4]، و عددًا مماثلاً من الفرسان[5]، أي ما مجموعه ألفي تركي عثماني[6]، إضافةً إلى ما يقارب 5000 من الأهالي و الأندلسيين القادرين على حمل السلاح، بيد أنّ ألفًا من هؤلاء فقط كانوا جنودًا خبروا القتال من قبل[7].

---

1. Élie de la Primaudaie, Op. cit., 1877, p. 86.

2. Id., p. 85.

الجدير بالذكر أنّ مئات الجنود الفارّين من الأتراك انضمّوا بصفة مرتزقة إلى قوّات الوطاسيين، و من ثمّ للسعديين بالمغرب الأقصى : مارمول كربخال، **إفريقيا**، ج. 1، ترجمة محمّد حجي و آخرون، مكتبة المعارف، الرباط، 1984، ص ص. 466-470 ؛ دييگو دي طوريس، **تاريخ الشرفاء**، ترجمة محمّد حجي و محمّد الأخضر، الجمعية المغربية للتأليف و الترجمة و النشر، الدار البيضاء، 1988، ص. 97.

و كان أحمد الوطاسي قد استنجد بحسن آغا حيال تهديد الأسطول الإسباني لموانئه الشمالية، فأرسل له هذا الأخير 300 جندي تركي :

- Luis del Marmol y Carvajal, **L'Afrique**, trad. de Nicolas Perrot, sieur d'Ablancourt, T. II, Louis Bilaine, Paris, 1667, p. 405.

- هوارية بكاي، **العلاقات السياسية و الروابط الثقافية بين المغربين الأوسط و الأقصى خلال القرنين السابع و العاشر الهجريين [633-962هـ/1233-1554م]**، دكتوراه في تاريخ المغرب الإسلامي الوسيط، جامعة أبي بكر بلقايد (تلمسان)، 2013-2014، ص ص. 123-124.

و من جانب آخر، قام حسن آغا بالخروج في غضون ربيع عام 1541م إلى الحضنة، ثمّ عرّج على بلاد الزيبان، حيث أخضع بسكرة و نواحيها للنفوذ العثماني ؛ و قفل راجعًا بعد أن ترك فيها حامية. انظر في هذا الصدد :

- L.-Ch. Féraud, « **Les Ben-Djellab, sultans de Tougourt, notes historiques sur la province de Constantine** », in : R.A., 26, 1882, p. 362.

انظر أيضًا : حسين بن رجب شاوش بن المفتي، **تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر و علمائها**، تحقيق فارس كعوان، بيت الحكمة، العلمة، 2009، ص. 39.

3. S. Rang, & F. Denis, **Fondation de la Régence d'Alger**, T. 2, J. Angé, Paris, 1837, p. 271.

4. **مذكّرات خير الدين**، المصدر السابق، ص. 199.

5. Hammer-Purgstall, Op. cit., T. 5, p. 346.

6. سامح التر، المرجع السابق، ص ص. 160، هـ. 1.

هذا الرقم قريب من التعداد الوارد في تقرير جاسوس إسباني الّذي أشار إلى وجود حوالي 1800 تركي بالمدينة في 1533م :

- Élie de la Primaudaie, Ibid., 1875, p. 267.

- Mercier, Op. cit., p. 51 ; Haëdo, **Histoire…**, Op. cit., p. 63.

7. المدني، المرجع السابق، ص ص. 283-284.

أمّا الطرف المسيحي، فكان تعداد قوّاته البرّية 23900 جنديًا، دون الأخذ بالحسبان الطواقم البحرية البالغة 12330 بحّارًا، حملهم أسطول ضخم - بقيادة الأميرال أندريا دوريا - مكوّن من 516 سفينة، من ضمنها 65 قادرغة كبيرة[1].

قامت قوّات المشاة المسيحية بالإنزال قرب مصبّ واد كنيس صبيحة 23 أكتوبر و تمركزت بالحامّة حيث أقيم المعسكر[2]. و بعد أن نزل الإمبراطور و حاشيته إلى البرّ مع سلاح الفرسان و قطع المدفعية، تحرّك الجيش و باشر عملية حصار المدينة، حيث احتلّ الإسبان المرتفعات الاستراتيجية المشرفة على

و هذا التعداد يطابق ما نقلته مراسلة ديوان القنصلية الفرنسية بالبندقية، مؤرّخة يومي 10 و 25 نوفمبر من ذات السنة، عن ألفونسو دي أڤالوس (Alfonso de Avalos)، مركيز دي غاست و قائد جيوش شارلكان، قوله أنّ مجمل قوّات مدينة الجزائر تقدّر بحوالي سبعة آلاف رجل :
- Charrière, Op. cit., T. 1, p. 522.

تجدر الإشارة إلى أنّ حسن آغا لم يستخدم على الأرجح إلاّ نصف ذاك العدد من المقاتلين فعليًا، و احتفظ بالبقية كقوّات احتياطية داخل المدينة لوقت الحاجة إن طال الحصار ؛ و هذا سبب جعل كاتب چلبي يذكر أنّ قوّات خليفة خير الدين اشتملت على 600 تركي و 2000 فارس عربي فقط : چلبي، المصدر السابق، و. 27.

و الأمر ذاته بالنسبة للراهب الإسباني هايدو، الّذي أورد أنّ حسن آغا "**لم يكن تحت إمرته** (يعني من القوّات النظامية) **إلاّ ثلاثة آلاف تركي، يخالطهم عدد من الأهالي و الأندلسيين**" :
- Haëdo, Ibid.

1. **مذكّرات خير الدين**، المصدر السابق، ص. 198.

انظر أيضًا : درّاج، **الدخول...**، المرجع السابق، ص. 311، ه. 1 ؛ سامح الترا، المرجع السابق، ص. 157 ؛ أوزتونا، المرجع السابق، مج. 1، ص ص. 297-298.

- N. Durand de Villegagnon, **Relation de l'expédition de Charles-Quint contre Alger**, publ. par H.D. de Grammont, Juillet-St-lager, Alger, p. 60 ; de Grammont, **Histoire d'Alger...**, Op. cit., p. 58 ; Hess. Op. cit., p. 74 ; R. Quatrefages, « **La Proveeduría des Armadas : de l'expédition de Tunis (1535) à celle d'Alger (1541)** », In : Mélanges de la Casa de Velázquez, T. 14, 1978. p. 220.

بالإضافة إلى التفاوت العددي الكبير بين القوّات المسلمة و المسيحية، جاءت هذه الحملة في ظرف سيء للجزائريين بعد خسارتهم لإحدى عشرة سفينة من عمارة أحمد علي ريّس، مع ما لا يقلّ عن سبعمائة بحّار ما بين قتيل و غريق و وقوع خمسمائة في الأسر، أمام عمارة إسبانية بقيادة برناردينو دي مندوزا (Bernardino de Mendoza)، في معركة البوران - جزيرة تقع 70 كيلومتر شمال مليلة المغربية - في أواسط سبتمبر 1540م :
- Cesáreo Fernández Duro, **Armada Española desde la unión de los Reinos de Castilla y de Aragón**, T. 1, Madrid, 1895, pp. 250-253 ; Marmol y Carvajal, Op. cit., T. I, pp. 493-498 ; Mesnard, Op. cit., p. 232 ; H. de Castries, **Les sources inédites de l'histoire du Maroc de 1530 à 1845. Archives et bibliothèques d'Espagne**, T. 1, Éditions Ernest Leroux, Paris, 1921, p. 89, n. 1.

انظر أيضًا في هذا الصدد : مارمول كربخال، المصدر السابق، ج. 1، ص ص. 505-510.

2. de Grammont, Ibid., p. 59 ; Chevallier, Op. cit., pp. 87 & 89.

المدينة بين الخندق العميق[1] و كدية الصابون[2]، و الألمان المنحدرات المؤدية للساحل ؛ أمّا الإيطاليون و فرسان مالطة، فاتّخذوا مواقعهم في نطاق السهل الساحلي الممتدّ بين رأس تافورة و قنطرة الأفران[3][4].

خلال ديوان دعا له حسن آغا في قصر الإمارة، ارتأى أركان الحرب إلى أنّه إذا استكمل الأعداء عملية التطويق و نصب كامل قطع مدفعية الحصار، فسيحسم مصير المدينة ؛ لذلك، تقرّر القيام بهجومين مباغتين : وقت السحر، خرجت قوة مكوّنة من ستّمائة انكشاري و ألفي متطوّع من الأندلسيين و الأهالي يقودها آغا الإنكشارية الحاج بشر[5]، سلكت طريقًا جبليًا يمّر بسيدي يعقوب[6]، ثمّ عطفت في حركة التفافية باتجاه كدية الصابون، حيث المقرّ الرئيسي لقيادة الجيش و خباء الإمبراطور ؛ و لقد أحدث هذا الهجوم غير المتوقّع بلبلة و العديد من القتلى في صفوف الجنود الإسبان النيام و المخمورين، و انكفأ المغيرون راجعين إلى المدينة قبل انبلاج الصبح بينما اشتدّ هطول الأمطار[7] ؛ وقتئذٍ خرجت القوّة الثانية

---

1. الخندق العميق : هو عبارة عن مسيل وادي المغاسل، الّذي يصبّ قرب باب الوادي ؛ و يفصل بين سفوح جبل بوزريعة و المرتفعات، الّتي بنيت مدينة الجزائر على جانبٍ منها : علي عبد القادر حليمي، **مدينة الجزائر، نشأتها و تطوّرها قبل 1830م**، ط. 1، المطبعة العربية، الجزائر، 1972، ص ص. 41 و 129.

2. كدية الصابون : مرتفع صخري يشرف على مدينة و قصبة الجزائر من الجهة الغربية، و قد شيّد عليها حصن أبو ليلة الشهير ببرج مولاي حسن :
- Rang & Denis, Op. cit., T. 2, p. 62, n. 1.

3. قنطرة الأفران : كانت توجد عند طرف ربض باب عزّون، بموضع الساحة أدنى البريد المركزي حاليًا (ساحة ديدون و شارع قسنطينة سابقًا) ؛ و سمّيت كذلك لوجود عدّة أفران للجير قربها :
- Haëdo, **Histoire…**, Op. cit., p. 71, n. 1 ; H. Klein, **Feuillets d'El-Djezaïr**, T. 1, 2ème éd., Éditions du Tell, Blida, 2003, p. 71 ; G. Esquer, **Iconographie historique de l'Algérie depuis le XVIe siècle jusqu'à 1871**, Librairie Plon, Paris, 1929, Pl. XXXII.

4. Nicolas Durand, Sieur de Villegagnon. **Le voyage et expedition de Charles le Quint empereur en Africque cõtre la ville de Argeire**, Benoist de Gourmont, Paris, 1542, r°. 23 ; Marmol y Carvajal, Op. cit., T. II, p. 406 ; Hammer-Purgstall, Op. cit., T. 5, p. 347 ; Nicolas Durand de Villegagnon, **Relation de Charles-Quint contre Alger**, publ. par H.-D. de Grammont. Paris, 1874, p. 64.

5. Haëdo, Ibid., pp. 76-77.

6. سيدي يعقوب : أحد فحوص باب الوادي، و يعرف أيضًا بحارة الجنان ؛ و سمّي كذلك نسبة لقبّة (ضريح) صوفي أندلسي يقع قرب سيدي محمّد الكتاني :
- Nacereddine Saidouni, **L'Algérois rural à la fin de l'époque ottomane (1791-1830)**, Dar al-gharb al-islami, Beyrouth, 2001, pp. 59 & 67-68 ; G. Delphin, "**Histoire des Pachas d'Alger de 1515 à 1745**", in J.A., avril-juin 1922, p. 207.

7. مجهول. **كتاب…**، المصدر السابق، ص ص. 119 و 125 ؛ **مذكّرات خير الدين**، المصدر السابق، ص ص. 201-203. انظر أيضًا :
- Jean de Vandenesse, **Journal des voyages de Charles V de 1514 à 1551**, in : Collection des voyages des souverains des Pays-Bas, publ. par M. Gachard, T. II, F. Hayez, Bruxelles, 1874, p. 196.

من باب عزّون للهجوم على الجنود الإيطاليين المتمركزين قرب رأس تافورة ؛ و بعد الصدمة الأولى الّتي أربكت العدو، أخذت المفرزة في التراجع بانتظام قصد استدراج المسيحيين قبالة أسوار و أبراج باب عزّون، حيث وقعوا في مرمى السهام و قذائف المدفعية[1]. و لولا استماتة فرسان مالطة و مسارعة شارلكان على رأس حرسه الإمبراطوري و بعض الفرق الألمانية من جهة و الدعم المدفعي للأسطول المسيحي الّذي اقترب من الساحل لأجل ذلك، لتمّ القضاء على قوّات الميمنة قضاءً مبرمًا[2].

و خلال ذلك اليوم، ازدادت العاصفة شدّة و رافقها هبوب رياح شمالية غربية عنيفة، ممّا أدّى إلى جنوح عشرات المراكب المسيحية إلى الساحل و عطبها ؛ و من نجا من جنود و بحّارة السفن الغارقة كان مصيره في الغالب القتل على يد الأهالي، بينما استطاع مئات المسلمين المجدّفين الخلاص من الأسر[3]. جرّاء ذلك، فقد شارلكان معظم عتاد و ذخيرة و مؤونة جيشه الذي انقطع عنه الزاد و بات مهدّدًا بالهلاك جوعًا[4] ؛ و قد احتمّت قطع الأسطول المسيحي المتبقية في جون تامنتفوست، حيث أرسل دوريا إلى الإمبراطور يستحثّه على الانسحاب قبل فوات الأوان[5]. إزاء تلك الوضعية الكارثية، أمر الإمبراطور جيشه بالانسحاب إلى الجون المذكور صباح يوم 26 أكتوبر ؛ لكن حسن آغا لاحقه على رأس قوّة قوامها حوالي ألفي فارس، و دار قتال عنيف قرب مصبّ واد كنيس (الحامّة)، حيث كاد شارلكان أن يقع في الأسر[6]. و استغرقت مسيرة الجيش المنهزم أربعة أيّام كاملة، هلك خلالها آلاف الجنود، غرقًا في الوديان الفائضة

---

1. Chevallier, Op. cit., pp. 90-91 ; E. Ravenet, « **Un épisode de l'expédition de 1541 contre Alger : L'échauffourée de la porte d'Azzoun** », in : R. A. 83, 1939, pp. 303-322.

2. سامح التر، المرجع السابق، ص ص. 160-161 ؛ الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 67 ؛ المدني، المرجع السابق، ص. 286-289 ؛ صالح حيمر، **التحالف الأوربي ضدّ الجزائر عام 1541 و تأثيراته الإقليمية و الدولية**، ماجيستر في التاريخ الحديث و المعاصر، جامعة باتنة، 2006-2007، ص ص. 87-88.

3. مجهول، **كتاب...**، المصدر السابق، ص ص. 119-120 ؛ درّاج، **الدخول...**، المرجع السابق، ص. 316.

تفاوتت أقوال المصادر نسبيًا حول عدد المجدّفين المسلمين الّذين تخلّصوا من الأسر، حيث ذكر خير الدين باشا أنّ عددهم بلغ ألف و ثمانمائة أسير، فيما أشار چلبي إلى أنّه تمّ إنقاذ ألف و أربعمائة رجل، و قدّم صاحب "غزوات عرّوج و خير الدين" عددًا مماثلاً، مضيفًا أنّ مائة و خمسين منهم أتراك و الباقون من الأهالي : **مذكّرات خير الدين**، المصدر السابق، ص. 207 ؛ چلبي، المصدر السابق، و. 27 ؛ مجهول، نفس المصدر السابق، ص. 120.

4. ذكر مارمول في هذا الصدد : "**... فالأقوات التي وقع إنزالها إلى البرّ استهلكت في ثلاثة أيّام، و فرغت من الزاد أيدي الجنود، فصاروا يقاسون ويلات البرد و الجوع في فضاءٍ عارٍ لم تكن فيه خيام و لا أخصاص يتقون بها**" : مارمول كربخال، المصدر السابق، ج. 1، ص. 369.

5. عبّاد، المرجع السابق، ص. 68 ؛ الميلي، نفس المرجع السابق، ص. 67 ؛ المدني، نفس المرجع السابق، ص ص. 289-291 ؛ سامح التر، نفس المرجع السابق، ص ص. 162-163.

6. مجهول، نفس المصدر السابق، ص. 127. انظر أيضًا :

- Charrière, Op. cit., T. 1, pp. 523-524 ; Villegagnon, Op. cit., pp. 92 & 104-105.

أو قتلاً جرّاء هجمات الجزائريين المتواصلة. و أوائل شهر نوفمبر، توجّهت فلول الأسطول المسيحي إلى بجاية، حيث اضطرّها استمرار العاصفة للاحتماء قرابة ثلاثة أسابيع، قبل أن يتسنّى لها الإبحار عائدةً إلى أوروبا[1][2].

إنّ النصر الإعجازي الّذي حقّقه الجزائريون كلّفهم ما لا يقلّ عن ألف و مائتي شهيد من خيرة المدافعين عن المدينة[3] ؛ و لم يكن يخفى على العثمانيين أنّهم بدون مدد لن يصمدوا البتّة إن عاود شارلكان الكرّة، كما أزمع في الصيف التالي[4]. و هذا ما جعل القبودان باشا يرسل إلى حسن آغا، الّذي رقّاه السلطان مكافأةً له إلى رتبة بايلرباي، دعمًا أوّليًا تمثّل في ثلاثمائة جندي بحري (طائفة العزب)، بالإضافة إلى أسلحة و عتاد حربي ؛ و تبع ذلك بعد فترة قصيرة إرسال السلطان سليمان لدعم قدرناه بأزيد من ألف جندي من الإنكشارية[5]، إذ خرج حسن آغا في نهاية أبريل 1542م في حملة تأديبية ضمّت ثلاثة آلاف تركي عثماني من حملة البنادق، بالإضافة إلى ألفي فارس و ألف راجل من الأهالي و الأندلسيين ضدّ أمير كوكو محمّد بن محمّد، حليف الإسبان، الّذي أذعن من دون قتال[6]، ثمّ تحرّك نحو تلمسان الّتي دخلها دون مقاومة، و نصّب أبا زيّان أحمد أميرًا عليها بدل أخيه أبا عبد الله الموالي للإسبان[7].

---

1. Charrière, Op. cit., T. 1, pp. 523-524 & 527 ; Villegagnon, Op. cit., p. 107.

2. انظر تفاصيل حملة شارلكان و نتائجها في :

- L. de Mayerne-Turquet, **Histoire générale d'Espagne**, Vol. II, Samuel Thiboust, Paris, 1635, pp. 1037-1038 ; P. P. « **L'expédition espagnole de 1541 contre Alger** », In : R.A., 35, 1891, pp. 177-196 ; Duro, Op. cit., T. 1, pp. 255-260 ; Jurien de la Gravière, **Les corsaires barbaresques et la marine de Soliman le Magnifique**, E. Plon, Nourrit & Cie, Paris, 1887, pp. 34-85 ; Chevallier, Op. cit., pp. 86-95 ; Pellissier, Op. cit., pp. 60-66.

- غطّاس، **الدولة...**، المرجع السابق، ص ص. 27-32 ؛ درّاج، **الدخول...**، المرجع السابق، ص ص. 312-318 ؛ حيمر، المرجع السابق، ص ص. 79-94 ؛ حكمت ياسين، "**الغزو الأسباني للجزائر في القرن السادس عاشر : أسبابه، مراحله، نتائجه**"، في : مجلة الأصالة 14-15، 1973، ص ص. 249-251.

3. انظر في هذا الصدد رواية جان ده ڤاندنس : - de Vandenesse, Op. cit., T. II, pp. 195-197.

4. Villegagnon, Ibid., p. 73.

5. **مذكّرات خير الدين**، المصدر السابق، ص ص. 212-213. انظر أيضًا :

- Emrah Safa Gürkan, "**The centre and the frontier : Ottoman cooperation with the North African corsairs in the sixteenth century**", in : T.H.R. 1 (2010), p. 143.

6. Haëdo, **Histoire...**, Op. cit., p. 72 ; Mercier, Op. cit., p. 55.

7. الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 69 ؛ المدني، المرجع السابق، ص. 309 ؛ سامح التر، المرجع السابق، ص. 168.

قفل البايلرباي حسن آغا راجعًا بعد أن ترك في قلعة المشور أربعمائة إنكشاري لضمان ولاء تلمسان و لحمايتها من إسبان وهران ؛ و في طريقه، حاول الاستيلاء على مرسى الكبير على حين غرّة في شهر يوليو[1]، ثمّ عرّج على مستغانم، و ضمّها للإيالة لتكون مركزًا متقدّمًا لمراقبة تحرّكات الأعداء[2].

التجأ أبو عبد الله للكونت ألكوديت حاكم وهران يستنصره، فأمدّه بألف جندي إسباني و أربعمائة فارس عربي للاستيلاء على تلمسان، إلاّ أنّ أبا زيّان استأصل هذه الفرقة في إحدى الشعاب ؛ فعاود ألكوديت الكرّة في أواخر يناير 1543م على رأس جيش قوامه اثني عشر ألفًا من المشاة و ألفي فارس انضاف إليهم الآلاف من الأعراب. و لم يستطع أبو زيّان بقوّاته البالغة ثمانية آلاف مقاتل و أربعمائة انكشاري إيقاف الإسبان، حيث انهزم أمامهم مرّتين و اضطرّ في الأخير للانسحاب. و في 6 فبراير، فتحت المدينة أبوابها لأبي عبد الله دون مقاومة ؛ و سلك الإسبان في تلمسان نفس المسلك الّذي سلكوه في تونس من نهب و أسر و تقتيل، طيلة عشرين يومًا[3]. بعد استراحة في وهران، تحرّك ألكوديت لاحتلال مستغانم. لكن عند وصوله إلى بلدة مزغران علم بأنّ حسن آغا على رأس قوّات قوامها أربعة آلاف تركي مسلّحين بالبنادق، إضافة إلى ستّة آلاف فارس و أربعة آلاف راجل من الأندلسيين و الأهالي، و أنّ طليعة تلك القوّات سبقته إلى مستغانم[4] ؛ فأصدر الأمر لجيشه بالانسحاب إلى وهران، إلاّ أنّ الجزائريين قاموا بمطاردته حتّى مشارف وهران و كبّدوه خسائر فادحة[5].

و هكذا نرى أنّ البايلرباي حسن آغا أفاد من هالة المجد الّذي أكسبه انتصاره على شارلكان، فضلاً عن التعزيزات العسكرية الّتي أرسلتها الآستانة، في إخماد التمرّدات و تعزيز التخوم الغربية للإيالة ؛ لكنّه عاد إلى الجزائر دون أن يسير إلى تلمسان بسبب مرض ألّم به، و استخلف الحاج بشر (نوفمبر 1543-أغسطس 1544م)، بعد أن اشتدّ به المرض[6].

و لقد شكّل تنحي حسن آغا عن السلطة فرصة لبعض قبائل الناحية الغربية كي تتنصّل من السيطرة العثمانية، أو بالأحرى تتخلّص من الضريبة ؛ و تزعّم هذا التمرّد شيخ قبيلة ريغة، سيدي بو طريق[7].

---

1. P. Ruff, **La domination espagnole à Oran sous le gouvernement du Comte d'Alcaudète 1534-1558**, Ernest Leroux Éditeur, Paris, 1900, p. 74.

2. الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 69 ؛ المدني، المرجع السابق، ص. 310 ؛ سامح التر، المرجع السابق، ص ص. 168-169.

3. سامح التر، نفس المرجع السابق، ص ص. 169-171. انظر أيضًا : مارمول كربخال، المصدر السابق، ج. 2، ص ص. 314-315.

4. Haëdo, **Histoire…**, Op. cit., p. 73 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 71 ; Mercier, Op. cit., p. 60.

5. الميلي، نفس المرجع السابق، ص ص. 71-72 ؛ المدني، نفسه ؛ سامح التر، نفسه.

6. سيّد علي المرادي، **غزوات خير الدين باشا**، مج. 2، المكتبة الوطنية الفرنسية، المخطوطات الشرقية رقم 1186، الآستانة، 953هـ/1546م، و. 47. انظر أيضًا : - Haëdo, Ibid., pp. 78-79.

7. Id., p. 77 ; A. Devoulx, & A. Berbrugger, « **El-Hadj Pacha** », in : R. A. 8, 1864, pp. 295-296.

بعد إبادة مفرزة إنكشارية قوامها أربعون جنديًا كانت ترافق أمير لواء الناحية الغربية إلى مليانة في نهاية مارس 1544م، تمكّن بوطريق من حشد حوالي عشرين ألف رجل من قبيلته و من قبائل أخرى مناهضة للوجود العثماني ؛ ثمّ سار بهم نحو سهل متيجة الّذي نهب و خرّب أوطانه، كما عاث فسادًا في بعض فحوص العاصمة طيلة شهرين[1] . و في نهاية مايو، خرج الخليفة الحاج بشر بجيش من خمسة آلاف جندي، مكوّن من أربعة آلاف راجل و ستمائة فارس من الأتراك العثمانيين و البقية من الأندلسيين، و دحر جموع بو طريق في مواجهات كان أهمّها عند سفح جبل سوماطة[2]، و طارده حتّى حدود الإيالة الغربية[3]. لم يفقد الجيش العثماني سوى مائتي جندي في القتال، ثمّ عاد إلى مدينة الجزائر في شهر يوليو أقلّ من أسبوعين قبل وصول البايلرباي الجديد حسن بن خير الدين بربروس[4].

بادر حسن باشا، الّذي جلب معه المئات من جنود المشاة، إلى تنظيم الجيش و فرض الانضباط فيه، كما قام في كدية الصابون الاستراتيجية ببناء برج مولاي حسن، الّذي عرف في المصادر المسيحية بحصن الإمبراطور[5]، ثمّ انصرف إلى إخماد بؤر تمرّد القبائل القاطنة جنوب و غرب مليانة[6]، حتّى يؤمّن الطريق إلى الإمارة الزيانية، الّتي كانت أكثر من أيّ وقت مضى محلّ تنافس بين العثمانيين و الإسبان ؛ و بعد أن أُعلم في مطلع صيف 1546م أنّ ألكوديت يتأهّب للزحف على تلمسان، سارع البايلرباي استباقيًا لإرسال مفرزة من ثلاثمائة إنكشاري لدعم حامية المشوار، بيد أنّ أعراب بني عامر الموالين للإسبان أبادوها[7]، ثمّ تحرّك على رأس جيشٍ قوامه ثلاثة آلاف راجل و ألف صبايحي من الأتراك العثمانيين، و انضمّ له في الطريق حميد العبدي شيخ تنس في ألفي فارس[8].

---

1. نرجّح أنّ الحاج بشر تأخّر في مناجزة بوطريق بسبب أمله أن يعرّج القبودان باشا خير الدين على الجزائر في طريق إيابه من ميناء طولون إلى الآستانة، و يمدّه بدعم عسكري كان في حاجة إليه بسبب التفوّق العددي للمتمرّدين ؛ و عوض ذلك، أرسلت التعزيزات على متن اثنا عشر قادرغة رفقة البايلرباي الجديد حسن باشا الّذي وصل الجزائر في 2 أغسطس 1544م : المرادي، المصدر السابق، مج. 2، و. 47.

انظر أيضًا :

- Haëdo, **Histoire…**, Op. cit., pp. 80-81.

2. سوماطة جبل يقع على بعد حوالي سبعة عشر كيلومتر غرب بلدة العفرون.

3. Haëdo. Ibid., p. 78 ; Mercier, Op. cit., p. 61.

4. المرادي، نفسه.

5. مجهول، **تقييد يتضمن توليات الباشات من محروصات**(كذا) **الجزاير**، مخطوط م. و. ج.، رقم 1639-1، 1223هـ/1809م، و. 3.

- E. d'Aranda, **Relation de la captivité & liberté du sieur Emanuel d'Aranda**, 3ème éd., Jean Mommart, Bruxelles, 1662, p. 98.

6. de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 79.

انظر أيضًا : الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 74 ؛ غطّاس، **الدولة…**، المرجع السابق، ص ص. 33-34.

7. Marmol y Carvajal, Op. cit., T. II, p. 349 ; Pellissier, Op. cit., pp. 74-75.

8. Haëdo, Ibid., p. 81 ; Mercier, Ibid., p. 62.

بيد أنّه، حينما تواجه الجيشان عند أغبال و تأهّبا للقتال، بلغ حسن باشا نبأ وفاة والده ؛ فقرّر الانكفاء إلى الجزائر، بعد أن فاوض زعيم قبيلة بني راشد الموالي للإسبان بخصوص السماح بانسحاب حامية تلمسان العثمانية[1].

قرّر الكونت ألكوديت أنّ الفرصة مواتية لاحتلال مستغانم، فعجّل المسير إليها ؛ غير أنّ حميّة جنود الحامية جعلت المدينة تصمد أمام قصف القوّات الإسبانية و هجماتها[2]، ريثما وصلت نجدة تمثّلت في الأربعمائة انكشاري المنسحبين من تلمسان و خمسة و عشرين ألف أندلسي ألجئوا إلى مغادرة الإقليم المذكور. و على إثر ذلك، اندحر الإسبان بعد أن تكبّدوا خسائر و انحصر نفوذهم لعدّة سنوات في نواحي وهران[3].

في أكتوبر 1548م، بسط الأتراك العثمانيون سيطرتهم مجدّدًا على تلمسان، حيث نصّبوا حسن أميرًا بدل أخيه أحمد التابع للإسبان[4]، كما أقاموا حاميات في أهمّ مدن الإمارة[5]. لكن بعد أن هدن جانب الإسبان، اضطرب جانب المغاربة، إذ طمع السلطان السعدي محمّد الشيخ الّذي دان له المغرب الأقصى في ضمّ إمارة بني زيان، الّتي كانت تحت نفوذ الجزائر ؛ و لذلك، كلّف ابنه البكر محمّد الحرّان باحتلالها

---

1. مارمول كربخال، المصدر السابق، ج. 2، ص ص. 318 ؛ المدني، المرجع السابق، ص. 322. انظر أيضًا :

- Henri-Léon Fey, **Histoire d'Oran avant, pendant et après la domination espagnole**, Typographie Adolphe Perrier, Oran, 1858, p. 88 ; Pellissier, Op. cit., pp. 75-76.

الجدير بالإشارة أنّ انسحاب حسن باشا مرّده بالدرجة الأولى تأثّر معنويات جنوده بسبب خبر وفاة مؤسّس الإيالة خير الدين باشا. انظر في هذا الصدد :

- Pellissier, Op. cit., p. 76, n. 1.

2. ذكر مارمول كربخال بشأن جنود حامية مستغانم "**أنّ عددهم لا يعدو اثنين و أربعين رجلاً يرغمون سكّان المدينة على الدفاع عن أنفسهم و لو أنّهم أكثر من اثني عشر ألفًا، و يمنعونهم من الاستسلام إلى الإسبانيين**" : مارمول كربخال، نفس المصدر السابق، ص. 320.

3. نفسه، ص. 320-321.

انظر أيضًا : الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 75 ؛ المدني، نفس المرجع السابق، ص ص. 322-324.

- Fey, Ibid., pp. 90-92 ; Pellissier, Ibid., pp. 76-77.

مهما يكن، تجدر الإشارة إلى أنّ فتور نشاط إسبان وهران كان عائد بالأساس إلى هدنة الخمس سنوات الّتي عقدها السلطان العثماني و الإمبراطور الجرماني في صيف 1547م ؛ و هذا ما يفسّر مقام الكونت ألكوديت طوال أربع سنوات (1549-1553م) في إسبانيا و توكيله حكم وهران بالنيابة لابنه دون مارتين :

- Charrière, Op. cit., T. 2, pp. 4-5 ; de Castries, Op. cit., T. 1, p. 203, n. 10.

4. de Castries, Ibid., p. 202.

5. كانت أهمّ حامية بتلمسان في قلعة المشور حيث رابط مائتي إنكشاري، إضافةً إلى توزّع حاميات أخرى في جرسيف أو گرسيف (مدينة تقع على بعد مائتي كيلومتر جنوب غرب تلمسان على نهر الملوية)، و وجدة و قلعة بني راشد. انظر في هذا الصدد :

- بكاي، المرجع السابق، ص ص. 131 و 133.

- de Castries, Ibid., pp. 202-205 & 534-535.

في ربيع 1549م[1]، غير أنّ هذا الأخير بعد دخوله تلمسان توجّه "بالرغم من أوامر والده" نحو مستغانم الّتي كانت بيد العثمانيين، بدلاً من أن يهاجم وهران كما أشاع لأتباعه[2].

حيال ذلك، ردّ حسن باشا بإرسال قوّات - أوكل قيادتها إلى حسن قورصو - تجمّعت ما وراء نهر الشلف حتّى بلغ تعدادها خمسة آلاف جندي مسلّح بالبنادق و حوالي ثمانية آلاف خيّال[3]، و أدركت يوم 4 سبتمبر عند ريو سالادو (Rio Salado)[4] الجيش السعدي المتراجع الّذي انهزم و احتمى بتلمسان إلى حين وصول نجدات عسكرية كبيرة أرسلها محمّد الشيخ لابنه، و الّتي اضطرّت القائد العثماني حسن قورصو إلى الانسحاب ليلاً إلى قلعة بني راشد مخلّفًا وراءه مدفعيته[5] ؛ غير أنّ الجزائريين بعد أن وصلتهم هم الآخرون تعزيزات يقودها درغوث رايس أعادوا الكرّة ضدّ المغاربة في الأيّام الأولى من فبراير 1551م و هزموهم بعد أن قتلوا قائدهم، و طاردوا فلولهم أيّامًا إلى ما وراء نهر الملوية[6].

منذئذ، ثبّت الأتراك العثمانيون نفوذهم في تلمسان، إذ أقاموا بها حامية من ألف و خمسمائة جندي عثماني تحت إمرة القايد صفا ؛ كما وضعوا حدًّا للإمارة الزيانية عبر تنحية آخر حكّام بني عبد الواد عمر بن عبد الله الثابتي الذي حكم صوريًا حتى شهر يوليو من نفس السنة[7]، فتحوّلت بذلك إمارة تلمسان إلى سنجق أسند الحكم فيه إلى امير لوا (باي)، قبل أن يدمج مع بايلك الغرب في فترة لاحقة.

---

1. عبد الكريم كريم، **المغرب في عهد الدولة السعدية**، منشورات جمعية المؤرّخين المغاربة، الرباط، 2006، ص. 77 ؛ بكاي، المرجع السابق، ص ص. 131 و 133.

2. سامح التر، المرجع السابق، ص. 179 ؛ محمّد خير فارس و محمود علي عامر، **تاريخ المغرب العربي الحديث "المغرب الأقصى – ليبيا"**، منشورات جامعة دمشق، دمشق، 1999، ص. 40.

3. ذكر حاكم وهران بالنيابة دون مارتين في رسالة موجّهة إلى مارية بنت شارلكان و زوجها ماكسيميليان و مؤرّخة في 12 أغسطس 1550م أنّ قوّات المشاة الجزائرية تكوّنت أساسًا من الأتراك و الأندلسيين (المدجّنين) و الأهالي، بالإضافة إلى عدد كبير من زواوة إمارة بني عبّاس ؛ أمّا فرق الخيّالة، فمن عرب [بايلك] الشرق و السويد (قبيلة عربية من حوض الشلف)، و باقي الزواوة :

- de Castries, Op. cit.,T. 1, pp. 454-455.

4. ريو سالادو (المالح حاليًا)، هو موقع يتوسّط الطريق بين وهران و تلمسان، حيث استشهد عرّوج في سنة 1518م :

- Haëdo, **Histoire…**, Op. cit., p. 85, n. 1.

5. de Castries, Ibid., pp. 471-473.

6. Id., pp. 492-493 & 530-537 ; Haëdo, Ibid., p. 86.

انظر أيضًا : دي طوريس، المصدر السابق، ص. 174 ؛ بكاي، نفس المرجع السابق، ص. 133 ؛ فارس و عامر، نفسه.

7. de Castries, Ibid., pp. 207 & 599-602 ; Haëdo, Ibid.

- كريم، نفس المرجع السابق، ص. 78 ؛ المدني، المرجع السابق، ص. 329 ؛ بن خروف، المرجع السابق، ص. 40.

بعد أن استتبّ الأمر، شرع حسن باشا في أواخر سنة 1550م ببناء المارستان[1] - و هو عبارة عن مستشفى لإيواء الجنود المقعدين و المخبّلين[2] - على الأرجح أسوة بالمستشفى الّذي قام آباء الفدية بتهيئته لصالح الأسرى المسيحيين في ذات السنة[3].

و حينما غادر حسن باشا الجزائر في مطلع خريف عام 1551م استخلف القائد صفا إلى حين قدوم صالح رايس، في أبريل 1552م[4] ؛ و واصل البايلرباي الجديد جهود سلفه من أجل بسط نفوذ السلطة المركزية في البلاد، حيث قاد حملة من ثلاثة آلاف جندي و ألف فارس في شهر أكتوبر إلى تقرت و ورقلة، اللّتان امتنعتا عن دفع الضريبة المفروضة عليهما، و انضمّت إليه في الطريق قوّات القبائل الحليفة[5]. اقتحم صالح رايس المدينة الأولى بعد ثلاثة أيام من الحصار و استباحها، ثمّ قصد الثانية الّتي أذعنت دون مقاومة ؛ و قفل راجعًا إلى الجزائر حاملاً معه غنائم وفيرة، بعد أن فرض على كلتيهما أداء إتاوات سنوية[6]. و في طريق العودة، وقع الخلاف بين الأتراك العثمانيين و أحد أهمّ حلفائهم، عبد العزيز أمير بني عبّاس، بشأن تقسيم الغنائم[7]. لذلك، زحف بايلرباي الجزائر على رأس جيش لإخماد تمرّد عبد العزيز ؛ و رغم انتصاره، لم يتمكّن من الاستيلاء على قلعة بني عبّاس لمناعتها. و خلال السنتين التاليتين، وجّه حملتين تكبّدتا خسائر معتبرة دون أن تحسم الصراع[8].

---

1. المارستان أو مرستان : كلمة فارسية معرّبة مشتقّة من بيمارستان "مستشفى"، الّتي تعني حرفيًا "محلّ المريض" : ادّي شير، **كتاب الألفاظ الفارسية المعرّبة**، ط. 2، دار العرب للبستاني، القاهرة، 1988، ص ص. 33 و 145 ؛ أحمد عيسى بك، **تاريخ البيمارستانات في الإسلام**، ط. 2، دار الرائد العربي، بيروت، 1981، ص. 4.

- M. Ben Cheneb, **Mots turks et persans conservés dans le parler algérien**, Publications du Cinquantenaire de l'Université d'Alger, Alger, 2012, p. 77.

2. Haëdo, **Histoire…**, Op. cit., p. 87.

3. A. Berbrugger, « **Charte des hôpitaux chrétiens d'Alger en 1694** », in : R. A. 8, 1864, pp. 134-135.

4. Haëdo, Ibid., pp. 88 & 92.

انظر أيضًا : ساحلي أوغلي، خليل، "**تقليد صالح باشا ولاية جزائر الغرب سنة 1552**"، في : م.ت.م. 2، 1974، ص ص. 126-127.

5. مارمول كربخال، المصدر السابق، ج. 2، ص. 386.

6. Haëdo, Ibid., pp. 92-94 ; Marmol y Carvajal, Op. cit., T. II, pp. 415-416.

7. L. Ch. Féraud, **Histoire des villes de la province de Constantine : Sétif - Bordj-Bou-Areridj - Mesila - Bousaada**. Typographie et Lithographie L. Arnolet, Constantine, 1872, pp. 218-220 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., pp. 82-83.

فيما يخصّ أهمّية حلف بني عبّاس، يذكر مارمول كربخال أنّهم شاركوا في حملة تقرت و ورقلة بمئة و ثمانين من المشاة الحاملين للبنادق و ألف و ستّمئة من الفرسان من إجمالي ثمانية آلاف ضمّتهم قوّات الأهالي : مارمول كربخال، المصدر السابق، ج. 2، ص. 386.

انظر أيضًا : الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص ص. 81-82 ؛ سامح التر، المرجع السابق، ص. 185.

8. ناصر الدين سعيدوني، "**رسالة من أعيان قسنطينة إلى السلطان سليمان القانوني في شأن صالح رايس (963هـ/1555م)**"، في : م.ت.م. 83-84، 1996، ص. 164 ؛ عبّاد، المرجع السابق، ص. 75 ؛ يوسف بنوجيت، **قلعة بني عبّاس إبّان القرن السادس عشر للميلاد**، ترجمة سامية سعيد عمار، دحلب، الجزائر، 2007، ص ص. 157-159.

أولى البايلرباي اهتمامه في غضون ذلك لنصرة أبي حسّون الوطاسي من أجل استعادة فاس من غريمهما محمّد الشيخ السعدي، إذ وجّه لهذا الغرض إلى التخوم الغربية للإيالة حملة من ستّة آلاف راجل من حملة البنادق و ألف صبايحي انضاف لهم أربعة آلاف زواوي حليف من أتباع أمير كوكو[1]، حيث استولى على گرسيف و ألحق الهزيمة بمحمّد الشيخ بنواحي تازة، ثمّ شتّت القوّات الّتي حاول هذا الأخير جمعها قرب فاس ؛ و هذا ما مكّنه من دخول حاضرة المغرب مع حليفه المذكور أواخر سنة 1553م[2].

إثر ذلك، رجع صالح رايس إلى الجزائر بعد أن ترك حامية قوامها ألف جندي لأبي حسّون[3] ؛ و لعلمه أن مشروعه في ضمّ المغرب الأقصى يحتاج إلى قوّات عسكرية معتبرة، طلب من السلطان العثماني مدّه بخمسة أو ستّة آلاف جندي إنكشاري سيتكفل بدفع أجورهم من أجل القضاء نهائيًا على السعديين و تحرير الثغور الإسبانية[4]. في انتظار المدد، و خشية التقارب السعدي الإسباني، ارتأى صالح رايس خطورة بقاء بجاية بيد المسيحيين، خصوصًا مع استمرار ثورة عبد العزيز في منطقة لا تبعد عنها كثيرًا. و عليه، توجّه في نهاية يونيو 1555م برًّا على رأس ثلاثة آلاف تركي عثماني إلى بجاية الّتي لم يصلها إلاّ في سبتمبر ؛ و ذكر هايدو في هذا الصدد أنّه حشد خلال مسيره أزيد من ثلاثين ألفًا من الأهالي، في حين أرسل مدفعية الحصار مع الذخائر و المؤن بحرًا[5]. سقطت حصون الإسبان تباعًا بعد أن دكّتها بطّاريتا مدفعية طيلة خمسة عشر يومًا، ممّا اضطرّ الحامية إلى الاستسلام بشروط ؛ و بذلك تحرّرت بجاية، التّي وضع فيها البايلرباي حامية من أربعمئة رجل بقيادة العلج علي صاردو[6].

---

1. Mercier, Op. cit., p. 75.

تجدر الإشارة إلى أن أمير كوكو - من سلالة بن القاضي - حالف الأتراك العثمانيين منذ سنة 1552م، بسبب عداوته الشديدة لأمير بني عبّاس تبعًا لمبدأ "عدو عدوي صديقي".

2. سعيدوني، "**رسالة...**"، المرجع السابق، ص. 165.

3. R. Ricard & H. Chantal de la Véronne, **Les sources inédites de l'histoire du Maroc de 1530 à 1845. Archives et bibliothèques d'Espagne**, T. 2, Paul Geuthner, Paris, 1956, pp. 154-156.

4. Id., pp. 164-165.

أخّر انشغال سليمان القانوني بحملته الثالثة ضدّ الصفويين (1553-1555م)، وصول الإمدادات المطلوبة إلى سنة 1556م بعد فوات الأوان، إذ أنّ محمّد الشيخ استطاع قتل أبي حسّون غيلةً في معركة تادلا و إلحاق الهزيمة بقوّاته أواخر سبتمبر 1554م : أوزتونا، المرجع السابق، مج. 1، ص ص. 305–306 و 346-347 ؛ إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، ج. 2، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 2000، ص. 249 ؛ سعيدوني، نفسه.

5. Haëdo, **Histoire...**, Op. cit., p. 99.

و يشير نفس المصدر إلى أنّ صالح رايس لم يسعه حشد عدد أكبر من القوّات النظامية، بسبب إرسال نصفها مع معظم قطع الأسطول الجزائري ؛ و ذلك بناءً على أمر سلطاني لدعم الملك الفرنسي هنري الثاني في حربه ضدّ إسبانيا.

6. Haëdo, Ibid., pp. 100-101 ; Élie de la Primaudaie, Op. cit., 1877, pp. 279-283.

و شجّع هذا الانتصار صالح رايس على مواصلة خطّته الحربية، فبدأ التحضير لحملة على وهران. و ريثما تصل الإمدادات المرسلة من قبل السلطان سليمان، بادر للخروج بالأسطول المؤلّف من حوالي ثلاثين سفينة و أربعة آلاف جندي و الرسو في جون تامنتفوست شرق مدينة الجزائر ؛ إلاّ أنّ القدر لم يمهله حيث أصيب بعدوى الطاعون الّذي كان يعصف وقتئذٍ بمدينة الجزائر، و توفي في يونيو 1556م عن سن ناهز السبعين[1].

في انتظار من يعيّنه السلطان، اختار الديوان قائد القوّاد[2] حسن قورصو خليفة لصالح رايس ؛ و الّذي قرّر مواصلة الحملة إلى وهران، بعد التحاق القوّات العثمانية المؤلّفة من أربعين سفينة أقلّت نحو ستّة آلاف جندي. سار حسن قورصو برًّا بستّة آلاف جندي، و انضمّ له في الطريق ألف فارس و ثلاثين ألف راجل من الأهالي[3] ؛ و في مستغانم، تمّ إنزال المدفعية و تنظيم القوّات. و هكذا، وصل أكبر جيشٍ جمعه العثمانيون إلى وهران في أغسطس، حيث عسكر بالقرب منها و حفر الخنادق و نصب المدفعية، ثمّ شرع في مناوشة القوّات الإسبانية ؛ و حينما تمكّن العثمانيون من الاستيلاء على برج القديسين، و شدّدوا الخناق على المدينة الآيلة للسقوط، وصل مبعوث من السلطان بأمر الانسحاب الفوري لقوّات الإمداد[4].

اضطرّ حسن قورصو إلى رفع الحصار و التخلّي عن قسمٍ من عتاده الحربي، بعد أن خرجت الحامية الإسبانية تطارد قوّاته المتقهقرة حتّى مشارف مزغران[5] ؛ و عاد أفراد الجيش إلى الجزائر تخالطهم على الأرجح مشاعر الاغتمام من تفويت فرصة نصر محقّق و الغيظ من أمر السلطان المجحف. و بفشل أوّل حصار فعلي لوهران تنتهي هذه المرحلة الأوّلية في تاريخ الإيالة العثمانية، و تبدأ مرحلة جديدة ستعرف ظهور صراعات أطرافها أهمّ الجماعات العسكرية و السلطة الحاكمة كما سنرى لاحقًا.

و ذلك في حين ذكر التر أنّه بلغ تعداد أفراد حامية بجاية حوالي ستّمائة من العزب (جنود البحرية) : سامح التر، المرجع السابق، ص. 306.

1. Haëdo, **Histoire…**, Op. cit., pp. 102-103.

2. قائد القوّاد : في النظام العسكري العثماني، قائد القوّاد أو البكلربك (تنطق بايلرباي) هو القائد الأعلى للجيش في زمن الحرب و يأتمر بأوامر الحاكم العثماني المباشرة فقط، حيث ينسّق بين مختلف فرق الجيش البري، و يرأس اجتماع أركان الحرب (ديوان المحلّة) في حالة غياب حاكم الإيالة. و في الوثائق العثمانية، كان لقب صاحب المنصب يذكر مجرّدا "بكلربك" بغية عدم الخلط بينه و بين حاكم الإيالة البايلرباي (أمير الأمراء)، الذّي يردف بلقبه اسم الولاية "بكلربك جزائر غرب".

3. Id., pp. 104-105.

4. لقد اختلفت الآراء في أسباب ذاك الأمر السلطاني : علّله مارمول بما أحدثه أندريا دوريا من تخريب بجزر بحر إيجة و تهديده للبوسفور، فترتّب عن ذلك ضرورة سحب الدولة العثمانية لأسطولها لمواجهة الخطر في عقر دارها ؛ فيما أشار مؤرّخون مثل هايدو إلى أنّ السلطان شكّك في نتيجة الحملة بعد وفاة صالح رايس ؛ أمّا دي غرامون، فرجّح أنّ الدافع سياسي بالمقام الأوّل يتمثّل في الخوف من تنامي استقلالية ضبّاط الجيش، كما سيتبيّن لاحقًا في تمسّك الإنكشارية بحسن قورصو :

- Id., p. 105 ; Marmol y Carvajal, Op. cit., T. II, p. 366 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 83.

5. Marmol y Carvajal, Ibid. ; de Grammont, Ibid.

2. الأوجاق خلال عهد الولاة : فترة التثبيت (1556-1659م)

2-1. طبيعة العلاقة بين طائفة الريّاس و الأوجاق

إنّ أوّل عارض جدير بالاهتمام في العلاقة بين طائفة الريّاس و الإنكشارية، هي سلسلة الأحداث الّتي أعقبت وفاة الوالي صالح رايس، و أدّت إلى اغتيال خلفه تكلرلي محمّد باشا (مايو 1556-أبريل 1557م) ؛ و هو الأمر الّذي شكّل سابقة بالغة الخطورة في تاريخ الولاية العثمانية.

فعندما توفي صالح رايس في يونيو 1556م، ولّى أعضاء الديوان العامّ كما جرت العادة كاهيته حسن قورصو الحكم، في انتظار تعيين السلطان لخلفٍ جديد ؛ و أرسلوا إلى الآستانة لإعلامها بالأمر و طلب إسناد المنصب الشاغر للكاهية المذكور[1]. لكن بحلول شهر سبتمبر، وردت أخبار بقدوم عمارة عثمانية من ثمان سفن تقلّ والي الجزائر الجديد تكلرلي محمّد باشا ؛ إذ ذاك، اتّخذ "**الإنكشاريون و كبراء الأتراك**" قرارًا خطيراً يقضي برفض الوالي المعيّن من قبل السلطان و إبقاء حسن قورصو على رأس الولاية ؛ و أرسلت في هذا الصدد أوامر صارمة إلى قائدي بجاية و عنابة تلزمهما بإبلاغ تكلرلي هذا القرار و محاولة ثنيه عن المضي قدمًا بقصف عمارته بالمدافع إن اقتضى الأمر[2].

و رغمًا عن ذلك، واصل تكلرلي باشا طريقه حتّى تامنتفوست، و بقي ينتظر ردّ فعل من المدينة. و في تلك الأثناء، صمّمت طائفتي العزب و الريّاس[3]، خشية أن تتطوّر الأمور إلى ما لا تحمد عقباه، على التصرّف بكلّ سريّة ؛ فاتّصل زعيم طائفة الريّاس القبطان شلوق رايس بالباشا، و مكّنه من التسلّل بقوّاته إلى المدينة تحت جنح الظلام. و لم يدرك أفراد الإنكشاريّة بما جرى حتّى سمع هتاف جنود البحرية : "**يحيا السلطان، يحيا تكلرلي**"، فأُسقط في أيديهم و لم يتحرّكوا من الثكنات ؛ أمّا حسن قورصو، فاستسلم للوالي الّذي قام بإعدامه بعد أيّام برميه على خطاطيف باب عزّون.

---

1. Haëdo, **Histoire…**, Op. cit., pp. 104-106.

2. Id., p. 106.

3. لقد قرن السفير الفرنسي نيكولا دي نيكولاي عند سرده لزيارته للجزائر في صائفة 1551م بين الطائفتين، حيث أشار إليهما بعبارة "**الريّاس و عزب القادرغات**" :

- Nicolas de Nicolay. **Les quatre premiers livres des navigations et pérégrinations orientales,** Guillaume Roville, Lyon, 1568, p. 15.

و الجدير بالذكر أنّ تلكما الطائفتين ارتبطتا منذ تأسيس الإيالة على يد خير الدين، حيث كان العزب يشكّلون أساس القوّة القتالية على متن سفن الريّاس، علاوةً على مساهمتهم في المحلاّت و حراسة القلاع ؛ كما كان الأفراد الّذين أثبتوا أهليّتهم يمكنهم الترقّي إلى رتبة رايس، فعلى سبيل المثال، أوردت مراسلة مستخرجة من دفتر مهمّات الديوان الهمايوني أنّ كاهية العزب (عزبلر كتخداسي)، و هي أعلى رتبة ضمن تلك الطائفة المذكورة، كان في ذات الوقت أحد الريّاس المكافئين عقب الانتصار العثماني في جربة سنة 1560م : انظر الملحق رقم 1. و من جانب آخر، ذكر هايدو أنّ القراصنة "**يتكبّدون عناء خدمة يُلزم بها قسمٌ منهم بالخروج في المحلاّت، الّتي تقوم بالتغريم و تحصيل المجبى.**" ؛ و لا يمكن أن يكون القراصنة المشار إليهم سوى العزب، كونهم من القوّات النظامية. انظر : - Haedo, **Topographia…**, Op. cit., f. 70v°.

و صبّ تكلرلي جام غضبه على باق المتآمرين، فقتل بعضهم و عفا عن البعض الأخر لقاء بدل فدية[1]، كما راح يعامل أفراد الإنكشارية بغلظة غير آبهٍ بالعواقب ؛ إذ أنّ الخضوع و الاستسلام، الّذي فرضه عنصر المفاجأة على أولئك، ما لبث أن ترك المكان لرغبة قويّة في الانتقام. و تزعّم المؤامرة قائد تلمسان يوسف، الّذي كان عتيق حسن قورصو، بالتواطؤ مع آغا الإنكشارية مصطفى أرناؤوط ؛ و قد تحيّن يوسف وجود الوالي خارج مدينة الجزائر للقيام باغتياله في أبريل 1557م[2].

و كان الديوان الهمايوني في تلك المرحلة من تاريخ الدولة العثمانية لا يزال أشدّ ما يكون اعتدادًا و قوّة، و لم يكن قد تسرّب إليه الاختلال و الوهن الّذي نال منه فيما بعد. و بسبب ذلك، كان وقع أحداث الجزائر على الباب العالي كبيرًا، و خشي أن يتحوّل ذلك إلى حركة عصيان معلن ضدّ الأوامر السلطانية إن لم تعالج الأمور بطريقة سليمة ؛ و رأى أنّ الحلّ الأنسب هو تعيين حسن بن خير الدين للمرّة الثانية في سدة الحكم، لما كان يتمتع به من سمعة و مكانة طيّبة لدّى الجزائريين، و بالأخصّ الريّاس من رفاق أبيه ؛ و من باب الحيطة، أرسل على رأس عمارة كبيرة تضمّ عشرين سفينة حربية، و هي قوّة كافية للوقوف في وجه أيّ طارئٍ قد يتعرّض له[3].

لم تواجه حسن باشا صعوبات تذكر في استلام منصبه[4] ؛ و بالرغم من عدم ورود أيّة إشارة في المصادر عن الطريقة الّتي تعامل بها الوالي المذكور مع قضيّة مقتل سلفه، فالمرجّح أنّه غضّ الطرف عن المتدخّلين في الجرم. و هذا التصرّف عائد بحسب رأينا إلى سببين مهمّين : السبب الأوّل هو تفادي استفزاز الإنكشارية لاشتراك عدد ليس بقليل من الضبّاط في مقتل تكلرلي، و ليس من المستبعد أنّه مال إلى نظرية الانتقام الشخصي، خصوصًا و أنّ مرتكب الجريمة القائد يوسف كان قد قضى نحبه قبل أسابيع من جرّاء الطاعون[5] ؛ أمّا السبب الثاني - و ربّما الأهمّ -، فهو التهديد الداهم من الناحية الغربية، ذلك أنّ محمّد الشيخ استغلّ اضطراب الأحداث في الجزائر و هجم على تلمسان، لكنّه لم يتمكّن من الاستيلاء

---

1. Haëdo, **Histoire…**, Op. cit., pp. 107-114 ; A. Devoulx, "**La première révolte des janissaires à Alger**", in R.A. 15, 1871, pp. 2-6.

2. E. Watbeld, "**Documents inédits sur l'assassinat du Pacha Tekelerli (1556-1557)**", in R.A. 15, 1871, pp. 335-337.

3. Haëdo, Ibid., p. 122 ; A. Devoulx, "**Assassinat du Pacha Mohammed Tekelerli**", in R.A. 15, 1871, p. 89.

4. أورد الجيلالي بهذا الصدد، لكن دون ذكر المصدر الّذي استقى منه المعلومات : "**كان من أهمّ أعمال البيلرباي حسن الّتي شرع في القيام بها في هذه المرّة، أخذه في جمع كلمة الجند المتمرّد من فريق الإنكشارية، فسلّ منه السخائم و أطفأ نار غضبه المنصب على الوجاق كما هي عادته في كلّ مناسبة تحدث عند تولية والي جديد، و ذلك رغبة منه في زيادة المرتّبات و رفع أجور الجيش المرتزق، فعامله البيلرباي يومئذٍ بما يرضيه، ثمّ اشتغل بتنظيم المخزن**" : عبد الرحمن بن محمّد الجيلالي، **تاريخ الجزائر العامّ**، ج. 3، دار الأمّة، الجزائر، 2010، ص ص. 91-92.

5. Haëdo, Ibid., p. 119.

على حصن المشوار الّذي تحصّنت فيه الحامية التركية. لذا، كان حسن باشا بحاجة إلى كامل قوّاته مهيّأة لدرأ الخطر.

و عقب معركة تكبّد فيها الطرفان خسائر فادحة قرب فاس، دون أن تميل كفّة النصر لأحدهما، قرّر الأتراك العثمانيون التخلّص من عدوّهم المغربي. و لأجل ذلك، موّهوا فرار مفرزة من اثني عشر إنكشاريًا إلى السعدي، الّذي قام بضمّها إلى حرسه الخاصّ ؛ و لم يمض وقت طويل حتّى اغتاله قائد المفرزة الكاهية صالح و حمل رأسه إلى الجزائر[1].

إنّ الانتصار الساحق على الإسبان إثر محاولتهم احتلال مستغانم عام 1558م، حيث قتل الكونت الكوديت و تمّ قتل أو أسر قرابة اثنا عشر ألف جندي[2]، لم ينسي حسن باشا اخفاقه ذات السنة في المغرب الأقصى أمام عبد الله بن محمّد الشيخ[3]، و كذا مواصلة أمير بني عبّاس تعزيز قوّاته بشكل جدّي بالسلاح و الرجال، - منهم ما يقارب ألف مرتزق إسباني مسلّحين بالبنادق - استعدادًا لمواجهة الأتراك العثمانيين[4] ؛ و عليه، رأى أن يعزّز قوة جيش الإيالة، فعمد إلى استحداث فرقة نظاميّة جديدة هي جماعة "الزواوة" في غضون شهر يونيو 1561م[5]. و كان هذا التصرّف من جانب الوالي متمشيًا مع السياسة الّتي رسمها ليدعم الحكم العثماني في البلاد من جهة، و ليجد مجال موازنة بين "الطوائف" البحرية و الإنكشارية المتنازعة من جهة أخرى.

بيد أنّ هذا التدبير أثار حفيظة الإنكشاريّة الّتي شكّت في نواياه، فدعا آغاها إلى اجتماع عاجل للديوان تقرّر فيه طرد الزواوة من مدينة الجزائر، و تعدّى الأمر إلى الهجوم على دار الإمارة، حيث ألقي القبض على الوالي نفسه مع إثنين من مقرّبيه و أرسلوا إلى الآستانة مكبّلين، بدعوى أن تجنيد تلك العناصر الأهلية ليس إلاّ البداية فقط لتكوين جيش يعتمد عليه المذكور للانفصال بالجزائر عن السلطنة العثمانية. لم يقتنع الديوان الهمايوني بالادعاءات الموّجهة ضدّ حسن باشا و اعتقل وفد البلوكباشية الّذي رافق المقبوض عليهم، ثمّ أمر بإعدام أعضائه[6] ؛ كما كلّف الوالي الجديد أحمد بستانجي باشي بتصفية المتمرّدين، فاقتيد زعيمي

---

1. Haëdo, **Histoire…**, Op. cit., pp. 123-125 ; Mercier, Op. cit., pp. 84-86 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., pp. 89-90.

انظر أيضًا : سامح الترّ، المرجع السابق، ص ص. 201-203 ؛ دي طوريس، المصدر السابق، ص ص. 219-221 و 224-226 ؛ مجهول، **تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية**، تقديم و تحقيق عبد الرحيم بنحادة، عيون المقالات، مراكش، 1994، ص ص. 30-33 ؛ قدّور بوزياني، "**دور الطائفة البحرية التركية في توجيه العلاقات المغربية العثمانية إبّان القرن السادس عشر الميلادي**"، في م.ت.ع.د.ع.، 21 (2000)، ص ص. 45-48.

2. Haëdo, Ibid, pp. 125-127 ; Hess, Op. cit., p. 78 ; de Grammont, Ibid., pp. 90-91.

3. Mercier, Ibid., pp.92 -93.

4. عبّاد، المرجع السابق، ص. 86.

5. Haëdo, Ibid., p. 130.

6. سامح الترّ، المرجع السابق، ص. 211. الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 97. انظر أيضًا :

المؤامرة - و هما آغا الإنكشارية و قائد القوّاد - إلى الآستانة، حيث أعدما بتهمة الادعاء الباطل و التطاول على ممثّل السلـطان ؛ و تتبّع أحـمد باشا باقي المتمرّدين بلا هوادة بالقـتل و العزل، لكنّه توفي بعد فترة قصيرة، و قيل أنّه مات مسمومًا[1].

تميّزت ولاية حسن بن خير الدين الثالثة بمحاولة فتح وهران و مرسى الكبير في ربيع سنة 1563م، و الّتي أعقبها بعد سنتين المشاركة في الحملة العثمانية على جزيرة مالطة في صيف سنة 1565م ؛ و ذانك حدثان بالغا الأهمّية بالنظر إلى الخسائر الكبيرة، بالأخصّ في صفوف الإنكشارية[2]. و قد أفضى ذلك إلى

- de Grammont, Ibid. ; S.A. Boulifa, **Le Djurdjura à travers l'histoire (depuis l'Antiquité jusqu'à 1830)**, J. Bringau, Alger, 1925, pp. 167-168.

1. عبّاد، المرجع السابق، ص. 87.

ذكر هايدو أنّ أحمد باشا مات بعد أن حكم أربعة أشهر من جرّاء مرض الزحار، و تجدر الإشارة إلى أنّ هذا المرض تشبه أعراضه بعض أعراض التسمّم الزرنيخي. انظر : - Haëdo, **Histoire…**, Op. cit., p. 134.

2. خلّفت حملة حسن باشا على وهران و المرسى الكبير آلاف القتلى في صفوف الجيش الجزائري البالغ تعداده خمسة عشر ألفًا من المشاة و عشرة آلاف فارس. انظر بهذا الخصوص : مارمول، المصدر السابق، ج. 2، ص ص. 337-348. - Id., pp.137-138.

و اضطرّت تلك الخسائر الفادحة بايلرباي جزائر الغرب إلى طلب إرسال ألف و خمسمائة مجنّد في السنة التالية (1564) :

- Archivo General de Simancas, E 1053, fº. 52.

نقلاً عن : - Gürkan, "**The centre…**", Op. cit., pp. 143-144.

من جانب آخر، شاركت إيالة الجزائر في حملة مالطة بألفين و خمسمائة إلى ثلاثة آلاف جندي نظامي من الإنكشارية و العزب، قضى منهم قرابة الألف و الخمسمائة نحبهم في العمليات القتالية، الّتي يجدر التنويه بأنّها باءت بالفشل. انظر الملحق رقم 2.

انظر في هذا الصدد : سامح التر، المرجع السابق، ص. 219.

- Haëdo, **Histoire…**, Op. cit., p. 134 ; Abbé de Vertot, **Histoire de l'ordre des chevaliers de Malte**, T. V, Louis Janet, Paris, 1819, p. 21 ; Major Withworth Porter, **A History of the knights of Malta**, Vol. II, Longman, Brown, Green, Longmans & Roberts, London, 1858, p. 122 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 99.

إنّ تناقص عدد الإنكشارية النسبي مقارنةً بعدد منافسيهم من العزب عائد إلى اختلاف أنماط التجنيد بين الفرقتين ؛ فقد ارتكـز التجنيـد بالنسبة للفرقة الأولى على إرسال أعداد متفاوتة - بحسب الحاجة - من إنكشارية العاصمة (الآستانة) كان يصطحبها عادةً البايلرباي المعيّن حديثًا، في حين كان تجنيد العزب يعتمد أساسًا على تطوّع الأتراك الأناضوليين و الأتراك الجزيريين، إضافةً إلى عدد محدّد من الأعلاج و الإسلاميين الّذين كان يتاح لهم الانخراط وفق شروط معيّنة. انظر الملحق رقم 7.

انظر أيضًا في هذا الصدد :

- Diego de Haëdo, **La vie à Alger les années 1600. Topographie et histoire générale d'Alger**, Trad. A. Berbrugger & Dr. Monnereau, Éditions G.A.L., Alger, 2004, p. 67 ; Haëdo, Ibid., pp. 80-81, 107-108 & 128 ; Asma Moalla, "**Le *Jund* de la régence tunisienne, 1574-1650**", in : A.H.R.O.S. 29, 2004, pp. 194-195 ; Moalla, **Sous le toit…**, Op. cit., pp. 201-202 ; P. Boyer, "**Introduction à une Histoire intérieure de la Régence d'Alger**", in R.H. 237, 1966, pp. 302-303.

و تجدر الإشارة إلى أنّ أغلبية الأعلاج كانوا ينخرطون في النشاط البحري، على حسابهم الخاصّ كريّاس و جنود و ملاّحين مرتزقين من القرصنة ؛ و على هذا الأساس، فإنّهم كانوا يحسبون من ضمن اللوند : - Haëdo, **Topographie…**, Op. cit., p. 90.

انظر بخصوص التجنيد المبحث الثاني من الفصل الخامس.

تناقص أعدادهم ظرفيًا بشكل أتاح لمنافسيهم من فرقة العزب بأن يزاحموهم في خدمة اليسقجية[1]، ممّا دفع بالإنكشارية للشكوى لدى الديوان الهمايوني بهذا الخصوص[2].

عقب ذلك، حاول البايلرباي محمّد بن صالح رايس تسوية الخصومة بين الإنكشارية و الطوائف البحرية، حيث ذكر هايدو أنّه "**صالح الإنكشارية مع اللوند و العزب و وفّق بينهم، عبر السماح للإنكشارية بأن يذهبوا على سفن القرصنة كجنود - كما كانوا يتمنّون بشدّة - و السماح للوند** [و العزب]، **سواء كانوا من المرتّدين أو الأتراك، بأن يصيروا إنكشارية عندما يطلبون ذلك...**"[3] ؛ و خفّفت تلك التسوية من حدّة الصراع دون أن تنهيه بالكامل[4]، كما أنّها شكّلت - و هنا تكمن أهمّيتها - بداية فكّ ارتباط إنكشارية الجزائر عن المؤسسة العسكرية الأمّ بإستانبول، حيث أدّت على المدى المتوسّط إلى تضاؤل عدد الإنكشاريين المرسلين إلى الإيالة تدريجيًا.

و بالموازاة مع تزايد انضمام أتراك و أعلاج الطوائف البحرية إلى الفرقة السالفة الذكر، برزت الحاجة إلى سدّ النقص الحاصل في صفوف قوّات العزب و اللوند، حيث أضحى القباطنة الريّاس يلتمسون بشكل أكثر تواترًا الإذن بتجنيد عساكر لصالح البحرية بالسواحل الأناضولية و الروميلية[5].

و خلال عهد فندقلي حسن باشا الأولى المشهور بحسن فنزيانو (1577-1580م)، توتّرت العلاقة مجدّدًا بين فرقة الإنكشارية و الطوائف البحرية ؛ و مردّ ذلك أنّ البايلرباي لم يكن يدفع مخصّصات طوائف البحرية في آوانها، في حين كان يحابي الإنكشارية بهذا الخصوص. و عليه، قرّر الديوان أن يتمّ

---

1. اليسقجية : هي خدمة حراسة مباني القنصليات و مقرّات إقامتهم، التّي كانت تسند لأفراد من الإنكشارية يعرفون بـ"يساقچيلر". انظر : مصطفى عبد الكريم الخطيب، **معجم المصطلحات و الألقاب التاريخية**، مؤسّسة الرسالة، بيروت، 1996، ص. 446.

انظر بهذا الصدد المبحث الأخير من الفصل السادس.

2. دوّنت الشكوى الواردة بحقّ العزب في دفتر مهمّات الديوان الهمايوني رقم 7، ص. 20. انظر الملحق رقم 3.

3. Haedo, **Topographia…**, Op. cit., f. 77 r°.

انظر أيضًا في هذا الصدد :

- d'Aranda, Op. cit., p. 128.

الجدير بالذكر أن الانخراط كان بلا أدنى شكّ يخضع لشروط هي : العزوبة، غياب العاهات، السنّ، الشغور، و قبول آغا الإنكشارية.

انظر أيضًا: الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 102 ؛ سامح الترء المرجع السابق، ص. 221 ؛ عبّاد، المرجع السابق، ص. 90.

و لقد انفرد أندرو هس بالقول أنّ شعبان باشا طلب من السلطان سنة 1593م أن يسمح للإنكشارية بالمشاركة في أنشطة القرصنة، و أن يساهم "القراصنة" في ذات الوقت بنسبة أكبر من مغانمهم في خزينة الإيالة : - Hess, Op. cit., pp. 109-110.

4. انظر الملحق رقم 4.

5. الجدير بالذكر أنّه عقب طلب مراد رايس الإذن بتجنيد عساكر لصالح البحرية الجزائرية في يونيو 1571م (انظر الملحق رقم 7)، أرسل العثمانيون ألف متطوّع على متن سفينتين. انظر : دفتر المهمة 16، حكم رقم 632 ؛ 5 جمادى الأوّل 979هـ/25 سبتمبر 1571م. نقلاً عن :

- Gürkan, "**The centre…**", Op. cit., p. 144.

انظر أيضًا الملحق رقم 16.

إلحاق مواجب طوائف الريّاس و عمّال الميناء (دار الصناعة) و العزب بمواجب[1] جماعة الإنكشارية، بحيث أضحت تدفع جماعيًا. لكن عوض أن يحلّ ذلك المشكلة، فإنّه أدّى إلى خلق مشاحنات و المزيد من الشقاق، و ارتكب أفراد من الإنكشارية عدّة مظالم بحقّ أفراد البحرية ؛ فأصدر فرمان سلطاني في يوليو 1580م يأمر جعفر باشا الوالي المعيّن حديثًا على الجزائر بفصل المواجب و إعادة النظام إلى سابق عهده[2]، كما عمد إلى تعيين آغا جديد أوكلت له مهام وضع حدّ لتجاوزات الإنكشارية و فرض الانضباط في صفوفها[3].

و يمكن اعتبار قيام الإنكشارية بالشكوى من عدم إنصافهم في قسمة الغنائم في صيف عام 1582م[4]، الّتي كان سببها بالأساس راجع إلى فرض حسن باشا فندقلي على طائفة الريّاس دفع خمس الغنائم لخزينة الدولة، بعد أن كانوا يدفعون نسبة السبع[5]، كآخر حلقات الصراع الجدّية بين طائفة الريّاس و الأوجاق ؛ إذ سيؤدي حؤول الإنكشارية كأهمّ قوة مقاتلة على متن سفن القرصنة الجزائرية على المدى المتوسّط محلّ العزب فعليًا إلى "تطبيع" العلاقة مع الريّاس[6]، منهيًا بذلك عقودًا من التصارع، في الحين الّذي بدأت ترتسم فيه بوادر صراع آخر مع بروز فئة الكراغلة[7].

---

1. المواجب، مفردها موجب، و هو الراتب الّذي كان يدفع عادةً كلّ ثلاثة أشهر. انظر :

- Reinhart Pieter Anne Dozy, **Supplément aux dictionnaires arabes**, T. 2, 2e éd., E.-J. Brill (Leide) – Maisonneuve Frères (Paris), 1927, p. 782.

2. انظر الملحق رقم 27.

3. سامح الترء المرجع السابق، ص ص. 258-259.

انظر الملحق رقم 26.

4. انظر الملحق رقم 34.

5. Haëdo, **Topographie…**, Op. cit., p. 179 ; Hess, Op. cit., p. 108.

انظر أيضًا في هذا الصدد : عبّاد، المرجع السابق، ص. 99.

في نفس السياق تقريبًا - و بناءً على شكوى من البايلرباي شعبان باشا هذه المرّة -، ورد أمر سلطاني في عام 1593م مفاده أنّ الريّاس لم يلتزموا بدفع خمس الغنائم و بعض العوائد المخصّصة لدفع مواجب الإنكشارية، رغم أنّهم يقاتلون على متن سفنهم. انظر : دفتر المهمة 70، حكم رقم 417 ؛ 19 جمادى الآخر 1001هـ/23 مارس 1593م. نقلاً عن : - Gürkan, "**The centre…**", Op. cit., p. 161.

6. نذكر كمؤشر على هذا التحوّل أنّه في خريف سنة 1590م، لم يجد ريّاس أربع غليوطات قوّاتًا كافية للخروج في البحر، بسبب انشغال قوّات الإنكشارية في إخماد تمرّد بني عبّاس، ممّا اضطرّهم إلى إركاب عرب البادية، عمّال الدكاكين و بحّارة مراكب تجارية كجنود. انظر :

- Haëdo, **Histoire…**, Op. cit., pp. 216-217.

7. انظر أدناه.

2-2. الصراع مع الكراغلة و تبعاته

الكراغلة أو القولوغلية[1]، هم أبناء الأتراك العثمانيين من عسكر القپو قولى المشكّل من جماعة الإنكشارية و الجماعات الفرعية المكمّلة لها[2] ؛ و لقد تواجدت تلك الفئة من المولّدين بوجه خاصّ في المدن الّتي كانت تتمركز بها الحاميات العثمانية مثل بجاية، و عنّابة، و قسنطينة، و مستغانم، و المدية، و مازونة، و البليدة، و بسكرة، و تلمسان، و مليانة.

و كانت وضعيّتهم الاجتماعية متميّزة، بالنظر لانتسابهم إلى العنصر التركي العثماني المسيطر على البلاد، و لكونهم همزة وصل مع العنصر المحلّي. و خلال الخمسين السنة الأولى من الوجود العثماني، عومل الكراغلة نسبيًا على قدم المساواة مع العناصر الأخرى المشكّلة للأوجاق، و سمح لهم بتقلّد وظائف سامية في الجيش والإدارة، بما فيها منصب الوالي[3].

---

1. الكراغلة جمع كرغلي، و يعود أصل هذه الكلمة إلى الكلمة التركية المركّبة من كول "عبد، غلام" و اوغلو "ابن"، أي "ابن العبد" ؛ و تجدر الإشارة إلى أنّ معنى العبوديّة عائد هنا إلى الأب الإنكشاري، الّذي كان يعتبر بمثابة عبد للسلطان العثماني. انظر:

- R. Mantran, "**Quelques apports ottomans dans les capitales des Odjaks de l'Ouest**", in R.H.M. 69-70, 1993, p. 134.

2. فارس كعوان، **النظام العثماني و الفئات الاجتماعية في الجزائر : الكراغلة نموذجًا، 1629-1830**، ماجستير في التاريخ، جامعة منتوري، قسنطينة، 2004-2005، ص ص. 6-7.

و قد أشار القنصل الفرنسي ڤالبير في مذكّرته حول الجزائر أنّ "**الأطفال المولودين بالجزائر، و إن كانوا أبناء أب و أمّ تركيين مشرقيين، لم يكونوا يعتبرون قطّ سوى كراغلة**"، كما ذكر في نفس السياق أنّ "**ابن الكرغلي الّذي أهمل أو لم يستطع تسجيل نفسه في المليشيا يتدنّأ و ينحدر هو و ذرّيّته إلى طبقة الأهالي**" :

- L. Chaillou, **Textes pour servir à l'histoire de l'Algérie au XVIIIe siècle, suivis de la guerre de quinze heures,** Toulon, 1979, p. 31.

ذكر الأسير الإنكليزي "فرنسيس نايت" عند حديثه عن نفي الكراغلة خلال سنتي 1629 و 1630م أنّ معظمهم "**تحدّروا من الأتراك الأوائل الّذين فتحوا البلاد**" :

- F. Knight, **A relation of seaven years slaverie under the Turkes of Argeire, suffered by an English captive merchant**, London, 1640, p. 4.

انظر ايضًا : جمال قنان، **نصوص و وثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500-1830**، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1987، ص. 75 ؛ نور الدين عبد القادر، **صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي**، كلية الآداب الجزائرية، قسنطينة، 1965، ص. 9.
انظر بخصوص الجماعات الفرعية لأوجاق الإنكشارية الفصل السابع.

3. محمّد مقصودة، **الكراغلة و السلطة في الجزائر خلال العهد العثماني 1519-1830م**، ماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر، جامعة وهران، 2014، ص. 76.

ارتقى إلى ذلك المنصب كرغليان شهيران، هما حسن باشا بن خير الدين، الّذي حكم الجزائر ثلاث مرّات في (1545-1551م)، و (1557-1561م)، و أخيرًا (1562-1567م) ؛ و محمّد باشا بن صالح رايس (1567-1568م)، الّذي خلفه مباشرةً في ختام آخر ولايةٍ له. انظر:

- Haëdo, **Histoire…**, Op. cit., p. 81 & sq. ; Temime Blili, Op. cit., p. 147.

بدأ تمايز هذه الجماعة عقب تسوية محمّد باشا سنة 1568م، الّتي أتاحت انخراط أفراد من الطوائف البحرية في الإنكشارية، إذ أنّه بينما أتيح ذلك للأتراك و الأعلاج بلا مانع، استبعد مجمل الكراغلة بحيث لم يسمح إلاّ لعددٍ قليلٍ منهم أن يصيروا إنكشاريين[1]. و منذ ذلك الحين، بدأ صراع خفيّ و طويل بين الأتراك العثمانيين و ذرّيّتهم غذّته المعاملة التعسّفية للجند الإنكشاري بشكلٍ أسهم في إثارة الاضطرابات بمدينة الجزائر، و اتّخذ الكراغلة على العموم خلال تلك الأحداث موقفًا جليًّا ضدّ الأتراك مثلما حدث في ربيع سنة 1577م[2].

و ما هي إلاّ سنوات قليلة حتّى سجّل أوّل بروز لهم كفئة مستقلّة سنة 1582م، في فرمان سلطاني مثبت في دفتر مهمّات الديوان الهمايوني جاء ردًّا على شكوى طائفة الـ"قول اوغلى" (أيّ الكراغلة)، بسبب غبنهم في العلوفات من قبل حسن باشا فندقلي[3].

و قد حدثت سنة 1597م ثورة أبلغ أثرًا[4] يرجع سببها إلى أنّ البايلرباي خضر باشا، الّذي اتهمته الإنكشارية لدى الديوان الهمايوني باختلاس أموال خزينة الإيالة سنة 1591م، سعى بعد أن برّئت ساحته إلى الانتقام[5] ؛ و خلال عهدته الثانية على الجزائر[6]، اغتنم المذكور تزايد نقمة الكراغلة و سكّان الفحوص (الفحصية) ضدّ الإنكشارية، ليقوم بدعمهم سرًّا بالسلاح. و لقد كانت هذه الثورة الّتي استعرت شهورًا

---

1. المرجّح أنّ السبب الرئيسي للاستبعاد راجع إلى أنّه وقتذاك كان فقط الجيل الأوّل من أبناء الأتراك العثمانيين يعتبرون كراغلة أو قولوغلية ؛ أمّا الأجيال التالية (أيّ أبناء الأبناء و من يليهم)، فكانوا يعتبرون من الأهالي (و يعرفون في اللغة العثمانية بـ "يرلو"، أي أبناء البلد) :
- Boyer, P. "**Le problème kouloughli dans la régence d'Alger**", in R.O.M.M. n° spécial, 1970, p. 83 ; J. D. Kieffer & T. X. Bianchi. Op. cit., 2e vol., p. 1265.

2. انظر الملحقين رقمي 20 و 25. بخصوص تلك الاضطرابات، ذكر ابن المفتي في تقييداته : "**و أوّل فتنة كانت فتنة الحمايمي** (الحمّامي) **الّتي وقعت بالجزائر سنة 995هـ** (الراجح أنّه خطأ نسخي، و الأصحّ 985هـ الموافقة لسنة 1577م) **بتأييدٍ من عددٍ كبيرٍ من العصاة الّذين اعتدوا على دور الريّاس الّذين كانوا يبغضونهم، و على دور أولئك الّذين كانت لهم رتبة عالية في الإمارة و حكم المدينة سواء كانوا من الديوان أم لا**" : ابن المفتي، المصدر السابق، ص. 83.

3. انظر الملحق رقم 35.

4. أشار ابن المفتي في تقييداته إلى وقوع ثورة 1597م بقوله : "**و وقعت فتن أخرى... آخرها تلك الّتي تعرف بالقلاعجي** (على الأرجح تحريف للكلمة تركية الأصل قلايجي "مُقصدِر") **الّتي وقعت في دار الإمارة سنة 1006 هـ**" : ابن المفتي، نفس المصدر السابق، ص. 84.
- Beaussier, M. **Dictionnaire pratique arabe-français**, librairie Adolphe Jourdan, Paris, 1887, p. 562. انظر أيضًا :
إنّ وجود أوضة باسم "حمامجي" في ثكنة صالح پاشا، و أخرى باسم "قلايجي" في ثكنة علي پاشا يجعلنا نخمّن أن زعيمي الثورتين كانا في الواقع إنكشاريين حفظ اسمهما في الذاكرة الجماعية للأوجاق بتلك الصفة. انظر الملحقين رقم 53 و 54.

5. de Grammont, **Histoire d'Alger...**, Op. cit., pp. 139-140 ; Temime Blili, Op. cit., pp. 228-230.
- سامح التر، المرجع السابق، ص. 308 ؛ مقصودة، المرجع السابق، ص ص. 118-119 ؛ كعوان، **النظام...**، المرجع السابق، ص ص. 49-50.

6. حكم البايلرباي خضر باشا الجزائر ثلاث مرّات خلال السنوات (1589-1591م)، (1595-1597م)، و أخيراً (1604-1605م).

عديدة من الشدّة، بحيث حدثت مجازر رهيبة في أزقّة المدينة و اضطرّت المئات من الأسر للنـزوح إلى مدن البليدة، و مليانة و المدية القريبة. و ممّا زاد الأمور سوءًا، اجتياح القبائليين بقيادة أمير كوكـو عـمّار بن القاضي لسهل متيجة طيلة أحد عشر يومًا و وصول طلائعهم لفحوص باب عزّون ؛ عندئذٍ سارع الإنكشارية إلى قبول المصالحة الّتي دعى إليها خضر باشا، خشية قيام تحالف بين القبائليين و أبناء البلد من الكراغلة يمكنه أن يهدّد الوجود العثماني بالجزائر، كما سبق و أن حدث زمن خير الـدين في سنة 1521م[1].

و بموجب هذه المصالحة، سمح للكراغلة بالتجنّد في صفوف الإنكشارية، و بأن يعاملوا على قـدم مساواة مع بقية العناصر العثمانية الأخرى ؛ و بفضلها، تحسّنت العلاقات نسبيًّا بين الأتراك العثمانيين و الكراغلة لفترة تقارب الثلاثين سنة[2]. و هكـذا، ارتفـع عـدد الكراغلـة تـدريجيًا بحيـث أمكـن الفرنسي-گييرمي في 1620م، أن يسجّل وجود خمسة آلاف جندي كرغلي مـن ذوي الرواتـب، إلى جانـب حـوالي عشرة آلاف "تركي" و خمسة آلاف من الزواوة[3].

لكن حدثين متواليين عكّرا صفو تلك العلاقات و أشعلا فتيل الأزمة من جديد : فبعد أن تطـوّر الخلاف الحدودي مع إيالة تونس إلى مناوشات دامت أربع سنوات، و انتهت بواقعة السطارة قرب الكاف في 17 مايو 1628م الّتي انتصر الجزائريون فيها[4]، قرّر ديوان المحلّة قتل الأسرى التونسيين من الكراغلة

انظر في هذا الصدد : مجهول، **تاريخ أمراء الجزاير**، مخطوط المكتبة الوطنية رقم 1639-2، 1158هـ/1745م، الجزائر، و. 5 ؛ ابن المفتي، نفس المصدر السابق، ص ص. 44-45.

1. de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., pp. 140-141 : P. Boyer, "**Espagne et Kouko. Les négociations de 1598 et 1603**", in R.O.M.M. 8, 1970, p. 28.

انظر أيضًا : سامح التر، المرجع السابق، ص. 310 ؛ مقصودة، المرجع السابق، ص. 119.

2. في هذا الصدد، ذكر دييگو دي هايدو في كتابه "طوبوغرافيا" الّذي أنهى تأليفه على الأرجح قبل سنة 1605م: "**إنّه أيضًا مـن العـادات و الأعراف أنّ جميع أبناء الإنكشارية أو المرتّدين أو أحفادهم، يمكنهم إن أرادوا أن يصبحوا إنكشاريين، مثلما هو حال الكثير منهم بالفعل**" :

- Haëdo, **Topographie…**, Op. cit., pp. 67 & 245.

3. **Rapport de Guillermy**, Bibliothèque Inguebertine, ms. 1777, f. 60 r°.

نقلاً عن : - Boyer, "**Le problème…**", Op. cit., p. 81.

انظر أيضًا : جمال قنان، **نصوص و وثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500-1830**، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1987، ص. 75.

- H.D. de Grammont, "**Relations entre la France et le régence d'Alger au XVIIe siècle. 2ème partie : La mission de Sanson Napollon (1628-1633)**", in R. A. 23, 1879, p. 136.

4. محمّد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني المعروف بابن أبي دينار، **كتاب المؤنس في أخبار أفريقية و تونس**، مطبعة الدولة التونسية، تونس، 1870، ص. 196 ؛ محمّد بن محمّد السرّاج التونسي، **الحلل السندسية في الأخبار التونسية**، مج. 2، مكتبة المسجد النبوي الشريف، مخ. 900.19، 1194هـ، و. 37 ظ ؛ ابن المفتي، المصدر السابق، ص. 48 ؛ الجيلالي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 131 ؛ سامح التر، نفس المرجع السابق، ص. 334.

الّذي حمّلهم مسؤولية الحرب، فيما استبقى على حياة رفاقهم من الأتراك[1] ؛ و هذا ما أثار حفيظة الكراغلة الجزائريين، و على رأسهم آغا المحلّة. و في نفس الوقت تقريبًا، ثار التلمسانيون بقيادة مدّعي مهدوية يدعى سيدي عبد القادر من إقليم السوس المغربي[2]، و ألجأوا أفراد الحامية الّذين نجوا من القتل إلى الاحتماء بقلعة المشور ؛ و بحلول ربيع 1629م، أرسلت ضدّهم محلّة من العاصمة قوامها ألف و مائتي إنكشاري تعاضدهم مفرزة من فرسان المخزن[3]. و تمكّنت المحلّة من اقتحام المدينة و قمع الثورة بشكل وحشي مطلع شهر مايو، حيث ارتكبت خلال عمليات السلب و النهب الكثير من الفظائع في حقّ السكّان، الّذين كان الكراغلة يشكّلون نسبةً معتبرة منهم[4].

عاد أفراد المحلّة من تلك الموقعة محمّلين بالغنائم إلى الجزائر، الّتي دخلوها اليوم الثامن من الشهر المذكور[5]، لكن أنباء المظالم المقترفة جعلت الجوّ بالمدينة مشبّعًا برائحة الاستنكار و التمرّد ؛ و ما هي إلاّ أيّام قلائل حتّى انفجرت إثر ذلك مواجهات دامية بين "الأتراك" و الكراغلة[6]. بالنسبة لكبار ضبّاط الإنكشارية من "الأتراك" الّذين اجتمعوا سرًّا، تلك الأحداث كانت تنذر بقيام ثورة في المدينة مثلما حدث في سنة 1597م ؛ و سواء كانت خطوة استباقية أم أنّه وصلتهم أنباءٌ مؤكّدة عن مؤامرة دبّرها الكراغلة للاستيلاء على السلطة، قرّر ديوان الإنكشارية المجتمع في قلعة القصبة يوم الاثنين و عشرين مايو نفي ستّين من الأوده باشية و البلوكباشية الكراغلة إلى بجاية، ثمّ إلى تونس، كما قام بمصادرة أملاكهم[7].

- Knight, Op. cit., pp. 47-49 ; Mercier, Op. cit., pp. 208-209 ; M. E. Vayssettes, "**Histoire de Constantine sous la domination turque de 1517 à 1837 (première partie)**", in R.S.A.C., vol. 11, 1867, p. 331.

1. Bernard Roy, "**Deux documents inédits sur l'expédition algérienne de 1628**", in : R.T., n° 122, 1917, pp. 189-197.

2. ابن المفتي، المصدر السابق، ص. 48 ؛ بن خروف، المرجع السابق، ص. 264. - Knight, Op. cit., p. 47.

3. Dan, Op. cit., pp. 107-108 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 143 ; Mercier, Op. cit., p. 208.

من جهته، ذكر نايت أنّ القوّات العثمانية بلغت "**ستّة آلاف من المشاة الأتراك و ألفي فارس زواوي**" : - Knight, Ibid.

4. ابن المفتي، نفس المصدر السابق، ص ص. 48-49.

انظر شهادة الشيخ العبدلي حول تلك الحوادث في دراسة سعد الله عن مخطوط كعبة الطائفين : أبو القاسم سعد الله، **أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر**، ط. 4، مج. 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005، ص ص. 170-171.

5. بهذا الخصوص، يذكر ابن المفتي بشكل مقتضب في تقييداته : "**و فتح بن سوري تلمسان بمحلّة غادرت من الجزائر، و كان المدّعي المغربي قد جاء يحتلّ تلمسان في 8 رمضان 1038 هـ، و حمل بن سوري إلى الجزائر جلد المدّعي و جلد خليفته المهندر محشوًا بالتبن في 15 رمضان 1038 هـ**" : ابن المفتي، نفسه.

6. أورد ابن المفتي في هذا الصدد : "**… و لا أستثني إلاّ الخصومة الّتي وقعت بين الترك و القلغار** (يعني الكراغلة) **فقد بلغ الأمر حدّ الاقتتال كما ذكرت سابقًا في 19 رمضان، بينما وقع النفي في التاسع و العشرين من نفس الشهر من سنة 1038هـ، أي آخر أيّام رمضان.**" : نفسه، ص. 84.

7. Knight, Ibid., p. 3.

انظر أيضًا : - Boyer, "**Le problème…**", Op. cit., pp. 82-83.

و رغم ذلك، لم يهنأ بال الأتراك من بقاء أعدادٍ كبيرة من الكراغلة في المدينة، فقد خشوا من تواطؤهم مع قبائليي إمارتي كوكو و بني عبّاس، الّذين كانوا في حالة حرب مفتوحة مع السلطة المركزية ؛ و عليه، قرّر ديوان الإنكشارية نفي سبعمائة كرغلي من اليولداش و جنود الطوائف الأخرى على دفعتين إلى تونس[1]. و أخيرًا، أصدر الديوان ليقطع دابر الكراغلة في فبراير من سنة 1630م قرارًا بنفي 1574 من أبناء الأسر العريقة الّذين "**تحدّروا من الأتراك الأوائل الّذين فتحوا البلاد**"، حيث مُنحوا مهلة يومين لمغادرة المدينة و شهر واحد للخروج من البلاد[2].

لكن في غضون سنة 1632م، بدأ المنفيّون يعودون تدريجيًا على شكل زمر ؛ و فيما قرّ بعضهم ببرج زمورة قرب مجانة، تجمّع أغلبهم بنواحي وادي الزيتون، حيث تجدر الإشارة إلى أنّهم سيشكّلون فيها بعد استقرارهم بضعة عقود قبيلة الزواتنة. و بانضمام هؤلاء إلى القوّات القبائلية الثائرة، تشكّل حلفٌ لا يستهان به ضدّ "الأتراك"، إذ توّغلت ثلاث حملات عسكرية في بلاد القبائل لاجتثاثهم من معاقلهم الجبلية بدون جدوى[3].

و السنة التالية، حاولت ثّلةٌ من الكراغلة الاستيلاء على الجزائر على حين غرّة : فقد تسلّلوا متخفّين إلى داخل المدينة، و اقتحموا في عملية جريئة حصن القصبة ؛ و كانوا قد عقدوا آمالهم على تحرّك السكّان لدعمهم، و لكن أولئك لم يحرّكوا ساكنًا. و في نهاية الأمر، فجّر المحاصَرون مخزن البارود بالقصبة، عند إدراكهم أنّ محاولتهم باءت بالفشل. و بتلك الواقعة انتهت أشهر فصول ثورة الكراغلة[4].

---

1. Knight, Op. cit., pp. 3-4.

انظر أيضًا : - Delphin, Op. cit., 1922, p. 203 ; Boyer, "**Le problème…**", Op. cit., p. 83.

نرجّح أنّ طائفة العزب، الّتي كان يشكّل الكراغلة أغلبية أفرادها، حُلّت بهذه المناسبة ؛ إذ وردت آخر إشارة للطائفة المذكورة في المصادر الأوروبية في تقرير المبعوث البندقي سالڤاگو سنة 1625م :

- P. Grandchamp, "**Une mission délicate en Barbarie au XVIIe siècle. Jean Baptiste Salvago, drogman vénitien à Alger et à Tunis (1625)**", in R.T. 31-32, 1937, pp. 475-476.

و لسدّ النقص الحاصل في صفوف الإنكشارية، قدمت من "برّ الترك" ستة عشر سفينة نقلت الجنود المتطوّعين للعمل في فرق الجند (الأوجاق) سنة 1039هـ الموافق لـ 1630م. انظر : عبد الله بن محمّد الشويهد، **قانون أسواق مدينة الجزائر (1107-1117هـ/1695-1705م)**، تحقيق و تقديم و تعليق ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2006، ص ص. 147-148.

2. Knight, Ibid., p. 4 ; R.P. P. Dan, **Histoire de Barbarie et de ses corsaires**, 2e éd., Paris, 1649, p. 112.

انظر أيضًا : ابن المفتي، المصدر السابق، ص. 48.

4. لمزيد من التفاصيل عن ثورة الكراغلة، انظر : - Knight, Ibid., pp. 5-7 ; Dan, Ibid., pp. 112-113.

انظر كذلك في هذا الصدد : ابن المفتي، نفسه ؛ سامح التر، المرجع السابق، ص ص. 356-357 ؛ مقصودة، المرجع السابق، ص ص. 119-126.

و من جهته، واصل التحالف القبائلي - الكرغلي حرب الكرّ و الفرّ حتّى نهاية عقد الثلاثينات ؛ و في سنة 1639م، اضطرّ الأتراك العثمانيين على التفاوض مع اشتداد انتفاضة الشرق الجزائري، و تضمّن نصّ معاهدة الصلح الّتي عقدها الديوان مع القبائليين بندًا خاصًّا مُنح الكراغلة بموجبه عفوًا عامًّا[1]. لكن هذا البند، حسب بوابيه، لم يتمّ احترامه و تطبيقه فعليًا، بل استمرّ استبعاد الكراغلة عن شغل رتب سامية في الجيش أو تولّي مناصب عليا في الإدارة، و لم يفسح لهم المجال سوى في الغزو البحري[2]. و يبدو أنّ وضع الكراغلة تحسّن نسبيًا، و لا سيّما عقب وباء طاعون سنة 1654م المعروف بوباء "قونية"، الّذي يقال أنّه قضى على ثلث سكّان مدينة الجزائر، من بينهم الكثير من الإنكشاريين، فسمح لهم إثر ذلك مجدّدًا الانخراط في أوجاق الإنكشارية لسدّ النقص[3].

2-3. تنفّذ الإنكشارية على سلطة الولاة

ترجع الأهمّية الّتي اكتسبتها الإنكشارية إلى عدّة عوامل، من بينها تنظيمهم المحكم و كثرتهم العددية في الجيش و كفاءتهم القتالية، الّتي كان مردها الصرامة في التدريب و التركيز على الاستبسال في القتال ؛ فكانوا يشكّلون بذلك أهمّ قوّة ضاربة اعتمد عليها الحكّام العثمانيّون في بسط نفوذهم على البلاد و في الصمود أمام الهجمات الأوربية. و تبوّأ أوجاقهم بشكلٍ تدريجي مكان الصدارة في السلطة، و ذلك حين بدأ نفوذه يتعاظم في الديوان العامّ، حيث كان أغلب الأعضاء من ضبّاط الإنكشارية ؛ و زاد إدراك عناصره لأهميّتهم و مقدرتهم العسكرية و السياسية، فأخذوا يقحمون أنفسهم في سياسة الولاة، و هي قضايا ليست بالأساس من اختصاصاتهم.

---

1. بعد عفو عام 1639م، أدمج مئات الكراغلة في القوّات البايلكية تحت اسم زبنطوط "عزب"، و هي كلمة دارجة مشتقّة من التركية ازباندية، الّتي تعني "خارج على القانون" : - Ben Cheneb, Op. cit., p. 47 ; Barbier de Meynard. Op. cit., 1er vol., p. 43.

2. Piesse, "**L'Odyssée ou diversité d'aventures, …par le sieur du Chastelet des Boys**", in : R.A. 12, 1868, pp. 357-358 ; Boyer, "**Le problème…**", Op. cit., pp. 83-84.

تجدر الإشارة إلى أنّه، خلال فترة الآغوات، شغل منصب القبطان رايس كرغلي اسمه قارة ابراهيم، انظر:

- Thomas Hees, "**Journal d'un voyage à Alger (1675-1676)**", trad. par G.-H. Bousquet et G.W. Bousquet-Mirandolle, in : R.A. 101, 1957, pp. 103-104.

3. مقصودة، المرجع السابق، ص. 126 ؛ ناصر الدين سعيدوني، "**الأحوال الصحّية و الوضع الديموغرافي في الجزائر أثناء العهد العثماني**"، في **ورقات جزائرية : دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني**، ط. 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000، ص. 561.

انظر كذلك بهذا الصدد : الأرشيف الوطني الجزائري، سلسلة المحاكم الشرعية : علبة 1، وثيقة 24 ؛ علبة 13-1، وثيقة 48 ؛ علبة 32، وثيقة 2 ؛ علبة 41-1، وثيقة 8.

و قد ساهم عاملٌ آخر في تداخل مصالح أوجاق الإنكشارية مع سلطة الوالي، ألا و هو مخصّصات الجند من جرايات و مؤن، الّتي كان لها وزنها في سير نظام الدولة ؛ إذ كان ضمان دفع الراتب بانتظام و عدم المساس بالقدرة الشرائية للجند العثماني من الأولويات الّتي وضعها الولاة نصب أعينهم[1]. و كان الإخلال بإحدى هاتين القاعدتين يثير لا محالة حالة من السخط و الشغب في وسط الإنكشارية كثيرًا ما يتحوّل إلى مجابهة مفتوحة مع الوالي ؛ و حتّى شخصية بارزة مثل علج علي واجهته مصاعب جمّة (1570-1571م)، جرّاء عدم انتظام تسديده لرواتب الجند[2].

و لدينا مثالٌ آخر حدث في سنة 1607م، لمّا بقي عددٌ من الإنكشاريين لم يتقاضوا رواتبهم، و اعتقد هؤلاء أنّ الكاهية مصطفى باشا المنتهية عهدته سيذهب دون أن يدفع لهم مستحقّاتهم، فاندفعوا لنهب ما لديه من أموال و ممتلكات ؛ و عندما قدم الوالي الجديد رضوان باشا و لتهدئة الأوضاع، أمر مصطفى باشا بدفع عشرة آلاف قرش مقدار الرواتب المتبقية، على أن تعاد إليه كافّة ممتلكاته الّتي أخذها الإنكشاريون، ثمّ أرسله رفقة عدد من الآغوات إلى الآستانة لينظر في قضيته[3].

و في حدثٍ غير مسبوق على جانب من الأهمّية، اتّهم حسين باشا من طرف أعضاء الديوان في أكتوبر 1616م بعدم الكفاءة و سوء إدارة الأموال، لأنّه لم يتمكن من دفع مرتّبات الجند عند انتهاء ولايته ؛ فتمّ سجنه و وضعت أملاكه تحت الحجز، و استوفت الإنكشارية مرتّباتها من خزينة الدولة. و حسب ما ذكره "غراماي"، فإنّه لم يفرج عن حسين باشا إلاّ بعد مرور قرابة سنتين، و ذلك حتّى بيعت جميع ممتلكاته بالمزاد العلني و ضمن المبلغ المحصّل سداد دينه[4].

كانت إحدى نتائج هذا الإجراء البالغ الخطورة تسجيل أوّل تراجع بارز في صلاحيات الوالي : فعند عودة حسين باشا للحكم في سبتمبر 1618م ليقوم مقام سليمان باشا المتوفي، وضعت مالية الدولة تحت

---

1. L. Merouche, **Recherches sur l'Algérie à l'époque ottomane : I. Monnaies, prix et revenus : 1520-1830**, Éditions Bouchène, Paris, 2002, p. 54.

2. ذكر هايدو بهذا الشأن : "**كان علج علي، بعد عودته إلى الجزائر، في خلاف شديد مع الإنكشاريين، طيلة تلك السنة و كلّ الوقت الّذي بقاه بعد في الجزائر. و كان السبب الحقيقي هو عدم دقّته في دفع رواتبهم، حتّى أنّهم هدّدوه عدّة مرّاتٍ بالقتل، و كانوا مرّات أخرى، على وشك القيام بذلك. و مع أوائل عام 1571، قام على عجل بتجهيز ما أمكنه من السفن، و بحلول شهر أبريل، ترك الجزائر أشبه بالفارّ مع عشرين قادرغة و غليوطة ؛ و رغم كون البحر هائجًا، فإنّه خرج مع ذلك من الميناء، ليتخلّص من المليشيا الّتي كانت تحاول منعه من الذهاب...**"، انظر :
- Haëdo, **Histoire…**, Op. cit., p. 155.

3. دفتر مهمّات الديوان الهمايوني، رقم 78 - صحيفة 820، المؤرّخ بـ 23 صفر 1018هـ. نقلاً عن : سامح الترّ، المرجع السابق، ص. 322.

4. A.H. Ben Mansour, **Alger : XVIe-XVIIe siècle, Journal de Jean-Baptiste Gramaye «évêque d'Afrique»**, Cerf, Paris, 1998, p. 224.

رقابة الديوان الّذي شكّل هيئة من ثلاثة أشخاص مسؤولة عن إدارة الخزينة، و اقتصر دور أمين المـال المعيّن من طرف الوالي على مهام تنفيذيّة فقط[1].

و بشكل عامّ، عرف القرن السابع عشر تورّط الولاة بشكلٍ متزايد في مشاكل مالية حادّة، بسبب تراجع موارد الإيالة : فالشيء المؤكّد هو أنّ تضاعف الثورات اعتبارًا من 1627م أخلّ بنظام سير المحلاّت كثيرًا، و جعل جباية الضرائب من بعض المناطق الداخلية للبلاد أمرًا ظرفيًّا و غير مضمون ؛ كما كان يؤدّى توتّر العلاقات بين الإيالة و مملكة فرنسا في أغلب الأحيان إلى عدم دفع إتاوة "الباستيون"، مثلما حدث خلال السنوات (1609-1628م) و (1637-1641م)[2].

أمّا نشاط القرصنة أو بالأحرى الغزو البحري، الّذي كانت تعتبره المصادر المسيحية دخلاً أساسيًا مـن مداخيل الخزينة، فلم يكن يساهم في حقيقة الأمر إلاّ بنسبة الخمس إجمالاً ؛ كما أنّه كان يمرّ أحيانًا بسنوات عجاف، إمّا لقلّة الغنائم البحرية[3]، و إمّا لاستدعاء السلطان قسمًا من أسطول الريّاس، ممّا كان يحرم الوالي من دخل لا يعوّض في الغالب.

و من جرّاء كلّ ذلك، التمس الولاة حلاًّ لمشاكلهم عن طريق تخفيض قيّم النقود المحلية بالنسبة للعملات الأجنبية المتداولة. ففي سنة 1580م، بينما كان الريال الإسباني يساوي ثمانين أسبر[4]، وصلت قيمته في 1619م إلى 232 أسبر بعد تخفيضات متوالية[5]. لكن الأوجاق الحريص على مصالح أعضـائه وضع حدًّا لتلك العمليات، الّتي كانت تعود بالضرر على القدرة الشرائية لليولداش.

---

1. Ben Mansour, Op. cit., pp. 224-225.

انظر أيضًا : - P. d'Avity, **Description générale de l'Afrique**, de Rocoles, Paris, 1637, p. 186.

2. حددّت الإتاوة في معاهدة 1628م بمبلغ سنوي قدره 26.000 دوبلة، خصصّت 16.000 منها لأجر الجند و 10.000 لخزينة القصبة ؛ و كانت معاهدة 1640م أكثر إفادة، إذ كان على مؤسسة الباستيون دفع 34.000 دوبلة للأوجاق و 10.000 للخزينة. انظر :

- E. Rouard de Card, **Traités de la France avec les pays de l'Afrique du Nord : Algérie, Tunisie, Tripolitaine, Maroc**, A. Pédone, Paris, 1906, pp. 20-26.

انظر أيضًا : عائشة غطّاس، **العلاقات الجزائرية الفرنسية في القرن السابع عشر (1619-1694)**، ماجستير في التاريخ، جامعة الجزائر، 1986، ص ص. 52-60.

3. ذكر الأب دان، على سبيل المثال، أنّ عائدات القرصنة "**عام ألف و ستّمائة و أربعة و ثلاثين عندما كنت هناك، بالكاد كفـتهم تجهيـز و صيانة سفن القرصنة : بسبب ذلك، شقّ على الباشا دفع رواتب الإنكشارية، الّذي هو مجبرٌ على توفيرها على حسـابه في حالـة مـا لم تكـف أموال دخل السنون العادية ؛ و إذا صادف أنّه قصّر في دفعها، ففي تلك الحالة يضعونه في السجن كما رأيتهم يفعلون بالباشا العجوز، رجلٌ في سن الثمانين، الّذي لم تصنه لحيته البيضاء و بدنه الضعيف المرتعش من تلك الإهانة، لقلّة شفقة هؤلاء البرابرة عندما يتعلّق الأمر بالراتـب و المال.**" : - Dan, Op. cit., p. 83.

4. الأسبر هو الاسم الّذي كان يطلقه الأروبيون على قطعة نقدية صغيرة و مرّبعة الشكل من الفضّة تعرف عادة بالأقجة ؛ و قد بدأ سكّها بالجزائر في عهد حسن بن خير الدين، و كانت من العملات المحلية الأكثر تداولاً. انظر : الخطيب، المرجع السابق، ص. 13.

5. Merouche, **Monnaies…**, Op. cit., pp. 35 & 57 ; Ben Mansour, Ibid., pp. 215-216.

ضيّقت تلك العوامل على البايلربايات و ألجأتهم لدفع أجور الإنكشارية إلى سلوك طرق ملتوية لجمع المال[1] أو اقتراض مبالغ كبيرة من الخزينة كانوا عاجزين في حالات كثيرة عن تسديدها، بحيث كان ينتهي بهم المطاف بالعزل و السجن ؛ و هذا ما حدث بالضبط لحسين باشا الشيخ في 1634م[2].

و قام خلف هذا الأخير، يوسف باشا، لتفادي مصيرٍ مماثل إلى فرض ضرائب فوق العادة : ثلاثمائة ألف ريال على سكّان المدن و مائتي ألف على القبائل الخاضعة. أمّا علي باشا، فقد فضّل الالتجاء إلى أحد الأضرحة على مواجهة غضب الديوان سنة 1637م[3]. و لم يعرف كلاً من يوسف باشا في 1642م و محمد باشا أبو ريشة في 1644م مصيراً أفضل، إذ بعد رميهما في السجن مدّةً وضعا كليهما في قارب جربي ليقلّهما إلى المشرق بعد أن خسروا كلّ أموالهم[4].

و قد ساءت الوضعية المالية إلى حدّ أنّ الأوجاق وجد نفسه مضطرًّا إلى تسليم مقاليد الحكم إلى القبطان رايس علي بتشين (1644-1645م)، مكلّفًا إيّاه بمسؤولية دفع الراتب[5] ؛ بيد أنّ تلك المحاولة لم يكتب لها الاستمرارية بسبب موت الحاكم الجديد المفاجئ، فرجعت الأوضاع ظاهريًّا إلى سابق عهدها و استعاد الولاة لفترة من الزمن بعضًا من صلاحياتهم المالية[6].

و السنوات الأخيرة الّتي سبقت نزع صلاحية دفع الراتب من الولاة، ازداد العجز المالي بشكل لا يمكن تغطيّته بأي سبيل. فقد وقعت المشكلة بكلّ ثقلها على عاتق الحاج أحمد باشا الّذي خلف محرّم باشا في شهر يوليو 1655م، و بسبب تردّي الوضع المالي انتهى به المطاف في السجن بعد سبعة أشهر من الحكم[7].

---

1. من الأمثلة القليلة عن الفساد المالي للولاة الّتي بلغتنا، قضية رضوان باشا بكلرلي، حيث ورد في دفتر المهمّات أنّه لجأ خلال فترة حكمه للجزائر إلى اتباع طريق الرشاوي و اختلس أموالاً من الخزينة، ممّا أدّى إلى عزله عن الولاية في منتصف سنة 1610م ؛ كما ورد أمر سلطاني إلى قاضي الجزائر بمحاسبته و إعادة جميع حقوق الرعايا الّتي بذمّته : دفتر مهمّات الديوان الهمايوني، رقم 79 ـ ص. 24 (26 صفر 1019هـ)، نقلاً عن : سامح التر، المرجع السابق، ص ص. 322-323.

2. Delphin, Op. cit., 1922, p. 204.

انظر ايضًا : - Salvago, Op. cit., p. 39.

3. P. Boyer, "**Alger en 1645 d'après les notes du R.P. Hérault (Introduction à la publication de ces dernières)**", in : R.O.M.M. 17, 1974, p. 21.

4. P. Boyer, "**Continuation des mémoires des voyages du feu Père Hérault en Barbarie**", in : R.O.M.M. 19, 1976, p. 45.

5. Id., pp. 32-33.

6. Boyer, "**Alger …**", Ibid., pp. 20-24.

7. أمين محرز، **الجزائر في عهد الآغوات (1659-1671)**، دار البصائر، الجزائر، 2011، ص. 71.

و لم يكن خلفه إبراهيم باشا البشناقي بأحسن حظًّا منه، إذ سجن هو الآخر في شهر مايو 1656م، أي بعد ثلاثة أشهر فقط من تولّيه الحكم، لعجزه عن تسديد رواتب الإنكشارية[1]. و لم يكن بوسع ذينك الواليين حتّى الاعتماد على موارد القرصنة و الغزو البحري، الّتي تناقصت هي الأخرى في عهدهما ؛ و ذلك جرّاء الخسائر المعتبرة الّتي تكبّدها الأسطول الجزائري خلال مشاركته بحرب كريت[2] أو تلك الناتجة عن القرصنة الأوروبية المضادة[3].

جعل تفاقم الأزمة المالية الإنكشارية تتمرّد و المدينة تشهد حالةً من الفوضى العارمة ؛ لذلك، قام الديوان في غياب حلٍّ آخر بإخراج أحمد باشا من السجن و إعادته إلى الحكم ثانيةً في شهر مايو 1656م، حيث كان ملزمًا بطبيعة الحال على ايجاد المال الكافي لدفع الرواتب المتأخّرة في أقرب الآجال[4]. و بعد أن قضى عدّة أشهر في السجن، أعيد إبراهيم بدوره في سبتمبر1657 لمنصبه مرّةً أخرى في ظلّ اضطرابات جديدة ستفضي في النهاية إلى حدوث تغيير جذري في سدّة الحكم بحلول سنة 1659م[5].

و هكذا رأينا كيف تدخّل ضبّاط الإنكشارية الّذين شكّلوا الأغلبية في الديوان بشكل تدريجي في الإدارة المالية للولاة، خصوصًا في الفترات الحرجة الّتي كانت تعرف تراجعًا في موارد الدولة، حتّى بات جليًّا اعتبارًا من تلك الفترة أنّ الولاة لا يمكنهم التصرّف في أموال الخزينة الكبرى دون أخذ إذن الديوان، حيث تبلوّرت ما يمكن تسميّتها بتسوية مؤقّتة بين الديوان و الوالي تمثّلت في إقراض الخزينة الأموال الّتي يحتاجها الوالي لضبط ميزانيته، لكن بشرط أن يعيد المبالغ المستحقة قبل وصول خلفه، و إلاّ فإنّه كان يسجن و تصادر أملاكه لتباع بالمزاد، و لا يطلق سراحه حتّى استيفاء جميع ديونه[6].

---

1. Delphin, Op. cit., 1922, p. 204.

2. للمزيد من التفاصيل حول حرب كريت، انظر : محرز، المرجع السابق، ص ص. 64-67.

3. P. Boyer, "**La révolution dite "des aghas" dans la régence d'Alger (1659-1671)**", in : R.O.M.M. 13-14, 1973, p. 161, n. 10.

من أهمّ الدلائل على تراجع النشاط البحري تناقص عدد الأسرى، فمن 8.000 أسير مسيحي في 1650م وفق مصدر كنسي هبط العدد إلى 5.000 في مطلع العشرية التالية : - Abbé Bombard. "**Les vicaires apostoliques de Tunis et d'Alger**", in : R.T., I, 1894, p. 388. انظر أيضًا :

- L. Dumay, "**Projet pour l'entreprise d'Alger**", in : Recueil historique contenant diverses pièces curieuses de ce temps, Christophre van Dyck, Cologne, 1666, p. 4.

4. Delphin, Ibid.

- P. Boyer, "**Des Pachas Triennaux à la révolution d'Ali Khodja Dey**", in : R.H. 244, 1970, p. 101. انظر أيضًا :

5. انظر المبحث التالي.

6. Grandchamp, Op. cit., p. 481 & sq.

و تجدر الإشارة إلى أنّ "التسوية" الآنفة الذكر أسهمت بشكل كبير في الحطّ من شأن الولاة، و أبرزت صيرورة ديوان الإنكشارية الحكومة الفعلية للإيالة بدلاً عن ديوان الباشا ؛ و يؤكّد وصف الأب دان الّذي زار الجزائر عام 1634م ذلك، حيث ذكر أنّه "**منذ أن استولت مليشيا الجزائر على السلطة العليا، لا يحدث هناك شيء إلاّ بأمرٍ صادر عنها، و في التصريحات و البيانات الّتي تعلنها، تخاطب دومًا بعبارات الفخامة الآتية : نحن كبارًا و صغارًا من مليشيا الجزائر القوية المنيعة و جميع مملكتها، قرّرنا و عزمنا، إلخ.**"[1]. و في ذات السياق تقريبًا، خلص الأسير الفلامنكي ايمانويل دارندا (Emanuel d'Aranda) إلى أنّ "**الجنود يراعون أوامر الباشا إذا قبلوا بها، و يجبرونه على تغييرها إذا لم يكن لهم ميل لتأديّتها، و يقودون حقيقةً شخص الباشا أكثر ممّا ينقادون له**"[2].

لقد استفادت من توّسع صلاحيات ديوان الإنكشارية بالأخصّ مجموعة محدودة من الموظّفين، هم خوجات الديوان ؛ فهؤلاء الخوجات الّذين كانت مهمّتهم تتلخص في ضبط سجلات الدولة، هيمنوا في وقتٍ لاحق على قرارات الديوان و تحكّموا عبر ذلك في شؤون الدولة، و ذلك على حساب وزراء أو مستشاري الوالي[3].

و كان ارتقاء الديوان من المتوقّع أن يؤدي بدوره إلى توطيد سلطة رئيسه، آغا الإنكشارية ؛ لكن قصر مدّة شغله للمنصب، الّتي حدّدت بشهرين فقط، قطعت عليه الطريق إلى هرم السلطة. و هذا التجديد المتواصل لرؤساء الديوان أدّى بالمقابل إلى تكوين طبقة من الآغوات المتقاعدين، ستوكل لهم مهام فوق العادة لصالح الدولة، و لا سيّما سفارات لدى الدول المسيحية أو الباب العالي ؛ و سيشكّلون في فترة لاحقة هيئة استشارية عاضدت الآغوات الّذين تولوا السلطة عقب ثورة 1659م.

3. الأوجاق خلال عهد الآغوات (1659-1671م)

أفضت مجمل العوامل السابقة الذكر إلى خلق أزمة مالية خانقة أكثر من ذي قبل، حيث أضحت موارد الخزينة غير كافية البتّة لتسديد رواتب العسكر[4]. بالطبع، بذل إبراهيم باشا جهده في جمع الأموال بطرق ملتوية عبر ابتزاز أغنياء المدينة و فرض غرامات إضافية على التجّار و الحرفيين و كلّ من يمكنهم

1. Dan, Op. cit., pp. 95-96.

2. d'Aranda, Op. cit., p. 159.

3. Boyer, "**Des Pachas triennaux …**", Op. cit., p. 103.

4. انظر أعلاه.

الدفع، غير أنّه لم يوفّق في مسعاه و عجز عن دفع المستحقّات. و لم يمهله الإنكشارية الّذين اشتدّ غضبهم عليه، بل قاموا برميه في السجن للمرّة الثانية في يونيو 1659م[1].

صادف ذلك قدوم علي باشا، الّذي عيّن حديثًا من طرف الباب العالي[2]، و حمل معه فرمانًا يأمر الجزائريين بتجهيز و إرسال عمارة إلى المشرق، مع تعويض مالي لأفراد البحرية لقاء مشاركتهم في حرب كريت. و لقد وجد هذا البايلرباي الجديد نفسه أمام وضع حرج جدًّا، إذ كان الإنكشاريون في حالة أقرب من الهيجان ينتظرون بفارغ الصبر دفع رواتبهم المتأخّرة، في حين كانت الخزينة شبه فارغة ؛ و لمّا لم يجد بدًّا عزم على اقتطاع قسمٍ من المال المرسل خصيصًا للريّاس و الجنود و طواقم البحرية[3].

و على إثر ذلك، ثارت تلك الطوائف على علي باشا و انفجر الوضع المحتقن ؛ و يوم انعقاد الديوان العامّ، تقرّر بناءً على طلبٍ من ممثلي الريّاس إلقاء القبض على البايلرباي و أتباعه، الّذين وضعوا لاحقًا في غليوطة لتقلّهم إلى إزمير ؛ كما تمّ بحث مسألة سوء إدارة الباشوات و بشكلٍ أعمّ أسباب الأزمة المالية الّتي كانت تتخبّط فيها الإيالة. و خلص أعضاء الديوان إلى لزوم إلغاء الاختصاصات المالية للحاكم العثماني المتمثّلة أساسًا في تحصيل الجباية، و كذا دفع الراتب و النفقات العامّة[4].

و ذكر ابن المفتي بخصوص الأسباب الّتي أدّت إلى انتزاع صلاحية دفع الراتب من الباشوات ما يلي : "**عندما كانوا مكلّفين به، كانوا يستغلّون الأمر في نهب الأموال الّتي تحمل إلى القصر من مختلف الجهات بدون تحفّظ. في ذلك الوقت كانوا يتتابعون في السلطة على فترات متقاربة، و كان سكّان الجزائر ضحايا لجشعهم، حتّى أنّهم أحيانًا فرضوا على العلماء و عدول المحكمة دفع مبلغ معيّن. فطن عسكرنا المنصور بعون الله لذلك و قرّروا نزع دفع الراتب من الباشوات، و كذا جباية الضرائب، و تسديد النفقات، و ذلك بصفة تامّة**"، مضيفًا أنّه "**أبقي الباشا على رأس حكومة المدينة و مقاطعتها** (دار السلطان) **فقط.**"[5]

---

1. سامح التر، المرجع السابق، ص. 387.

2. نفسه.

انظر أيضًا : محرز، المرجع السابق، ص. 231.

3. de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., pp. 177-178.

4 سامح التر، نفسه.

5. Delphin, Op. cit., 1922, pp. 209-210.

انظر أيضًا :

- Peyssonnel et Desfontaines, **Voyages dans les régences de Tunis et d'Alger**, publ. par M. Dureau de la Malle, T. 1, Librairie de Gide, Paris, 1838, p. 402.

3-1. فترة البلوكباشية (1659–1661م) : من الانقلاب إلى الثورة

3-1-1. عهد خليل بلوكباشي (1659-1660م)

كان محرّك الانقلاب على نظام البايلربايات، المدعو خليل بلوكباشي، أحد أبرز أعضاء الديوان و من أكبرهم نفوذًا ؛ و تعود أصوله إلى إحدى القبائل التركمانية (يوروكان) الّتي تعيش على الترحال في "برّ الترك"[1]. و قد أسندت إليه المهام المذكورة آنفًا بشكل رسمي في غضون يوليو 1659م[2]، و حمل خليل للدلالة على منصبه الرفيع فقط لقب الآغا[3].

و عيّن الديوان لتصريف شؤون الحكم هيئة ذات سلطات استشارية و تنفيذية يرأسها الحاكم الجديد مكوّنة من أربعة و عشرين معزول آغا[4] ؛ و نرجّح أنّها حلّت محلّ الديوان الخاصّ الّذي لم يعد قائمًا في شكله المعهود بعد تغيير النظام. و لتفادي أخطاء الإدارة السابقة، وضعت هذه الحكومة الجديدة تحت رقابة أعضاء الديوان العامّ.

استهلّ خليل آغا حكمه باتخاذ تدابير من شأنها تنظيم مالية الدولة، إلى جانب توفير موارد إضافية للخزينة، حيث قام بناءً على التماسات ممثّلي التجّار المحليين و الأجانب بإلغاء جميع الغرامات المجحفة الّتي كان يفرضها البايلربايات عليهم. و أكثر من ذلك، قام بتخفيض نسب التعريفات الجمركية في سعيه لتفعيل حركة التجارة[5] ؛ كما أولى عناية خاصّة بمسألة الجباية، و تجلّى ذلك في المتابعة الصارمة الّتي فرضت على الملتزمين، و في قيامه باستبدال عددٍ من القوّاد المشكوك في نزاهتهم بآخرين من صفّ الآغوات المعزولين[6].

---

1. انظر العنصر التالي.

2. يذكر ابن المفتي أنّه "**أسند راتب العسكر رسميًّا إلى خليل بلكباشي في قعدة (كذا) 1070**"، و الأصحّ هو في ذي القعدة 1069هـ الموافق لشهر يوليو 1659م. انظر : - Delphin, Op. cit, 1922, p. 205.

3. هذا الآغا يختلف تمامًا عن آغا الإنكشارية، على عكس ما ذهب إليه دي غرامون في كتابه "**تاريخ الجزائر تحت الهيمنة التركية**"، ص. 209. و الغريب في الأمر أنّه يذكر في المجلة الإفريقية، عدد 28، ص. 342، في المقال تحت عنوان "**العلاقات بين فرنسا و إيالة الجزائر في القرن 17**" أنّ آغا المليشيا (يعني آغا الإنكشارية) ثار ضدّ آخر آغا حاكم الحاج علي :

- de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 180 ; H.D. de Grammont, "**Relations entre la France et le régence d'Alger au XVIIe siècle. 4ème partie : Les consuls lazaristes & le chevalier d'Arvieux (1646-1688)**", in R. A. 28, 1884, p. 342.

4. R. Gleizes, **Jean Le Vacher, Vicaire apostolique et consul de France à Tunis et à Alger (1619-1683), d'après les documents contemporains**, J. Gabalda, Paris, 1914, p. 204.

5. de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Ibid.

6. و هذا ما يفسّر الاختفاء التدريجي الملاحظ، ابتداءً من سنة 1660م، لتسمية "القايد" و حلول "الآغا" مكانها. انظر :

- Merouche, **Monnaies…**, Op. cit., p. 202 ; Boyer, "**La révolution…**", Op. cit., p. 163.

و استطاع خليل بفضل حسن تدبيره من دفع جرايات الجند الإنكشاري كاملةً و في وقتها المحدّد، بل و حصّل فائضًا أودع في الخزينة ؛ و هذا ما جعل الإنكشارية تحترمه و تنظر إليه بعين الرضى، حتّى أنّها درجت على تلقيبه "بابا خليل"[1].

لكن من جانب الباب العالي، ساءت العلاقات للغاية، إذ حالما وصل علي باشا إلى إزمير، كتب تقريرًا بما تعرّض له و طلب الإذن من قاضيها بشأن إعلام إستانبول بذلك. أثار ذلك غضب الصدر الأعـظم كوبرولي محمّد باشا ممّا عدّه انقلاب أوجاق الجزائر، و خروجًا عن طاعة السلطان ؛ و بسبب غضبه الشديد استدعى علي، و أمر بإعدامه.

و في أثناء ذلك، كان الديوان قد أرسل وفدًا محمّلاً بالهدايا إلى الباب العالي، من أجل طلب والي جديد[2] ؛ لكن الصدر الأعظم رفض استقباله، و قام بإرسال فرمان إلى الجزائريين ينذرهم فيه : "**أخيراً لن نرسل إليكم واليًا، بايعوا من تريدون، السلطان ليس بحاجة إلى عبوديتكم، لدينا آلاف الممالك مثل الجزائر، فالجزائر إن كانت و إن لم تكن شيء واحد، و من بعد ذلك إن اقتربتم من الممالك العثمانية فلن تكونوا راضين**"[3]. و بالموازاة، أرسل فرمانًا آخر إلى الموانئ في جميع السواحل العثمانية، و إلى والي مصر و شريف مكّة، يأمر فيه بمنع الجزائريين من الذهاب إلى الحجّ و حظر بيع السلاح لهم، و بعدم السماح لهم بالاقتراب من السواحل العثمانية ؛ ممّا عنى تعطّل حركة الحجّ و التجارة إلى المشرق مع ما قد يسبّبه كلّ ذلك من استياء رجال الدين و الأهالي، فضلاً عن توّقف عمليّات تجنيد الإنكشارية الحيوية لاستمرار الأوجاق.

وقع الجزائريون في حيرة من أمرهم، فقد أظهرت تلك القرارات غير المتوقّعة حاكمهم الجديد خليل آغا بمظهر المتمرّد على السلطان ؛ و ذلك في حين ظلّ وفدهم قرابة عامٍ كاملٍ في إزمير، دون أن يسمح له بمقابلة الصدر الأعظم. و كمخرجٍ مؤقت للمأزق، عمد الآغا و الديوان إلى إخراج إبراهيم باشا من السجن، و أعادوه إلى منصبه بشرط أن لا يتدّخل في أمور السياسة مطلقًا[4].

---

1. يذكر الأب أوڤري صاحب كتاب «**مرآة الصدقة المسيحية**» أنّ "**المدعو بابا خليل الّذي كان يبدو ميالاً لإعالة الجند، و لزيادة أموال القصبة أو الديوان...** ". انظر : - P. Michel Auvry, **Le miroir de la charité chrétienne,** Aix, 1663, p. 242.

2. ذكر الشويهد في قانون مدينة الجزائر، مخ. م. و. ج.، رقم 1378 : "**و خرجت هدية أخرى على يد الحاج سليمان رحمة الله عليه مع العسكر باش ياباشي و كهي بايلك و شاوش كشاريا** (كذا) **و شهود من دار القاضي. طلع الحرج الذي خرج من دار السلطان سبع ألاف** (كذا) **و تسع مائة و سبع و عشرون ريالا، عام 1069 هـ.**" نقلاً عن : قنان، **نصوص...**، المصدر السابق، ص. 74.

3. **تاريخ السلحدار محمّد آغا**. ج. 1، ص. 222، نقلاً عن : سامح التر، المرجع السابق، ص ص. 387-388.

4. إرجاع الباشا إبراهيم البشناقي إلى منصبه يثبته أمران، أوّلهما وجود وثائق تحمل ختمه مؤرخة في شعبان 1070هـ (الموافق لأبريل 1660م)، و ربيع الثاني 1071هـ (الموافق لديسمبر 1660م) و ذي الحجّة 1071هـ (الموافق لأغسطس 1661م). انظر :

و على الصعيد الأوروبي، سمّمت مشكلة الأسرى الجزائريين الّذين اختطفهم وكيل الباستيون في أكتوبر 1658م العلاقات بين الجزائر و فرنسا[1]، ناهيك عن النيّة السيئة الّتي أبداها الملك لويس الرابع عشر، و تجسّدت في تزايد التحرّكات العدائية ضدّ الجزائر و ريّاسها[2]. أمّا بخصوص انكلترا، فإنّ تمويه أعلام السفن لصالح دول أجنبية، الّذي مارسته إدارة حاكمها أوليڤر كروميل (Oliver Cromwell) على نطاق واسع، أثار سخط الجزائريين و هدّد بحدوث قطيعة بين البلدين، مثلما كان الحال بالنسبة للأقاليم المتّحدة، الّتي كانت في حالة حرب مع الجزائر منذ حملة الأميرال دي رويتر (de Ruyter) في 1655م[3].

و لم تكن الأحوال على الصعيد الداخلي بأحسن منها على الصعيد الخارجي : فقد تميّزت خاصّةً بتجدّد الاضطرابات بشرق البلاد، حيث تواصل عصيان أمير كوكو أحمد بوختّوش ؛ كما تمرّدت العديد من القبائل ببايلك قسنطينة، و امتنعت عن دفع الضرائب.

بالرغم من كلّ تلك المتاعب، تمكّن خليل آغا بفضل إدارته المالية الحسنة من جعل الديوان يجدّد عهدته عامًا آخر[4] ؛ غير أنّه تعرّض للاغتيال في الأيّام الأخيرة من محرّم 1071هـ الموافق لبداية أكتوبر 1660م[5]، و يذكر صاحب «مرآة الصدقة المسيحية» بهذا الصدد أنّ الحاكم "**قتل مع نهاية الصيف في زقاق بمدينة الجزائر على يد قاتلين وضعا ليترصّداه من طرف بعض الكبراء في الدولة، الّذي استصدر أمرًا مجحفًا في حقّهم باسم الديوان**"[6].

- G. Delphin, "**Histoire des Pachas d'Alger de 1515 à 1745**", in J.A., janvier-mars 1925, p. 6.

و ثانيهما هو مفاوضته لبيع سبعة عشر أسيرًا دفعةً واحدة خلال حملة افتداء إسبانية حلّت بالجزائر عام 1660م. انظر :

- C. Larquié, "**Le rachat des Chrétiens en terre d'islam au XVIIe siècle**", extrait de la R.H.D., Oct.-Déc., 4 (1980), Éditions A. Pedone, Paris, 1981, p. 332.

- Boyer, "**La révolution…**", Op. cit., p. 163. انظر كذلك :

1. P. Masson, **Histoire des établissements et du commerce français dans l'Afrique barbaresque**, Hachette, Paris, 1909, pp. 113-114.

لمزيد من التفاصيل حول العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال تلك الفترة، انظر : محرز، المرجع السابق، ص ص. 82-85.

3. نفسه، ص ص. 85-86.

4. تذكر عامّة المراجع أنّ الآغوية حدّدت مدّتها بشهرين فقط، لكن ذلك غير منطقي و ينافي الحقيقة التاريخية : فخليل بلكباشي تولّى المنصب من يوليو 1659 إلى أكتوبر 1660م، أي ما يناهز خمسة عشر شهرًا ؛ أمّا علي آغا، و هو آخر الآغوات و أطولهم مدّة، فحكم أكثر من سبع سنوات. من جهتنا، نرجح أنّ مدّة الحكم كانت عامًا واحدًا قابلة التجديد من طرف أغلبية أعضاء الديوان. و الجدير بالاهتمام بهذا الخصوص أنّه، خلال مرحلة الدايات، كان إقرار الداي في منصبه يتمّ سنويًّا من قبل هيئة من صفّ البلكباشية. انظر :

- Hamdan ben Othman Khodja. **Le Miroir ou Aperçu historique et statistique sur la Régence d'Alger**, 2ème éd., Sindbad, Paris, 1985, p. 105.

5. Delphin, Op. cit., 1922, p. 205.

6. Auvry, Op. cit., p. 242.

3-1-2. عهد رمضان بلوكباشي (1660-1661م)

في يوم مقتل خليل آغا، أسندت الآغوية إلى ابن عمّه رمضان بلكباشي، المعروف باسم يورك[1] رمضان[2]. و فور اعتلائه سدة الحكم، قام المذكور بتوزيع الأعطيات على الجنود الإنكشاريين لتوطيد سلطته، و بذلك استحقّ في نظرهم لقب بابا رمضان.

و في عهد هذا الآغا الجديد، تعاظم نفوذ الآغوات المعزولين، من أعضاء مجلسه، الّذين تقاسموا فيما بينهم مختلف المناصب العليا في الدولة ؛ و إذ ذاك بدأت تتشكّل ما يمكن تسميتها بالمناصب الوزارية، على نفس النحو تقريبًا الّذي بقيت عليه خلال مرحلة الدايات[3]. و بينما كان سلفه يمكث تحت رواق دار الإمارة (قصر الجنينة) حيث يجتمع الديوان عادةً، كان رمضان آغا يفضّل غالب الأحيان عقد مجلس حكمه في وسط البادستان، و هي السوق الّتي كانت تباع فيها الغنائم[4]. و لعلّ ذلك يعتبر مؤشرًا عن الاهتمام الّذي أبداه رمضان منذ الوهلة الأولى فيما يخصّ نشاط الغزو البحري.

أبدى عدد متزايد من الجزائريين، و بالأخصّ من الأتراك المشارقة، استياءه ممّا آلت إليه العلاقات مع الدولة العثمانية من قطيعة و حصار ؛ و لذا، حاول رمضان إعادة الأمور إلى نصابها مع الباب العالي، و قام بإرسال وفدٍ آخر خلال شتاء 1661م لطلب الشفاعة من السلطان و لتجديد الولاء له. و لمّا حظي أعضاء هذا الوفد بمقابلة السلطان، اشتكوا له وضع البلاد و أقرّوا : "**لو أرسلت لنا كلبًا لقبلناه باشا علينا**" ؛ و لكن الأمر كلّه كان بيد كوبرولي محمّد باشا، الّذي لم يستمع لهم و لم يقبل استشفاعهم[5]. و هكذا، لم يملك الوفد الجزائري من خيار سوى الانتظار بصبر أن يلين موقف الصدر الأعظم.

---

1. يورك أو يوروك كلمة عثمانية تعني "راحل، مرتحل"، و كانت تخصّ البدو الرحّل من الأتراك (التركمان)، الّذين كانوا يعيشون في مناطق مختلفة من الأناضول و روميلي ؛ و قد نظّمتهم الدولة العثمانية في وحدات شبه عسكرية شبيهة بتنظيمي "اليايا" و "المسلّمين". انظر فيما يخصّ هذين التنظيمين الأخيرين المدخل. انظر أيضًا : مانتران، المرجع السابق، ج. 1، ص ص. 303-304.

- Barbier de Meynard, Op. cit., 1er vol., p. 889 ; Redhouse, Op. cit., p. 1266.

2. Delphin, Op. cit., 1922, p. 205 ; Hammer-Purgstall, Op. cit., T. 11, p. 100.

3. Sander Rang, "**Précis analytique de l'Histoire d'Alger sous l'occupation turque**", in : Tableau de la situation des établissements français dans l'Algérie en 1841, Imprimerie Royale, Paris, décembre 1842, p. 424.

الجدير بالذكر أنّ المناصب الوزارية المعنية، و الّتي درجت المصادر الفرنسية على تسميتها منذ الربع الأخير من القرن السابع عشر ميلادي بالسلطات (les Puissances)، هي بحسب أهمّيتها : الخزناجي، و هو بمثابة وزير الخزينة ؛ آغا عرب، وزير الحربية ؛ آت خوجه سي (خوجة الخيل)، مدير أملاك الدولة ؛ وكيل الحرج، وزير الشؤون البحرية ؛ بيت المالجي، القيّم على المواريث : عبد الجليل التميمي، **بحوث و وثائق في التاريخ المغربي. الجزائر و تونس و ليبيا : 1816-1872**، ط. 2، منشورات م.د.ب.و.ع.ع.ع. (زغوان) و د.م.ج. (الجزائر)، 1985، ص ص. 147-148 و 151-152.

- Boyer, "**Des Pachas triennaux…**", Op. cit., pp. 110-111 & sq.

4. Delphin, Ibid., p.210.

5. **تاريخ السلحدار محمّد آغا**، ج. 1، ص. 222. نقلاً عن : سامح التر، المرجع السابق، ص ص. 387-388.

فيما يخصّ فرنسا، تمثّل الجهد الحربي حيال الجزائر بشكل أساسي في تصعيد عمليات القرصنة، الّتي كان يقودها بالأخصّ الفرسان الفرنسيون المنتسبون إلى رهبانية مالطة ؛ و لم يبق الريّاس الجزائريون مكتوفي الأيدي أمام تلك الهجمات المتكرّرة، بل قاموا بالإغارة على المناطق القريبة من مارسيليا. و إزاء ذلك، شرع الفرنسيون في التخطيط لحملة عسكرية كبيرة بقصد احتلال موقع ساحلي بين بجاية و طبرقة، و تمّ تكليف مهندس عسكري بمهمّة التعرّف إلى أمثل نقطة لموطئ قدم دائم[1]. و من جهتهم، أعلن الإنكليز الحرب بقصفهم لمدينة الجزائر، بعد وصول المفاوضات إلى طريق مسدود، فردّت عليهم مدفعية الأبراج بشدّة و اضطرّتهم للانسحاب، بعد أن تضرّر عددٌ من قطع أسطولهم[2].

و هكذا، نرى أنّ في عهد رمضان، انضمّت إلى سرب الدوّل المعادية للجزائر كلّ من فرنسا و إنكلترا، ممّا جعل أحد الأوروبيين المعاصرين يقول عن الجزائر أنّ "**بالرغم من كونها مدينة واحدة**"، فقد كانت في حرب مع العالم أجمع[3]. و قد أضحت الإيالة في موقع حرج كانت في غنًى عنه، بالنظر إلى الأوضاع الداخلية العصيبة الّتي كانت تمرّ بها ؛ إذ عرف عام 1661م، بالموازاة مع تواصل ثورات بايلك الشرق، بداية جفاف شديد شمل جميع مناطق البلاد. و هذا القحط الّذي دام نحو سنتين، أتى على قسمٍ كبير من المحاصيل و المواشي، مؤدّيًا بذلك إلى انتشار مجاعة مروّعة[4].

---

1. F. Charles-Roux, **France et Afrique du Nord avant 1830. Les précurseurs de la conquête**, T. 1, Librairie Félix Alcan, Paris, 1932, pp. 151-153.

انظر أيضًا : غطّاس، **العلاقات...**، المرجع السابق، ص ص. 70-72.

2. d'Aranda, Op. cit., pp. 156-157 ; Mercier, Op. cit., pp. 252-253 ; G. Fisher, **Légende barbaresque : Guerre, commerce et piraterie en Afrique du Nord de 1415 à 1830**, trad. et annoté par Farida Hellal, O.P.U., Alger, 1991, p. 309.

انظر أيضًا بخصوص هذه الحملة : محمّد بن رقية التلمساني الجديري، "**الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة**". نشر سليم بابا أحمد، في : م.ت.ح.م. 3، 1967، ص ص. 19-20.

3. Van Aitzema, **Saken van staet en oorlogh**, V.161.

نقلاً عن :

- G. van Krieken, **Corsaires & marchands. Les relations entre Alger et les Pays-Bas 1604-1830**, Éditions Bouchène, Paris, 2002, p. 55.

4. Merouche, **Monnaies...**, Op. cit., p. 134.

ذكر الأب اليسوعي "پيريز دي لا پارا" (P. Perez de la Parra) أنّه تمكّن بسبب "**مجاعة من تدبير العناية الإلهية**" في سنة 1661م من تنصير أزيد من خمسمئة شخص التجأوا إلى وهران، و تمّ إرسالهم على الفور إلى إسبانيا. انظر :

- B. Vincent, "**Les Jésuites et l'Islam méditerranéen**", in : **Chrétiens et Musulmans de la Renaissance** : Actes du 37e Colloque international du Centre d'Études Supérieures de la Renaissance (1994), Réunis par B. Bennassar et R. Sauzet. Honoré Champion, Paris, 1998, p. 524.

لقد كانت محصّلة الجفاف و المسغبة، و الاضطرابات الّتي ترافقهما دومًا، حدوث تراجع ذريع في النشاطات الاقتصادية للإيالة ؛ و هو ما ترتّب عنه نضوب الموارد الجبائية الّتي كان القسم الأكبر منها عبارة عن ضرائب عينية. ألجأ ذلك رمضان آغا بحكم الاضطرار إلى تشجيع الغزو البحري لأقصى حدّ، علّه يعوّض بإيراداته جزءً من العجز المالي. و لمّا تردّت الأمور أكثر، لم يجد رمضان بدًّا هو و أعضاء ديوانه من التحكّم بسوق البادستان، حيث كانوا يشترون الغنائم بأسعار جدّ منخفضة. و هذا ما أثار حنق أفراد الطائفة و الإنكشاريين المساهمين معهم على السواء، الّذين رأوا في تصرّف الطغمة الحاكمة غبنًا لهم في حقّهم، فأضمروا لهم السوء.

و لأجل ذلك، ثار العسكر ضدّ يورك رمضان، و قتلوه مع مقرّبيه في وسط البادستان، في يوم السبت 15 محرّم 1072هـ (الموافق لـ 10 سبتمبر 1661م)[1]. و حسب رواية امانويل دارندا فإنّ رمضان آغا "**ذُبح هو و 28 شخصًا من مجلسه، و رميت جثثهم في الأزقة للكلاب ؛ و ذلك لأنّه تملّك بواسطة أفراد من مجلسه قسمًا من غنيمة قمح أكبر من الحقّ الّذي يتعيّن له. بينما اضطّر باقي أعضاء مجلسه إلى النجاة بأنفسهم إلى المرسى، حيث استولوا بالقوّة على قارب صيد، ابتعدوا به عن البرّ، و عن هيجان الجنود الصاخبين، ليقعوا في قبضة المالطيين**"[2].

3-2. فترة الآغوات (1661-1671م) : من ثورة إلى أخرى

كان من نتائج جملة الإصلاحات الّتي قام بها خليل آغا عقب انقلاب 1659م استئثار السلطة من طرف الضبّاط السامّين للإنكشارية، و هم : البلوكباشية، و الياياباشية، و الآغوات المعزولين[3] ؛ في حين، لم

---

1. Delphin, Op. cit., 1922, p. 205.

ذكر الأب أوڤري أنّ مقتل يورك رمضان كان يوم القديس لوران، أي 10 أغسطس ؛ و هذا التاريخ اعتمد من طرف العديد من الكتّاب :

- Auvry, Op. cit., p. 243.

2. d'Aranda, Op. cit., pp. 154-156.

و ذكر الأب أوڤري بخصوص تلك الثورة و دوافعها ما يلي : "**...الغنائم الّتي يحصّلها القراصنة، كان** [رمضان] **ميّالاً إلى تملّكها بثمنٍ زهيدٍ جدًّا، بحيث كان يغتني أكثر ممّا ينبغي في حين كان شحّه يسبّب ضررًا معتبرًا للجنود. و قد أغاظهم تصرّف الحاكم، بحيث تشاوروا للتخلّص منه ؛ و لمّا اتخذوا جميع تدابيرهم، في يوم القديس لوران من عام 1661، سعوا إلى مخاصمته في البادستان، و هو المكان المخصّص لبيع المسيحيين و السلع الأخرى، و اشتكوا له بأنّ الجنود لم يكونوا يتقاضون أجرًا جيّدًا. فاستاء من أن يكلّم بلا تقدير، هو الّذي كان يروم إلى الشرف، و أمر بأن يلقى القبض على عددٍ منهم ؛ عندئذ انقضّوا عليه، و قطعوا رأسه. و فورًا، مضوا إلى شتّى أحياء المدينة في جمع كبير و مصمّم، مع جنود آخرين أعلموهم** [مسبّقًا]**، و قاموا بقتل خمسين أو ستين من كبراء المدينة، من شيعة رمضان، و علّقوا رؤوسهم من خصل الشعر إلى كرمات العنب، قبالة دار السلطان**" :

- Auvry, Ibid., pp. 243-244.

توجد أيضًا إشارة إلى هذه الثورة عند ابن المفتي :

- Delphin, Ibid., p. 221.

3. انظر بخصوص الرتب المذكورة المبحث الأخير من الفصل الخامس.

يلتقط الضبّاط الأدنى رتبة، الأوده باشية، سوى الفتات[1]. و نظرًا إلى أنّ الفئة الّتي قادت ثورة 1661م كانت تتكوّن أساسًا من الصفّ الآنف ذكره، فهذا يجعلنا نفترض أنّ الاضطرابات الخطيرة الّتي أودت بالحكومة تمخّضت في الواقع عن صراع طبقي في صفوف الأوجاق.

على كلٍّ، تمكّن الأوده باشية من فرض أنفسهم في الديوان العامّ على حساب الأكثريّة الممثّلة في البلوكباشية ؛ و ذلك بفضل قوّتهم العددية و نفوذهم المباشر على اليولداش[2] ؛ و هذا ما نستشّفه من كون الآغا المنصّب حينها لا ينتمي إلى صفّ البلوكباشية .

و الملفت للانتباه أيضًا أنّ الديوان تقوّت و ازدادت صلاحياته خلال هذه الفترة الجديدة، بالتزامن مع تقلّص دور هيئة الآغوات المعزولين القيادي، الّتي ترأّسها الآغا ؛ فلم يعد هؤلاء الآغوات يحقّ لهم حتّى حضور جلسات الديوان، إلاّ إذا تمّ استدعاؤهم خصّيصًا و للاستشارة فقط[3]. و يبدو أنّ المراد من تلك التدابير المتّخذة كان الحؤول دون هيمنة طغمة حاكمة (oligarchie) على امتيازات السلطة، مثلما حدث مع رمضان آغا و زمرة مقرّبيه.

3-2-1. عهد شعبان آغا (1661-1664م)

بعد المقتلة الّتي راح ضحيّتها رمضان آغا، جدّ أعضاء الديوان في انتخاب حاكمٍ جديدٍ للبلاد و وقع اختيارهم على معزول آغا يدعى شعبان ؛ و الجدير بالذكر أنّه لم يكن تركيًا، بل علجًا برتغالي الأصل[4]. أمّا

---

1. Boyer, "**Des Pachas triennaux…**", Op. cit., p. 105.

فيما يخصّ التراتبية العسكرية، انظر المبحث الثالث من الفصل الخامس.

2. يذكر صاحب كتاب «**مرآة الصدقة المسيحية**» بخصوص الديوان العامّ أنّ "**هذا المجلس لم يعد مؤلّفًا من البلوكباشية كما كان في السابق، لأنّه منذ مقتل رمضان و الآخرين، البلوكباشية بالرغم من كونهم قادة أضحت سلطتهم صغيرة في الدولة، و لا يسعهم البروز في المجلس بسبب الأوده باشية الّذين استأثروا في الوقت الراهن بالسلطة كلّها ؛ عددهم (يبدو لي) غير محدود، بحيث يسودون بأغلبية أصواتهم دومًا على الآغا و الياياباشية…**" :

- Auvry, Op. cit., pp. 271-272.

انظر أيضًا :

- Boyer, "**La révolution…**", Op. cit., p. 165.

مهما يكن من أمر، تبقى شهادة أوڤري محيّرة بعض الشيء، إذ أنّ عدد الأوده باشية البالغ 424 بقي ثابتًا خلال العهد العثماني، على عكس البلوكباشية الّذين تراوح عددهم بين 600 و 900 بالتقريب ؛ و ممّا سبق، يتضّح لنا أنّ الأوده باشية أفادوا بلا أدنى الشكّ من دعم اليولداش.

3. Gleizes, Op. cit., p. 204 ; Boyer, "**Des Pachas triennaux…**", Ibid.

4. Auvry, Ibid., p. 244 ; Chevalier L.L. d'Arvieux, **Mémoires du chevalier d'Arvieux, mis en ordre par le R.P. Jean-Baptiste Labat**, T. 5, Delespine le fils, Paris, 1735, p. 245.

و ذلك في حين ذكر إمانويل دارندا أنّه "**كان إسباني المولد على حدود البرتغال، و ابن بحّار. وقع في شبابه في عبودية الأتراك، الّذين أقنعوه و أغووه على إنكار عقيدته المسيحية ؛ و هذا ما يتيسر فعله لطفل فتي.**"، مضيفًا أنّه "**بطريقته النبيلة في التعامل مع أيّ شخص، أعطي شعبان هذا لقب الحرب غالان.**" :

- d'Aranda, Op. cit., p. 221.

عن الأسباب الّتي كانت وراء اختياره، فيذكر دارندا أنّه كان "**يقدّر عند الأتراك و النصارى كرجلٍ طيّب، عادل و حكيم، و الحقّ يقال، كان الرجل يتمتع أيضًا بالعديد من المزايا الأخلاقية**"[1] ؛ و ذلك فضلاً عن كونه غنيًّا جدًّا كسب أموالاً طائلة من قيادته لمحلاّت الجباية و مشاركته في حملات الغزو البحري.

و بعد وقتٍ قصير من انتخابه، تعرّض شعبان آغا لمحاولة اغتيال تبيّن أنّها من تدبير إبراهيم باشا ؛ فقام الديوان بخلع هذا الأخير من منصبه، و وضع في محبس ضيّق[2]. و لم يكد شعبان ينتهي من هذا الأمر حتّى طرأ آخر أهمّ، فلقد كان محمّد جلبي بن يوسف، نسيب محمّد باي قسنطينة، ممّن قتلوا خلال الثورة و صودرت أملاكهم[3] ؛ و أثار ذلك حفيظة الباي خاصّةً و أنّ الآغا أحجم عن متابعة المتورّطين[4]. و ازداد الشقاق أكثر بين قسنطينة و السلطة المركزية بالجزائر، بعدما خالف الباي محمّد بن فرحات تعليمات الديوان، و "**عقد اتفاقًا مع برجوازي من هذه المدينة** (يعني مارسيليا)، **يدعى السيّد ستارس ليمنحه كافّة التسهيلات لإقامة، رغمًا عن الأتراك، تجارة و إسكلة في مرفأ سطورة، مقابل بعض الأتاوى السنوية**"[5]. و على الرغم من جهلنا لمجمل التفاصيل، فإنّ خطورة هذا الخلاف، الّذي سوي بطريقة أو بأخرى خلال السنة التالية، تكمن في حدوثه في ظرف جدّ حرج من تاريخ الإيالة.

و في غضون ذلك، كانت الأخبار الواردة من الموفدين إلى إستانبول تبشّر بانفراج قريب، عقب وفاة كوبرولي محمّد باشا و تولية ابنه فاضل أحمد باشا صدرًا أعظم مكانه في أواخر أكتوبر 1661م. قام

---

1. d'Aranda, Op. cit., p. 60.

2. يذكر دارندا أنّ دافع القتل كان الانتقام، لأنّ الآغا كان أحد الّذين أشاروا بسجن إبراهيم باشا في صيف 1659م، "**و ليقوم بتنفيذ خطّته، وعد جنديان بعشرة آلاف قطعة نقدية (patagons) شريطة أن يقتلا عدوه ؛ و هذا ما تعاهدا به، فذهبا بعزمٍ إلى الآغا، و طلبا التحدّث إليه. العبد المسيحي الميورقي الأصل الّذي تكلّم معهم، اعتبر من هيئتهم و من اليطقانات الّتي كانت بحوزتهم، على غير عادة الجنود الّذين يحملون سكاكين طويلة عندما يتمشّون في المدينة، أنّهم يضمرون شرًّا، فأجابهما بأنّ مالكه خرج، مع أنّه لم يكن كذلك ؛ و لمّا روى لسيّده ما حدث، لم يشتبه هذا الأخير أنّها خطّة من تدبير الباشا، فاشتكاه للجنود، الّذين تمرّدوا على الفور، و ألقوا القبض عليه، و بنوا حوله أربعة حيطان مفتوحة من فوق، مع فسحة لا تكفيه سوى للجلوس، و فتحة لإعطائه الأكل.**" : - Id., pp. 155-156.

3. أشار "دارندا" خطأً (ص. 396) إلى أنّ القتيل هو شلبي بن علي بتشين، لكن هذا الأخير توفي كما ورد في وثائق المحاكم قبل سنة 1658م. انظر في هذا الصدد : الأرشيف الوطني الجزائري، سلسلة المحاكم الشرعية : علبة 45-1، وثيقة 27 ؛ علبة 50، وثيقة 19.

4. Auvry, Op. cit., p. 244.

5. انظر رسالة المهندس نيكولاس دي كليرفيل (Nicolas de Clerville)، المكلّف في خريف 1661م بمهمّة سرّية في الشرق الجزائري، إلى مستشار الملك جان باتيست كولبير (Jean-Baptiste Colbert) :

- H. de Castries, **Les sources inédites de l'histoire du Maroc de 1530 à 1845. Archives et bibliothèques de France**, T. 1, Éditions Ernest Leroux, Paris, 1905, I, p. 53.

الجزائريون بالاتصال بقره مصطفى باشا، أحد وزراء الديوان الهمايوني، و حمّلوه هدايا ثمينة ليتوّسط لهم لدى الصدر الأعظم ؛ و بعد أن تعهّدوا لهذا الأخير بأنّ أوجاق جزائر الغرب سيلتزم بأوامره، قبل أخيرًا أن يعفو عنهم و أبدى استعداده لإرسال بايلرباي جديد للجزائر في 1662م[1].

بيد أنّ تغيّر موقف الباب العالي لم يكن راجع أساسًا إلى الهدايا و العشرة آلاف سكّة ذهبية الّتي وزّعت، بل إلى الهزائم البحرية الّتي تكبّدها الأسطول العثماني حينها أمام البنادقة في بحر إيجة[2]، و الّتي أبرزت الحاجة الملحّة إلى الاستعانة بالقوّة البحرية الجزائرية المتمرّسة في مواجهة البندقية و حلفائها.

و بناءً على ذلك، ولّى السلطان القابجي بوشناق إسماعيل باشا بن خليل في منصب بايلرباي على الجزائر ؛ و رافقه الوفد في طريق العودة، حيث وصلوا إلى الجزائر في 6 مايو 1662م[3]، أي بعد مرور ثلاث سنوات تقريبًا من حدوث الانقلاب. لقد استقبل اسماعيل باشا بصفته ممثّلا للسلطان ببالغ الاحترام و الحفاوة من طرف الجزائريين، و رتّبت لإقامته غرف و أجنحة بقصر الجنينة. و كما جرى الاتفاق عليه قبلاً، أجرى له الديوان راتبًا و تكفّل بجميع نفقات و مؤن أهل بيته و خاصّته، شرط أن لا يتدخّل في شؤون الدولة و لا يخرج إلاّ بترخيص من الديوان[4]. و فيما يخصّ صلاحياته الإدارية، ذكر ابن المفتي أنّه "**بقي الباشا حاكمًا لمدينة الجزائر و وطنها (دار السلطان) فقط**"[5].

و ممّا يؤثر عن اسماعيل باشا أنّه شفع لسلفه إبراهيم لدى الديوان، فأطلقوا سراحه إكرامًا له و منح راتب معزول آغا[6].

---

1. **تاريخ السلحدار محمّد آغا**، ج. 1، ص. 222، نقلاً عن : سامح التر، المرجع السابق، ص ص. 387-388.

انظر خلاصة مطالب و تعهّدات الوفد الجزائري لدى الباب العالي في :

- J. P. Laugier de Tassy, **Histoire du royaume d'Alger**, Henri du Sauzet, Amsterdam, 1725, pp. 50-51.

انظر أيضًا : - Peyssonnel et Desfontaines, Op. cit., T. 1, pp. 402-403.

2. انهزم الأسطول العثماني مطلع سنة 1072هـ الموافق لـ 27 أغسطس1661م في نواحي ميلوس (Milos) ؛ و بداية خريف السنة التالية، جاء الدور على عمارة التموين المصرية المعروفة بـ"قافلة الإسكندرية" قرب جزيرة كوس (Kos)، حيث فقدت 4 سفن كبيرة و نحو 28 زورقًا :

- Ch. Diehl, **La république de Venise**, Flammarion, 1985, p. 253 ; Hammer-Purgstall, Op. cit., T. 11, p. 132.

3. Delphin, Op. cit., 1922, pp. 204-205.

وفد الباشا الجديد على متن عمارة من ستّة سفن أقلّت المئات من المجنّدين الجدد لصالح أوجاق الإنكشارية. انظر :

- Jacques Basnage, **Annales des Provinces-Unies, depuis les négociations pour la paix de Munster, avec la description historique de leur gouvernement**, vol. II, Charles Le Vier, Lahaye, 1719, p. 667.

4. d'Arvieux, Op. cit., T. 5, p. 244 ; Laugier de Tassy, Ibid., p. 51.

5. ابن المفتي، المرجع السابق، ص. 65.

6. Rang, Op. cit., p.424.

حمل اسماعيل باشا معه أمرًا سلطانيًا بإرسال عمارة لدعم الجهد الحربي العثماني في جزيرة كريت ؛ و بالفعل توجّهت بعض السفن الجزائرية إلى المشرق في 1662م[1]، رغم كون الإيالة في حالة حرب مفتوحة مع عدّة دول أوروبية، و على الرغم كذلك من غرق أحد عشر سفينة و تسعة غنائم في الميناء شتاء تلك السنة بفعل زلزال بحري أحدث موجات مدّ عاتية حطّمت المول[2]. و هذا إن دلّ على شيء، فيدلّ على مبادرة الجزائريين لإبداء الولاء و حسن النيّة، و بدء صفحة جديدة من العلاقات مع الدولة العثمانية. و في 1664م، أرسل الجزائريون مجدّدًا عمارة كبيرة إلى بحر اليونان، حيث قامت باعتراض عدّة مراكب راجعة من و إلى البندقية[3].

أمّا فيما يخصّ العلاقات مع الأمم الأوروبية، فقد استقرّ رأي الجزائريين على "**عدم جدوى عقد معاهدات مع النصارى**"، في ظلّ رفض أولي الأمر منهم آخر المطاف المصادقة عليها و جنوحهم دومًا إلى قوّة السلاح لفرض شروطهم للسلم على الإيالة ؛ إلاّ أنّهم خشية قيام تحالف مسيحي ضدّ الجزائر، التمسوا من الباب العالي يد العون[4]، لكن الدولة العثمانية المنشغلة في الحرب على أكثر من جبهة، لم يكن بوسعها ذلك.

و من بين الدول الأوروبية، كانت فرنسا بلا ريب صاحبة المخطّطات و العمليات الأكثر عدوانية تجاه الجزائر، و ذلك من دون أن تعلن الحرب حقيقةً عليها : فمع نهاية عام 1663م، ابتدأت استعدادات الفرنسيين لشنّ حملة عسكرية من أجل احتلال منطقة ساحلية شرق البلاد ؛ و لقد كانوا يعوّلون الكثير على ثورة منطقة القبائل أوّلاً الّتي أملوا أنّها ستصدّ عنهم "الأتراك"، و ثانيًا على ما ألحقه وباء الطاعون الفتّاك من خسائر بشرية جسيمة بالبلاد.

---

1. **Gazette de France**, 1662, pp. 141, 345 & 750.

نقلاً عن :

- G. Turbet-Delof, **La presse périodique française et l'Afrique barbaresque au XVIIe siècle (1611-1715)**, Librairie Droz, Genève, 1973, pp. 97-98.

2. **Gazette de France**, 1662, p. 141.

نقلاً عن :

- de Grammont, "**Relations…** ", Op. cit., 1884, p. 292.

انظر أيضًا :

- R. L. Playfair, "**Épisodes de l'histoire des relations de la Grande-Bretagne avec les États barbaresques avant la conquête française**", in : R.A. 22, 1878, p. 402.

3. **Gazette de France**, 1664, pp. 954 & 1175.

فقد الجزائريون خلال تلك الحملة البحرية سفينتين على الأقلّ في مواجهات مع سفن فرسان مالطة. انظر :

- J. Merrien, **Tels étaient corsaires et flibustiers**, Le Livre Contemporain-Amiot-Dumont, Paris, 1957, pp. 58-59.

4. **Gazette de France**, 1662, p. 393.

بالنسبة للجانب الإنكليزي، هاجم مونتاغو (Montagu) مدينة بجاية في أبريل 1662م، و من ثمّ طارد مجموعة من سفن الريّاس لإلجائها إلى ميناء الجزائر، حيث كانوا على علم بوجود الأسطول الهولندي هناك. كان الأميرال الإنكليزي يعتقد أنّه بذلك سيضع الريّاس بين نارين ؛ لكن لم يرعه إلاّ و السفن الجزائرية تدخل الميناء بكلّ أمان، لأنّ شعبان آغا كان قد عقد في أثناء ذلك اتفاق هدنة مدّته ثمانية أشهر مع الأميرال الهولندي دي رويتر[1]. و بعد حصار غير فعّال دام أيّامًا، وجد مونتاغو نفسه مضطرًّا إلى مهاداة شعبان آغا و توّصل معه إلى اتفاق مبدئي، أُتبع في نوفمبر من ذات السنة بمعاهدة سلم[2].

بعد أيّام، أبرم شعبان آغا معاهدة سلم مع دي رويتر شبيهة بتلك الّتي أقامها مع الإنكليز[3]. و كان عددٌ من أعضاء الديوان قد أبدوا معارضتهم بادئ الأمر لاتفاقٍ مع الأقاليم المتّحدة ؛ إلا أنّ شعبان تمكّن من إقناعهم على العدول عن رأيهم، بعد أن تعهّد له الطرف الهولندي بإهداء أربعة مدافع برونزية و افتداء جميع الّذين أسروا على متن السفن الهولندية وفق السعر الأوّل الّذي بيعوا به في السوق، و ذلك قبل فبراير 1664م كحدّ أقصى[4].

بيد أنّ الجزائريين استبطأوا وصول الفدية و آخذوا القنصل الهولندي على ذلك، خصوصًا بعد وفاة أزيد من مائة أسير من الطاعون خلال الأشهر الأولى من عام 1663م[5]. و قد أجبر شعبان آغا في شهر أبريل على السماح للريّاس بتفتيش حمولات السفن التجارية الهولندية و مصادرة بضائع الأعداء، طالما لم تحضر المدافع و الفدية الموعودة[6].

في غضون ذلك، أرسلت الأقاليم المتّحدة عمارة إلى البحر المتوّسط قامت بخطف 150 راكبًا جزائريًا من سفينة إنكليزية، ثمّ أسرت في يناير 1664م سفينتين جزائريتين بيع معظمهم بحّارتها للإسبان. و حينما علم الجزائريون بذلك، سجنوا القنصل أيّامًا ثمّ أطلقوا سراحه، و وضع منزله تحت حراسة عشرة إنكشاريين لحمايته ؛ كما أعلن الديوان أنّ بحّارة السفن الهولندية المحتجزة سيلقون نفس مصير الجزائريين الّذين أسرهم الهولنديون[7].

نقلاً عن :

- de Grammont, Ibid.

1. de Grammont, "**Relations…** ", Op. cit., 1884, pp. 292-293 ; Mercier, Op. cit., p. 253.

2. Fisher, Op. cit., pp. 310-315.

3. A. H. de Groot, "**Ottoman North Africa and the Dutch Republic in the seventeenth and eighteenth centuries**", in : R.O.M.M. 39, 1985, p. 139.

4. Krieken, Op. cit., p. 60.

5. في ذلك الوقت، عصف وباء طاعون عرف بـ"الحبوبة القوية" بشدّة على الجزائر، و أودى بحياة عشرات الآلاف من سكّان الإيالة.

6. Id., p. 62.

7. Id., p. 64.

على المستوى الداخلي، شهدت الإيالة وقتئذٍ كارثة إنسانية حقيقية جرّاء وباء الطاعون و المجاعة الناتجة عن تخالف غزو الجراد و الجفاف عليها، و ممّا زاد الوضع مأساوية انتشار ما يمكن وصفه بالفوضى و عدم الأمن في عدّة مناطق : ففي الناحية الغربية، كثّف الإسبان بمساعدة المغطّسين و حلفائهم من الأعراب من غاراتهم ضدّ الأقوام و القبائل الّتي أضعفتها المسغبة، و تمكّنوا من أسر عدد كبير من الأهالي، ناهيك عن مئاتٍ آخرين التجأوا إلى وهران اضطرارًا مفضّلين فقد حريّتهم على التضوّر جوعًا حتّى الموت[1].

إزاء هذا الوضع، أمر الديوان بتوجيه حملة هجومية بقيادة قائد تلمسان عمر آغا في 1662م لمعاقبة محالفي الإسبان و الإغارة على أراضيهم المجاورة لوهران ؛ و في إحدى هجماتهم، جرح حاكم وهران، المركيز دي لغانس (marquis de Leganes)، في وجهه[2].

أمّا من الناحية الشرقية، فلم تكن الأوضاع أحسن حالاً في ظلّ تواصل ثورة العديد من القبائل و العشائر في الشمال الشرقي من البلاد، لا سيّما منطقة القبائل الّتي شهدت أشدّ المواجهات ضدّ الأتراك العثمانيين ؛ و بلغ الصراع ذروته حسب بعض المصادر في أكتوبر 1662م، عندما خطّط القبائليون للتسلّل إلى مدينة الجزائر و القيام بتمرّد شبيه بالّذي قام به الكراغلة سنة 1633م، و ذلك بمساعدة عدد من البرانية و الأسرى المسيحيين. غير أنّ الأتراك اكتشفوا أمر هذا المخطّط ؛ و أعدموا بعض المتورّطين فيه، بعد أن عذّبوهم[3].

و خفّت حدّة الصراع كثيرًا في 1663م، ليس لسبب إلاّ لتفشي وباء الطاعون عرف من شدّة فتكه باسم "الحبوبة القوية"، يحتمل أنّه أدّى إلى وفاة عشرات الآلاف من سكّان مدينة الجزائر و فحوصها[4]، بالإضافة إلى هلاك ما بين ألف و ألفي أسير مسيحي[5].

---

1. Vincent, "**Les Jésuites…**", Op. cit., p. 524.

2. C. X. de Sandoval, "**Les inscriptions d'Oran et de Mers-El-Kebir. Notice historique sur ces deux places depuis la conquête jusqu'à leur abandon en 1792**", trad. par Monnereau, in : R.A. 15, 1871, pp. 445-446.

3. **Gazette de France**, 1662, p. 1202.

- de Grammont, "**Relations…** ", Op. cit., 1884, p. 293. نقلاً عن :

4. في هذا الصدد، ورد في مذكّرة فرنسية لعام 1664م أنّ المدينة لم يعد بها إلاّ "**4.000 موقد تقريبًا و 25 إلى 30.000 ساكن على الأكثر في الوقت الحاضر، كون الطاعون قتل العام الفائت أزيد من 60.000 و عددًا أكبر بكثير في ضواحي المدينة، بحيث أنّ البلاد بقيت كأنّها مقفار.**"، نقلاً عن :
- Merouche, **Monnaies…**, Op. cit., p. 94 & 267-268.

5. قدّرنا الفارق العددي المذكور بخصوص وفيات الأسرى الأوروبيين بالنظر إلى أنّ عددهم بمدينة الجزائر بلغ وفق مصدرٍ مسيحي في بداية الستّينات خمسة آلاف فقط ؛ و هو يعطينا فكرة عن حجم الخسائر الاقتصادية الّتي تكبّدتها الإيالة، كون النخاسة و الرسوم المتعلّقة بها من أهمّ مصادر الدخل، و على اعتبار أنّ وفاة أولئك الأسرى بالطاعون كانت خسارة بلا عوض :

- Dumay, "**Projet…**", Op. cit., p. 4 ; Boyer, "**La révolution…** ", Op. cit., p. 166.

نستخلص من قراءة متأنية لتتابع الأحداث بأنّ شعبان آغا واجه أواخر حكمه ظروفًا صعبة، إذ استاءت الأوساط المتنفّذة كثيرًا من السياسة الخارجية الّتي انتهجها مع إنكلترا و الأقاليم المتّحدة، و اعتبروها تصبّ ضدّ مصالح البلاد، و ذلك لعدم احترام الدول المذكورة لالتزاماتها فيما يتعلّق بالجوازات و فدية الأسرى، علاوة على تناقص غنائم الريّاس بسبب حالة السلم معها ؛ و يمكن إضافة إلى ما سبق الآثار الكارثية الّتي خلّفها الطاعون على المستويين البشري و الاقتصادي، و الّتي شكّلت بلا شكّ عبئًا إضافيًا على كاهل الحاكم.

و بالرغم من الغموض الّذي يكتنف ظروف وفاة شعبان آغا، فالأكيد هو أنّه قتل في الأشهر الأولى من 1664، حسب ما تفيد به المصادر الهولندية[1]. و بالنسبة للسبب، فالسؤال يبقى مطروحًا : هل كان لمقتله علاقة بتأخّر الفدية الّتي وعد دي رويتر بوصولها في شهر فبراير من تلك السنة ؟ أم كان ذلك بسبب الاستعدادات الحربية الّتي كانت تتّخذها فرنسا إذ ذاك لمهاجمة البلاد ؟ أم لسببٍ آخر نجهله ؟

3-2-2. عهد حاج علي آغا (1664-1671م)

بعد شعبان، أسند الحكم إلى معزول آغا اسمه الحاج علي، و مثل الآغوات الّذين سبقوه، كان يتمتّع باحترام و نفوذ كبيرين لدى الإنكشارية. و لقد وصفه دارفيو بقوله "**أنّه كان رجلاً نبيهًا و ذا جدارة فريدة**"[2].

و يذكر ابن المفتي في تقييداته أنّه "**لمّا كلّف الحاج علي آغا بالعلوفات أضافوا له في الوقت ذاته حكم عموم البلد، و هو أوّل من حمل بالجزائر لقب حاكم، لأنّه احتفظ بالحكم و لم يشرك معه أحدًا، و كانت أوامره سنيّة**"[3]. و هذا يدلّ على أنّه كان أكثر حزمًا في اتّخاذ القرارات من سلفه شعبان آغا، الّذي عرف عنه انقياده حيال الديوان.

تجدر الإشارة إلى أنّ عقب انتصاره الساحق على الفرنسيين بجيجل في خريف 1664م[4]، اكتسب علي آغا قوّة و هيبة مكّنتاه بعد ذلك من إجراء إصلاحات إدارية على جانب من الأهمّية ؛ و تلك الإصلاحات سعى من ورائها إلى تقوية سلطته، و اجتناب النهاية المفجعة الّتي لاقاها من سبقوه في الحكم ؛ و ساهم التحسّن المالي و حالة الرخاء، اللّذان شهدتهما الجزائر بعد 1666م، بشكل كبير في لجم أي اعتراض قد يتقدّم به أعضاء الديوان إزاء سياسته الإصلاحية.

---

1. Krieken, Op. cit., pp. 55, 61 & 63.

2. d'Arvieux, Op. cit., T. 5, p. 246.

3. ابن المفتي، المصدر السابق، ص. 65.

4. انظر أدناه.

و تمثّلت الإصلاحات الّتي قام بها الحاج علي آغا في إلغاء آخر اختصاصات الوالي الإدارية و تنحية هيئة الآغوات المعزولين[1] ؛ كما عدّل تشكيل الديوان الخاصّ الّذي يترأّسه، بحيث صار يتكوّن أساسًا من أصحاب المناصب الوزارية[2]، و الخوجات الأربعة الكبار، بالإضافة إلى نخبة مختارة من ضبّاط الأوجاق، و هم : آغا الإنكشارية، و الكاهية (كتخدا)، و 24 ياياباشي، 24 بلوكباشي، و 24 أوده باشي[3]، أي ما يربو على ثمانين شخصًا. و حرص علي، من جهةٍ أخرى، على توزيع المناصب الإدارية في الدولة على كبراء الأوجاق الموالين له[4]. إنّ هذا التطوّر الإداري واكب تقلّصًا ملحوظًا لدور الديوان العامّ، الّذي بدأ يتحوّل منذ عهد علي آغا شيئًا فشيئًا إلى هيئة استشارية، حيث ضعفت على مرّ السنين صلاحياته في الإشراف و المراقبة على الجهاز التنفيذي الّذي يترأسه الحاكم. و هكذا، بدأ يرتسم الجهاز الإداري و السياسي في الجزائر على الشكل النهائي الّذي سيحافظ عليه إجمالاً خلال عهد الدايات[5].

عام 1667م، قرّر الصدر الأعظم إتمام فتح جزيرة كريت الّتي استعصت قصبتها قانديا على العثمانيين قرابة عقدين، فتوجّه بنفسه لحصارها و أصدر أوامره للإيالات الغربية، كي تقوم بإرسال سفنها لحماية السفن العثمانية الناقلة للعساكر و الذخيرة. و بعد إتمام مهمّتهم، دخل الجزائريون البحر الأدرياتيكي، حيث أغاروا على عدّة مواقع ساحلية و نهبوها، و كانت لهم مواجهات مع البنادقة، خسروا خلالها بعضًا من سفنهم.

و في مايو 1668م، بعث الباب العالي أمرًا سلطانيًا للديوان باستقدام عمارة بحرية، لكن الريّاس ماطلوا في الخروج حتّى بداية 1669م، حين تحرّكت عشر غليوطات من الجزائر و تونس للالتحاق بالأسطول العثماني[6]. و في تلك السنة، وضع العثمانيون بكلّ ثقلهم في المعركة، و تمكّنوا أخيرًا من فتح قانديا[7].

---

1. Boyer, "**Des Pachas triennaux…** ", Op. cit., p. 105.

يذكر ابن المفتي أنّ الحاج علي آغا "**كان يجلس حيث يقيم الولاة اليوم، و طلب أن يبقى بجانبه الخوجات و الكتّاب الّذين كانوا مع الباشالار** (الباشوات)، **و كذا الترجمان و شاوش العرب. و كلّ التنظيم الموجود اليوم** (أي في عهد الدايات) **يعزى إليه، و هو من رتّب التفصيلات** (كذا)" : ابن المفتي، المصدر السابق، ص. 65.

2. إنّ المناصب الوزارية المعنية، كما أسلفنا، هي : الخزناجي، آغا [الصبايحية] العرب، خوجة الخيل، وكيل الحرج، و بيت المالجي. انظر : عبّاد، المرجع السابق، ص ص. 279-280.

فيما يتعلّق بالديوان الخاصّ، انظر : محرز، المرجع السابق، ص ص. 24-25.

3. G. P., **The present state of Tangier in a letter to his Grace the lord Chancellor of Ireland and one of the lords justices there, to which is added The present state of Algiers**, H. Herringman, London, 1676, p. 83, n.

انظر أيضًا : - M. Emerit, "**Un mémoire sur Alger par Pétis de la Croix (1695)**", in : A.I.E.O. 11, 1958, p. 13.

4. Boyer, "**Introduction…**", Op. cit., p. 307.

5. Boyer, "**La révolution…**", Op. cit., p. 167.

6. **تاريخ السلحدار محمّد آغا**، ج. 1، ص. 480، نقلاً عن : سامح الترّ، المرجع السابق، ص ص. 396-397.

7. Diehl, Op. cit., p. 255.

فيما يخصّ حالة شبه الحرب مع فرنسا، قرّر الفرنسيون انفاذ حملة على جيجل، انطلقت في بداية يوليو 1664م من ميناء طولون ؛ و في الطريق، انضمّت لها قوّات فرسان مالطة، بحيث بلغ تعداد الوحدات البحرية نحو سبعين سفينة. و بعد قتال غير متكافئ، تمكن الغزاة من احتلال البلدة الّتي هجرها أهلها يوم 23 من نفس الشهر[1].

في غضون ذلك، أخّر علي آغا حشد القوّات الّتي بلغ تعدادها ثلاثة آلاف إنكشاري و خمسمائة صبايحي إلى حين عودة المحلاّت الثلاث[2]، و من ثمّ سيرّها إلى جيجل. و اضطرّ الأتراك العثمانيون لشقّ طريقهم إلى استئذان القبائل الثائرة عليهم لتسمح لهم بالمرور عبر أراضيها ؛ و لم تكتف تلك القبائل بفتح الطريق، بل انضمّت بنيّة الجهاد إلى المحلّة "التركية"، حتّى صارت جيشًا قوامه من عشرة إلى اثني عشرة ألف مقاتل - حسب الرواية الفرنسية - بعدما التحقت به قوّات باي قسنطينة[3]. بلغ الجيش الجزائري جيجل في الأوّل من أكتوبر، و عسكر على مشارفها ؛ و فجر اليوم الخامس، شنّ هجومًا عنيفًا على الحصن المتقدّم غرب الخطوط الفرنسية الأمامية الّذي قتل قائده، و كاد يسقط لولا سرعة وصول النجدات. و خسر الجزائريون في تلك المواجهة الدامية حوالي سبعمائة بين قتيل و جريح. و على إثرها، أرسل قائد الجيش في طلب قطع مدفعية كبيرة و قوّات إضافية من الجزائر، خصوصًا و أنّ الكثير من الأهالي انسحبوا لبذر أراضيهم[4]. هذه المرّة سيرّ الآغا الحاكم الإمدادات شخصيًا عن طريق البحر إلى بجاية، و منها أكمل المسير برًّا.

يوم 22 أكتوبر، رست بميناء جيجل سفن تحمل تعزيزات معتبرة رفعت عدد أفراد الحملة الفرنسية إلى نحو ثمانية آلاف ؛ و بعد يومين، وصلت قوّات المدد بقيادة الحاج علي آغا، و بدأت في نصب بطاريّات مدافع الحصار. و في يوم 29 أكتوبر، فتحت المدفعية الجزائرية نيرانها على تحصينات العدو فدكّتها في ظرف أربع و عشرين ساعة فقط، و حطّمت معها معنويات الفرنسيين بعد أن بدأت القذائف تطال معسكرهم و لم يجدوا مكانًا يلتجئون إليه، فصار الجنود يصيحون يأسًا بأنّهم سيستسلمون للأتراك و يدخلون في دينهم. قرّرت القيادة عندها تنفيذ عملية الانسحاب يوم 31 مع هبوط الليل، لكن

---

1. E. Watbeld, "**Expédition du duc de Beaufort contre Djidjeli (1664)**", in : R.A. 17, 1873, pp. 218-221 ; Mercier, Op. cit., pp. 262-263.

2. de Castellan, "**Relation contenant diverses particularitez**(sic) **de l'expedition de Gigery",** in : Recueil historique contenant diverses pièces curieuses de ce temps, Christophre van Dyck, Cologne, 1666, p. 28.

3. Id., p. 27.

4. Watbeld, Ibid., pp. 223-225.

الجزائريين، الّذين فطنوا لذلك، اكتسحوا المواقع الفرنسية تؤازرهم نيران مدفعيتهم، فتحوّل الانسحاب إلى فرار مخزٍ[1].

و للتقليل من وقع الهزيمة، حرص الفرنسيون على مطاردة سفن الريّاس، "**لكي لا يشعر الجزائريون بكونهم حقّقوا نصرًا كبيرًا**"[2] ؛ و من جهتهم، ألحق الريّاس خسائر فادحة بالسفن و التجارة الفرنسية. لأجل ذلك، أبدى ملك فرنسا رغبته في التوصّل إلى تسوية مع الجزائر في بداية عام 1666م، و انتهت حالة الحرب بين فرنسا و الجزائر بإبرام معاهدة نصّت على إطلاق سراح أسرى البلدين بالتبادل أو الافتداء و إعادة فتح منشآت الباستيون التجارية[3].

و خلال السنة الأخيرة من حرب كريت، عاد التوّتر بعض الشيء للعلاقات بين البلدين، إذ نشط الريّاس الجزائريون ضمن الأسطول العثماني و دعمّت فرنسا من جهتها جانب البنادقة. و كانت النتيجة أسر الريّاس لعدّة سفن تجارية فرنسية تحمل مؤنًا إلى كانديا. و في أبريل 1669م، قدِم مبعوث فرنسي طالب بمعاقبة الريّاس المذنبين ؛ فاستقبل بشكل ودّي في الديوان، و شنق بمحضره ثلاثة ريّاس بعد محاكمتهم و رميت جثثهم في البحر ؛ و يبدو أنّ هذا التصرّف غير المتبصّر عائد إلى نفوذ إسماعيل باشا المراعي للمصالح الفرنسية[4]. و في فبراير 1670م، تمكّنت فرنسا من فرض بنود إضافية ألحقت بمعاهدة 1666م، ليس فقط بسبب تأثير إسماعيل باشا على الحاكم و الديوان، بل أيضًا لتعاظم قوّة الأسطول الفرنسي بفضل جهود وزير بحريتها ؛ إلاّ أنّ الريّاس حمّلوا علي آغا مسؤولية ضعف الموقف الجزائري[5].

بالنسبة للجانب الهولندي، أدّى وصول الأميرال دي رويتر إلى الجزائر يوم 19 يونيو 1664م، أي أربعة أشهر بعد انقضاء أجل الخمسة عشر شهرًا المحدّدة لجلب فدية الأسرى، إضافةً إلى عدم قبوله دفع تعويضات لقاء الخسائر الّتي ألحقها مواطنوه بالجزائريين، إلى فشل المفاوضات[6] ؛ و بعد أن رفع

---

1. Watbeld, Op. cit., pp. 226-228.

لمزيدٍ من التفاصيل حول الحملة الفرنسية على جيجل، انظر : شارل فيرو، **تاريخ جيجلي** (كذا)، ترجمة عبد الحميد سرحان، دار الخلدونية، الجزائر، 2010، ص ص. 103-133 ؛ علي خنوف، **تاريخ منطقة جيجل قديمًا و حديثًا**، منشورات أنيس، الجزائر، 2007، ص ص. 66-69 ؛ محرز، المرجع السابق، ص ص. 114-117.

2. جمال قنان، **معاهدات الجزائر مع فرنسا، 1619-1830**، دار هومة، الجزائر، 2010، ص ص. 95-96.

3. نفسه، ص ص. 96-102.

4. انظر في هذا الصدد رسالة إسماعيل باشا إلى المفوّض العامّ للقوّات البحرية تروبير (Trubert)، المؤرّخة في 26 أبريل 1669م :

- E. Plantet, **Correspondance des deys d'Alger avec la cour de France**. 1er vol. (1579-1700), éd. Bouslama, Tunis, 1981, pp. 66-67.

5. H. Garrot, **Histoire générale de l'Algérie**, Alger, 1919, p. 499.

6. Basnage, Op. cit., vol. II, pp. 712-713 ; Krieken, Op. cit., p. 64.

الأسطول الهولندي راية الحرب، قفل راجعًا مباشرةً لبلاده دون أن يطلق قذيفة واحدة. و باستثناء إرسال عمارة مشتركة إلى المضيق لاعتراض سبيل السفن الجزائرية، لم يقدم الهولنديون على أيّ عمل آخر يستحقّ الذكر[1] ؛ و استمرّت حالة الحرب قائمة بين الأقاليم المتّحدة و الجزائر سنينًا عدّة قبل أن يتحرّك الطرف الأوّل لطلب الصلح[2].

فيما يخصّ العلاقات مع إنكلترا، بلغ التوتر بين البلدين ذروته في أبريل 1664م بعدما قام الجزائريون باحتجاز عدد من السفن الإنكليزية[3] ؛ و لقد استولى الإنكليز من جهتهم على عدّة مراكب جزائرية اقتيدت كغنائم إلى طنجة، القاعدة الّتي اكتسبوها حديثًا. و في الوقت الّذي كان الجزائريون منشغلين بمحاربة الفرنسيين في جيجل، عاد الإنكليز بقيادة نائب الأميرال ثوماس آلن (Thomas Allen) ؛ و هذه المرّة توصّل الطرفان إلى تسوية المشاكل العالقة بينهما على أساس معاهدة 1662م[4].

و مع ازدياد هجمات الإنكليز ضدّ الجزائريين عام 1668م، رخّص علي آغا من جديد بمطاردة السفن الإنكليزية، تحت ضغط طائفة الريّاس ؛ و في شهر سبتمبر 1669م، عاد آلن ثانيةً على رأس 25 بارجة، و بعد مباحثات غير مجدية، فتح الأسطول الإنكليزي نيرانه على الميناء ؛ و على الفور، ردّ الجزائريون بقوّة في حين خرجت سفن الريّاس للمواجهة. و جرت على مرأى المدينة معركة ضارية تكبّد خلالها الإنكليز خسائر فادحة، و اضطرّوا للانسحاب[5]. و السنة التالية، كمنت عمارة إنكليزية هولندية مشتركة قرب مضيق جبل طارق لاعتراض السفن الجزائرية، حيث تمكّنت نهاية شهر أغسطس من إغراق سفينة و إحراق ستٍّ أخرى جنحت للساحل المغربي[6].

في مايو 1671م، هاجم الأسطول الإنكليزي بقيادة الأميرال ادوارد سپراغ (Edward Spragg) مرسى بجاية على حين غرة و دخله عنوةً، و قام بإضرام النار في ثمانية مراكب كانت راسية فيه و استولى على ثلاثةٍ أخرى[7].

---

1. Krieken, Op. cit., pp. 65-67.

2. لم تبرم الأقاليم المتّحدة الصلح مع الجزائر إلاّ في عام 1679م، أي حتّى انتهاء حرب هولندا (1672-1679م) الّتي جمعتها ضدّ فرنسا و حلفائها : - Id., pp. 68-71.

3. Fisher, Op. cit., p. 318 ; Krieken, Ibid., p. 63.

4. قنان، **نصوص...**، المصدر السابق، ص ص. 91-96.

5. سامح التر، المرجع السابق، ص ص. 397-398.

6. Krieken, Ibid., pp. 66-67 ; D. Panzac, **Les corsaires barbaresques : la fin d'une épopée (1800-1820)**, Éditions du CNRS, 2000, p. 29.

7. **Gazette de France**, 1671, p. 576.

نقلاً عن : - de Grammont, "**Relations…** ", Op. cit., 1884, p. 341.

و في شهر يوليو، ظهرت قطع من الأسطول الإنكليزي غير بعيد من ميناء الجزائر و شدّدت عليه الحصار[1]. لقد كانت العمليات الإنكليزية الأخيرة، إلى جانب عوامل أخرى سنأتي على ذكرها لاحقًا، بمثابة الشرارة الّتي أشعلت فتيل الاضطرابات في الجزائر و أفضت في النهاية إلى سقوط الحاكم.

على الصعيد الداخلي، تحسّنت الأوضاع الأمنية في بايلك قسنطينة بشكل كبير عمّا كانت عليه من قبل، خصوصًا على الجبهة القبائلية، الّتي شهدت تآلف الأتراك و القبائليين معًا في دحر الفرنسيين عن جيجل. لكن هذا الهدوء النسبي لم يدم طويلاً، فقد أدّت محاولة الباي محمّد بن فرحات فرض ضريبة "اللزمة" على قبيلتي الحنانشة و الدواودة الممتنعتين إلى ثورتهما في سنة 1666م ؛ و قامت جموع أولئك الثوّار بالزحف على قسنطينة في شهر يوليو، و "**حاصروها و تغلّبوا حتّى على بعض الفرق الّتي أرسلت من الجزائر، لكن لم تلتحم المحلّة الثانية بباقي القوّات حتّى أجبروا المحاصرين على رفع الحصار و التقهقر مع بعض الخسائر**"[2]. و في أكتوبر من نفس السنة، قام الحاج علي آغا بعزل الباي المذكور ثمنًا لأخطائه و صادر أملاكه، و ولّى مكانه عمّه رجب باي[3].

و لمّا لم يستطع هذا الأخير، بالرغم من بعض الانتصارات الّتي حقّقها في الميدان، القضاء على ثورة الدواودة و الحنانشة، ارتأى سبيل المصاهرة حلاًّ للأزمة و زفّ ابنته "أم هانئ" لأخ شيخ قبيلة الدواودة[4] ؛ غير أنّ الاضطرابات ظلّت قائمة، بل و تدعّم صفّ الحنانشة بحلفاء جدد هم قبائل بني عبّاس، الّذين جعلوا المرور عبر منطقة البيبان جدّ صعب، و هدّدوا بذلك بقطع طريق قسنطينة. لذا، أرسل علي آغا في عام 1670م محلّة قوية إلى تلك منطقة مكّنت الباي بعد جهود و خسائر من إخضاع بني عبّاس المتمرّدين، و لم تلبث الثورة إلاّ قليلاً و خمدت[5].

انظر أيضًا :

- R.L. Playfair, **A bibliography of Algeria from the expedition of Charles V in 1541 to 1887**, London, 1888, p. 255.

1. de Grammont, "**Relations…** ", Op. cit., 1884, p. 342 ; Mercier, Op. cit., p. 274.

استمرّ الحصار البحري للمدينة حتّى شهر ديسمبر 1671م، و في ذلك التاريخ أبرم الأميرال سپراغ (Spragg) معاهدة سلام شبيهة بسابقتها مع حاكم البلاد الجديد، الداي الحاج محمّد (1671-1682م). انظر في هذا الصدد :

- de Grammont, Ibid., 1884, p. 348 ; Fisher, Op. cit., pp. 324-325.

2. M. Emerit, "**Un document inédit sur Alger au XVIIe siècle**", in : A.I.E.O. 17, 1959, pp. 235-236.

3. Mercier, Ibid., p. 275.

4. M. Gaïd, **Chronique des beys de Constantine**, O.P.U., s.d., p. 23.

5. Rousseau, Op. cit., p. 208.

بسبب مصاهرته للدواودة، أقوى قبائل البايلك، رفض رجب باي الّذي رأى نفسه في قوّة و منعة دفع الدنوش المعتاد للحاكم ؛ و قد تسبّب ذلك بعزله في 1673م و تولية ابن أخيه خير الدين محلّه. انظر : - Gaïd, Ibid.

و كان أهمّ حدث جرى في بايلك الغرب هو نشوب ثورة تلمسان الكبرى في 1669م[1] ؛ و قد فاجأ اندلاعها الأتراك العثمانيين الّذين كانوا باشروا قبلها بأيّام حصار وهران، ممّا اضطرّهم إلى الانسحاب للجزائر. و في سنة 1670م، وجّه الحاج علي آغا محلّة لقمع الثوّار لكنها لقيت مقاومة شديدة بسبب انضمام عدّة قبائل إلى صفّ التلمسانيين. و في السنة التالية، وجّه الآغا محلّة أخرى إلى تلمسان، و مثل سابقتها تكبّدت خسائر دون أن تحقّق الهدف المرجو[2].

أمّا بالنسبة لعاصمة الإيالة، فبعد السنوات الحالكة الّتي عرفتها، انحسر وباء "الحبوبة القوية" تدريجيًّا خلال عامي 1665 و 1666م[3]، كما انتعشت الأنشطة الاقتصادية سريعًا بشكل انخفضت معه الأسعار، فتحسّنت الأوضاع المعيشية للسكّان تباعًا[4]. و في ظلّ تلك الظروف، عرفت الجزائر هدوءً نسبيًّا حتّى 1668م، ففي تلك السنة، ثار أفراد جماعة الزواوة المقيمون بالفحص الّذي يحمل اسمهم و الواقع غرب المدينة ؛ و على إثر ذلك، قام الأتراك بإعدام قايد جماعة الزواوة المتورّط في تلك الاضطرابات، و أحرقت أشلاؤه في أماكن مختلفة من المدينة. و غالب الظنّ أنّ تمرّد أولئك البرّانية كانت له علاقة بثورة قبائل زواوة و بني عبّاس إذ ذاك ضدّ السلطة "التركية"[5].

و بالنظر إلى سير الأحداث، يتّضح لنا بأنّ الحاج علي آغا واجه فعلاً أوقاتًا جدّ عصيبة، و خاصّةً خلال السنتين الأخيرتين من حكمه ؛ فلقد أثارت سياسته الّتي اتّسمت بالليونة تجاه فرنسا تذمّرًا متزايدًا في

---

1. يمكن إدراج تلك الثورة ضمن سلسلة الثورات الكرغلية الّتي شهدتها تلمسان إبّان الوجود العثماني، مع أنّها وقعت بتحريض من مرابطين مغاربة و جاوز اتّساعها حدود أحواز تلمسان إلى المناطق المجاورة.

2. **Gazette de France**, 1670, pp. 987, 1017 & 1671.

نقلاً عن : - Turbet-Delof, **La presse…**, Op. cit., p. 125.

لم يتمكّن الأتراك العثمانيون من قمع ثورة تلمسان إلاّ في شهر فبراير 1675م، و عندما أخذوا المدينة نكّلوا بأهلها أشدّ التنكيل ؛ و إثر تلك الحادثة، ألّف سعيد بن عبد الله المنداسي التلمساني قصيدته المشهورة "**الإعلام فيما وقع للإسلام من قبل الترك بتلمسان**".

انظر : سعيدوني، ناصر الدين. **من التراث التاريخي و الجغرافي للغرب الإسلامي. «تراجم مؤرّخين و رحّالة و جغرافيين»**، ط. 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999، ص ص. 369-375.

3. J. Marchika, **La peste en Afrique Septentrionale. Histoire de la peste en Algérie de 1363 à 1830**, Thèse de Médecine, Alger, 1927, p. 55.

ظهر الوباء (الحمى الصفراء ؟) مجدّدًا في 1671م و السنة الّتي تلتها، لكن لم يتمّ تسجيل إلاّ عدد قليل من الإصابات نسبيًّا :

- Id., p. 56.

4. Merouche, **Monnaies…**, Op. cit., p. 268.

و يرسم ابن المفتي في تقييداته صورة مثالية عن الازدهار و الرخاء الّذي عاشته المدينة في تلك الفترة، انظر : ابن المفتي، المصدر السابق، ص ص. 65-66.

5. de Grammont, "**Relations…** ", Op. cit., 1884, p. 341.

وسط الريّاس، إذ لم يغفر له هؤلاء معاقبته لرفاقهم في 1669م و قبوله بتنازلات مجحفة عام 1670م، فقط لترضية الطرف الفرنسي، الّذي كان يستغلّ أيّة فرصة لإلحاق الضرر بالبحرية الجزائرية[1]. بالإضافة إلى ذلك، كان للخسائر الفادحة الّتي تكبّدها الريّاس على يد الإنكليز، و لا سيّما بميناء بجاية في 1671م، الأثر الكبير في تأليب طائفة البحرية ضدّ الحاكم. و كتدبير احترازي، وزّع الحاج علي آغا بعض الهبات[2]، في حين ألقى بمسؤولية ما حدث على القبطان الحاج محمّد التريكي و أودعه السجن بدار الإمارة[3] ؛ و على صعيدٍ آخر، قام بنفي خطيب الجامع الجديد، قرباش أفندي، الّذي خاض في شؤون الحكم و اتّخذ موقفًا مناوئًا منه[4].

و كان الإنكشاريون من جانبهم مستائين من الحاكم كذلك، لكن ليس للأسباب السابقة فحسب، بل لأنّه كان أيضًا يشغلهم كثيراً في عمليات حربية مكلّفة من حيث الأرواح و المشاقّ، لإخماد الثورات و لإعادة فرض النظام في المناطق الداخلية المستعصية[5].

و لهذا السبب بالذّات، تآمرت الإنكشارية للإطاحة بعلي آغا في يوم 24 سبتمبر 1671م، و كلّف جنود الحامية العائدين من تلمسان بالتمرّد[6]، و كانوا قد اضطرّوا لإخلاء قلعة المشور بعد أن عجزت القوّات الجزائرية لسنتين عن التغلّب على الثوّار. بيد أنّ الآغا تمكّن من النجاة من قبضة المتمرّدين، و عاقب بشدّة من وقع في يده منهم ؛ و كان من بين المتورّطين في المؤامرة آغا الإنكشارية، الّذي أمر علي آغا بخنقه[7]، و حسن شاوش الّذي فرّ إلى الباستيون[8]. و لقد عاود اليولداش محاولة قتل الحاج علي آغا في يوم 18 أكتوبر بنجاح هذه المرّة، و احتزّوا رأسه[9].

---

1. de Grammont, "**Relations…** ", Op. cit., 1884, p. 342.

2. **Gazette de France**, 1671, p. 386.

نقلاً عن : - de Grammont, Ibid., p. 341.

3. G.P., Op. cit., p.82 .

4. ابن المفتي، المصدر السابق، ص. 88.

5. d'Arvieux, Op. cit., T. 5, p. 246.

6. Gleizes, Op. cit., p. 208.

7. Boyer, "**La révolution…**", Op. cit., p. 168.

8. d'Arvieux, Ibid, p. 111.

حسن شاوش هذا، و المعروف ببابا حسن، تولّى منصب الحاكم و كاهية الداي محمّد التريكي (1671-1682م)، ثمّ الدايلك (1682-1683م)، بعد تنّحي الداي محمّد عن السلطة.

9. Delphin, Op. cit., 1922, p. 205.

فيما يخصّ ظروف اغتيال الحاج علي آغا، انظر : ابن المفتي، نفس المصدر السابق، ص ص. 55 و 66. دفنت جثّة الحاج علي آغا بضريح في جبّانة الحاكم الّتي شادها لنفسه و لخلفائه بين سنتي 1669 و 1671م، قرب برج رأس تافورة : - Id., p. 205.

و أعقب الاغتيال فوضى عارمة في المدينة استمرت خمسة أيّام، تعقّب اليولداش خلالها أتباع الآغا المقتول، و قتلوا كلّ من لم يتمكّن منهم من الهرب[1] ؛ كما أمر ديوان الإنكشارية بمصادرة أموال علي آغا، فاقتحم الشوّاش داره و لمّا لم يجدوا شيئًا، عذّبت امرأته حتّى باحت لهم بالمكان الّذي خبّئ فيه المال[2].

و اجتمع الديوان من فوره لانتخاب خلفٍ للحاج علي آغا، و فعلاً تمّ ترشيح خمسة أو ستّة آغوات في ظرف ثلاثة أيّام[3]، إلاّ أنهم قتلوا جميعًا بعيد تعيينهم في خضم الفوضى السائدة ؛ و ذاك نتيجة الخلاف الشديد و التهافت على السلطة، الّذي طغى بين تحزّبات الأوجاق بشكل لم يسبق له مثيل[4]. و قد ترتّب عن ذلك أنّه لم تعد لأحد منهم رغبة في تولّي منصب الآغوية، الّذي أصبح من المؤكّد أنّ قبوله يؤدّي بصاحبه إلى موتٍ محقّق. و على هذا النحو انتهت فترة الآغوات، الّتي و إن دامت اثنا عشر سنة فقط، إلاّ أنّها كانت غنية بالأحداث و التحوّلات السياسية مثلما لم تشهده إيالة الجزائر ربمّا طيلة العهد العثماني بأكمله.

انظر أيضًا : الأرشيف الوطني الجزائري، سجلات البايلك، سجل 70، علبة 13- ب ؛ سجل 67، علبة 11- ب.

1. G.P., Op. cit., p. 81.

2. d'Arvieux, Op. cit., T. 5, p. 246.

انظر أيضًا : - Mercier, Op. cit., p. 274.

3. Mercier, Ibid., pp. 274-275 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 186.

4. دفن الآغوات الخمس (أو الستّ) في أضرحة مرّبعة أو مثّمنة الشكل تعلوها قبب بجبّانة الحاج علي الحاكم ؛ و ما جرى لهؤلاء الآغوات التعساء شكّل أساسًا لأسطورة الدايات السبع، الّتي أوردها "لوجييه دي تاسي" (Laugier de Tassy) لأوّل مرّة في عام 1724م بقوله (ص.221) : "**رؤي في يوم واحد مقتل ستّة دايات و انتخاب سبعة**"، غير أنّه لم يعط أسماءً أو تاريخًا تثبت مقاله. لذلك، شكّك المؤرّخون، و على رأسهم دي غرامون، في حقيقة الرواية و اعتبروها مجرّد أسطورة.

غير أنّ وجود الأضرحة يبقى شاهدًا على صحّة هذه الرواية التاريخية : فالرسّام الهولندي "نومس" المعروف بزيمان (Nooms/Zeeman)، الّذي رسم صورة جدّ جميلة لمدينة الجزائر في القرن السابع عشر، أشار إلى "مدفن للملوك". و أورد القنصل الفرنسي شارل فليب ڤالييه (Charles-Philippe Vallière) في مذكّراته : "**نرى حتّى الأن قبور سبع دايات دفنوا الواحد على أثر الآخر. و ليس فيها شيء يستلفت الانتباه**" ؛ و كذلك الأمر بالنسبة للقنصل الأمريكي وليام شالر (William Shaler) الّذي أشار أنّ : "**الإنسان يستطيع أن يشاهد في الجزائر قبور سبعة مغامرين أعلن انتخابهم ملوكًا و قتلوا جميعًا في نفس اليوم. و لإثبات مدى حظّهم من الاحتقار، دفنوا على قارعة الطريق**" ؛ كما عاين الرائد بوتان (commandant Boutin) في سنة 1808م، و كذلك النقيب روزيه (capitaine Rozet) في 1830م تلك الأضرحة، قبل أن تهدّم في بداية فترة الاحتلال. انظر :

- Laugier de Tassy, Op. cit., pp. 213-214 & 221 ; L. Chaillou, **L'Algérie en 1781. Mémoires du Consul C.-Ph. Vallière**, Toulon, 1974, p. 3, n. 4 ; Peyssonnel et Desfontaines, Op. cit., T. 1, p. 460 ; de Grammont, Ibid., p. 192.

- وليام شالر، **مذكّرات وليام شالر، قنصل أمريكا في الجزائر [1816-1824]**. تعريب و تعليق و تقديم إسماعيل العربي، ش.و.ن.ت.، الجزائر، 1982، ص ص. 44-45.

الفصل الثاني :

الأوجاق تحت حكم الدايات : فترة التثبيت الطويل (1671-1791م)

1. الأوجاق خلال بداية عهد الدايات (1671–1711م) : مرحلة ازدواجية الحكم

2. الأوجاق خلال أوج عهد الدايات (1711-1791م)

الفصل الثاني :

الأوجاق تحت حكم الدايات : فترة التثبيت الطويل (1671-1791م)

1. الأوجاق خلال بداية عهد الدايات (1671-1711م) : مرحلة ازدواجية الحكم

1-1. الفترة الأولى (1671-1689م) : فترة الدايات الريّاس

1-1-1. عهد الداي محمّد التريكي (1671-1682م)

بعد أن عجز أعضاء الديوان عن التوصّل إلى تعيين خلف للحاج علي آغا يكون كفؤًا لتوليّ الحكم و الخروج من الأزمة، اغتنم إسماعيل باشا هذه الفرصة السانحة، فأقام جهة الجنوب الشرقي غير بعيد من المدينة أوطاقه[1]، و نصب بجانبه الأطواغ (أذيل الخيل) الّتي ترمز إلى مكانته، و دعا الإنكشارية للالتفاف حوله ؛ و كان يسعى من وراء ذلك إلى أن تسند إليه مقاليد الحكم كما كان عليه الحال في عهود الولاة العثمانيين المتقدّمين[2].

بيد أنّ مبادرة إسماعيل الباشا باءت بالفشل، بسبب تحرّك طائفة الريّاس ؛ و كانت قد رشّحت من جهتها القبطان الحاج محمّد التريكي لحكم البلاد[3]. و وجد اقتراح الريّاس آذانًا صاغية لدى عددٍ من الأكابر في أوجاق الإنكشارية، فتوّجه جمع من الطرفين إلى دار الإمارة لتحرير القبطان السجين و عرض الأمر عليه ؛ فقبل التريكي العرض بتردّد، بعد أن اشترط أن يمنح مفاتيح القصبة و سلطة على كلّ شيء[4].

---

1. اوطاق أو اوتاق : لفظة عثمانية تعني "سرادق، خيمة واسعة" : - Barbier de Meynard, Op. cit., 1er vol., p. 134.

2. G.P., Op. cit., p. 81.

بخصوص عادة الولاة العثمانيين نصب الأوطاق و الأطواغ و ماهيّته، انظر : شالر، المصدر السابق، ص ص. 68-69.

- J.-M. de Venture de Paradis, **Alger au XVIIIe siècle**, éd. par E. Fagnan, Typographie Adolphe Jourdan, Alger, 1898, pp. 65 & 69 ; Hamdan Khodja, Op. cit., pp. 122-123 ; A. Devoulx, **Tachrifat. Recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne Régence d'Alger**, Imprimerie du Gouvernement, Alger, 1852, p. 7, n. 4 ; R. Mantran, "**L'évolution des relations entre la Tunisie et l'Empire Ottoman du XVIe au XIXe siècle. Essai de synthèse**", in : C.T. 26-27, 1959, p. 321.

3. Emerit, "**Un mémoire…**", Op. cit., p. 10 ; Boyer, "**La révolution…**", Op. cit., pp. 168-169.

4. G.P., Ibid, pp.82-83.

و وافق الديوان الّذي انعقد سريعًا في دار الإمارة على ذلك، و انتخب القبطان المذكور أوّل دايٍ[1] على الجزائر[2] ؛ كلّ ذلك جرى، حسبما ذكر القنصل الفرنسي ديبورديو (Dubourdieu)، في ظرفٍ لا يزيد عن الأربع ساعات[3].

و لم يمنح محمّد التريكي لقب آغا، لأنّه بصفته ريّسًا لم يكن ينتمي إلى سلّم التراتب العسكري للأوجاق[4]، كما أنّ هذا اللّقب فقد حظوته خلال فترة الفوضى الأخيرة ؛ و عوضًا عن ذلك، أعطي لقب داي، الّذي كان مستعملاً في إيالة تونس المجاورة[5]، إلى جانب لقب دولاتلي الشرفي و معناه "صاحب الدولة"، حيث اعتبر منصب الداي منصبًا مستحدثًا تمامًا بالنظر إلى الصلاحيات الموّسعة الّتي منح إيّاها. و لكون محمّد التريكي متقدّمًا في السنّ، فقد ألحق به الديوان صهره حسن، الّذي شغل حتّى فترة قريبة منصب شاوش، بصفة كاهية - أي صار نائبًا له - ؛ و أعطي لهذا الأخير لقب حاكم الّذي كان الحاج علي آغا قد اتّخذه من قبل[6]. و الجدير بالذكر أنّ السلطة الفعلية - بشهادة دبلوماسيين أوروبيين - كانت بيد حسن شاوش، الّذي سعى جهده لاسترضاء الإنكشارية، ممّا جعله يستحقّ لقب "بابا" في نظرهم[7] ؛

---

1. دايي بمعنى "خال، حامٍ" في اللّغة التركية. انظر :

- Barbier de Meynard, Op. cit., 1er vol., p. 729 ; **Redhouse Yeni Türkçe - Ingilizce Sözlük**, 8e éd., Redhouse Yayinevi, Istanbul, 1986, p. 276 ; Venture de Paradis, Op. cit., p. 98.

انفرد ڤنتور دي باراديس بالذكر أنّ كلمة داي أو دايي كانت تحمل لدى "أتراك الجزائر" أيضًا مدلول "الأكثر بسالة" و "بطل" ؛ و لم نجد هذا المعنى في أيٍّ من القواميس العثمانية الّتي رجعنا إليها : - Venture de Paradis, Ibid.

2. G.P., Op. cit., pp. 83-84 ; Boyer, "**Introduction…**", Op. cit., p. 308.

- مجهول، **تاريخ أمراء…**، المصدر السابق، و. 5 وْ ؛ ابن المفتي، المصدر السابق، ص. 55 ؛ قنان، **نصوص…**، المصدر السابق، ص. 106.

3. Gleizes, Op. cit., pp. 208-209 ; Delphin, Op. cit., 1922, pp. 204-205 ; G.P., Ibid., pp. 84-85.

4. كان القبطان الحاج محمّد التريكي ينتمي لأوجاق الإنكشارية حسب صاحب "**مذكّرة حول الحكومة الحالية لمملكة الجزائر (1681)**"، حيث ورد أنّ "**الداي ليس له مورد سوى معاشه كضابط قديم، أي مبلغ مائة و ستّة قروش في السنة، و هو أعلى مرتّب يمكن تقاضيه في الجزائر**" : - A.E.P./M.D. Algérie XV.

نقلاً عن : قنان، نفس المصدر السابق، ص ص. 105-106. انظر أيضًا : سامح التر، المرجع السابق، ص. 415.

و الجدير بالذكر أنّه بعد عودته مريضًا من منفاه الطرابلسي في صيف 1689م أعيد تسجيل "**حاجي محمد تريكي دولتلو سابقا**" تكرّمًا في أوجاقه الأصلي رقم 253، حيث تلقّى علوفتين قبل وفاته : **دفتر مواجبات يكيچريان جزاير غرب**، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 1960، و. 188ظ ْ.

5. حسين خوجة، **ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان**، تحقيق و تقديم الطاهر المعموري، الدار العربية للكتاب، تونس، 1975، ص. 25.

6. ابن المفتي، نفسه ؛ عمر حرفوش، **الإدارة الجزائرية في العهد العثماني : الإدارة المركزية نموذجًا**، ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2009، ص. 161.

7. d'Arvieux, Op. cit., T. 5, pp. 247-248 ; Hees, Op. cit., pp. 108-112.

و بعد تنّحي الداي محمّد عن السلطة، تولّى المذكور - الّذي لم يكن ينتمي لطائفة الريّاس - "الدايلك" في سنة 1682م.

رأى بعض المؤرّخين في اعتلاء القبطان سدّة الحكم - و الفترة الأولى من عهد الدايات عمومًا - انتصارًا لطائفة الريّاس على أوجاق الإنكشارية[1] ؛ و تلك الفرضية تدحضها مجريات الأحداث المذكورة أعلاه[2]، بالإضافة إلى عدّة مؤشّرات نذكر منها مثلاً وصف الداي - الّذي ورد في إحدى وثائق المحكمة الشرعية - على أنّه "**المنتصب بالبلد المذكور بأمر العسكر المنصور في مصالح البلاد و العباد، و هو المعظم المرعي المفخم الناسك الأبرّ أبو عبد الله السيّد الحاج محمّد الدولاتلي بالبلد المسطور وقت التاريخ شهر التريكي**"[3]، أو من جانب آخر، تسجيلنا لما يقرب من مئة ريّس في دفتر إنكشارية عائد لمطلع القرن الثاني عشر للهجرة، ممّا يعتبر دليلاً دامغًا على تداخل مصالح الأوجاق و طائفة الريّاس[4].

أمّا فيما يخصّ تولّي القبطان حسين ميزومورطو (1683-1686م) - و من بعده الريّس إبراهيم خوجة (1686-1689م) - منصب الداي، فهو راجعٌ بشكلٍ أساسي إلى تأزّم العلاقات مع فرنسا، بسبب السياسة العدائية الّتي انتهجها ملكها تجاه "الدول البربرية" منذ سنة 1661م، مثلما رأينا في الفصل السابق[5].

فبسبب تلكؤها عن إعادة نحو خمسين من الأسرى الجزائريين، في حين أوفى الطرف الجزائري بالتزاماته و أطلق سراح جميع الأسرى الفرنسيين، أعلن الديوان الحرب على فرنسا في شهر أكتوبر 1681م ؛ و في ظرف بضعة أشهر، استولى الريّاس على 22 سفينة و نحو ثلاثمائة أسير[6]. و نتيجة لذلك، قرّر لويس الرابع عشر شنّ حملة على الجزائر، عهد بقيادتها لأبراهام دوكين (Abraham du Quesne) ؛ هذا الأخير عرّج في طريقه على شرشال يوم 25 يوليو 1682م حيث أحرق مركبين، ثمّ قصد مدينة الجزائر الّتي قصفها بشكل متقطّع في غضون شهر و نصف، لكن دون أن يحقّق النتائج المرجوة[7].

---

1. سبنسر، المرجع السابق، ص. 89 ؛ الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 177 و ما بعدها ؛ غطّاس، **الدولة...**، المرجع السابق، ص ص. 54-55. - de Grammont, **Histoire d'Alger...**, Op. cit., pp. 186-187.

2. انظر أيضًا في هذا الصدد : - Boyer, "**Des Pachas triennaux...** ", Op. cit., p. 106, n. 1.

3. الأرشيف الوطني الجزائري، سلسلة المحاكم الشرعية : علبة 45-1، وثيقة 14.

4. **دفتر مواجبات...**، المصدر السابق، رقم 1960. انظر الملحق رقم 52.

5. انظر أيضًا في هذا الصدد العنصر الخاصّ بالطوائف البحرية في المبحث الأوّل من الفصل السادس.

6. انظر المبحث الثالث الخاصّ بفترة الآغوات من الفصل السابق. الجدير بالذكر أنّ الدول البربرية (Les États Barbaresques ou Barbarie) هي التسمية الّتي عرفت بها الدول الشمال إفريقية الواقعة غرب مصر : المغرب الأقصى، الجزائر، تونس و طرابلس الغرب.

6. de Grammont, "**Relations...** ", Op. cit., 1885, p. 162 ; L. Merouche, **Recherches sur l'Algérie à l'époque ottomane : II. La course, Mythes et réalités**, Éditions Bouchène, Paris, 2007, p. 234.

7. انظر : سامح التر، المرجع السابق، ص ص. 420-422 ؛ الجيلالي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 192 ؛ الميلي، نفس المرجع السابق، ص ص. 186-187 ؛ عبّاد، المرجع السابق، ص. 142.

1-1-2. عهد الداي حسن شاوش (1682-1683م)

تباينت آراء المؤرّخين في سبب تنحّي التريكي و تاريخ توليّ بابا حسن دايًا[1] ؛ و المؤكّد أنّ حكم الأوّل استمرّ على الأقلّ حتّى أوائل شهر سبتمبر 1682م[2]، أي إلى الأيّام الأخيرة من حملة دوكين على الجزائر. و نستشفّ من هذا السياق أنّ الأمر كان مرتبطًا على الأرجح باختلاف الرؤى بين الداي المسنّ و صهره بخصوص طريقة التعامل مع الأعداء الفرنسيين، مع استبعادنا أن يكون هذا التغيير في سدة الحكم عبارة عن انقلاب، بل بالأحرى قرار تنازل تمّ ترسيمه في جلسة للديوان ؛ و الدليل على ذلك، هو أنّ الداي المتنحّي سمح له بالبقاء في الجزائر[3].

و في أواخر يونيو 1683م، أعاد دوكين الكرّة على مدينة الجزائر بأسطول أكبر و أحسن تجهيزًا. و بعد يومين من القصف العنيف الّذي خلّف خسائر فادحة في الممتلكات و الأرواح، أوفد الداي بابا حسن مفاوضًا يلتمس الصلح ؛ فأملى دوكين كشرطٍ مسبّق قبل بدء أيّة مفاوضات إطلاق سراح جميع الأسرى الفرنسيين مانحًا مهلة أربعة و عشرين ساعة[4]. أذعن الداي للإملاءات الفرنسية متأثرًا من جهة بالدمار الّذي حاق بالمدينة و بقصره على وجه الخصوص، و من جهة أخرى بإيعاز من إسماعيل باشا المتحيّز

- Anne-Hilarion de Costentin de Tourville, **Mémoires du maréchal de Tourville, vice-amiral de France, et général des armées navales du roi**, T. 2, Amsterdam, 1758, pp. 180-196 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., pp. 206-207 ; M. Belhamissi, **Marine et marins d'Alger (1518-1830)**, T. 2, B.N.A., Alger, 1996, pp. 55-57.

1. ابن المفتي، المصدر السابق، ص. 55 ؛ سامح التر، المرجع السابق، ص ص. 420-421 ؛ الجيلالي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 192 ؛ الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 187.

- Delphin, Op. cit., 1922, p. 205 ; de Grammont, "**Relations…** ", Op. cit., 1885, p. 5.

2. يتبيّن لنا ذلك أوّلاً من إرسال الداي محمّد التريكي و كاهيته حسن شاوش مكتوبًا في شهر يونيو 1682م يطالبان فيه الأقاليم المتّحدة التعجيل بإيفاد فدية الأسرى، و يعبّران عن خيبة أملهما من قلّة المراكب التجارية الهولندية الّتي ترد ميناء الجزائر ؛ و ثانيًا، أنّه عند عودة المبعوث الهولندي هيس (Hees) إلى الجزائر بتاريخ 17 أكتوبر من نفس السنة، أخبره مواطنه اليهودي جاكوب ده پاز (Jacob de Paz) أنّ بابا حسن قام بتنحية الحاج محمّد مؤخّرًا : - Krieken, Op. cit., pp. 73-74.

من جهة أخرى، يذكر قائد العمارة دي تورڤيل في مذكّراته، أنّه بعد فشل خرجة الريّاس لإبعاد قطع الأسطول الفرنسي عن المدينة يوم 3 سبتمبر، أرسل الداي و "أعيان المدينة" القنصل الفرنسي لوڤاشي (Le Vacher) اليوم التالي إلى دوكين بشأن ترتيبات الصلح ؛ و عند بيان القنصل المذكور لما حدث بالمدينة خلال القصف، لم يشر قطّ إلى أيّ تغيير في الحكم : - de Tourville, Op. cit., T. 2, pp. 194-195.

3. يذكر ابن المفتي في هذا الصدد أنّه تمّ نفي التريكي إلى طرابلس سنة 1094هـ (1683م)، بعد مقتل صهره بابا شاوش بإيعاز من حسين ميزومورطو : ابن المفتي، نفسه. انظر أيضًا : - Emerit, "**Un mémoire…**", Op. cit., p. 11 ; de Tourville, Op. cit., T. 3, p. 51.

و الراجح أنّ السبب وراء قرار النفي هو تخوّف الداي حسين من النفوذ الّذي احتفظ به التريكي لدى طائفتي الإنكشارية و الريّاس على السواء.

4. Plantet, **Correspondance des deys…**, Op. cit., T. 1, p. 84 ; de Grammont, Ibid., p. 9.

للفرنسيين[1] ؛ و هكذا تمّ تحرير نحو 546 من الأسرى الفرنسيين و الأجانب، الّذين أسروا على متن السفن الفرنسية خلال خمسة أيّام[2].

بعد أسبوعين من المفاوضات، اشترط أثناءها المركيز دوكين على الجزائريين دفع تعويضات ثقيلة عن خسائر الحرب، فيما لم يعر اهتمامًا لمطالب إطلاق سراح الأسرى الجزائريين، كانت المدينة الّتي رجحت عند سكّانها حينئذٍ كفّة الحرب في حالة ترقّب[3].

و اغتنم القبطان رايس الحاج حسين ميزومورطو الّذي كان رهينة لدى الفرنسيين هذه الفرصة، فألمح لدوكين بأنّه "**سيفعل في ظرف ساعة ما عجز عنه الداي خلال خمسة عشر يومًا**"[4]، وتمكّن من إقناعه بإطلاق سراحه واعدًا إيّاه بأنّه "**مع النفوذ الّذي يتمتّع به لدى المليشيا، سيتوصّل إلى استرداد ما رفضوه له... و حالما تحدّث ميزومورطو مع بابا حسن، توجّه إلى الثكنات لشرب القهوة مع الجنود. و بما أنّ أغلبيتهم كانت تناصره، فإنّه لمّح لهم بحذق بأنّ الداي لا يستأهل الحكم عليهم، و أنّه شان البلاد بإعادته الأسرى** [الفرنسيين]، **بينما لم يعد لهم السيّد دوكين أسراهم ؛ و لقد أغاظ هذا الخطاب مزاج الطائفة إلى حدّ أنّهم صمّموا على قتل بابا حسن. فخرجوا** [من ثكناتهم] **إلى المدينة زمرًا زمرًا، و حوالي العاشرة ليلاً، أطلق ثمانية منهم عليه أربعة طلقات نارية، عندما كان عائدًا من البرج** (برج الفنار)، **و أردوه قتيلاً. على الفور، رفعت كلّ الطائفة بالإجماع ميزومورطو على العرش**"[5].

---

1. انظر بهذا الخصوص مراسلات إسماعيل باشا مع البلاط الفرنسي :

- Plantet, **Correspondance des deys…**, Op. cit., T. 1, pp. 103-105 & 159-162.

2. de Tourville, Op. cit., T. 2, pp. 217-218 ; de Grammont, "**Relations…** ", Op. cit., 1885, p. 9.

3. انظر بهذا الخصوص رواية محمّد بن رقية التلمساني في : قنان، **نصوص...**، المصدر السابق، ص ص. 116-117.

4. de Grammont, Ibid., p. 10.

5. de Tourville, Ibid., p. 266.

هذه الرواية الدقيقة للأحداث كلّف الداي الجديد الرهينة الفرنسي دُه لاييت (de Layette) بنقلها لدوكين ؛ و هي تظهر لنا بشكل جلي أنّ حسين ميزومورطو اعتمد على نفوذه لدى طائفة الإنكشارية للإطاحة بالداي بابا حسن، و أنّه انتخب دايًا بالإجماع في جلسة استثنائية للديوان انعقدت ليلاً بقصر الإمارة : - Id.

و تجدر الإشارة إلى أنّ دي تورڤيل استخدم مصطلح "طائفة" أوّلاً للإشارة إلى أوجاق الإنكشارية كما يدلّ عليه سياق النصّ (المليشيا - الثكنات - الجنود)، و المرّة الثانية بمعنى "ديوان" المخوّل وحده لانتخاب الداي ؛ و هو ما يوافق رواية ابن رقية التلمساني الّذي أشار في هذا الصدد إلى أنّ عند "**سماع المسلمين بموته فرحوا فرحًا شديدًا، و نصّبوا مكانه باتفاق أهل الحلّ و العقد كبيرهم و صغيرهم الحاج حسين رايس ميزومورطو**". نقلاً عن : قنان، نفس المصدر السابق، ص. 117.

انظر أيضًا : - Plantet, Ibid., pp. 192-193 ; Devoulx, « **La marine…** », Op. cit., p. 405.

1-1-3. عهد الداي حسين ميزومورطو (1683-1685م)

فور توليّ الحاج حسين ميزومورطو[1]، أعلن أنّه لن يتفاوض تحت وابل القنابل و استعدّت المدينة للمقاومة حتّى النهاية ؛ و بعد فترة وجيزة استأنف الفرنسيون قصفهم حتّى نفذت ذخيرتهم في الأيّام الأولى من أكتوبر، و قفلوا عائدين - دون أن يصلوا إلى مبتغاهم - قانعين بالدمار الّذي خلّفوه و الأسرى الّذين حرّروهم[2].

و في شهر أبريل 1684م، عاد دي تورڤيل على رأس عمارة كبيرة مصطحبًا معه قپوجي باشي مندوبًا للباب العالي، الّذي سعى جهده لحمل الداي على إبرام الصلح دون جدوى، بيد أنّ الهدايا و الإكراميات الّتي وزّعها الفرنسيون على الباشا و بعض مقرّبي الداي أفلحت بصورة أفضل ؛ و على إثرها، تمّ توقيع معاهدة السلم كان من المفروض أن تدوم مائة سنة، غير أنّه لم يعمل بها طويلاً بسبب تجدّد الخلافات بين البلدين[3].

الجدير بالذكر أنّ الحاج حسين ميزومورتو مثله مثل الحاج محمّد التريكي انتمى إلى أوجاق الإنكشارية، حيث انتسب إلى الأوجاق رقم 120 : **دفتر مواجبات...**، المصدر السابق، رقم 1960، و. 108ظ.

في نفس الصدد، ذكر مصدر فرنسي على أنّه "**حاجي حسين المعروف تحت اسم ميزومورت**(كذا)، **أحد** [أفراد] **الميليشيا الأكثر اعتبارًا...**" : - Anonyme, **Relation de ce qui s'est passé dans les negotiations(sic) de la Paix, concluë au nom du Roy, par le Chevalier de Tourville, avec le Bacha, le Dëy, le Divan, & la milice d'Alger**, Jean Boude le Jeune, Toulouse, 1684, p. 1.

نميل إلى الاعتقاد أنّ أحد دوافع حسين ميزومورتو للانقلاب على الداي المتوليّ هي الضغينة الّتي كان يكنّها له، بسبب معاقبته قبل سنوات - عندما كان بابا حسن كاهية الداي التريكي و الشخصية الأكثر تنفّذًا في الديوان - بخمسمائة ضربة فلقة بتهمة التهاون في وظيفته كرايس. انظر :

- Thomas Shaw, **Voyage dans la régence d'Alger ou description géographique, physique, philologique, etc., de cet état**, trad. de l'anglais par J. MacCarty, Marlin, Paris, 1830, p. 198.

1. رغم تلقيبه ميزومورتو، الّتي تعني "نصف ميّت" باللغة الفرنكية، إلاّ أنّ الحاج حسين لم يكن علجًا إيطاليًا، بل تركيًا عثمانيًا ولد في إسطنبول : - d'Arvieux, Op. cit., T. 5, p. 127 ; Merouche, **La course...**, Op. cit., p. 203.

و عرف بذلك اللقب لأنّه أصيب في شبابه بثمانية عشر جرحًا حتّى ظنّوه ميّتًا، فهمّوا برميه في البحر ؛ لكنّه استفاق في آخر لحظة و تعافى بعد ذلك تمامًا : سامح التر، المرجع السابق، ص. 424، ه. 1. و للعلم، فإنّ اللغة الفرنكية (lingua franca) كما عرّفها شالر هي "**خليط من الإسبانية و الفرنسية و الإيطالية و العربية، [و] هي واسطة الاتّصال عادةً بين الأجانب و الأهالي.**" : شالر، المصدر السابق، ص. 39.

2. قنان، **معاهدات...**، المرجع السابق، ص. 112 ؛ الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص ص. 188-189.

- de Grammont, "**Relations...** ", Op. cit., 1885, p. 163 ; Mercier, **Histoire de l'Afrique**..., Op. cit., p. 296.

3. قنان، **معاهدات...**، نفس المرجع السابق، ص ص. 113-135 ؛ قنان، **نصوص...**، المصدر السابق، ص. 118. انظر أيضًا :

- A. Jal, **Abraham du Quesne et la marine de son temps**, T. 2, Henri-Plon, Paris, 1873, p. 492 ; de Grammont, Ibid., p. 164 ; Plantet, **Correspondance des deys...**, Op. cit., T. 1, p. 162.

- رحمونة بليل، "**السفارات الجزائرية نحو فرنسا في القرن السابع عشر من خلال وثائق أرشيفية**"، في : م.ت.ع.د.ع. 47، 2013، ص ص. 145-147.

1-1-4. عهد الداي إبراهيم خوجة (1685-1688م)

في خريف عام 1685م، تلّقى الحاج حسين ميزومورطو من الباب العالي "قفطان الباشوية" و فرمان تعيينه بايلرباي على الجزائر بناءً على طلبه[1] ؛ أمّا إسماعيل باشا، فقد تمّ تكليفه بولاية طرابلس الغرب[2]. و لمّا لم يكن الديوان ليسمح بأن يجتمع منصبي الداي و الباشا بيد شخصٍ واحد، فإنّ الحاج حسين باشا وجد نفسه مضطرًّا إلى التخلّي عن "الدايلك" بمجرّد عودة كاهيته السر عسكر[3] إبراهيم خوجة من حملة قادها إلى تونس، قصد فضّ النزاع بين أمراء الأسرة المرادية المتصارعين على الحكم[4].

بعد أن جرى تبادل الأسرى المنصوص عليه في معاهدة سلم أبريل 1684م، تحقّق الجزائريون من تملّص الفرنسيين عن إعادة جميع الأسرى، حسبما تشير إليه عدّة مراسلات رسمية حول الموضوع، و بالأخصّ رسالة موجّهة من قبل الديوان إلى الملك الفرنسي لويس الرابع عشر بتاريخ 21 سبتمبر 1686م جاء فيها : "**...الحال أنّنا ننتظر أن تقوم جلالتكم بالمثل، بمنحنا بعضًا من** [أفراد] **مليشيتنا لا يزالون محتجزين على متن قادرغاتكم، وفق اللائحة الّتي أرسلنا منها** [نسخة] **إلى المركيز دُه سَنْيوليه** (Marquis de Seignelay)**، و المستخرجة من سجلنا الكبير الخاصّ بجنود الراتب ؛ يتعلّق الأمر بأربعة أتراك مخلصين. و إذا كان سفراؤنا لم يستردّوهم، فالسبب عائد إلى مكر قباطنة قادرغاتكم الّذين أخفوهم كي لا يفقدوهم**"[5].

---

1. Emerit, "**Un mémoire…**", Op. cit., p. 12 ; de Grammont, "**Relations…** ", Op. cit., 1885, pp. 164-165.

ضبطنا على وجه التقريب تاريخ تعيين ميزومورطو بايلربايًا على الجزائر بالرجوع إلى آخر رسالة بصفته دايًا موجّهة إلى قائم مقام القوّات البحرية الفرنسية و مؤرّخة في شهر مارس 1685م، و أوّل رسالة بصفته باشا موجّهة إلى كاتب الدولة للبحرية الفرنسية و مؤرّخة في يناير 1686م :

- Plantet, **Correspondance des deys…**, Op. cit., T. 1, pp. 110-117.

2. سامح التر، المرجع السابق، ص. 428.

3. سر عسكر : لقب كان يطلق لدى الأتراك العثمانيين على القائد الأعلى لفرق جيش إقليم (إيالة)، تحت إمرته أمراء ألوية (بكوات أو بايات). انظر :

- Kieffer & Bianchi, Op. cit., T. 1, pp. 663-664.

4. P. Lucas, **Voyage du sieur Paul Lucas dans la Grèce, l'Asie Mineure, la Macédoine et l'Afrique, suivi d'un mémoire pour servir à l'histoire de Tunis depuis 1684**, t. II, Nicolas Simart, Paris, 1712, pp. 144-146 ; A. Rousseau, **Annales tunisiennes ou aperçu historique sur la régence de Tunis**, Bastide, Alger, 1864, pp. 68-72.

يذكر ابن المفتي عن الحاج حسين ميزومورطو : "**تقلّد هذا منصبين مجتمعين بين يديه : منصب الداي و منصب الباشا سنة 1096هـ** (الموافقة لسنة 1685م)" : نفسه، ص ص. 56 و 71. و هذا القول غير صحيح تمامًا كما يتبيّن لنا من مجموعة المراسلات المتبادلة بين حاكمي الجزائر المذكورين و البلاط الفرنسي :

- Plantet, Ibid., pp. 105-147.

و في الواقع، ظلّ حسين باشا ممسكًا بالسلطة الفعلية بعد تخلّيه عن "الدايلك" حتّى نهاية فترة حكمه. انظر في هذا الصدد : سامح التر، نفس المرجع السابق، ص. 426.

5. Plantet, Ibid., p. 122.

و خلال سنة 1687م، تزايدت خروقات الجانب الفرنسي بشكلٍ ملفت ينذر بتجدّد الحرب، حيث استولىّ الجزائريون على سفينة مشبوهة قرب سواحلهم في مارس من ذات السنة، تبيّن أنّها سفينة بندقية منحت عمدًا جوازًا فرنسيًا، و كانت مهمّتها التجسّس على الأسطول الجزائري لدّى خروجه لملاقاة الأسطول العثماني بحيث يسهلّ ترصّده في الطريق و الإيقاع به[1]، مثلما حدث على الأقلّ مرّتين خلال حرب كانديا[2] ؛ كما ازداد ارتياب الريّاس عندما أخذوا يعثرون على جوازات فرنسية لدى سفن عائدة لدول عدوة للجزائر[3].

و خلال الصيف، أرسلت عمارة بقيادة دي تورڤيل لمطاردة السفن الجزائرية بذريعة ارتكابها أعمال قرصنة ضدّ المراكب الفرنسية ؛ و تمكّنت من إغراق ثلاثة سفن قرب سبتة و إجبار سفينتين أخريين على الجنوح عند السواحل الجنوبية لجزيرة سردينيا[4]. و الحقيقة أنّ لويس الرابع عشر المتتبّع لوقائع الحرب بين الدولة العثمانية و "الحلف المقدّس"[5]، كان يريد بدافع التعصّب الديني أن يدلي بدلوه في تلك الحرب المقدّسة عبر مهاجمة "البربريين".

و عليه، انفجر الوضع المحتقن عندما علم الديوان أنّ السلطات الفرنسية ألزمت سفنها التجارية بالتسلّح، و وعدت أصحابها بمكافأة لكلّ من يأسر سفينة جزائرية أو يغرقها ؛ فتمّ احتجاز القنصل الفرنسي و أفراد الجالية لحمايتهم من الدهماء، بينما تمّ نهب مقر القنصلية، و بيعت إحدى عشر سفينة فرنسية كانت موجودة بميناء الجزائر مع حمولتها[6].

انظر أيضًا : قنان، **نصوص...**، المصدر السابق، ص ص. 119 و 122.

- Id., pp. 117, n. 1 & 123-125.

1. Plantet, **Correspondance des deys…**, Op. cit., T. 1, pp. 138-139.

- Merouche, **La course…**, Op. cit., p. 204.

انظر أيضًا : عبّاد، المرجع السابق، ص. 143.

2. محرز، المرجع السابق، ص ص. 66-67.

3. قنان، **معاهدات...**، المرجع السابق، ص. 133.

4. de Tourville, Op. cit., T. 3, pp. 65-68.

5. الحلف المقدّس هو اسم تحالف مسيحي ضدّ الدولة العثمانية أنشئ إثر الحصار الثاني لفيينا عام 1683م، و ضمّ النمسا، البندقية، بولندا (لهستان في المصادر العثمانية) و روسيا ؛ و لم تنتهِ الحرب (1683-1699م) - الّتي تعرف في التاريخ العثماني بـ "سنوات المصيبة" - إلاّ مع نهاية القرن بمعاهدة كارلوفيتز، الّتي فقد العثمانيون على إثرها أقاليم المجر، الأردل (ترانسيلفانيا)، بودوليا (غرب أوكرانيا) و المورة : أوزتونا، المرجع السابق، مج. 1، ص ص. 542-586.

6. de Grammont, "**Relations…** ", Op. cit., 1885, p. 165 ; Merouche, Ibid., p. 235.

و مثلما كان متوقّعًا وصلت حملة بقيادة ديستري (D'Estrées) قبالة مدينة الجزائر في مطلع شهر يوليو 1688م، و شرعت مباشرةً في إطلاق القنابل ؛ و قد ألحق القصف بالمدينة أضرارًا كبيرة، حيث استمرّ طيلة خمسة عشر يومًا، و وصل عدد القذائف إلى حوالي عشرة آلاف و أربعمائة و عشرين[1]. عاد الداي إبراهيم خوجة على وجه السرعة إلى الجزائر الّتي بلغه تعرّضها للقنبلة، بعد أن ترك معظم قوّاته المحاصرة لوهران[2].

بُعيد مغادرة الأسطول الفرنسي خائبًا، وصل إسماعيل باشا الّذي تمكّن، بفضل تدخّل سفير فرنسا لدى الباب العالي، أن يعيّن مجدّدًا بايلرباي على الجزائر[3]. غير أنّ حسين ميزومورطو منعه من مغادرة السفينة، و هدّده باستهدافها بنيران المدفعية إن هو لم يعد أدراجه في الحال ؛ فانسحب إسماعيل إلى تيطوان المغربية حيث راسل ملك فرنسا يستجديه التدخّل لصالحه، واعدًا إياه بكونه سيعمل كلّ ما بوسعه لإعادة إقرار السلم بين البلدين[4]. و من جهتهم، راسل أعيان الجزائر بإيعاز من حسين باشا الباب العالي، حيث بيّنوا أنّهم غير راضين على تعيين الباشا السابق و عبّروا عن رغبتهم في إقرار ميزومورطو ؛ فقبل السلطان طلبهم، و صدر فرمان همايوني بإبقاء المذكور في منصبه[5].

شهود الداي إبراهيم خوجة لمظاهر استياء الإنكشارية[6]، جرّاء تعنّت موقف حسين ميزومورطو تجاه الأزمة من جهة و طريقة معاملته للبايلرباي السابق إسماعيل باشا من جهة أخرى، جعلاه يتخوّف من سوء عاقبة الاستبداد بالرأي و تجاوز سلطة الديوان، و من أن يلاقي نفس مصير الداي السابق بابا حسن ؛ لذلك، حاول الإطاحة بميزومورطو مع نهاية سنة 1688م، لكن فشله اضطرّه إلى الفرار إلى تونس، حيث رحّب به بايها المرادي محمّد في البداية، قبل أن يطرده إلى طرابلس الغرب[7].

---

1. de Tourville, Op. cit., T. 3, pp. 90-91 ; Belhamissi, **Marine…**, Op. cit., T. 2, pp. 58-59.

انظر أيضًا : ابن المفتي، المصدر السابق، ص. 68 ؛ قنان، **معاهدات…**، المرجع السابق، ص. 137.

2. C.X. de Sandoval, "**Les inscriptions d'Oran et de Mers-El-Kebir. Notice historique sur ces deux places depuis la conquête jusqu'à leur abandon en 1792**", trad. par Dr. Monnereau, in : R.A. 16, 1872, pp. 60-62.

انظر أيضًا : المدني، **حرب…**، المرجع السابق، ص ص. 433-434 ؛ عبّاد، المرجع السابق، ص. 145.

3. قنان، نفس المرجع السابق، ص. 145.

4. Plantet, **Correspondance des deys…**, Op. cit., T. 1, pp. 159-162 ; H.D. de Grammont, "**Lettre d'Ismaël Pacha à Louis XIV (1688)**", in : R.A. 28, 1884, pp. 68-73.

- ابن المفتي، نفس المصدر السابق، ص. 63 ؛ الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 193.

5. سامح التر، المرجع السابق، ص. 428.

6. صادف أنّ العديد من الإنكشاريين العائدين من حصار وهران، الّذي قاده إبراهيم خوجة، وجدوا دورهم مدمّرة و أسرهم مشتّتة، الشيء الّذي ولّد تذمّرًا و غليانًا في صفوفهم : - de Grammont, "**Relations…** ", Op. cit., 1885, p. 168.

7. Emerit, "**Un mémoire…**", Op. cit., p. 12 ; Lucas, Op. cit., T. 2, pp. 182-184.

1-1-5. نهاية فترة الدايات الريّاس : وصاية الحاج حسين باشا (1689م)

في هذا الظرف فقط، أي ابتداءً من مطلع سنة 1689م تقريبًا - و ليس كما ذكر ابن المفتي أنّه كان سنة 1096هـ الموافق لـ 1686م -، استطاع ميزومورطو مؤقّتًا أن يجمع بين يديه صلاحيات الداي و لقب البايلرباي أو الباشا[1].

و في الأثناء، نشّط الحاج حسين ميزومورطو عمليات القرصنة ضدّ التجارة و السواحل الفرنسية في البحر المتوسّط بشكلٍ غير مسبوق ؛ و وجدت فرنسا نفسها مهدّدة في تجارتها المربحة مع الشرق من جهة، و في وضع حسّاس بسبب تجدّد حروبها الأوروبية من جهة أخرى، ممّا جعل مجلسها الملكي يؤثر السلم مع الجزائر[2].

و توصّل المفوّض الفرنسي مارسيل إلى إبرام معاهدة السلم مع ميزومورطو في 24 سبتمبر 1689م[3]، بيد أنّ المفاوضات غير العلنية الّتي جرت بمنأى عن إشراف الديوان، أثارت حفيظة الإنكشارية خاصّةً بعدما خامرهم الشكّ في أنّ الباشا أخفى بعض ترتيبات المعاهدة ؛ و ممّا زاد في حراجة موقف المذكور عدم ثقة الريّاس و عموم سكّان المدينة في التزام طرفٍ لا تؤمن بوائقه[4].

و بعد ثلاثة أيّام، تفاقم الوضع بعودة جنود المحلّة، الّتي وجّهها الحاج حسين ميزومورطو إلى تونس، لمعاقبة حاكمها محمّد باي على إيوائه غريمه إبراهيم خوجة، و كانوا قد ثاروا في الطريق رافضين المضي قدمًا ؛ و بعد أن عسكروا في عين الربط، أرسلوا للديوان يطالبون برأس الحاج حسين بصخب. هذا الأخير حاول للوهلة الأولى جمع أنصاره لمقاومة الثائرين، لكن إدراكه سريعًا استحالة ذلك جعلته

انظر أيضًا : إبراهيم السعداوي، "**أسباب التوتّر بين أتراك الجزائر و حكّام تونس خلال العهد العثماني**"، في : م.ت.ع.د.ع. 37-38، 2008، ص. 128.

1. ابن المفتي، المصدر السابق، ص. 56. انظر أيضًا : غطّاس، **الدولة...**، المرجع السابق، ص. 57.

هذا ما يفسّر على الأرجح - كما سنرى - تعاظمه عن إشراك الديوان في تفاصيل مفاوضاته مع الطرف الفرنسي غضون السنة المذكورة. و ما يعزّز هذا الطرح هو ورود اسم المذكور منفردًا في عنوان دفتر مواجبات الإنكشارية الّذي استهلّ في تحريره في شهر ربيع الثاني 1100هـ الموافق لينابر 1689م : **دفتر مواجبات...**، المصدر السابق، رقم 1960، و. 4ظ.

2. de Grammont, "**Relations...** ", Op. cit., 1885, pp. 168-169.

انظر أيضًا : - Anonyme, **Extrait d'une lettre escrite d'Alger, le 24 avril, 1689**, s.l., 1689, pp. 2-3.

3. سامح التر، المرجع السابق، ص. 431. - de Grammont, **Histoire d'Alger...**, Op. cit., p. 213.

انظر النصّ الجزئي للمعاهدة في : قنان، **نصوص...**، المصدر السابق، ص ص. 122-126.

4. قنان، **معاهدات...**، المرجع السابق، ص ص. 143-144 ؛ الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص ص. 193-194 ؛ جون ب. وولف، **الجزائر و أوروبا 1500-1830**، ترجمة و تعليق د. أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر، 2009، ص. 359.

انظر أيضًا : - Plantet, **Correspondance des deys...**, Op. cit., T. 1, pp. 169 & 186, n. 1.

يفضّل التخلّي عن منصبه و النجاة بحياته هاربًا على فرقاطة يملكها إلى طرابلس الغرب، حيث توجّه من هناك إلى الآستانة[1].

1-2. الفترة الثانية (1689-1711م)

1-2-1. عهد الداي شعبان خوجة (1689-1695م)

كخلفٍ للحاج حسين ميزومورطو، قام الديوان بانتخاب الحاج شعبان خوجة، الّذي تزعّم التمرّد دايًا في 28 سبتمبر 1689م[2] ؛ و بتعيينه انتهى دور إسناد الدايلك إلى أفرادٍ من الأوجاق منتسبين إلى طائفة الريّاس[3]. و لقد حرص هذا الداي بالمقام الأوّل على إقرار معاهدة السلم مع فرنسا ؛ لكن مشكل الأسرى الجزائريين المحتجزين في فرنسا سيظلّ عالقًا لسنوات، على الرغم من ترتيبات المعاهدة المتعلّقة بالأسرى و جهود الداي المتواصلة[4]، حيث أرسل لأجل ذلك سفارتين إلى باريس قاد أولاها

---

1. de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 214 ; Emerit, "**Un mémoire…**", Op. cit., p. 12 ; Rousseau, **Annales…**, Op. cit., p. 72 ; Lucas, Op. cit., T. 2, p. 182 ; Merouche, **La course…**, Op. cit., p. 204.

- ابن المفتي، المصدر السابق، ص. 56 ؛ الجيلالي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 201.

2. Delphin, Op. cit., 1922, p. 205 ; Plantet, **Correspondance des deys…**, Op. cit., T. 1, p. 176.

انظر أيضًا : غطّاس، **الدولة…**، المرجع السابق، ص. 56.

و تجدر الإشارة إلى أنّه، في مطلع ربيع عام 1690م، أرسل الباب العالي الحاج مصطفى باشا بايلربايًا على الجزائر : Emerit, Ibid. -

3. خلاف ما أوردته العديد من المراجع من كون الحاج شعبان بن امحمد ريّسًا، لم نجد في المصادر و الوثائق الأرشيفية الّتي اطلعنا عليها ما يؤيّد ذلك، سوى أنّه كان "علاّم"، أي من فئة العلماء، و ينتمي إلى الأوجاق رقم 139 : **دفتر مواجبات…**، المصدر السابق، رقم 1960، و. 119ظ ؛ **سجل البايلك**، ميكروفيلم بالأرشيف الوطني الجزائري رقم 68، علبة 12-ب، 1081-1087هـ/1671-1676م ؛ رقم 250، علبة 30، 1066-1093هـ/1656-1682م.

- G.P., Op. cit., pp. 131-135 ; Emerit, Ibid., pp. 12-13.

4. Plantet, Ibid., pp. 401-403 ; M. Belhamissi, **Les captifs algériens et l'Europe chrétienne**, ENAL, Alger, 1988, pp. 38 & 73-76.

- قنان، **معاهدات…**، المرجع السابق، ص ص. 168-169 ؛ قنان، **نصوص…**، المصدر السابق، ص ص. 129-133 ؛ وولف، المرجع السابق، ص ص. 367-368.

تمّ تعديل البند الخاصّ بحرية شراء الأسرى في معاهدة 1689م ليصبح ملزمًا للطرفين، و كذا المتعلّق بسعر شراء أولئك الأسرى الّذي كان بندًا سرّيًا في الاتفاق المبرم مع الباشا السابق، ليصير علنيًا و مدرجًا ضمن ترتيبات المعاهدة ؛ و بموجبه، اتّفق أن يتمّ فداء الجندي من عساكر الأوجاق بمئة و خمسين قرشًا (حوالي ثلاثين سلطاني جزائري) و البحّارة الآخرين بمئة قرش (عشرين سلطاني و نصف) : قنان، **معاهدات…**، نفس المرجع السابق، ص ص. 141-147.

انظر أيضًا رسالة الداي شعبان إلى كاتب الدولة للبحرية سينيلاي في 15 يناير 1690م : Plantet, Ibid., pp. 207-212 & 313. -

الدفتردار محمّد الأمين (يونيو 1690-أغسطس 1691م)، و ثانيها سليمان بلوكباشي، أحد أعضاء الديوان البارزين (يونيو 1695-سبتمبر 1695م)[1].

في 8 ديسمبر 1690م، لدى عودة العمارة الجزائرية الّتي شاركت في عمليات الأسطول العثماني ضدّ البنادقة قرب شبه جزيرة المورة، قام الداي بإقصاء القبطان قارة مصطفى ريّس، أحد أشدّ المعارضين للسلم مع فرنسا، و الّذي كان يخشى أن ينازعه الملك يومًا ما ؛ و قد زعم القنصل الفرنسي رُنيه لومير (René Lemaire) أنّ الريّس المذكور خطّط للإطاحة بشعبان خوجة، و إن صحّ ذلك فيمكن اعتباره آخر مسعى لأحد أفراد طائفة الريّاس للوصول إلى سدة الحكم[2].

بداية خريف 1691م، استغلّ مولاي إسماعيل تأزّم الوضع الداخلي بشرق البلاد[3]، فأرسل ابنه زيد للإغارة على التخوم الجنوبية الغربية للإيالة (صحراء أنكاد[4]) حتّى بلغ قصبة تلمسان ؛ غير أنّ محلّة الغرب

---

1. في القوائم الّتي أعدّت بأسماء الأسرى، على إثر عودة محمّد الأمين من سفارته إلى فرنسا في آخر صيف 1691م، كان عددهم 257 أسيرًا، أطلق الفرنسيون سراح معظمهم، ما عدا 24 اعتبرتهم السلطات الفرنسية موتى أو مفقودين و عوّضتهم بأسرى مسلمين من أقطار أخرى. و عليه، كان شعبان آغا قد اعتقد أن قضية الأسرى الجزائريين في فرنسا قد سوّيت بتحريرهم جميعًا، و أنّه لم يبق أيٌّ منهم محتجزًا في تلك البلاد ؛ و بناءً على ذلك، قام بتسجيل إقرار بطلب من المبعوث ديسو (Dussault)، في عام 1692م، بكون هذه القضية قد صفِّيت.

غير أنّه بعد ورود رسائل من بعض الأسرى الجزائريين بيّنت أنّه لا يزال يوجد بفرنسا قرابة المائتين منهم يرزحون في الأصفاد، استشاط الداي غضبًا و استدعى القنصل الفرنسي لومير ليحتجّ على هذا الخداع و التدليس، الّذي يتنافى مع الصداقة القائمة بين البلدين. و لأجل ذلك، أرسل سليمان بلوكباشي في مهمّة تقصي أخبار أولئك الأسرى و حصر عددهم : قنان، **معاهدات...**، المرجع السابق، ص ص. 143-159 و 168-169 ؛ بليل، المرجع السابق، ص ص. 143 و 147-150.

انظر أيضًا في هذا الصدد : وولف، المرجع السابق، ص ص. 366-369.

2. H.D. de Grammont, **Correspondance des consuls d'Alger (1690-1742)**, Ernest Leroux, Paris, 1890, pp. 12-14 ; M. Belhamissi, **Alger, l'Europe et la guerre secrète (1518-1830)**, Éditions Dahlab, Alger, 1999, p. 126.

انتمى مصطفى بن محمّد إلى أوجاق الإنكشارية، حيث كان رقم جماعته هو 132 ؛ و لقد ورد في بياناته الهامشية لفظتي "قره" يعني أسمر و قبودان : **دفتر مواجبات...**، المصدر السابق، رقم 1960، و. 115ظ.

و الظاهر أنّ الداي نفى القبطان المذكور إلى بجاية، بدليل تلقيه علوفة جمادى الأولى (فبراير 1690م)، قبل أن يفرّ إلى تونس : نفسه.

- E. Plantet, **Correspondance des Beys de Tunis et des consuls de France avec la Cour 1577-1830**, T. I, Félix Alcan, Paris, 1894, p. 523.

3. انظر بهذا الخصوص رسالة الداي شعبان إلى لويس الرابع عشر، المؤرّخة في مطلع سبتمبر 1694م، حيث ذكر أنّ باي تونس محمّد كان وراء تمرّد قبائل بايلك الشرق و فرار عددٍ منها إلى الأراضي التونسية، ممّا حرم الإيالة من قسمٍ كبيرٍ من مداخيل الجباية و هدّد استقرارها :

- Plantet, **Correspondance des deys...**, Op. cit., T. 1, pp. 417-418.

4. انظر : الوزّان، المصدر السابق، ج. 2، ص. 11.

مع قوّات البايلك و حامية تلمسان مجتمعة استطاعت دحر جيش الأمير المغربي، بعد قتالٍ شديد استمرّ ثلاثة أيّام كاملة[1].

إزاء هذا الاجتياح، قرّر الديوان الردّ بقوّة، لا سيّما أن السلطان المذكور سبق له أن هاجم الإيالة و هُزم مرّتين في عامي 1676 و 1679م، و كان قد تعهّد على إثرها باحترام وادي التافنة حدًّا فاصلاً بين البلادين[2] ؛ و جرت الاستعدادات بشكل حثيث، حيث أرسلت فرق الجيش على دفعات عن طريق البرّ و البحر إلى نقطة التجمّع خارج أسوار تلمسان[3].

و نشبت بين الجيشين معركة كبيرة في 29 يوليو 1692م على الضفّة الشمالية من وادي الملوية، و انهزم المغاربة و تقهقرت فلول جيشهم فيما تعقّبتهم القوّات الجزائرية إلى مشارف فاس، حيث حاول إسماعيل أن يجمع جيشًا آخر على عجل ؛ و كادت تنشب هناك مواجهة خاسرة جديدة، لولا تدخّل العلماء و تذلّل السلطان أمام الداي[4].

بعد أن تعهّد السلطان العلوي باحترام الحدود، عادت قوّات الداي محمّلة بالغنائم إلى العاصمة اليوم الثامن من أغسطس ؛ و بعد أقلّ من أسبوعين، وصل مولاي عبد الملك ابن إسماعيل لإبرام الصلح[5]. لقد كان باي تونس قد ضبط حساباته على أساس أن المغاربة هم الّذين سيخرجون منتصرين من القتال، و خطّط لاستغلال انكسار الجزائريين و هبوط معنوياتهم بتنظيم مؤامرة في عقر دارهم بحيث تكسر

---

1. Devoulx, **Tachrifat**, Op. cit., p. 7.

2. محمّد علي داهش، "**العلاقات المغربية العثمانية في العصر الحديث (1650-1830)**"، في : حولية كلية الإنسانيات و العلوم الاجتماعية، 1995، ص ص. 164-165.

3. Devoulx, Ibid., pp. 8-9.

انظر أيضًا : محمّد الكاتب و آخرون، **دفتر تشريفات**، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 1649، 1103هـ -1691م، و. 48 ظ.

جاء في رسالة الداي إلى كاتب الدولة للبحرية پونشارتران (Pontchartrain) بخصوص مولاي إسماعيل ما نصّه : "**...أرسلنا ضدّه جيشًا قويًا و قد سبق أن ذهب عن طريق البحر، قاصدين القلعة الّتي بحوزتنا** (كريشتل قرب وهران)، **خمس مائة خباء مع 10000 من أشجع جنودنا تصحبهم مدافع قوّية و كلّ الأسلحة و الذخائر و المؤن ؛ و عن طريق البرّ، أرسلنا خمسة آلاف من الفرسان الأتراك**(كذا) **و ثلاثين ألف** [فارس] **آخرين من شجعان العرب يقودهم أمراؤهم من أهل البلد... و إن شاء الله، لن يمض عشرون يومًا، ببركات دعواتكم، حتّى أخرج بنفسي من الجزائر و ألتحق بالجيش**" : - Plantet, **Correspondance des deys...**, Op. cit., T. 1, p. 380.

4. الكاتب، نفسه ؛ الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 196 ؛ مولاي بلحميسي، "**إرشاد الحيران في أمر الداي شعبان**"، في : مجلة الدراسات التاريخية 2، 1986، ص. 50. انظر أيضًا : - de Grammont, **Histoire d'Alger...**, Op. cit., p. 216.

5. الكاتب، نفسه ؛ بلحميسي، نفس المرجع السابق، ص. 50. - Devoulx, Ibid., p. 9.

تبريرًا لموقف والده العدواني تجاه الجزائر، استظهر السفير المغربي أمام الديوان رسائل باي تونس الّتي حملتها ثلاث سفارات متتالية إلى مولاي إسماعيل، في غضون عام 1102هـ الموافق لـ 1691-1692م، بغية حثّه على عقد حلف الدفاعي و الهجومي ضدّ الجزائر :

- بلحميسي، نفس المرجع السابق، ص ص. 50-51. - Plantet, Ibid., p. 418-419.

شوكتهم[1] ؛ و لأجل ذلك، بثّ متآمرين من الأهالي تسلّلوا متفرّقين إلى المدينة يوم الأضحى، و كمنوا في بعض دورها.

و في اليوم التالي، خرجت زمر المتآمرين من مخابئهم، و هاجموا أفراد الإنكشارية في أزقة المدينة، كما أضرموا النار في بعض منشآت الميناء و السفن الراسية فيه ؛ و كانوا قد عقدوا آمالهم على تحرّك البلدية و البرّانية لدعمهم، و لكن هؤلاء لزموا بيوتهم عند بداية الاضطرابات. و لم يطل الوقت حتّى خرجت جماعات الإنكشارية من ثكناتها تمشط الأزقة ؛ و تعالى صراخ المتآمرين المغلوبين على أمرهم، بعد أن أغلقت أبواب المدينة و دورها. هكذا سحق التمرّد بدون هوادة، و فرض الداي على القبائل الّتي ينتمي إليها المتمرّدون غرامات باهظة[2].

قام الداي شعبان خوجة في ديسمبر من نفس السنة بإصدار تعليمات بأن يعامل الأتراك و أبناء الأتراك (الكراغلة) في صفوف الإنكشارية على قدم مساواة، بحيث لا يحابى طرفٌ على حساب الآخر، كما حدّد نمطًا منتظمًا و متدرّجًا للترقية حتّى أعلى مرتّبة ؛ و كان الدافع وراء هذه المبادرة هو ضمان تماسك الأوجاق و تعزيز قوّته أمام المخاطر المتنامية على المستويين الداخلي و الخارجي[3].

---

1. الظاهر أن تدخّلات باي تونس على التخوم الشرقية و المؤامرة الّتي حرّك خيوطها في العاصمة كان مردها إيواء داي الجزائر لعدوّه محمّد بن شكر في عام 1101هـ الموافق لـ 1690-1691م، و تخوّفه من أن يتلقى هذا الأخير دعمًا عسكريًا من الأتراك الجزائريين للإطاحة به.

انظر في هذا الصدد : السعداوي، المرجع السابق، ص. 131 ؛ الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص ص. 195-196.

- Lucas, Op. cit., T. 2, pp. 177-182 ; Plantet, **Correspondance des deys…**, Op. cit., T. 1, pp. 323-324 et sq.

2. الميلي، نفس المرجع السابق، ص. 196.

- de Grammont, **Correspondance…**, Op. cit., pp. 26-27 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., pp. 216-217.

ذكر مصدر محلّي مجهول حول هذه الحادثة أنّه "**وقعت فتنة عظيمة بين الأتراك و مساكين العرب نحو الربعة**(كذا) **مائة و لم يرفع من العوذ أحدًا يده إلى رأسه و لم يقتلوا من أهل البلد شي**(كذا) **و قتلوا** [حتّى] **السواسي** (سوّاس، جمع سائس) **و الأعمى**(كذا) **و العايبين ؛ و كان ذلك في زمان شعبان خوجة و عبد الملك اوليد**(كذا) **مولاي اسماعيل، و كان ذلك في باب الوادي نزهة بعد الظهر ثاني من يوم النحر سنة 1104** (التاريخ الأصحّ هو 11 ذو الحجّة 1103هـ الموافق لـ 24 أغسطس 1692م)" : مجهول، **تقييد…**، المصدر السابق، و. 3 ظ.

و ذلك في حين ذكر في قانون أسواق مدينة الجزائر أنّ هذه الحادثة، الّتي سمّيت "**عيطة العيد**" وقعت في سنة 1102هـ (1691م) : الشويهد، المصدر السابق، ص. 147.

3. Devoulx, **Tachrifat**, Op. cit., pp. 119-120 ; Boyer, "**Le problème…**", Op. cit., pp. 84-85.

بطبيعة الحال، كانت المبادرة المذكورة أعلاه لا ترمي إلى الإخلال بالتوازن العددي النسبي بين العناصر التركية و الكرغلية الّذي يحفظ للأوجاق كيانه الأصلي، بالنظر إلى أنّ المبدأ الأساسي كان يتمثّل في المحافظة على طابعه التركي. انظر : كعوان، **النظام**…، المرجع السابق، ص ص. 79-80.

فلقد أدّت الدسائس الّتي استثارها باي تونس عن طريق عملائه إلى حدوث قلاقل في أنحاء بايلك قسنطينة، و فرار عددٍ من القبائل إلى الأراضي التونسية[1] ؛ و تلك العوامل بدورها جعلت الحاج شعبان باي غير قادرٍ على استيفاء الضرائب، إذ انخفضت قيمة الدنوش الّذي دفعه لخزينة الإيالة في سنة 1693م بشكلٍ حادّ من 400000 ريال المعهودة إلى 30000 فقط[2]. هذا التهديد الخطير للاستقرار الأمني و المالي للإيالة دفع الداي إلى البدء بالإعداد الفعلي للحملة على تونس مع أواخر شهر فبراير 1694م ؛ و كانت قد تأكّدت له مشاركة الطرابلسيين فيها، بعد أن أرسل ديوان طرابلس الغرب سفارة في شهر أكتوبر 1692م، يشتكي فيها انتهاكات محمد باي ضدّ بلاده و يستنفرّ الجزائريين لوضع حدٍّ لذلك[3].

و كما جرت العادة عند شعبان داي، فإنّه أرسل بعد شهر قسمًا من الجيش مع العتاد و الذخائر بحرًا على متن عشرة سفن إلى نقطة التجمّع عنابة[4] ؛ و أواخر أبريل، تحرّك الجيش البرّي بقيادة الداي باتجاه تونس[5]، حيث وافته في الطريق القوّات الطرابلسية الّتي أرسلها حاكمها محمّد الإمام داي و قوّات شعبان خوجة باي قسنطينة، بحيث قارب عدد القوّات النظامية السبعة آلاف و خمسمائة، إضافةً إلى عددٍ مماثل

---

1. Plantet, **Correspondance des deys…**, Op. cit., T. 1, pp. 417-418.

2. Id.

انظر أيضًا : بن العنتري، **فريدة…**، المصدر السابق، ص. 64، ه. 2.

3. de Grammont, **Correspondance…**, Op. cit., pp. 27-28.

انظر أيضًا : أحمد بك النائب الأنصاري الطرابلسي، **المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب**، ج. 1، ط. 2، مكتبة الفرجاني، طرابلس الغرب، د.ت.، ص ص. 266-267 ؛ الكاتب، المصدر السابق، و. 49 ظ ؛ بلحميسي، "**إرشاد**..."، المرجع السابق، ص. 52.

في 24 أبريل 1693م، أرسل الداي شعبان خوجة عمارة بحرية مكوّنة من عشرة سفن دعمًا للأسطول العثماني في الحرب ضدّ البنادقة و حلفائهم ؛ و قد أقلّت العمارة المذكورة سَوْقة عسكرية ضمّت بالضبط 1024 من أفراد أوجاق الإنكشارية و 475 من المدفعيين (أغلبهم من الأهالي أو اليرلية) : - Devoulx, **Tachrifat**, Op. cit., pp. 26-27.

و عليه، يمكن إرجاع تأخّر الحملة المزمع توجيهها ضدّ محمّد باي تونس إلى ضرورة أملتها الحاجة إلى استكمال النقص المترتّب عن إرسال السَوْقة العسكرية الآنفة الذكر إلى المشرق، علاوة على حؤول الحرب الفرنسية الطرابلسية القائمة دون إرسال دعم أوجاق طرابلس الغرب الموعود، و هذا ما يفسّر لنا توسّط شعبان خوجة بين الطرفين لإنهائها. انظر مراسلتي القنصل الفرنسي لومير بهذا الخصوص :

- de Grammont, Ibid., pp. 28-31.

من جانب آخر، بعد أن علم الديوان الهمايوني بالخلافات القائمة بين أوجاقات الغرب، قام بعدّة مساعي لإزالتها و حلّ المشاكل سلميًّا ؛ و هذا ما آخّر بدوره الحرب المقدّرة دون أن يوقف اندلاعها : سامح التر، المرجع السابق، ص ص. 433-434.

انظر أيضًا الملحق رقم 40.

4. الكاتب، نفسه.

5. الجدير بالذكر أنّ دفتر مواجبات الإنكشارية رقم 1960 ينتهي بهذا التاريخ رمضان 1106هـ، و أنّ الدفتر الّذي يليه - المفقود للأسف - زامن حملة الداي شعبان في تونس.

من فرسان قبائل بايلك الشرق[1]. و من جهته، خرج محمّد باي من تونس بقوّات تعدادها حوالي أربعة عشر ألف فرد، منهم نسبة معتبرة من حضر المدينة غير المتمرسين على الحرب ؛ و خلال مسيره، تضخّم الجيش التونسي بما انضمّ له من الأعراب حتّى بلغ الثلاثين ألف مقاتل[2].

و تواجه الجيشان منتصف شهر يوليو تحت أسوار الكاف[3] ؛ و بعد يوم من المناوشات كشفت نقاط ضعف الطرف المدافع، هجم الجزائريون باندفاع بعد إطلاق نار كثيف و ضعضعوا صفوف العسكر التونسي موقعين أزيد من ثمانية آلاف قتيل، بينما فرّ محمد باي و احتمى بأسوار تونس حيث لحقته فلول جيشه تباعًا[4].

لم يصل الداي شعبان بقوّاته إلى العاصمة التونسية، إلاّ بحلول يوم 25 يوليو ؛ و هذا ما أتاح الفرصة للباي ليستعدّ للمقاومة و يخزّن المؤن الكافية. و خلال الشهرين الأوّلين من الحصار، لم يحرز الجزائريون تقدّمًا يذكر ؛ و ذلك راجعٌ إلى أنّهم أغفلوا الواجهة البحرية، الّتي أمدّت عبرها مراكب فرنسية أرسلت من طولون التونسيين بالبارود و ذخيرة المدفعية[5].

بيد أنّه بعد وصول إمدادات معتبرة حملتها سفن الإيالة، قام الداي شعبان بإحكام الطوق على مدينة تونس من جميع الجهات، كما أمر بالاستيلاء على ميناء غار الملح[6] الاستراتيجي، الّذي كان يضمّ بين جنباته الترسانة و أغلب قطع الأسطول التونسي[7]. و لمّا رأى محمّد باي أنّ الخناق اشتدّ عليه، ترك المدينة

---

1. Devoulx, **Tachrifat**, Op. cit., pp. 9-10 & 30 ; Rousseau, **Annales…**, Op. cit., p. 73, n. 1 ; Plantet, **Correspondance des deys…**, Op. cit., T. 1, p. 421.

2. Lucas, Op. cit., T. 2, p. 184 ; Rousseau, Ibid., p. 73.

3. الكاف : مدينة تقع على بعد 150 كيلومتر إلى غرب جنوب غرب العاصمة التونسية.

4. Lucas, Ibid., pp. 184-185 ; Plantet, Ibid., pp. 420-421 ; Rousseau, Ibid.

- السرّاج، المصدر السابق، مج. 2، و. 87 و° ؛ الجيلالي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 203.

خلال معركة الكاف، وقع في الأسر أو استسلم حوالي 2700 تركي تونسي، بيد أنّ شعبان خوجة عفى عنهم و ضمّهم إلى قوّاته المتوجّهة لحصار تونس :

- Plantet, Ibid., T. 1, p. 449.

5. بلحميسي، "**إرشاد**..."، المرجع السابق، ص ص. 50-51.

- Lucas, Ibid., pp. 186-196 ; Plantet, Ibid., p. 422 sqq. ; Belhamissi, **Alger, l'Europe…**, Op. cit., p. 129.

6. غار الملح : مدينة ساحلية تقع 40 كيلومتر شمال تونس العاصمة، و كانت تعرف قديمًا لدى الأروبيين بـ (Porto Farina). انظر :

- R. Mantran, "**La description des côtes de la Tunisie dans le *Kitâb-i Bahriye* de Piri Reis**", in : R.O.M.M. 24, 1977, pp. 224-225.

7. Lucas, Ibid., pp. 196-197 & 200-202 ; Rousseau, Ibid., p. 74.

- الطرابلسي، المرجع السابق، ص. 267.

سرًّا تحت جنح الظلام و توارى إلى حين ؛ و إثر ذلك، فتحت المدينة أبوابها يوم 14 نوفمبر و نصّب الداي شعبان محمّد بن شكر بايًا، قبل أن يقفل راجعًا بعد شهرين إلى الجزائر محمّلاً بالغنائم[1].

غير أنّ الانتصار الّذي حقّقه الداي شعبان كان قصير المدى، إذ تمكّن محمّد باي بعد أشهر قلائل من دحر محمّد بن شكر و العودة من جديد إلى منصبه[2]. و لذلك ما إن علم بالأمر حتّى أصدر أوامره إلى محلّة الشرق بأن تعرّج على تونس لدعم بن شكر و تشكّل طليعة للحملة الّتي قرّر تنظيمها[3] ؛ فقد كبُر على شعبان أن تذهب ثمرة انتصاره بهذه السرعة، بعد أن رأى نفسه القائد الأعلى للأوجاقات الثلاث[4]. لكن عندما وصلت المحلّة إلى نهر مجردة قرب الكاف، تمرّد جنودها تبرّمًا من الحروب المتواصلة و رفضوا المضي قدمًا ؛ و كان تمرّد محلّة قسنطينة و ارتدادها مردّه إلى "الهدايا" الّتي قدمّها محمد باي تونس لبعض ضبّاطها، مبيّنًا لهم أنّ الداي يضحّي بهم لمصلحة حظيّه بن شكر و أنّه لا يجوز للعثمانيين التقاتل فيما بينهم[5].

و تقرّر في ديوان المحلّة المطالبة بعزل الداي شعبان في رسالة مختومة أرسلوها إلى آغا الإنكشارية، على أن لا تفتح إلاّ أمام الديوان[6]. و يوم 5 أغسطس، "**عند تلقي الرسالة، دعي أهل الديوان و اجتمعوا في القصر** (دار الإمارة) ؛ **و لمّا علموا بأمر الرسالة و رغبة الجنود في أن يحبس شعبان خوجة، فإنّهم قادوه إلى دار الآغا و أغلقوا عليه فيها الدار**(كذا) **الّتي هي الحبس العام** (السركاجي)، **و وقع ذلك بعد صلاة الجمعة.**"[7] ؛

---

1. السرّاج، المصدر السابق، مج. 2، و. 88 ظ ؛ الطرابلسي، المرجع السابق، ص. 267 ؛ الجيلالي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 197.
- Lucas, Op. cit., T. 2, pp. 202-210 ; Rousseau, **Annales…**, Op. cit., p. 75 ; Plantet, **Correspondance des deys…**, Op. cit., T. 1, p. 455 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 219.

2. Lucas, Ibid., pp. 210-223.

3. Plantet, Ibid., T. 1, p. 489.

4. عندما تحقّق انتصار شعبان خوجة على جاريْه، كتب للويس الرابع عشر : "**تخضع الجزائر و طرابلس الغرب و تونس من الآن لنا، و ستجتمع تحت سلطة واحدة، و لن تبقى جمهوريات متفرّقة مثلما كانت عليه في السابق.**" : - Plantet, Ibid., p. 442.

تظهر لنا مراسلات الداي شعبان أنّه كان يرغب و يسعى إلى إيجاد نوع من الترابط و التلاحم بين الإيالات المغاربية الثلاث، و لفترة وجيزة من الزمن استطاع خلق نوع من التكتّل بين تلك الأقطار ؛ و لقد عاجله الأجل قبل أن يتمكّن من تحقيق مشروعه. انظر في هذا الصدد : الجيلالي، نفس المرجع السابق، ص. 204 ؛ وولف، المرجع السابق، ص ص. 365-366 ؛ غطّاس، **الدولة…**، المرجع السابق، ص. 56.

5. Emerit, "**Un mémoire…**", Op. cit., p. 22 ; de Grammont, Ibid.

ذكر پتيس دي لا كروا ملامة أخرى للإنكشارية ضدّ الداي متعلّقة بالعلوفة، حيث لم ينقد لهم علوفاتهم خلال اضطرابات الشرق عام 1693م بالريال الإشبيلي (الريال الثماني) مثلما جرت العادة، بل بالريال الجزائري الّذي تقلّ قيمته بمقدار الخمس عن العملة الفضّية الأولى :
- Emerit, Ibid.

لمزيدٍ من المعلومات حول العملات النقدية المتداولة وقتئذٍ و تطوّر قيّمها، انظر : - Merouche, **Monnaies…**, Op. cit., pp. 35-39.

6. Emerit, Ibid.

7. ابن المفتي، المصدر السابق، ص. 57. انظر تفاصيل عزل الداي شعبان و سجنه في : - Id., pp. 22-23.

و بعد عزله، قضى عشرة أيّام في السجن المذكور، و من تمّ قتل خنقًا، بعد أن تلقى ثمانمائة جلدة لحمله على البوح عن مكان أمواله المكتنزة، رغم محاولات الداي الّذي عيّن خلفًا له الإبقاء على حياته[1].

1-2-2. عهد الداي الحاج أحمد (1695-1698م)

يوم 6 أغسطس 1695م، اتّفقت مجموعة إنكشاريين من المحلّة العائدة من الشرق على ترشيح أوّل ضابطٍ سامّي يصادفوه عند دخولهم المدينة لمنصب الداي، فشاءت الصدف أن يكون الحاج أحمد بن مصلي المعروف كذلك ببابا أحمد العلج[2]، الّذي كان في حانوته منهمكًا في صنع البوابيج ؛ و لأنّه لم يكن له منافس آخر، فقد تمّ تنصيبه رغمًا عن أنفه على الفور من قبل الديوان الّذي اجتمع خصيصًا[3]. و خلال نفس الجلسة، قلّصت صلاحيات الداي و وزرائه، بحيث لم يعد لهم سوى دور تنفيذي ؛ فيما احتفظ الديوان بالكلمة العليا في اتّخاذ القرارات[4]. و لا يعرف عن هذا الداي المنصّب سوى أنّه كان معزول آغا، و أنّه اشتغل بمهنة بابوجي[5] ؛ و على عكس الداي السابق الّذي كان قويّ الشكيمة، كان

---

1. Emerit, "**Un mémoire…**", Op. cit., p. 23 ; H.D. de Grammont, "**Correspondance des consuls d'Alger (1690-1742)**", in : R.A. 31, 1887, pp. 167-168 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 219 ; Mercier, **Histoire de l'Afrique**…, Op. cit., p. 315.

لم يسلم من القتل وزراء شعبان خوجة، حيث ألقي القبض على خزناجيه إبراهيم خوجة بن عثمان - الّذي استخلفه على الجزائر خلال حملته على تونس - و عذّب عذابًا شديدًا من أجل الكشف عن الأموال الّتي خبّأها الداي، كما تمّ إعدام الدفتردار محمّد الأمين بتهمة تزوير طغراء السلطان في فرمان يخصّ الحملة على تونس، إلى جانب عدد من كبار الإداريين الّذين طالتهم بعض من التهم الّتي وجّهت للداي السابق : مصطفى بن عمّار، **الصراع على السلطة في الجزائر في عهد الدايات (1671-1830م)**، ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2009-2010، ص. 89.

- Emerit, Ibid., pp. 23-24 ; Plantet, **Correspondance des deys…**, Op. cit., T. 1, pp. 444 ; Delphin, Op. cit., 1925, pp. 6-7.

للمزيد من المعلومات حول الفرمان المشكوك فيه، انظر : سامح التر، المرجع السابق، ص ص. 434-436.

- Plantet, Ibid., pp. 436, 441 & 449.

2. لم يكن الداي الحاج أحمد من الأعلاج، فلفظة "العلج" المقرونة باسمه ما هي إلاّ تحريف للفظة العثمانية اجه "شيخ كبير" : ابن المفتي، المصدر السابق، ص. 58.

- Peyssonnel et Desfontaines, Op. cit., T. 1, p. 410 ; Barbier de Meynard, Op. cit., 1er vol., p. 17.

3. Peyssonnel et Desfontaines, Ibid. ; Colin, Op. cit., p. 69 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Ibid.

- الشويهد، المصدر السابق، ص. 64.

4. de Grammont, "**Correspondance…**", Ibid, p. 168.

5. Emerit, Ibid., p. 23 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Ibid. ; Mercier, ibid., p. 316.

بابوجي : كلمة مشتقة من التركية پاپوشجي، و تعني صانع أو سكّاف نوع من الأحذية دون كعب : سامي، المرجع السابق، مج. 1، ص ص. 338-339.

- Barbier de Meynard, Ibid., p. 370.

الحاج أحمد داي رجلاً ليّن العريكة و مطواعًا، ممّا أتاح له استعادة كامل صلاحيات الدايات بعد مرور فترة قصيرة[1].

و كان لدى هذا الداي المسنّ قصور واضح في تسيير شؤون الدولة ؛ و تبدّى لنا ذلك في موقفين أوّلهما إزاء بقاء أسرى جزائريين في فرنسا، حيث كلّف سليمان بلوكباشي في مهمّته الثانية (1696م) بتحميل كلّ المسؤولية على عاتق المبعوث الجزائري السابق محمّد الأمين و تبرئة السلطات العليا الفرنسية من ذلك ؛ و وفق هذا الطرح الضعيف، كان على السلطات المذكورة أن تتكرّم بإطلاق سراح الأسرى المائتين و واحد و ستّين المتبقين مراعاةً للصداقة القائمة بين البلدين، و ليس تطبيقًا لبنود المعاهدة المبرمة بينهما[2] ؛ و ثانيهما هو لجوؤه للشكوى للسلطان العثماني مصطفى الثاني (1695-1703م) من تكرّر الاعتداءات المغربية على التخوم الغربية للإيالة منذ خريف سنة 1694م[3]، و لأجل ذلك، قام الديوان الهمايوني أواخر يونيو 1697م بإرسال وفدٍ من عشرة أشخاص يحمل رسالة إلى مولاي إسماعيل بشأن الصلح مع الجزائر، فتعهّد لهم هذا الأخير بالتزام الحدود[4].

على كلٍّ، لم يحدث شيء آخر في عهد الحاج أحمد يستحقّ الذكر سوى طاعون أهلك الكثير من سكّان الجزائر، و من بينهم الحاكم المذكور الّذي توفي من جرّاء ذلك الوباء في أوائل يوليو 1698م[5].

---

1. de Grammont, "**Correspondance…**", Op. cit., 1887, p. 168, n. 2.

انظر أيضًا : محمّد بن ميمون الجزائري، **التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية**، تحقيق و تقديم محمّد بن عبد الكريم، ش.و.ن.ت.، الجزائر، 1972، ص. 25 ؛ عبّاد، المرجع السابق، ص. 147.

2. قنان، **معاهدات…**، المرجع السابق، ص ص. 169-173 ؛ قنان، **نصوص…**، المصدر السابق، ص ص. 139-140. انظر أيضًا :

- Plantet, **Correspondance des deys…**, Op. cit., T. 1, pp. 507-546.

لقد اكتفى الطرف الجزائري بقبول مبادلة 21 أسير فقط بعدد مماثل من الأسرى الفرنسيين الّذين أخذوا على مراكب عدوة، و فرّط - إن صحّ التعبير - في باقي أسراه : قنان، **معاهدات…**، نفس المرجع السابق، ص. 173.

3. **مراسلات عثمانية**، م.و.ج.، مجموعة 3190-1، رقم 53.

4. تركت هزيمة سنة 1692م أسًى عميقًا للسلطان المغربي، و لكي يغسل عارها، قرّر مهاجمة الأراضي الجزائرية مجدّدًا بالرغم من الصلح القائم. فقام بإرسال ابنه زيدان، عامل تازا، في أواخر أكتوبر 1694م، على رأس جيش ضخم لمهاجمة الناحية الغربية للجزائر مغتنمًا فرصة انشغال معظم القوّات الجزائرية في حصار تونس ؛ و لكن كلّ ما فعله الابن هو الإغارة على بعض القبائل القاطنة على الحدود، و من ثمّ عاد إلى بلاده مسرعًا : أحمد بن خالد الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، ج. 7، تحقيق و تعليق جعفر و محمّد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997، ص. 87 ؛ حركات، المرجع السابق، ج. 3، ص ص. 53-54.

احترامًا للمعاهدة السابقة، أحجم الحاج أحمد داي بمعيّة الديوان عن مدّ يد المساعدة لابن مولاي إسماعيل البكر الثائر ضدّ أبيه - أو هذا على الأقلّ ما ادّعاه -، الّذي قدم إلى مدينة الجزائر أواخر أبريل 1698م : - de Grammont, "**Correspondance…**", Ibid., p. 301.

5. ابن المفتي، المصدر السابق، ص. 59 ؛ الجيلالي، المرجع السابق، ، ج. 3، ص. 205 ؛ الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 198.

1-2-3. عهد الداي حسين شاوش قره باغلي (1698-1700م)

تولّى حسين شاوش قره باغلي دايًا في 5 يوليو 1698م ؛ و كان قد شغل منصب باش شاوش[1] بقصر الإمارة خلال تلك السنة[2].

و مثل سلفه، كان هذا الداي، الّذي اشتهر ببابا حسن (Babassen) - و هو ما يبدو لنا تحريفًا للصيغة الشائعة عند العاصميين وقتذاك "حساين" - يميل إلى الدعة، و متساهلاً جدًّا تجاه تجاوزات الفرنسيين طالما أنّها لا تثير ضدّه غضب الإنكشارية[3] ؛ و هو السبب الّذي جعله يرفض مطلع خريف عام 1699م دعم أحد الطامحين في عرش تونس عسكريًا، من أجل طرد بايها مراد بوبالة[4]. و إثر ذلك، أرسل هذا الباي هدايا لشكر الجزائريين على إحجامهم عن التدخّل في الشؤون التونسية ؛ غير أنّ الديوان رفضها تعبيرًا على استيائه من الجرائم، الّتي ارتكبها المذكور تجاه رعيته[5]. اغتاظ مراد باي من ذلك للغاية، و قرّر إعلان الحرب على الجزائريين. و لمّا لم تكن له بهم طاقة، أقام تحالفًا مع باي طرابلس الغرب خليل و سلطان المغرب إسماعيل ؛ و تمّ الاتفاق على أن يهاجم البايين الإيالة من الناحية الشرقية و السلطان من الناحية الغربية في آنٍ واحد[6].

بناءً على ذلك، حشد مولاي إسماعيل قسمًا من قوّاته بتازة و قام بغارات على قبائل التخوم نهاية فصل الربيع، فأرسل الداي بابا حسن تحسّبًا لأيّ طارئ محلّة من خمسين خباء دعمًا لحامية تلمسان[7]. لكن التوغّلات أو التحرّكات المغربية لم يكن الهدف منها سوى تشتيت القوّات الجزائرية، و صرف النظر

- Plantet, Ibid., p. 546.

انظر أيضًا :

- S. Boubaker, "**La peste dans les pays du Maghreb : Attitudes face au fléau et impacts sur les activités commerciales (XVIème-XVIIIème siècles)**", in : R.H.M. 79-80, 1995, p. 319 ; Peyssonnel et Desfontaines, Op. cit., T. 1, p. 410.

1. انظر تعريف الباش شاوش في المطلب الخاصّ بجماعة الشوّاش، في الفصل السابع.

2. ابن المفتي، المصدر السابق، ص. 58. انظر أيضًا : - Delphin, Op. cit., 1925, pp. 6-7.

3. de Grammont, "**Correspondance…**", Op. cit., 1887, pp. 300-301 & 309-316.

4. Id., pp. 342.

5. السرّاج، المصدر السابق، مج. 2، و و. 104 ظ ْ-106 ظ ْ. انظر أيضًا في هذا الصدد : - Lucas, Op. cit., T. 2, pp. 239-272.

6. الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 198 ؛ بن عمّار، المرجع السابق، ص ص. 91 و 93 ؛ سامح التر، المرجع السابق، ص. 452.

7. de Grammont, Ibid., pp. 345 & 437-438.

الخباء هو الوحدة العسكرية الأساسية في المحلاّت العثمانية، و كان يضمّ حسب دفتر التشريفات تسعة عشر جنديًا بالضبط :

- Devoulx, **Tachrifat**, Op. cit., pp. 43-44.

عن الهجوم الحقيقي، الّذي كان سيقع وفق الخطّة المرسومة من الناحية الشرقية ؛ و بالفعل، تخطّى مراد باي الحدود بجيش قوامه عشرين ألف رجل، و باغت أواخر شهر يونيو 1700م باي قسنطينة قارة علي خوجة، الّذي كان على رأس محلّة الشرق و قسم من قوّات بايلكه ؛ فانهزم هذا الأخير بسبب عنصر المفاجأة و التفاوت العددي شرّ هزيمة تاركًا مئات اليولداش على أرض المعركة، و تراجع إلى قسنطينة يلملم قوّاته.

و قبل أن يحكم التونسيون الحصار على مدينة قسنطينة، قام الباي علي خوجة يوم 7 يوليو بخرجة قتل خلالها الكثير من جنوده[1]. و استولى مراد باي على قلعة المنصورة الواقعة شرقي قسنطينة و سوّاها أرضًا، بعد أن قتل جميع جنود حاميتها[2] ؛ و فيما الحصار قائم، وافى مراد بوبالة خليل باي على رأس خيّالته، بعد أن كان قد أرسل له طليعة من ألف صبايحي[3].

لمّا وصلت الأنباء المقلقة إلى عاصمة الإيالة، هاج الإنكشاريون و تواعدوا بردٍّ قوّي. بيد أنّه لم يكن للداي في الواقع قوّات كافية وقتئذٍ لمواجهة الوضع، بسبب عدم عودة محلاّت الجباية بعد، كما أنّه لم يكن يمتلك المؤهّلات الكافية، الّتي تجعل منه قائدًا حربيًا كفؤًا. و لأجل ذلك، اعتزل بابا حسن الحكم، و طلب من الديوان تعيين داي آخر مكانه[4].

---

1. السرّاج، المصدر السابق، مج. 2، و. 107 و° ؛ الطرابلسي، المرجع السابق، ص. 279 ؛ بن عمّار، المرجع السابق، ص. 91 ؛ جميلة معاشي، "**أسرة أحرار الحنانشة بين بايات قسنطينة و بايات تونس**" في : م.ت.م. 128، 2007، ص. 157.

- Lucas, Op. cit., T. 2, pp. 278-282 ; Rousseau, **Annales…**, Op. cit., p. 82 ; Plantet, **Correspondance des beys…**, Op. cit., T. 2, pp. 4-5 ; de Grammont, "**Correspondance…**", Op. cit., 1887, pp. 345-348 & 436-437 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 221 ; Mercier, **Histoire de l'Afrique**…, Op. cit., p. 319 ; Vayssettes, Op. cit., 1868, pp. 276-277.

2. السرّاج، نفسه ؛ الجيلالي، المرجع السابق، ، ج. 3، ص. 206 ؛ حمّودة بن محمّد الباشي، **تاريخ الباشي**، مكتبة المسجد النبوي الشريف، مخ. 900.15، 1303هـ، و. 92 و° ؛ الطرابلسي، نفسه. - Vayssettes, Ibid., p. 277.

3. السرّاج، نفسه ؛ الطرابلسي، نفسه ؛ عبّاد، المرجع السابق، ص. 148.

- Plantet, Ibid., p. 4.

4. Id.

يذكر حمّودة الباشي رواية مغايرة في هذا الصدد : "**كان عسكر الجزاير**(كذا) **استضعفوا أميرهم و رأوا منه عدم النجدة و الكفاءة، فخلعوه و أقاموا غيره مقامه**" : الباشي، نفسه.

1-2-4. عهد الداي بابا أهجي مصطفى (1700-1705م)

لقد تمّت تولية أهجي[1] مصطفى من قبل الديوان يوم 18 يوليو 1700م[2] ؛ و ممّا يؤثر عن هذا الداي - الّذي عرف أيضًا ببابا حاجي مصطفى[3] - أنّه سمح لسلفه المستعفي بالانسحاب ؛ و في بادرة غير مسبوقة، منحه عطاءً قدره أربعة آلاف ريال، و أمر أن تحيّيه مدفعية أبراج المدينة عند خروج المركب الّذي أقلّه إلى المشرق[4].

بادر الداي مصطفى إلى إعلان التعبئة العامّة في صفوف الإنكشارية، و تمّ استدعاء كلّ القادرين على حمل السلاح، حتّى الفتية و المسنّين القعّاد[5] ؛ و كلّما تشكّلت حانبة أو محلّة أرسلت إلى الشرق، حيث كانت تنضمّ إلى القوّات الّتي كان يجمعها أحمد خوجة بن فرحات، الباي المعيّن حديثًا بدل قارة علي باي الّذي أمر الداي بخنقه[6].

جعلت حراجة الموقف الداي و الديوان يبعثون عدّة رسائل مختومة إلى حسين ميزومورطو - القبودان باشا الّذي كان داي الجزائر سابقًا - يستجدون معونته على الأرجح في تجنيد متطوّعين، لسدّ النقص في صفوف الإنكشارية[7]. و قد كان الداي يخشى أن يهاجم المغاربة، فيصبح الجزائريون بين فكيّ كمّاشة ؛ لذلك سوّف خروجه حتّى تأكّد من خبر تراجع قوّات زيدان بن مولاي إسماعيل عن الحدود[8]. عندئذٍ، أرسل خمسة سفن إلى الغرب كي تعود بمحلّة تلمسان ؛ و فور عودتها، خرج بها اليوم العاشر من سبتمبر من العاصمة ليلتحق بالجيش، الّذي كان ينتظره على الأرجح ناحية برج سور الغزلان[9].

---

1. أهجي أو أهشي هو تصحيف للكلمة العثمانية آشجي "طبّاخ"، ممّا يشير إلى أنّ الداي مصطفى شغل سابقًا هذه الوظيفة - في دار السلطان على الأرجح -، الّتي هي أدنى من رتبة أوده باشي : سامي، المرجع السابق، مج. 1، ص. 34.

- Devoulx, **Tachrifat**, Op. cit., p. 53 ; J. Deny, "**Les registres de soldes des janissaires conservés à la B.N.A.**", in : R.A. 61, 1920, p. 45.

2. Plantet, **Correspondance des deys…**, Op. cit., T. 2, pp. 4 & 6.

3. الجيلالي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 206.

4. Plantet, Ibid., p. 4, n. 2 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 222.

5. de Grammont, "**Correspondance…**", Op. cit., 1887, pp. 347-348 & 436.

6. الشويهد، المصدر السابق، ص ص. 132-133 و 146-147. انظر أيضًا :

- de Grammont, "**Correspondance…**", Ibid., p. 436.

7. Id., p. 437.

8. Id., pp. 437-438.

9. Id., pp. 436-438 ; Plantet, Ibid., p. 9, n. 2.

انظر بخصوص مسالك الطريق السلطاني الرابط بين الجزائر و قسنطينة : ناصر الدين سعيدوني، "**شبكة المواصلات بالجزائر أثناء العهد العثماني**" في : م.ت.ع.د.ع. 21، 2000، ص ص. 68-69.

حال سماعهما بتحرّك الجيش الجزائري، رفع مراد باي و خليل باي الحصار عن مدينة قسنطينة و سارا بقوّاتهما مسرعين لملاقاته ؛ و تواجه الجيشان بمكان يعرف باسم "جوامع العلمة[1]".

لترجيح كفّة النصر، وضع ديوان المحلّة - الّذي حضره الداي و كبار القادة العسكريين - خطّة جريئة تتمثّل في مباغتة الإنكشارية لمعسكر الأعداء تلك الليلة بالذات ؛ و بالفعل، أحدث الهجوم بلبلة كبيرة تحوّلت إلى فرار جماعي مخزٍ. و انتهت تلك المعركة المصيرية - الّتي دامت أربع ساعات - مع انبلاج صبح يوم الثالث من أكتوبر، بانتصار كامل للجزائريين[2] ؛ و هلك خلالها من قوّات مراد باي و حليفه سبعة آلاف مقاتل[3]. أمّا الآلاف الّذين وقعوا في الأسر، فكان حوالي الألفين منهم أهالي جزائريين (مشاة الزواوة و فرسان الحنانشة[4])، هؤلاء تمّ إعدامهم بتهمة الخيانة عن بكرة أبيهم اليوم التالي[5]، فيما أطلق سراح التونسيين بعد أن أجبر الأتراك منهم على حمل المدفعية الّتي غنمت إلى قسنطينة[6]. و لم يأمر الداي بتتبّع فلول جند الباي، بل فضّل المكث فترة بقسنطينة لإصلاح أمورها، ثمّ قفل عائدًا إلى العاصمة[7].

في أوائل يناير 1701م، أرسل أهجي مصطفى عشرة سفن إلى "برّ الترك" (الأناضول و الروميلي)، بغرض جلب مجنّدين جدد للأوجاق[8] ؛ و في تلك الأثناء، زحف مولاي إسماعيل بجيشه، الّذي قيل أنّه

---

1. جوامع العلمة : هي بلدة العلمة حاليًا الواقعة على بعد حوالي ثلاثين كيلومتر شرق مدينة سطيف : الجيلالي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 206.

2. سامح التر، المرجع السابق، ص. 452 ؛ الشويهد، المصدر السابق، ص ص. 146-147.

- Mercier, **Histoire de l'Afrique**..., Op. cit., pp. 320-321.

3. الجيلالي، نفسه. انظر أيضًا :

- Peyssonnel et Desfontaines, Op. cit., T. 1, pp. 332-333 ; Vayssettes, Op. cit., 1868, p. 280.

4. يرجع فضل وصول مراد بوبالة إلى سدة الحكم للحنانشة، فقد كان شيخ تلك القبيلة جدّ مراد لأمّه ؛ و يمكننا القول أن أحد أسباب إقدامه على مهاجمة قسنطينة راجع إلى اغتراره بقوة أخواله، حيث كانت القبيلة المذكورة قادرة على صفّ خمسة آلاف فارس في الحروب : معاشي، "**أسرة...**"، المرجع السابق، ص ص. 156-157. - Lucas, Op. cit., T. 2, p. 333.

فيما يخصّ تجنيد عناصر الزواوة في صفوف الجيش التونسي، انظر : محمّد الهادي الشريف، "**القوى المسلّحة بتونس في علاقتها بالدولة و المجتمع (من القرن السادس عشر ميلادي إلى أواسط القرن 19)**" في : أعمال ندوة تاريخ الجيش التونسي «من العهود القديمة إلى عهد التحوّل»، (30 و 31 أكتوبر 1997، تونس)، ط. 2، وزارة الدفاع الوطني، تونس، 1998، ص. 144.

5. السرّاج، المصدر السابق، مج. 2، و. 107 ظ ؛ الباشي، المصدر السابق، و. 92 ظ ؛ الجزائري، **التحفة...**، المصدر السابق، ص. 23 ؛ الجيلالي، نفسه. - de Grammont, **Histoire d'Alger...**, Op. cit., p. 222.

6. Lucas, Ibid., p.286.

7. الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 199. - Id., pp.291-292.

8. الشويهد، نفس المصدر السابق، ص ص. 148-149.

بلغ خمسين ألف مقاتل على الناحية الغربية، فنازل مازونة من غير طائل، ثمّ ارتدّ عنها[1]. في غضون ذلك، انتظر أهجي مصطفى على الأرجح حتّى وصلت السفن المقلّة للمجنّدين الجدد، كي يخرج على رأس محلّة قوامها ستّة آلاف راجل و ألف صبايحي ؛ و في الطريق انضمّ إليها آلاف الفرسان[2]. و وقعت المواجهة بين الجيشين بالموقع المعروف بالحاج بوغازي، قرب المجرى القديم لواد جديوية[3]، حيث تمثّلت خطّة الجزائريين في قصف مدفعي مركّز يتبعه هجوم كاسح لاختراق صفوف المغاربة، قصد الوصول إلى موضع السلطان لقتله أو أسره إن أمكن. و لئن تمكّنوا من دحر الجيش الغازي بعد ظهر يوم 28 أبريل، إلاّ أنّ السلطان الّذي أصيب بجراح خلال المعمعة أفلت من أيديهم بأعجوبة. و عادت المحلّة إلى العاصمة حاملةً رؤوس ثلاثة آلاف جندي و خمسين قائدًا مغربيًا استبقي على حياتهم، و كان يتوقّع منهم بدل فدية جيّدة، إلى جانب غنم خمسة آلاف حصان ؛ و كانت خسارة الجزائريين عشرة جنود فحسب[4].

أمّا فيما يخصّ تونس، فقد قتل مراد بوبالة على يد آغا الصبايحية إبراهيم الشريف يوم 8 يونيو 1702م بتهمة عصيان أوامر السلطان، لأنّه أخذ في الاستعداد ثانيةً لغزو الجزائر رغم الصلح، الّذي أبرم بوساطة الباب العالي السنة السابقة[5].

---

1. الجيلالي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 207.

2. الجزائري، **التحفة...**، المصدر السابق، ص. 27.

- Léon Galibert, **Histoire de l'Algérie ancienne et moderne**, Furne et Cie, Paris, 1843, p. 235.

ذكر القنصل الفرنسي دوران (Durand) في رسالة مؤرّخة يوم 14 أبريل 1701م إلى نوّاب مارسيليا : "**ذهب الداي منذ ثلاثة أيّام مع كلّ قوّات الجزائر لمحاربة مولاي إسماعيل، الّذي يوجد منذ ما يقرب من أربعة أشهر على أراضي هذه المملكة**" :

- de Grammont, "**Correspondance...**", Op. cit., 1887, p. 439.

3. جديوية، هو رافد يصبّ في نهر الشلف، على بعد نحو عشرين كيلومتر جنوب مازونة. انظر :

- Mercier, **Histoire de l'Afrique**..., Op. cit., p. 322 ; de Grammont, **Histoire d'Alger...**, Op. cit., p. 222.

4. الجزائري، نفسه ؛ حركات، المرجع السابق، ج. 3، ص. 54 ؛ الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 199 ؛ عبّاد، المرجع السابق، ص. 149 ؛ بن عمّار، المرجع السابق، ص. 93 ؛ وولف، المرجع السابق، ص. 372. - Galibert, Ibid.

من جهته، ذكر پول لوكاس بخصوص هذا الانتصار : "...**أعلم القنصل الفرنسي بالجزائر نظيره بتونس، أنّه بالرغم من كون المغاربة ثلاث مرّات أكثر** [عددًا] **من الجزائريين، إلاّ أنّ انتصار هؤلاء الأخيرين كان كبيرًا إلى حدّ إرسالهم ثلاثة أكياس جلدية مليئة بالآذان الّتي قطعوها**" :

- Lucas, Op. cit., T. 2, p. 292.

5. السرّاج، المصدر السابق، مج. 2، و. 111 و° ؛ الباشي، المصدر السابق، وو. 92 ظ°-93 و° ؛ سامح التر، المرجع السابق، ص. 453 ؛ الجيلالي، نفس المرجع السابق، ص ص. 206-207.

- Lucas, Ibid., pp. 303 & 309-310 ; Rousseau, **Annales...**, Op. cit., pp. 84-85 ; Mercier, Ibid., p. 323.

و تولّى إبراهيم المذكور الّذي "**يذكر أنّ أصله من عسكر الجزاير، الّذين أتوا مع محمّد بن شكر في محلّته**[1]" بايًا لتونس ؛ ثمّ استأثر بعد أشهر بالدايلك، بحيث صار يدعى إبراهيم الشريف داي باي[2].

كان الداي أهجي مصطفى يواجه صعوبات متزايدة في دفع علوفات الجنود بسبب تضاؤل موارده المالية ؛ كون الحروب المغاربية أخلّت بانتظام تحصيل المجبى، في الوقت الّذي عرفت فيه عائدات النشاط البحري تراجعًا ؛ و لم تعوّض زيادة الضرائب الّتي أرهقت الرعية عجز الخزينة إلاّ بصفةٍ مؤقّتة، فقد أسهم القحط و الأمراض الوبائية الّتي أصابت البلاد في جعل الضائقة خانقة أكثر من ذي قبل[3]. و عليه، قرّر الداي الخروج خلال ربيع عام 1703م في حملة للإغارة على القبائل الموالية للإسبان[4]، الّتي التجأت كعادتها إلى جوار وهران و حصونها ؛ و لتضييق الخناق أكثر على الإسبان و حلفائهم، أمر الداي بحصد محاصيلهم من الحبوب تحت حراسة قوّاته[5]، و من جهة أخرى طلب من باي الناحية الغربية

---

1. الباشي، المصدر السابق، و. 93 و°.

انظر أيضًا : الجيلالي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 207.

2. السرّاج، المصدر السابق، مج. 2، وو. 113 و° و 118 و°.

- Lucas, Op. cit., T. 2, pp. 333-334 ; Rousseau, **Annales…**, Op. cit., p. 86.

3. سامح التر، المرجع السابق، ص. 454.

ذكر ابن المفتي في ذلك الصدد : "**و لمّا تولّى آهشي مصطفى دولاتلي فإنّه عمل على سلب النّاس، و كم من واحد نفي حافي القدمين عاريًا ؛ و بلغ ثمن الميرة في ذلك الزمن مبالغ مفرطة، و بيع القمح حتّى اثنا عشر ريالاً للصاع الجزائري**" : نفسه، ص. 68.

و ذلك يوافق ما أورده القنصل دوران في رسائله العائدة للنصف الثاني من سنة 1702م، حيث ذكر أنّ "**التجارة تلاشت بالكامل في هذه المدينة بسبب ابتزازات الداي الكبيرة لتأمين أجور المليشيا، و المجاعة مستمرّة… انعدام الغنائم… القمح** [وصل] **هنا لسعر باهظ بالنسبة للبلد، و الجمهورية فقيرة جدًّا، جرّاء المصاريف الاستثنائية الّتي سبّبتها الحروب، و قلّة الإعانات** (الإسهامات) [المتأتية] **من البرّ و البحر…**" :

- de Grammont, "**Correspondance…**", Op. cit., 1887, pp. 447-451.

كانت إحدى مؤشّرات الضائقة المالية خلال تلك الفترة، عمليات تخفيض قيمة العملة الجزائرية "ريال دراهم". انظر بهذا الخصوص :

- Merouche, **Monnaies…**, Op. cit., pp. 38-39.

4. قبل خروجه لقتال مولاي إسماعيل، كان الداي مصطفى قد عقد هدنة تخصّ وهران مع إسبانيا، بوساطة الراهب خوان أنطونيو بيلو (Juan Antonio Bello) ؛ غير أنّ عدوانية حاكم وهران دون كارلوس كاراخا (Don Carlos Carraja)، الّذي غزا مطلع شهر يونيو 1703م عشائر حليفة للعثمانيين من قبيلة بني عامر، خرقت الاتفاق المبرم في ربيع 1701م :

- Ismet Terki Hassaine, "**Oran au XVIIIe siècle : du désarroi à la clairvoyance politique de l'Espagne**", in : Insaniyat 23-24, 2004, p. 201 ; Sandoval, "**Les inscriptions…**", Op. cit., 1872, pp. 64-65 ; Fey, Op. cit., p. 121.

5. de Grammont, Ibid., pp. 454-455.

الجدير بالذكر أنّه كان يدفع الأهالي الموالون للإسبان سنويًا جزية يدعونها "الرومية"، و هي عبارة عن كمية من القمح يختلف حجمها حسب أهمّية الدواوير. انظر : المدني، **حرب…**، المرجع السابق، ص ص. 448-449. - Fey, Ibid., pp. 225-226.

مصطفى بن يوسف المسراتي بأن ينقل عاصمته إلى قلعة بني راشد[1]. و من هناك، انتقلت الحملة إلى نواحي تلمسان لجمع المجبى و معاقبة القبائل الممتنعة[2].

بالرغم من كلّ المجهودات الّتي بذلها آهجي مصطفى لرفع إيرادات الخزينة، إلاّ أن متاعبه المالية بقيت على حالها ؛ و لم يجد من وسيلة يضمن بها الحصول على الأموال سوى مهاجمة تونس. و لذلك، أوجد ذريعة بأنّ إبراهيم الشريف رفض إمداد الجزائر بالقمح الّتي كانت تعاني من القحط، وهو مع ذلك كان يبيعه للنصارى، و أشياء أخرى من هذا القبيل ليستحثّ الديوان على إعلان الحرب[3].

و لمّا تمهّد له الأمر، خرج الداي بالجيش قاصدًا تونس، و هزم قرب الكاف في 11 يوليو 1705م إبراهيم الشريف، الّذي وقع في الأسر ؛ و قد ساهم في سقوط هذا الأخير انضمام بعض القبائل التونسية إلى الصفّ الجزائري و تخاذل كاهيته حسين بن علي، الّذي سارع إلى الحاضرة ليبايَع بايًا جديدًا. و بعد أيّام، قدّم التونسيون لآهجي مصطفى عرضًا ماليًا مقداره 150000 ريال على أن يعود أدراجه، لكن الداي رفض و واصل تقدّمه مستوليًا في طريقه على قلعتي الكاف و باجة، الّلتين وضع بهما حاميتان جزائريتان[4].

وصل الجزائريون على مقربة من تونس يوم 28 أغسطس ؛ و قبل أن يباشروا العمليات القتالية المصاحبة للحصار، اشترط الداي نصف مليون ريال غرامة حرب، و أن يسلّم شخصيًا قفطان تولية لباي

---

1. كانت الناحية الغربية تضمّ سنجاقي مازونة و تلمسان، حتّى أواخر القرن السابع عشر ميلادي. انظر : **دفتر مواجبات...**، المصدر السابق، رقم 1960، و. 311ظ.

و كان الباي مصطفى بوشلاغم هو أوّل من جمعت له الناحية الغربية بتمامها سنة 1098هـ الموافق لـ 1687م ؛ و قد تمّ اختيار قلعة بني راشد كعاصمة أولى للبايلك لموقعها الاستراتيجي و حصانتها الطبيعية : محمّد بن يوسف الزياني، **دليل الحيران و أنيس السهران في أخبار مدينة وهران**، تحقيق و تقديم المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة، الجزائر، 2013، ص ص. 249 و 253.

انظر أيضًا : دغموش كاميلية، **قبائل الغرب الجزائري بين الاحتلال الإسباني و السلطة العثمانية (1509-1792)**، ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة وهران، 2014، ص. 137.

- Sandoval, "**Les inscriptions…**", Op. cit., 1872, pp. 64-65.

الجدير بالذكر أنّه رغم كونه من الأهالي، غير أنّ مصطفى بوشلاغم المسراتي انتمى بصفته باي الغرب إلى أوجاق الإنكشارية، و كان رقم أوجاقه 252 : **دفتر مواجبات...**، نفس المصدر السابق، رقم 1979، و. 144ظ.

2. de Grammont, "**Correspondance…**", Op. cit., 1887, p. 454.

3. السرّاج، المصدر السابق، مج. 2، و. 113 ظ.

- Rousseau, **Annales…**, Op. cit., p. 87.

4. نفسه، وو. 120-121 ؛ حصام صورية، **العلاقات بين إيالتي الجزائر و تونس خلال القرن الثامن عشر**، ماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر، جامعة وهران، 2013، ص. 36.

- Lucas, Op. cit., T. 2, pp. 355-360 ; Rousseau, Ibid., pp. 90-92 ; Mercier, **Histoire de l'Afrique…**, Op. cit., pp. 325-326.

تونس كأمارة تبعية واضحة، لأنّه كان يريد أن يلحق تونس بسلطته، غير أنّ عرضه رفض[1]. و خلال قرابة الأربعين يومًا الّتي دامها القتال، لقي الجزائريون مقاومة عنيدة كبّدتهم ما لا يقلّ عن 700 قتيل و مئات الجرحى[2] ؛ و مع مرور الوقت، انفضّ عنهم عددٌ متزايد من القبائل العربية، الّتي تدعوها المصادر المحلّية بـ"سفلة البادية و الأطراف" تارةً و بـ"الأعراب" تارةً أخرى[3]، بعد أن بدت لها مؤشّرات إخفاق الجانب الجزائري، و أنّه لم يبق هناك شيء يستحقّ النهب.

و تذكر المصادر أيضًا أنّ الداي كان مجبرًا على فكّ الحصار و الانصراف على عجل ليلة 7 أكتوبر، خشية أن تطبق عليه القوّات التونسية و القبلية الّتي استطاع حسين بن علي استمالتها إلى جانبه[4] ؛ لكن السبب الرئيسي هو أنّ آهجي مصطفى وصلته أنباء من ابن أخيه تفيد بأنّ الديوان - مستهجنًا عدم قبوله الصلح و الخسائر، الّتي تكبّدها أمام تونس - أزمع على تعيين داي جديد بدله[5]. و لتأمين عودته دون بلبلة، أمر الداي ابن أخيه بتوزيع مبالغ مالية على بعض ضبّاط الإنكشارية المتنفّذين ؛ و كان يسعى بذلك الحيلولة دون إصدار الديوان قرارًا ضدّه، على الأقلّ ريثما يعود إلى العاصمة[6].

لم يتمّ تراجع الجزائريين من دون صعوبات، فقد أنهكتهم قوّات أعدائهم إلى حدّ تخلّيهم عن بعض جرحاهم ؛ و لكي لا تتحوّل الهزيمة إلى نكبة، اضطرّوا لخوض معركة عنيفة عند مجاز الباب[7] كبّدت مطارديهم خمسمائة قتيل[8].

---

1. de Grammont, "**Correspondance…**", Op. cit., 1887, p. 457 ; Galibert, Op. cit., p. 236 ; Lucas, Op. cit., T. 2, pp. 359-361.

2. السرّاج، المصدر السابق، مج. 3، و. 9 ؛ الباشي، المصدر السابق، و. 96 ظ°.

انظر تفاصيل العمليات العسكرية في : - Lucas, Ibid., pp. 366-375.

3. السرّاج، نفس المصدر السابق، مج. 2، وو. 120-121 ؛ مج. 3، و. 8 ظ°.

4. يذكر الباشي أنّ قايد قبيلة دريد محمّد بن مصطفى، الّذي انضمّ إلى الجزائريين قبيل معركة الكاف كان في الواقع صهر (زوج أخت) حسين بن علي، و لم يفتأ يعلّمه بجميع تحرّكات الجزائريين، كما عمل على استمالة شيوخ القبائل، و على رأسهم أبو عزيز بن نصر شيخ الحنانشة ؛ و كانت تلك القبيلة قد انضمّت إلى جانب آهجي مصطفى بالأساس لتثأر من إبراهيم الشريف، قاتل ابن أختهم مراد باي بوبالة : نفسه، و. 97. انظر أيضًا : ابن المفتي، المصدر السابق، ص. 69 ؛ معاشي، "**أسرة…**"، المرجع السابق، ص ص. 156-160 ؛ عبّاد، المرجع السابق، ص. 149.

- Rousseau, **Annales…**, Op. cit., pp. 97-98 ; Ch. Féraud, "**Les Harar seigneurs des Hanencha. Études historiques sur la province de Constantine**", in : R.A. 18, 1874, pp. 211-212.

5. Lucas, Ibid., p. 385.

6. سامح التر، المرجع السابق، ص. 455. - de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 223.

7. مجاز الباب : هي بلدة على نهر مجردة تقع على بعد خمسين كيلومتر شرق جنوب شرق العاصمة تونس.

8. السرّاج، نفس المصدر السابق، مج. 3، و. 12 ؛ الباشي، نفس المصدر السابق، وو. 97 ظ°-98 و°. انظر أيضًا :

- Lucas, Ibid., pp. 382-383 ; Mercier, **Histoire de l'Afrique…**, Op. cit., p. 327 ; de Grammont, Ibid.

و عند وصول المحلّة يوم 12 نوفمبر على بعد مسيرة يومين من مدينة الجزائر، قرب وادي الخميس (الحميز)، ترك آهجي مصطفى المعسكر ليلاً متوجّهًا إلى المدينة، حيث كان يتوخّى الوصول إلى مقرّ حكمه في أقرب وقت. غير أنّ انصرافه فُهِم على أنّه فرار، و أُرسِل صبايحية على وجه السرعة لإعلام آغا الإنكشارية و كبرائها ؛ فانعقد الديوان بدار الإمارة بعيد فجر اليوم التالي (13 نوفمبر)، و قرّر تعيين حسين خوجة دايًا جديدًا خلفًا له[1].

1-2-5. عهد الداي حسين خوجة شريف (1705-1707م)

عند وصول آهجي مصطفى "**قرب رأس تافورة علم أنّ حسين خوجة شريف قد تسمّى دولاتلي في الصباح ذاته قبل طلوع الشمس، ففرّ حتّى القليعة**"[2] ؛ و أرسل الداي فرسانًا في أثره، أدركوه عند عتبة باب ضريح سيدي علي مبارك، فخنقوه في مكانه[3].

و استصدر حسينٌ هذا من الديوان أمرًا بمصادرة أملاك الداي السابق، و قام بموجبه بإجبار أرملته و ابنته على البوح بمخبأ أمواله، من أجل تأمين مداخيل إضافية كيفما كان[4] ؛ و وفق نفس الغاية، أطلق سراح باي تونس السابق إبراهيم بعد أن تعهّد له بدفع فدية مجزية، و ترك أسرته بالجزائر كضمان[5]. و كانت تلك من بين التدابير المؤقّتة الّتي سمحت لحسين خوجة في البداية بدفع علوفات الإنكشارية ؛ غير أن اختلال ميزانية الدولة العائد لتذبذب المداخيل، و الّذي فاقمه وقع الجفاف من جهة و تمرّد قبيلة الحنانشة و حلفائها شرق البلاد من جهة أخرى[6]، خلق متاعب جمّة له بحيث لم يستطع دعم باي الغرب

---

1. ابن المفتي، المصدر السابق، ص ص. 59 و 70 ؛ الجزائري، **التحفة...**، المصدر السابق، ص ص. 124 و 126 ؛ سامح التر، المرجع السابق، ص. 455.
- de Grammont, **Histoire d'Alger...**, Op. cit., p. 223.

2. ابن المفتي، نفس المصدر السابق، ص. 70.

3. نفسه ؛ عبد الرزّاق بن حمادوش الجزائري، **رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة "لسان المقال في النّباء عن النّسب و الحسب و الحال"**، تحقيق و تعليق أبو القاسم سعد الله، المكتبة الوطنية الجزائرية - المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص. 124.

4. سامح التر، نفسه.
- Plantet, **Correspondance des deys...**, Op. cit., T. 2, p. 43 ; Mercier, **Histoire de l'Afrique...**, Op. cit., p. 327.

5. الجدير بالذكر أنّ إبراهيم الشريف لمّا وصل بحرًا إلى غار الملح، على مقربة من مدينة تونس، اعترضت سبيله مفرزة من جند الباي حسين بن علي و قتلوه : الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 201. انظر أيضًا :
- Galibert, Op. cit., p. 236.

6. Féraud, "**Les Harar...**", Op. cit., pp. 212-213 ; Vayssettes, Op. cit., 1868, pp. 285-286 ; Gaïd, **Chronique...**, Op. cit., p. 30 ; Mercier, Ibid., p. 332.
- بن العنتري، **فريدة...**، المصدر السابق، ص. 67، ه. 2 ؛ حصام، المرجع السابق، ص. 44.

مصطفى بوشلاغم في عملياته العسكرية الساعية إلى تطويق وهران، ما خلا بمحلّة من خمسين خباء[1] ؛ و الأسوأ بالنسبة له أنّه تأخّر عن دفع مواجبات الجند في آجالها المحدّدة. و حينئذٍ انتهز أحد الطامحين في الحكم فرصة تأخّر الراتب قرابة ثلاثة أشهر و اجتماع جلّ أفراد الإنكشارية بقصر الإمارة منتظرين، صبيحة الجمعة 4 مارس 1707م، فقام أتباعه بمناداته دايًا أجدر بالمسؤولية من المتوليّ[2] ؛ و لم يجد الداي و مقرّبوه من مفرٍّ غير الالتجاء إلى ضريح ولي دادة نجاةً بحياتهم، بعد أن تعالى هتاف الإنكشارية تعبيرًا عن إقرارهم للداي الجديد، محمّد بكداش بن علي[3].

1-2-6. عهد الداي محمّد خوجة بكداش (1707-1710م)

كان محمّد بكداش دفترداراً نفاه حسين خوجة قبل سنة خوفًا من نفوذه إلى طرابلس الغرب، ثمّ لم يلبث أن عاد أدراجه إلى الجزائر مارًّا بتونس عن طريق البرّ[4] ؛ و بسبب حسن سيرة الداي المعزول و تعفّفه عن سفك الدماء، لم يقم خلفه - بمعيّة الديوان - بالمساس بحياته و لا بأمواله، بل نفاه إلى شرق البلاد[5].

---

1. الجزائري، **التحفة...**، المصدر السابق، ص ص. 209-210.

ذكر المشرفي بهذا الصدد : "**و الحال أن باي الإيالة الغربية ...السيّد مصطفى أبا الشلاغم بن يوسف المسراتي كان رابطًا على وهران ملازمًا لجهاد النصارى رايمًا فتحها صابرًا على بلايها**(كذا)، **غير أنّ الباشة السيّد حسين لم يعنه بشيء من الجيش، و إنمّا هو محاصر لها بمحلّته المعتادة الّتي هي مئة فسطاط من الأتراك في كلّ فسطاط خمسة و عشرون جنديًا مع جيشه من العرب.**" : عبد القادر المشرفي، **بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر**، نقلاً عن :

- A. El Mecherfi, "**L'agrément du lecteur. Notice historique sur les Arabes soumis aux Espagnols pendant leur occupation d'Oran**", trad. par M. Bodin, in : R.A. 65, 1924, p. 219.

في غضون سنة 1706م، أمر الداي حسين خوجة الشريف الباي مصطفى بوشلاغم بنقل عاصمة بايلكه من قلعة بني راشد إلى معسكر ليكون أقرب إلى مسرح العمليات الدائرة حول وهران، واعدًا إيّاه بإرسال تعزيزات معتبرة لتحريرها في وقت قريب، لكنّه عزل قبل ذلك.

انظر : الزياني، **دليل...**، المصدر السابق، ص. 249.

2. الجزائري، نفس المصدر السابق، ص ص. 138-141 ؛ سامح التر، المرجع السابق، ص. 455.

تمّ احتساب التأخير على أساس أنّ آخر علوفة تقاضاها حسين خوجة الدولتلي في رجب 1118هـ/أكتوبر 1706م، قبل أن يتمّ عزله أواخر ذي القعدة من نفس السنة : **دفتر مواجبات...**، المصدر السابق، رقم 1961، و. 282ظ ؛ و باعتبار أنّ أوّل علوفة تقاضاها بكداش محمّد الدولتلي في ذي القعدة 1118هـ/مارس 1707م : نفسه، رقم 1978، و. 231و.

3. الجزائري، نفسه ؛ سامح التر، نفسه.

- Delphin, Op. cit., 1922, p. 207 ; Id., 1925, pp. 8-9.

4. ابن المفتي، المصدر السابق، ص. 104. انظر أيضًا : الجزائري، نفس المصدر السابق، ص ص. 29، 127 و 135-137.

5. ذكر ابن المفتي أنّه "**أركب حس[ي]ن خوجة في شطّية و بعثه إلى بجاية، الّتي لم يصلها**" بسبب جنوح المركب إلى ساحل دلّس، فأنقذه قبائليو الجوار، ثمّ نقلوه إلى عاصمة إمارة كوكو، حيث أحسنت وفادته ؛ لكنّه توفي بعد تسعة و ثلاثين يومًا جرّاء دمّل : نفسه، ص ص. 59 و 105 ؛ الجزائري، نفس المصدر السابق، ص ص. 141-142. انظر أيضًا : سامح التر، نفسه.

- de Grammont, **Histoire d'Alger...**, Op. cit., p. 223 ; Plantet, **Correspondance des deys...**, Op. cit., T. 2, p. 62, n. 1 ; A. Devoulx, "**Enlèvement d'un pacha par les Kabiles**", in : R.A., 13, 1869, pp. 462-464.

بادر الداي محمّد بكداش، بعيد توليته، إلى إرسال محلّة قوية تضمّ نحو ثلاثمائة و عشرين خباءً (أي ما يربو عن 6000 جندي إنكشاري و زواوي) بقيادة صهره السر عسكر أوزون حسن يوم 16 أبريل لفتح وهران[1] ؛ و قد تمّ إنزال تلك القوّات مع لوازم الحرب - الّتي من ضمنها خمسة عشر مدفع حصار - في ميناء أرزيو، و من هناك تحرّكت لوهران للاتّحاد بقوّات باي الغرب المطوّقة للمواقع الإسبانية، منذ أزيد من سنتين. و بعد النجدة الّتي وصلت الإسبان في سبعة سفن من مالطة[2]، أرسل الداي بكداش تعزيزات قوامها ألفي إنكشاري على متن ستّة سفن، مع كمّية كبيرة من البارود و الذخائر يوم 28 أغسطس، بحيث صار تعداد القوّات النظامية يناهز 8500 جندي، إضافةً إلى خمسة عشر ألفًا من فرسان المخزن و المتطوّعين[3].

هاجم الجزائريون أوّلاً برج العيون (حصن فرناندو)، الّذي كما يدلّ عليه اسمه كان يحمي المنابع الّتي تزوّد المدينة بالمياه[4] ؛ و بعد الاستيلاء عليه يوم 8 سبتمبر بفضل ألغامٍ ثلّمت جانبًا من أسواره[5]، ركّزوا نيران مدفعيتهم على برج الجبل، المسمّى أيضًا المرجاجو (حصن سانتا كروز)، من أكمة المايدة (هضبة مزيطة) المشرفة عليه، فسقط البرج المذكور في ظرف ثلاثة أيّام مع أواخر الشهر المذكور[6].

غير أنّ الحصن الثالث، برج ابن زهوة (حصن سان غريغوار)، كان أكثر صعوبة بسبب استماتة مقاتليه الّذين كبّدوا موجات المهاجمين خسائر فادحة بنيران المدفعية ؛ و تطلّب الأمر ثلاثة ألغام لفتح ثغرة في سوره، و لم يسقط إلاّ يوم 11 نوفمبر إثر ملحمة هلك خلالها معظم مدافعيه ؛ و تبعه بعد ثلاثة أيّام برج لامون، الّذي يستشرف الدرب الرابط بين وهران و المرسى الكبير[7].

---

1. Devoulx, **Tachrifat**, Op. cit., pp. 10-11. - الجيلالي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 212.

2. المدني، **حرب...**، المرجع السابق، ص. 457.

3. الجيلالي، نفس المرجع السابق، ص ص. 212-213 ؛ سامح التر، المرجع السابق، ص. 460.

- de Grammont, "**Correspondance...**", Op. cit., 1887, p. 468.

4. الجزائري، **التحفة...**، المصدر السابق، ص. 212، ه. 1 ؛ الجيلالي، نفس المرجع السابق، ص. 213.

5. الجزائري، نفس المصدر السابق، ص ص. 212-215. - Fey, Op. cit., p. 129.

6. انظر : الجيلالي، نفس المرجع السابق، ص. 213، ه. 1 ؛ مولاي بلحميسي، "**تحرير مدينة وهران سنة 1708**"، في : مجلة تاريخ و حضارة المغرب 9، 1970، ص. 69، ه. 53. - Fey, Ibid., p. 130 ; Mercier, **Histoire de l'Afrique**..., Op. cit., p. 334.

7. الجزائري، نفس المصدر السابق، ص ص. 221-223 ؛ وولف، المرجع السابق، ص ص. 377-378 ؛ بلحميسي، نفس المرجع السابق، ص. 70. - Fey, Ibid., pp. 131-132 ; Mercier, Ibid.

لمزيد من التفاصيل حول الأبراج و التحصينات الإسبانية، انظر : علي خلاصي، **التنظيمات و المنشآت العسكرية الجزائرية في العصر الحديث**، ج. 2، دكتوراه في علم الآثار، جامعة الجزائر، 2005، ص ص. 427-446 و ما بعدها.

- M. de Epalza & J.B. Vilar, **Planos y mapas hispánicos de Argelia (siglos XVI-XVIII)**, Ministerio de Asuntos Exteriores, Madrid, 1988, p. 183.

و بعد سقوط تلك الأبراج الخارجية، باشر الجزائريون هجومًا قويًا على مدينة وهران نفسها. و لمّا أدرك حاكمها عقم المقاومة بسقوط قلعتي البرج الجديد و البرج الأحمر (رأس القصر) و كذا القصبة، انسحب بحرًا إلى قلعة المرسى الكبير مع فلول قوّاته ؛ و دخل السر عسكر و باي الغرب المدينة ظافرين على رأس قوّاتهم يوم 20 يناير 1708م[1]. بعدئذٍ، نقل أوزون حسن قوّاته إلى المرسى الكبير، و أحكم عليها الحصار بشكل منع وصول أيّة إمدادات ؛ و لم يطل الوقت حتّى هدّدت الإسبان المجاعة، كما أحدثت الألغام ثلمًا في التحصينات، فاستسلم آخر معاقلهم يوم 3 أبريل[2].

و عاد أوزون حسن إلى العاصمة يوم 26 مايو محمّلاً بالغنائم يسوق أمامه نحو 1461 أسير إسباني، من بينهم مائتي ضابط و فارس[3] ؛ فانتقى منهم الداي طائفة بعث بهم مع مفاتيح وهران الذهبية و هدايا ثمينة إلى الباب العالي في ديسمبر 1708م، ليعلم السلطان العثماني بالفتح و يطلب تعيين صهره بايلربايًا تقديرًا لعمله. كان الداي يسعى من خلال تلك الترقية إلى تعزيز سلطة خليفته و إصباغها بحصانة ذلك المنصب الشرفي، إلاّ أنّ الديوان الهمايوني تجاهل الطلب، خشية أن يضعف ذلك الروابط بين الدولة العثمانية و إيالتها[4].

مكافأةً لليولداش الّذين تميّزوا باستبسالهم في القتال، كان الداي بكداش قد أمر بأن ترفع مواجبات عددٍ منهم إلى الراتب الأقصى[5]، كما أقرّ تخفيضًا للضرائب المفروضة على مجمل الرعية[6]. بيد أنّه بزوال التحسّن المؤقّت على المستوى المالي الناتج عن فتح وهران، اصطدم الداي بنفس الصعوبات الّتي واجهها

---

1. الجيلالي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 214 ؛ بلحميسي، "**تحرير...**"، المرجع السابق، ص. 71.

و بعد هذا الانتصار الكبير، نقل بوشلاغم مقرّ البايلك من معسكر إلى وهران، الّتي عمل على تهيئتها و إعمارها بالسكّان : عبّاد، المرجع السابق، ص. 151.

2. الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 205 ؛ الجيلالي، نفس المرجع السابق، ص ص. 214-215 ؛ دغموش، المرجع السابق، ص ص. 139-140.

3. المدني، **حرب...**، المرجع السابق، ص. 462 ؛ الجزائري، **التحفة...**، المصدر السابق، ص. 258، ه. 8 ؛ الجيلالي، نفس المرجع السابق، ص. 216.

4. الجزائري، نفس المصدر السابق، ص. 30 ؛ وولف، المرجع السابق، ص ص. 378-379.

- Hammer-Purgstall, Op. cit., T. 13, pp. 201-202.

انظر أيضًا : دفتر مهمّات الديوان الهمايوني، رقم 116، ص. 103. نقلاً عن : سامح التر، المرجع السابق، ص. 460، ه. 2 ؛ ر. د. أ. ع.، **الجزائر في الوثائق العثمانية**، سيستام اوفسات، أنقرة، 2010، ص ص. 30-32.

5. نذكر على سبيل المثال اليولداش البليدي محمّد بن حسن الّذي رفع راتبه من 64 إلى 80 صايمة (الصايمه هي عملة حسابية تساوي خمسين آقجة) في ربيع الأوّل 1119ه الموافق ليونيو 1707م : **دفتر مواجبات...**، المصدر السابق، رقم 1961، و. 34 و°. انظر أيضًا :

- Merouche, **Monnaies...**, Op. cit., p. 31.

6. Devoulx, **Tachrifat**, Op. cit., p. 11.

أسلافه ؛ و ضاعف من مصاعبه أن باي قسنطينة علي بن محمود تباطأ عن الدنوش الصغير المقرّر إرساله في خريف 1709م، و لمّا ألّح عليه بجلب تلك العوائد الضريبية، جمع كلّ الأموال الّتي تمكّن من وضع يده عليها و فرّ إلى وجهة مجهولة[1]. لسدّ العجز في الإيرادات و استكمال أموال الراتب، اقتطع بكداش - أو بالأحرى اقترض - قسطًا من أموال بيت المال الخاصّة بالغيّب و المتوّفين ؛ و كانت تلك هي الذريعة الّتي استغلّها متآمرون لإعدام الداي في قصر الجنينة يوم السبت 22 مارس 1710م، مغتنمين فرصة خروج خليفته أوزون حسن على رأس محلّة[2].

1-2-7. عهد الداي دالي إبراهيم باي (1710)

على الفور، نصّب المتآمرون المشتركون في اغتيال بكداش زعيمهم دالي إبراهيم دايًا، الّذي ارتدى قفطان الدايلك الملطّخ بدماء سلفه ؛ و لقد أقرّه الديوان دون صعوبة، خصوصًا أنّ المعني كان يشغل ساعتئذٍ منصب آغا الصبايحية العرب[3]. و لم يهدأ للداي الجديد بال حتّى ثنى بقتل صهر بكداش أوزون حسن، الّذي كان يخشى ثأره و صيته الحسن لدى الأوجاق و الرعية على حدٍّ سواء ؛ فأرسل في أثره فرسانًا "**لحقوه إلى المكان المسمّى ذراع الكلخ و ذبحوه، و حملت رأسه إلى الجزائر و دفن بجانب حموه**[4]". و كان مقتل فاتح وهران يوم السبت 19 صفر 1122هـ الموافق لآخر يوم من أبريل 1710م، مثلما يدلّ على ذلك شاهد قبره[5].

---

1. ابن المفتي، المصدر السابق، ص. 105 ؛ وولف، المرجع السابق، ص. 382 ؛ الجيلالي، المرجع السابق، ج. 3، ص ص. 219-220.

- Vayssettes, Op. cit., 1868, pp. 285 & 287-288 ; Mercier, **Histoire de l'Afrique**..., Op. cit., pp. 336-337.

تركت حادثة هروب علي باي بن محمود أثرًا كبيرًا لدى الإنكشارية، حيث أمر الداي علي شاوش (1710-1718م) في بداية حكمه، بمعية الديوان، بنقش لوحة من الرخام لتعلّق بدار الإمارة، تتضمّن وعيدًا شديدًا لأيّ باي تسوّل له نفسه مستقبلاً الاستيلاء على الضرائب المخصّصة لدفع العلوفات : سامح التر، المرجع السابق، ص ص. 461-462، ه. 1. - Colin, Op. cit., pp. 80-82.

لمزيد من المعلومات حول ضريبة الدنوش، انظر : توفيق دحماني، **الضرائب في الجزائر (1206-1282هـ/1792-1865م). دراسة مقارنة**، دكتوراه في التاريخ الحديث و المعاصر، جامعة الجزائر، 2008، ص ص. 231-232.

2. ابن المفتي، نفس المصدر السابق، ص. 60 ؛ الجزائري، **التحفة...**، المصدر السابق، ص. 31.

بخصوص مساس محمّد بكداش بالأموال الخاصّة بالغيّب و المتوّفين، أمر الديوان في عهد الداي علي شاوش (سبتمبر 1710م) بالمثل بنقش لوحة رخامية علّقت في دار الإمارة للتذكير بقراره الناهي عن ذلك : - Colin, Ibid., pp. 77-80.

3. ابن المفتي، نفسه ؛ سامح التر، نفس المرجع السابق، ص. 462 ؛ الجزائري، نفسه.

هذا الموقف يوافق إلى حدّ كبير ما ذكره الفرنسي لوجييه دو تاسي عن جوّ الصراع على السلطة، الّذي ساد أحيانًا انتخابات الديوان :

- J. Ph. Laugier de Tassy, **Histoire du Royaume d'Alger**, Henri du Sauzet, Amsterdam, 1725, pp. 213-214.

4. ابن المفتي، نفسه.

5. A. Berbrugger, "**Épitaphe d'Ouzoun Hassan, le conquérant d'Oran en 1708**", in : R.A. 9, 1865, pp. 123-126.

استحقّ الداي إبراهيم بحقّ تلقيبه بدالي (المشتقّة من التركية دلي "مجنون")، فقد كان يخفي شخصية دموية و منحرفة خلف مظهر الصرامة في تطبيق العدالة. و لم يدم حكمه إلاّ أشهرًا معدودة ؛ إذ بعد محاولته الاعتداء على زوجة علج برتغالي من الريّاس، تألّبت لصراخها جموع اليولداش ضدّه، و ألجأته إلى التمترس جريحًا في غرفة بأعلى قصر الجنينة، حيث قتل بعد مقاومة عنيدة بفعل القنابل، الّتي رميت من ثغرة محدثة في سقف الغرفة[1].

1-2-8. عهد الداي أوزون علي (1710-1711م)

خلفًا له، تمّ انتخاب سوكلي علي بن حسين دايًا يوم 14 أغسطس 1710م، و هو رجلٌ حازم حظي باحترام الديوان لشغله حينئذٍ منصب باش شاوش (ج. 395)[2].

و فور تنصيبه، كانت أولى اهتمامات الداي الجديد - الّذي عرف أيضًا ببابا علي أو علي شاوش -، تتبّع جميع شركاء دالي إبراهيم بالقتل أو النفي[3] ؛ و كان من ضمنهم أحمد باشا الّذي نفاه إلى أوروبا ("**برّ النصارى**") يوم 21 أغسطس[4]، بسبب تورّطه في اغتيال بكداش و صهره[5].

و لا أساس له من الصحّة ما ذكرته عدّة مراجع من أنّ بابا علي شاوش أجرى عملية تطهير واسعة في صفوف الإنكشارية أدّت إلى مقتل ما يقرب من ألف و خمسمائة من أفرادها[6]، إذ الأصحّ أنّه أمر بملاحقة

---

1. Laugier de Tassy, Op. cit., pp. 215-219 ; P. J. A. Roubaud, **Histoire générale de l'Asie, de l'Afrique et de l'Amérique**, T. 4, Des Ventes de la Doué, Paris, 1772, pp. 346-347 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 225.

- ابن المفتي، المصدر السابق، ص. 60 ؛ سامح التر، المرجع السابق، ص. 462 ؛ وولف، المرجع السابق، ص. 382 ؛ الجيلالي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 220.

2. Laugier de Tassy, Ibid., p. 52 ; Delphin, Op. cit., 1922, p. 207 ; Id., 1925, pp. 8-9.

- **دفتر مواجبات…**، المصدر السابق، رقم 1962، و. 3و٠. تجدر الإشارة إلى أنّ ابن حمادوش ذكره باسم أوزن شاوش، انظر : ابن حمادوش، المصدر السابق، ص. 227. انظر أيضًا : مجهول، **تاريخ أمراء…**، المصدر السابق، و. 5 و٠.

3. Mercier, **Histoire de l'Afrique**…, Op. cit., p. 337. - وولف، نفسه.

4. ابن المفتي، نفسه.

5. كان كوسة أحمد باشا - الّذي تولّى بايلربايًا لجزائر الغرب في الثاني من يوليو 1709م - يكّن كرهًا شديدًا للداي بكتاش، كون هذا الأخير قلّص معاشه إلى النصف، أي ألف ريال شهريًا، مغتاظًا من عدم منح الباشوية لصهره أوزون حسن : ابن المفتي، نفس المصدر السابق، ص. 59 ؛ مجهول، **تقييد…**، المصدر السابق، و. 2ظ٠.

- Galibert, Op. cit., p. 237 ; Laugier de Tassy, Ibid., p. 52 ; A. Berbrugger, "**Observations sur la communication précédente (L'Oued El-Kebir et Collo)**", in : R.A. 3, 1858-59, p. 208.

6. بن عمّار، المرجع السابق، ص. 97 ؛ عبّاد، المرجع السابق، ص. 152.

- Roubaud, Ibid., p. 347 ; Mouloud Gaïd, **L'Algérie sous les Turcs**, Éditions Mimouni, Alger, 1991, p. 154.

عصابات اللصوص و قطاع الطرق، الّتي استغلّت انشغال السلطة المركزية بالحروب و الاضطرابات فترةً طويلة لتعيث فسادًا و فوضى في الأرياف، و حتّى الفحوص القريبة من الجزائر ؛ و ذكِر أنّه قتل من أولئك السفلة نحو ألف و سبعمائة خلال الفترة الأولى من حكمه علّقت رؤوسهم للعبرة على أسوار العاصمة[1]. و بفضل هذا العمل الحازم، استتبّ الأمن و عرفت كافّة الأنشطة الاقتصادية تحسّنًا ملحوظًا.

و في الأثناء، قام الداي بابا علي بإيفاد مبعوثٍ محمّلٍ بالهدايا إلى إستانبول بغرض إقناع السلطان أحمد الثالث (1703-1730م) و الصدر الأعظم بلطجي محمّد باشا بعدم إرسال باشا للجزائر، حيث أوضح لهم أنّ المنصب كان مثار اضطرابات و فتن، بسبب سعي العديد من الباشوات إلى محاولة استعادة حقوقهم و امتيازاتهم السابقة على حساب سلطة الدايات، و تورّطهم لأجل ذلك في مؤامراتٍ رامية إلى زعزعة و إسقاط حكّام الإيالة ؛ و عليه، قدّم التماسًا بإسناد منصب البايلرباي أو الباشا للداي[2].

قابل الديوان الهمايوني الطلب الجزائري هذه المرّة كذلك بالرفض، و قام بتعيين شارقان إبراهيم باشا بايلربايًا على الجزائر ؛ و قد كان مرّد هذا الرفض التوجّس من استقلال الإيالة من جهة، و انهماك الدولة العثمانية بالإعداد للحرب ضدّ روسيا من جهة أخرى[3]. بيد أنّ الداي بابا علي رفض استقبال البايلرباي المعيّن من قبل إستانبول، و هدّده بالقتل في حال إصراره على النزول، فانسحب الباشا عائدًا[4].

و بعد فترة وجيزة، أرسل الداي مجدّدًا برسالة مع هدايا فاخرة إلى السلطان و السلطانة الوالدة و كبار رجال الحاشية، حيث بيّن في الرسالة مساوئ ازدواجية السلطة، مؤكّدًا أنّه بإسناد الباشوية له، فإنّ الإيالة ستحافظ مهما يكن على ولائها للدولة العثمانية و تبعيتها. لقد أقنعت حجج الداي أخيرًا السلطان بوجهة نظره، فقَبِل ضمّ لقب الباشوية إلى سلطة الداي[5].

تبيّن لنا ذلك بشكل جليّ من جرد دفتر مواجبات الإنكشارية العائد للفترة (مايو 1709-مايو 1714م)، حيث لاحظنا نسبة وفيات متدنّية جدًّا، خصوصًا مع عدم نشوب حروب و اضطرابات مثل الّتي عرفتها الفترة السابقة : **دفتر مواجبات...**، المصدر السابق، رقم 1979.

1. de Grammont, **Histoire d'Alger...**, Op. cit., p. 227. - سامح الترّ، المرجع السابق، ص ص. 462-463.

2. Galibert, Op. cit., pp. 237-238 ; Laugier de Tassy, Op. cit., p. 52 ; de Grammont, Ibid.

3. L. Féraud, "**L'Oued El-Kebir et Collo**", in : R.A. 3, 1858-59, pp. 205-206 ; Hammer-Purgstall, Op. cit., T. 13, pp. 223-226 & sq.

- مبدر محمّد علي أحمد، **الدولة العثمانية في عهد السلطان أحمد الثالث (1703-1730م)**، دار الحامد، عمّان، 2014، ص ص. 102-105.

4. الجدير بالذكر أنّ شارقان إبراهيم باشا أصيب بوعكة في طريق العودة إلى الشرق ؛ و لمّا اشتدّ به المرض، احتمت السفينة الّتي تقلّه من العاصفة بمرسى القل حيث تمّ إنزاله، و لم يلبث أيّامًا حتّى وافته المنية في ربيع الأوّل 1123هـ الموافق لأبريل/مايو 1711م، و دفن هناك :

- Féraud, Ibid. ; de Grammont, "**Correspondance...**", Op. cit., 1887, p. 460 ; Mercier, **Histoire de l'Afrique**..., Op. cit., p. 337.

5. فاضل مهدي البيات، **الدولة العثمانية في المجال العربي. دراسة تاريخية في الأوضاع الإدارية في ضوء الوثائق و المصادر العثمانية حصرًا : مطلع العهد العثماني – أواسط القرن التاسع عشر**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007، ص. 544.

2. الأوجاق خلال أوج عهد الدايات (1711-1791م)[1]

2-1. الفترة الأولى (1711-1748م) : فترة التثبيت

2-1-1. عهد الداي أوزون علي باشا (1711-1718م)

في يوليو 1711م، خرجت قادرغة سلطانية تقلّ قپوجي باشي من إستانبول على رأس عمارة من أربع سفن متوجّهة إلى الأوجاقات الغربية، و عرّجت في طريقها على العاصمة الطرابلسية يوم 6 أغسطس[2] ؛ و المرجّح أنّها وصلت الجزائر خلال شهر سبتمبر، حيث قرأ المبعوث، بعد أن اجتمع الديوان العامّ، فرمان تولية علي شاوش بايلربايًا إضافةً إلى منصبه كداي، و ألبسه الخلعة الفخرية أمام الملأ[3].

انظر أيضًا : مبدر أحمد، نفس المرجع السابق، ص. 53 ؛ غطّاس، **الدولة...**، المرجع السابق، ص. 57 ؛ الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص ص. 209-210.

إنّ الرأي القائل بأنّ منح الباشوية لدايات الجزائر يعتبر بحدّ ذاته استقلالاً - أو بتعبير آخر انفصالاً - عن الدولة العثمانية، لهو رأيٌ مجانب للحقيقية التاريخية، إذ أنّ الدولة العثمانية أصلاً لم تتّبع مركزية صارمة تجاه حكم جزائر الغرب، بل كان حكمًا ذاتيًا اتّسمت خلاله تدخّلات الديوان الهمايوني بالمرونة، خصوصًا و أنّ عموم البلاد الجزائرية كما هو معلوم انضوت تحت السلطة العثمانية بإرادة أهاليها. و رغم أنّ الروابط ضعفت نسبيًا خلال القرن السابع عشر - و كانت أبرز مظاهر هذا التراخي ربط علاقات دبلوماسية مع الدول المسيحية بمعزل عن الدولة العثمانية -، بسبب تناقص اهتمام الدولة بمجالها الغربي و تنفّذ الإنكشارية على سلطة الولاة، فإنّ حاجة الإيالة من وقتٍ لآخر للمجنّدين الأتراك العثمانيين لأجل ضمان استمرارية أوجاقها، حالت دون حدوث قطيعة و أبقت على أمارات الولاء و الدعم العسكري قائمة إلى حين سقوط الجزائر عام 1830م. من جانبٍ آخر، تجدر الإشارة إلى أنّ حكّام الإيالة، الّذين لم يكونوا يرسلون إتاوة أو هدايا إلى الباب العالي قبل سنة 1711م إلاّ في مناسبات نادرة، جعلهم سعيهم في نيل الباشوية يرسلون هدايا - كان يتولىّ تسليمها موظّف رفيع المستوى دعي "آغا الپشكش" أو قائد الهدية - بشكلٍ أكثر تواترًا كتعبير رمزي لتبعيتهم. و بناءً على ما سبق ذكره، يمكننا القول أنّ صيرورة الداي ممثّلاً للسلطان صبّ في خانة تكريس استقلالية - أكثر من أيّ شيءٍ آخر - اكتسبت في الواقع سالفًا خلال فترة الآغوات. انظر في هذا الصدد : أحمد عزّت عبد الكريم و آخرون، **تاريخ العالم العربي في العصر الحديث**، دار الجمهورية، مصر، د.ت.، ص ص. 44-45 ؛ بن عمّار، المرجع السابق، ص ص. 98-100 ؛ عبد القادر فلّوح، **العلاقات الجزائرية العثمانية في الفترة (1233-1246هـ الموافق لـ 1818-1830م)، على ضوء وثائق المكتبة الوطنية الجزائرية**، ماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر، جامعة الجزائر 2، 2010، ص ص. 53-55 ؛ عبد الجليل التميمي، "**العلاقات الجزائرية البندقية على ضوء أربع رسائل جديدة لدايا الجزائر إلى دوج البندقية خلال السنوات (1764-1782)**"، في : م.ت.ع.د.ع. 40، 2009، ص ص. 12-13،، ه. 10 ؛ مبدر أحمد، نفسه.

- Venture de Paradis, Op. cit., pp. 104-105 ; R. Mantran, "**L'évolution des relations politiques entre le Gouvernement ottoman et les Odjaks de l'ouest du XVIe au XIXe siècle**" in : R.H.R. 2-3, 1964, p. 55 ; E. Watbeld, "**Pachas – pachas-deys**", in : R.A. 17, 1873, pp. 441-442.

1. انظر بخصوص هذا التقسيم : غطّاس، **الدولة...**، المرجع السابق، ص. 58.

2. شارل فيرو، **الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتّى الغزو الإيطالي**، ترجمة و تحقيق و تقديم محمّد عبد الكريم الوافي، ط. 3، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 1994، ص ص. 266-270 ؛ الطرابلسي، المرجع السابق، ص. 285.

3. ابن المفتي، المصدر السابق، ص ص. 60-61.

و منذئذٍ، أضحى حكّام الجزائر يجمعون بين منصبي البايلرباي و الداي بشخصهم ؛ و غدت عبارة "**إلى بايلرباي جزائر الغرب و دايها**" تستعمل منذ ذلك الوقت فصاعدًا في الفرمانات الواردة من الباب العالي[1]. أكسب هذا الجمع بين السلطة التنفيذية للدايلك و السلطة التشريفية للباشوية الدايات نفوذًا و هيبةً كبيرين، و فسح لهم المجال لممارسة سلطتهم باستقلالية أكثر عن تنفّذ الديوان و الإنكشارية. بيد أن ذلك لم يمنحهم نفس الحصانة الّتي كان يتمتّع بها الباشوات المرسلون من إستانبول، فقد اعتاد الإنكشاريون القيام بانقلابات و تمرّدات مهما كان الداي قويًا أم ضعيفًا ؛ ففي 23 يونيو 1713م، تعرّض الدولتلي لمحاولة اغتيال لدى خروجه من صلاة الجمعة، لكنّه لم يصب إلاّ بجروح طفيفة، فيما فرّ المتآمرون إلى أحد المنازل و اعتصموا به، و دافعوا عن أنفسهم باستماتة إلى حين فُجِّرت بعض جدران معتصمهم، فاستسلموا و أُعدموا خنقًا بعد وقتٍ قصير[2].

في أواخر سنة 1714م، ورد فرمان من الباب العالي يأمر الداي بإرسال خمسة عشر سفينة من سفن الريّاس، للإعانة على تحرير شبه جزيرة المورة من البنادقة ؛ كما طلب إرسال من 150 إلى 200 بحّار مسيحي ليعملوا في الأسطول العثماني، و عددٍ مماثلٍ أو أكبر من قطع مدفعية البحرية على أن يتمّ إرفاقهم ببعض معلّمي الطوبجية[3].

الجدير بالذكر أنّ أوّل إشارة للقب باشا وردت في اسم الداي علي في سبتمبر 1712م فيما يخصّ المنقوشات الكتابية، و في أكتوبر من ذات السنة فيما يتعلّق بالمسكوكات ؛ كما أنّه وردت عبارة "متقاعد" في بيانه المدرج في قائمة "چاوشان يكْيچريان جزائر غرب حالاً" في ديسمبر 1711م :

- Mehmet Tütüncü, **Cezayir'de osmanli izleri (1516-1830)**, Çamlica, Istanbul, 2013, pp. 172-173 ; Colin, Op. cit., pp. 84-87 ; Delphin, Op. cit., 1925, pp. 8-9.

- **دفتر مواجبات...**، المصدر السابق، رقم 1962، و. 3 و°.

1. سامح التر، المرجع السابق، ص. 463 ؛ غطّاس، **الدولة...**، المرجع السابق، ص. 57.

يجدر التنويه إلى أنّه بالموازاة مع إسباغ الباشوية على الداي، قام الباب العالي بتعيين وكيل للجزائر باسم "قپو كتخدا سي" ممثّلاً لحاكم الإيالة في إستانبول : فلّوح، المرجع السابق، ص ص. 58-60.

انظر أيضًا : - Barbier de Meynard, Op. cit., 2e vol., pp. 495 & 612.

2. سامح التر، نفس المرجع السابق، ص. 465 ؛ الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 210.

3. دفتر مهمّات الديوان الهمايوني (أواخر ذي القعدة 1126هـ)، رقم 120، ص. 284. نقلاً عن : سامح التر، نفسه.

مع دخول النمسا الحرب إلى جانب البندقية، دعت الدولة العثمانية مجدّدًا أوجاقات الغرب للمساهمة ببحرياتها أواخر سنة 1717م :

- دفتر مهمّات الديوان الهمايوني (أواسط محرّم 1130هـ)، رقم 126، ص. 258. نقلاً عن : نفسه، ص. 467.

و لقد لعبت البحريات المغاربية، و على رأسها الريّاس الجزائريون، دورًا محوريًّا في انتصارات الأسطول العثماني على البنادقة. انظر في هذا الصدد : مبدر أحمد، المرجع السابق، ص ص. 112-120 ؛ أوزتونا، المرجع السابق، مج. 2، ص ص. 598-599.

أدّى زلزال فبراير 1716م المهوّل، الّذي ضرب وسط الجزائر و آثاره التدميرية[1]، إلى تردّي الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية، الّتي ساءت كثيرًا بسبب سنوات متواصلة من الجفاف ؛ و كما لو أنّ تلك المصاعب لم تكن كافية للداي علي باشا، فرّ الحاج محمّد بيت المالجي خلال سنة 1717م إلى مصر بعد أن نهب خزنة بيت المال[2]. و لا نعلم إن تمّ استرداد المال و الأغراض النفيسة، لكن المؤكّد أنّ الداي تعرّض نتيجة كلّ ذلك لمحاولتي اغتيال فاشلتين على يد جنود ناقمين : الأولى عقب الزلزال المذكور، على يد مجموعة منهم حاصروه ببرج النجمة (برج محمّد باشا)[3] الّذي التجأ إليه ؛ و الثانية منتصف أغسطس 1717م، حين هاجم بعضهم قصر الجنينة، ثمّ حاولوا حرقه لإلجاء الداي على الخروج[4].

رغم كلّ ذلك، أدار الداي علي باشا البلاد بشكل جيّد، و استطاع فرض كلمته على الديوان. و لمّا أصابه داء الزحار و أدرك وزراؤه أنّ أيّامه معدودة، اتّفقوا بأن يختاروا أحدهم - و هو الخزناجي محمّد بن حسن - خلفًا له، دون معارضةٍ تذكر من أعضاء الديوان. و يعتبر هذا الحدث بمثابة خطوة حاسمة في سبيل إرساء دعائم نظام سياسي بمنأى عن سطوة الجند الإنكشاري، إلى جانب كونه أولى مؤشّرات تراجع نفوذ ديوان الإنكشارية لصالح ديوان الباشا (حكومة الداي)[5].

---

1. تميّز ذلك الزلزال بشدّته، فقد ألحق خرابًا بمدن الجزائر و شرشال و بجاية، بعد أن تكرّرت هزّاته المدمّرة أيّام 3 و 5 و 26 فبراير 1716م، و قضى حسب بعض المصادر على حوالي عشرين ألف نسمة من سكّان مدينة الجزائر و فحوصها ؛ و أجبر السكّان إلى التحوّل إلى فحص المدينة بعد أن تهدّمت أغلب دورهم، و صاحب ذلك فوضى و أعمال سرقة و نهب اضطرّت الداي إلى اتّخاذ إجراءات ردعية شديدة لوضع حدّ لها. انظر : ج. أو. هابنسترايت، **رحلة العالم الألماني ج. أو. هابنسترايت إلى الجزائر و تونس و طرابلس (1145هـ-1732م)**، ترجمة و تقديم و تعليق ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2007، ص. 68، ه. 2.

2. سامح التر، المرجع السابق، ص ص. 466-467 ؛ ابن المفتي، المصدر السابق، ص ص. 77-78 ؛ الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص ص. 210-211.

- H.D. de Grammont, « **Correspondance des consuls d'Alger** », in : R.A. 32, 1888, p. 60.

3. انظر بخصوص البرج المذكور : خلاصي، المرجع السابق، ج. 1، ص ص. 218-219.

4. Id., pp. 68-69 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 228.

- سامح التر، نفس المرجع السابق، ص ص. 466 و 468.

تستحضرنا تلك المحاولات ضدّ علي شاوش ما ذكره الرحّالة الألماني هابنسترايت : "**أمّا محاولات الاغتيال الّتي يقوم بها رعايا الداي للتخلّص منه، فتعود إلى خبث طبيعة و سوء نية بعض الأفراد، و لا يمكن أن نعتبرها صادرة عن سلوك يتّصف به الشعب كلّه، مع أنّ هذه المحاولات تكون في بعض الأحيان تعبيرًا عن رفض الطغيان و التصدّي للظلم**" : نفسه، ص. 47.

5. Laugier de Tassy, Op. cit., p. 220.

انظر أيضًا في هذا الصدد : غطّاس، **الدولة…**، المرجع السابق، ص ص. 57-58.

- Boyer, "**Des Pachas triennaux…** ", Op. cit., p. 111 ; Boyer, "**Introduction…**", Op. cit., p. 310.

2-1-2. عهد الداي محمّد خزناجي باشا (1718-1724م)

تولّى الخزناجي محمّد بن الحسن دولتلي في 6 أبريل 1718م، أي اليوم الّذي تلا وفاة سلفه. و عقب انتخابه، بادر إلى إرسال الهدايا إلى إستانبول، فتحصّل بعد بضعة أشهر على فرمان تعيينه بايلربايًا[1].

واجه الداي منذ البداية أوقاتًا عصيبة حيث نكبت البلاد بسلسلة من السنوات العجاف تمادت خمس سنوات، من 1718 إلى 1723م : فبعد وباء طاعون اكتسح الإيالة بين عامي 1718 و 1720م[2]، أدّى اشتداد القحط الّذي صاحبه غزو الجراد إلى التسبّب في تلف قسمٍ كبيرٍ من المحاصيل ؛ و خلال أربع سنوات كاملة (1721-1725م)، عانت الأرياف من نقص فادح في الأقوات خلّفت مجاعة رهيبة بين السكّان، بينما عرفت المدن ندرةً في الحبوب و غلاءً شديدًا في أسعار القمح و الشعير، ممّا اضطرّ الداي محمّد إلى استيراد كميّات من القمح من فرنسا و المشرق للتخفيف من وقع النكبة[3]. و أدّى هذا الوضع إلى انتشار روح التمرّد وسط سكّان الأرياف و رفضهم دفع الضرائب، و عاد إلى سابق عهده قطع الطرق، الّذي كان قد أخمده علي شاوش ؛ فعلى سبيل المثال، هاجم سكّان القبائل الّذين استبدّ بهم الجوع شرقي سهل متيجة، بعد أن حطّموا برج منايل[4] ؛ و لقد قرّر الداي حيال ذلك إنشاء قيادة سيباو الّتي أتبعها بايلك التيطري، كما أمر آغا الصبايحية العرب عبدي آغا باتّخاذ إجراءات صارمة لإحلال الأمن بدار السلطان[5].

---

1. ابن المفتي، المصدر السابق، ص. 61 ؛ سامح التر، المرجع السابق، ص. 468.

- Laugier de Tassy, Op. cit., pp. 220 & 224 ; Plantet, **Correspondance des deys…**, Op. cit., T. 2, p. 97, n. 1 ; Delphin, Op. cit., 1922, p. 208 ; Id., 1925, pp. 8-9.

انظر نصّ فرمان تعيين الداي محمّد محلّ بكلربكى الجزائر علي باشا المتوفّى، نزولاً عند رغبة الأهالي : ر. د. أ.ع.، المصدر السابق، ص ص. 34-35.

2. Marchika, Op. cit., p. 75.

3. مجهول، **تقييد…**، المصدر السابق، و. 3 ظ ؛ فلّة موساوي القشاعي، **الصحّة و السكّان في الجزائر أثناء العهد العثماني و أوائل الاحتلال الفرنسي (1518-1871)**، دكتوراه في التاريخ الحديث و المعاصر، جامعة الجزائر، 2004، ص. 68.

انظر أيضًا : محمّد الأمين البزّاز، **تاريخ الأوبئة و المجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر و التاسع عشر**، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية، الرباط، 1992، ص ص. 35-41.

- Plantet, Ibid., pp. 116-119 ; Peyssonnel et Desfontaines, Op. cit., T. 1, pp. 330-331 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., pp. 228-229 ; Merouche, **Monnaies…**, Op. cit., pp. 100-102.

4. ناصر الدين سعيدوني، "**الشبكة الدفاعية العثمانية حول بلاد القبائل**"، في : م.ت.ع.د.ع. 30، 2004، ص. 205.

- de Grammont, Ibid., pp. 229 & 231 ; N. Robin, "**Note sur l'organisation militaire et administrative des Turcs dans la Grande Kabylie**", in : R.A. 17, 1873, pp. 137-138.

5. سامح التر، نفسه ؛ الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 211.

سعت الأقاليم المتّحدة لدى الباب العالي سنة 1719م لحمل الجزائريين على إقامة معاهدة سلم، فكلّف القپوجي باشي حسين آغا بالمهمّة. و إزاء إصرار مبعوث السلطان على أن يُحترم مضمون الفرمان، ألقى أعضاءٌ من الديوان بمسؤولية القطيعة على الهولنديين، فيما عبرّ الداي متهكّمًا عن قابليته أن يعقد الصلح مع جميع الدول المسيحية إن تفضّل الباب العالي تعويضًا بدفع علوفات العسكر و افتداء جميع الأسرى الجزائريين ؛ هدّد حسين آغا، الّذي شعر بالإهانة، بأنّ هذا الموقف سيجرّ منع تجنيد الإنكشارية من الأناضول، فأفحمه محمّد باشا قائلاً بأنّه : "**يدخل الجزائر من باب عزّون كلّ يوم من الجنود الشجعان بقدر ما يجنّد من إزمير خلال عامٍ كاملٍ**"، تعبيرًا عن استعداده للاعتماد على أبدالٍ محلّيين من زواوة و زواتنة (كراغلة وادي الزيتون)[1].

في خريف 1721م، جهزّت الأقاليم المتّحدة لمحاربة الجزائريين عمارة من ستّ فرقاطات بقيادة ايرسن ڤان صوملسديك (Aerssen van Sommelsdijck)، و خيرّته بين التموقع بالمياه الفاصلة بين مالطة و صقلية لمنع وصول مجنّدي الإنكشارية إضعافًا لأوجاق الجزائر أو التعاون مع عمارة إسبانية لتعقّب سفن الريّاس الجزائريين و مطاردتها ؛ فاختار الحلّ الثاني، لكن دون تحقيق النتائج المرجوة. و عليه، اقترحت الحكومة الإسبانية عام 1723م أن تقوم العمارتين بفرض حصار بحري على ميناء الجزائر، غير أنّ الأسطول المشترك انسحب بعدما تيقّن من حصانة المدينة و مينائها[2]. و جرّاء ذلك، قام محمّد باشا بترميم تحصينات الميناء، كما بنى استحكامات ساحلية جديدة مثل برج الكيفان[3].

و لأنّ الأوقات العصيبة عادةً ما تمثّل ظرفًا خصبًا للمؤامرات، أقدم إنكشاري على إطلاق النار من أعلى ثكنة أوسطه موسى على الداي، بينما كان عائدًا من معاينة تحصينات جديدة صباح يوم 16 مارس 1724م قرب باب الجزيرة، فأرداه قتيلاً[4]. عندئذٍ، خرجت طائفةٌ من المتآمرين من مكمنهم لتصفية مرافقيه ؛ و بعد أن تمكنوا من قتل شاوش و خوجة و بعض الحرّاس، هرعوا إلى دار الإمارة قصد رفع أحدهم على كرسي الحكم[5].

---

1. Krieken, Op. cit., p. 93 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., pp. 230-231.

- سامح التر، المرجع السابق، ص ص. 469-470 ؛ الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص ص. 211-212.

تجدر الإشارة إلى أن البندقية قامت بمسعى مماثل لجعل سفنها بمأمن من هجمات قراصنة الأوجاقات المغاربية ؛ و أصدر فرمان سلطاني بمقتضى ذلك، إلاّ أنّ السلطات و الريّاس الجزائريين تجاهلوه تمامًا : سامح التر، نفس المرجع السابق، ص ص. 470-471.

2. Krieken, Ibid., pp. 93-95.

3. خلاصي، **التنظيمات…**، المرجع السابق، ج. 1، ص. 210. انظر أيضًا : - Tütüncü, Op. cit., pp. 184-185.

4. انظر بخصوص تلك الثكنة : نفسه، ص. 160.

5. Laugier de Tassy, Op. cit., p. 224 ; Mercier, **Histoire de l'Afrique**…, Op. cit., p. 349.

- سامح التر، نفس المرجع السابق، ص. 472 ؛ الميلي، نفس المرجع السابق، ص. 212.

2-1-3. عهد الداي كرد عبدي باشا (1724-1732م)

بالرغم من إصابته بضربة سيف، سبق الخزندار المتآمرين إلى مقرّ الحكم و أمر بإيصاد الباب ؛ و على وجه السرعة، أعلن دايًا عبدي آغا بن محمّد، الّذي كان وقتئذٍ آغا الصبايحية العرب و شغل سابقًا منصب باي التيطري[1]. و لذلك وجد المتآمرون رصاص النوبتجية (حرس القصر) في استقبالهم عندما وصلوا إلى دار الإمارة ؛ و من الغد ألقي القبض على من نجا منهم، و أعدموا لقاء جرمهم[2].

و طلب كرد عبدي مثل سابقيه الباشوية، غير أنّ القپوجي باشي الّذي حمل فرمان و قفطان التولية نزل بتونس، و قدم الجزائر برًّا ؛ و لم يكن له من مقصد سوى الاستخبار عن أحوال الإيالة و حكمها في طريقه إلى العاصمة، الّتي وصلها في يوم 9 أغسطس[3].

تمسّكًا باستقلالية الجزائر النسبية عن إستانبول فيما يخصّ شؤونها الخارجية، كان الداي قد رفض في مايو الفارط قبول الصلح الّذي عقد باسم الإيالة مع الأقاليم المتّحدة ؛ و لم يعط للخطّ الشريف[4] بالاً، كون الجزائريين لم تتمّ استشارتهم في ذلك، و لم تؤخذ بالتالي مصالحهم بعين الاعتبار[5].

و بالمثل، لم تلق دولٌ مثل السويد و الإمبراطورية الرومانية المقدّسة (النمسا) معاملة أفضل. فهذه الأخيرة، رُفض نزول سفيرها الّذي رافقه قپوجي باشيان، أوزون إسماعيل آغا ممثّل الصدر الأعظم و سليمان آغا ممثّل للقپودان باشا، في أغسطس 1725م[6] ؛ و لم يستقبل الداي عبدي باشا سوى مبعوثي الباب العالي في الديوان العامّ حيث قرئ فيه الخطّ الشريف[7]، و راح إسماعيل آغا يتلو ألقاب السلطان العثماني إلى أن وصل إلى نعته بـ"سلطان الجزائر"، حينئذٍ أوقفه الداي صائحًا : "**كيف يطلق على نفسه**

---

1. Laugier de Tassy, Op. cit., p. 225 ; H. Federmann & H. Aucapitaine, "**Notices sur l'histoire et l'administration du Beylik de Titeri**", in : R. A. 9, 1965, pp. 283-284, n. 3 ; Delphin, Op. cit., 1922, p. 208 ; Id., 1925, pp. 8-9.

- ابن المفتي، المصدر السابق، ص. 61.

2. الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 213. - de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 231.

3. de Grammont, « **Correspondance…** », Op. cit., 1888, p. 134.

4. خطّ شريف : اصطلاح عثماني استخدم للإشارة إلى المراسيم و الأوامر الصادرة مباشرةً عن السلطان العثماني، و تتضمّن كتابة بخطّ يده : المحامي، المرجع السابق، ص. 223، ه. 3. - Barbier de Meynard. Op. cit., 1er vol., p. 705.

5. Hammer-Purgstall, Op. cit., T. 14, pp. 112 & 116 ; Krieken, Op. cit., p. 96 ; de Grammont, « **Correspondance…** », Ibid.

انظر أيضًا : سامح التر، المرجع السابق، ص. 473.

6. Hammer-Purgstall, Ibid., p. 113.

7. دفتر مهمّات الديوان الهمايوني (أواخر رمضان 1138ه)، رقم 132، ص. 338. نقلاً عن : سامح التر، نفس المرجع السابق، ص ص. 475-476.

لقب سلطان الجزائر؟ و من أكون أنا إذًا؟"، و انفضّ الديوان وسط صخبٍ كبير. و من الغد، عاد المبعوثان و عرضا المطالب المتضمنة في الخطّ الشريف دون ذكر ألقاب. و كان من بين تلك المطالب عقد السلم مع الإمبراطورية و إعادة السفن التابعة لتلك الدولة، الّتي استولى عليها الريّاس السنوات السابقة[1] ؛ فتعالى تذمّر أعضاء الديوان و عبّروا عن موقفهم الرافض لأيّ صلحٍ مع النمسا، خصوصًا أنّها عقدت تحالفًا مع عدوّتهم اللدود إسبانيا في ذات السنة[2]. و عندما ذكّرهم المبعوثان بالاحترام الواجب لأوامر السلطان، رُدّ عليهما بشكاسة ؛ و في النهاية، عادت السفارة أدراجها دون التوصّل إلى نتيجة تذكر[3].

بعد ذهاب العمارة العثمانية، لم يكن العديد من أفراد الإنكشارية راضين عن تصرّف الداي، بحجّة أنّه خالف الأوامر السلطانية ؛ و قد حدث جرّاء ذلك هيجان منذر سقط فيه عدد من اليولداش قتلى[4]، فارتأى الداي - اتقاءً لما هو أسوأ - أن يلين موقفه. و تترجم ذلك في قبول الخطّ الشريف بتاريخ 8 سبتمبر 1726م، الّذي وضع أسس معاهدة الصلح مع الأقاليم المتّحدة، المقيّدة - تجدر الإشارة مع ذلك - بدفع إتاوة مجزية على شكل أسلحة و عتاد بحري لصالح الإيالة[5].

لقد استاء الديوان الهمايوني من حكومة الجزائر، لأنّها أبت إقامة الصلح مع النمسا، و لكنّه اضطرّ لاتباع أسلوب المداراة معها علّها تمتثل للأمر ؛ و حُمِّل القپوجي باشي إسماعيل جزئيًا مسؤولية عدم إقناع الجزائريين بلزوم طاعة السلطان. لذلك أرسل فرمان لبق حازم اللهجة أواخر مايو 1726م إلى الجزائر[6] ؛ و في هذه المرّة، تمّ قبول السلم مع الإمبراطورية النمساوية، و أرسل الجزائريون مكتوبًا يفوّضون فيه

---

1. تجدر الإشارة إلى أن قبول معاهدة سلم مع الإمبراطورية النمساوية، كان يعني اشتمالها على أغلبية الألمان، و الفلامنك الواقعين تحت السلطة النمساوية، بالإضافة إلى الصقليين، النابوليتانيين، الكالابريين، إلخ. و عمليًا، كان ذلك يعني بالنسبة للجزائريين آنذاك نهاية أنشطتهم البحرية (القرصنة)، ممّا علّل رفضهم : - Rousseau, **Annales…**, Op. cit., pp. 107 & 443.

2. Magnus Ressel, **The Dutch-Algerian War and the rise of British shipping to Southern Europe (1715-1726)**, in : C.M. 90, 2015, p. 250.

3. سامح التر، المرجع السابق، ص ص. 473-477 ؛ الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 213 ؛ وولف، المرجع السابق، ص. 388.
- Hammer-Purgstall, Op. cit., T. 14, pp. 114-115 ; de Grammont, « **Correspondance…** », Op. cit., 1888, p. 136.
انظر أيضًا الرواية الأكثر تفصيلاً و المختلفة قليلاً :
- Anonyme, "**Lettre écrite d'Alger, le 1 septembre 1725 au sujet de l'arrivée de l'escadre de vaisseaux de guerre du Grand Seigneur en ce port, etc. Extrait**", in : M.F. 1er vol., octobre 1725, pp. 2499-2503.

4. de Grammont, Ibid., p. 136, n. 1 ; Anonyme, Ibid., p. 2504.

5. Hammer-Purgstall, Ibid., p. 116 ; de Grammont, Ibid., pp. 138-139 ; Krieken, Op. cit., pp. 97-981 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 232.

6. انظر مقطع من الفرمان الوارد في دفتر مهمّات الديوان الهمايوني (أواخر شهر رمضان 1138هـ)، رقم 133، ص. 216.
نقلاً عن : سامح التر، نفس المرجع السابق، ص. 478.

القبودان باشا مصطفى باشا بعقد الصلح مع سفير النمسا، الّذي تمّ لاحقًا بحضور وكيل جزائر الغرب لدى الباب العالي[1]. و في 8 مارس 1727م، تمّت المصادقة من قبل الداي و آغا الإنكشارية و كاهيته على المعاهدة وفق نفس الشروط المتعاقد عليها مع تونس[2]، فيما رفضت مطالب أخرى تقدّم بها الباب العالي ؛ و من بينها تسليم شركس محمّد، أحد البكوات المماليك، الّذي التجأ إلى الجزائر بعد إخفاق تمرّده في مصر[3].

بيد أنّ الجزائريين لم يسرّهم عدم إرسال النمسا لأيّة هدايا كما جرت به العادة مع الدول المسيحية الأخرى ؛ و عليه، طالبوا بإصرار إدراج شروط إضافية. و في انتظار ذلك، أوقفوا العمل بالمعاهدة مؤقّتًا، بحيث لم يمنحوا السفن التجارية النمساوية غير ستّة جوازات تحديدًا[4].

و كانت محصّلة كلّ ذلك أنّ الديوان الهمايوني ضاق ذرعًا من خروج عبدي باشا عن الطاعة و كذا مخالفات الجزائريين تجاه الدول المسيحية، و عزم في ربيع 1729م حسمًا للأمر على إزاحة حكم الداي برّمته و بسط سلطته مباشرة على الإيالة ؛ و لأجل ذلك، عيّن أصلان محمّد باشا[5] بايلربايًا على جزائر الغرب، و أرفقه بقپوجي و بخمس و أربعين شخصية وزّعت عليها المهام الأساسية في الدولة. يوم 20 يونيو، عند وصول مركبهم أمام الميناء، تلقوا أمرًا من الداي بالرسو عند رأس تامنتفوست و الامتناع عن أيّ اتّصال مع البرّ، تحت طائلة التعرّض للقصف. و في نفس الوقت، استدعي الديوان لاجتماع طارئ تقرّر فيه عدم قبول الباشا المرسل من إستانبول. و بعد أن تمّ إبلاغ مبعوث السلطان بالقرار، و سلّمت له رسالة من قبل ديوان الجزائر، طلب منه الانسحاب في الحين[6].

---

1. سامح التر، المرجع السابق، ص. 478.

2. Hammer-Purgstall, Op. cit., T. 14, p. 116 ; Anonyme, "**Nouvelles du temps. Turquie**", in : M.F., octobre 1727, pp. 1884-1885.

- سامح التر، نفسه ؛ الجيلالي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 224.

3. انظر فيما يخصّ اضطرابات مصر خلال تلك الآونة و الدور الّذي لعبه شركس محمّد بك فيها :

- Anonyme, "**Suite de la Relation des derniers troubles arrivez**(sic) **en Égypte**", in : M.F. 1er vol., décembre 1726, pp. 2617-2630 ; Hammer-Purgstall, Ibid., pp. 163-167.

4. Hammer-Purgstall, Ibid., pp. 116-117 ; de Grammont, « **Correspondance…** », Op. cit., 1888, p. 146 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 232. انظر أيضًا : سامح التر، نفسه.

5. يروي ابن المفتي "**أن الباشا الّذي عومل هكذا كان يسمّى علي درناوي، و حسب بعض النّاس فهو يسمّى حسن**" : نفسه، ص ص. 62-63.

6. de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Ibid., p. 233.

- الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 214 ؛ سامح التر، نفس المرجع السابق، ص ص. 478-479.

لم يقف الديوان الهمايوني مكتوف الأيدي إزاء ما حدث، حيث استصدر من شيخ الإسلام عبد الله أفندي فتوى ضدّ داي الجزائر ؛ و بموجبها، عممّ فرمان على جميع الإيالات و الألوية العثمانية، بما فيها الجزائر، و كان متضمنًّا حظر التعامل مع الجزائريين و منعهم من الاقتراب من سواحل، جزر و مجمل الأراضي العثمانية، كما أشار ضمنيًا إلى احتمال استخدام القوّة لمعاقبة الداي الباغي[1].

و تمخّض عن ذاك الفرمان حدوث غليان في وسط الإنكشارية سرعان ما تحوّل، بتحريض من آغا الإنكشارية و بعض كبار الموظّفين، إلى تمرّد دام قرابة ثلاثة أيّام ؛ و استطاع الداي في الأخير القبض على أغلب المتمرّدين و أعدمهم[2]. و لو أنّه أضحى صاحب الكلمة الأولى في الديوان، إلاّ أنّ هذه الحادثة أشعرت الداي كرد عبدي بضرورة مراعاة مقتضيات الولاء للدولة العثمانية الوصية. لذلك سعى للحصول على عفو السلطان معترفًا بأخطائه، و قام بإرسال جماعة من العلماء و رجال الدين إلى إستانبول لتتوسّط له[3] ؛ و في غضون ذلك، "**فرض على نفسه نظام عدم الخروج من القصر و عيّن حراسة كافية درءًا لكلّ محاولة قد تحاك للاعتداء عليه**"[4] من قبل الإنكشارية، من فرط خشيته على حياته.

لقد تأخّر إصدار فرمان العفو و إلغاء ترتيبات الاستبعاد السابقة، الّذي أتبع فرمان تجديد الولاية، من قبل السلطان محمود الثاني إلى أواسط عام 1731م[5]، بسبب انشغال الدولة العثمانية من جهة بالحرب في فارس، و من جهة أخرى بثورة باترونا خليل الّتي عصفت بالسلطان أحمد الثالث و أركان دولته[6].

الجدير بالذكر أنّه ما إن حدثت القطيعة السالفة الذكر بين الدولة العثمانية و إيالة الجزائر في أواخر شهر أغسطس 1729م، حتّى شرعت إسبانيا في الاستعداد عسكريًا لإعادة احتلال وهران و المرسى الكبير

يذكر ابن المفتي بهذا الخصوص : "**... و في مدّة ولايته وصل باشا إلى الجزائر، لكنّه أرجع من البحر دون أن يتمكّن من النزول، و هذا نتيجة وفاق بين الكشايرية**(كذا) **حرّض عليه عبدي**" : نفسه، ص ص. 61-62.

1. انظر نصّ الفرمان الوارد في دفتر مهمّات الديوان الهمايوني (أوائل صفر 1142ه)، رقم 135، ص ص. 423-425. نقلاً عن : سامح التر، المرجع السابق، ص ص. 479-480.

2. de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 233. - نفسه، ص. 474 ؛ هابنسترايت، المصدر السابق، ص. 41.

3. سامح التر، نفس المرجع السابق، ص. 481.

4. انظر : "**مذكّرة حول حكومة الجزائر في الحالة الراهنة**" المؤرّخة في 1 يناير 1751م في : - A.E.P./M.D. Algérie XVI.
نقلاً عن : قنان، **نصوص...**، المصدر السابق، ص. 177.
انظر أيضًا في هذا الصدد : هابنسترايت، نفسه.

5. **مراسلات عثمانية**، م.و.ج.، مجموعة 3190-1، رقم 38. انظر : دفتر مهمّات الديوان الهمايوني (أوائل صفر 1144ه)، رقم 138، ص. 128. نقلاً عن : سامح التر، نفسه.
انظر أيضًا : - Tütüncü, Op. cit., p. 197.

6. انظر بخصوص أوضاع الدولة العثمانية خلال تلك الفترة : - Hammer-Purgstall, Op. cit., T. 14, pp. 214-228 & sq.
- مبدر أحمد، المرجع السابق، ص ص. 143-147 و 160-169.

مجدّدًا مغتنمةً الفرصة. و قد كلّفت سفن فرسان مالطة بالظهور قبالة ساحل الجزائر إبّان شهري أكتوبر 1731 و مايو 1732م في مهمّات استطلاعية، قصد ايهام الجزائريين بأنّ الاستعدادات الإسبانية الحثيثة الّتي بلغتهم أنباؤها آنفًا تستهدف عاصمتهم[1] ؛ و هذا ما يفسّر تباطؤ عبدي باشا في إرسال التعزيزات الّتي ألّح عليها باي الغرب مصطفى بوشلاغم لحماية وهران[2].

في 15 يونيو 1732م، انطلق الأسطول الإسباني المكوّن من أزيد من خمسمائة سفينة من أليكانت، أقلّ قرابة سبع و عشرين ألف جندي بقيادة الكونت دي مونتمار (Comte de Montemar) ؛ و في 29 من ذات الشهر، قام الإسبان بالإنزال على شاطئ راس الحرشفة (عين الترك) الواقع غرب المرسى الكبير[3]، فيما أرسلوا عددًا من السفن إلى خليج أرزيو يوهمون الجزائريين بأنّهم سيقومون بإنزال قوّاتهم هناك ؛ و انطلت الحيلة على الباي الّذي بعث بجزء معتبر من جيشه إلى ذلك الموقع[4]. هذه المناورة سمحت للإسبان استكمال إنزالهم بدون صعوبة ؛ و من ثمّ، شرعوا من الغد في تسلّق جبل سانتو[5]، حيث لاقوا مقاومة لا يستهان بها من قبل طلائع قوّات بوشلاغم[6].

---

1. de Grammont, « **Correspondance…** », Op. cit., 1888, pp. 159-160 & 234.

2. يرجّح جون وولف من جهته أنّ مرض الداي المسنّ هو ما عطّل قرار خروج آغا الصبايحية العرب بالتعزيزات العسكرية : نفسه، ص. 401. انظر أيضًا : عبّاد، المرجع السابق، ص. 156.

3. Thomas Shaw, **Voyages de Monsr. Shaw, M. D. dans plusieurs provinces de la Barbarie et du Levant**, traduits de l'anglois, T. 1, Jean Neaulme, La Haye, 1743, pp. 29 & 32-34.

4. A.N.P./Marine B7 311. نقلاً عن : قنان، **نصوص…**، المصدر السابق، ص. 167.

5. جبل سانتو (El Santo) : هضبة جبلية، تعرف أيضًا بالمايدة ؛ و هي ذات موقع استراتيجي، إذ تقع قلعة المرسى الكبير عند إحدى سفوحها، كما تشرف على الطريق الرابط بين هذه الأخيرة و وهران. انظر خريطة المنطقة أثناء العهد التركي : بلحميسي، "**تحرير…**"، المرجع السابق، ص. 67.

- J. Cazenave, "**Contribution à l'histoire du vieil Oran. Mémoire sur l'état et la valeur des places d'Oran et de Mers-el-kébir, écrit dans les premiers jours de l'année 1734, après son inspection générale, par S. E. don Joseph Valléjo, commandant général**", in : R. A. 66, 1925, p. 330, n. 1 ; Fey, Op. cit., pp. 112 & 130, n. 1.

6. A. Berbrugger, "**Reprise d'Oran par les Espagnols en 1732**", in : R.A. 8, 1864, pp. 21-23.

كانت القوّات الّتي جمعها بوشلاغم تضمّ أربعة و عشرين ألف رجل، من بينهم ألفي "تركي" (كان قسم منهم من جنود نوبات الناحية الغربية)، بضعة آلاف من الكراغلة و فرسان القبائل المخزنية، إلى جانب فيلق مغربي بقيادة علج هولندي أرسله السلطان عبد الله بن اسماعيل، و البقية من الأهالي غير المتمرّسين على الحرب النظامية :

- Anonyme, **Relation de ce qui s'est passé depuis le départ de la flotte assemblée en la baye**(sic) **d'Alicante, & des glorieux progrès de l'Armée du Roy d'Espagne, en la conquête ou Recouvrement de la Place d'Oran en Afrique, les 29, 30 juin, premier & 2 juillet de cette année 1732**, traduite de l'espagnol. Jean-Baptiste Coignard Fils, Paris, 1732, pp. 6-7.

- سامح التر، المرجع السابق، ص. 482 ؛ المدني، **حرب…**، المرجع السابق، ص. 478 ؛ الجيلالي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 225.

خرج مصطفى بوشلاغم وقتئذٍ من وهران على عجل تاركًا عددًا ضئيلاً من المدافعين بها، ثمّ سلك بقوّاته طريق مسرغين إلى مرتفعات المنطقة قصد منع الإسبان من احتلالها و استشراف قلعة المرسى الكبير، و كذا الطريق المؤدّية إلى عاصمته.

و يوم 30 يونيو، اندفعت جموع الباي المتحمّسة تنازل الصفوف الإسبانية و كادت تضعضعها ؛ غير أنّ قيام فرق رماة القنابل من قوّات الميسرة الإسبانية بحركة التفافية جعلت معظم الأهالي يفرّون غربًا خشية أن يتمّ تطويقهم، بحيث تشتّت القوّات المخزنية و الإنكشارية الّتي أربكتها حركة الفرار الجماعي[1].

اغتنم مونتمار الفرصة المتاحة، و تقدّم سريعًا إلى قلعة المرسى الكبير صباح 1 يوليو ؛ و فيما هو يحضّر لحصارها، أتاه مبعوث من نائب القنصل الفرنسي بوهران مع بداية الظهيرة يعلمه أنّ المدينة تكاد تكون خالية، و أنّ مصطفى باي بوشلاغم غير موجود بها ؛ فاحتلّت طليعة الجيش الإسباني وهران قبل المغيب. و من الغد، سلّم السبعة و تسعون إنكشاريًا الّذين كانوا يشكّلون نوبة المرسى الكبير القلعة المحاصرة للإسبان لقاء تركهم ينسحبون لمستغانم، حيث تراجع بوشلاغم هو الآخر جاعلاً منها عاصمة بايلك الغرب المؤقّتة[2].

شكّل نبأ سقوط وهران و المرسى الكبير صدمة للداي المسنّ، الّذي لم يلبث أن اشتدّ عليه المرض كمدًا ؛ و قبل أن يتوفّـى في 2 سبتمبر عن عمر ناهز الثمانية و الثمانين[3]، قام بإرسال إبراهيم مفتي الجزائر[4]

---

1. Berbrugger, "**Reprise…**", Op. cit., pp. 23-25 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., pp. 235-236 ; Fey, Op. cit., pp. 144-145.

- المدني، **حرب…**، المرجع السابق، ص. 478-480.

2. Anonyme, **Relation de ce qui s'est passé…**, Op. cit., p. 8 ; A. Pestemaldjoglou, "**Le consulat français d'Oran de 1732 à 1754**", in : R.A., 86, 1942, p. 223 ; Berbrugger, "**Reprise…**", Op. cit., pp. 25-26.

ورد في تقرير فرنسي بخصوص تلك الأحداث : "**و لقد تخلّى أهل البلاد في تلك الليلة** (الأوّل من يوليو) **عن وهران و حصونها الخمسة تاركين وراءهم أكثر من مئة قطعة مدفعية و كمّية كبيرة من الذخيرة الحربية و الموّاد التموينية… و لم يحتفظوا سوى بحصن المرسى الكبير الواقع على بعد فرسخ من المدينة، حيث انحشر فيه ثلاثمائة تركي، و لكن مائتين و عشرين فرّوا منه** [سباحةً] **على الرغم من وجود ثلاثين قطعة مدفعية و الذخيرة و الموّاد المعاشية تكفي لمدّة ستّة أشهر. كان بيغوتيوس** (Bigotillos كلمة إسبانية تعني "ذو الشوارب الغليظة"، و هو لقب مصطفى باي بوشلاغم عند الإسبان) **قائد الأهالي حاضرًا في معركة يوم 30 يونيو، و لقد ذكر بأنّه لا يوجد بلد و لا قلعة يمكنها الصمود أمام أولئك الناس** (رماة القنابل اليدوية من الجنود الإسبان)" : A.N.P./Marine B7 311. نقلاً عن : قنان، **نصوص…**، المصدر السابق، ص. 167.

3. رجّحنا كون تاريخ وفاة كرد عبدي يوم 2 سبتمبر 1732م الموافق لـ 12 ربيع الأوّل 1145هـ، أي تاريخ تولّي صهره إبراهيم خزناجي دايًا، بالنظر إلى التفاوت الكبير بين التواريخ الملاحظ عند ابن المفتي، دي غرامون و غيرهم. انظر : ابن المفتي، المصدر السابق، ص. 62.

- de Grammont, Ibid., p. 236 ; de Grammont, « **Correspondance…** », Op. cit., 1888, pp. 235 ; Plantet, **Correspondance des deys…**, Op. cit., T. 2, p. 169, nn. 1 & 3.

4. سامح التر، المرجع السابق، ص. 483.

إلى إستانبول لعرض وقائع فقدان مدينة وهران على السلطان العثماني، و ذلك من أجل التماس مساعدات عسكرية لاسترجاعها[1].

2-1-4. عهد الداي بابا إبراهيم باشا (1732-1745م)

تولّى إبراهيم خزناجي بن رمضان[2] دولتلي يوم وفاة عديله عبدي باشا[3] ؛ و كانت أولى أعماله إرسال محمّد آغا بن كرد عبدي على رأس محلّة من حوالي ألفي إنكشاري على متن سفن الإيالة، لينضمّ إلى باي الغرب في عملية التطويق الّتي باشرتها فصائل من قوّات هذا الأخير ضدّ وهران ابتداءً من منتصف شهر يوليو[4] ؛ كما قام بإرسال وفد ليُعلِم السلطان بوفاة سلفه، و يطلب أن يُنعم عليه بلقب بايلرباي. و قد تلقى بالفعل فرمان التولية في أوائل ديسمبر من نفس السنة، بالموازاة مع الإذن بتجنيد عدد غير مسبوق من الإنكشارية من نواحي إزمير[5].

و فيما يخصّ وهران، فرض محمّد آغا و مصطفى باي الحصار عليها ابتداءً من 13 سبتمبر، و قد تحوّلت المواجهات إلى ما يشبه حرب استنزاف خلّفت آلاف القتلى في صفوف كلا الطرفين ؛ فيما أرسل الداي في حدود إمكاناته الحانبة (فرقة تعزيز) تلو الأخرى للمعسكر الجزائري، كما أرسل سفارة إلى

---

1. كان مفتي الجزائر بالأساس موظّف ديني لدى وكالة الجزائر بإزمير يفصل في قضايا و شكاوى الجزائريين الموجودين بالمدن العثمانية، كما كان يضطلع بدور مراسل لحكومة الجزائر، و يقوم أحيانًا بالوساطة لدى السلطات العثمانية : فلّوح، المرجع السابق، ص. 58.

2. **دفتر مواجبات...**، المصدر السابق، رقم 1964، و. 4 و°.

3. Delphin, Op. cit., 1922, p. 208 ; Plantet, **Correspondance des deys…**, Op. cit., T. 2, p. 169, nn. 1 & 3 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 236.

4. Berbrugger, "**Reprise…**", Op. cit., p. 27. - المدني، **حرب...**، المرجع السابق، ص. 480.

5. دفتر مهمّات الديوان الهمايوني (جمادى الآخرة 1145ه)، رقم 139، ص. 4. نقلاً عن : سامح التر، المرجع السابق، ص. 484.

يذكر القنصل الفرنسي بُنوا لومير (Benoît Lemaire) في رسالة موجّهة إلى قناصل و نوّاب مرسيليا أنّ الداي إبراهيم خزناجي أرسل سبعة من بوارج الإيالة يوم 19 ديسمبر 1732م إلى المشرق، حيث ستقوم بنقل المجنّدين الجدد الّذين تمّ تجميعهم في إزمير، ليخلفوا أولئك الّذين قضوا في المواجهات الدامية حول وهران : - de Grammont, « **Correspondance…** », Op. cit., 1888, p. 237.

بيد أنّ جنوح بارجتين و غرق ثالثة قرب السواحل الأناضولية مطلع أبريل 1733م عطّل بشكل كبير عمليّة التجنيد، و أخّر وصول العمارة الجزائرية المقلّة للمجنّدين إلى الجزائر حتّى شهر سبتمبر ؛ و قد واكبتها عمارة بقيادة القبودان باشا جانم خوجة لحمايتها من السفن المالطية و الإسبانية، الّتي أزمعت على اعتراضها عند مرورها بمضيق مالطة. انظر :

- Anonyme, "**Extrait d'une lettre écrite de Malte le 15 Mars**", in : M.F., Avril 1733, pp. 812-813 ; Anonyme, "**Nouvelles étrangères. Turquie et Perse**", in : M.F. 1er vol., Juin 1733, pp. 1218-1219 ; Anonyme, "**Nouvelles étrangères. Italie**", in : M.F., Octobre 1733, p. 2265.

انظر أيضًا : - de Grammont, « **Correspondance…** », Ibid., p. 309 ; Hammer-Purgstall, Op. cit., T. 14, p. 269.

سلطان المغرب عبد الله بن إسماعيل يستمدّه[1]، في انتظار وصول المجنّدين و المساعدات الّتي وعد بها الديوان الهمايوني[2]. و لإحكام الطوق، أمر الداي منذ مطلع خريف 1732م سفن الريّاس بأن تجول قبالة السواحل الإسبانية و بالقرب من المرسى الكبير، لمنع وصول المساعدات و المؤونة للقوّات الإسبانية المتمركزة بوهران[3].

و لقد تبيّن للجزائريين بمرور الوقت مدى تورّط الفرنسيين إلى جانب الإسبان، بالنظر إلى العدد المعتبر للفرنسيين جنودًا و ضبّاطًا الّذين أسروا خلال الخرجات، و كذا المراكب البروفنسية الّتي اعترُضت تقوم بنقل المؤن و الذخائر إلى وهران ؛ و اكتفى الداي بشجب تلك التصرّفات المنافية للمعاهدات المبرمة كما تظاهر بتغليب المصالح الإنكليزية على نظيرتها الفرنسية من باب الإغاظة، مفضّلاً عدم الدخول في مواجهة مفتوحة مع عدوٍّ جديد في ذلك الظرف الصعب[4]. و نظرًا لموقف الداي إبراهيم تجاه الإنكليز،

---

1. Anonyme, "**Nouvelles étrangères. Espagne**", in : M.F., février 1733, p. 297.

2. Sandoval, "**Les inscriptions…**", Op. cit., 1872, pp. 98-99 ; de Grammont, « **Correspondance…** », Op. cit., 1888, pp. 311 & 319 ; Anonyme, "**Nouvelles étrangères. Espagne**", in : M.F. 2e vol., Juin 1733, pp. 1449-1451 ; Mercier, **Histoire de l'Afrique**…, Op. cit., pp. 358-359.

ذكر أحد الضبّاط الإسبان الأسرى بالجزائر في هذا الصدد : "**لم ينفكّ الأتراك عن طلب النجدات. غير أنّ الداي ليس له رجلٌ واحد يرسله إليهم ؛ فقد وجب عليه لاحتواء الأهالي و جمع المغارم و الخراج إرسال المحلّات المعتادة، و لأجل ذلك قام بإخلاء مدينة الجزائر من الجنود. و قد أبقت المساعدات القويّة المنتظرة من السيّد العظيم** (السلطان العظيم) **إلى حدّ الآن تحت السيطرة الأهالي و الأتراك** [المعسكرين] **أمام وهران. هؤلاء** [الأخيرين] **ما إن يعلموا المصيبة الّتي حدثت لبوارجهم، فإنّه يحتمل أن يتخلّوا رغم أنف الداي عن أخبيتهم و متاعهم، و ينسحبون…**" :
- Anonyme, "**Extrait d'une lettre écrite d'Alger, le 25 May, contenant des Nouvelles d'Oran**", in : M.F. 2e vol., Juin 1733, pp. 1451-1453.

3. انظر "**حالة القوّات الّتي عبّأها حاليًا داي الجزائر أمام وهران و مستغانم و نواحيهما**" ربيع 1733م : قنان، **نصوص…**، المصدر السابق، ص. 171.
- Anonyme, "**Septième lettre de M. D. L. R. écrite à M. le Marquis de B. au sujet des Villes d'Oran et de Ceuta**", in : M.F., Janvier 1733, p. 67 ; Merouche, **La course…**, Op. cit., p. 291 ; Belhamissi, **Alger, l'Europe…**, Op. cit., pp. 133-136.

4. Merouche, Ibid., p. 292 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 237 ; Plantet, **Correspondance des deys…**, Op. cit., T. 2, p. 174, n. 1.
- قنان، **معاهدات…**، المرجع السابق، ص ص. 184-187.

في هذا الصدد، عاتب الداي إبراهيم باشا في رسالة شديدة اللهجة محرّرة في 6 فبراير 1734م الكونت دُه مورپا (Comte de Maurepas) كاتب الدولة للبحرية، على مساعدة الفرنسيين للإسبان بشتّى الطرق الممكنة : "**…و إذا كنتم فعلاً أصدقاءنا، فبيّنوا لنا هذه الصداقة. ذلك أنّه واضحٌ مثل النهار أنّ الانتصار الّذي حقّقه الإسبان في وهران الّتي فاجأوها لم يحقّقوه سوى بفضلكم، عن طريق القوّات و الذخائر الّتي زوّدتموهم بها. إنّ صداقة معلنة مقرونة بعداء مضمر لا تبشر بخير ؛ ففي الصداقة يجب أن يكون الباطن مثل الظاهر، إذ عندما فاجأ الإسبان وهران، كنتم قد ساعدتموهم بأربعة أو خمسة آلاف رجل مسلّح تسليحًا جيّدًا و مؤطّرين من طرف ضبّاطكم. هل هذا النوع من التصرّفات نصّت عليها معاهداتكم؟ لقد أخذنا عددًا من الأسرى في وهران و تبيّن أنّهم فرنسيون، و إذا أنكرتم هذا فإنّنا نرّد عليكم بكونه من المستحيل وجود عدد كبير من الجنود مسلّحين تسليحًا جيّدًا في خدمة دولة أجنبية، بدون موافقة أميرهم أو على الأقلّ وزيرهم…**" : قنان، **نصوص…**، نفس المصدر السابق، ص. 170.

فإنّهم عرضوا عليه توجيه أسطولهم لحصار الإسبان بوهران بحرًا، فيما يتولّى الجزائريون ضرب التحصينات برًّا ؛ و طلبوا مقابل تلك الخدمة منحهم امتيازات تجارية في المرسى الكبير. و قد قبل الداي العرض مبدئيًا، إلاّ أنّ أعضاء الديوان عارضوه في ذلك، لأنّ القنصل الفرنسي لومير استطاع بفضل دسائسه لدى بعض ضبّاط الإنكشارية أن يقنعهم بأنّ الإنكليز سيكونون بامتيازاتهم التجارية أخطر على الإيالة من الإسبان بمنشآتهم العسكرية[1].

إنّ عدم فعالية الحصار البحري الّذي أقامته السفن الجزائرية، بالإضافة إلى الخسائر الفادحة في صفوف قوّات آغا الصبايحية و باي الغرب الّتي انتظرت عبثًا وصول الدعم العثماني، أفضت في المحصّلة إلى فضّ الحصار في شهر سبتمبر 1733م ؛ و عاد الباي مصطفى بوشلاغم إلى عاصمته المؤقّتة مستغانم بغية التحضير للعمليات القادمة ضدّ الإسبان، فيما رجع الإنكشارية إلى العاصمة، الّتي بلغوها تقريبًا بالتزامن مع وصول المجنّدين الجدد[2]. و هكذا، باءت العمليات المباشرة بالفشل ؛ و سيعيد الجزائريون بدايةً من عام 1734م تطبيق استراتيجية التضييق المتواصل، الّتي أثبتت نجوعها قبيل الفتح الأوّل لوهران[3].

و على صعيد أخر، واجه الداي بابا إبراهيم أوقاتًا صعبة ابتداءً من سنة 1734م، بسبب عودة دورة الجفاف و المسغبة أزّمها السلب و قطع الطريق، الّذي عادةً ما تمارسه القبائل المستعصية ضدّ الرعية في مثل تلك الظروف ؛ ممّا تترجم في تناقصٍ محسوسٍ في المداخيل الجبائية، لم تعوّضه الغنائم البحرية

انظر أيضًا : - Plantet, **Correspondance des deys…**, Op. cit., T. 2, pp. 177-180.

تجدر الإشارة إلى أنّ ملك إسبانيا فليپ الخامس (1700-1746م) كان في الواقع عمّ ملك فرنسا لويس الخامس عشر (1715-1774م) ؛ و بحكم هذه القرابة، عقدت عدّة تحالفات بين البلدين لا سيّما معاهدة إشبيلية في سنة 1729م، و الحلف العائلي الأوّل الممضى بإسكوريال في سنة 1733م : - Alfred Baudrillart, "**Philippe V et la cour de France**", in : B. H., t. 3, n° 3, 1901. pp. 303-304.

1. سامح التر، المرجع السابق، ص. 485 ؛ الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 218.

- de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 238.

2. Anonyme, "**Septième…",** Op. cit., p. 69 ; Anonyme, "**Nouvelles étrangères. Espagne**", in : M.F., Septembre 1733, p. 2065 ; Sandoval, "**Les inscriptions…**", Op. cit., 1872, p. 99.

يرجع الراشدي من جهته سبب فشل العمليات العسكرية إلى العداء الّذي طرأ بين الباي و الآغا : الراشدي، المصدر السابق، ص ص. 199-200.

3. G.-I. Faure-Biguet, **Histoire de l'Afrique septentrionale sous la domination musulmane**, Henri Charles-Lavauzelle, Paris, 1905, p. 384 ; Belhamissi, **Alger, l'Europe…**, Op. cit., p. 136.

هذا التضييق المستمرّ جعل الجنرال دون خوزيه ڤاليخو (Don José Vallejo) يعترف في تقريره المرفوع للمجلس الملكي، المؤرّخ في سنة 1734م : "**هنا، قايضت إسبانيا أكوام من الذهب مقابل جبال من الحجارة، و لن تجني من هذه الممتلكات أيّة منفعة على الإطلاق…**" : - Cazenave, Op. cit., p. 351.

الّتي تراجعت هي الأخرى[1]. و لاستيفاء المتطلّبات المالية، قام الداي بتكبيل أسرى وهران بالسلاسل و إجبارهم على الأشغال الشاقّة حتّى يسارع ذووهم و آباء الفدية في افتدائهم ؛ و فعلاً تحصّل بتلك الطريقة على أموال وافية[2]، كما تحصّل من جانبٍ آخر على إتاوة سنوية قدرها مائتي ألف ريال و كمّيات قمح مخصّصة لإنكشارية الجزائر من علي باشا، الّذي أعانه للوصول إلى حكم تونس بعد الإطاحة بعمّه حسين باي بن علي في سنة 1735م[3].

لقد أخلفت الدولة العثمانية بوعدها بإرسال قوّة لمساعدة أوجاق جزائر الغرب على استعادة وهران اضطرارًا، بسبب انشغالها بحرب فارس الصفوية (1730-1736م) و حرب الإمبراطوريتين الروسية و النمساوية (1736-1739م)[4]. و تذمّر الجزائريين من هذا الإهمال جعلهم يتحايلون على الأوامر السلطانية، مثلما حدث في 1735م لمّا أرسل الديوان الهمايوني فرمانًا ليطالب الداي الإحجام عن أيّ عمل عدواني ضدّ تونس، بيد أنّ إبراهيم كان قد قام بإرسال قوّاته للإطاحة بحسين باي تونس، و كي لا يعصي الأمر علانية اهتدى إلى حيلة تتلخّص في التظاهر بالامتثال، حيث وجّه مع القپوجي باشي رسالة توحي بأنّه زوّر الأمر الّذي حمله من الباب العالي ؛ و بالفعل، فلم يكد يصل القپوجي إلى إستانبول حتّى اتّهم بالخيانة و أعدم أن حرّف الأمر السلطاني[5].

---

1. Merouche, **Monnaies…**, Op. cit., p. 103 ; Merouche, **La course …**, Op. cit., p. 292 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 239 ; de Grammont, « **Correspondance…** », Op. cit., 1888, p. 315.

2. de Grammont, « **Correspondance…** », Ibid., p. 318 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Ibid., p. 240.

3. بعد فشل ثورته ضدّ عمّه، التجأ علي باشا عام 1729م إلى الجزائر حيث احتجزه كرد عبدي مقابل أن يدفع باي تونس عشرة آلاف ريال سنويًا. لكن علي اغتنم توقّف حسين باي عن الدفع كي يقنع الداي إبراهيم بمساعدته على تولّي الحكم في تونس، لقاء إتاوة و اعترافه بتبعية إيالته للجزائر ؛ فجهّز له الداي محلّة من مئة خباء (حوالي ألفين و خمسمائة إنكشاري) بقيادة ابن أخته كوچك إبراهيم، و انضمّت لها قوّات باي قسنطينة قليان حسين باي في طريقها إلى تونس، الّتي فتحت أبوابها بعد انتصار الجزائريين الصعب في معركة سمنجة (4 سبتمبر)، على وادي مليانة : ابن المفتي، المصدر السابق، ص ص. 71-74 ؛ بن العنتري، **فريدة…**، المصدر السابق، ص ص. 69-70 ؛ الشيخ الصّغير بن يوسف، **المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي تركي**، مج. 2، تقديم و تحقيق أحمد الطويلي، تونس، 2009، ص ص. 81-100. انظر أيضًا : سامح التر، المرجع السابق، ص ص. 486-487 ؛ الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص ص. 218-220 ؛ حصام، المرجع السابق، ص ص. 56-62.

- Vayssettes, Op. cit., 1868, pp. 296-299 ; Mercier, **Histoire de l'Afrique**…, Op. cit., pp. 362-365 ; A. Guellouz, A. Masmoudi, & M. Smida, **Histoire générale de la Tunisie. Les temps modernes (941-1247 H./1534-1881)**, T. III, Sud Éditions, Tunis, 2010, pp. 216-219.

4. سامح التر، نفس المرجع السابق، ص ص. 486 و 488. كان من المقرّر أن يقوم الديوان الهمايوني بإرسال عمارة من خمسة و عشرين سفينة عثمانية محمّلة بالجنود و العتاد الحربي من إستانبول، كي يتسنّى حصار وهران برًّا و بحرًا خلال صيف 1734م ؛ و كان الداي بابا إبراهيم قد عقد أمله على هذا الدعم لحسم الأمر عسكريًا في وهران : - de Grammont, « **Correspondance…** », Ibid., pp. 319 & 321.

5. de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Ibid., p. 239.

- دفتر مهمّات الديوان الهمايوني (أوائل ذو الحجة 1147هـ)، رقم 140، ص. 388. نقلاً عن : سامح التر، نفس المرجع السابق، ص. 487.

و بالمثل، لمّا توسّط الباب العالي لدى أوجاق الجزائر من أجل عقد الصلح مع مملكة الصقليتين في سنة 1742م، اشترط الديوان إتاوة باهظة إلى الحدّ الّذي جعل الملك يفضّل استمرار الحرب على صلحٍ مكلّف[1].

و استطاع هذا الداي معالجة الأوضاع الصعبة الّتي مرّت بها البلاد بحنكة و حسن تصرّف ؛ و كانت من بين آخر أعماله دعم باي التيطري محمّد الذبّاح بحانبة من مائتي يولداش بقيادة أحمد آغا في أبريل 1745م، في مسعاه لبسط النفوذ العثماني على المنطقة القبائلية المحادية لقيادته السابقة سيباو[2].

و لمّا أصيب بمرض الزحار و شعر بدنو أجله، ارتأى بابا إبراهيم أن يتنازل عن الحكم و أوصى بتعيين ابن أخته و صهره الخزناجي كوچك إبراهيم[3] ؛ و انسحب إثر ذلك من دار الإمارة، و لم يلبث أن توفي يوم 17 نوفمبر 1745م[4].

2-1-5. عهد الداي كوچك إبراهيم باشا (1745-1748م)

تولّى كوچك إبراهيم بن محمّد، الّذي عرف أيضًا بإبراهيم الصغير، الدايلكية في 20 أكتوبر 1745م[5] ؛ و قد تلقى رتبة الباشوية من قبل السلطان محمود الأوّل في مطلع صيف سنة 1746م بموجب فرمان تولية، نوّه على متانة العلائق بين الإيالة و الباب العالي[6].

انظر أيضًا : الميلي، نفس المرجع السابق، ص. 219.

1. Anonyme, "**Nouvelles étrangères. Venise**", in : M.F., Aoust 1740, p. 1884 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 241.

انظر نصّ الفرمان في : دفتر مهمّات الديوان الهمايوني (أواسط ربيع الآخر 1155ه)، رقم 148، ص. 336. نقلاً عن : سامح التر، المرجع السابق، ص ص. 491-493.

2. Robin, "**Note…** ", Op. cit., p. 139 ; N. Robin, "**Le bey Mohamed ben Ali Ed-Debbah**", in : R.A. 17, 1873, p. 365.

بفضل النجاح النسبي الّذي حقّقه، استحقّ محمّد باي المذكور أعلاه لقب "باي التيطري و كافّة عمالة الزواوة" : ابن حمادوش، المصدر السابق، ص. 163. انظر أيضًا : سعيدوني، "**الشبكة الدفاعية…**"، المرجع السابق، ص. 205.

3. ذكر ابن المفتي في هذ الصدد : "…**و ما حتّم عليه هذا الأمر هي الفوضى المستمرّة الّتي زعزعت قصره**"، ممّا يوحي بأنّه كان يخشى حدوث صراع على السلطة أو حتّى انقلاب بعد أن اشتدّ به المرض و لم يعد قادرًا على تصريف شؤون الحكم، مثلما حدث عند نهاية عهد سلفه كرد عبدي : نفسه، ص ص. 63 و 111. انظر أيضًا : ابن حمادوش، نفس المصدر السابق، ص. 225.

4. Delphin, Op. cit., 1922, p. 209 **;** de Grammont, Ibid., p. 245 ; Mercier, **Histoire de l'Afrique**…, Op. cit., pp. 371-372.

- ابن حمادوش، نفس المصدر السابق، ص. 236. انظر أيضًا : سامح التر، نفس المرجع السابق، ص. 495.

5. لقّب الداي إبراهيم بـ"كوچك" ، الّذي يعني بالعثمانية الصغير، لتمييزه عن سميّه بابا إبراهيم. انظر :

- Plantet, **Correspondance des deys…**, Op. cit., T. 2, p. 202, n. 1 ; Delphin, Ibid., 1925, pp. 10-11.

6. Plantet, Ibid., pp. 581-583 ; Michel Hervé, **Relations entre la régence d'Alger et la Sublime Porte du XVIe au XVIIIe siècle**, T. II, Thèse de doctorat en Histoire et civilisations, EHESS, Paris, 2003, pp. 393-395.

لكن، من جانب آخر، كانت العلاقات مع علي باي تونس قد توتّرت في السنوات الأخيرة من عهد الداي السابق، بسبب استيلاء الباي المذكور على جزيرة طبرقة سنة 1741م الّتي كانت تدفع الإتاوة لكلا البلدين[1]، و كذا قتله شيخ قبيلة الحنانشة بوعزيز و بعض أعيانها - الّذين هم في الأصل رعايا جزائريين - سنة 1743م دون مشورة حاكم الجزائر[2] ؛ و وصلت حدّ القطيعة سنة 1745م بسبب طلب علي باشا من الدولتلي كوچك إبراهيم بعيْد اعتلائه قتل أولاد عمّه حسين الّذين التجأوا إلى الجزائر، "**فلم يوافقه على ذلك و سبّه، و قال : هذه صنعته، الغدّار ؛ و بلغ الخبر من أحباب الباشا إليه، و قالوا له : اغفل عن هذا و لا تعاود، فأراد الباشا أن يكيد وجق الجزيريّة**(كذا)**، فبعث إلى الحاج محمّد بن كور عبدي، و هو إذ ذاك قايم بمصر : إذا أتيتني و وصلت إليّ، فأنا و إيّاك على وجق الجزاير ؛ و طمّعه في أمر ليس له وصول**"[3].

اغترّ الحاج محمّد آغا بوعود الباي، و قام بتجنيد ألف تركي في القاهرة ؛ و ذاع خبره حتّى بلغ وكيل الجزائر بمصر. هذا الأخير - حسب ما تقتضيه وظيفته - قام بإعلام كوچك إبراهيم بما هو عازم عليه ابن الداي السابق ؛ فبعث الدولتلي إلى الباي أحمد باشا قرمانلي بقتل المذكور لدى مروره على طرابلس[4].

لقد كان تآمر علي باشا ضدّ الداي إذًا سببًا في وقوع الحرب بين الجزائر و تونس، و نتيجة لذلك سيّر كوچك إبراهيم في أبريل 1746م محلّة من أربعة آلاف إنكشاري تحت قيادة السر عسكر أحمد آغا، اتّحدت قبيل دخولها الحدود بقوّات باي قسنطينة حسين بوحنك، و توجّهت إلى قلعة الكاف لتفرض عليها الحصار. غير أنّ القلعة استعصت على الجزائريين مدّة ثلاثة أشهر بسبب الجواسيس، الّذين بثّهم

تأريخ ابن المفتي لتوليّ إبراهيم الصغير الباشوية خاطئ، إذ يوافق تاريخ توليه الدايلك : نفسه، ص. 63.

1. Rousseau, **Annales…**, Op. cit., pp. 125-127 ; Plantet, **Correspondance des beys…**, Op. cit., T. 2, pp. 324-328 ; D. Brahimi, "**Témoignages sur l'île de Tabarque au XVIIIe siècle**", in : R.O.M.M. 7, 1970, p. 24.

2. بن يوسف، المصدر السابق، مج. 2، ص ص. 219-224.

يمكن أن نضيف إلى ما سبق ذكره تمرّد الإنكشاريين التونسيين في عام 1743م الّذي أخمده علي باشا بمنتهى الحزم، و يورد الباجي بهذا الخصوص : "**...ثمّ ثار عليه جنده من الترك، فظفر بهم و أثخن فيهم و قتل منهم خمسمائة نفر، و أجلاهم عن الفنادق الّتي كانوا يسكنونها و أسكنهم الأرياض ؛ و أكره الناس على إخلاء علواتهم لسكنى الترك، و لاقى الناس من ذلك شدائد و محن...**" : محمّد الباجي المسعودي، **الخلاصة النقية في أمراء إفريقية**، ط. 2، بيكار و شركائه، تونس، 1323هـ، ص. 123.

و قد ألجأ قمع التمرّد عددًا معتبرًا منهم إلى الفرار إلى الجزائر، حيث رجّحوا كفّة الحرب ضدّ باي تونس بعد أن صوّروا للديوان أنّه يستقوي بالكراغلة و يريد القضاء على النفوذ التركي في إيالته : Guellouz, Masmoudi, & Smida, Op. cit., T. III, p. 228. -

3. بن يوسف، نفس المصدر السابق، مج. 3، ص. 70.

4. نفسه، ص ص. 70-72.

علي باشا في وسط المعسكر الجزائري[1]، علاوة على أنّ الخلاف دبّ بين قادته حسين باي بوحنك و الآغا أوزون أحمد، و تبودلت تهم العمالة لصالح علي باشا[2].

و لمّا أعلم باي قسنطينة الداي كوچك إبراهيم أنّ "**العسكر الجزيريّة في المتارز قد ظهر منهم الفشل، و بطل منهم العمل، و ضجّوا من المرض و الموت و المقام لغير فايدة**"[3]، و أنّ السر عسكر أحمد محلّ شكوكه لما بدر منه من تهاون، أصدر أوامره برجوع المحلّة إلى الجزائر في سبتمبر 1746م كما أرسل أمرًا سرّيًا إلى الباي بوحنك ليعدم السر عسكر في طريق العودة جزاء فعله[4]. و قد كان أمر الانسحاب الصادر من الداي مبرّرًا في الواقع بحاجته إلى كامل القوّات، بعد أنّ ثار الكراغلة بقيادة رجم البجاوي بتلمسان و طردوا الحامية بقيادة يوسف آغا من قلعة المشور[5] ؛ و كانت هناك خشية بلا شكّ أن يقع تخابر بين ثوّار تلمسان و إسبان وهران، و لذلك وجّه الداي في ربيع 1747م محلّة إلى المدينة الثائرة، استطاعت بعد مقاومة عنيفة من إخماد ثورة رجم البجاوي و إنزال أشدّ أنواع العقوبة و التنكيل بالمتورّطين فيها[6].

و لقد أدّت القسوة الشديدة الّتي عومل بها سكّان تلمسان من الكراغلة إلى حدوث حالة من الاحتقان في صفوف الإنكشارية، بحيث تزايدت المشادات و الخلافات بين الأتراك و الكراغلة[7]، منذرةً بوضعٍ

---

1. بن يوسف، المصدر السابق، مج. 3، ص. 118. انظر أيضًا : حصام، المرجع السابق، ص ص. 67-68 ؛ السعداوي، المرجع السابق، ص. 146.
- de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 245.

2. بن يوسف، نفس المصدر السابق، ص ص. 104-105.

3. نفسه، ص. 120.

4. نفسه، ص ص. 120-121.

انظر الرواية المختلفة لابن العنتري : بن العنتري، **فريدة…**، المصدر السابق، ص ص. 71-72. انظر أيضًا : الباشي، المصدر السابق، و. 140 ظ ؛ السعداوي، نفس المرجع السابق، ص. 135 ؛ **دفتر مواجبات…**، المصدر السابق، رقم 1982، و. 6ظ.

- Plantet, **Correspondance des beys…**, Op. cit., T. 2, p. 404 ; E. Mercier, **Histoire de Constantine**, J. Marle & F. Biron, Constantine, 1903, pp. 260-261.

5. الجيلالي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 232 ؛ أحمد توفيق المدني، **محمّد عثمان باشا : داي الجزائر 1766-1791**، م.و.ك.، الجزائر، 1986، ص. 50.

6. محمّد مقصودة، **الكراغلة و السلطة في الجزائر خلال العهد العثماني 1519-1830م**، ماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر، جامعة وهران، 2014، ص. 133.

7. أجبرت ثورة تلمسان على تغيير وجهة القوّات المرصودة لإرسالها ضدّ باي تونس، و وضعت تحت تصرّف باي الغرب. هذا الأخير أخذ المدينة عنوة بعد مقاومة يائسة و أعدم جميع المتمرّدين الّذين وقعوا في قبضته. إنّ منتهى القساوة الّتي مارسها الإنكشارية خلال عملية الاقتحام، بالإضافة إلى الثروات المعتبرة الّتي استولي عليها و نقلت إلى مقرّ الباي، بقيت لمدّة طويلة راسخة في الذاكرة الجماعية المحلّية :

- A. Devoulx, "**Ahad aman, règlement politique et militaire**", in : R.A. 4, 1859-60, p. 211, n. 1.

مماثلٍ لما حدث خلال أزمة 1629م ؛ و إزاء هذا الوضع المتفجرّ، كان الداي كوچك إبراهيم باشا على وشك أن يتّخذ تدابير حاسمة لمّا وافته المنية في 3 فبراير 1748م بشكل مفاجئ جرّاء سكتة دماغية[1]. و جزم العديد من المؤرّخين أنّه قتل مسمومًا، و ربطوا تسميمه المفترض بإشاعة فشت وقتئذٍ عن نيّته المبيّتة في القضاء على جميع كراغلة العاصمة، دون ذكر مصدر أو استظهار دليل على ذلك[2].

2-2. الفترة الثانية (1748-1791م) : فترة استقرار الحكم

2-2-1. عهد الداي منملي محمّد باشا بن بيرم[3] (1748-1754م)

تولّى محمّد خوجة الخيل دايًا يوم وفاة سلفه[4] ؛ و كما جرت عليه العادة، بادر إلى إرسال هدايا للباب العالي مرفقة بطلب ترقيته إلى رتبة بايلرباي. و لم يتردّد الديوان الهمايوني في قبول طلبه، حيث أرسل له في أغسطس 1748م - مع كمّية من العتاد العسكري - قفطان و فرمان تولية، الّذي شدّد فيه على وجوب مراعاة الجزائريين لحدود الملاحة البحرية المتّفق عليها مع البندقية و احترام الصلح المبرم مؤخّرًا بين الصقلّيتين و الدولة العثمانية[5].

انظر أيضًا : توفيق دحماني، **دراسة في عهد الأمان. القانون الأساسي السياسي و العسكري للجزائر**، الدار العثمانية، الجزائر، 2009، ص ص. 46 و 154، ه. 63.

1. A. Devoulx, **Les Archives du consulat général de France à Alger**, Bastide, Alger, 1865, p. 53

انظر أيضًا : الجيلالي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 232.

2. de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 245 ; Mercier, **Histoire de l'Afrique**…, Op. cit., p. 374 ; Gaïd, **L'Algérie…**, Op. cit., p. 161.

انظر بالخصوص : - Boyer, "**Le problème…**", Op. cit., pp. 89-90.

3. **دفتر مواجبات…**، المصدر السابق، رقم 1982 مكرّر، و. 375 ظ.

4. مجهول، **تقييد…**، المصدر السابق، و. 3 و ؛ الجيلالي، نفسه.

كان الداي محمّد خوجة يعرف أيضًا بمحمّد طورطو، و هذا اللفظ من اللغة الفرنكية torto الّذي اشتّق إمّا من الإيطالية il ritorto "خيط"، ربمّا لنحافته، و إمّا من الإسبانية el torto "معقوف"، و هو الخيار الّذي نرجّحه : - Devoulx, **Les archives…**, Op. cit., p. 53.

أمّا الفرنسي قنتور دي پارادي، فيرجع تلقيبه إلى الإسبانية torvo، الّتي تعني "(ذو نظرة) شزراء"، و ليس "أعور" كما أورده خطأً : - Venture de Paradis, Op. cit., p. 123.

5. دفتر مهمّات الديوان الهمايوني (أواخر ربيع الآخر 1161ه)، رقم 153، ص. 239. نقلاً عن : سامح التر، المرجع السابق، ص. 509.

- L. Chaillou, **Textes pour servir à l'histoire de l'Algérie au XVIIIe siècle, suivis de la Guerre de quinze heures**, Toulon, 1979, p. 71 ; de Grammont, Ibid., p. 246.

و استكمالاً لترتيبات الصلح مع دوقية طوسكانا، أرسل الديوان الهمايوني إلى الجزائر قپوجي باشي في شهر أكتوبر التالي، ليتوسّط لها لدى الإيالة من أجل إبرام معاهدة سلم. و حاول القنصل الفرنسي أن يفشل المفاوضات - لكيلا يتفوّق ميناء ليفورنة على مارسيليا تجاريًا - و سعى لدى عدّة أعضاء نافذين في الديوان يصوّر لهم مساوئ اتّفاق مماثل ؛ إلاّ أنّ الديوان فضّل الامتثال لأمر السلطان و وافق على معاهدة الصلح، رغم أنّ الإتاوة كانت أقّل ممّا اشترطوه بادئ الأمر[1].

و قد أولى الداي محمّد باشا اهتمامه للشؤون البحرية، و شجّع القرصنة[2] بما يخدم مصالح الدولة، حيث أمر الريّاس بتعقّب المراكب الّتي تمارس تهريب البضائع، و بالأخصّ تلك الّتي كانت تبيع أو تقايض الأسلحة و البارود لسكّان القبائل الثائرة بشرق البلاد[3] ؛ و في نفس الصدد، أصدر أوامر صارمة

---

1. Chaillou, **Textes…**, Op. cit., pp. 72-73.

انظر "**نصّ معاهدة الصلح المعقودة بين الجزائر و إمبراطورية**(كذا) **توسكانا بأمر من السلطان العثماني و المتضمّنة 22 مادة**" في : ر. د. أ. ع.، المصدر السابق، ص ص. 36-65.

لقد أشار لوسيان شايو، في هذا الصدد، أنّ هذا الحدث - من ضمن أحداث أخرى - يثبت أن إيالة الجزائر لم تكن مستقلّة بالكامل عن "القسطنطينية" : - Id., p. 73, n. 1.

2. القرصنة، كلمة إيطالية الأصل (corso)، المقصود بها هنا نشاط الغزو البحري الّتي كانت تقوم به سفن خواصّ لمصلحة دولة ما في حالة حرب ؛ أمّا النشاط البحري غير المشروع، فيفضّل التعبير عنه بلصوصية البحر (pirateria).

انظر بهذا الخصوص :

- A. Temimi, "**Le Gouvernement Ottoman face au problème morisque**", in : Les morisques et leur temps, Éditions du CNRS, Paris, 1983, pp. 299-300 ; D. Panzac, **Les corsaires barbaresques : la fin d'une épopée (1800-1820)**, Éditions du CNRS, Paris, 2000, p. 11.

في هذا الصدد، الجدير بالذكر أنّ الداي محمّد طورطو أقرّ تدابير تحفيزية للنشاط البحري، حيث رفع أسعار بعض الموّاد الاستراتيجية، الّتي كانت الدولة وحدها مخوّلة لشرائها من غنائم الريّاس، مثل الصواري، الرصاص و البارود. انظر :

- Devoulx, **Tachrifat**, Op. cit., pp. 68-69.

3. Anonyme, "**De Turin, le 8 Janvier 1750**", in : G.F. 5, 31 Janvier 1750, p. 53 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 246. - سامح التر، المرجع السابق، ص. 511.

انظر أيضًا : - Chaillou, Ibid., pp. 54-55.

المرجّح أنّ الأتراك العثمانيين استشعروا تعزّز قوّة القبائليين من جرّاء تلك التجارة المشبوهة خلال المواجهات العنيفة الّتي جمعتهم، و لا سيّما الثورات المتواترة الّتي قادتها قبيلة فليسة القوّية خلال ما يقرب من عقدين من الزمن حتّى السنوات الأولى من عهد الداي محمّد باشا بن عثمان، حيث وصل الأمر بالديوان أكثر من مرّة إلى إرسال ثلاثة محلاّت يقودها كلّ من آغا الصبايحية، و بايي قسنطينة و التيطري لتطويق المناطق الجبلية الثائرة و سدّ منافذها في محاولةٍ لإخمادها. انظر في هذا الصدد :

- Anonyme, "**De Gènes, le 2 novembre 1750**", in : G.F. 48, 28 Novembre 1750, p. 572 ; Venture de Paradis, Op. cit., pp. 112 & 127.

- بناءً على تظلّمات الريّاس أنفسهم - بالاستيلاء على أيّة سفينة تباشر إطلاق النار ضدّهم، مثلما حدث ذلك مرارًا في السابق من قبل سفن الدول البحرية الكبرى، الّتي كانت نظريًّا في سلم مع الإيالة[1].

و قبل كلّ شيءٍ، شدّد الداي محمّد باشا على ضرورة تضييق الخناق على الإسبان و مطاردة المراكب التابعة لهم[2]. و أفضى ذلك الزخم إلى زيادة كبيرة في عدد الغنائم و الأسرى المسجّلين خلال السنوات الأولى من حكم هذا الداي[3] ؛ إلاّ أنّ هذا النشاط البحري المتجدّد، لم يكن دون تبعات حيث اتّخذت عدّة دول أوروبية تدابير مضادّة للقرصنة، كما كثّفت إسبانيا من وجودها العسكري بوهران بشكل ملحوظ، ممّا جعل الجزائريين يخمّنون أنّ هناك حملة بصدد الإعداد ضدّ عاصمتهم[4].

---

1. انظر على سبيل المثال شكاوي الدايات المتكرّرة لملوك فرنسا و وزراء بحريتها في :

- Plantet, **Correspondance des beys…**, Op. cit., T. 2, pp. 110-111, 199, 202-203 & 211-214.

في 20 سبتمبر 1753م، وقعت أخطر حادثة من هذا النوع عند مضيق جبل طارق، لمّا رفض مركب فرنسي التوقّف كي لا يتمّ تفتيشه من قبل شبّاك جزائري، و فوق ذلك، أطلق نيران مدفعيته نحوه بذريعة اشتباهه في كونه قادرغة صغيرة من سلا، ممّا أوقع عددًا من القتلى و الجرحى في صفوف الجزائريين ؛ و بعد الاستيلاء على المركب، سيق إلى الجزائر حيث احتجز و صودرت شحنته، و عوقب القبطان الفرنسي جزاء فعله بالجلد حتّى الموت. و كادت هذه الحادثة أن تفضي إلى القطيعة و الحرب، لولا تيقّن الجانب الفرنسي من ضعف موقفه و تخوّفه على تجارته : قنان، **معاهدات…**، المرجع السابق، ص ص. 188-192.

انظر رواية مساعد القبطان الفرنسي عن الحادثة :

- Devoulx, **Les Archives…**, Op. cit., pp. 45-49.

انظر أيضًا : سامح التر، المرجع السابق، ص ص. 520-521.

- A. Devoulx, "**Le capitaine Prépaud**", in : R.A. 15, 1871, pp. 45-49 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 248 ; L. Schmitt, **Les relations diplomatiques entre la France et la régence d'Alger au XVIIIème : (1689-1798)**, Mémoire de maîtrise d'Histoire moderne, Université de Nantes, 2010, p. 28.

2. Anonyme, "**Nouvelles étrangères. D'Alger, le 25 Mai**", in : M.F., Aoust 1749, p. 175 ; Anonyme, "**De La Haie, le 5 Mai 1750**", in : G.F., 20, 16 Mai, 1750, pp. 239-240 ; de Grammont, Ibid., p. 241.

3. Merouche, **La course …**, Op. cit., pp. 294- 296 ; Devoulx, **Tachrifat**, Op. cit., p. 132.

4. Anonyme, "**Nouvelles étrangères. D'Alger, le 25 Mai**", Ibid. ; Anonyme, "**Nouvelles étrangères. Italie. De Rome, le 24 Avril**", in : M.F., 2e vol., Juin 1751, p. 185 ; Anonyme, "**Nouvelles étrangères. Espagne. De Barcelone, le 28 Octobre**", in : M.F., Decembre 1751, p. 186.

قام البابا بنديكتوس الرابع عشر (1740-1758م) بالدعوى إلى حملة صليبية ضدّ "الدول البربرية" بقيادة إسبانيا ؛ و قد أبدت الدويلات الإيطالية و البرتغال استعدادها للمشاركة فيها. كان من المفترض أن تحتشد القوّات المسيحية في قادس و وهران، قبل أن تهاجم الجزائر ؛ إلاّ أنّ تقاعس بعض الأطراف و إمساك أخرى، أفشلت هذا المشروع : الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص ص. 223-224.

- Chaillou, **Textes…**, Op. cit., p. 76 ; de Grammont, Ibid., p. 246.

و حيال ذلك، قام الديوان بتعزيز الدفاعات و وضع القوّات في حالة تأهّب[1]، فيما أرسل مندوبين إلى الباب العالي لطلب مساعدة عسكرية في أقرب الآجال[2]. و لإفشال مساعي المندوبين الجزائريين، كثّف سفراء الدول المسيحية لدى الباب العالي من مساعيهم، بغية إبراز عدم احترامهم للمعاهدات المبرمة بين الدولة العثمانية و دولهم، و ازدرائهم للأوامر السلطانية المتعلّقة بها ؛ و اضطرّ الجزائريون إلى استخدام جميع وسائل الاقناع كي يتحصّلوا على إعانة حربية من ثلاثين مدفعًا و أربعة مدافع هاون، بالإضافة إلى أربعمائة مجنّد من نواحي إزمير[3].

و على المستوى الداخلي، بادر الداي محمّد باشا، الّذي اشتهر بالعدل و حسن الإدارة منذ الأشهر الأولى لحكمه، إلى بسط الأمن و النظام في ربوع الإيالة[4]. و ليقطع دابر الخلافات المستشرية بين أفراد الأوجاق، أمر هذا الداي بعقد ديوان حضره جميع الإنكشاريين الموجودين في المدينة يوم 11 مايو 1749م ؛ و في تلك الجلسة، تمّت إعادة تحرير عهد الأمان - الّذي كان بمثابة ميثاق تنظيمي حدّد مجمل الحقوق و الواجبات الأساسية لأفراد الجيش النظامي، كما تضمّن سلسلة من الإجراءات العقابية في حال الإخلال بها -، و المصادقة عليه بصفة ارتسامية[5].

---

1. لقد أورد القنصل الفرنسي پيير ثوماس (Pierre Thomas) بهذا الخصوص : "**أصدر الداي الأوامر اللازمة للدفاع عن المدينة، حيث استخدم [0]700 أسير لرفع المدافع على** [أسوار] **المدينة و الحصون، و تجهيز بطّاريات على طول الساحل، و إقامة متاريس لاعتراض عمليّات الإنزال. و أمِر بايات الغرب و الجنوب** (يعني التيطري) **بإدناء قوّاتهم و تمّ توزيع الأسلحة على الكراغلة، بالإضافة إلى البلدية ؛ كما تمّ تشديد الحراسة على أسرى البايلك، و فُرض على الخواص وضع القيود على الأسرى الّذين يملكونهم...**" :

- Chaillou, **Textes…**, Op. cit., p. 76.

2. Anonyme, " **Nouvelles étrangères. D'Alger, le 25 Mai**", in : M.F., Aoust 1749, pp. 174-175 ; Chaillou, Ibid., p. 77.

- سامح التر، المرجع السابق، ص. 511.

3. Anonyme, "**De Constantinople, le 6 décembre 1749**", in : G.F. 4, 24 janvier 1750, p. 37 ; Chaillou, ibid., p. 81.

تجدر الإشارة إلى أنّه قُبل طلب المندوبين الملحّ بعد مثولهم عدّة مرّات أمام الديوان الهمايوني، سعوا خلالها إلى إثبات احترام الجزائريين للأوامر السلطانية في العديد من المناسبات، محتّجين في ذات الوقت بسوء نيّة الدول الأوروبية و تحاملها تجاههم :

- Anonyme, " **Nouvelles étrangères. D'Alger, le 25 Mai**", in : M.F., Aoust 1749, pp. 176-177 ; Anonyme, "**De Londres, le 11 juin 1750**", in : G.F. 22, 30 Mai, 1750, p. 196 ; Chaillou, Ibid., p. 72 ; Hammer, Op. cit., T. 15, p. 212.

4. ذكر القنصل الفرنسي ثوماس في هذا الصدد : "**لم تعرف هذه المدينة** (الجزائر) **مثل هذا الاستقرار البتّة ؛ إنّها الآن أكثر تحضّرًا من أيّ مدينة أخرى بأوروبا، و هو ما لم يحدث في عهد أسلافه، و على الأخصّ في عهد الداي الأخير، الّذي كان يترك الجنود يطلقون العنان لجموحهم.**" :

- de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 245.

5. دحماني، **دراسة...**، المرجع السابق، ص ص. 31-41 و 55.

- Devoulx, "**Ahad aman…**", Op. cit., pp. 211-219 ; Boyer, "**Le problème…**", Op. cit., p. 90.

و أصدر الداي، علاوة على ذلك، عدّة تعليمات حازمة لوضع حدّ لتجاوزات الإنكشارية، من أبرزها منعهم تحت طائلة الإعدام من انتهاب حدائق الفحوص، مثلما اعتاد البعض منهم القيام بذلك عند خروجهم في محلاّت[1] ؛ كما حظر على المومسات اللّواتي يرتادهن بعضهم من لبس الزينة و التردّد على الحمّامات، في نفس وقت وجود النساء الحرائر بها[2].

امتعض العديد من أفراد الإنكشارية من تلك الصرامة، و تزايدت عمليات الفرار الفردية و الجماعية بشكل مطرّد تعبيراً عن تبرّمهم، حيث وصل تعداد الفارّين إلى المئات[3] ؛ بيد أنّ محمّد طورطو لم يحرّك ساكنًا لإيقاف ذلك، بل بالعكس رخّص لكلّ من قدّم طلبًا من أجل السفر إلى "بلاد الترك" لصلّة الرحم، على الرغم من علمه أنّ نسبة كبيرة منهم لم تكن له نيّة في الرجوع[4]، فقد رأى في ذلك أحسن وسيلة لتطهير الأوجاق من العناصر المشاغبة و المستاءة[5].

تجدر الإشارة إلى أنّ الأوجاق كان وقتئذٍ أحوج ما يكون إلى توحيد الصفّ، إذ أنّ الاضطرابات في بلاد القبائل الّتي أعقبت مقتل باي التيطري محمّد الذبّاح، اتّسعت رقعتها عام 1750م حتّى شارفت دار السلطان، فوجّه الداي محمّد محلّة لتفريق جموع الثوّار، الّذين قدّر عددهم بحوالي ثلاثين ألف رجل[6] ؛ و الظاهر أنّ الثورة استمرّت بين مدّ و جزر كلّ تلك السنوات، حيث ذكر المبعوث البندقي نيكولا روزالم (Nicolas Rosalem) أنّ القبائليين الثائرين هزموا باي التيطري في عدّة وقائع و قتلوه في آخر المطاف أواخر مايو 1754م، ممّا اضطرّ الداي مع تزايد الخسائر إلى إرسال مبعوثين إلى الباب العالي، من أجل الاستئذان لتجنيد أربعة أو خمسة آلاف متطوّع لمواجهة الوضع[7].

---

1. Chaillou, **Textes...**, Op. cit., p. 106.

انظر الملحق رقم 51.

2. Id., p. 116.

3. **دفتر مواجبات...**، المصدر السابق، رقم 1982 مكرّر، وو. 17-395. انظر أيضًا : - Id., p. 108.

انظر الملاحق رقم 48، 49 و 50.

4. نفسه.

5. Id.

6. Anonyme, "**Nouvelles étrangères. De Genes, le 2 Novembre**", in : M.F., Decembre 1750, p. 165.

7. A. Sacerdoti, "**La mission à Alger du consul de Venise Nicolas Rosalem (1753-1754)**", in : R.A. 96, 1952, pp. 84-85, n. 24.

ذكر المبعوث البندقي روزالم بهذا الخصوص في موضع آخر : "**... إنّ هياج القبائليين الخطير جدًّا الّذي مسّ إقليم تيطري أوقف جميع مساعيَ الأخرى ؛ إذ أنّه وقع اشتباكين حاميين، قتل في آخرهما باي التيطري مع حوالي ثلاثة آلاف رجل من جيشه، و الآغا، قائد جيش الإيالة،**

لأجل تهدئة التذمّر الّذي ولّدته تلك الهزائم في وسط طوائف الجند، أمر الداي وكيل حرج البحرية بإرسال أكبر عدد من المتذمّرين على متن سفن الريّاس الخارجة للغزو[1] ؛ إلاّ أنّ هذا التدبير الّذي بدا حكيمًا للوهلة الأولى زاد الطين بلّة، حيث كانت الحصيلة الهزيلة للغنائم تلك السنة كفيلة بأنّ تحوّل الاستياء لدى البعض إلى سخط غير مأمون العواقب[2].

و ذلك ما حدث صبيحة يوم 11 ديسمبر 1754م، إذ بينما كان الداي و خزناجيه يتولّيان دفع علوفة ربيع الأوّل للجند الإنكشاري بفناء قصر الجنينة، اغتنم رهط من اليولداش الفرصة حيث قاموا باغتيالهما بأسلحة أخفوها تحت أرديتهم، و نادوا على الفور بزعيمهم المدعو أوزون محمّد بن عثمان[3] دايًا، و الّذي وعد الإنكشاريين بزيادة في الرواتب كسبًا لتأييدهم[4] ؛ إلاّ أنّ الحاج مصطفى، أحد أصدقاء الداي المغتال

الّذي جاء لتقديم الدعم، جرح و أجبر من ثمّ على الانسحاب دون أن يحقّق أيّ مكسب. حتّمت تلك الاضطرابات و الخسائر على الحكومة إرسال رعايا إلى "التركي العظيم" (السلطان العثماني) **لمناشدته الإذن بتجنيد خمسة أو ستّة آلاف جندي من الدولة العثمانية..."** :

- Sacerdoti, Ibid., p. 97.

1. Sacerdoti, Op. cit., p. 97.

2. Merouche, **La course …**, Op. cit., p. 296 ; Devoulx, **Tachrifat**, Op. cit., p. 132.

كتب روزالم في هذا الصدد : "**...لم أكن بمأمن في هذا البلد ؛ خصوصًا و أنّه شاع خبرٌ في البلاط و بين الجنود مفاده أنّ منذ وصولي إلى** [مدينة] **الجزائر، كان القراصنة يصادفون مراكب خفر إسبانية قوّية تطاردهم و تهاجمهم و تعرقل قرصنتهم.**" :

- Sacerdoti, Ibid., p. 100.

3. هذا اليولداش الّذي عرف في المصادر المحلّية بأوزون محمّد، يعود أصله إلى بلدة تاتار پازارجغي (حاليًا مدينة Pazardžik في بلغاريا) بإيالة أدرنة، و كان قد التحق بالإنكشارية منذ عشر سنوات في شهر نوفمبر 1744م ؛ و كان بحسب الصغير بن يوسف من دراويش الصوفية : **دفتر مواجبات...**، المصدر السابق، رقم 1982 مكرّر، و. 38 وْ ؛ رقم 1982، و. 48 ظْ.

انظر أيضًا : بن يوسف، المصدر السابق، مج. 4، ص ص. 10-11.

- A. Devoulx, "**Mort du Pacha Mehammed Khodja en 1754**", in : R.A. 16, 1872, pp. 325-326 ; [Jean-Baptiste Germain,] « **Assassinat du dey d'Alger. (12 décembre 1754)** », in : Le magasin pittoresque, 1840, pp. 70-71.

4. لقد أطلقت المصادر الفرنسية على زعيم المتمرّدين اسم أوزون علي خطأً، و يعود ذلك إلى الخلط الّذي وقع عند مراجعة التقارير القنصلية بين حادث اغتيال الداي محمّد طورطو و مؤامرة الأرناؤوط الّتي وقعت بطرابلس قبل ثلاث سنوات في عهد محمّد باشا قرمانلي - داي طرابلس الغرب.

انظر في هذا الصدد :

- Venture de Paradis, Op. cit., pp. 62, n. 1 ; R. Tully, **Narrative of a ten years residence at Tripoli in Africa**, 2nd ed., Henry Colburn, London, 1817, pp. 19-20.

- فيرو، **الحوليات...**، المرجع السابق، ص ص. 315-316.

المقرّبين - الّذي كان يشغل منصب "أهجي دار السلطان"، أو بتعبير آخر كبير الطبّاخين[1] -، قام بمهاجمة المتمرّدين من رواقه بالسرايا[2] على رأس بعض موظّفي القصر الّذين سلّحهم لذاك الغرض. حينئذٍ أغلق خوجة الباب[3] بأمر من الأخير أو بمحض إرادته منافذ القصر. و هكذا، بعد أن حوصروا في فناء قصر الجنينة، تمّ إرداء المتمرّدين قتلى الواحد تلو الآخر في ظرفٍ وجيز[4].

2-2-2. عهد الداي ملمولي علي باشا بن محمّد[5] (1754-1766م)

بذلك الشكل غير المستحقّ انتهى عهد محمّد باشا الّذي دام قرابة سبع سنوات و عشرين يومًا[6]، فعرض أعضاء ديوان العلوفة الحاضرون - و هم الخوجات الكبار، آغا الإنكشارية و وكيل حرج البحرية - في الحال الحكم على كبير الطبّاخين، لكنّه رفض ذلك مفضّلاً إسناد المنصب إلى شخصية كفؤة مثل علي آغا الصبايحية العرب، الّذي كان في ذات الوقت كاهية الداي - أي خليفته -، و شغل سابقًا وظيفة جلاّد[7]

---

1. كبير الطبّاخين هو الاسم الّذي كانت تطلقه المصادر المسيحية على المكلّف بإدارة مطابخ القصر و تذوّق جميع الأطباق الّتي تقدّم للداي ؛ و إضافة لترؤّسه جماعة الأهجية أو الطبّاخين في القصر، كان يقع تحت نظره جميع موظّفي السرايا (انظر تعريف هذه الكلمة في الهامش التالي) : - Devoulx, **Tachrifat**, Op. cit., p. 26.

انظر المطلب الخاصّ بجماعة الأهجية في الفصل السابع.

انظر أيضًا : - Venture de Paradis, Op. cit., p. 77.

2. السرايا هي الطوابق العليا لدار الإمارة الّتي كانت تضمّ الأجنحة الخاصّة بإقامة الداي : - Devoulx, Ibid., p. 25.

3. خوجة الباب هو الموظّف المخوّل وحده بغلق أبواب القصر و فتحها، و يخضع لأوامره النوبتجية ؛ و هم الحرّاس المناوبون المكلّفون بحراسة أبواب دار الإمارة : - Id., p. 27 ; Ben Cheneb, Op. cit., p. 81.

4. Devoulx, "**Mort…**", Op. cit., pp. 321-323 ; Anonyme, "**Nouvelles étrangères. Italie. De Venise, le 31 Janvier**", in : M.F., Mars 1755, p. 172 ; Venture de Paradis, Ibid., pp. 124-126 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 248.

- بن يوسف، المصدر السابق، مج. 4، ص ص. 11-12.

انظر أيضًا : سامح التر، المرجع السابق، ص. 515 ؛ قنان، **نصوص…**، المصدر السابق، ص ص. 178-179.

ذكر الفرنسي ڤنتور دي پارادي أنّ الأمر الّذي استلفت نظره في مقتل الداي و خزناجيه هو رؤية 16 يولداش من نوبتجية الخزينة و "32" آخرين من نوبتجية الباب لا يحرّكون ساكنًا أمام هذه الواقعة، رغم اغتياظهم ممّا حدث، لا لشيء إلاّ بسبب روح الانضباط و المسؤولية المرتبطة بوظيفتهم : - Venture de Paradis, Ibid., p. 126.

5. الأرشيف الوطني الجزائري، سلسلة المحاكم الشرعية : علبة 45-1، وثيقة 15 ؛ **دفتر مواجبات…**، المصدر السابق، رقم 1982، و. 11 ظ.

6. مجهول، **تقييد…**، المصدر السابق، و. 3 و.

7. **دفتر مواجبات…**، نفس المصدر السابق، رقم 1965، و. 9 و.

و كذا باش شاوش[1] ؛ و لأجل ذلك، أرسل في طلب المذكور الّذي كان مقيمًا خارج المدينة. تولّى علي نقسيس[2] منصب الدايلك دون صعوبة تذكر وقت الضحى، حيث تلقى مبايعة أعضاء الديوان و أعيان المدينة[3] ؛ و أوّل ما قام به هو مكافأة الباش أهجي باشي (باش آشجي باشي بالعثمانية) بتعيينه في منصب خوجة الخيل، كما أسند الداي باقي المناصب الوزارية الشاغرة إلى بعض مقرّبيه[4]. و للكشف عن الشركاء في جريمة اغتيال سلفه، قام في بادئ الأمر بتخفيف التدابير الصارمة الّتي اتّخذها سلفه لترويض الإنكشارية ؛ وأتاح له ذلك اكتشاف ثلاثة يولداش متورّطين خنقوا في مقرّ آغا الإنكشارية، بعد أن رفضوا البوح بأسماء شركاءٍ آخرين[5].

و بعد أيّام قلائل، اكتُشف في أوراق الخزناجي القتيل أنّه كان يعدّ لانقلاب ضدّ الداي السابق، و يروم لجعل الحكم وراثيًا في عقبه ؛ و كانت مؤامرته قد قطعت أشواطًا في التحضير، و عرفت تورّط عددٍ من أفراد الإنكشارية[6]، نسبةٌ كبيرةٌ منهم من الكراغلة وفق ما أورده بواييه[7]. و عليه، قام الداي علي باشا، الّذي كان شديد الارتياب، خلال الأشهر التالية بإعدام بعضٍ من أولئك المتآمرين، و إخراج المشكوك في أمرهم - أي ممّن لم تثبت بحقّهم التهمة - من الراتب[8] ؛ و أدّت صرامته مع الغموض الّذي أحاط تلك الإعدامات إلى حدوث تمرّدين للإنكشارية في شهري أبريل و سبتمبر 1755م أخمدهما بشدّته المعهودة[9].

---

1. Devoulx, "**Mort…**", Op. cit., p. 324 ; Venture de Paradis, Op. cit., pp. 105-106, 114 & 125-126 ; Hervé, **Relations…**, Op. cit., T. II, p. 396.

2. ارتبط اسم ملمولي علي آغا بعدّة ألقاب منها پرمقسز، نقسيس و بوصباع ؛ و الحقيقة أنّها في الأصل ذات معنى واحد، فنقسيس عبارة عن تحريف للكلمة العثمانية پارمقسز "مبتور الأصبع"، و الّتي يقابلها باللهجة الدارجة بوصباع. و مردّ هذا البتر أنّه تبارز مع يولداش أيّام شبابه، فقطع ابهامه : أحمد الشريف الزهّار، **مذكّرات الحاج أحمد الشريف الزهّار نقيب أشراف الجزائر**، تحقيق أحمد توفيق المدني، ش.و.ن.ت.، الجزائر، 1980، ص. 19، ه. 1. انظر أيضًا : صليحة جبّار، **الجزائر في عهد الداي علي باشا 1754-1766م**، ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر 2، 2011، ص. 37. - Devoulx, Ibid., p. 325, n. 3.

3. جبّار، نفس المرجع السابق، ص ص. 45-48. انظر أيضًا : ترجمة فرمان تولية الداي علي الباشوية المحرّر في 6 جمادى الأولى 1168هـ الموافق لـ 18 فبراير 1755م في : **المراسلات العثمانية**، م.و.ج.، مجموعة 3190-1، وثيقة 3.

4. Venture de Paradis, Ibid., pp. 106 & 126 ; Devoulx, **Les archives…**, Op. cit., pp. 68-69.

5. Chaillou, **Textes…**, Op. cit., p. 125.

6. وولف، المرجع السابق، ص. 389.

7. A.E.P./M.D., Algérie XIII, fol. 263 v° et sq.

نقلاً عن :

- Boyer, "**Le problème…**", Op. cit., p. 90.

انظر أيضًا :

- Boyer, « **Introduction…** », Op. cit., pp. 314-315.

8. انظر الملحق رقم 47.

9. de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 249.

و بسبب تراجع مداخيل القرصنة، اضطرّ الداي بابا علي، بضغط من الإنكشارية المنخرطين في النشاط البحري، على إعلان الحرب ضدّ إمبراطورية النمسا في 18 فبراير، بحجّة منح ليفورنة - التابعة للإمبراطورية - جوازات للنابوليتانيين، الّذين كانوا أعداء للإيالة. و بعد يومين، أُبلغ قنصل الأقاليم المتّحدة بالمثل بقرار الداي بمعيّة الديوان إعلان الحرب ضدّ بلاده ؛ و أنّه، بعد انقضاء مهلة شهرين، سيقوم الريّاس بالاستيلاء على السفن الهولندية المصادفة في البحر[1].

على صعيد آخر، كان الداي علي باشا و ابن أخته باي قسنطينة حسين بن مصطفى المعروف بـ"زرق عينه" يكنّان - لعدّة اعتبارات - العداء لباي تونس علي باشا[2] ؛ و عليه، كانا ينويان تجريد حملة على الإيالة المجاورة بقصد الإطاحة بالباي المذكور، و إسناد الحكم لابني الباي السابق حسين بن علي اللاجئيْن بمدينة الجزائر، منذ عهد الداي بابا إبراهيم باشا[3]. إلاّ أنّه تمّ إرجاء الحملة المزمعة عدّة أشهر، أوّلاً بسبب وقوع زلزال عنيف للغاية في مطلع شهر نوفمبر 1755م لم تسلم منه أيّة بناية من بنايات المدينة

- الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 225 ؛ سامح التر، المرجع السابق، ص. 516.

يمكن أن نستشفّ ممّا ذكره القنصل الفرنسي أندريه ألكسندر لومير (André-Alexandre Lemaire) أنّ أحد أسباب التمرّد هو أنّ اليولداش اغتنموا تراجع علي نقسيس في بداية عهده عن التدابير الصارمة الّتي أمر بها الداي السابق، كي يطلقوا العنان لصفاقتهم حيث مشى بعضهم في أزقّة المدينة في حالة سكر، و شهر آخرون يطقاناتهم تحدّيًا أثناء مرافقتهم لخليلاتهم الباغيات، و البعض الآخر نهبوا الجنان الموجودة في الفحوص ؛ و قد هددّ الداي بأنّه سوف يتمّ إيقاف المخالفين و معاقبتهم، و في حالة التمادي، سيعتبر تلك التصرّفات المخلّة بالأمن العمومي خروقات تستحقّ أقصى عقوبة : - Chaillou, Ibid., pp. 125-126.

1. Chaillou, **Textes…**, Op. cit., p. 127 ; Merouche, **La course…**, Op. cit., p. 296.

يوم إعلان الحرب على النمسا، قصد القنصل الهولندي پارافيسيني (Paravicini) وكيل حرج البحرية - الّذي كان مسؤولاً عن الشؤون الخارجية - لاستطلاع الأمور تجاه بلاده ؛ فأخبره هذا الأخير أنّ العسكر كانوا يتحدّثون علانية في دكاكين الحلاّقين عن الحرب ضدّ الأقاليم المتّحدة، و قد جسّد ضبّاط الديوان بالفعل رغبة اليولداش في إعلان الحرب يوم 20 فبراير : - Krieken, Op. cit., p. 111.

و كان إعلان الحرب على تلك الدولتين الأوروبيتين بالنسبة لبابا علي أمرًا لا مناص منه أملته ضرورة مداراة العسكر الإنكشاري خلال ذلك الظرف المتوتّر ؛ و بعد تحسّن الأوضاع نسبيًا، الّذي أعقب الحملة الجزائرية على تونس سنة 1756م، وافق الداي على انهاء حالة الحرب و عقد معاهدة سلم مع البلدين المذكورين : سامح التر، المرجع السابق، ص ص. 519-520.

- Chaillou, Ibid., pp. 143-144 ; Krieken, Ibid., p. 113.

و الجدير بالذكر أنّ حصيلة النشاط البحري تلك السنة كان سلبيًا رغم بعض الغنائم المحصّلة، إذ فقد الأسطول الجزائري خمسة سفن مع مقتل أزيد من مائتين من البحّارة و الجنود و وقوع قرابة ستّمائة في الأسر : - Krieken, Ibid., p. 112 ; Merouche, Ibid., p. 296.

2. يمكن أن نذكر من بين أهمّ تلك الاعتبارات علاقة الداي علي بوصبع الطيّبة بابني حسين باي و علاقة باي تونس علي باشا المشبوهة بالخزناجي السابق، بالإضافة إلى سياسة الباي المذكور الرامية إلى إحلال العناصر الكرغلية محلّ التركية في الأوجاق التونسي و الإكثار من عسكر الزواوة : بن يوسف، المصدر السابق، مج. 4، ص ص. 8-15 و 21 ؛ حصام، المرجع السابق، ص ص. 75-77.

- Guellouz, Masmoudi, & Smida, Op. cit., T. III, pp. 230 & 232.

3. الزهّار، المصدر السابق، ص. 17. - Rousseau, **Annales…**, Op. cit., pp. 118-121.

و فحصها كما أضرّ بشدّة بمنشآت الميناء[1] ؛ و ثانيًا لأنّ تدمير نظام تزويد المدينة بالمياه و شبكة الصرف الصحي تمامًا، بفعل الزلزال و الهزّات الارتدادية الّتي أعقبته، أدّى إلى تفشي وباء الكوليرا بين سكّان مدينة الجزائر، ممّا أوقع خلال البضعة أشهر التالية عدّة آلاف من الضحايا[2].

كان الداي و باي قسنطينة قد قاما بإدماج مئات الإنكشاريين من الأتراك التونسيين في قوّات الأوجاق الجزائري[3] - انضافوا إلى أعداد مماثلة وفدت على الجزائر خلال السنتين الأخيرتين من عهد الداي بابا إبراهيم - ؛ و كان هؤلاء الأخيرين من الّذين فرّوا إلى الجزائر أو تمّ نفيهم إلى المشرق، عقب الصراع الدامي بين باي تونس و ابنه الثائر يونس في ربيع عام 1752م، فأمّوا إيالة الجزائر لدى عودتهم تحسّبًا لأيّام أفضل[4].

---

1. هذا الزلزال المدمّر - الّذي قاربت شدّته تسعة على سلّم ريختر حسب تقديرات علمية حديثة - شمل نطاقه حوض المتوسّط الغربي، و عرف لدى المؤرّخين بزلزال لشبونة لتموضع مركزه قبالة سواحلها ؛ و لقد استمرّت الهزّات الارتدادية طيلة شهرين صاحبها نشوب حرائق متفرّقة و حدوث بعض أعمال نهب في مدينة الجزائر. انظر : ناصر الدين سعيدوني، **تاريخ الجزائر في العهد العثماني، و يليه ولايات المغرب العثمانية : الجزائر - تونس - طرابلس الغرب**، ط. 2، البصائر الجديدة، الجزائر، 2013، ص. 219.

- de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 249 ; Magali Morsy, "**Le tremblement de terre de 1755 d'après les témoignages d'époque**", in : H.T. 16, 1975, p. 90.

الجدير بالذكر أنّ تضرّر الميناء من الزلزال أتاح الفرصة لإعادة تهيئة منشآته، حيث قام الداي علي ملمولي - بالموازاة مع أعمال ترميم و إصلاح الأبنية و الهياكل القاعدية مثل عين البحرية، الّتي لم يلحقها كثير ضرر - بتركيز قسم من مخازن الميناء في صفّ واحد على رصيف خير الدين بشكل فسح مجالاً أكبر للتحصينات الموجودة أو الّتي سيتمّ إنشاؤها مستقبلاً على "الجزيرة" : خلاصي، **التنظيمات…**، المرجع السابق، ج. 1، ص ص. 131 و 134-136. - Epalza & Vilar, Op. cit., pp. 106-108 ; Colin, Op. cit., pp. 125-126.

2. أدّى تحطّم قنوات الصرف كما أشرنا أعلاه، بالإضافة إلى الظروف الصحّية المتردية الّتي عاشها المنكوبون، إلى تفشّي وباء الكوليرا و وقوع آلاف الضحايا خلال السنوات التالية، و خفّت وطأة المرض تدريجيًا بالموازاة مع إعادة بناء الدور و المرافق الّتي دمّرها الزلزال ؛ إلاّ أنّ المدينة بقيت تعاني من نقص المياه، و لقد قام الداي بابا علي لحلّ المشكل ببناء أو بالأحرى إعادة بناء عشرات الأعين و الأسبلة. انظر : بن يوسف، المصدر السابق، مج. 4، ص ص. 15 و 29-30 ؛ جبّار، المرجع السابق، ص ص.97-108.

- Colin, Op. cit., pp. 117-128 ; Devoulx, **Tachrifat**, Op. cit., pp. 120-121.

3. بن يوسف، نفس المصدر السابق، ص. 76.

انظر أيضًا : **دفتر مواجبات…**، المصدر السابق، رقم 1982 مكرّر، وو. 140ظ، 275 ظ، 277 ظ.

- Rousseau, **Annales…**, Op. cit., p. 154 ; Plantet, **Correspondance des beys…**, T. 2, Op. cit., pp. 461 & 466 ; Guellouz, Masmoudi, & Smida, Op. cit., T. III, p. 230.

4. في الواقع، كان سبب الصراع مساعي محمّد بن علي باشا لإقصاء أخيه البكر يونس عن ولاية العهد ؛ و أفضى ذلك إلى تمرّد هذا الأخير و تحصّنه بمدينة تونس، حيث استمال الحضر إلى جانبه، بالإضافة إلى أزيد من ثلاثة آلاف تركي يقيمون بالمدينة و قلعتها. لكن بعد حوالي شهرين من المقاومة، اضطرّ يونس إلى الفرار عن المدينة بسبب نفاذ الذخيرة. "**و لمّا فرّ يونس دخل محمّد باي الحاضرة و سلّط السيف على من قدر عليه من شيعة أخيه و أفنى ذوي النجدة و البأس من الجند، و أفلت من نجى منهم إلى الجزاير…**" : الباجي، المصدر السابق، ص ص. 125-126.

و ساءت العلاقات بين الإيالتين خلال عام 1755م، بسبب فرار رعايا جزائريين إلى الأراضي التونسية و سوء المعاملة الّتي تعرّض لها بعض التجّار ؛ و إزاء رفض باي تونس دفع التعويضات المقدّرة بخمسين ألف ريال الّتي طالب بها حسين زرق عينه، بات مؤكّدًا نشوب الحرب الّتي عكف كلا الطرفين على الإعداد لها[1].

أسند الداي إلى حسين باي قسنطينة في أبريل 1756م قيادة الجيش الجزائري، الّذي ضمّ 5000 إنكشاري و 1000 صبايحي، بالإضافة إلى آلاف الفرسان من الأهالي و مئات التونسيين من أتباع الأميرين. أمّا علي باشا، فكان تحت تصرّفه 4000 إنكشاري و عدد مماثل من الزواوة، بالإضافة إلى 6000 صبايحي و فارس[2] ؛ و قد حشد 4000 من قوّاته في قلعة الكاف الاستراتيجية آملاً أن توقف الجزائريين مثلما حدث سنة 1746م و أخلى المناطق الغربية، كما قام بعقد تحالف مع فرسان مالطة لكي يتموقعوا بعمارة مكوّنة من بارجتين و أربع قادرغات عند حلق الوادي، من أجل قطع طريق الإمداد البحري عن الجزائريين في حال تقدّمهم إلى تونس[3].

بعد أن حاصر حسين باي الكاف نصف شهر، دانت له القلعة بعد قتال شديد قتل خلاله العشرات و جرح خمسمائة من رجاله ؛ و انضمّ إثر ذلك مئات الإنكشاريين التونسيين من الأتراك - الّذين حاربوا بفتور - إلى جانبه[4]. و وصل الجيش الجزائري إلى مشارف تونس ليلة 22 يوليو، بعد شهر من تمكّنه من الكاف ؛ و كان مرّد هذا التأخير انتظار وصول الإمدادات، الّتي أرسل باي قسنطينة في طلبها من خاله داي الجزائر[5]. و دون مقدّمات، شرع في عمليّات تطويق المدينة، الّتي حوّطتها قوّات علي باشا بمتراس محكم ؛ غير أنّ المهاجمين استطاعوا بعد محاولات متكرّرة من النفاذ إلى داخل المدينة قبيل فجر

انظر أيضًا : - Plantet, Ibid., pp. 448-449 ; Rousseau, Ibid., p. 149-153.

1. بن يوسف، المصدر السابق، مج. 4، ص ص. 13-17 و 21 ؛ حصام، المرجع السابق، ص ص. 75-77.

- Plantet, **Correspondance des beys…**, Op. cit., T. 2, pp. 479-480 & 490-493.

2. Id., pp. 500-501.

- بن يوسف، نفس المصدر السابق، ص ص. 50. 3. Id., pp. 497-498.

4. نفسه، ص ص. 38-46 ؛ حصّام، نفس المرجع السابق، ص. 79.

ذكر الصغير بن يوسف في هذا الصدد : "**قيل… أنّ بمحلّة الجزيرية من الّذين نفاهم محمّد باي في خطرة يونس ألف و ثلاثماية من عسكر تونس سوى العسكر الّذي نزل من قصبة الكاف، و هم على ما قيل خمسمائة.**" : نفسه، ص. 76.

5. الجدير بالذكر أنّ المدد المكوّن من 2000 إنكشاري تأخّر وصوله حتّى يوم 27 يوليو، و كان قد اقتطع قسمٌ منه من محلّة قسنطينة، فيما جاء القسم الآخر من عنّابة حيث تمّ إنزاله من الشبّاكات، الّتي لعلم ريّاسها بترصّد السفن المالطية لها عند حلق الوادي أحجمت عن المضي قدمًا إلى تونس : - Id., p. 503.

2 سبتمبر، و لقد أعانهم في ذلك - حسبما أشيع - خيانة جماعة من الجند التركي ؛ و أتبع عملية الاقتحام وقوع أعمال سلب و نهب ممنهج استمرّ ثلاثة أيّام، و صاحبه حدوث الكثير من الانتهاكات في حقّ سكّان المدينة[1].

و بعد وقوع علي باشا في قبضة الجزائريين، طلب حسين باي أوامر من داي الجزائر علي باشا ملمولي بخصوص مستقبل البلاد التونسية و كيفية تعامله مع أفراد الأسرة الحسينية : أيلحق تونس بالجزائر أم يفرض إتاوة تبعية عليها أم غير ذلك ؟ و كان جواب الداي بعد استشارة الديوان ملفتًا للانتباه حيث ورد فيه "**أنّ الأوجاقات الثلاثة تونس، الجزائر و طرابلس من ممالك السلطة العلية العثمانية، ونحن على طاعتها، و لو صحّت هذه الضريبة من المال في الإسلام يكون سلطان المسلمين أولى بها، و نحن عبيد طاعته**"[2]. هذا الردّ أظهر الجزائريين بمظهر المدافعين عن المصالح العثمانية في المنطقة ؛ و عليه، تمّ الأمر بإعدام علي باشا بتهمة تهديد الوجود التركي العثماني في الإيالة و التعامل مع العدو المتمثّل في فرسان مالطة، و جرى تنصيب ابن عمّه محمّد الرشيد باي حاكمًا على تونس.

و بعد أن جمع المذكور و أخوه علي المال المتفّق عليه لدفع مخصّصات الجنود الجزائريين الإضافية (10 سلطاني لكلّ إنكشاري)[3]، عادت المحلّة إلى الجزائر محمّلة بالغنائم و الأسلاب، مصطحبة معها نحو 944 أسير أوروبي، من ضمنهم قناصل النمسا، السويد و الأقاليم المتّحدة و عائلاتهم[4]. و لقد احتجّ

---

1. بن يوسف، المصدر السابق، مج. 4، ص ص. 76-78 ؛ حصّام، المرجع السابق، ص. 80. انظر سرد وقائع حصار تونس من قبل موثّق عقود القنصلية الفرنسية ڤاليير (Vallière) :
- Plantet, **Correspondance des beys…**, Op. cit., T. 2, pp. 500-505.

2. أبو العبّاس أحمد بن أبي الضياف، **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس و عهد الأمان**، ط.2، ج. 2، الدار التونسية للنشر، تونس، 1977، ص. 154. انظر أيضًا :
- Guellouz, Masmoudi, & Smida, Op. cit., T. III, p. 234.

تجدر الإشارة إلى أنّه رغم ما تضمنته الرسالة صراحة من عدم فرض إتاوة تبعية على إيالة تونس، فقد تمّ إلزامها بأداء عوايد سنوية تحت مسمّى "هدية الجزائر" في شكل حمولتي زيت مخصّصة لإنارة مساجد العاصمة، إضافةً إلى هدايا لكبار الموظّفين من بعض المنتجات التونسية :
- Venture de Paradis, Op. cit., p. 141, n. 2 ; Guellouz, Masmoudi, & Smida, Ibid., pp. 237-238.

انظر أيضًا : السعداوي، المرجع السابق، ص. 142.

3. السلطاني هو قطعة نقدية ذهبية من ضرب دار السكّة بالجزائر، و كانت تطلق عليها المصادر الفرنسية اسم sequin algérien.
لمزيد من المعلومات حول هذه العملة، انظر :
- Merouche, **Monnaies…**, Op. cit., pp. 33 & 44.
انظر أيضًا :
- Venture de Paradis, Ibid., pp. 88 & 97.

4. شكّلت تلك الغنائم حسب دي پارادي أهمّ دخل للخزينة الجزائرية خلال عهد بابا علي ؛ و قد استطاع هذا الداي بفضل اعتنائه بالإيرادات من أن يترك الخزينة عامرة بحوالي 35 مليون جنيه إسترليني - علمًا أنّ الجنيه كان يقيّم وقتئذٍ بحوالي 6 غرامات من الذهب - دون احتساب المجوهرات و الأغراض النفيسة قبيل وفاته، حسب ما أورده القنصل الإنكليزي جيمس بروس، بعد أن كانت شبه فارغة لدى اعتلائه الحكم :
- A. Murray, **Account of the life and writings of James Bruce of Kinnaird**, George Ramsay and Company, Edinburg, 1808, pp. 165 ; Venture de Paradis, Ibid., pp. 60-61.

سفراء الدول المذكورة في استانبول من تصرّف الجزائريين تجاه قناصلهم في تونس، و قدّموا شكوى للسلطان العثماني. فأرسلت لأجل ذلك عدّة فرمانات إلى بايلرباي الجزائر تأمره بإطلاق سراح القناصل على الفور ؛ و لم يجد هذا الأخير وسيلة للتملّص من الأمر السلطاني، فامتثل دون مواربة[1].

كانت إحدى تبعات الحملة على تونس تجدّد الاضطرابات على الجبهة القبائلية[2] - مثلما حدث خلال الفترة 1745-1746م، بالتزامن مع الحملة الأولى ضدّ علي باشا -، حيث تمرّدت العديد من قبائل الزواوة مع بداية صيف 1756م و استولت في منتصف يوليو على برج بوغني، إثر معركة عنيفة قتل خلالها قائده أحمد آغا ؛ و بعد أن هدمت تحصينات البرج المذكور، هوجم برج حمزة (البويرة حاليًا) الشهر التالي. و لم تستطع القوّات الّتي أرسلها الداي من إيقاف الثوّار، إلاّ بعدما سيرّ ثلاثة محلاّت - الأولى بلغ تعدادها 300 رجل بقيادة شريف آغا الصبايحية و الأخريين الأكثرين عددًا بقيادة كلّ من باي قسنطينة أحمد القلّي و محمّد باي التيطري - أرجعت الأمور إلى نصابها في منتصف عام 1757م[3].

و بداعي الحاجة إلى المحافظة على ثبات أعداد أفراد الأوجاق، طلب الداي الإذن من الباب العالي بتجنيد متطوّعين في ربيع 1758م ؛ و لقد قُبل طلبه سريعًا، حيث أرسلت الأوامر إلى ألوية إزمير و صوغلة و صاروخان و منتشا الواقعة في غرب الأناضول بمقتضى ذلك[4]. و بعد أشهر قليلة، التمس الداي بابا علي من السلطان إصدار فرمان بإعفاء الإنكشاريين الجزائريين الذاهبين إلى المشرق بقصد الحجّ أو صلّة الرحم من الضرائب، متحجّجًا بكونهم من طبقة القپو قولي (عبيد السلطان)، و أنّ الأموال و المصنوعات النفيسة الّتي يحملونها لم تكن في الغالب للتجارة، بل عبارة عن هدايا و إعانات لذويهم[5].

---

1. تمّ أسر أولئك القناصل - حسب الرواية الجزائرية - بسبب حالة الحرب القائمة ضدّ دولهم، علاوة على دورهم المشبوه خلال الحرب ضدّ علي باشا و ابنه محمّد. انظر بخصوص ذلك : سامح التر، المرجع السابق، ص ص. 516-517 ؛ جبّار، المرجع السابق، ص. 129.

- Chaillou, **Textes…**, Op. cit., p. 141 ; Merouche, **La course…**, Op. cit., pp. 296 ; Plantet, **Correspondance des beys…**, Op. cit., T. 2, pp. 509-514 & 526 ; Hammer-Purgstall, Op. cit., T. 16, p. 9.

2. نجهل في كلتا الحالتين إن كان الثوّار القبائليين تحرّكوا بمحض إرادتهم مغتنمين انشغال معظم القوّات العثمانية بالحملة التونسية، أم أنّ علي باشا أوعز إليهم بالثورة من خلال نفوذه على جنود الزواوة، الّذين كانوا يعدّون بالآلاف في صفوف الجيش التونسي.

3. خلاصي، **التنظيمات…**، المرجع السابق، ج. 2، ص. 377 ؛ سعيدوني، "**الشبكة الدفاعية…**"، المرجع السابق، ص. 209.

- Mercier, **Histoire de l'Afrique**…, Op. cit., pp. 386-387.

4. ر. د. أ.ع.، المصدر السابق، ص ص. 70-71.

تجدر الإشارة إلى أنّ الداي كلّف وكيل الحرج السابق الحاج محمّد بالمهمّة، و حمّله عددًا من الهدايا للسلطان و كبار رجال حاشيته. انظر :

- Devoulx, **Tachrifat**, Op. cit., p. 58.

5. دفتر مهمّات الديوان الهمايوني رقم 160، ص. 306 (أوائل محرّم 1172هـ). نقلاً عن : سامح التر، نفس المرجع السابق، ص. 519.

و في هذا الصدد، يتبيّن لنا حرص الداي على توطيد العلاقة مع الباب العالي و كسب رضا السلطان العثماني عثمان الثالث (1754-1757م)، و من بعده مصطفى الثالث (1757-1774م) ؛ و ذلك من خلال الامتثال - الّذي لمسناه - للأوامر السلطانية على وجه العموم[1]، علاوةً على الاحتفالات غير المسبوقة الّتي نظّمت بالجزائر طيلة سبعة أيّام في أبريل 1762م بمناسبة بشارة ميلاد الأمير سليم شاهزاده[2].

و مكّنت تلك العلاقات الوطيدة مع الباب العالي من إضفاء مزيد من الاعتبار على الداي في أعين الأوجاق و الرعية، كما عزّزت مكانته[3] ؛ غير أنّ ذلك لا يفسّر وحده بقاء علي ملمولي في الحكم قرابة اثنا عشر سنة، إذ ساهمت التدابير الاحتياطية الّتي اتّخذها لضمان حمايته في ذلك، و من بينها منعه تحت طائلة أشدّ العقوبات دخول إنكشاري أو أيّ أحد حاملاً لسلاح إلى دار الإمارة، و لذلك فرض تفتيش دقيق على الداخلين إليها - باستثناء الوزراء - من قبل نوبتجية الباب[4]. و تفاديًا لخروجه الأسبوعي لمنزله العائلي الكائن بالفحص، قام بشراء و تهيئة دار ملاصقة لقصر الجنينة و فتح منفذًا إليها ؛ بيد أنّ أعضاء الديوان، و على رأسهم خوجة الخيل، أشاروا عليه أنّه لا يجوز أن يكون للقصر منفذين، فقام بغلقه على كرهٍ منه[5].

الجدير بالذكر أنّ هذه المسألة لم تلق طريقها إلى التسوية رغم المراسلات العديدة الّتي تناولتها، بسبب ارتباطها بمسألة ميراث المتوّفين من أفراد أوجاق جزائر الغرب، حيث ردّ غير واحد من موظّفي الدولة العثمانية أنّ اعتبار أولئك من القپو قولي يجعل أولوية الميراث و أحقيته للدولة دون الأوجاق : نفسه، ص. 517.

و قد صدر فرمان همايوني موشّى بأمر شريف في أواخر ذي الحجّة من سنة 1145هـ إلى قاضي إزمير، حيث كان وكيل أو مفتي الجزائر في المدينة المذكورة ينقل الشكاوي المتعلّقة بإحدى تلكما المسألتين تباعًا إلى الديوان الهمايوني كي يقوم بالفصل فيها : نفسه، ص ص. 517-518.

1. على سبيل المثال، أذعن الداي لأمر السلطان في 1758م بعقد السلم مع الإمبراطورية النمساوية، لكنّه تلكّأ عن إرسال نسخة من المعاهدة إلى إستانبول بالرغم من إصرار الديوان الهمايوني على ذلك ؛ و السبب خشية ديوان الجزائر أن يزيد بالتالي تدخّل هذا الأخير مستقبلاً في العلاقات الدبلوماسية الجزائرية مع الدول الأوروبية : سامح التر، المرجع السابق، ص ص. 519-520.

و لم يؤثّر رفض الأوجاق الجزائري في علاقاته مع الباب العالي، بدليل الأسلحة و الذخائر و اللوازم البحرية المعتبرة الّتي أتى بها المبعوث الجزائري المذكور آنفًا في نوفمبر من ذات السنة، و الّتي تطلّب نقلها إلى الجزائر خمسة سفن تجارية :

- Devoulx, **Les archives…**, Op. cit., pp. 83-84.

2. الزهّار، المصدر السابق، ص. 15. انظر أيضًا : - Id., p. 99 ; Hervé, **Relations…**, Op. cit., T. II, p. 397.

3. Hervé, Ibid.

4. Venture de Paradis, Op. cit., pp. 59 & 68.

5. Id., p. 106.

فضلاً عن ذلك، قام الداي ببثّ العديد من الجواسيس في أوساط الإنكشارية في الثكنات و أماكن ارتيادهم، و حتّى على أعلى مستوى ؛ و قد مكّنه ذلك من معرفة و كشف الكثير من التحرّكات، التّي كان ارتيابه الشديد يصوّرها على أنّها تهديدات محتملة ضدّه. و هذا على الأرجح ما يفسّر عددًا من عمليات الإعدام أو العزل الّتي طالت وزراء و كبار موظّفين كان أهمّها إعدامه للخزناجي حسين في أكتوبر 1763م الّذي كان يتآمر ليحلّ مكانه[1]، بالإضافة إلى نفيه في أواخر أكتوبر 1764م لأخيه غير الشقيق دالي إبراهيم آغا الصبايحية[2]، الّذي أتبعه بوكيل حرج البحرية حسن العلج و نحو أربعين شخصية أخرى إلى إزمير في أبريل 1765م و قيامه بمصادرة أموالهم، ليس إلاّ لتخطيطهم للاستيلاء على الحكم عقب وفاته[3].

و كان الداي علي ملمولي، الّذي ابتدأه المرض خلال السنة المذكورة، قد عقد النيّة أن يستخلف خزناجيه محمّد خوجة بن عثمان الّذي حاز ثقته و تقديره[4] ؛ و لأجل ذلك، قام بجمع وزرائه و أوصاهم بولاية المذكور قبيل وفاته يوم الأحد 2 فبراير 1766م[5].

---

1. Devoulx, **Les archives…**, Op. cit., pp. 112-115. - جبّار، المرجع السابق، ص ص. 46-47.

2. **دفتر مواجبات…**، المصدر السابق، رقم 1974، و. 1 ظ ؛ رقم 1983 مكرّر، و. 13 و.

لمّح القنصل الإنكليزي إلى أن عمليات النفي كانت لها علاقة بمشكلة رخص المرور الّتي سممّت العلاقة بين الإيالة و بلاده، و كادت أن تفضي إلى وقوع الحرب. انظر : - Murray, Op. cit., p. 164.

3. Devoulx, Ibid., p. 116 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 254 ; Mercier, **Histoire de l'Afrique**…, Op. cit., p. 395.

لقد انضاف إلى جملة المنفيين مستشار الداي حاجي محمد الّذي شغل منصب وكيل الحرج سابقًا، إلاّ أنّه في الحقيقة أبعد دون غيره إلى الإسكندرية في أوائل شهر نوفمبر 1764م ؛ و سمح له الداي - عرفانًا بالخدمات الجليلة الّتي قدّمها كقائد الهدية إلى إستانبول مرّتين - بحمل أمواله و أملاكه معه : - Devoulx, Ibid., pp. 123-124 ; Murray, Ibid., pp. 163-165.

4. جبّار، نفس المرجع السابق، ص. 46.

5. الزهّار، المصدر السابق، ص. 23 ؛ سامح التر، المرجع السابق، ص. 522. - Devoulx, Ibid., p. 117.

انظر ما ذكره الراهب ألنزو كانو ينييتو (Fray Alonso Cano y Nieto) في هذا الخصوص :

- F. Alonso Cano y Nieto, **Argel delenda est. El « Nuevo aspecto de la topografía de la ciudad y regencia de Argel »**, Publ. de J. M. Escribano Páez & R. Castillo Larriba, Archivo de la Frontera, s.l., 2010, pp. 66-67.

انظر أيضًا : جبّار، نفس المرجع السابق، ص ص. 50-51 ؛ الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 229.

2-2-3. عهد الداي قلعه لي محمّد باشا بن عثمان[1] (1766-1791م)

بويع محمّد عثمان باشا بالولاية صبيحة نفس اليوم الّذي توفي فيه علي نقسيس، بإجماع أهل الحلّ و العقد من الوزراء و كبار الموظّفين و أعضاء الديوان و كذا أعيان المدينة[2]. و كان ارتقاء هذا الداي، الّذي أجمعت كلمة المؤرّخين على أنّه من أحسن الدايات الّذين تعاقبوا على حكم الجزائر[3]، وليد صدفة غريبة ؛ ذلك أنّه في أحد الأيّام أرسل الداي السالف في طلب انكشاري يحمل اسم محمّد عثمان ليكلّفه بوظيفة خوجة الباب، غير أنّ الشاوش المكلّف بالمهمّة استحضر بالخطأ صاحبنا، و لمّا تبيّن للداي أنّه ليس الشخص المطلوب، بل سبعوني متقاعد عن الخدمة الفعلية، صرفه بفظاظة من حضرته، قبل أن يستدعيه مجدّدًا و يوظّفه بعد أن فكّر في قرارة نفسه أنّ هذا الخطأ مقدور[4]. و أثبت محمّد جدارته في الوظيفة الموكلة إليه، حيث تمكّن من ايقاف عدّة تهديدات بصرامة كانت ستطال شخص الداي، ممّا أكسبه ثقة بابا علي و تقديره لأخلاقه العالية، فرقّاه إلى منصب خزناجي في 12 أكتوبر 1763م[5].

لقد كان الظرف خلال السنوات الأخيرة من عهد الداي السابق و الأولى من عهد الداي محمّد بن عثمان صعبًا، إذ انفجرت اضطرابات خطيرة قادتها عشائر فليسة في غرب بلاد القبائل، على إثر سنتين

---

1. انتسب محمّد بن عثمان إلى بلدة قلعة (Kale) الواقعة على بعد أربعين كيلومتر تقريبًا جنوب غرب دنْزلي (Denizli)، عاصمة اللواء الّذي يحمل نفس الاسم، بإيالة آيدين : **دفتر مواجبات...**، المصدر السابق، رقم 1978، و. 88 ظ ؛ رقم 1964، و. 231 و.

انظر : موستراس، المرجع السابق، ص ص. 265-266. انظر أيضًا : - Venture de Paradis, Op. cit., p. 96.

و كان المذكور قد التحق بأوجاق الإنكشارية قبل حوالي ستّين سنة، حيث سجّل في الدفتر في شهر جمادى الأولى 1115هـ الموافق لسبتمبر 1703م، ممّا يجعل عمره عند تولّيه الدايلكية في حدود الخمسة و سبعين سنة ؛ و كان خلال سنواته الأولى في الجزائر - بحسب ما أورده ميشال هرڤيه - بائع أحذية بسيط : **دفتر مواجبات...**، نفس المصدر السابق، رقم 1978، و. 88 ظ ؛ رقم 1961، و. 89 و.

انظر أيضًا :

- Hervé, **Relations…**, Op. cit., T. II, p. 400 ; A. Devoulx, « **Les casernes de janissaires à Alger** (2) », in : R.A. 3, 1858, p. 143.

2. مجهول، **تقييد...**، المصدر السابق، و. 3 و ؛ الزهّار، المصدر السابق، ص. 23.

3. الجيلالي، المرجع السابق، ج. 3، ص ص. 235-236 ؛ سامح التر، المرجع السابق، ص. 523.

- Hervé, Ibid.

4. الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 229. - de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., pp. 254-255.

5. Devoulx, **Les archives…**, Op. cit., pp. 112-113.

انظر أيضًا : **دفتر مواجبات...**، نفس المصدر السابق، رقم 1983، و. 314 ظ.

من المسغبة و امتناعهم عن دفع اللزمة في ربيع 1764م[1]. و الراجح أن رعونة آغا الصبايحية بجاقجي حسين چاوش[2] في مواجهة قطّاع الطرق في المنطقة، حيث ارتكب الكثير من التجاوزات في حقّ الأهالي[3]، جعل تلك الاضطرابات تستعرّ في ربيع 1767م، و تتحوّل إلى ثورة عارمة عقب الهزيمة الّتي منيت بها المحلّة العثمانية في أواخر شهر مايو[4]، حتّى باتت جموع الثوّار القبائليين تهدّد بقطع الطريق السلطاني إلى قسنطينة، إلى جانب إغارتها على أحواش متيجة[5]. و كما يحدث غالبًا في ظروف مماثلة، حاول أفراد من الإنكشارية التمرّد أكثر من مرّة ؛ لكن يقظة الداي محمّد بن عثمان و صرامته وضعت حدًّا لكلّ تمرّد[6].

قام الداي محمّد بتعيين خوجة الخيل ولي في مكان آغا الصبايحية المخنوق، و كلّفه في أبريل 1768م بالخروج على رأس قوّات قوامها أربعة آلاف انكشاري، بالإضافة إلى نحو اثنا عشر ألف من قوّات بايلكي قسنطينة و التيطري ؛ و تحرّكت تلك القوّات منفصلة في ثلاثة محالّ في حركة تطويقية، قبل أن تتجمع لمواجهة الثوّار.

---

1. بخصوص ثورة فليسة، كتب القنصل الإنكليزي جيمس بروس يوم 20 يونيو 1764م إلى كاتب الدولة اللورد هاليفاكس (Lord Halifax)، مبيّنًا له ملاءمة الظرف لمهاجمة تلك المدينة : "**إلى جانب ذلك، هناك جيش من المتمرّدين يربو عددهم عن اثني و عشرين ألف، قد حملوا حاليًا السلاح، على مسيرة ثلاثة أيّام من الجزائر...**" : - Murray, Op. cit., pp. 149-150.

انظر فيما يخصّ الأوضاع المعاشية المتأزمة خلال الفترة (1762-1764م) : موساوي القشاعي، **الصحّة...**، المرجع السابق، ص. 77.

- Merouche, **Monnaies...**, Op. cit., pp. 104-105.

2. **دفتر مواجبات...**، المصدر السابق، رقم 1983، و.20 و° ؛ رقم 1969، و.8 و°.

3. Venture de Paradis, Op. cit., pp. 112-113 ; V. Robin, « **Les Oulad ben Zamoum** », in : R.A. 19, 1875, pp. 33-34 & 38.

4. de Grammont, **Histoire d'Alger...**, Op. cit., p. 256.

قتل ما يقرب من ثلاثمئة من جنود المحلّة من أصل ألف و مئة، فيما فرّ شتات الناجين إلى الجزائر و دلّس، الّتي كانت مركز العمليات لإخماد ثورة فليسة. و حكم محمّد بن عثمان على الآغا حسين بالإعدام لجبنه كونه كان من أوائل الفارّين من المعركة، و بسبب الجرائم الّتي ارتكبها في حقّ قبائليين أبرياء. و لقد خنق هذا الأخير في دلّس مطلع الأسبوع الثاني من يونيو، و دفن بها دون أيّ تكريم :

- de Grammont, Ibid. ; Venture de paradis, Ibid, p. 112 ; Devoulx, **Les archives...**, Op. cit., p. 120.

- فارس كعوان، "**دراسة مخطوط بيان ملوك الجزائر و ما وقع فيها من الأمور**"، في : المؤرّخ ناصر الدين سعيدوني، رائد الدراسات العثمانية في الجزائر، تنسيق و تقديم الأستاذ ودان بوغفالة، منشورات مخبر البحوث الاجتماعية و التاريخية، جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر، 2014، ص. 246 ؛ سامح التر، المرجع السابق، ص. 526.

5. يذكر ڤنتور دي پارادي في هذا الصدد : "...**كون طريق قسنطينة غير مأمون كثيراً بسبب الشعب الّتي يجب المرور من خلالها، حتّى أنّ المحلّة** (يعني محلّة الشرق) **ليست قويّة كفاية لتفرض نفسها على القبائليين المتمرّدين الّذين يحتلّون الجبال**" : - Id., p. 69.

انظر أيضًا : الزهّار، المصدر السابق، ص. 28.

6. الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص ص. 229-230.

و من جهتهم، تدعم صفّ الفليسيين بمقاتلين من معظم أنحاء بلاد القبائل تحت إمرة المرابط سيدي أحمد أوسعدي، بحيث قدّر عددهم إجمالاً بأربعين ألف رجل. نشب القتال بين الطرفين قرب الموقع المسمّى عمنوش بناحية ذراع الميزان، و أسفرت المعركة الضارية عن هزيمة نكراء و مقتل ألف و مائتي من القوّات الإنكشارية و المخزنية و الرديفة، من ضمنهم قائد الجيش ولي آغا ؛ بينما قضى نحو ثلاثة آلاف من القوّات القبائلية، من بينهم زعيم الثورة أوسعدي[1]. و تقهقرت فلول القوّات العثمانية بغير نظام تاركة كمّية كبيرة من الذخائر و الأسلحة، فيما راح القبائليون يلاحقونها حتّى مشارف العاصمة، و انتشروا في الأنحاء ينهبون الفحوص و يقطعون الطرق، بحيث عرقلوا تموين المدينة من القمح الّتي كادت أن تحلّ بها المسغبة.

و خلال الأشهر الثلاث التالية، تتالت ستّ مؤامرات للإنكشارية ضدّ شخص الداي تعبيرًا عن الاستياء الشديد ممّا آلت إليه الأوضاع ؛ و إزاء ذلك، لم يبارح محمّد بن عثمان دار الإمارة مدّة طويلة[2].

اتّخذ الداي تدابير عاجلة لتدارك الوضع، إذ قام بإرسال طلب استحضار مجنّدين جدد لتعويض الخسائر الفادحة ؛ و قد صدر أمر سلطاني بموجب ذلك في 12 أكتوبر من نفس السنة لتسهيل عملية التجنيد من قضاء إزمير، و ألوية آيدين و صاروخان و منتشا الأناضولية[3]. و على اعتبار الأهمّية الّتي اكتسبتها قيادة سيباو جرّاء الأحداث الأخيرة، فقد تمّ فصلها عن بايلك التيطري و جعلها شبه مستقلّة، كما رفع قائدها الجديد - الّذي عيّن بدل محمّد آغا المتوّفى - إلى مصاف البايات، و لو أنّه لم يكن مطالبًا بتقديم دنوش، بل مقدار من الضرائب العينية بنسبٍ متواضعة من منتجات المنطقة[4].

---

1. A. Berbrugger, **Les époques militaires de la Grande Kabilie**, Bastide, Libraire-Éditeur, Alger, 1857, p. 125.

قتل كذلك من كبراء القوم شيخ العرب الحاج بن قانة و شيخ بلّزمة فرحات بن علي و بلقاسم بن مرّاح شيخ زمالة قسنطينة، و قائد سيباو (أو سباوه كما نجده في دفاتر العلوفات) محمد بن حسن : بن العنتري، **فريدة...**، المصدر السابق، ص. 77.، هـ. 2 ؛ **دفتر مواجبات...**، المصدر السابق، رقم 1983، و.13 و ْ. انظر أيضًا : زيدين قاسيمي، **قيادة سيباو 1132هـ/1720م-1274هـ/1857م**، ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2007، ص. 71 ؛ سعيدوني، "**الشبكة الدفاعية**..."، المرجع السابق، ص. 206 ؛ كعوان، "**دراسة**..."، المرجع السابق، ص. 246.

- Mercier, **Histoire de Constantine**, Op. cit., p. 269 ; Devoulx, **Les archives...**, Op. cit., p. 122 ; Robin, « **Les Oulad...** », Op. cit., pp. 33-37.

2. de Grammont, **Histoire d'Alger...**, Op. cit., pp. 256-257.

- سامح التر، المرجع السابق، ص ص. 526-527.

3. ر. د. أ.ع.، المصدر السابق، ص ص. 72-74.

الجدير بالذكر أنّ الداي محمّد بن عثمان كان قد أرسل في منتصف مارس 1766م بعثة إلى السلطان العثماني محمّلة بالهدايا، من أجل طلب عتاد عسكري للأوجاق الجزائري و منحه لقب الباشوية :

- الجيلالي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 240.

- Devoulx, **Tachrifat**, Op. cit., pp. 58-60.

4. انظر : الزهّار، المصدر السابق، ص ص. 35 و 47 ؛ سعيدوني، نفس المرجع السابق، ص ص. 205-206.

في ربيع 1769م، وجّه الداي قوّاتًا جديدة لمواجهة القبائليين، و لكنّه أمر قادته بعدم التوغّل في الأوعار الّتي يألف الثوّار نصب الكمائن فيها، بل التضييق و الفصل بين القبائل في خطوات محسوبة، مكّنت قوّات الإنكشارية و المخزن من حصر تموين المناطق الثائرة ؛ كما أنّ الخلاف الّذي دبّ بين عشائر فليسة و المعاتقة بعد مقتل أوسعدي ساهم في إضعاف الثورة، الّتي انحسرت قوّتها و همدت بعد قرابة أربع سنوات[1].

و بينما كانت ثورة فليسة على أشدّها، ورد فرمان سلطاني في خريف 1768م يطلب إرسال عمارة إلى إستانبول دعمًا للدولة العثمانية في حربها ضدّ روسيا، فامتثل الداي و أرسل عمارة من خمسة سفن بقيادة الرايس بن يونس في 1769م ؛ و سيكون لتلك العمارة دور بالغ الأهمية - بعد تدمير قطع الأسطول العثماني في واقعة چشمة يوم 6 يوليو 1770م[2] - في حماية عاصمة الدولة نفسها. و في نفس السياق، سيقوم الداي محمّد عثمان باشا بإرسال عمارة ثانية من أربعة سفن بتاريخ 16 أغسطس 1770م إلى إستانبول، بناءً على أمرٍ عاجل من السلطان عبد الحميد الأوّل[3].

و رغم خسارة العثمانيين للحرب، فإنّ السلطان العثماني سيجزل العطاء لأفراد البحرية الجزائرية عرفانًا بتفانيهم في خدمة الدولة و يهدي الإيالة ثلاثة مراكب حربية[4]. و في بادرة غير مسبوقة في تاريخ الإيالة، أعطى الديوان امتيازًا استثنائيًا لعشرات البحّارة و المتطوّعين الشبّان من أهالي الجزائر للالتحاق بصفوف الإنكشارية في شهري مايو و يونيو 1775م[5] ؛ و لا يمكن تعليل تلك الخطوة فقط

---

1. في يوليو 1772م، طلب القبائليون الّذين يقطنون في جبال بني صالح (البليدة) و يسر الصلح، بعد أن أرهقتهم سنوات الحرب ؛ و في 1773م، ركنت باقي القبائل المحاذية لقيادة سيباو إلى السلام و إقرار الصلح - بعد ثورة دامية دامت سبع سنوات - مشترطين استشارتهم لدى تعيين قائد جديد لسيباو، و ذلك مقابل دفع المجبى للسلطة العثمانية :

- de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 257 ; Mercier, **Histoire de l'Afrique…**, Op. cit., pp. 396 & 401 ; Robin, « **Les Oulad…** », Op. cit., pp. 37-39.

- سامح التر، المرجع السابق، ص. 527 ؛ عبّاد، المرجع السابق، ص ص. 166-167.

2. Michel Hervé, « **Campagnes navales de la régence turque d'Alger contre la Russie au dix-huitième siècle** », in : R.H.M. 81-82, 1996, p. 378.

- أوزتونا، المرجع السابق، مج. 2، ص. 625.

3. الزهّار، المصدر السابق، ص ص. 28-29 ؛ الجيلالي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 240.

الجدير بالذكر أنّه بينما ستبقى العمارة الأولى بإستانبول حتّى خريف 1772م، ثمّ تقفل راجعة إلى الجزائر للتشتية و إصلاح الأعطاب - قبل أن تعود مرّتين أخريين خلال عامي 1773 و 1774م -، سترابط العمارة الثانية هناك أزيد من أربع سنوات و تشارك في العمليات البحرية تحت قيادة القپودان باشا حسن باشا الجزائري، أي إلى ما بعد انتهاء الحرب بموجب معاهدة كچوك قاينارجه :

- Hervé, « **Campagnes…** », Ibid., pp. 380-381 ; Hervé, **Relations…**, Op. cit., T. II, pp. 407-411.

4. الزهّار، نفس المصدر السابق، ص ص. 30-31.

5. انظر على سبيل المثال : **دفتر مواجبات…**، المصدر السابق، رقم 1970، وو. 38 وْ، 41 ظْ، 255 وْ، 289 وْ.

بكونها كانت مكافأةً لأولئك على بلائهم الحسن في قتال الروس و حلفائهم اليونانيين، إذ أنّها جاءت في ظرف حسّاس للغاية تمثّل في الحملة الكبيرة الّتي كان يجهّزها الإسبان لمهاجمة الجزائر، و الّتي كانت السلطة العثمانية وقتئذٍ على درايةٍ مسبقةٍ بها[1]. و عليه، فإنّه يمكننا اعتبار ذلك أيضًا كحلقة من حلقات الاستعدادات الحثيثة الّتي اتّخذها الداي محمّد للدفاع عن البلاد حيال الخطر الداهم.

كان الداي قد أمر حكّام الأقاليم بتعبئة قوّاتهم، بحيث تكون متأهّبة للالتحاق بالعاصمة في ظرف يومين أو ثلاثة، كما نادى سكّان الإيالة للمساهمة في الذود عن البلاد و جهاد الكفرة ؛ و من جانبٍ آخر، أولى اهتماماته لتعزيز دفاعات المدينة من خلال ترميم التحصينات و تعزيزها باستحكامات جديدة، و لا سيّما بعد الحملة الدانماركية الفاشلة عام 1770م[2].

لقد تراءت طلائع الأرمادة الإسبانية بخليج الجزائر يوم 30 يونيو 1775م[3] ؛ و فور إعلامه بالأمر، أمر محمّد باشا بتحرّك القوّات الجزائرية دون تأخير، كي تتّخذ مواقعها المقرّرة سلفًا على امتداد الواجهة

تعلّق الأمر بسلاّن كراغلة كان يحظر عليهم الانخراط مبدئيًا في الإنكشارية، حيث ذكر القنصل ڤالبير بشأنهم أنّ "**ابن** (يعني سليل) **الكرغلي الّذي أهمل أو لم يستطع تسجيل نفسه في المليشيا يتدنّى و ينحدر هو و ذرّيّته إلى طبقة الأهالي**". نقلاً عن :

- Chaillou, **Textes…**, Op. cit., p. 31.

- المدني، **حرب**…، المرجع السابق، ص. 486.

1. Schmitt, Op. cit., p. 47.

2. خير الدين سعيدي، "**حملة أوريلي على مدينة الجزائر سنة 1775م من خلال مخطوط "الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة" مع تحقيق الجزء المتعلق بالحملة من مخطوط**"، في : آفاق الثقافة و التراث 91، سبتمبر 2015، ص ص. 185-187.

- Ercumend Kuran, « **L'expédition espagnole contre Alger en 1775, d'après les manuscrits turcs** », in : R.H.M. 35-36, 1984, p. 175.

و من بين التدابير الاحترازية الأخرى الّتي اتّخذها الداي، إبعاده الأسرى المسيحيين إلى المدية، خشية قيامهم بتمرّد فيما القوّات العسكرية منشغلة بالتصدّي للعدوان ؛ كما سمح بسفر نساء و أطفال الأجانب المقيمين بالجزائر إلى مدينة مرسيليا : قنان، **نصوص…**، المصدر السابق، ص. 203.

- de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 261.

3. الجدير بالذكر أنّ الحملة الإسبانية بقيادة الجنرال الإيرلندي الأصل الكسندر أوريلي (Alexander O'Reilly)، كانت من الضخامة و الخطورة - إذ تألّفت من 44 سفينة حربية و 344 سفينة نقل أقلّت نحو 22600 جندي -، بحيث لا يمكن مقارنتها بالحملة الدانماركية لعام 1770م - الّتي لم تضمّ سوى اثنا عشر سفينة حربية - ؛ كما يجدر التنويه أنّه، من مجموع القوّات الجزائرية، لم تساهم بشكل مباشر ضدّ الدانماركيين سوى فرقتين، أولاهما الطوبجية الّتي أبعدت طلقاتها المدفعية سفن المهاجمين، بحيث كانت كلّ قذائفهم تقريبًا تسقط في البحر، و ثانيهما "الزورناجية" (مهتر باللغة العثمانية) الّتي أمرها الداي بالعزف عند أرصفة الميناء تهكّمًا من الأعداء، الّذين كانوا حسب قوله "**يحاربون الأسماك**" : الزهّار، المصدر السابق، ص. 25 ؛ المدني، **حرب**…، نفس المرجع السابق، ص. 485 ؛ سامح التر، المرجع السابق، ص ص. 525-526 ؛ عبد الهادي رجائي سالمي، **العلاقات الجزائرية الإسكندنافية في الفترة العثمانية : 1142-1206هـ/1729-1792م**، ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر 2، 2014، ص ص. 99-103.

- de Grammont, Ibid., pp. 255-256 & 259.

فيما يخصّ أسباب توجيه الحملة الإسبانية ضدّ الجزائر، انظر :

- Duro, Op. cit., T. 7, pp. 165-170.

البحرية[1]. تأخّر الإنزال الإسباني حتّى يوم 8 يونيو، أي قرابة الأسبوع، بسبب هبوب رياح معاكسة و تردّد القيادة في اختيار الموقع المناسب له ؛ و هذا ما أتاح للجزائريين تعزيز صفوفهم بآلاف المتطوّعين، الّذين تقاطروا من أنحاء البلاد. يومئذٍ، سلّط الإسبان قصفًا مدفعيًا مكثّفًا من سفنهم الحربية على ساحل الحامّة، حمايةً لعملية الإنزال ؛ و لو أنّ ذلك كان كافيًا لإبعاد قوّات الإنكشارية و إلجائها إلى المرتفعات المحرّجة، إلاّ أنّ بطّاريات المدفعية الساحلية لم تتضرّر منه بفضل السواتر الترابية، الّتي أقامها المدفعيون احتياطًا بمساعدة العسكر[2].

---

1. رابطت قوّات كلّ من باي التيطري و قايد سيباو في الناحية الشرقية عند رأس تامنفوست بين وادي رغاية و الحميز، و عند ساحل الحرّاش نحو الجنوب استقرّت قوّات صالح باي بين وادي الحميز و الحرّاش، و بلغ مجموع قوّات أولئك الحكّام حوالي عشرين ألف رجل معظمهم من الخيّالة. و خيّم الخزناجي حسن بن علي على رأس سبعمائة و ستّين إنكشاري بحجرة العرض غير بعيد من عين الربط (ساحة أوّل ماي حاليًا)، قبل أن يتموقع - بعد الإنزال الإسباني - أسفل مرتفعات القبّة بين وادي الحرّاش و خنيس ؛ و عسكر قهواجي علي آغا الصبايحية العرب بقوّة مماثلة قرب وادي خنيس، و عاضده قارة محمّد خليفة باي الغرب على رأس أربعة آلاف من فرسان المخزن، بعد أن كان نازلاً قرب وادي ماء الزعفران (مزفران حاليًا). و من الناحية الغربية، خيّم خوجة الخيل مصطفى مع ثلاثمائة و ثمانين إنكشاري بفحص باب الوادي، كما انتشرت فرق الزواوة المقدّرة بنحو ألفي جندي - بادئ الأمر - بنواحي مرسى الدبّان شرق رأس الخشين (كاكسين حاليًا) ؛ فيما أسندت مهمّة الدفاع عن الميناء و أبراجه لوكيل الحرج حسن بن حسين مدعّمًا بقوّات البحرية و الطوبجية و عدّة مئات من الإنكشارية ؛ أمّا البقية المتمثّلة في سكّان المدينة من كراغلة و بلدية و غيرهم، فتحصّنوا وراء أسوارها : ناصر الدين سعيدوني، "**الهجوم الإسباني على الجزائر عام 1775م/1189هـ "معركة الحرّاش"**"، في : دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر. الفترة الحديثة و المعاصرة، ج. 2، م.و.ك.، الجزائر، 1988، ص ص. 158-159 ؛ الجيلالي، المرجع السابق، ج. 3، ص 244 ؛ المدني، **حرب...**، المرجع السابق، ص. 490.

- Ch. Féraud, « **Éphémérides d'un secrétaire officiel sous la domination turque à Alger de 1775 à 1805** », in : R.A. 18, 1874, p. 297 ; A. Devoulx, « **Expédition d'O'Reilly, d'après un document turc** », in : R.A. 3, 1858, pp. 438-439 ; Kuran, Op. cit., pp. 175-176.

تجدر الإشارة إلى أنّ باي الغرب إبراهيم بقي مرابطًا ببايلكه، و كان الداي قد استبقى له على محلّة الغرب المكوّنة من ستّين خباءً (أي ما يقارب ألف إنكشاري) دعمًا، خشية أن يقوم الإسبان انطلاقًا من وهران بمهاجمة تلمسان، معسكر أو عاصمة البايلك وقتئذٍ مستغانم : سعيدي، المرجع السابق، ص ص. 185-186 ؛ قنان، **نصوص...**، المصدر السابق، ص ص. 203-204.

2. محمّد بن رقية التلمساني الجديري، **الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة**، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 1626، 1194هـ، و. 13 ظ.

انظر أيضًا :

- Mazarredo, « **Expédition d'O'Reilly contre Alger en 1775, d'après une traduction textuelle d'un manuscrit de l'amiral Mazarredo** », in : R.A. 8, 1864, pp.257-259 ; Anonymes, **Aperçu historique, statistique et topographique sur l'État d'Alger, à l'usage de l'armée expéditionnaire d'Afrique**, 2e éd., Typographie de J. Pinard, Paris, 1830, p. 54.

و صبح اليوم المذكور، أقيم جسر بحري من القوارب نقل ما يربو عن عشرين ألف جندي على ثلاث دفعات إلى الساحل الرملي الواقع شرق مصبّ وادي خنيس[1]. كانت الخطّة المرسومة تقتضي بأن تحتلّ القوّات الإسبانية - حالما يتمّ الإنزال - المرتفعات المحاذية لمواقعها ؛ بيد أنّ القوّات تحت قيادة قهواجي علي آغا هاجمت جنود الدفعة الأولى بالغداة، ثمّ انكفأت هاربة في حركة استدراجية. و انطلت الحيلة على الإسبان الّذين اندفعوا قدمًا - قبل أن ينظّموا صفوفهم - ليجدوا أنفسهم مكشوفين تحت رحمة وابل نيران الإنكشارية و الزواوة الكامنين جيّدًا - خلف متاريس متنوّعة -، و تكبّدوا جرّاء ذلك خسائر معتبرة ؛ و وجدت الدفعة الإسبانية التالية نفسها هي الأخرى مضطرّة للانتشار من أجل سدّ الثغرات، خشية أن يغتنمها الجزائريون للقيام بعملية اختراق و تطويق[2].

و في أثناء ذلك، تحرّكت القوّات تحت قيادة حسن الخزناجي بموازاة الطريق السلطاني من خلال المرتفعات و عبرت واد خنيس للانضمام للقوّات المشتبكة مع العدو ؛ أمّا خليفة باي الغرب، فهاجم على رأس خيّالته الجناح الأيمن للقوّات الغازية، فيما هرع بايي قسنطينة و التيطري بقوّاتهما يتقدّمها ستار مكوّن من خمسمئة جمل لضعضعة الجناح الأيسر. و مكّن هذا الهجوم المنسّق الجزائريين من دفع الإسبان و حصرهم في المعسكر الضيّق و المستطيل، الّذي أقاموه على عجل على الساحل الرملي و أحاطوه بستّين متراسًا[3]. و خلال تراجع قوّاتهم، اضطرّ الإسبان إلى استخدام مدفعية السفن مجدّدًا لحماية معسكرهم من الاقتحام، و قصفوا بقذائف الشظايا الخطوط الجزائرية المتقدّمة ؛ و ردّ الجزائريون بقصف المعسكر المكتظّ من طبّانة العين البيضاء[4] من جهة، و من طبّانة الأقواس[5] من جهةٍ أخرى، موقعين خسائر رهيبة في صفوف الغزاة.

---

1. W. Dalrymple, « **Expédition d'O'Reilly, 1775** », in : R.A. 5, 1861, pp. 36-38 ; Duro, Op. cit., T. 7, p. 171.

- الزهّار، المصدر السابق، ص. 26 ؛ المدني، **حرب...**، المرجع السابق، ص. 490.

2. « **Lettre du Comte d'O'Reilly au Comte de Ricla** », in : G.F., n° 64, 11 Aoust 1775, p. 284 ; Mazarredo, Op. cit., pp. 261-262.

انظر أيضًا : - A. Berbrugger, « **Expédition d'O'Reilly en 1775** », in : R.A. 11, 1867, p. 459 ; Kuran, Op. cit., p. 176.

3. السعيدي، المصدر السابق، ص. 189 ؛ المدني، نفس المرجع السابق، ص ص. 492-495.

- Duro, Ibid., p. 173 ; Devoulx, « **Expédition…** », Op. cit., p. 440 ; Féraud, « **Éphémérides…** », Op. cit., p. 298.

4. بطّارية مدفعية كانت تدعى أيضًا طبّانة حجرة العرض، و تقع بمنطقة الحامّة على بعد حوالي أربعة كيلومترات جنوب شرق المدينة. للمزيد من المعلومات، انظر : مصطفى بن حمّوش و بدر الدين بلقاضي، **تاريخ و عمران قصبة الجزائر من خلال مخطوط ألبير ديفولكس**(كذا)، موفم للنشر، الجزائر، 2007، ص. 117. - Mercier, **Histoire de l'Afrique**..., Op. cit., p. 407.

5. تعود تسمية الطبّانة إلى قناة ماء الحامّة الّتي كان مبدؤها عين تنبع من سفح الرابية الّتي بنيت فيه، و احتفظت بهذا الاسم خلال الفترة الاستعمارية : Batterie des Arcades ؛ كما كانت تدعى أيضًا طبّانة خنيس.

و دون إضاعة الوقت، أمر الداي محمّد باشا الّذي كان يتابع الوضع عن كثب بإقامة بطّاريات إضافية تشرف مباشرة على المعسكر الإسباني من مرتفعات القبّة (موقع المدرسة الإكليريكية Le Séminaire خلال الفترة الاستعمارية) و هضبة العناصر (عين السلطان)، و كلّف أفراد من جماعتي اليهود و البساكرة بنقل قطع المدفعية من المدينة إلى الموقعين المذكورين[1].

لقد تبيّن للقيادة الإسبانية بشكل جليّ أنّه في حال مواصلة الحملة سيتحوّل الوضع الحرج لقوّاتها إلى كارثة، بالنظر إلى العدد المتصاعد من القتلى و الجرحى جرّاء القصف المدفعي ؛ و عليه، اتّخذت بالإجماع قرار الانسحاب في هدوء تحت جنح الظلام، لكي لا يتفطّن الجزائريون للمناورة. و هكذا، تمّ نقل الجرحى مع القسم الأكبر من الأسطول إلى إسبانيا، فيما بقي عددٌ من السفن الحربية أيّامًا - قصد منع خروج السفن الجزائرية للمطاردة -، ريثما تصل مراكب نقل الجنود و المعدّات إلى وجهتها[2].

مثّلت معركة وادي خنيس قمّة الأداء العسكري للجزائريين، بفضل عدّة عوامل أهمّها الاستعدادات المحكمة و تفاني المقاومين[3] ؛ و فيما يخصّ الخسائر، أسفرت وفق أرجح الروايات عن 2800 قتيل و 2279 جريح بالنسبة للطرف الإسباني[4]، و أمّا الطرف المنتصر، فقد كانت خسائره ضئيلة نسبيًا حيث

و الجدير بالذكر أنّه لم يكتشف الإسبان أمر تلك الطبّانة، إلاّ بعد قيامهم بعملية الإنزال ؛ و لم يستطيعوا تحديد موقعها بالضبط، كونها كانت متوارية خلف أشجار الصنوبر. انظر :

- Dalrymple, Ibid., p. 38 ; Mazarredo, Ibid., pp. 258, 262 & 265 ; A. Berbrugger, « **Expédition du Comte O'Reilly contre Alger en 1775** », in : R.A. 9, 1865, p. 102 ; L. J. Bresnier, « **Récit indigène de l'expédition d'O'Reilly** », in : R.A. 8, 1864, p. 341.

انظر أيضًا : محمّد السعيد بوبكر، **العلاقات السياسية الجزائرية الإسبانية خلال القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي (1119-1206هـ/1708-1792م)**، ماجستير في التاريخ الحديث، المركز الجامعي بغرداية، 2011، ص ص. 109-110 ؛ السعيدي، المصدر السابق، ص. 190.

المؤسف أنّ هذا الاستحكام الّذي لعب الدور الأوّل في انتصار الجزائريين هدم بعد الاستقلال، و بني قرب موقعه مقام الشهيد.

1. Berbrugger, « **Expédition…** », Op. cit., 1867, pp. 459-460 ; Anonyme, « **De Madrid, le 25 Juillet 1775** », in : G.F., n° 64, 11 Aoust 1775, p. 283.

2. Mazarredo, Op. cit., pp. 263-264 ; Mercier, Op. cit., p. 407 ; Duro, Op. cit., T. 7, pp. 174-175 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 260 ; Farid Khiari, « **Attaque d'O'Reilly sur Alger en 1775 : Trois versions et un plan d'attaque** », in : R.H.M. 140, 2010, pp. 58-60 & 64.

3. للمزيد حول العوامل الّتي كفلت انتصار الجزائريين، انظر : بوبكر، نفس المرجع السابق، ص ص. 113-114.

- Berbrugger, « **Expédition…** », Op. cit., 1864, p. 187.

4. Berbrugger, « **Expédition…** », Ibid., 1864, pp. 182-184 ; Dalrymple, Op. cit., p. 38 ; Mazarredo, Ibid., p. 264.

انظر أيضًا :

- Kuran, Op. cit., p. 178.

بلغت مئات الجرحى إلى جانب نحو أربعمائة شهيد، وري نصفهم الثرى في مقبرة حملت اسم "جبّانة المجاهدين" على يمين مصبّ وادي خنيس[1].

و في فورة الانتصار، تقدّم اليولداش إلى خباء الخزناجي مطالبين بمكافأة قدرها عشرة سلطاني لكلّ واحد، على غرار المنحة الّتي وزّعت على القوّات المشاركة في الحملة على تونس عام 1756م ؛ و خشية أن تتحوّل المطالبة إلى بلبلة، أذن الداي لوزيره بأن يعدهم بنصف المبلغ شريطة أن يساهم البايات و علية القوم بالمال، كما منحهم علاوة استثنائية مقدارها أربعة عشر صايمة في حدود الراتب الأعلى الّذي لا يمكن تعدّيه[2].

و بعد هزيمتهم، حاول الإسبان الدخول في مفاوضات مع الحكومة الجزائرية بوساطة فرنسية، إلاّ أنّ أسرهم السفينة الّتي أقلّت وكيل الحرج حسن بن حسين مگريلي[3] - ابن أخت الداي - العائد من سفارة إلى الباب العالي في شتاء 1776م أحبطت مساعيهم تمامًا ؛ و لم تفدهم في ذلك المعاملة الحسنة للوزير المحتجز و لا إطلاق سراحه، الّذي جرى بعد أسابيع[4].

و بالمثل، لم يستفد البلاط الإسباني من إقامة معاهدة سلام و تجارة مع الباب العالي في سبتمبر 1782م ؛ فرغم كون تلك المعاهدة تشمل نظريًا إيالة الجزائر الّتي هي في عداد "الممالك العثمانية"،

---

1. Devoulx, « **Expédition…** », Op. cit., p. 441, n. 2 ; Félix Andry, **L'Algérie, promenade historique et topographique**, Librairie de J. Lefort, Paris, 1868, p. 87.

- الأغا بن عودة المزاري، **طلوع سعد السعود في أخبار وهران و الجزائر و إسبانيا و فرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر**، تحقيق و دراسة يحي بوعزيز، ج. 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ص. 259 ؛ سعيدوني، "**الهجوم**..."، المرجع السابق، ص. 161.

في هذا الصدد، ذكر ابن رقية في "الزهرة النائرة" : "**و كان عدد موتانا لا يبلغ ثلاثمائة ممّن استشهد في المعركة، و ممّن مات من المجروحين...**". انظر : السعيدي، المصدر السابق، ص. 190.

و فيما يخصّ شهداء الأوجاق، قضى ما لا يقلّ عن 48 انكشاري نحبه جرّاء معركة 8 يوليو الباسلة، من ضمنهم 4 من صفّ الأوده باشية، 5 وكلاء حرج و طبّاخ واحد ؛ و الجدير بالذكر أنّه أمكننا التمييز من هذا العدد بين 31 تركي مشرقي و 17 كرغلي من أبناء البلد : **دفتر مواجبات...**، المصدر السابق، رقم 1970.

2. Venture de Paradis, Op. cit., pp. 88-89 & 97 ; Kuran, Op. cit., p. 177 ; Féraud, « **Éphémérides…** », Op. cit., p. 298.

- **دفتر مواجبات...**، نفس المصدر السابق، رقم 1984، وو. 58 و° و ما بعدها.

3. نفسه، رقم 1970، و. 15 و°.

4. L. Chaillou, « **Un projet de négociations entre l'Espagne et la Régence d'Alger en 1776** », in : R.O.M.M 23, 1977, pp. 225-232 ; Kuran, Ibid., p. 177, n. 16.

انظر أيضًا :

- Plantet, **Correspondance des deys…**, Op. cit., T. 2, pp. 324-331 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., pp. 262-263 ; Devoulx, **Tachrifat**, Op. cit., p. 59.

إلاّ أنّ الداي محمّد باشا امتنع عن قبولها، على اعتبار استمرار الاحتلال الإسباني لوهران و المرسى الكبير من جهة و علمه بالعمارة الحربية الّتي كان يعدّها الإسبان وقتئذٍ من جهة أخرى[1]. و فعلاً، كان المذكور قد تلقى إشعارًا في شهر مايو 1783م من السلطان المغربي محمّد بن عبد الله بأنّ الإسبان على وشك توجيه حملة لقنبلة الجزائر ؛ و عليه، اتخذّ الاستعدادات الّتي رآها ضرورية، حيث استنفر قوّات البايلكات الثلاث للتموقع على مقربة من دار السلطان، كما أمر ببناء مركبين من نوع "بومباردة"[2]، كلّ واحد منهما مزوّد بمدفعين و مهراس.

بعد قدوم العمارة و بدئها العمليات الحربية في الأوّل من أغسطس، تبيّن اعتماد الإسبان أساسًا على أربعين لنجون[3] في قصف المدينة و مرساها ؛ و لمواجهتها، أمر محمّد باشا على وجه السرعة - باقتراح من القبطان رايس - بتهيئة أحد عشر أو اثنا عشر مركب صغير بصابورة من الجير لزيادة ثباتها، من أجل أن يتسّنى تسليحها بمدفع واحد[4].

---

1. الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 234 ؛ سامح الترّ، المرجع السابق، ص ص. 533-534 و 538-539 ؛ بوبكر، المرجع السابق، ص. 121.

- Hervé, **Relations…**, Op. cit., T. II, p. 424 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., pp. 265-266.

تأخّر هذا التحرّك الدبلوماسي الإسباني حتّى سنة 1782م، بسبب الانشغال بحصار جبل طارق (يوليو 1779-فبراير 1783م) و محاولة استعادته من الإنكليز. و لقد فشل هذا الحصار، كون الإنكليز تمكّنوا قبل فرضه من تموين القلعة و المدينة في مطلع ربيع 1778م بكمّيات هامّة من القمح الجزائري، الّذي قايضوه بخمسين قطعة مدفعية ؛ كما استمكنوا مرارًا من إيصال موّاد تموينية، بواسطة مراكب تجارية قدم عددٌ منها من الجزائر :

- J. Drinkwater, **A history of the siege of Gibraltar, 1779-1783**, John Murray, London, 1846, pp. 59, 75, 132 & 152.

انظر أيضًا :

- Devoulx, **Tachrifat**, Op. cit., p. 126.

2. بومباردة : كلمة عثمانية إيطالية الأصل، و تخصّ مركب ذو قاع مسطّح و هيكل مدعّم لاستقبال قطع مدفعية في المقدّمة. انظر :

- Barbier de Meynard, Op. cit., 1er vol., p. 347 ; J. Lecomte, **Dictionnaire pittoresque de marine**, Hippolyte Souverain, Paris, 1835, pp.61-62.

3. اللنجون، - و نجده في المصادر المحلّية على الأشكال التالية : لنچون، أنجون، لنتون (انتاع البونبة)، لنجور - هو قارب ذو قاع مسطّح، ذا 6 أو 7 صفوف مقاعد، مسلّح بمدفع أو مهراس. انظر : **دفتر مواجبات…**، المصدر السابق، رقم 1984 مكرّر و 1972 ؛ أحمد بن سحنون الراشدي، **الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني**، تحقيق المهدي البوعبـدلي، عالم المعرفة، الجزائر، 2013، ص ص. 269-270 ؛ مجهول، **تقييد…**، المصدر السابق، و. 3 ظ ؛ الزهّار، المصدر السابق، ص. 32.

إلى جانب اللنجونات المذكورة، ضمّت العمارة الإسبانية بقيادة دون أنطونيو بارثيلو (Don Antonio Barceló) ستّة و ثلاثين سفينة من مختلف الأحجام، من بينها أربعة بوارج و ستّة فرقاطات. للمزيد من التفاصيل، انظر : قنان، **نصوص…**، المصدر السابق، ص. 208.

- L.-Ch. Féraud, « **Les trois attaques des espagnols contre Alger, au XVIIIe siècle** », in : R.A. 20, 1876, pp. 304 & 312 ; Duro, Op. cit., T. 7, pp. 355.

4. الزهّار، نفسه ؛ المدني، **حرب…**، المرجع السابق، ص. 511 ؛ عبّاد، المرجع السابق، ص ص. 170-171.

- Féraud, Ibid., pp. 302-313.

بعد أن عاين الدمار و الخسائر الّتي خلّفها القصف الأوّلي، رخّص الداي محمّد عثمان باشا للنساء و الأطفال اليوم التالي بمغادرة المدينة و الالتجاء إلى الفحوص[1] ؛ كما أمر بناءً على مشورة أركان الحرب بتعزيز سلاح المدفعية ببطّاريتين ميدانيتين، الأولى في باب الوادي و الثانية في رأس عمّار عند الطرف الشمالي للجزيرة، بالموازاة مع قيامه بتجنيد أزيد من مئة شابّ كرغلي[2].

و لتعهّد كفاءتهم القتالية، كوفئ الجند الإنكشاري بمنحة قدرها ثلاثة صايمات في اليوم السابع من أغسطس[3] ؛ و تجدر الإشارة هنا إلى أنّ خرجات المراكب الجزائرية المشحونة بالمقاتلين إلى جانب نيران مدفعية البطاريات و الأبراج الكثيفة ساهمت في إبعاد قصف الإسبان عن المدينة، بحيث أضحت جلّ قنابلهم خلال الأيّام الأخيرة تسقط في البحر. و خلص الأمر إلى أنّه رغم إطلاق الإسبان، خلال العشرة أيّام الّتي دامها القتال، قرابة سبعة آلاف و خمسمائة قذيفة، إلاّ أنّ الخسائر المادية و البشرية بقيت محدودة نسبيًا : ثلاثمائة دار و مبنى متضرّر، بينما بلغ عدد القتلى 46 على وجه التقريب و عدد الجرحى 52 فقط[4].

فور انسحاب العمارة، عكف الجزائريون على ترميم ما تهدّم من مباني المدينة بشكل حثيث ؛ كما قاموا ببناء بطّارية محصّنة في موقع طبّانة راس عمّار الميدانية الّتي أثبتت فعاليتها الدفاعية[5].

---

1. الجدير بالذكر أنّ الداي في تلك الأثناء شدّد الحراسة على أبواب المدينة مانعًا خروج أيّ جندي مسلّح، لكي يتجنّب حدوث تجاوزات مخلّة بالأمن في الفحوص القريبة : - Féraud, « **Les trois…** », Op. cit., pp. 303 & 307.

2. مجهول، **هذا تاريخ مجيء الصبنيول في المرة الثانية إلى الجزائر**، المكتبة الوطنية الجزائرية، مخطوط رقم 2285، و. 2 ظ.

- Id., p. 309.

3. **دفتر مواجبات…**، المصدر السابق، رقم 1972 ؛ مجهول، نفسه.

4. مجهول، نفس المصدر السابق، و. 3 و ؛ الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 234 ؛ قنان، **نصوص…**، المرجع السابق، ص. 209 ؛ فكاير، المرجع السابق، ص. 50. - Duro, Op. cit., T. 7, p. 346.

كان معظم القتلى الجزائريين من العسكر، حيث لقي حوالي 20 من الإنكشارية مصرعهم، إلى جانب 5 طوبجية و 4 بومبجية جرى استخلافهم بعدد مماثل من اليولداش : **دفتر مواجبات…**، نفس المصدر السابق، وو. 369 ظ-371 و ؛ مجهول، نفس المصدر السابق، وو. 1 ظ-3 و.

للمزيد من التفاصيل حول أوجاقي الطوبجية و البومبجية، انظر المطلبين الثاني و السادس على التوالي من الفصل السابع.

بالغت المصادر الأوروبية بعض الشيء في تقديرها لعدد الضحايا من الجزائريين، حيث ذكرت معظمها رقمًا يفوق 300، و ذلك في حين أشارت إلى تضرّر ثمان دور للأوروبيين من أصل اثنا عشر و احتراق منزل السفير السويدي دون وقوع لإصابات ؛ و بالمقابل، ذكر سيزاريو فرناندیز دورو أنّ الخسائر الإسبانية بلغت 24 قتيل و 16 جريح و حسب :

- Id. ; Féraud, Ibid., pp. 312 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 266.

5. Féraud, Ibid., pp. 313 ; de Grammont, Ibid., p. 267.

لمزيدٍ من المعلومات حول برج راس عمّار القديم، انظر : خلاصي، **التنظيمات…**، المرجع السابق، ج. 1، ص. 148.

بعد أن عُثر على حطام لنجون إسباني بشطّ عين الربط، أخذ القائمون على الترسانة مقاساته، و باشروا بصنع خمسين قارب مماثل بأمر من الداي محمّد باشا[1] ؛ و إضافة إلى الترتيبات الآنفة الذكر، وجّهت كلّ من الأقاليم المتّحدة و الدانمارك مختلف أنواع الذخائر الحربية في إطار دفع الإتاوة[2] ؛ و كان الباب العالي هو الآخر قد أهدى عتادًا نقلته سفينة سردينية إلى الجزائر أواخر مايو 1784م[3].

و في التاسع من شهر يوليو 1784م، أعاد دون بارثيلو الكرّة على مدينة الجزائر بأسطول أكبر و أحسن تجهيزًا ضمّ نحو مائة و ثلاثين سفينة، و اشتمل على عمائر من نابولي و مالطة و البرتغال ؛ و كانت هذه الحملة قد اتّخذت طابعًا صليبيًا، بعد أن منح البابا الغفران الكامل و البركة لمقاتليها[4]. على كلٍّ، بدأت الأعمال القتالية في 12 يوليو و استمرّت حتّى 22 من نفس الشهر، و تصدّت خلالها اللنجونات و الفلائك الجزائرية لتقدّم نظيراتها الإسبانية، فحالت دون اقترابها من مدينة الجزائر بشكل جعل كلّ القذائف الإسبانية تقريبًا تسقط في البحر[5].

الجدير بالذكر أنّ طواقم المراكب الجزائرية كان أغلبية أفرادها من رجال البحرية و بعض المتطوّعين الّذين لم يشهدوا قتالاً من قبل، فيما لم تضمّ سوى عددًا محدودًا من الجنود النظاميين[6] ؛ و كان ما يقارب ثلثي خسائر الجزائريين ناجم عن جموح و - ربمّا بدرجة أقلّ - قلّة خبرة بعض المدفعيين الجزائريين، الّذين كانوا - لأجل زيادة وتيرة قصفهم - يلقّمون مدافعهم الحديدية بشكل مفرط دون أن ينقصوا كمّية

---

1. الزهّار، المصدر السابق، ص. 32.

2. Féraud, « **Les trois…** », Op. cit., pp. 313.

انظر أيضًا : رجائي سالمي، المرجع السابق، ص. 94 ؛ الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 236. - Krieken, Op. cit., p. 118.

3. Devoulx, **Tachrifat**, Op. cit., p. 60.

4. Anonyme, « **De Rome, le 30 Juin 1784** », in : G.F., 60, 27 Juillet 1750, p. 246 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 267. - المدني، **حرب…**، المرجع السابق، ص. 515.

5. لم يسجّل خلال القتال سوى سقوط قذائف معدودة على المدينة و استحكاماتها البحرية : واحدة على ثكنة إنكشارية مقرر - الّتي كانت تعرف أيضًا بالمقريين أو المقرون - عند قاع السور، و أخرى على برج الفنار، إضافة إلى أربعة أو خمسة على برج راس عمّار (القديم) : مجهول، **هذا تاريخ…**، المصدر السابق، وو. 4 ظ°-5 ظ°.

انظر أيضًا : الزهّار، نفس المصدر السابق، ص. 33.

6. Féraud, Ibid., pp. 317.

أحصينا بالنسبة لشهر رجب 1198هـ/يونيو 1784م تجنيد حوالي 149 يولداش، بعضهم من الطوبجية، على متن اللنجونات فقط دون غيرها من المراكب المشاركة، أي بمعدّل جنديينْ إلى 3 جنود لكلّ قارب (علمًا أنّ طاقم اللنجون كان يتكوّن من : رئيس، 10 أو 12 مجذّف، مدفعييْن و مساعديْهما، بالإضافة إلى الجنود المذكورين) : **دفتر مواجبات…**، المصدر السابق، رقم 1984 مكرّر و 1972.

البارود حتّى عندما تسخن، و تسبّبوا بالتالي في انفلاق أو انفجار عددٍ منها[1] ؛ و مهما يكن، فإنّ الداي و كبار الوزراء أغدقوا المال على طواقم اللنجونات بشكل منتظم تشجيعًا لهم و مكافأةً على استبسالهم و حماستهم في ملاقاة العدو[2].

بعد انسحاب بارثيلو خائبًا للمرّة الثانية، اتّخذت القيادة الجزائرية - تحسّبًا لعودة الإسبان في حملة جديدة - قرار مضاعفة اللنجونات، حيث رفع عددها إلى ما يقرب من مئة وحدة ؛ و عليه، جرى تجنيد نحو واحد و ثمانين و مائتي انكشاري، من ضمنهم عشرين طوبجي، في رجب 1199هـ الموافق لمايو 1785م كي يقاتلوا على متنها[3].

بيد أنّ فشل الحملات المتكرّرة لإسبانيا، إضافةً إلى اطلاعها على استعدادات الجزائر الأخيرة، جعلتها تجنح للسلم[4] و تدخل في مفاوضات صعبة استغرقت تقريبًا سنة كاملة من 5 يونيو 1785 إلى 14 يونيو 1786م ؛ فعند هذا التاريخ، تمّ التوصّل لمعاهدة صلح مكلّفة من حيث التعويضات و الهدايا بالنسبة للطرف الإسباني، إلاّ أنّها لم تشمل في ترتيباتها وهران و المرسى الكبير، بل حافظت على الوضع الراهن بشأنهما[5].

---

1. Féraud, « **Les trois…** », Op. cit., pp. 317 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 268.

- المدني، **حرب…**، المرجع السابق، ص. 519.

بلغت خسائر القوّات الجزائرية 50 قتيلاً - من بينهم قرابة ثمانية و عشرين تسبّب في مقتلهم انفجار مدفع اللنجون مثلما هو مذكور أعلاه - و 84 جريحًا و معطوبًا ؛ فيما كانت بالنسبة للطرف الإسباني، 53 قتيل و 64 جريح : مجهول، **هذا تاريخ…**، المصدر السابق، وو. 4 ظ°-5 ظ°. انظر أيضًا : - Duro, Op. cit., T. 7, pp. 346 ; Féraud, Ibid., pp. 315-317.

2. الزهّار، المصدر السابق، ص ص. 32-33 ؛ مجهول، نفسه.

3. **دفتر مواجبات…**، المصدر السابق، رقم 1972.

4. يمكن أن نضيف إلى السببين الآنفي الذكر، تعرّض إحدى أميرات البلاط الإسباني للأسر خلال تلك السنة، و هي في طريقها إلى نابولي، من قبل سفنٍ جزائرية ؛ فتدخّل البلاط الإسباني لدى العاهل المغربي محمّد بن عبد الله (1757-1790م) للإفراج عنها، حيث قام بمفاوضة داي و ديوان الجزائر، فامتنعا بتاتًا عن الاستجابة لتوسّطه. و عندئذٍ، كاتب السلطان عبد الحميد (1774-1789م) الّذي وقف موقفًا حازمًا من سلطات الأوجاق، مذكّرًا إياها بمساعدات السلطان المغربي و جهوده في فداء الأسرى الجزائريين في سنة 1769م ؛ و حينئذٍ أفرجت عن الأميرة، و قدّمت اعتذاراتها إلى العاهل المغربي : الزياني، أبو القاسم. **البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف**، دراسة و تحقيق رشيد الزاوية، ج. 1، مركز الدراسات و البحوث العلوية (الريساني)، الرباط، 1992، ص. 457 ؛ حركات، المرجع السابق، ج. 3، ص. 115. انظر أيضًا : بوبكر، المرجع السابق، ص ص. 143-145 ؛ الغزال، أحمد بن المهدي. **نتيجة الاجتهاد في المهادنة و الجهاد**، تحقيق و تقديم إسماعيل العربي، د.م.ج.، الجزائر، 1984، ص ص. 11-13 و 223.

5. Féraud, Ibid., pp. 318-319 ; H.-D. de Grammont, « **Document relatif à la deuxième entreprise de Don Angelo** (sic) **Barceló contre Alger (1784)** », in : R.A.26, 1882, p. 228, n. 1 ; Duro, Ibid., pp. 346-347.

- قنان، **نصوص…**، المصدر السابق، ص ص. 210-217 ؛ فكاير، المرجع السابق، ص ص. 274-277 ؛ الجيلالي، المرجع السابق، ج. 3، ص ص. 249-250.

استطاع الداي محمّد بن عثمان، بما تميّز به من إنصاف و صرامة نابعين من قوّة شخصيته و تديّنه، من أن يقلّل من تمرّدات الإنكشارية، الّتي شهدتها بالأخصّ الفترة الأولى من حكمه[1] ؛ و عمل - مثل سلفيه - على حمل اليولداش على الانضباط، حيث شدّد على التزامهم بالقوانين و حرص على إنزال أشدّ العقوبات بالجناة منهم، الّذين ثبتت في حقّهم تهم العصيان أو الإجرام[2].

و عليه، ما خلا انعكاسات "الوباء الكبير" لعامي 1786 و 1787م، الّذي أودى بحياة عشرات الآلاف من سكّان الإيالة و أثّر على النشاط الاقتصادي بشكل بالغ، حيث بقيت معظم محاصيل المناطق الأكثر تضرّرًا دون أن تجنى[3]، كانت السنوات الأخيرة من حكم الداي الطاعن في السنّ - يجدر التنويه بأنّه شارف وقتئذٍ المائة سنة - هادئة ظاهريًا، إذا ما استثنينا الهزّة الّتي عرفها هرم السلطة نهاية ربيع عام 1788م ؛ ففي الخفاء، كان يتمّ نسج خيوط مكيدة سيذهب ضحيّتها الخزناجي حسن بن علي، الّذي كان الوزير الأوفر حظًّا لخلافة الداي كما أضحت عليه العادة خلال القرن الثامن عشر[4]. و كان مدبّر المكيدة حسن وكيل الحرج - و هو في ذات الوقت زوج ابنة الخزناجي[5] - في منتهى الدهاء، حيث اعتمد على صالح باي قسنطينة لفضح أخطاء المذكور و الإيقاع به أمام الداي محمّد بن عثمان.

مبدأ القضية أنّه، خشية تفاقم المسغبة المترتّبة عن الطاعون السالف الذكر، كان الداي قد أصدر أمرًا بمنع وسق الحبوب و المواشي من مراسي الدولة، و وجّه مراسيل للبايات بهذا الخصوص ؛ بيد أنّ باي قسنطينة سمح بالوسق للتجّار الفرنسيين و اليهود من عنّابة، بناءً على أمر معاكس وصله من الخزناجي.

---

1. سامح التر، المرجع السابق، ص ص. 523-524 ؛ الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص ص. 229-230.

- de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 255.

2. فعلى سبيل المثال، كان الإنكشاري الّذي يقتل أحد الأهالي ظلمًا و غيلةً يواجه عقوبة الإعدام خنقًا ؛ و كان الحكم ينفّذ عادةً بشكلٍ سرّي ليلاً، دون أن يعلم أفراد جماعته بمصيره : **دفتر مواجبات…**، المصدر السابق، رقم 1972، وو. 52 وْ، 116 ظْ، و 174 ظْ.

3. سامح التر، نفس المرجع السابق، ص. 547 ؛ الجيلالي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 265.

- de Grammont, Ibid., p. 269 ; Merouche, **Monnaies…**, Op. cit., p. 113.

لمزيدٍ من التفاصيل حول الطاعون المذكور، انظر : موساوي القشاعي، **الصحّة…**، المرجع السابق، ص ص. 83-85 ؛ عائشة غطّاس، "**أوضاع الجزائر المعاشية و الصحّية أواخر العهد العثماني : المجاعات و الأوبئة (1787-1830)**"، في : م.ت.ع.د.ع.، 17-18، 1998، ص. 365.

- Tal Shuval, **La ville d'Alger vers la fin du XVIIIe siècle. Population et cadre urbain**, CNRS Éditions, Paris, 1998, pp. 46-49.

4. Boyer, « **Des Pachas triennaux…** », Op. cit., pp. 112-113.

انظر أيضًا :

- Venture de Paradis, Op. cit., pp. 105 & 116.

5. الزهّار، المصدر السابق، ص. 50.

و نرجّح أنّ وكيل الحرج هو من أعلم خاله الداي بأمر المخالفة، كون مراسي الإيالة واقعة تحت سلطته المباشرة ؛ فلمّا دنّش صالح باي في 17 مايو و استفهمه محمّد باشا عن الأمر، استظهر رسائل الخزناجي دفعًا للتهمة، ممّا أثار غضب الداي على وزيره[1].

و تمّت آخر فصول المكيدة عند اجتماع الداي و أعضاء الديوان لتوديع الباي يوم 24 مايو، حيث سئل صالح باي حول مبلغ من المال وجّهه إلى الداي على سبيل الهدية باي تونس، و الّذي كلّف بتسليمه إيّاه سي الحاج المنصور المقراني شيخ مجّانة (البيبان)[2] ؛ لكنّ المسؤول نفى أن يكون قد تسلّم أيّ مبلغ مالي و راح يكيل الاتهامات للمذكور و لصهره حسن باشا بن حسين بوحنك[3]، الّذي كان من محاسيب الوزير، و اختتم كلامه بشكوى صريحة ضدّ الخزناجي قائلاً أنّه "**يبدي من الاحترام لحسن باشا أكثر ممّا يظهر للباي نفسه، و قد كلّف حسن باشا بمهام رسمية هي ممّا يدخل في صلاحيات الباي**"[4].

دافع الخزناجي الّذي وجد نفسه مستهدفًا عن محميّه حسن باشا، و نبّه الباي من التعرّض له أو لأملاكه في قسنطينة ؛ و تلى ذلك نقاش حادّ في مجلس الديوان حسمه الداي باتّخاذ موقف لصالح صالح باي. و في اليوم التالي، طمأن الخزناجي حسن باشا بأنّه سيقوم بمساعي لصالحه لدى الداي و الديوان، بعد أن تلقى منه نصف المبلغ المالي الموماً إليه ؛ إلاّ أنّ السعاية سبقت السعي، حيث أُبلِغ الداي أنّ الخزناجي خلع على محمّيه قفطانًا أعظم من الّذي خلعه هو على باي قسنطينة، إضافةً إلى أمورٍ أخرى من هذا القبيل[5].

---

1. الزهّار، المصدر السابق، ص ص. 49-50. انظر أيضًا : - Venture de Paradis, Op. cit., p. 21.

2. James Leander Cathcart, **The Captives**, compiled by his daughter, J. B. Newkirk, La Porte, 1899, pp. 128-129.

- انظر بخصوص شخصية الحاج المقراني: جميلة معاشي، **الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري من القرن 10هـ (16م) إلى 13هـ (19م)**، د.م.ج.، الجزائر، 2015، ص ص. 309-312.

وكيل الحرج حسن بن حسين - حسب رأينا - هو أيضًا من كشف قضية المال المهدى من قبل حمّودة باي تونس، حيث نرجّح تلقيه رسالة من هذا الأخير - بحكم منصبه الأشبه بوزير الشؤون الخارجية - يخبره فيها بتسليمه الهدية للحاج المنصور ؛ و لو كان الداي على علمٍ مسبق بذلك، لكان فاتح الباي بالأمر منذ لقاءاتهما الأولى.

3. كان حسن بن الباي بوحنك يشغل منصب الخليفة، و كان متوقّعٌ له توليّ بايلك قسنطينة فور اعتلاء الخزناجي حسن بن علي سدّة الحكم ؛ و هذا ما يفسّر حسب رأينا تواطؤ صالح باي مع وكيل الحرج. لكن لا أحد يفرّ من القدر، سيتولىّ حسن بايًا رغم كلّ شيء في الفاتح سبتمبر 1792م بعد تمرّد صالح، الّذي سيقتل على يديه. لمزيد من المعلومات، انظر : بن العنتري، **فريدة...**، المصدر السابق، ص ص. 83-85 ؛ مجهول، **تاريخ بايات قسنطينة. المرحلة الأخيرة**، تحقيق مختار حساني، منشورات دحلب، 1999، ص. 47.

4. جيمس لياندر كاثكارت، **مذكّرات أسير الداي كاثكارت، قنصل أمريكا في المغرب**. ترجمة و تعليق و تقديم إسماعيل العربي، د.م.ج.، الجزائر، 1982، ص. 120.

5. Cathcart, Ibis., pp. 130-131. انظر أيضًا : - نفسه، ص ص. 120-121.

اغتمّ الداي من وزيره الخزناجي كثيرًا، و اغتنم لقاءه الليلي بابن أخته حسن وكيل الحرج ليشكو إليه حموّه ؛ فأشار عليه هذا الأخير على الفور بإعدامه، بل و بادر إلى نقل الأمر إلى الباش شاوش ليتولّى ذلك. و بالفعل، لم يبزغ فجر 26 مايو حتّى كان حسن الخزناجي قد أعدم خنقًا بدار الآغا، الّتي تعرف بسركاجي ؛ و بعد أن "**فتحت دار الإمارة، و دخل الوزراء على الأمير** (أي الداي)، **أخبرهم بأفعاله و ما وقع منه ...، و عندئذٍ أولى حسن وكيل الحرج خزناجيًا، و أولى علي برغل خزندار وكيلاً للحرج، و هما صهرا المقتول**"[1].

بعد أن أمر الداي بحجز ممتلكات الوزير المقتول و مصادرتها، أفضت تصفية مجمل التركة إلى تحصيل ثروة ضخمة لصالح خزينة الدولة قدّرت بمئات الآلاف من الريالات[2]. و كان قسم ليس بالهيّن من تلك الثروة قد جمعها الخزناجي حسن بن علي أساسًا من تجارة الحبوب، الّتي انتعشت خلال عهد محمّد بن عثمان المديد و المستقرّ نسبيًا ؛ و لا يساورنا شكّ في أنّه اتّخذ من اليهود وسطاء في أنشطته التجارية، و لا سيّما شركة بكري و بوشناق الّتي يعود تأسيسها إلى سنة 1783م[3].

ضعف الداي محمّد جرّاء تقدّمه في السنّ و عارِض الزحار المزمن الّذي لازمه منذ فترة، جعله يترك شيئًا فشيئًا مقاليد الحكم لابن أخته حسن، بحيث كان لا يعقد أمرًا دون استشارته و الأخذ برأيه ؛ و بدا أنّه لم يبق من منافس جدّي للخزناجي سوى قهواجي علي آغا الصبايحية، الّذي برهن مجدّدًا عن حنكته العسكرية بانتصاره في يناير 1790م على القبائليين الّذين أعلنوا الثورة منذ بضعة أشهر ؛ و قد أخمدت هذه الثورة بعد أن استمرّت نحو السنة، و كادت أن تعمّ بلاد القبائل[4].

لمّا ضرب زلزال شديد وهران ليلة 9 أكتوبر 1790م، ترتّب عنه هدّ أغلب مبانيها، كما أدّى إلى مقتل ثلاثة آلاف من ساكنيها و أفراد حاميتها. و قد اغتنم الباي محمّد الأكحل الفرصة لمحاولة فتح المدينة على رأس ما بين عشرة آلاف و اثنا عشر ألف رجل، هم مجمل القوّات الّتي استطاع حشدها في ظرف أيّام من بايلكه[5] ؛ و بالموازاة، أرسل إلى الداي يخبره بالوضع مستأذنًا، و يطلب منه المدد و العتاد و الذخيرة

---

1. الزهّار، المصدر السابق، ص. 50. انظر أيضًا رواية الأمريكي كاثكارت حول الحادثة : كاثكارت، المصدر السابق، ص ص. 121-124. لقد صُدم الباش دفتردار بحادثة إعدام الخزناجي حسن بن علي، بحيث كتب هامشيًا - بعد أن شطب بيان علوفته بعبارة ميت - : **غاب 20 شعبان سنة 202**[1]، و هو تاريخ وفاة المذكور : **دفتر مواجبات...**، المصدر السابق، رقم 1985، و. 8 ظ.

2. كاثكارت، نفس المصدر السابق، ص ص. 122-123. انظر أيضًا : de Grammont, **Histoire d'Alger...**, Op. cit., p. 269. - المدني، **محمّد...**، المرجع السابق، ص. 178.

3. Merouche, **Monnaies...**, Op. cit., p. 107 & sq. انظر أيضًا : إسماعيل العربي، "**دور اليهود في الدبلوماسية الجزائرية في أواخر عهد الدايات**"، في : م.ت.ح.م. 12، 1974، ص ص. 42-43 ؛ محمّد العربي الزبيري، **التجارة الخارجية للشرق الجزائري**، ش.و.ن.ت.، الجزائر، 1972، ص ص. 257-258.

4. de Grammont, Ibid., p. 270.

5. Fey, Op. cit., pp. 239, 244 & 249. انظر بهذا الخصوص التقرير الرسمي المؤرّخ في 2 نوفمبر 1790م لقائد وهران الموّجه للملك :

على عجل، كون نجاح العملية العسكرية يحتاج لقوّات اقتحام نظامية و مدفعية حصار. لكن الخزناجي المتنفّذ جعل الداي - على ما يبدو - يحجم عن إرسال الجند الإنكشاري أو أيٍّ من الإعانات الّتي طلبها الباي مستشهدًا بالبند العشرين من معاهدة الصلح المبرمة بين إسبانيا و الجزائر منتصف يونيو 1786م[1]. و نعتقد أنّ الخزناجي لم يكن يخشى خرق المعاهدة مع الإسبان بقدر رؤية آغا الصبايحية - الّذي كان سيقود بطبيعة الحال تلك القوّات - يتبجّح بنصرٍ كان في متناول الجزائريين، و يفيد من ذلك لدى وفاة الداي ؛ كما أنّه كان يطمع أن يجني هو ثمار النصر عندما يتولىّ الحكم. و لأجل ذلك، فإنّه لم يمانع أن يرخّص الداي للباي بمهاجمة المواقع الإسبانية، شريطة عدم تقديم أيّ دعم عسكري مهما كان نوعه[2].

و بعد قرابة نصف شهر من المحاولات غير المجدية، اضطرّ الباي محمّد الأكحل على فكّ الحصار لدى رؤيته وصول تعزيزات إسبانية قوامها سبعة آلاف رجل و تقاعس جنوده في القتال[3]، عازمًا على الرجوع في الربيع القادم بقوّات متأهّبة جيّدًا.

و استعدادًا لذلك، أقام الباي محمّد قوّة مرابطة قرب المدينة، و استورد العتاد الحربي و الذخيرة من المغرب الأقصى و إنكلترا، كما استجمع قطع المدفعية من حواضر بايلكه، و مهّد المسالك لجرّ

انظر أيضًا : - Duro, Op. cit., T. 7, pp. 27-28 ; Mercier, **Histoire de l'Afrique**..., Op. cit., pp. 431-432.

1. هذا البند الفريد المتعلّق بوضعية وهران و المرسى الكبير صيغ بطريقة أقلّ ما نقول عنها أنّها غير مألوفة في النصوص الدبلوماسية ؛ و لقد ارتأينا لأهمّيته أن نورد نصّه : "**تبقى مدينة وهران و حصونها و قاعدة مرسى الكبير على ما كانت عليه من قبل دون اتّصال بالضواحي. و لن يهاجمها داي الجزائر أبدًا و لا يقوم باي معسكر بأيّة غارة عليها إذا لم يتلق أمرًا من الداي. و بما أنّ هذا الباي يحكم الناحية باستبداد، فإنّ داي الجزائر العظيم سيوافق على أيّ اتّفاق يحصل بين الباي المذكور، الّذي تلقّى أمرًا بمنع الاعتداء على القواعد و الحصون الإسبانية. و إذا قام بعض العصاة، و المتشرّدين و المغطّسين من الأهالي بأعمال سلبية، فإنّ ذلك لا يفسد الوئام الّذي حلّ بين الدولتين. غير أنّ النصارى لا يكونون في أمن و سلامة في مكان أبعد من رمية المدافع**". نقلاً عن : يحي بوعزيز، **الموجز في تاريخ الجزائر**، ج. 2، د.م.ج.، الجزائر، 2007، ص. 93.

للمزيد من التفاصيل حول تلك النقطة، انظر : بلبراوات بن عتو، "**الداي محمّد بن عثمان باشا و سياسته : 1766-1791م.**"، في : مجلة عصور 6-7، 2005، ص ص. 86-87.

2. علّق بن زرفة على ذلك في الرحلة القمرية ما يلي : "**... فأذنوا له بشرط ألاّ يعينوه بالعساكر و لا بشيء من الدراهم و الدنانير و لا بشيء من البارود و لا السلاح، و لا قُلمة ظفر من أسباب الكفاح، و ذلك أنّ أعداء الله النصارى... لمّا عقدوا السلم مع أهل الجزائر اشترطوا عليهم أن لا يعينوا عليهم بالمال و العساكر...**" : أبو عبد الله بن عبد الرحمان بن زرفة، **الرحلة القمرية في السيرة المحمدية**، ج. 2، تحقيق مختار حساني، مخبر المخطوطات، الجزائر، 2002، ص. 180. انظر أيضًا : بوبكر، المرجع السابق، ص. 167.

3. الراشدي، المصدر السابق، ص ص. 222 و 279. - Fey, Op. cit., p. 251.

لا مراء أنّ عدم تقديم أيّة مساعدة عسكرية من قبل الداي، الّذي بقي ملتزمًا بمعاهدة 1786م، كانت السبب الرئيسي في إخفاق الباي : بوبكر، نفس المرجع السابق، ص ص. 168-169.

القطع المذكورة بين عاصمته معسكر و جبل المائدة المشرف على وهران ؛ و هكذا، ظهر للإسبان مدى جدية الباي في الإعداد للحصار الثاني، فأوفدوا مفاوضًا إلى الجزائر اقترح على الداي تسليم مدينة وهران مع احتفاظ إسبانيا بالمرسى الكبير، لكنّ محمّد بن عثمان رفض هذا المقترح بعد استشارة بايه[1].

و عليه، طلب المبعوث الإسباني هدنة مدّتها شهر واحد تنتهي في 25 أبريل 1791م، فاستجاب الداي و الباي لذلك ؛ إلاّ أنّه قبل انقضاء مدّة الهدنة، قرّر الملك الإسباني استئناف القتال بعد إرساله مددًا عسكريًا إلى وهران[2]. إزاء ذلك، قرّر الداي إرسال محلّة إنكشارية من سبعين خباء أرفقها بعدد من الطوبجية المهرة، إضافةً إلى كمّية من الذخائر لدعم المجهود الحربي للباي محمّد الأكحل[3] ؛ و كان هذا القرار من آخر القرارات الهامّة الّتي اتّخذها محمّد بن عثمان باشا، إذ اشتدّ عليه المرض و لبث أيّامه الأخيرة طريح الفراش.

وصلت محلّة الغرب إلى معسكر الباي يوم 25 مايو، و اتّخذت مواقعها القتالية في اليوم التالي وسط ما يربو عن ثمانية عشر ألف مقاتل من القوّات البايلكية و المخزنية و المتطوّعة[4]. و بُعيد عيد الفطر، ابتدأ القتال الحقيقي الّذي استند على القصف المدفعي المركّز ضدّ الاستحكامات و محاولات اقتحام جريئة من الجانب الجزائري ؛ فيما كان الإسبان يردّون بقصف مضاد و خرجات لا تقلّ جرأة لصدّ المهاجمين[5].

و في تلك الأثناء المطبوعة باشتداد القتال بين قوّات الباي و الإسبان، توفي محمّد بن عثمان باشا يوم الاثنين 9 ذو القعدة 1205هـ الموافق لـ 11 يوليو 1791م، عن عمر فاق المائة سنة[6].

---

1. دغموش، المرجع السابق، ص. 159 ؛ قنان، **نصوص...**، المصدر السابق، ص. 224.

2. دغموش، نفس المرجع السابق، ص. 160.

3. Nordine Malki, « **Le tremblement de terre d'Oran d'octobre 1790 et les tentatives du Bey de Mascara pour la libération de cette ville, d'après des archives nationales historiques de Madrid.** », in : Actes de séminaire international sur les sources espagnols de l'histoire Algérienne, Oran. 20-22 Avril 1981, p. 304.

4. الراشدي، المصدر السابق، ص. 286 ؛ بوبكر، المرجع السابق، ص ص. 169-170.

لاحظ الضبّاط الإسبان أنّ، منذ وصول المدد المذكور، هجمات أعدائهم أضحت أكثر تنظيمًا و حذاقة من ذي قبل، دون أن تصل - بحسب رأيهم - إلى المستوى التكتيكي للجيوش الأوروبية : - Sandoval, « **Les inscriptions…** », Op. cit., 1872, p. 346.

5. Fey, Op. cit., pp. 251-253 ; Mercier, **Histoire de l'Afrique**…, Op. cit., pp. 433-434.

- الراشدي، نفس المصدر السابق، ص ص. 288-301.

6. دوّن الأسير كاثكارت بهذا الخصوص في مذكّراته : "**يوم الاثنين 11 يوليو 1791. فارق الحياة محمّد باشا، داي الجزائر، على الساعة الخامسة و بضع دقائق مساءًا، بعد مرضٍ لازمه بضعة أيّام...**" : كاثكارت، المصدر السابق، ص. 143. - Cathcart, Op. cit., p. 150.

انظر أيضًا : الزهّار، المصدر السابق، ص. 51.

و بوفاة هذا الداي المتميّز، الّذي استحقّ لحكمته و لرأفته لقب "بابا" الّذي منحه أفراد الإنكشارية إيّاه - كونه بلا ريب من أفضل الدايات الّذين تعاقبوا على حكم الجزائر -، تنتهي أطول فترات الاستقرار السياسي قاطبة، و تبتدئ الفترة الأخيرة من عمر الإيالة، الّتي ستتخلّلها مرارًا اضطرابات و أزمات بالغة الأثر على أكثر من مستوى، كما سنعاين ذلك بشكلٍ بَدَهي في الفصل التالي.

الفصل الثالث :

الأوجاق في أواخر عهد الدايات (1) : فترة الانحطاط الأخير (1791-1817م)

1. الأوجاق خلال أواخر عهد الدايات (1791-1817م) (1)

2. الأوجاق خلال أواخر عهد الدايات (1791-1817م) (2)

الفصل الثالث :

الأوجاق في أواخر عهد الدايات (1) : فترة الانحطاط الأخير (1791-1817م)

1. الأوجاق خلال أواخر عهد الدايات (1791-1817م) (1)

1-1. الفترة الأولى (1791-1805م) : فترة التزعزع

1-1-1. عهد الداي بابا حسن (1791-1798م)

كتم كلّ من الخزندار قارة محمّد و وكيل حرج دار السلطان علي برغل خبر موت محمّد بن عثمان، ريثما تمّ إعلام الخزناجي حسن بن حسين ليلاً بالأمر ؛ و هذا ما أتاح له حرفيًا سبْق منافسه علي آغا الصبايحية إلى دار الإمارة. و كتدبيرٍ احترازي، أمر الخزناجي بإلقاء القبض على الآغا، قبل أن يدعو لاجتماع أعضاء الديوان، حيث أخبرهم بموت الداي و أنّه أوصى إليه. و هكذا، تمّت مبايعة حسن دايًا، يوم الثلاثاء 10 ذي القعدة 1205هـ الموافق لـ 12 يوليو 1791م، خلفًا لخاله[1].

بادر الداي الجديد إلى نفي الآغا السابق ليلة الأربعاء إلى بلدة القليعة، خوفًا من نفوذه و سمعته الطيّبة في أوساط الجيش، و بالأخصّ أوجاق الإنكشارية ؛ و لأجل ذلك، نرجّح أنّه هو من أصدر الأمر بقتله، حيث "**وُجد مذبوحًا**" بعد خمسة أيّام، و لم ينتحر كما أشيع ذلك[2].

---

1. الزهّار، المصدر السابق، ص ص. 51-52. انظر أيضًا :

- كاثكارت، المصدر السابق، ص. 143. - Cathcart, Op. cit., pp. 150-151.

تمّت الإشارة إلى المذكور في دفتر العلوفات كما يلي : **24** (رقم أوجاقه، أي جماعة الإنكشارية الّتي انتسب إليها) **حسن** [بن] **حسين**. كما وردت – بشكل مقتضب – العبارات الهامشية التالية : **وكيل حرج باب جزيرة – خزنجى اولدى** [صار خزناجيًا] **شعبان 1202** (الموافق لمايو 1788م) – **دولتلو اولدى** [صار دولتلي] **قعدة 1205** (الموافق ليوليو 1791م) : **دفتر مواجبات...**، المصدر السابق، رقم 1985، و. 8 و°.

2. لدى ذكر الزهّار لسببي موت الآغا : الانتحار أو الاغتيال، فإنّه رجّح الفرضية الأخيرة حيث أردف معلّقًا بخصوص حسن باشا أنّه "**كان في بعض الأحيان يعتريه حمق، حتّى يفعل أمورًا لا محلّ لها.**" : نفسه، ص. 53. و لقد ورد بيانه مشطوبًا بعبارة **ميت** في الدفتر : **419** (رقم أوجاقه) **علي** [بن] **سليمان**، إلى جانب العبارتين الهامشيتين : **اغا عرب** (مشطوبة) – **معزول منفي قلعه** (يعني قليعة) : **دفتر مواجبات...**، نفس المصدر السابق، رقم 1973، و. 7 ظ°.

انظر أيضًا : - Féraud, « **Éphémérides…** », Op. cit., p. 299.

و فيما كان منهمكًا في تعيين الوزراء و تثبيت أركان حكمه، أرسل الداي حسن كتابًا إلى الباي محمّد الأكحل أعلمه فيه بموت سلفه و تولّيه حكم الجزائر، و خاطبه بما يلي : "**إن كنت على يقين من أخذ البلاد أعنتك بما شئت**" ؛ فردّ عليه الباي بالإيجاب، و بعث له أموالاً، إضافةً إلى أسرى و خصيان و هدايا غيرها. و اكتفى الداي بإرسال مكتوب يحضّ فيه على الجهاد و ينصح بحفر الألغام كتقنية لاقتحام القلاع، لأنّه كان في مفاوضات متقدّمة مع نائب القنصل الإسباني بالجزائر فيما يخصّ مسألة وهران الراهنة[1].

و بعد عدّة جولات من المفاوضات على مدى شهرين، تمّ التوصّل إلى عقد الصلح في 12 سبتمبر 1791م ينصّ أساسًا على جلاء الإسبان من وهران و مرسى الكبير، مع منحهم امتيازات تجارية مماثلة لتلك الممنوحة للفرنسيين في شرق البلاد[2].

---

1. الراشدي، المصدر السابق، ص. 308.

لمعرفته جيّدًا بموقف الداي حسن الفاتر من القتال الجاري بوهران، كان أكثر ما يتخوّف منه الباي محمّد الأكحل - و معظم المقاتلين هناك - هو أن يأمر المذكور "**بالإقلاع عن الجهاد، رعيًا لمصلحة تتعلّق بالمُلْك**". و عليه، لم يطلب الباي شيئًا من الداي، بل سعى على العكس إلى مراضاته بالمال و الهدايا ؛ و ذلك كنوعٍ من التطمين من أنّ مصاريف الحرب يتحمّلها هو، و أنّه - فوق ذلك - لن تتضرّر منها العوائد الضريبية الّتي يرسلها بانتظام للعاصمة، إذ كان من المفروض أن يدنّش في خريف تلك السنة : نفسه.

انظر أيضًا : الزهّار، المصدر السابق، ص. 49 ؛ دغموش، المرجع السابق، ص. 161 ؛ قنان، **نصوص...**، المصدر السابق، ص. 225.

كانت رحى الحرب وقتئذٍ تدور على أشدّها تحت أسوار وهران، حيت كانت قوّات الباي محمّد بن عثمان تحرز بعض التقدّمات الطفيفة، لكنّها مكلّفة في الأرواح و الأموال لكلا الطرفين. و قد أدرك الإسبان أنّ تصميم الباي و الوسائل المعتبرة الّتي وظّفها حوّلا عمليات الحصار إلى حرب استنزاف حقيقية - شبيهة بتلك الّتي قادها مصطفى بوشلاغم، قبيل فتح وهران في 1708م - لن يستطيعوا حسمها عسكريًا ؛ و لذلك، تقدّم الوكيل الإسباني إلى الداي حسن - عرّاب معاهدة 1786 بين البلدين - للتفاوض حول الصلح : الراشدي، نفس المصدر السابق، ص ص. 309-320.

انظر أيضًا : الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 240.

- Ismet Terki Hassain, « **Oran au XVIIIe siècle : du désarroi à la clairvoyance politique de l'Espagne** », in : Insaniyat 23-24, 2004, p. 211 ; Fey, Op. cit., p. 257.

2. فكاير، المرجع السابق، ص ص. 279-280 ؛ بوبكر، المرجع السابق، ص ص. 172-178 ؛ دغموش، المرجع السابق، ص ص. 162-163 ؛ ناصر الدين سعيدوني، "**المعاهدة الجزائرية الإسبانية 1791**"، في : م.د.ت. 7، 1993، ص ص. 86-93.

- Fey, Ibid., pp. 257-259 ; Sandoval, « **Les inscriptions…** », Op. cit., 1872, pp. 349-355.

يشير القنصل الفرنسي ڤالبير إلى أنّ موافقة الطرف الجزائري على المعاهدة "**تمّ شراؤه بتقدمة جسيمة للداي و بوعود آسرة لوزرائه، سيلزم الإيفاء بها ؛ و يبقى المبلغ الّذي سيعطى للإيالة طي الكتمان. إنّ الإسبان يدفعون، منذ إقامتهم**(كذا) **بالجزائر، أطنانًا من الريالات الإسبانية...**"، نقلاً عن : - de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 273.

انظر أيضًا في هذا الصدد : - Sandoval, Ibid., p. 350.

و عقب ذلك، ذهب الباي محمّد بن عثمان إلى الجزائر لتأدية الدنوش (3-10 نوفمبر 1791م)، حيث استقبل بحفاوة و منحه الداي حسن لقب "الكبير" و كرّمه بالريشة الذهبية[1]، الّتي تمنح لكبار القادة الفاتحين كما جرت به التقاليد العسكرية لدى العثمانيين، اعترافًا له بالفضل في استعادة الموقعين[2].

و لقد ابتدأ الإسبان في الانسحاب من وهران، بعد مصادقة ملكهم على المعاهدة، يوم 17 ديسمبر من ذات السنة، و انتهت العملية يوم الاثنين 4 رجب 1206هـ الموافق لـ 27 فبراير 1792م، بدخول الباي محمّد مظفّرًا[3] ؛ و من ساعته، أرسل للداي حسن بريدًا يبشّره بذلك مع مفتاحي وهران و المرسى الكبير و جرّتين من ماء عيون المدينة كان قد تلقّاهم من الإسبان، حسبما اشترطته المعاهدة المبرمة[4].

في 17 مارس 1792م، أرسل الداي وفدًا إلى العاصمة استانبول كلّفه بأن يقدّم المفتاحين المذكورين - اللّذان يرمزان لاستعادة المدينتين - بعد أن جرى تذهيبهما، للسلطان سليم الثالث (1789-1807م)، فضلاً عن هدايا ثمينة متنوّعة أخرى ؛ و كلّ ذلك التماسًا للحصول على لقب الباشوية. غير أنّ السلطان، الّذي سرّ أيّما سرور ببشارة الفتح، لم يكتف بمنح الداي قفطان التولية و اللقب التشريفي، بل زاده طوغًا ثالثًا و رقّاه بالتالي من بايلرباي إلى والٍ المكافئ لرتبة وزير في سلّم التراتب الإداري العثماني[5].

و رغم ما سبق، فإنّ العلاقات مع الدولة العثمانية عرفت بعض التوتّرات، بين أواخر 1793م و منتصف العام الّذي يليه. و مردّ ذلك من جهة إلى الحرب الجزائرية الهولندية (1793م)، حيث استولى الريّاس الجزائريون على سفينتين هولنديتين محمّلتين ببضائع و أموال يعود قسمٌ منها لتجّار مسيحيين و مسلمين

---

1. الريشة - كما كان يطلق عليها العامّة -، و تسمّى بالعثمانية "چلنك"، هي قُنزُعة سعفية الشكل مصنوعة من الذهب غالبًا و مرصّعة بالأحجار الكريمة، تشبك في مقدّمة المِكْوَر أو العمامة : الراشدي، المصدر السابق، ص ص. 442-443. انظر أيضًا :

- Barbier de Meynard, Op. cit., 1er vol., p. 595 ; Dozy, Op. cit., T. 1, p. 575.

2. نفسه، ص ص. 444-445. انظر أيضًا : بلبراوات بن عتو، "**التحرير الثاني و النهائي لوهران و المرسى الكبير عام 1206 هـ/1792 م**"، في : مجلة عصور 4-5، 2004، ص. 285.

- Mercier, **Histoire de l'Afrique**..., Op. cit., p. 435.

3. الراشدي، نفس المصدر السابق، ص. 483 ؛ المدني، **حرب...**، المرجع السابق، ص ص. 526-527 ؛ سامح التر، المرجع السابق، ص ص. 560-561.

- Féraud, « **Éphémérides…** », Op. cit., p. 299 ; Tütüncü, Op. cit., p. 277.

4. الراشدي، نفس المصدر السابق، ص ص. 480-481.

5. **المراسلات العثمانية**، م.و.ج.، مجموعة 3190-1، رقم 54 ؛ الزهّار، المصدر السابق، ص. 63 ؛ الراشدي، نفس المصدر السابق، ص. 473.

- Devoulx, **Tachrifat**, Op. cit., pp. 17 & 61 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., pp. 272-273 ; Hervé, **Relations…**, Op. cit., T. II, pp. 436-437.

تجدر الإشارة إلى أنّ والي هو لقب وظيفة يحمله حاكم ولاية عثمانية برتبة وزير ذو ثلاثة أطواغ. انظر بهذا الشأن :

- Mantran, « **L'évolution des relations entre…** », Op. cit., pp. 321, n. 4 & 329 ; Barbier de Meynard, Ibid., 2e vol., p. 315.

من إزمير، و لم يمتثل الجزائريون لا للأمر الصادر عن الديوان الهمايوني و لا للفرمان السلطاني، اللّذان قضيا بإرجاع الحمولتين، تحت ذريعة أنّ الأموال هولندية[1] ؛ و توتّرت العلاقة أكثر، من جهة أخرى، نتيجةً إلى عدم احترام الجزائريين للأوامر الهمايونية بإعادة السفن العائدة لرعايا النمسا و روسيا، بعد أن عقدت تلكما الدولتان الصلح مع الدولة العثمانية سنة 1792م. و أدّى نفاذ صبر الديوان الهمايوني إلى إرسال كلّ من القبودان باشا و الصدر الأعظم كتابين يوبّخان فيهما حسن باشا على عدم التزامه بتنفيذ الأوامر، و يهدّدانه بعقوبة الحرمان من التجنيد و التعامل مع الممالك العثمانية. إزاء تلك الضغوط، أذعن حسن باشا للأمر، و أرسل رسالة إلى القبودان باشا يعلن فيها موافقة الجزائر على الصلح مع النمسا و التزامها التامّ ببنود المعاهدة العثمانية الروسية[2].

و بالحديث عن القرصنة، تجدر الإشارة إلى أنّ نشاط البحرية الجزائرية عرف انتعاشًا كبيرًا، و لا سيّما ابتداءً من سنة 1793م، بفضل الظروف المؤاتية المتمثّلة في حروب الثورة الفرنسية و كذا النابوليونية، الّتي شغلت أوروبا على مدى عقدين من الزمن[3]، و بحكم التدابير و الإجراءات التنظيمية الّتي اعتمدها الداي - بناءً على خبرته السابقة كوكيل الحرج - لزيادة عدد قطع البحرية و تحسين تسليحها و عتادها[4].

---

1. في بداية الفرمان الّذي أرسل بشأن الأموال الآنفة الذكر، لم يتمّ ذكر "**الوزير حسن بك**" بتعيين الاسم، بل كتب مكانه "**إلى داي الجزائر**"، و هذا مؤشّر أكيد على فتور العلاقات : دفتر مهمّات الديوان الهمايوني، رقم 200، ص. 173 (أوائل شوّال سنة 1208هـ)، نقلاً عن : سامح التر، المرجع السابق، ص. 564.

انظر بخصوص الحرب بين الجزائر و الأقاليم المتّحدة : الزهّار، المصدر السابق، ص ص. 65-66.

- Van Krieken, Op. cit., pp. 121-123.

2. سامح التر، نفس المرجع السابق، ص ص. 564-566.

ورد في مطلع فرمان مرسل في أوائل يونيو 1794م "**إلى والي الجزائر الوزير حسن باشا**"، و بهذا التعبير يمكن اعتبار أنّ المشاكل القائمة تكون قد وجدت طريقها إلى التسوية حينئذٍ : دفتر مهمّات الديوان الهمايوني، رقم 200، ص. 210 (أوائل ذي القعدة سنة 1208هـ)، نقلاً عن : نفسه، ص. 566.

3. المنور مرّوش، **دراسات عن الجزائر في العهد العثماني. القرصنة، الأساطير و الواقع**، ج. 2، دار القصبة، الجزائر، 2009، ص ص. 470-471.

تترجّم انتعاش القرصنة في عهد الداي بابا حسن (1791-1798م) بتزايد حجم الغنائم بشكل معتبر. انظر في هذا الصدد : نفسه، ص ص. 472 و 477.

- A. Devoulx, « **Le registre des prises maritimes** », in : R.A. 15, 1871, pp. 362-374.

4. يمكن تبيّن ازدياد قطع البحرية الجزائرية و مدفعيتها في الفترة المذكورة من خلال تعداد سفن الريّاس الخارجة، اعتمادًا على أرشيف القنصلية الفرنسية :

- A. Devoulx, « **La marine de la Régence d'Alger** », in : R.A. 13, 1869, pp. 411-413.

انظر أيضًا : الزهّار، نفس المصدر السابق، ص. 67.

- Krieken, Ibid., p. 123 ; Plantet, **Correspondance des deys…**, Op. cit., T. 2, p. 475, n. 1.

لإعطاء دفع لعمليات الصيانة و الصناعة البحرية، أمر الداي بتوظيف خمسين "قلفات" و عدد مماثل من النجّارين البحريين - أغلبيتهم العظمى كراغلة من مواليد الجزائر - في سبتمبر 1791م ؛ و منحهم تقريبًا نفس امتيازات اليولداش، حيث تمّ تسجيلهم في دفتر العلوفات : **دفتر مواجبات…**، المصدر السابق، رقم 1973، و و. 447 ظ° و 448 ظ°. و في ذات الصدد، قام، في سبتمبر 1796م، بتوظيف دفعة جديدة من خمسين نجّارًا للعمل في الترسانة : نفسه، و. 449.

و على صعيدٍ آخر، تميّز عهد حسن باشا بازدهار تجارة الحبوب نحو أوروبا ؛ إذ عرفت أسعار القمح ارتفاعًا بشكلٍ غير مسبوق ناجم عن الاحتياجات الهائلة، الّتي فرضتها ظروف الحرب و التنافس الكبير بين التجّار الأوروبيين لاقتنائه. و أدركت الحكومة الجزائرية البعد الاستراتيجي لهذا الصراع حول القمح بين الدول الأوروبية المتحاربة، و سعت إلى تركيز - أو بالأحرى احتكار - جلّ صادرات الحبوب بيدها ؛ و لذلك، كلّفت الوسطاء التجاريين اليهود بالجزائر، و المتكتّلين في شركات، الّتي من أهمّها شركة بكري و بوجناح، القيام بتلك المهمّة لحسابها. و بهذا الشكل، وازت - إن لم تفق - الإيرادات المتأتية من هذه التجارة المربحة مداخيل الغنائم، خلال نفس تلك الفترة[1].

و لقد كان على رأس المستفيدين من تجارة القمح بالمقام الأوّل الداي[2]، الّذي كسب أرباحًا طائلة جعلت منه أكبر المالكين بمدينة الجزائر و صاحب مآثر عمرانية و خيرية كثيرة خلّدت اسمه - ليس المجال لذكرها في هذا الموضع[3] - ؛ لكن، بغضّ النظر عن فضائل الرجل، هناك عدّة أمور اجترحها المذكور تبدو للوهلة الأولى ليست ذات بال، بيد أنّه ستكون لها عواقب وخيمة على البلاد و مستقبل العباد. أوّل تلك الأمور - و لعلّها الأهمّ - هي نزعة الداي حسن إلى عزل البايات و قتلهم، و من ذلك أنّه ولّى محلّ صالح باي قسنطينة عدوّه إبراهيم الشرقي في أغسطس 1792م، حيث أمره بتحيّن الفرصة ليقتل الباي المعزول و يستصفي أمواله[4] ؛ غير أنّ وزراء صالح باي استبقوا المكيدة و عاجلوا الباي الجديد بالقتل مع كلّ مرافقيه. و بعد أن استزلّ بتلك الطريقة، انتهى أمره إلى القتل على يد غريمه السابق حسين بن حسن بوحنك، الّذي أرسله حسن بايًا على قسنطينة، و دعمّه بقوّات أكثر من كافية وضعت تحت إمرة الآغا مصطفى و وكيل الحرج علي لوضع حدّ للتمرّد[5].

---

1. مرّوش، المرجع السابق، ص ص. 390-392 و ما بعدها ؛ الزبيري، المرجع السابق، ص ص. 92-95.

- Merouche, **Monnaies…**, Op. cit., pp. 113-115.

يذكر الزبيري في هذا الصدد : "**اعتمادًا على المعلومات الّتي عثرنا عليها، نستطيع القول بأنّ الهيئات التجارية كانت تستعمل سنويًا رأسمال يقدّر معدّله بحوالي ستّة ملايين من الفرنكات**" : نفسه، ص. 288.

2. إلى جانب الداي حسن، كان كبار المستفيدين هم من جهة مقرّبوه : صهره الخزناجي مصطفى بن إبراهيم، و مستشاريه نفطالي بوجناح و جوزيف بكري، و وكيله الشخصي في فرنسا يعقوب بكري ؛ و من جهة أخرى : باي وهران محمّد بن عثمان و باي قسنطينة صالح بن محمّد (و من جاء بعده). انظر في هذا الصدد : العربي، المرجع السابق، ص ص. 47، 51 و 59 ؛ الزبيري، نفس المرجع السابق، ص ص. 260 و 264-265 ؛ مرّوش، نفس المرجع السابق، ص ص. 391-393.

3. انظر : أمير يوسف، **أوقاف الدايات بمدينة الجزائر و فحوصها من خلال سجلات المحاكم الشرعية 1081-1246هـ/1671-1830م**، ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر 2، 2010، ص. 88 ؛ الجيلالي، المرجع السابق، ج. 3، ص ص. 283-285.

4. Féraud, « **Éphémérides…** », Op. cit., pp. 300-302 ; Vayssettes, Op. cit., 1868, pp. 375-376. - الزهّار، المصدر السابق، ص. 64.

5. مجهول، **أخبار بلد قسنطينة و حكّامها**، نقلاً عن : بولحبال رياض، **أخبار بلد قسنطينة و حكّامها لمؤلّف مجهول (دراسة و تحقيق)**. ماجستير في علم المخطوط العربي، جامعة منتوري، قسنطينة، 2010، ص ص. 51-53.

و كانت دوافع الداي الحقيقية لقتل صالح باي متشابكة ؛ و تتمثّل أساسًا في مصادرة الثروة الهائلة الّتي قام بجمعها على مدار إحدى و عشرين سنة على رأس البايلك[1]، و كذا الاستئثار بتجارة الحبوب المربحة للغاية الّتي كان الباي المذكور يتحكّم في تحديد أسعارها و الكمّيات المصدّرة منها[2]، و أخيرًا كان للوشاية الّتي سعت بها عدّة أطراف دورًا مؤكّدًا في قرار تنحيته[3]. و مهما يكن من أمر، فإنّه "بسبب

انظر أيضًا : الزهّار، نفس المصدر السابق، ص ص. 64-65 ؛ بن العنتري، **فريدة...**، المصدر السابق، ص. 84 ؛ بن العطّار، المصدر السابق، ص ص. 141-143. - Vayssettes, Ibid., pp. 377-382.

بعدما تيقّن من خطورة وضعه، حاول صالح باي استمالة جنود الإنكشارية الموجودين بقسنطينة، و بالأخصّ من جماعة الزبنطوط، الّذين أغدق عليهم بالمال ؛ و لدى بلوغ الوزيرين و حسين باي برج حمزة (البويرة حاليًا) بلغتهم أنباء عن ذلك من قسنطينة جعلتهم يخشون موالاة الإنكشارية للباي المتمرّد، فسارعوا لإعلام الداي. هذا الأخير أرسل لهم تعزيزات تقدّر بخمسمئة جندي، بالإضافة إلى حانبة كلّفت بنقل أوامره، الّتي تشدّد على التزام الطاعة و تحييد العاصي، على وجه السرعة لسكّان مدينة قسنطينة و للقوّات العسكرية المقيمة بها. تخوّف القسنطينيين من الجيش الزاحف - الّذي يقال أنّه بلغ العشرين ألفًا بما انضمّ إليه من القوّات القبلية في الطريق - جعلهم يفتحون أبواب المدينة و يتخلّون عن صالح باي، الّذي لم يبق معه إلاّ مماليكه من الصبايحية و اضطرّ في النهاية لتسليم نفسه : [أحمد بن إسماعيل بن صالح باي]، "**نهاية صالح باي كما أثبتها أحد الكتّاب القسنطينيين**"، في : الشرق الجزائري. بايلك قسنطينة أثناء العهد العثماني و بداية الاحتلال الفرنسي من خلال وثائق الأرشيف، تقديم و تعليق و ترجمة ناصر الدين سعيدوني، البصائر الجديدة، الجزائر، 2013، ص. 71 ؛ أحمد بن المبارك بن العطّار، **تاريخ بلد قسنطينة**، تحقيق و تعليق و تقديم عبد الله حمادي، دار الفائز، قسنطينة، 2011، ص ص. 142-143 ؛ مجهول، **أخبار بلد...**، المصدر السابق، ص ص. 53-56.

- Féraud, « **Éphémérides…** », Op. cit., pp. 303-302 ; Mercier, **Histoire de Constantine**, Op. cit., p. 290 ; Ch. Féraud, **La Calle et documents pour servir à l'histoire des anciennes concessions françaises d'Afrique**, Vaillaud et Cie, Alger, 1877, pp. 445-446.

1. [ابن اسماعيل]، "**نهاية...**"، المصدر السابق، ص. 72. - Mercier, **Histoire de Constantine**, Op. cit., p. 299.

يذهب بن العطّار في وصفه لثروة هذا الباي إلى أنّه "**بلغ ما لم يبلغه من هو أكبر منه من ولاة الجزائر و تونس، و جمع ما لم يجمعه غيره**" ؛ و هذا ما يؤكّده الخوجة - الّذي بقيت هويته مجهولة - في يومياته، لدى حديثه عن الكنوز المصادرة الّتي حملت إلى الجزائر : "**الوزراء المذكورين أعلاه، العائدين من قسنطينة، جلبوا هنا مئتين و خمسين بغلاً محمّل كلّ واحد منها بأربعة آلاف ريال، و خمسة عشر بغلاً حمل كلّ واحد منهم خمسة و عشرين ألف دينار ؛ و ذلك فضلاً عن تحف لا تعدّ من الذهب، و الفضة، و الألماس، و الأحجار النفيسة. حينما خنق صالح، وجد عليه حرز مزيّن بعشر حجارة ثمينة قدّرت قيمتها بـ 275000 دينار. كلّ ذلك تم إيداعه في خزينة الباشا... نهاية محرّم 1207 ([منتصف] سبتمبر 1792).**" : بن العطّار، المصدر السابق، ص. 138. - Féraud, « **Éphémérides…** », Op. cit., pp. 303-304.

انظر أيضًا : مجهول، **تاريخ بايات...**، المصدر السابق، ص. 17 ؛ مجهول، **تاريخ بلد...**، المصدر السابق، ص. 57.

2. بن العنتري، **فريدة...**، المصدر السابق، ص. 83 ؛ فلّة موساوي القشاعي، **النظام الضريبي بالريف القسنطيني أواخر العهد العثماني 1771-1837**، ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 1990، ص ص. 38-39 و 61-62.

- Ismet Touati, « **L'Algérie au "siècle du blé" (1725-1815)** », Conférence donnée aux Glycines, Centre d'Études Diocésain, Alger, 23 janvier 2014 ; Vayssettes, Op. cit., 1869, p. 462, n. 1.

3. بن العطّار، نفس المصدر السابق، ص ص. 138-139 ؛ الجيلالي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 282.

لقد كان أبرز الوشاة محمّد بلحاج بن قانة - صهر كلّ من إبراهيم الشرقي و حسين بن حسن بوحنك - الّذي عزله صالح باي عن مشيخة العرب، إضافةً إلى التجّار اليهود من أسرتي بكري و بوجناح، لا سيّما أنّ صالح باي أحبط صفقة تصدير الحبوب كانوا فيها شركاء للخزناجي السابق حسن بن علي عام 1788م : بن العطّار، نفس المصدر السابق، ص ص. 139 و 142 ؛ ناصر الدين سعيدوني، "**صالح باي و مكانته في**

هذه الجريمة، صارت عادة جارية بموت البايات المتأخّرين[1]" أو عزلهم، سواء وجد سبب مؤسّس لذلك أم لا.

و بالفعل، كان الداي قد بادر إلى عزل باي التيطري مصطفى الوزناجي بن سليمان في أواخر أبريل 1792م، و أرسل الشوّاش ليلقوا عليه القبض ؛ فالتجأ هذا الأخير إلى ضريح أحد الأولياء، حيث لم يجد أحدًا يسعفه سوى نفطالي بوجناح، الّذي زوّده بالطعام و طمأنّه بأنّه سيستحصل له على عفو الداي ؛ و لمّا نجا من مأزقه، أقرضه مبلغًا ماليًا على سبيل الإعانة كون جميع أملاكه قد صودرت. و لقد كان هذا العطف كفيلاً بجعل رجل الحرب و الإدارة المذكور صنيعة للتجّار اليهود[2]. و المرجّح أنّهم كانوا وراء تعيينه قايدًا على سيباو في منتصف أبريل 1793م، و من ثمّ بايًا على قسنطينة بعد سنتين بالضبط[3]، بدل حسين باي الّذي أعدم هو الآخر بسبب سعايتهم[4] ؛ و هذا ما سيتيح لهم السيطرة على التجارة في أنحاء بايلك الشرق، علاوةً على التدخّل في دواليب السياسة الداخلية بفضل نفوذهم لدى الباي المذكور.

تاريخ قسنطينة 1185-1207هـ/1771-1792م"، في : ورقات جزائرية. دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، البصائر الجديدة، الجزائر، 2012، ص ص. 259-260 و 264-265 ؛ موساوي القشاعي، **النظام...**، المرجع السابق، ص ص. 40-41 ؛ معاشي، **الأسر...**، المرجع السابق، ص. 292، هـ. 2. - Féraud, « **Les Ben-Djellab…** », in : R.A. 27, 1883, pp. 257-263.

1. بن العنتري، **فريدة...**، المصدر السابق، ص. 84.

و في نفس الصدد، يضيف بن العنتري قائلاً : "**و من هذا الوقت صاروا** (كذا) **الترك يأخذون الجور، و نبذوا الحقوق المشروطة و بدى** (كذا) **منهم الفجور. و بالجملة أنّه من حين موت الباشا الّذي اسمه باب**[ا] **محمّد و مات صالح باي، تبدّلت أحكام الترك و انقلبت حقائقهم و صار صغيرهم لا يواقر** (كذا) **كبيرهم، و بد**[ا] **النقص في ملكهم ؛ و من ذلك كلام الحكماء و إشارة العقلاء : الدولة بستان، و ثمرته العدل و الإحسان، فملكها مسدّد، و سلطانها قدير.**" : نفسه، ص. 86.

2. الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 248 ؛ العربي، المرجع السابق، ص. 42 ؛ علي تابليت، "**يهود الجزائر في الفترة العثمانية (1516-1830)**"، في : م.ت.ع.د.ع. 11-12، 1995، ص. 174 ؛ عبّاد، المرجع السابق، ص ص. 190-191.

- Féraud, « **Éphémérides…** », Op. cit., pp. 299-300.

انظر أيضًا : - Mercier, **Histoire de Constantine**, Op. cit., pp. 301-302.

للمزيد من المعلومات حول بصمة مصطفى الوزناجي في إدارة بايلك التيطري (1775-1792م)، انظر :

- Federmann & Aucapitaine, Op. cit., 1965, pp. 286-287.

3. **دفتر مواجبات...**، المصدر السابق، رقم 1973، و. 6 و°.

4. مجهول، **تاريخ بلد...**، المصدر السابق، ص. 58.

لقد كان سبب إعدام الباي حسين بالأساس هو خفضه بعض الشيء لكمّيات القمح الموسوق إلى أوروبا ؛ و هذا ما أثار حيال المذكور استياء اليهوديين بكري و بوجناح، الّذين لمّا لم يتمّ لهم ما أرادوا، سعوا للإيقاع به لدى بابا حسن، حيث أوعزوا له بإصدار أمر إلى الباي بإعدام صديقه المقرّب قايد عنابة و تعيين آخر مكانه ؛ و كما كان منتظرًا رفض الباي الأمر، فكان ذلك سبب عزله بعد إبغار صدر الداي ضدّه بالوشاية. و هكذا، كلّما أضرّ موظّف سامي بمصالح اليهود، سعوا إلى التخلّص منه بالعزل أو بالقتل، ثمّ أتوا محلّه بمن يكون أكثر استعدادًا للعمل معهم و الخضوع لإملاءاتهم. انظر :

- A. Cherbonneau, « **Inscriptions arabes de la province de Constantine**. », in : A.S.A.P.C., 1856-1857, p. 125.

لم يتوقّف تنفّذ التجّار اليهود عند ذاك الحدّ، فقد كان تدخّل بكري و بوجناح في الشؤون الخارجية للإيالة - و بخاصّة الترتيبات التمهيدية للهدنة مع البرتغال - وراء نفي كلّ من وكيل الحرج علي برغل و الخزندار قارة محمّد، المعارضين للسياسة المتبّعة، في فبراير 1793م إلى اسطنبول[1]. فعلى ما يبدو، عرف ذانك اليهوديان كيف يستحوذان على ثقة الداي حسن، حيث استغلا فروعهما التجارية بأوروبا في جمع مختلف المعلومات السياسية و الاقتصادية الحسّاسة، في ذات الوقت الّذي مكّنتهما شبكاتهما التجارية التجسّسية المبثوثة بأنحاء البلاد من الاطلاع على أخبار و عثرات البايات و علية القوم نزولاً حتّى إلى الرعايا البسطاء من تجّار و صغار الموظّفين ؛ و بواسطة نمّهما تلك المعلومات الصحيحة أو المكذوبة، استطاعا تحريك الداي بما يخدم مصالحهم المشتركة، حيث أصبحا - بصفتهما مستشاريه و شريكيه التجاريين - لهما يدٌ في عزل و تعيين البايات و غيرهم من الإداريين[2]. و هذا بالتحديد ثاني أمر يعاب عليه حسن باشا، الّذي صيّر نفسه - و هو حاكم البلاد - شبه ألعوبة بأيدي التاجرين، و جعلهما يؤثّران تقريبًا على الجهاز الإداري الجزائري بأكمله و يتحكّمان في تكييفه من أجل تعزيز نفوذهما و ثروتهما[3].

---

1. de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 277 ; Féraud, « **Éphémérides…** », Op. cit., p. 304.

انظر أيضًا : الزهّار، المصدر السابق، ص. 64.

يحتمل أن تكون المعاملة السيئة الّتي كالها علي باشا برغل ليهود طرابلس الغرب بعد أن عيّنه السلطان واليًا عليها (يوليو 1793-يناير 1795م)، عائدة إلى حنقه لما لحقه من زوال الحظوة و النفي بسبب إخوانهم في الدين بالجزائر : فيرو، **الحوليات…**، المرجع السابق، ص ص. 358-359 و 365-368. انظر أيضًا : الطرابلسي، المرجع السابق، ص ص. 301-307.

2. الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 247 ؛ العربي، المرجع السابق، ص ص. 44-53.

لقد كثرت في عهد الداي حسن باشا أوامر العزل و المصادرة في حقّ البايات على الأرجح بسببهما : ففي التيطري، ألقي القبض على محمّد الذبّاح - الّذي خلف الوزناجي - في 1794م و صودرت أملاكه ؛ و عوّض بإبراهيم بن علي البورصالي الّذي سجن بدوره بعد ثلاث سنوات من الحكم في شرشال عام 1797م. و في قسنطينة، أعدم مصطفى الوزناجي لدى عودته من غارة بغرب الأراضي التونسية في ديسمبر 1797م، فعيّن مكانه خليفته مصطفى انكليز : الميلي، نفس المرجع السابق، ص. 249 ؛ سامح التر، المرجع السابق، ص ص. 569-570.

- Féraud, Ibid., pp. 304-305 & 308-311 ; Mercier, **Histoire de Constantine**, Op. cit., pp. 303-304 ; de Grammont, Ibid., p. 279 ; Mercier, **Histoire de l'Afrique**…, Op. cit., p. 447 ; Merouche, **Monnaies…**, Op. cit., pp. 183-184.

و الباي الوحيد الّذي لم يتناوله العزل هو محمّد الكبير بن عثمان، باي الغرب، غير أنّه توفي بشكلٍ مفاجئ غير بعيد من مازونة في مساء يوم الأربعاء 25 جمادى الأولى 1212هـ الموافق لـ 15 نوفمبر 1797م، و هو راجع من مدينة الجزائر، بعد أن أدّى دنوشه ؛ و اشتبه في أنّه تمّ تسميمه من قبل الداي حسن عند توديعه بعين الربط، من دون إبراز دليل دامغ يثبت صحّة ذلك. و قد تولّى البايلك ابنه البكر عثمان خلفًا له : الميلي، نفسه. - Féraud, Ibid., p. 313 ; Mercier, **Histoire de l'Afrique**…, Ibid., p. 444 ; Fey, Op. cit., p. 273.

3. بلغ انصياع حسن باشا لليهوديين بكري و بوجناح الحدّ الّذي أمكنهما إقناعه بمنح الفرنسيين قرضًا دون فوائد قدره ربع مليون ليرة في 1793م، كي يستطيعوا تسديد ثمن حمولات القمح الجزائري الّذي وسقاه إلى مرسيليا ؛ كما توسّطا مرّة أخرى في 1795م ليقرض المذكورين لنفس الغرض خمسة ملايين ليرة، لكن الداي سلّم مليون ليرة فقط. و قد تضاعفت الديون، من جانب آخر، لأنّ التاجرين اليهوديين اقترضا كذلك لفائدتهما من الداي و من رعايا جزائريين آخرين مبالغ مالية كبيرة. انظر في هذا الصدد : يحي بوعزيز، **علاقات الجزائر الخارجية مع دول و ممالك أوروبا 1500-1830**، عالم المعرفة، الجزائر، 2009، ص ص. 109-111 ؛ تابليت، المرجع السابق، ص ص. 174-180 ؛

أمّا آخر أمر يحسب على حسن باشا، فهو عدم التزامه بسياسة الصرامة الّتي اتّبعها أسلافه من الدايات تجاه أفراد الإنكشارية على مدى زمني يزيد عن الأربعين سنة. فقد ذكر أنّه ألغى عقوبة الإعدام عن عددٍ من الجرائم[1] ؛ و هذا ما لمسناه عند تصفّحنا لدفاتر الإنكشارية العائدة لفترة حكم المذكور، حيث لاحظنا تناقصًا ملحوظًا في العقوبات الانضباطية من قتل و نفي و تأديب و غيرها مقارنة بالفترات السابقة[2]. و يمكن أن نتصوّر أنّ هذه السياسة "المرنة" سعى الداي من ورائها إلى كسب مودة أفراد الإنكشارية، و هو ما تترجمّ فعلاً بمنحه لقب "بابا". إلاّ أنّ هذا المقابل المعنوي يبقى بلا قيمة مقارنة بالعواقب السلبية الّتي ستترتّب عنها تلك الدماثة، إذ أنّ التجنيد من "برّ الترك" كان يحمل إلى أرض الجزائر - رغم الانتقاء الأوّلي للدعاة (المجنّدين) - على الدوام تشكيلة من الرجال تتدرّج من الخيِّرين إلى الأوباش ؛ و كان يتكفّل الانضباط العسكري الصارم الّذي تحدّه عقوبات متنوّعة و التأطير الديني من قبل فئة العلماء و الوعّاظ، بمرور الوقت، بغربلة و تهذيب العناصر الميّالة للشغب. و عليه، أدّى الإخلال بهذا النسق المضبوط إلى تزايد عدد العناصر المذكورة آنفًا، بشكل تدريجي لكن غير محسوس طيلة سنوات، ممّا سوف يزيد بلا ريب من احتمالية وقوع ثورات على المدى المتوسّط، و يفضي فوق ذلك إلى عدم استقرار الأوجاق و انحلاله.

و هذا ما سيتأكّد إبّان الأيّام الأخيرة لبابا حسن مع ربيع عام 1798م، فقد أصيب بخُراج في قدمه لم يعالج كما يجب من قبل الأطباء، و تورّم بشكل أقعده الفراش ؛ و خلال الفترة الّتي اشتّد فيها مرضه، تسلّل نحوٌ من خمسين متمرّدًا من الإنكشارية إلى سرايا دار الإمارة و نهبوا محتوياتها، بما فيها غرفة الباشا الّتي كان يرقد فيها. و لزم الأمر تدخّل وكيل حرج دار السلطان على رأس النوبتجية و الشوّاش ليخمد العصيان، حيث قتل عددًا منهم و لاحق الفارّين في أحياء المدينة، و قام بإعدام من وقع في قبضته. و بعد أيّام من الحادثة، فارق الداي الحياة في 14 مايو من نفس السنة، بعد أن انتشرت الغنغرينة في ساقه[3].

بوعزيز، **الموجز...**، المرجع السابق، ص ص. 104-105 ؛ زكية زهرة، **التنافس الفرنسي الإنكليزي على الجزائر و موقف الباب العالي منه (1792-1830)**، ماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر، جامعة الجزائر، 1997، ص ص. 42-43.

- Plantet, **Correspondance des deys...**, Op. cit., T. 2, p. 459, n. 1 & p. 463, n. 2 ; Schmitt, Op. cit., pp. 72-75.

1. de Grammont, **Histoire d'Alger...**, Op. cit., p. 274.

2. **دفتر مواجبات...**، المصدر السابق، رقم 1973 و 1985 مكرّر.

3. سامح التر، المرجع السابق، ص ص. 570-571. انظر أيضًا :

- de Grammont, Ibid., p. 280 ; A. Berbrugger, « **La régence d'Alger sous le Consulat et l'Empire** », in : R.A. 15, 1871, pp. 243-249 ; Plantet, **Correspondance des deys...**, Op. cit., T. 2, p. 477.

قصارى القول، استطاع الداي بابا حسن أن يحافظ على مظاهر القوّة و الاستقرار الّتي ميّزت عهد سلفه، غير أنّ السياسة الرعناء الّتي اتّبعها تجاه كبار موظّفي الدولة و حكّام الأقاليم بطابعه الحادّ و الجشع، و كذا تخفيفه للعقوبات الانضباطية المسلّطة على المخالفين من الإنكشارية تزلّفًا، علاوة على الإمّعية و المكسبية (المركانتيلية) الّتي طبعت انقياده للتجّار اليهود، تجعلنا نجزم أنّه في حقيقة الأمر يتحمّل القسط الأكبر من المسؤولية في تدهور الأوضاع الّذي ستعرفه الإيالة - كما سنرى لاحقًا - ابتداءً من السنوات الأخيرة من عهد خلفه.

1-1-2. عهد الداي مصطفى (1798-1805م)

تولّى ابن أخّ المتوفّى مصطفى بن إبراهيم، الّذي شغل منصب الخزناجي منذ سنة 1791م، الدايلك دون صعوبة[1]. و الجدير بالذكر أنّ الداي الجديد كان يشبه خاله إلى حدّ كبير من حيث الخصال، فتحت مظاهر الصلاح و الكرم، كان يخفي ميلاً متعذّرٌ كبته إلى الجشع، حيث قام بادئ ذي بدء بالاستيلاء على معظم أملاك خاله و كذا أنسباء هذا الأخير بالتغريم و المصادرة[2] ؛ كما جرّد - دون جريرة بيّنة - الحاج محمّد بن الداي السابق علي باشا من أملاكه، و نفاه لعدّ أشهر إلى قلعة بني راشد[3].

و على غرار سلفه، تمتّعت طغمة التجّار اليهود - برئاسة نفطالي بوجناح - تحت حكم الداي مصطفى بنفس الحظوة و النفوذ، و تبيّن ذلك بشكل واضح عقب الغزو الفرنسي لمصر في يوليو 1798م ؛ فقد أحجم الداي عن إعلان الحرب ضدّ الجمهورية الفرنسية، رغم ورود أمر بهذا الخصوص مع فرمان توليته بايلربايًا في 9 أكتوبر، تلاه أمر ثاني بتاريخ 22 نوفمبر[4]. و كان سبب التلكّؤ عائد إلى أنّ اليهوديين نفطالي

---

1. الزهّار، المصدر السابق، ص. 61 ؛ **دفتر مواجبات...**، المصدر السابق، رقم 1973، و. 11 ظ.

2. Féraud, « **Éphémérides…** », Op. cit., p. 314 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 280.

- الزهّار، نفس المصدر السابق، ص. 71.

3. Féraud, Ibid., p. 305.

تجدر الإشارة إلى أنّ المذكور كان قد عيّن من قبل الداي حسن في منصب وكيل حرج باب الجزيرة في منتصف أغسطس 1796م ؛ و بعد أن شغل تلك الوزارة ستّة أشهر عزله، و أخذ منه غصبًا ثلاثة مراكب و آلاف القطع الذهبية : - Id., p. 308.

4. de Grammont, Ibid., pp. 280-281 ; Berbrugger, « **La régence…** », Op. cit., 1871, p. 324 ; Plantet, **Correspondance des beys…**, Op. cit., T. 3, pp. 362 & 367-369.

- ر. د. أ. ع.، المصدر السابق، ص ص. 100-102 و 104-105 ؛ سامح الترّ، المرجع السابق، ص ص. 574-575.

انظر نصّ رسالة القپودان پاشا إلى داي الجزائر في : - A. Devoulx, **Le Raïs Hamidou**, G.A.L., Alger, 2005, pp. 61-63.

المذكور و ميكايا بكري أشارا على الداي بأنّ مع إعلانه الحرب ستبتعد إمكانية استعادة الديون المترتّبة على حكومة فرنسا نتيجة تزويدها بالحبوب[1].

و تطلّب الأمر لتعلن الإيالة رسميًا الحرب على فرنسا قدوم قبوجي باشي في 19 ديسمبر هدّد بفضح الداي و وزراءه كخونة لدى السلطان العثماني، مع كلّ ما يترتّب عن ذلك من عواقب. لكن الحرب المعلنة بقيت موقوفة التنفيذ، فقد اكتفى الداي بسجن القنصل و الرعايا الفرنسيين مدة إقامة المبعوث العثماني و أفرج عنهم فور مضيِّه، كما حذّر الريّاس من مضايقة السفن الفرنسية[2].

و لم يغيّر الداي من سياسة المماطلة و عدم الالتزام تجاه الأوامر السلطانية، فقد أظهر في بداية صيف 1799م قلّة استعداده لتلبية مطالب أخرى أتى بها مبعوث عثماني يستوجب أهمّها دفع بدل مالي للباب العالي قدره خمسة آلاف كيس[3] تعويضًا لإمبراطورية النمسا عن السفن و الحمولات الّتي استولى عليها القراصنة الجزائريون و باعوها غنائم، و تحرير اليونانيين من رعايا الدولة العثمانية، إلى جانب جميع النمساويين و البنادقة، الّذين جرى استرقاقهم، و كذا إعادة سفينة روسية استولى عليها الجزائريون بينما كانت متوجّهة من جزيرة قورفو إلى ميناء طولون الفرنسي، و على متنها جنودٌ فرنسيون[4].

و بالإضافة إلى ما سبق، تجاهل الداي مصطفى باشا أوامر متتالية للباب العالي بإشراك البحرية الجزائرية في محاربة الفرنسيين، بالتنسيق مع الإنكليز[5] ؛ بل على النقيض من ذلك، لم يمانع في استيلاء

---

1. الزبيري، المرجع السابق، ص. 225، ه. 3 ؛ العربي، المرجع السابق، ص ص. 53-54.

2. Devoulx, **Les archives…**, Op. cit., pp. 132-133 ; Mercier, **Histoire de l'Afrique**…, Op. cit., pp. 448-449 ; Berbrugger, « **La régence…** », Op. cit., 1871, pp. 330-334 & 400-406.

- قنان، **معاهدات…**، المرجع السابق، ص. 229.

يظهر من رسالة أستوان سيلف (Astoin Sielve) ممثّل الوكالة الإفريقية - الّتي كانت ترعى المنشآت التجارية الفرنسية بالإيالة - إلى الوكيل الرئيسي بالقالة بتاريخ 23 نوفمبر أنّ "الانتهاب" الّذي طال المنشآت شرق البلاد يقف وراءه الباي مصطفى انكليز، حيث قام بذلك الفعل المبالغ فيه دون الرجوع إلى الداي، الّذي أمر فقط بمصادرة البضائع المخزّنة هناك كعوض للإتاوات و اللزمات المتأخّرة :

- Berbrugger, Ibid., pp. 328-329 & 407-410.

3. الكيس : عبارة عن وحدة نقد عثمانية كان مقدارها خمسين ألف أقجة أو ما يعادلها من الريالات الفضّية (حوالي 416 ريال قروش) :

- Barbier de Meynard, Op. cit., 2e vol., p. 688. - صابان، المرجع السابق، ص ص. 194-195.

4. Berbrugger, Ibid., p. 413 ; Plantet, **Correspondance des beys…**, Op. cit., T. 3, pp. 392-393, 398 & 402-403.

- **المراسلات العثمانية**، م.و.ج.، مجموعة 3204-1، رقم 4.

انظر أيضًا :

- Berbrugger, Ibid., 1872, pp. 3 & 12 ; Devoulx, **Le Raïs…**, Op. cit., pp. 80-81.

تجدر الإشارة إلى أنّ الداي أذعن فيما بعد جزئيًا لضغوط الباب العالي، حيث أجبر على إطلاق سراح 380 يوناني في يناير 1800م و أتبعهم بعد قرابة الشهرين بالنمساويين و البنادقة الّذين أسروا تحت العلم الإمبراطوري :

- Berbrugger, Ibid., pp. 2-3 & 5.

5. **المراسلات العثمانية**، م.و.ج.، مجموعة 3190-1، رقم 62 و 63.

- Berbrugger, Ibid., 1871, p. 413 ; 1872, p. 11 ; Plantet, Ibid., p. 409.

الريّاس على مراكب رعايا يونانيين يعلوها العلم العثماني و أخرى لرعايا دول معاهِدة[1] ؛ و الأدهى أنّه قام بعقد هدنة مع الفرنسيين أعقبتها معاهدة صلح في أواخر يوليو 1800م بضغط من التجّار اليهود، الّذين كانوا متلهّفين لاستئناف أو بالأحرى زيادة حجم أعمالهم التجارية[2].

أثارت تلك المعاهدة استياءً شديدًا لدى الإنكليز، الّذين هدّدوا بقصف مدينة الجزائر ؛ و لكنّهم تراجعوا عن ذلك، و اكتفوا بإعلام حلفائهم العثمانيين بحقيقة تعامل الجزائر مع عدوّهم المشترك. تترجّم تبرّم الباب العالي، الّذي ضاق ذرعًا من مخاتلة الجزائريين، في إصدار أوامر بمنع تجنيد المتطوّعين عبر إغلاق وكالة الجزائر بإزمير و بالحجر على الجزائريين و ممتلكاتهم، و كذلك حظر التعامل معهم[3].

كان للإجراءات المذكورة وقع الصاعقة في الجزائر، و إزاء ذلك قرّر مصطفى باشا - لتدارك الوضع - إرسال وكيل الحرج الحاج يوسف و كاهيته محمّلين بالهدايا في سفارة إلى اسطنبول، غير أنّ الباب العالي رفض استقبالهم و احتجز الوفد و جميع ما أتوا به ؛ إثر ذلك، كلّف الباب العالي قپوجي باشي بمرافقة كاهية وكيل الحرج إلى الجزائر لإعلام الداي بضرورة الالتزام بإعلان الحرب على فرنسا و دفع التعويضات المشار إليها أعلاه، و كذلك - بإيعاز من الإنكليز - منع اليهود من التدخّل في شؤون الإيالة و ممارسة التجارة الخارجية[4].

---

1. Devoulx, « **Le registre…** », Op. cit., 1871, pp. 374 & 447-450.

2. قنان، **معاهدات…**، المرجع السابق، ص ص. 230-233 ؛ الزبيري، المرجع السابق، ص. 225، ه. 3 ؛ عبّاد، المرجع السابق، ص. 192 ؛ العربي، المرجع السابق، ص ص. 54-55.

- Berbrugger, « **La régence…** », Op. cit., 1872, pp. 10-13 & 16-17 ; Devoulx, **Les archives…**, Op. cit., pp. 137-139 ; Plantet, **Correspondance des beys…**, Op. cit., T. 3, pp. 382-383.

في الواقع، لم يتوقّف التجّار اليهود عن وسق القموح إلى جنوب فرنسا من خلال مينائي ليفورنو و جنوة الإيطاليين، بل و موّنوا أيضًا جيش الحملة الفرنسية في مصر عبر بنغازي و بومبه - و هو مرسى طبيعي يقع ستّين كيلومتر جنوب شرق درنة بإقليم برقة الطرابلسي -، بشكل متواتر :

- Devoulx, **Le Raïs…**, Op. cit., pp. 64 & 66 ; **Correspondance de Napoléon Ier**, T. 7, Imprimerie Impériale, Paris, 1861, pp. 81-93 ; Chr. Robinson, **Reports and cases argued and determined in the high court of admirality**, Vol. 1, Little, Brown and Company, Boston, 1853, pp. 88-100 ; Berbrugger, Ibid., 1875, p. 119 ; M. Eisenbeth, « **Les Juifs en Algérie et en Tunisie** », in : R.A. 96, 1952, p. 375 ; Matrud Fawzia, **Les relations franco-tripolitaines à l'époque de Youssef Pacha, entre 1795 et 1832**, thèse de doctorat en Histoire du droit, Université d'Orléans, 2013, pp. 315, 318 & 267.

- كمال بن صحراوي، **الدور الدبلوماسي ليهود الجزائر في أواخر عهد الدايات**، بيت الحكمة، العلمة، 2009، ص ص. 154 و 200.

3. نفسه، ص. 155 ؛ عبّاد، نفسه ؛ زهرة، المرجع السابق، ص ص. 49-53.

- Berbrugger, Ibid., 1872, pp. 14-16 ; Devoulx, **Le Raïs…**, Ibid., pp. 64-69 ; Plantet, Ibid., pp. 419-420.

4. الزهّار، المصدر السابق، ص. 72 ؛ **المراسلات العثمانية**، م.و.ج.، مجموعة 3190-1، رقم 65.

انظر أيضًا : زهرة، نفس المرجع السابق، ص ص. 53-54 ؛ عبّاد، نفسه ؛ سامح الترر، المرجع السابق، ص ص. 576-578 ؛ بن صحراوي، نفس المرجع السابق، ص ص. 128-129 و 154-155.

و لم يجد الداي، بعد قدوم القپوجي باشي في ديسمبر من نفس السنة، بدًّا من قبول مجمل تلك الإملاءات مكرهًا، تحت طائلة التهديد بتجريد حملة عثمانية إنكليزية ضدّ الجزائر ؛ إذ قام بإعلان الحرب مجدّدًا في 25 يناير 1801م على فرنسا، كما قبِل دفع نحو خمسين ألف قطعة ذهبية كتعويضات للنمسا[1] ؛ و الشيء الوحيد الّذي لم يلتزم به هو المساس بنفوذ بطانته من اليهود. و يجدر التنويه في هذا الشأن أنّه قام بتعيين نفطالي بوجناح الحفيد، بدلاً من مواطنه إبراهيم بوشارة، على رأس الطائفة اليهودية في الجزائر خلال السنة الفارطة، تكريسًا للمنزلة المرموقة الّتي تبوّأها لديه كمستشار للشؤون السياسية و المالية، ناهيك عن كونه شريكًا تجاريًا[2].

و يمكن أن نستبين جانبًا من تعاظم نفوذ المذكور في مضامين المراسلات الموجّهة لنابليون الّتي أملاها أو على الأقلّ أشار للداي بها : فقد بعث مصطفى باشا، بعد مضي أقلّ من ثلاثة أشهر عن إعلان الحرب، رسالة سرّية إلى حاكم فرنسا (أواسط أبريل 1801م) محاولاً تبرير سبب نقضه لمعاهدة 30 سبتمبر 1800م بطريقة توحي بأنّه يعتذر لذلك، و ملتمسًا منه بصغارة أنّ تقوم قطع الأسطول الفرنسي في حالة تحرّك حملة عثمانية ضدّ الجزائر "**باعتراض سبيلها و تأسر أو تحرق كلّ ما يأتي باتجاهكم**"[3] ؛ و ظهر

- de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 281 ; Berbrugger, Ibid., p. 18 ; Plantet, Ibid. ; Féraud, **La Calle…**, Op. cit., pp. 559-560.

1. Devoulx, **Les archives…**, Op. cit., pp. 141-142 ; Devoulx, **Le Raïs…**, Op. cit., pp. 64-69 ; Plantet, **Correspondance des beys…**, Op. cit., T. 3, p. 421.

- الزهّار، المصدر السابق، ص. 72 ؛ **المراسلات العثمانية**، م.و.ج.، مجموعة 3190-1، رقم 65.

مثلما حدث في إعلان الحرب الأوّل، لم تستأنف الحرب فعليًا بين البلدين، إنّما الّذي جرى هو تجميد العلاقات الدبلوماسية بينهما ؛ و لقد سمح الداي للقنصل الفرنسي و مواطنيه بالانسحاب إلى أليكانط الإسبانية. كما أنّ العلاقات التجارية لم تتأثّر بهذا الإجراء الدبلوماسي كثيراً، حيث بقيت مستمرّة بوساطة التجّار اليهود : قنان، **معاهدات…**، المرجع السابق، ص. 235، ه. 1. انظر أيضًا : العربي، المرجع السابق، ص. 55.

- H. Dehérain, « **La mission du commissaire général Dubois-Thainville auprès de dey d'Alger (an VIII et an IX ; 1800 et 1801)** », in : R.H.C.F., 1926, pp. 95-96 ; Berbrugger, « **La régence…** », Op. cit., 1875, p. 121 ; Féraud, **La Calle…**, Op. cit., pp. 561-562.

الجدير بالذكر أنّ العلاقات مع الباب العالي عادت إلى سابق عهدها، مثلما تدلّ على ذلك كمّية المعدّات البحرية و الحربية الّتي حملها المبعوث الجزائري الحاج يوسف وكيل الحرج في منتصف مارس 1801م : - Devoulx, **Tachrifat**, Op. cit., p. 61.

بعد خروج الفرنسيين من مصر، أعادت الجزائر و فرنسا ربط علاقاتهما الدبلوماسية بإبرام معاهدة سلم جديدة في أواخر ديسمبر 1801م ؛ و ذلك قبل أن يتمّ توقيع صلح أميان (Amiens) في مايو 1802م، الّذي وضع حدًّا لحروب الثورة الفرنسية بين إنكلترا و حلفائها - بما فيهم الدولة العثمانية - من جهة، و فرنسا من جهة أخرى : قنان، نفس المرجع السابق، ص. 235.

2. Eisenbeth, Op. cit., pp. 159 & 370-375.

انظر أيضًا : أبو العيد دودو، **الجزائر في مؤلّفات الرحّالة الألمان (1830-1855)**، م.و.ك.، الجزائر، 1989، ص. 42.

3. Plantet, **Correspondance des deys…**, Op. cit., T. 2, p. 494.

ذلك بشكلٍ أكثر وضوحًا في رسالة أخرى بتاريخ 12 أغسطس 1802م، جاءت ردًّا على رسالتين شديدتي اللهجة هدّد فيهما بونابرت بغزو الجزائر، حيث استخدم الداي مصطفى باشا لهجة تحمل كلّ مظاهر الخنوع و الخوار غير معهودة لدى أيٍّ من الدايات الّذين سبقوه، مانحًا العاهل الفرنسي كلّ الترضيات الّتي طلبها[1].

و فضلاً عن تنفّذ اليهود في حكومته، اتّبع الداي - مشيًا كذلك على خطى سلفه - سياسة عزل البايات و مصادرة ثرواتهم، حيث قام في نوفمبر 1800م بعزل حاكم العمالة الغربية عثمان باي بن محمّد الكبير، بناءً على مؤامرة حرّكها نفطالي بمعيّة الخزناجي مصطفى قازدعلي و محمّد الرقيق - عمّ الباي - الّذي كان يشغل منصب قائد فليتة[2]، ليس لشيء إلاّ للاستيلاء على الثروة الضخمة الّتي ورث القسم الأكبر منها عن أبيه[3]. و بعد قرابة ثلاثة أشهر، جاء الدور على باي التيطري حسن بن خليل الّذي عزل و صودرت أمواله هو الآخر[4].

في عهد هذا الداي الضعيف، أدّى التذبذب الّذي ميّز سياسة الإيالة الخارجية، بفعل الميل - بناءً على اعتبارات مالية - لفرنسا على حساب روابط الولاء و التبعية للدولة العثمانية، علاوةً على تكابر اليهودي نفطالي بتدخّلاته دون مواربة - حتّى بات يلقّب بـ"ملك الجزائر" -[5]، إلى تململ متزايد في أوساط الإنكشارية ؛ و كان هذا التململ يبلغ ذروته عندما تتأزّم الأوضاع الداخلية، و يتترجم بتحرّك فئام منها

انظر أيضًا : زهرة، المرجع السابق، ص. 54.

- de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 281.

1. Plantet, **Correspondance des deys…**, Op. cit., T. 2, pp. 500-507.

كمثال على ذلك، يكفي أن نستشهد بهذا المقطع من الرسالة المذكورة : "**لمّا رفضتم أن ترسلوا إليّ المائتي ألف قرش الّتي كنت طلبتها تعويضًا على الخسائر الّتي تكبّدتها بسببكم، وفقًا لما تعهّد به القائم بالأعمال باسمكم ؛ و سواء دفعتم لي هذا المبلغ أو لم تدفعوه، فإنّنا سنبقى مع ذلك أصدقاء.**" :

- Id., p. 506.

انظر أيضًا : قنان، **معاهدات…**، المرجع السابق، ص ص. 236-241 ؛ زهرة، المرجع السابق، ص ص. 56-61 ؛ بن صحراوي، المرجع السابق، ص ص. 155-156.

- de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 281 ; Devoulx, **Le Raïs…**, Op. cit., p. 70.

2. فليتة : قبائل عربية تقطن بنواحي بلدتي غليزان و منداس في الغرب الجزائري. انظر :

- Walsin Esterhazy, **Notice historique sur le maghzen d'Oran**, Typographie de Perrier, Oran, 1849, p. 127.

3. Féraud, « **Éphémérides…** », Op. cit., pp. 314-315 ; Berbrugger, « **La régence…** », Op. cit., 1872, pp. 17-19.

- الزهّار، المصدر السابق، ص. 83 ؛ المزاري، المصدر السابق، ج. 1، ص. 299.

4. Féraud, Ibid., pp. 306-307.

و رغم كلّ ذلك، تنبغي الإشارة إلى أنّ الفضيلة الّتي تميّز بها هذا الداي عن سلفه هو أنّه كان أقلّ طمعًا نسبيًا، حيث كان لا يهتمّ بالاستيلاء على العقارات، بل كان نصب عينيه المنقولات القيّمة من أموال و مجوهرات و أغراض ثمينة، كما أنّه لم يكن سفّاكًا للدماء، كون أغلب عمليات العزل كانت غير مبرّرة سياسيًا و مبنية على إشاعات و ادّعاءات باطلة.

5. العربي، المرجع السابق، ص. 61.

للقيام بمحاولات انقلاب على الحكم القائم. و وقعت أولى تلك المحاولات في 18 سبتمبر 1801م بقيادة قائد بوغني و أحد الخوجات، اللّذان تسلّلا رفقة حوالي عشرة إنكشاريين لدار الإمارة مغتنمين غياب الداي و أعضاء الديوان لأداء صلاة الجمعة في جامع السيّدة المجاور. و حالما عُلم بالحادث، سلّح الآغا عددًا من الجنود من خزانة بيت المال و أمرهم بإطلاق النار على المتمرّدين من أعلى مئذنة الجامع إلهاءً، فيما تولّت زمرة أخرى بإمرة خوجة الخيل نقب حائط القصر في موضعين و تمكّنت من خلالهما من مباغتة قائد بوغني و رفاقه ؛ هذا الأخير - لإدراكه بأنّ مسعاه باء بالفشل - حاول استمالة مهاجميه من الإنكشارية عبثًا صائحًا بأنّه سيمنح الجميع ثمان صايمات زيادة في العلوفات و الخبز الأبيض - عوض الخبز الأسمر الخشن الّذي كانوا يتلقونه-، و إمكانية الانتقام من اليهود المتنفّذين بنهبهم. و بعد أن كافأ مناصريه، أمر الداي مصطفى باشا بإعدام المتورّطين الّذين قُبض عليهم أحياء، و هدأت الأمور إلى حين[1].

و كانت ثانيها عبارة عن محاولة اغتيال خطّطت لها شرذمة من العسكر : ففي مساء 21 مارس 1804م، انتهزت وجود الداي في مقلع الحجارة (طاش معدنى) بفحص باب الوادي حيث كان يتابع تقدّم أشغال بناء برج، و قامت بمهاجمته بالتواطؤ مع بعض البنّائين الأتراك ؛ لكنّه أصيب بجراح طفيفة فقط و أفلت من الموت بأعجوبة بعد أن هبّ الحجّارون لنجدته، و قتلوا اثنين من المهاجمين[2].

---

1. الزهّار، المصدر السابق، ص ص. 80-81.

- Féraud, « **Éphémérides…** », Op. cit., pp. 315-317.

انظر أيضًا :

- Mercier, **Histoire de l'Afrique**…, Op. cit., p. 453.

نرجّح أن تكون المحاولة الانقلابية جاءت على خلفية ثورة فليسة الثالثة، التّي اندلعت في عهد الداي بابا حسن عقب إعدام شيخ قبائل فليسة الحوسين(كذا) بن زعموم، دون وجه حقّ بأمر من الخزناجي - الّذي كان وقتئذٍ يشغل منصب الآغا - مصطفى بن محمّد. و قد تعرّضت في مرحلة أولى النقاط العسكرية (مثل حامية برج بوغني) لهجمات الثوّار، و كذا الطريق السلطاني الشرقي المحاذي لجبال القبائل ؛ و تراجع نطاق النفوذ العثماني في تخوم بلاد القبائل تباعًا، بالأخصّ بعد أن أخفقت القوّات العسكرية تمامًا في إخماد الثورة، حيث تكبّدت عناءً و خسائر في المواجهات العنيفة الّتي جمعتها مع القبائليين الأشداء. و تبرز لنا الاستراتيجية المتبّعة تخوّف أصحاب القرار - أي الداي و خزناجيّه - من ردود فعل العناصر التركية في صفوف الإنكشارية، إذ تمّ الاعتماد بشكل كبير، إلى جانب القوّات المخزنية، على العناصر الكرغلية الطيّعة في الأوجاق.

و قد لمسنا ذلك بعد تسجيلنا بالتحديد لـ 174 عملية فرار لإنكشاريين جميعهم من الزواتنة من محلّة صغيرة كانت تنشط على خطّ المواجهة بقيادة سيباو أواخر 1800م و أوائل العام الّذي تلاه ؛ و تجدر الإشارة إلى أنّه لم تتخذّ ضدّهم التدابير العقابية المعتادة (الطرد)، بل خفّفت - تهدئةً لخواطر زملائهم - إلى إسقاط راتبين فقط (و هي على وجه التقريب مدّة بقائهم فارّين). و الدليل على ارتباط المحاولة المذكورة بالثورة هو مسارعة الداي مباشرةً بعد فشل الانقلاب إلى التفاوض مع شيوخ فليسة حيث منحهم بغرض المهادنة عدّة ترضيات كإسقاط نصف الضرائب الّتي كانوا يدفعونها بشكل رمزي من قبل : قاسيمي، المرجع السابق، ص ص. 71-72 ؛ **دفتر مواجبات…**، المصدر السابق، رقم 1978 مكرّر.

- Robin, « **Les Oulad…** », Op. cit., pp. 40-45.

2. الزهّار، نفس المصدر السابق، ص. 82 ؛ سامح التر، المرجع السابق، ص. 581 ؛ الزياني، **دليل…**، المصدر السابق، ص ص. 270-271.

- Féraud, **La Calle…**, Op. cit., p. 584 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 283.

و لا نستبعد أن تكون هذه المحاولة الأخيرة مرتبطة بفتنة ابن الأحرش[1] الّتي بدأت تستعر في بايلك الشرق في عام 1803م، و الّتي سيكون لها بالغ الأثر في ضعضعة أركان الإيالة، كما سنرى ذلك من وقائعها و من العواقب الّتي ستتمخّض عنها. و كان هذا المغامر المغربي، لدى عودته من المشرق، قد حظي في تونس باستقبال بايها حمّودة باشا الّذي أكرم نزله، بعد أن استعلم عنه و أدرك الخطورة الّتي قد يمثّلها بشخصيته الخالبة و دهائه ؛ و لم يفوّت فرصة تحريضه للقيام بثورة ضدّ حكّام الجزائر من الأتراك، سعيًا منه إلى إضعافهم و وقف تدخّلاتهم في شؤون إيالته. و بعد أن زوّده بالمال و وعده بتقديم المساعدة الّتي يحتاجها، نقله مركب إلى عنّابة[2]. و من ثمّ، انتقل ابن الأحرش في عملية استطلاعية قادته إلى قسنطينة، حيث عاين تحصينات المدينة و منافذها، قبل أن يتوجّه إلى شرق منطقة القبائل الصغرى

---

1. محمّد بن الأحرش الدرقاوي : هو طرقي مغربي كانت بداية أمره لمّا توقّف في طريقه للحجّ بمصر أيّام حملة نابليون بونابرت، حيث زعم أنّه من أشراف فاس باغيًا بذلك كسب وجاهة في أعين مرافقيه من أجل رفع راية الجهاد ؛ و يبدو أنّه علِم بحركة الحاج الكيلاني المغربي - رغم نسبة هذا الأخير، فإنّ أصله من طرابلس الغرب -، الّذي كان يحارب الفرنسيين بلا هوادة بإقليم البحيرة (الواقع غرب نهر النيل إلى جنوب شرق الإسكندرية) زاعمًا أنّه المهدي. و بعد عمليات محدودة، انتهز "مولاي محمّد" - كما أضحى أتباعه يدعونه - مقتل الكيلاني برصاصة في صدره في أبريل 1799م، كي يدّعي بدوره صفة المهدوية و أنّه جاء بدلاً عن الأوّل، أيّ أنّه وفقًا للمعتقدات الصوفية من البدلاء (و منه جاء تلقيبه بالبودالي). فكثر أتباعه في ظرفٍ قصير حتّى بلغ عددهم أربعة آلاف، بيد أنّه لم يكن منهم سوى خمسمائة رجل مسلّح ؛ و كبر اعتقادهم فيه خصوصًا أنّه أوهمهم أنّ رصاص الكفّار و سيوفهم لا تنال منه ؛ و أدّى استفحال أمره بالنسبة للفرنسيين - بسبب غياب معظم قوّاتهم الّتي كانت وقتئذٍ بفلسطين - إلى تحريكهم قوّة عسكرية كبيرة إلى البحيرة. و سرعان ما توارى المهدي الجديد عن الأنظار بشكلٍ غير شريف، تاركًا الجنود الفرنسيين يفتكون بأهالي عدّة بلدات و قرى في الإقليم فتكًا ذريعًا انتقامًا لقتلاهم. و سيعاود الشريف المغربي الظهور بنفس الشكل خلال ثورة القاهرة الفاشلة الّتي استعرت في شهري مارس و أبريل 1800م، حيث أورد عبد الرحمن بن حسن الجبرتي - الّذي كان شاهدًا حصيفًا للأحداث - صورة جدّ قاتمة بشأنه : "**و فعل ذلك الرجل المغربي أمورًا تنكر عليه لأنّ غالب ما وقع من النهب و قتل من لا يجوز قتله، يكون صدوره منه... ثمّ هو مع ذلك لا يغني شيئًا، بل إذا دهم العدو تلك الجهة الّتي هو فيها، فارقها و انتقل لغيرها، و هكذا كان ديدنه و سبحه... و هكذا حال الفتن تكثر فيها الدجاجلة. و لو أنّ نيّته ممحضة**(كذا) **لخصوص الجهاد لكانت شواهد علانيته أظهر من نار على علم، أو اقتحم – كغيره ممن سمعنا عنهم من المخلصين في الجهاد و في بيع أنفسهم في مرضاة ربّ العباد – لظى الهيجاء، و لم يتعنّت على الفقراء، و لم يجعل همّته في السلب مصروفة، و حال سلوكه عند الناس ليست معروفة. و مهما تكن عند امرئ من خليقة – و إن خالها تخفى على الناس – تعلم و بالجملة... فكان هذا الرجل سببًا في تهدّم أغلب المنازل بالأزبكية** (حي كبير يتوسّط القاهرة)، **و من جملة ما رميت به مصر من البلاء...**" ؛ و رغم ما سبق ذكره، يظهر أنّ الإنكليز عظّموا شأن ذاك الرجل الطمّاح - بعد نزول قوّاتهم أرض مصر لطرد الفرنسيين في سنة 1801م - حيث حسبوه من البذخ الّذي استظهره في الملبس و المركب أميرًا من أمراء فاس و أهدوه بندقية ثلاثية الطلقات مكافأةً على "أعماله الجليلة" ؛ و بعد هزيمتهم للفرنسيين و إجلائهم عن أرض مصر، حملوه مع العشرات من مشايعيه المغاربة على إحدى سفنهم إلى تونس. للمزيد من التفاصيل، انظر : محمّد قنديل البقلي، **المختار من تاريخ الجبرتي**، ط. 2، دار الشعب، د.م.، 1993، ص ص. 307-308، 314، 345 و 352-353 ؛ أحمد حافظ عوض، **نابليون بونابارت في مصر**، كلمات عربية، القاهرة، 2013، ص ص. 334-338 ؛ ناصر الدين سعيدوني، "**ثورة ابن الأحرش بين التمرّد المحلي و الانتفاضة الشعبية**"، في : دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر، ج. 2، م.و.ك.، الجزائر، 1988، ص ص. 169-171.

- Robert Thomas Wilson, **History of the British expedition**, T. 1, C. Roworth, London, 1802, pp. 69-70 & 125.

2. الزهّار، المصدر السابق، ص. 85 ؛ محمّد باشا بن عبد القادر الجزائري، **تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر و أخبار الجزائر**، ج. 1، المطبعة التجارية، الإسكندرية، 1903، ص. 77 ؛ الجيلالي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 295 ؛ سعيدوني، نفس المرجع السابق، ص. 171.

ليبدأ الدعاية لشخصه و الإعداد لثورته، متنقّلاً وسط القبائل المستعصية القاطنة بسلسلة الجبال الممتّدة بين جيجل و القلّ[1].

لإعلاء اسمه بين قبائل تلك البلاد السائبة، ابتاع ذاك المغربي مركبًا من جيجل و خرج يتلصّص به في البحر بدعوة جهاد النصارى، حيث قام في بداية ربيع 1803م بانتهاب ثلاثة قوارب فرنسية بعد أن قتل طواقمها[2] ؛ و كانت تلك القوارب من ضمن عشرات أخرى تنشط في صيد المرجان و التجارة على السواحل الشرقية للإيالة بمقتضى معاهدة الامتيازات. و فور إعلامه بالجرم، سيّر الباي مصطفى إنكليز قوّة عسكرية لمعاقبة مرتكبيه ؛ غير أنّ القبائل ردّوها مهزومة ما إن حاولت التقدّم في أراضيهم. و دعّم هذا النصر موقف ابن الأحرش، و زاد من التفاف الأهالي حوله. و لمّا علم الداي بما حدث على لسان الخليفة علي بن انكليز باي، الّذي قدم إلى الجزائر لدفع الدنوش في أواخر شهر مايو، استاء كثيرًا و راعه أن يبلغ الخبر مسامع الإمبراطور، فاتّخذ قرار عزل الباي، و تولية عثمان باي بن محمّد الكبير بدلاً عنه[3].

أمّا ابن الأحرش، فقد استولى رجاله بالقرب من القالة خلال الأشهر التالية على ستّة قوارب لإيطاليين و فرنسيين، و اقتادوا نحو أربعة و خمسين من طواقمها أسرى إلى معقله أعلى مصبّ وادي الزهور[4] ؛

---

1. D. Luciani, « **Les Ouled-Athia de l'Oued Zhour** », in : R.A. 33, 1889, pp. 301-302 ; A. Romey, « **L'État turc et les pouvoirs religieux en Algérie à la fin du XVIIIe et au début du XIXe siècles** », in : C.M. 41, T. 1, 1990, p. 34.

الملفت للانتباه أنّ تلك المنطقة كانت تمثّل موطن أغلبية أفراد فرقة زواوة المجنّدين من قبل بايات تونس. انظر بهذا الصدد : نبيهة العبيدي، **القوى العسكرية القارّة بتونس و تكاليفها المالية من 1756 إلى 1814م**، دكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة تونس الأولى، 2000، ص. 156.

2. P. Masson, « **À la veille d'une conquête. _ Concessions et compagnies d'Afrique (1800-1830)** », in : B.G.D.H., 1909, p. 70.

انظر أيضًا : - A. Berbrugger, « **Un Chérif Kabile en 1804** », in : R.A. 3, 1858, p. 218.

- Féraud, « **Éphémérides…** », Op. cit., pp. 317-318.

3. الزهّار، المصدر السابق، ص ص. 85-86.

الجدير بالذكر أنّ الداي همّ بقتل مصطفى انكليز و ابنه، لولا تدخّل الوزراء لصالحهم. و على عكس ما ذكرته المصادر، من أنّ الداي اكتفى بنفيهما إلى برّ الترك و أنّ المركب الّذي أقلّهما دفعته الريّاح إلى خليج تونس، حيث طلبا اللجوء من حمّودة باشا، فالواقع أنّ دفتر العلوفات يظهر أنّ الباي المعزول استمرّ في تلقّي راتبه حتّى نهاية سنة 1805م، و هو الوقت الّذي تخيّره للذهاب للحجّ (و في رواية إلى برّ الترك) عن طريق البحر. و المرجّح أنّه قصد حمّودة باي لمّا عرّج مركبه على العاصمة التونسية بنيّة مسبقة، بعد أن حدثت القطيعة بين تونس و الجزائر. هذا الأخير قرّب مصطفى انكليز إليه، و وعده بإعادته لبايلكه : بن العنتري، **فريدة…**، المصدر السابق، ص. 88 ؛ أبو العبّاس أحمد ابن أبي الضياف. **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس و عهد الأمان**، مج. 2، ج. 3، الدار العربية للكتاب، تونس، 1999، ص. 40 ؛ **دفتر مواجبات…**، المصدر السابق، رقم 1978 مكرّر، و. 14 و°. انظر أيضًا : مجهول، **تاريخ بلد…**، المصدر السابق، ص. 63 ؛ رشاد الإمام، **سياسة حمّودة باشا في تونس : 1782-1814**، دكتوراه في الفلسفة، الجامعة الأمريكية، بيروت، 1971، ص. 423 ؛ خليفة حمّاش، **كشّاف وثائق تاريخ الجزائر في الأرشيف الوطني التونسي**، ج. 1، منشورات كلية الآداب و الحضارة الإسلامية - جامعة الأمير عبد القادر -، قسنطينة، 2016، ص. 394.

4. Masson, Ibid. ; Louis Piesse, **Itinéraire historique et descriptif de l'Algérie comprenant le Tell et le Sahara**, Librairie L. Hachette et Cie, Paris, 1862, p. 414.

و بسبب قلّة مشايعي الطريقة الدرقاوية - الّتي ينتسب إليها - في بايلك قسنطينة، فإنّه قام بربط تحالفات مع رجال طرقٍ أخرى من أمثال الرحماني سي عبد الله الزبّوشي[1]، كما راسل الدرقاويين المنتشرين في بايلك الغرب يستمدّهم بالرجال و السلاح، تمهيدًا لإعلان "الجهاد" ضدّ الأتراك.

و رغم المؤشّرات المنذرة بالخطر الوشيك، لم يتّخذ الداي التدابير اللازمة للحيلولة دون التردّي الذريع للأوضاع الأمنية، الّذي سيعرفه الشرق ابتداءً من منتصف سنة 1804م ؛ إذ اكتفى بإرسال عمارة من ثلاثة سفن بقيادة الرايس حميدو لتعقّب مراكب ابن الأحرش و محاولة القبض عليه، لكنّه كان عملاً دون طائل[2]. كما أنّه، عوض أن يدعم عثمان باي بمحلّة قويّة و يطلق يدّه في محاربة الدرقاوي مع كلّ ما يتطلّبه ذلك من مصاريف حرب، أمره بإلقاء القبض في مناطق حكمه على أفراد القبائل الّذين لاذ بهم المذكور، و بالتضييق عليهم ما أمكن و حسب ؛ و ما زاد الطين بلّة أنّه شغله بمحاولة استثارة متاعب لحمّودة باشا جرّاء استنكافه عن إرسال الإتاوات المعهودة[3]، و كذا بالإتيان بالدنوش الكبير إلى الجزائر منتصف مايو من السنة المذكورة، في حين كان يقتضي الوضع بقاءه ببايلكه[4]. و عليه، فإنّ مصطفى باشا يتحمّل- حسب رؤيتنا للأمور - القسم الأكبر من المسؤولية في تفاقم فتنة الدرقاوي.

انظر أيضًا :

- Mercier, **Histoire de l'Afrique**..., Op. cit., p. 457.

للإشارة، يقع وادي الزهور شمال بلدة الميلية، و يبعد مصبّه نحو خمسة و أربعين كيلومتر شرق شمال شرق جيجل.

1. بعد أن حالف سرًّا ابن الأحرش، بدأ الزبّوشي يتنبّأ بقرب حدوث بلايا تفضي إلى نهاية حكم الأتراك للبلاد ؛ و بعد أن تناهت دسائس المذكور إلى أسماع عثمان بن محمّد الكبير المتوليّ حديثًا في قسنطينة، جرّده من الأعطيات و الإعفاء الضريبي و كافّة الامتيازات الّتي كان يستفيد منها من البايلك. عدم قبول الباي ردّ تلك الامتيازات رغم التماسه، جعل هذا الطرقي الرحماني يسعى للانتقام و يؤازر بشدّة الدرقاوي في مسعاه. و لقد كانت منطقة نفوذ الزبوشي تشمل رجّاص و الواد الكبير و المناطق المحيطة (ولاية ميلة حاليًا). للمزيد من المعلومات بشأن الزبوشي، انظر :

- E. Féraud, « **Zebouchi et Osman-Bey**. », in : R.A. 6, 1862, pp. 120-121 ; Mercier, **Histoire de l'Afrique**..., Op. cit., pp. 457-458.

انظر أيضًا : عبد الحكيم مرتاض، **الطرق الصوفية بالجزائر في العهد العثماني (924-1246هـ/1518-1830م). تأثيراتها الثقافية و السياسية**، دكتوراه علوم في التاريخ الحديث و المعاصر، جامعة وهران، 2015، ص ص. 292 و 294.

انظر بخصوص الطريقة الدرقاوية و تعاليمها : المزاري، المصدر السابق، ج. 1، ص ص. 301-303.

- Louis Rinn, **Marabouts et Khouans. Étude sur l'Islam en Algérie**. Adolphe Jourdan, Alger, 1884, pp. 452-457.

انظر بخصوص الطريقة الرحمانية :

- Id., pp. 231-235.

2. سعيدوني، "**ثورة...**"، المرجع السابق، 1988، ص. 172.

- Piesse, **Itinéraire...**, Op. cit., p. 414 ; Berbrugger, « **Un Chérif...** », Op. cit., p. 211.

3. الإمام، المرجع السابق، ص ص. 422-424.

و من ذلك، إرسال عثمان باي رسالة رسمية إلى حمّودة في ربيع 1804م يدّعي فيها تبعية بلاد الجريد - و هي منطقة جنوبية ذات إنتاج وافر من التمر - إلى الجزائر : نفسه. انظر أيضًا : بن العنتري، **فريدة...**، المصدر السابق، ص. 91، ه. 1.

4. الزهّار، المصدر السابق، ص. 86.

هذا الأخير، من أجل توطيد مركزه أكثر بين قبائل الشمال القسنطيني، و حمل المتردّدة منها على الانضمام إليه، كثّف من تصرّفه الدجلي الّذي عرف منتهاه أواخر ربيع 1804م بإعلانه أمام الملأ - على الطريقة التومرتية - أنّه "صاحب الوقت[1]"، مبشّرًا بقرب نهاية حكم الأتراك في الجزائر على يديه.

و بعد أن تدعّم جانبه بوفود عددٍ من الدرقاويين قادمين من بايلك وهران و المغرب الأقصى - و من ضمنهم عبد القادر بن الشريف الكساني[2]، مقدّم الطريقة في غرب البلاد، الّذي جعله ذراعه الأيمن و خليفته[3] -، زحف مطلع الصيف بجموعه على بلدتي جيجل و القلّ اللّتان تمكن من إخضاعهما بسهولة، حيث لم تجد حاميتيْهما من الإنكشارية سبيلاً للنجاة إلاّ بالفرار عن طريق البحر ؛ ثمّ عزم على

---

1. الزياني، **دليل...**، المصدر السابق، ص. 271 ؛ المزاري، المصدر السابق، ج. 1، ص. 299 ؛ محمّد الصالح بن العنتري، **مجاعات قسنطينة**، تحقيق و تقديم رابح بونار، ش.و.ن.ت.، الجزائر، 1974، ص ص. 29-30 ؛ شارل فيرو، **تاريخ جيجلي**، تر. عبد الحميد سرحان، دار الخلدونية، الجزائر، 2010، ص ص. 153-154.

- Berbrugger, « **Un Chérif…** », Op. cit., p. 219 ; Kamel Filali, **L'Algérie mystique. Des marabouts fondateurs aux khwân insurgés XVe-XIXe siècles**, Publisud, Paris, 2002, p. 172.

انظر أيضًا : شمس الدين محمّد بن أحمد الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق و تعليق شعيب الأرنؤوط، ج. 19، مؤسّسة الرسالة، بيروت، 1984، ص. 551 ؛ محمّد أحمد إسماعيل المقدّم، **المهديّ**، ط. 8، الدار العالمية، الإسكندرية، 2004، ص ص. 401-402.

الجدير بالذكر أنّ صاحب الوقت هو أحد الألقاب المتعارف عليها للمهدي المنتظر، الّذي يخرج آخر الزمان، حيث يقوم بالسيف و يزيل الممالك و يقهر كلّ سلطان و يبسط العدل و يميت الجور، كما تنعم الأمّة في عهده نعمة لم تنعمها قطّ، و تخرج الأرض نباتها، و تمطر السماء قطرها، و يعطى المال بغير عدد ؛ و المهدي، في نظر جلّ الطرق الصوفية، معصوم و إليه يوكل الله شؤون الخلق من البشر، و لديه قدرة على التصرّف في أمورهم، يفرج شدّتهم و يخلّصهم ممّا أحاط بهم من البلاء، و يسوق إليهم ما شاء من الخيرات. انظر : معتوق محمّد الأسمر، **المهدي المنتظر. دراسة في نشأة و تطوّر هذه الفكرة في الإسلام منذ منشأها**(كذا) **حتّى عصر ابن خلدون**، أستاذية في التاريخ العربي، الجامعة الأمريكية، بيروت، 1948، ص ص. 161-168 ؛ المقدّم، نفس المرجع السابق، ص ص. 41-42 و ما بعدها ؛ علي محمّد محمّد الصلابي، **نشر الصفحات المطوية من تاريخ الدولة العبيدية الفاطمية**، مكتبة الصحابة، الشارقة، 2007، ص. 50 ؛ الزهّار، المصدر السابق، ص. 92، ه. 50.

- Mouloud Haddad, « **Les maîtres de l'heure. Soufisme et eschatologie en Algérie coloniale (1845-1901)** », in : Revue d'histoire du XXe siècle 41, 2010/2, pp. 19-61.

2. أبو محمّد عبد القادر بن الشريف الكساني، أصله من قبيلة كسانة البربرية بوادي العبد، درس على يد الشيخ محي الدين بن مصطفى في زاويته بالقيطنة قرب معسكر ؛ ثمّ رحل إلى المغرب الأقصى حيث لقي الشيخ العربي الدرقاوي و سلك طريقته. و بعد رجوعه، أضحى مقدّم الطريقة في البلاد، و بدأ لمقته الشديد للأتراك يعدّ للثورة عليهم في حِمى قبائل حميان الغرابة المستعصية (توجد مضاربها بولاية النعامة حاليًا) ؛ و ذلك، بعد أن اتّصل بابن الأحرش، الّذي استعان به و عيّنه خليفةً له في بايلك الغرب : المزاري، المصدر السابق، ج. 1، ص ص. 302-303 ؛ محمّد باشا، المصدر السابق، ص ص. 76-77 ؛ عبد الكريم الفيلالي، **التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير**، ج. 5، شركة ناس للطباعة، القاهرة، 2006، ص. 14، ه. 357.

- A. Delpech, « **Résumé historique sur le soulèvement des Derkaoua de la province d'Oran, d'après la chronique d'El-Mossellem ben Mohamed, bach deftar du bey Hassan, de 1800 à 1813 (hég. 1215 à 1228)** », in : R.A. 18, 1874, pp. 40-41.

3. Walsin Esterhazy, **De la domination turque dans l'ancienne régence d'Alger**, Librairie de Charles Gosselin, Paris, 1840, p. 202 ; Edouard de Neveu, **Les Khouans. Ordres religieux chez les musulmans de l'Algérie**, 2e éd., Imprimerie de A. Guyot, Paris, 1846, p. 170 ; Fey, Op. cit., p. 292.

الاستيلاء على مدينة عنّابة، إلاّ أنّ الزبّوشي ثناه عن الأمر و أشار عليه باستغلال فرصة غياب عثمان باي لدفع الدنوش، كي يشنّ هجومًا على عاصمة البايلك[1].

و سار ابن الأحرش إليها مع أواخر يوليو بعد أن تجمّع له ما بين عشرة آلاف و اثني عشر ألف من مقاتلي القبائل و أتباع الطرقيين، الّذين وعدهم بأن يستبيح لهم المدينة للسلب و السبي[2] ؛ و لمّا وصلوا قرب قسنطينة ناوشهم الحاج أحمد بن الأبيض خليفة الباي بقوّة تتكوّن من 700 فارس من المخزن و 300 راجل من الإنكشارية و الزبنطوط و المتطوّعة، قبل أن يتراجع داخل المدينة أمام التفوّق العددي للمهاجمين، الّتي انشغلت حشودهم الفوضوية بنهب الأحواز. و في الأثناء، تحضّر سكّان المدينة للمقاومة بقيادة شيخ الإسلام أحمد بن الفكّون، حيث قصفوا تلك الحشود بالمدافع و أجبروهم على التراجع وراء مرمى النيران ؛ و انتهز ابن الأبيض قدوم شيخ فرجيوة على رأس المئات من فرسان الدايرة[3] لينسق معه هجومًا أرغم مشايعي ابن الأحرش على التقهقر، بعدما تكبّدوا خسائر معتبرة. رغم ذلك، فإنّ المغربي لم ييأس و حاول أن يتسلّل مع عددٍ من رجاله تحت جنح الليل كي يقتحموا أحد أبواب المدينة، فيما كمن البقية على مقربة، لكنّه أصيب بجرح بليغ في ساقه. و حينذاك خارت عزائم المهاجمين[4]، و عجّلوا المسير منسحبين إلى معاقلهم الجبلية ؛ بيد أنّ عثمان باي، الّذي كان في نواحي سطيف يجمع

---

1. أرزقي شويتام، **نهاية الحكم العثماني في الجزائر و عوامل انهياره 1800-1830م**، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2011، ص ص. 94-95 ؛ **دفتر مواجبات...**، المصدر السابق، رقم 1978 مكرّر، و. 117 ظ.

- L.-Ch. Féraud, « **Les Chérifs kabyles de 1804 à 1809 dans la province de Constantine** », in : R.A. 13, 1869, p. 217 ; Féraud, « **Zebouchi...** », Op. cit., pp. 121-122 ; S. « **Notes historiques sur la province de Constantine** », in : R.A. 39, 1895, pp. 165 & 168.

2. بن العنتري، **مجاعات...**، المصدر السابق، ص. 30 ؛ مجهول، **تاريخ بلد...**، المصدر السابق، ص. 64 ؛ مرتاض، المرجع السابق، ص ص. 296-297. - de Neveu, Op. cit., p. 163 ; Berbrugger, « **Un Chérif...** », Op. cit., p. 212.

نستشفّ مدى بؤس و ضيق أفق سكّان تلك المناطق الممتنعة الّذين اتّبعوا ذلك الدعي، لأنّه منّاهم بتحسين أوضاعهم... بنهب مواطنيهم.

3. انظر بخصوص فرسان الدايرة : بن العنتري، **فريدة...**، المصدر السابق، ص. 37.

4. الجدير بالتنويه أنّ الدرقاوي افترى على مشايعيه القبائليين بأنّه أصيب خلال قتاله للفرنسيين برصاصة في صدره تمامًا، و لم تضرّه شيئًا (في إشارة إلى إصابة المهدي الكيلاني القاتلة، الّذي زعم أتباعه - أي الدرقاوي - للمصريين البسطاء بادئ الأمر أنّه لم يمت ليسوّغوا لزعيمهم الحلول محلّه في وقت لاحق بادعاء البدل) : عوض، المرجع السابق، ص ص. 334-336.

و كان قد أوهمهم كذلك بسهولة الاستيلاء على المدينة "**قائلاً لهم، أي للقبائل الّذين جاءوا معه: حين تصلوا إلى البلد، نضع** (كذا) **يدي على بابها ينفتح من غير مفتاح**"، مضيفًا أنّ "**بارود أهل قسنطينة يرجع ماء في مكاحلهم و مدافعهم**" : مجهول، **تاريخ بلد...**، المصدر السابق، ص. 64.

انظر أيضًا : بن العطّار، المصدر السابق، ص. 111 ؛ فيرو، **تاريخ...**، المرجع السابق، ص. 154 ؛ مرتاض، نفس المرجع السابق، ص. 297.

و تجدر الإشارة إلى أنّ هذه العتاهة الأخيرة تواترت لدى جلّ أدعياء المهدوية من رجال الطرق الصوفية، الّذين رفعوا راية الجهاد ضدّ المحتلّ الفرنسي خلال القرن التاسع عشر. انظر في هذا الصدد : محمّد غالم، "**ظاهرة المهدي المنتظر في المقاومة الجزائرية خلال القرن التاسع عشر و مطلع القرن العشرين**"، في : إنسانيات 11، 2000، ص ص. 13-14. - Haddad, Op. cit., p. 56.

العشور، علم بحركة جموع القبائل و هرع على رأس فرسانه ليعترض سبيلهم، حيث انقضّ على ساقتهم في المكان المسمّى بوقصيبة، على وادي القطن شمال غرب ميلة، و كبّدهم خسائر معتبرة[1].

إثر عودة الباي إلى قسنطينة، راسل الداي يخبره بما وقع ؛ فردّ عليه مصطفى باشا متوّعدًا : "**لقد جعلتك بايًا على مقاطعة** [قسنطينة]، **الّتي على أراضيها ظهر الشريف ؛ فمن الواجب عليك أن تسير بشخصك ضدّ هذا المتمرّد، و أن تنتقم منه انتقامًا مدوّيًا. طارده بلا هوادة، و لا تتوقّف ما لم تحزّ رأسه أو تطرده من إقليمك**"[2]. و عليه، جهّز الباي عثمان قوّة قيل أنّ تعدادها بلغ 4000 من مشاة قوّات الإنكشارية و الزواوة و الزبنطوط[3] و 3500 فارس من القبائل المخزنية، و حمل معه أربعة مدافع ميدان ؛ و في أواخر سبتمبر، خرج من قسنطينة متّجهًا على مراحل إلى وادي الزهور[4].

أقام الباي معسكره بمنبسط الوادي الكبير - شمال غرب الميلية -، المحاط بتضاريس قليلة الارتفاع نسبيًا ؛ و باشرت قوّاته انطلاقًا من ذلك الموقع تحرّكها ضدّ القبائل القريبة، الّتي سارعت إلى طلب الأمان و الإذعان ظاهريًا. فلقد عرف ابن الأحرش و القبائل المنضوية تحت رايته أنّ المعركة ستكون عسيرة عليهم في مثل ذاك الميدان ؛ و لذلك تمّ تدبّر أمر اجتذاب قوّات الباي بالخديعة إلى موقع أكثر وعورة للإيقاع بها، حيث أوفد مرابط من أتباع الزبّوشي يدعى بن بغريش ليتوسّط للقبائل سهلة المنال لدى عثمان باي. و قد وافق هذا الأخير أن يصفح عنهم شريطة أن يسلّموه المتمهدي المغربي سبب الفتنة[5]. و بعد أن ماطله أربعة أيّام - ريثما أتاح للقبائل إعداد الكمائن -، طلب المرابط من الباي أن

---

1. فيرو، **تاريخ...**، المرجع السابق، ص ص. 154-156 ؛ مرتاض، المرجع السابق، ص. 298. - Féraud, "**L'Oued...**", Op. cit., p. 203.

2. بن العنتري، **فريدة...**، المصدر السابق، ص. 90. - Vayssettes, Op. cit., 1869, p. 476.

انظر أيضًا : فيرو، نفس المرجع السابق، ص. 156 ؛ زينب جعني، "**ثورة ابن الأحرش في بايلك الشرق (1800-1807)**"، في : عصور الجديدة 18، 2015، ص. 134. - Mercier, **Histoire de Constantine**, Op. cit., p. 314 ; de Neveu, Op. cit., p. 168.

3. بسبب عدم ورود إشارة لمحلّة استثنائية في دفتر العلوفات من جهة و سرعة وصول المدد من القوّات النظامية من جهة أخرى، نرجّح أنّ الداي مصطفى أعاد توجيه محلّة الشرق لدى انتهاء مهمّتها الرئيسية المتمثّلة في إسناد عملية جباية الضرائب. و على اعتبار أنّ المحلّة المذكورة تتكوّن من 60 خباءً من الإنكشارية و 40 آخر من الزواوة - حيث كان يضمّ الخباء الواحد ما بين 11 إلى 16 جنديًا، إضافةً إلى ثلاثة ضبّاط -، فإنّ تعداد قوّات المشاة الّذين خرج بهم عثمان باي يكون في حدود الألفين، إذا أضفنا لهم بضع مئات من الزبنطوط. و إلى جانب فرق الرجّالة و الفرسان المذكورين، كان يوجد مشاة متطوّعون من قسنطينة و قوّات رديفة من فرسان القبائل الحليفة، لكنّها تقلّ عنها أهمّية عدديًا. انظر : **دفتر مواجبات...**، المصدر السابق، رقم 1978 مكرّر.

- Devoulx, **Tachrifat**, Op. cit., pp. 38 & 47-48 ; Mercier, **Histoire de l'Afrique...**, Op. cit., p. 459.

4. فيرو، نفسه ؛ عبّاد، المرجع السابق، ص. 198. - Féraud, Ibid.

5. فيرو، نفس المرجع السابق، ص. 157 ؛ بن العطّار، المصدر السابق، ص. 113. - Id.

كان الباي قد أكّد لموفد القبائل بن بغريش أنّ غرضه بالأساس ليس قتالهم، بل الإمساك بالدرقاوي و كفّ شرّه ؛ هذا الموقف المرن من الباي عثمان يتوافق مع ما ذكره ابن العنتري بشأنه : "**و كان عصمان باي المذكور رجل حزم في أموره و طبعه يكره الترك من أجل ظلمهم، و يحبّ العرب لنصحهم، و كانت سيرته مليحة مع أهل الوطن و البلاد، و حكمه بالعدل و السداد**" : بن العنتري، نفس المصدر السابق، ص. 89.

يرسل معه مفرزة عسكرية للقبض على ابن الأحرش اللائذ بجبال بني فرقان ؛ فأجابه إلى طلبه، و أرسل معه خمسمئة فارس تحت قيادة آغا الدايرة. و بعد أن توّغلت تلك القوّة في الجبال، وقعت في كمين و حوصرت بشكلٍ محكم عدّة أيّام، قبل أن يهرع الباي على رأس قسم من القوّات لنجدة الناجين من أفرادها. لكن عندما أراد هذا الأخير التراجع، وجد أنّ المسلك سدّ بالصخور و جذوع الأشجار، و حيل بينه و بين المحلّة الرئيسية ؛ و ممّا زاد الطين بلّة ارتفاع منسوب الماء بفعل السدّ، فساخت أقدام الخيول في الأوحال بينما أطبقت القبائل من الأعالي على الجنود بوابلٍ من الرصاص و الحجارة. و قتل الباي خلال ذلك مع عدد كبير من جنوده، فيما فرّ الباقون في اتجاهات شتّى محاولين النجاة، تاركين أسلحتهم وراءهم. و لمّا بلغ جنود المحلّة المعسكرين على ضفّة الوادي الكبير نبأ مقتل الباي اختلّ نظامهم، و لاذوا بالفرار مشتّتين ؛ فاستولى الثوّار على عتاد المحلّة، كما غنموا كلّ الأموال الّتي حملها الباي معه[1].

و لقد كانت معظم الخسائر، الّتي نقدّرها بنحو ألفي قتيل في صفوف القوّات البايلكية، و بالأخصّ الخيّالة المخزنية ؛ أمّا القتلى من الإنكشارية، فلم يتعدّى عددهم الثلاثمائة على أقصى تقدير[2]. و رغم أنّ النظام العثماني تعرّض لهزائم أخطر و أكثر فداحة في الخسائر من تلك الهزيمة، الّتي اشتهرت خطأً بواقعة وادي الزهور، إلاّ أنّه كان لها وقعٌ جسيم في بايلك قسنطينة بفعل الظرف الحرج الّذي حدثت فيه، إذ

و من جهة أخرى، يذكر حمدان بن عثمان خوجة أنّ الباي "**عمل على الاتّفاق مع قادة القبائل ؛ فوعدهم بهبات كبيرة لو أنّهم وافقوا على التخلّي عن رئيس المشوّشين و خانوا قضيته. و لكنّه فشل في محاولاته و ذهبت مجهوداته أدراج الرياح.**" : حمدان بن عثمان خوجة، **المرآة**، تقديم و ترجمة محمّد العربي الزبيري، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007، ص. 168.

1. للمزيد من التفاصيل، انظر : بن العطّار، المصدر السابق، ص ص. 113-114 ؛ بن العنتري، **مجاعات...**، المصدر السابق، ص ص.32-33 ؛ فيرو، **تاريخ...**، المرجع السابق، ص ص. 157-162 ؛ شويتام، **نهاية...**، المرجع السابق، ص. 96 ؛ عبّاد، المرجع السابق، ص. 199 ؛ سعيدوني، "**ثورة...**"، المرجع السابق، 1988، ص ص. 176-180.

- Féraud, "**L'Oued…**", Op. cit., pp. 203-205 ; Féraud, "**Zebouchi…**", Op. cit., pp. 122-123 ; de Neveu, Op. cit., pp. 168-169 ; Mercier, **Histoire de l'Afrique…**, Op. cit., pp. 459-460 ; Mercier, **Histoire de Constantine**, Op. cit., pp. 314-317.

بغضّ النظر عن المخطّط الغادر الّذي تعرّض له، فإنّ الباي عثمان ارتكب عدّة أخطاء قاتلة خلال حملته، و كان أوّلها أنّه جزّأ قوّاته إلى ثلاثة أجزاء عازها عاملي التنسيق و المتابعة، و ثانيها الائتمان المفرط في عدو مستعصٍ لا تؤمن غوائله، و كان الأجدر في وضعيته المطالبة برهائن كضمانات، و آخرها اعتماده أنفةً بشكل رئيسي على قوّة الخيّالة غير الملائمة للتحرّك في المناطق الوعرة و الضيّقة، و ذلك دون فرق الإنكشارية و الزواوة، رغم أنّها متمرّسة على ذاك الميدان القتالي.

2. ذكر فيرو بخصوص خسائر المحلّة مع بعض المبالغة أنّه "**هلك أكثر من ألفي تركي، و عددٌ أكثر اعتبارًا من الفرسان العرب المساعدين في هذه النكبة**"، فيما أورد بربروگر أنّ مع الباي و كاتبيه "**هلك أكثر من خمسمائة تركي، دون حسبان الفرسان و غيرهم**". و بتفحّصنا لدفتر المواجبات، توصّلنا إلى انحصار قتلى الإنكشارية بالرقم المذكور أعلاه ؛ و عليه، افترضنا بناءًا على ما سبق أنّ العدد المتبقي من الضحايا "الأتراك" - أي حوالي المئتين - هم من الزبنطوط و صبايحية الباي، و هذا ما يجعلنا نرجّح أنّ تعداد القتلى من فرسان المخزن و الزواوة يربو عن ألف و خمسمائة : فيرو، نفس المرجع السابق، ص. 162 ؛ مجهول، **تاريخ بلد...**، المصدر السابق، ص. 67 ؛ **دفتر مواجبات...**، المصدر السابق، رقم 1978 مكرّر.

- Berbrugger, « **Un Chérif…** », Op. cit., p. 213.

عانت تلك الأنحاء من القحط و غزو الجراد خلال تلك السنة ؛ و يذكر ابن العنتري "**أنّها أحد الأسباب الّتي نشأت عنها المجاعة و قلّة الحبوب من كثرة الهول و اضطراب الرعية بموت الباي و تشتيت أهل محلّته، فإنّ أهل الأعراش قاموا على بعضهم بعضًا بالنهب و الفساد، و من أجل ذلك الاضطراب انعدمت الحراثة... في جهات كثيرة، و انفقدت حبوب الزرع بقيام ذلك الهول، و عزّ إخراجها و قلّ من يأتي بها للأسواق مخافة الطرقات وقتئذٍ. فحصلت للناس شدّة و مجاعة قد أشرف فيها الضعفاء على الهلاك، خصوصًا بعض نواحي القبلة... حتّى صاروا يقتاتون الدم و الميتة، و غير ذلك ممّا لا يباح اقتياته**"[1].

و لمّا بلغ السلطة المركزية بالجزائر في أوائل أكتوبر مقتل الباي عثمان و تشتّت قوّاته، وقع اختيار الداي على قايد الخشنة عبد الله بن إسماعيل التركي ليكون بايًا على قسنطينة، و أرفقه بمحلّة قوية بقيادة آغا الصبايحية الحاج علي، كي لا يفكّر ابن الأحرش في إعادة الهجوم على قسنطينة من جديد[2].

مزهوًّا بانتصاره الساحق على باي قسنطينة، كان الشريف المغربي قد كلّف خليفته و ذراعه الأيمن ابن الشريف الكساني الفليتي بالمضي غربًا إلى منطقة نفوذه ليقوم بالتحضير للثورة على باي وهران مصطفى بن عبد الله العجمي، موكلاً إيّاه أوّلاً مهمّة طلب دعم فعلي من زعيم الزاوية الدرقاوية الأمّ بالمغرب الأقصى محمّد العربي البوبريحي[3] ؛ كما طلب منه بلا أدنى شكّ كذلك تفعيل خطوط الإمداد عبر بايلك وهران، عند سنوح الوقت، لإسعافه بدمٍّ جديد[4].

---

1. بن العنتري، **مجاعات...**، المصدر السابق، ص ص. 33-34. انظر أيضًا : - S., Op. cit., pp. 165 & 168.

من جهته، وصف مسلم بن عبد القادر الآثار الناجمة عن ثورة الدرقاويين بقوله : "**... و ما من موضع تمرّ به تلك الجموع المفسدة إلاّ تركته أوحش من قفرة و أغبر من سبخة، و كان ذلك الوقت وقت حصاد...**" : مسلم بن عبد القادر الوهراني، **تاريخ بايات وهران المتأخر أو خاتمة أنيس الغريب و المسافر**، ش.و.ن.ت.، الجزائر، 1974، ص ص. 71-72.

انظر أيضًا : غطّاس، "**أوضاع...**"، المرجع السابق، ص ص. 362-363 ؛ محمّد الزين، "**نظرة على الأحوال الصحّية بالجزائر العثمانية في أواخر عهد الدايات**"، في : م.و.ب.د. 17، 2012، ص. 130. - Merouche, **Monnaies...**, Op. cit., pp. 115-117.

2. بن العنتري، **فريدة...**، المصدر السابق، ص. 91 ؛ مجهول، **تاريخ بلد...**، المصدر السابق، ص. 68 ؛ شويتام، **نهاية...**، المرجع السابق، ص. 96. انظر أيضًا : **دفتر مواجبات...**، المصدر السابق، رقم 1978 مكرّر، و. 117 ظ. - Berbrugger, « **Un Chérif...** », Op. cit., p. 213.

3. أبو حامد محمّد العربي المشهور بالدرقاوي، أصله من قبيلة بني زروال البربرية بنواحي فاس، درس الطريقة بفاس على الشيخ علي بن عبد الرحمن الجمل نحو 1193هـ (الموافق لـ 1779م) ؛ و بعد أن توفي شيخه، بنى زاوية جديدة حملت اسمه في بوبريج بمضارب قبيلته. كان مقرّبًا من السلطان مولاي سليمان، قبل أن يناصبه العداء و يسجنه أزيد من سنتين، بسبب تمرّده عليه خلال فتنة فاس. توفي في سنة 1238هـ/ 1823م : محمّد البشير بن عبد الله الفاسي الفهري، **قبيلة بني زروال. مظاهر حياتها الثقافيّة و الاجتماعيّة و الاقتصاديّة**، منشورات جمعية علوم الإنسان، الرباط، 1962، ص ص. 37-46 ؛ مرتاض، المرجع السابق، ص. 53 ؛ محمّد المنصور، **المغرب قبل الاستعمار. المجتمع و الدولة و الدين، 1792-1822**، ترجمه عن الإنجليزية محمّد حبيدة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2006، ص ص. 284-285 و 330.

انظر أيضًا : المزاري، المصدر السابق، ج. 1، ص. 301.

4. Delpech, Op. cit., p. 41 ; de Neveu, Op. cit., p. 170.

من جهته، استطاع عبد الله باي، بفضل صلات الودّ و المصاهرة الّتي ربطته بالزعامات القبلية بالبايلك و حسن تدبيره، من إعادة تنظيم القوّات المخزنية في ظرف قياسي ؛ و من ثمّ، خرج في أواخر ديسمبر يتعقّب ابن الأحرش لدى إعلامه من قبل الجواسيس الّذين بثّهم بتحرّكه جنوب غرب ميلة. و قد تمكّن بالفعل من هزيمته و تبديد أنصاره في شهر يناير 1805م[1].

و بعد عشرة أشهر من الجهود الحربية المضنية و التنقّل الدائم لفرق الجيش، وفّق الباي في إعادة بسط الأمن و النظام في ربوع البايلك، بالموازاة مع كسر شوكة ابن الأحرش الّذي توارى عن الأنظار مؤقتًا في المنطقة الجبلية الواقعة بين جيجل و بجاية[2] ؛ و ذلك بعد أن انفضّ عنه معظم أتباعه، حيث تخلّى المرابط الزبّوشي عن مناصرته قبل أن تتفطّن السلطة لدوره في الفتنة، و كذلك فعلت قبائل وادي الزهور الّتي احتضنته أوّل أمره ؛ لكن كان يحذوها في ذلك تشكيك العديد من أفرادها في قداسته المزعومة، و اعتقادهم أنّ الله عاقبهم على عصيانهم و غدرهم بالجوع و النوائب[3].

رغم اكتشاف أمر وجود عددٍ لا يستهان به من الغرباء عن إقليم قسنطينة بين أتباع ابن الأحرش الّذين أسروا أو قتلوا، تبيّن أنّهم وافدون من بايلك وهران أو المغرب الأقصى، إلاّ أنّ العناصر الدرقاوية

انظر أيضًا : الزياني، **دليل...**، المصدر السابق، ص ص. 272-273 ؛ المزاري، نفس المصدر السابق، ص. 302.

1. الزهّار، المصدر السابق، ص ص. 86-87 ؛ خنّوف علي، **تاريخ منطقة جيجل قديمًا و حديثًا**، منشورات الأنيس، الجزائر، 2011، ص. 76 ؛ شويتام، **نهاية...**، المرجع السابق، ص ص. 76-77.

2. فيرو، **تاريخ...**، المرجع السابق، ص. 167 ؛ سعيدوني، "**ثورة...**"، المرجع السابق، 1988، ص. 181.

و في ذات الوقت تقريبًا، أرسل مصطفى باشا القبطان رايس حميدو على رأس عمارة من أربعة سفن إلى جيجل، الّتي كانت بيد أفراد من القبائل الموالية لابن الأحرش، حيث قام بغرض الضغط عليهم بقصف حواليها، دون أن يخلّف خسائر تذكر. و قد تجنّب القبطان المذكور قصف المدينة مباشرةً لعلمه جيّدًا أنّ سكّانها مغلوبون على أمرهم، لكنّه تمكّن من إحراق مراكب ابن الأحرش بالمرسى ؛ و هذا ما جعل هذا الأخير بلا شكّ يحجم عن الالتجاء إليها :

- Mercier, **Histoire de Constantine**, Op. cit., p. 318 ; Féraud, « **Les Chérifs...** », Op. cit., p. 221.

انظر أيضًا : مرتاض، المرجع السابق، ص. 295.

3. بن العنتري، **فريدة...**، المصدر السابق، ص. 93 ؛ خنّوف، نفس المرجع السابق، ص ص. 76-77 ؛ مرتاض، نفس المرجع السابق، ص. 300. انظر أيضًا : فيرو، نفس المرجع السابق، ص ص. 165 و 167. - Féraud, "**Zebouchi...**", Op. cit., p. 126.

يمكن أن نذكر من بين الأمور الّتي نفّرت قبائل وادي الزهور عن المتمهدي المغربي، تبرّمهم من إقامة العديد من أتباعه الغرباء بين ظهرانيهم في وقت عزّت فيه الأقوات، علاوةً على تفطّنهم لبهتانه و تصرّفاته الدجلية ؛ كما أورد المترجم العسكري فيرو أيضًا أمثلة عن تصرّفاته العسفية، و من ضمنها قيامه باختطاف إحدى فتيات المنطقة الّتي رفض والديها تزويجه إيّاها، و قتله غيلةً للقاضي سي محمّد القشي الّذي ألّب الأهالي ضدّه :

- خنّوف، نفسه ؛ عبّاد، المرجع السابق، ص. 197. - Féraud, « **Les Chérifs...** », Ibid., pp. 218-219 & 222.

الجدير بالتنويه أنّ فرق الجيش الّتي جابت البايلك من ديسمبر 1804 إلى سبتمبر 1805م لم تقم بجباية الضرائب، حيث أعفى عبد الله باي الرعية - بالنظر إلى الأوضاع الصحّية و الأمنية المتردية - من المطالب المخزنية، على الرغم من فراغ خزينة البايلك : بن العنتري، **مجاعات...**، المصدر السابق، ص ص. 42-43 ؛ مجهول، **تاريخ بلد...**، المصدر السابق، ص ص. 68-69.

في البايلك المذكور آنفًا تمكّنوا من التمويه على تحرّكاتهم المشبوهة و أنشطتهم المشوِّشة عن نظر رجال المخزن الوهراني[1] ؛ و هذا ما يفسّر عدم اتّخاذ السلطات العثمانية وقتئذٍ - على ما يبدو - لأيّة تدابير ردعية أو تحرّكها للتضييق على أتباع الطريقة المغربية و من يشتبه في انتسابه لها[2].

و بعد أن تلقّى مباركة شيخه المغربي لما يعتزم القيام به، كان عبد القادر بن الشريف الكساني قد أخذ يستعدّ بهمّة ليس لثورة، بل لحرب مقدّسة حقيقية ضدّ "الأتراك" ؛ و ذلك في حِمى القبائل المستعصية، الّتي توجد مضاربها على مشارف الصحراء بجنوب غرب البايلك. و بعد أن تمهّدت له الأرضية، رفع ابن الشريف راية الجهاد في مايو 1805م ضدّ الأتراك العثمانيين، الّذين كفّرهم محلّلاً دماءهم و أموالهم ؛ و خرج بجموعه يقاتل الموالين لهم - و هم بحسب فكره التكفيري جميع الّذين تردّدوا في الانضمام إليه -، و ينهب أملاكهم[3].

و لمّا بلغت أخباره إلى الباي مصطفى العجمي[4]، أعدّ هذا الأخير ما توفّر له من قوّات و خرج لمواجهته[5] ؛ و لقد باغت ابن الشريف قوّات الباي الّتي كانت تعسكر في ناحية فرطاسة[6] فجر الجمعة

انظر أيضًا فيما يخصّ الإعفاءات الضريبية في الظروف الاستثنائية : - Federmann & Aucapitaine, Op. cit., 1867, p. 218.

1. كمثال عن ذلك، بثّ ابن الشريف أتباعًا له مُدَرقين في شكل مجانين و مجاذيب يردّدون في الأسواق و التجمّعات شعرًا ملحونًا مفاده أنّه لن تقوم للأتراك عمّا قريب قائمة، و أنّهم سيهلكون عن آخرهم ؛ و كان ذلك بمثابة مؤثّر نفسي قوي لجذب الأنصار خلال المرحلة التحضيرية للثورة و بعد اندلاعها : سيدهم، "**مكانة التصوّف في الحياة الاجتماعية و السياسية في العهد العثماني بالجزائر**"، في : م.م.د.ت.ا. 1، 2013، ص. 33. انظر أيضًا : مريخي رشيد، **الجزائر في عهد الداي مصطفى باشا 1212-1220هـ/1798-1805م**، ماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر، جامعة الجزائر 2، 2011، ص ص. 19-20.

2. المزاري، المصدر السابق، ج. 1، ص. 303.

3. الزياني، **دليل...**، المصدر السابق، ص. 273 ؛ محمّد باشا، المصدر السابق، ص. 76.

- Delpech, Op. cit., pp. 41-42 ; Mercier, **Histoire de l'Afrique...**, Op. cit., pp. 462-463.

4. ذكر عثمان خوجة بشأن هذا الباي : "**و من أكبر التجاوزات الّتي وقعت في عهد حكومة الأتراك بالجزائر هو إعطاء منصب الباي لأشخاص بلا مروءة و لا كفاءة. و هكذا عيّن المسمّى مصطفى بايًا على وهران، و كان حظيًا للخزناجي و من صنائعه. و للحصول على ذلك المنصب، كان قد وعد بتقديم مبالغ ضخمة من المال. و لم يكن لذلك الرجل أيّة علاقة بالمشائخ كما أنّه لم يكن يعرف أنحاء تلك المقاطعة. و ميزته الوحيدة تتمثّل في نهب الشعب، و إرسال أسلابه لمجيره...**" : حمدان خوجة، المصدر السابق، ص. 168.

5. لقد خطّط ابن الشريف لزمن خروجه في منتصف شهر مايو بحنكة و دهاء، إذ حينئذٍ تكون محلّة الغرب قد انقسمت إلى محلّتين فرعيتين، إحداها تنشط في المناطق الغربية للبايلك بقيادة الباي و يعاضده قايد فليتة و الأخرى في المناطق الشرقية للبايلك بقيادة خليفة الباي و يعاضده قايد جندل ؛ و تضمّ كلّ واحدة منهما بضع آلافٍ من فرسان المخزن و 40 خباءً من الإنكشارية (أي قرابة 600 جندي). انظر بهذا الصدد :

- محمّد الحبيب العزيزي، **ظاهرة الحكم المتجوّل في بلاد المغرب العربي الحديث : المحلّة التونسية نموذجًا**، دكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2007، ص ص. 105-106. - Devoulx, **Tachrifat**, Op. cit., pp. 47-48.

و ليجبر الباي أن يخرج لملاقاته دون أن يستكمل عديده، هاجم ابن الشريف مضارب القبائل المخزنية مثل فليتة و الصحاري، و عاث فيها فسادًا. انظر : المزاري، نفس المصدر السابق، ص. 304.

6. فرطاسة (وادي الأبطال حاليًا)، تقع عند ملتقى وادي مينا و وادي العبد، على بعد حوالي خمسين كيلومتر شرق معسكر.

آخر يوم من شهر مايو، فدارت عليها الدائرة. و بينما وقع معظم جنوده بين قتيل و أسير، تمكّن مصطفى باي من الفرار إلى معسكر على فرس من دون سرج ؛ و اضطرّ إلى الهروب مجدّدًا اليوم التالي إلى وهران، خوفًا من دنو جموع الثوّار الدرقاويين من المدينة[1].

و لقد استغلّ ابن الشريف انتصاره في تدعيم نفوذه، حيث كتب إلى قبائل وهران و غرب التيطري يدعوها إلى الانضمام إليه للقضاء على حكم الأتراك و مخزنهم، و يمنّيها برفع الضيم و المغارم الواقعة عليهم ؛ و ليربط القول بالفعل، قام بقتل جميع الأتراك و الكراغلة الّذين وقعوا بيده، ابتداءً بأفراد الحامية الإنكشارية الّذين ذُبحوا عن آخرهم، بعد دخوله معسكر أسبوعًا بعد المعركة، كما سبى أطفالهم و نساءهم و استباح أملاكهم ؛ أمّا القوّاد "العرب" و باقي الأعيان، فإنّه اكتفى بسجنهم. و من ثمّ، خرج يوم 11 يونيو من المدينة المذكورة الّتي اتّخذها عاصمة لسلطانه قاصدًا وهران ؛ و ارتكبت جحافله خلال مسيرها الكثير من المظالم، حتّى في حقّ من دخل في طاعته، و لا سيّما القبائل المخزنية الّتي ستتحيّن منئذٍ الفرصة لتردّ له الصاع[2].

من عاصمة البلاد، سارع الداي مصطفى باشا لإرسال الحاج علي آغا الصبايحية العرب على رأس محلّة إلى بايلك الغرب، الّذي انتفضت عدّة مناطق منه - بخاصّة الريفية - بإيعاز من الدرقاوي ضدّ الوجود العثماني، و سادت فيه الفوضى للحدّ الّذي انقطعت معه المواصلات ؛ و لمّا وصل الآغا بمحلّته إلى نواحي وادي شلف، اعترضته القبائل الثائرة و منعته عدّة أيّام من الوصول إلى الماء، فكاد يهلك هو و جنده من العطش، فاستجار بشيخ العطّاف، الّذي منعهم عنه بمقابل مال يدفعه إليهم، فانكفأ على إثر ذلك إلى خميس مليانة معجّلاً المسير و الثائرون في أعقابه، حتّى لحقوه حينما كان ينفذ إلى سهل متيجة قرب واد جر ؛ و دارت في ذلك الموقع معركة مترجّحة بين الطرفين.

بسبب قوّاته المنهكة بسيرها الحثيث يومين دون توقّف، اغتنم الحاج علي آغا عتمة الليل لينسحب باتجاه العاصمة، الّتي وصل أطرافها صباحًا. و لمّا بلغ مصطفى باشا وجود المحلّة الّتي خرجت أواسط يونيو بعين الربط، أرسل من فوره إلى الآغا و ديوان المحلّة يأمرهم بأن يعودوا أدراجهم إلى وجهتهم الأصلية وهران[3].

---

1. الزياني، **دليل...**، المصدر السابق، ص. 273 ؛ المزاري، المصدر السابق، ج. 1، ص ص. 304-305.

- Delpech, Op. cit., pp. 42-43.

2. الزياني، نفس المصدر السابق، ص ص. 274-275 ؛ المزاري، نفس المصدر السابق، ص ص. 306-307.

- Id., pp. 43-44.

3. الزهّار، المصدر السابق، ص. 84 ؛ محمّد باشا، المصدر السابق، ص. 76.

انظر أيضًا : شويتام، **نهاية...**، المرجع السابق، ص. 104 ؛ مريخي، المرجع السابق، ص. 20.

و يذكر الزهّار أنّه ثارت ثائرة الإنكشارية لذلك، و بعثوا للداي يخبرونه : "**إنّنا لا نرجع و أنت لا نحتاجك أميرًا، و إنّما أميرنا الحاج علي آغا**"[1]. احترازًا، أمر مصطفى باشا القپوجية[2] بإغلاق أبواب المدينة، لكنّه وقع في حيرةٍ حيال الخلاص من هذا المأزق، فاستدعى مقدّم اليهود نفطالي بوجناح يستشيره في الأمر ؛ و بعد المشاورة، خلُص إلى أن يرسل للإنكشارية المتمرّدين يعلمهم : "**إن أردتم الرجوع لعدوّكم فذلك أفضل من أن يصل لأبواب البلد، و هذا هو رأي**(كذا) ؛ **و لمّا رأيتم الدخول، فادخلوا، أمّا الأمير الّذي ولّيتم فلا يدخل لبلادي، بل يركب من هنالك البحر و ليرجع إلى برّ الأتراك**"[3].

و دبّ الخلاف إثر ذلك بين أعضاء ديوان المحلّة القائم على ساق، لا سيّما أنّ الحاج علي آغا رفض الدايلك بسبب حصافته و موّدةٍ كانت تربطه بالداي الحاكم ؛ و انتهى بهم الأمر إلى الإذعان، على كرهٍ منهم برؤية الآغا - الّذي خلّصهم بحنكته مرّتين من براثن أعدائهم - ينفى. عندئذٍ، فتحت أبواب مدينة الجزائر لدخول العسكر، و سكنت الأمور ظاهريًا[4].

لقد كانت محصّلة تواصل الجفاف و الاضطرابات الناجمة عن ثورتي الدرقاويين تردّي في الأوضاع الاجتماعية و الاقتصادية، حيث نتج عن ندرة الحبوب ارتفاعٌ فاحش في أسعارها و تفشّي المسغبة[5] ؛ و هذا ما ولّد بالجزائر سخطًا عامًّا لدى السكّان و الإنكشارية على حكومة مصطفى باشا، الّتي حمّلت

---

1. الزهّار، المصدر السابق، ص. 84.

2. انظر بخصوص القپوجية المطلب الأوّل من الفصل السابع.

3. نفسه، ص. 85.

4. نفسه.

انظر أيضًا : **دفتر مواجبات...**، المصدر السابق، رقم 1978 مكرّر، و. 4 ظ.

5. تجدر الإشارة إلى أنّه في الوقت الّذي انتشرت فيه المجاعة في الشرق كان وسط البلاد يعاني هو الآخر - لكن بدرجة أقلّ - من المسغبة و غلاء الأقوات "**للحدّ الّذي بيع فيه صاع القمح في البليدة بسعر سبعة دنانير ذهبية، و كذلك كان الأمر في المدية. و في الجزائر، القمح** [بيع] **بأربعة سلطاني و الشعير بثلاثة، 1209**" : - Féraud, « **Éphémérides…** », Op. cit., p. 308.

و لقد أخطأ فيرو في قراءة التاريخ، إذ الأصحّ هو 1219هـ الموافق لـ 1804-1805م ؛ أمّا السنة 1794م المومأ إليها بالتاريخ الهجري، فكانت سنة خصبة ذات إنتاج وفير من الحبوب كما يشير إلى ذلك مرّوش منوّر : - Merouche, **Monnaies…**, Op. cit., p. 117.

في الواقع، إنّ الضعف غير الاعتيادي لناتج غنائم البحرية الجزائرية سنة 1803م، حيث لم تسجّل سوى غنيمة واحدة، ليس مرّده غياب تسجيل بعض الغنائم كما افترضه دانيال پانزاك، بل يعود أساسًا إلى انشغال سفن الإيالة الحربية باستيراد القمح من ضفاف البحر الأسود بتكليف من الداي لمواجهة نفاذ مخازن البايلك و الأسواق من تلك المادّة، و آثار المسغبة المترتّبة عن ذلك : حمدان خوجة، المصدر السابق، ص. 160 ؛ مرّوش، المرجع السابق، ص. 475.

- Daniel Panzac, **Barbary corsairs. The End of a Legend 1800-1820**, Trad. Victoria Hobson, Brill, Leiden - Boston, 2005, pp. 101-103 ; Devoulx, « **Le registre…** », Op. cit., 1872, pp. 75-76.

مسؤولية خواء المخازن و المطامير عبر أنحاء الإيالة، بسبب دورها خلال السنوات الماضية في وسق كمّيات هائلة من القمح خارج البلاد على يد التجّار اليهود المتنفّذين[1].

و كانت القطرة الّتي أفاضت الكأس بالنسبة للإنكشارية تدخّل نفطالي بوجناح في قضية نفي الحاج علي آغا ؛ فبعد أيّام قلائل من هذه الحادثة، في يوم 28 يونيو عقب صلاة الجمعة، و بينما كان اليهودي جالسًا في محلّ وكيل باي الشرق أطلق عليه أحد اليولداش النار و أصابه إصابة قاتلة بعد أن ناداه : "**خذ يا سلطان الجزائر**". و نستشفّ من ردود الفعل الفورية حالة الضغينة المكبوتة الّتي كانت سائدة في أوساط الإنكشارية، إذ لمّا هرع النوبتجية إلى مكان الحادث بالساحة الخارجية لقصر الجنينة شاهرين يطقاناتهم، صاح فيهم القاتل : "**لقد قتلت اليهودي، فهل أنتم كلابه ؟**"، فأخلوا سبيله من حينه و رجعوا إلى مواقعهم ؛ و توجّه اليولداش إلى ثكنته، حيث حمله زملاؤه على الأكتاف و راحوا يتدافعون من أجل تقبيل اليد الّتي خلّصتهم من العاتي[2].

أمّا مصطفى باشا، فبعد أن بلغته موجة الحبور الّتي سرت في أوساط الجند الإنكشاري و جلّ سكّان المدينة لمقتل بوجناح، اعتراه الخوف من أن يأتي الدور عليه ؛ و بدلاً من أن يأمر بالقبض على الجاني الّذي اغتال مستشاره بالقرب من مقرّ حكمه، فإنّه بعث إليه بسبحته رمزًا للعفو عنه - عفو العاجزين !

عندما رأى الإنكشارية أنّ عموم سكّان المدينة فرحوا بصنيع ذلك اليولداش و أنّ الداي لم يحرّك ساكنًا إزاء ذلك، اتّفقت بعض جماعاتهم في تلك الليلة أن يتخلّصوا في الغداة من كبار التجّار اليهود من "القرانة"[3]، و على رأسهم الإخوة بكري، بنفس الطريقة، فيما قرّرت جماعات أخرى أن ينهبوا مخازن و دور مقدّم اليهود المغتال.

---

1. ذكر أحمد شريف الزهّار في هذا الصدد : "**لقد قدّمنا أنّ الخزناجي كان محبًّا لليهود، و كان كبيرهم ولد بوجناح له صولة كبيرة مع الأمير و الخزناجي، و كانت له مراكب توسق القمح و الشعير من وهران و عنّابة إلى برّ النصارى** (يعني أوروبا) **بإذن الأمير و وزيره الخزناجي، و ذلك قبل ثورة ابن الشريف و ابن الأحرش، و كسب مالاً كثيراً من ذلك الوسق، و كان الناس و الأتراك يخافون شوكته إلى آخر سنة 19.**" : الزهّار، المصدر السابق، ص. 85. انظر أيضًا : حمدان خوجة، المصدر السابق، ص. 160 ؛ غطّاس، "**أوضاع...**"، المرجع السابق، ص. 362.

2. الزهّار، نفس المصدر السابق، ص ص. 87-88 ؛ الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص ص. 251-252 ؛ بن صحراوي، المرجع السابق، ص. 202 ؛ الجيلالي، المرجع السابق، ج. 3، ص ص. 300-301 ؛ العربي، المرجع السابق، ص. 61.

- Eisenbeth, Op. cit., p. 375 ; M.J.M. Haddey, **Le livre d'or des israélites algériens**, Imprimerie typographique de A. Bouyer, Alger, 1871, p. 76 ; de Grammont, **Histoire d'Alger...**, Op. cit., p. 284.

3. اليهود القرانة : نسبة إلى قُرْني - و هي كلمة عبرية حُرّفت على الأرجح من التسمية الإنكليزية "ليقهورن" لمدينة ليفورنة (Livorno) الواقعة بإقليم طوسكانيا شمال إيطاليا - ؛ و هم يهودٌ ذوو أصول إيبرية استفادوا من القانون المديني للبلدة الإيطالية المذكورة الّذي ضمن حرّية المعتقد و اللجوء لأيّ شخص (باستثناء من أدين بجريمة قتل أو تزوير النقود)، و من مينائها الحرّ الّذي أعفيت السلع المتداولة فيه من الرسوم الجمركية. و كوّن اليهود بليفورنة جالية نشطة ربطت علاقات تجارية مكثّفة، لا سيّما مع موانئ الإيالات المغاربية، حيث أنشأوا لهم فروعًا تجارية بها. و لقد قدموا إلى الجزائر في غضون القرن السابع عشر و بداية القرن الثامن عشر، و شكّلوا طبقة مميّزة بثرائها ضمن جماعة اليهود ضمّت

و صبيحة السبت، هاجمت تلك الجماعات العاتية الحارة - و هي المنطقة السكنية الّتي يتركّز فيها اليهود - فيما كان من المفترض أن تكون عمليات اغتيال و نهب محدّدة، لكنّها تحوّلت سريعًا بانضمام مجموعات من غوغاء المدينة إلى أعمال عنف دامية مسّت حتّى اليهود الأهالي[1] ؛ و خلال الثلاث ساعات الّتي دامتها تلك الفوضى، قتل اثنا و أربعون ذمّيًا - بحسب مرثاة يهودية عربية معاصرة للأحداث - و جرح العشرات، كما نهبت لهم دور كثيرة، ناهيك عن الدكاكين و المخازن، الّتي كانت أغلبها مملوكة لنفطالي بوجناح[2]. و بعد أن امتلأت أيادي الإنكشارية بالأسلاب و لم يسعهم الوصول إلى ضحاياهم الرئيسيين المعيّنين[3]، حمل أغلبيتهم معظمها إلى ساحة دار الإمارة، ثمّ قفلوا عائدين إلى ثكناتهم و محال سكناهم ؛ و عندئذٍ فقط، أرسل مصطفى باشا شوّاشه، الّذين استطاعوا إقناع المعاندين بإيقاف أعمال النهب و التقتيل، و ذلك بناءًا على تعهّد الداي بطرد يهود القرانة من الجزائر من جهة و تبيان أن تركة اليهودي المدين للخزينة بأموال طائلة أضحت ملكًا للدولة من جهة أخرى[4].

أسماءً مثل بوجناح، بكري كوهين، كوهين صولال، و ليڤي ڤالنسين (أو ليڤي بلنسي) ؛ و ذلك بفضل قيامهم برعاية المصالح التجارية للحكّام العثمانيين و احتكارهم للتجارة الخارجية مع أوروبا، كوسطاء بادئ الأمر في بيع الأرقاء و الغنائم البحرية، قبل أن يوجّهوا أنظارهم إلى الصادرات الاستراتيجية، الّتي يأتي في مقدّمتها القمح خلال النصف الأخير من القرن الثامن عشر. انظر : تابليت، المرجع السابق، ص ص. 168-169 و 173-174 ؛ بن صحراوي، المرجع السابق، ص ص. 34-37 ؛ العربي، المرجع السابق، ص ص. 38-39 و 41-44 ؛ وداد بيلامي، "**الشركات التجارية اليهودية في إيالة الجزائر (1686-1826)**"، في : م.ت.ع.د.ع. 35، 2007، ص ص. 58-65.

- Haddey, Ibid., pp. 77-85 ; Richard Ayoun, « **Les négociants juifs d'Afrique du Nord et la mer à l'époque Moderne** », in : R.F.H.O.M. 87, 2000, pp. 110-115 ; M. Amine, « **La situation d'Alger vers 1830** », in : R.H.M. 74, 1994, p. 26.

1. اليهود الأهالي، و يعرفون باسم "توشابيم" في اللغة العبرية، هم يهود الجزائر الأصليون مع ما انضاف إليهم خلال القرون السابقة من يهود، تونس، فاس و تلمسان. انظر : محرز، المرجع السابق، ص. 159.

2. Elizabeth Broughton, **Six ans de résidence à Alger, 1806-1812**, trad. de l'anglais par Alain Blondy, Éditions Bouchène, Paris, 2011, pp. 302-307 ; Eisenbeth, Op. cit., p. 376 ; Haddey, Op. cit., p. 77.

- الزهّار، المصدر السابق، ص. 88 ؛ العربي، المرجع السابق، ص. 62 ؛ تابليت، المرجع السابق، ص. 182.

و في حين ذكرت أغلب المراجع أنّ عدد القتلى يربو عن الخمسين، انفرد خوجة مجهول الهوية بالقول أنّ الهياج الشعبي ضدّ اليهود خلّف 107 من القتلى و أزيد من 80 جريحًا :

- Féraud, « **Éphémérides…** », Op. cit., p. 318.

- de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 284. انظر أيضًا : الجيلالي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 301.

3. لقد آوى ابن الحاج علي آغا جوزيف بكري كوهين و ابنه داڤيد مع عائلاتهما، و كذلك فعلت العديد من الأسر الجزائرية بحكم الجيرة ؛ كما ساهم قناصل فرنسا، و إنكلترا و إسبانيا من جانبهم في حماية عدد من اليهود و ممتلكاتهم :

- Eisenbeth, Ibid. ; de Grammont, Ibid.

4. الجيلالي، نفسه ؛ العربي، نفسه.

- Sander Rang, "**Précis analytique de l'histoire d'Alger sous l'occupation turque**", in : Tableau de la situation des établissements français en Algérie en 1844-1845, Imprimerie Royale, Paris, 1846, p. 558 ; Eisenbeth, Ibid., pp. 376-377 ; Haddey, Ibid.

و بينما لم يكن باستطاعة الداي أن يعاقب أيّ انكشاري على تلك الأعمال الفوضوية، فإنّه أطلق يد خزناجيِّه في إنزال أقسى العقوبات على المتورّطين فيها من الأهالي، حيث ألزم هذا الأخير باش شاوش العرب أن يصلب كلّ يوم عشرة ممّن نهبوا اليهود[1] ؛ و هذا ما زاد في ايغار الصدور ضدّ الداي و وزيره، حيث اعتبروا ذاك القصاص تنكيلاً بالمسلمين و انتصارًا منهما لمواليهما.

و جرّاء كلّ ما سبق، تدهورت العلاقات أكثر بين الإنكشارية و الداي، إلى الحدّ الّذي أعجز هذا الأخير الخوف و ترقّب الأحداث عن اتّخاذ قرارات فعّالة بشأن نصرة الباي مصطفى المحاصر في وهران من قبل قوّات ابن الشريف الدرقاوي منذ أواخر شهر يونيو[2]، أو خليفة الباي عدّة بن فريح الّذي كان في ورطة أيضًا ؛ فقد هزمت القبائل الثائرة هذا الأخير قرب مازونة (22 يونيو)، و اضطرّته للانسحاب بفلوله إلى ناحية مستغانم، حيث بقي محصورًا هو الآخر و عجز عن التقدّم نحو وهران، كون الطرق البرّية كلّها بيد الثوّار[3].

و كما يحدث عادةً في مثل تلك الظروف المتأزّمة، كانت هناك ثورة تتحضّر ضدّ الداي مصطفى باشا، و "**لقد جعل الثائرون على رأسهم المسمّى أحمد خوجة الّذي دبّر المؤامرة، و الّذي كان دفترداًر معزولاً**"[4] ؛ و في هذا الصدد، أورد الشريف الزهّار عن المذكور أنّه بعد عزله عن منصبه، "**اشتغل في**

---

1. الزهّار، المصدر السابق، ص. 88 ؛ الجيلالي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 301.

بهذا الخصوص، ذكرت عائشة غطّاس أنّ الداي مصطفى باشا ألقى القبض على محرّكي هذه الثورة و زجّ بهم في السجن، لكنّه سرعان ما أفرج عنهم تحت ضغط زملائهم من الجيش الإنكشاري : غطّاس، "**أوضاع...**"، المرجع السابق، ص. 364، ه. 17.

2. القرار الوحيد الّذي اتّخذه الداي لمواجهة الوضع الداخلي المتدهور ببايلك وهران هو طلب تدخّل المولى سليمان لإنهاء الثورة الدرقاوية، لإدراكه جيّدًا أنّ المغاربة لهم يد فيها ؛ فثورة ابن الشريف، بحسب ما جاء في الرسالة الّتي بعث بها داي الجزائر إلى السلطان المغربي، لم تكن سوى "**ذيل ثعبان يوجد رأسه بالمغرب**". و لم يجد السلطان بدًّا من إرسال شيخ الطريقة مولاي العربي البوبريحي إلى وهران، حيث كان أتباعه من الدرقاويين قائمون على حصارها ؛ و كانت مهمّته في الظاهر إقناع ابن الشريف بوضع حدٍّ لحركته، لكنّها كانت في الواقع بغرض سبر الأوضاع بالغرب الجزائري و تقصّي حظوظ المريد في تصفية الوجود التركي هناك. انظر : المنصور، المرجع السابق، ص. 285 ؛ محمّد المشرفي، **الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية و عدّ بعض مفاخرها غير المتناهية**، دراسة و تحقيق إدريس بوهليلة، ج. 2، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، الرباط، 2005، ص ص. 52-53 ؛ عبد المجيد الصغير، "**حول الطرقية و العلاقات المغربية الجزائرية إبّان السيطرة العثمانية. نصوص أساسية**"، في : مجلّة دار النيابة 5، 1985، ص. 12.

انظر أيضًا : الناصري، المصدر السابق، ج. 8، ص. 110 ؛ الفاسي الفهري، المرجع السابق، ص ص. 44-45 ؛ حركات، المرجع السابق، ج. 3، ص. 151.

3. المزاري، المصدر السابق، ص ص. 306-307 ؛ الزياني، **دليل...**، المصدر السابق، ص. 274 ؛ عبد القادر بلغيث، **الحياة السياسية و الاجتماعية بمدينة وهران خلال العهد العثماني**، ماجستير في تاريخ و حضارة إسلامية، جامعة وهران، 2014، ص. 61.

- Delpech, Op. cit., pp. 44-45 ; Mercier, **Histoire de l'Afrique...**, Op. cit., pp. 463-464.

4. حمدان خوجة، المصدر السابق، ص. 150.

إثارة العسكر خفية، و له أعوان في ذلك، و انحاز بعض العسكر إليه ؛ و وعدهم بأن يزيد لهم في الراتب، و يعطي القمح للمتزوّجين منهم"[1].

و يوم الجمعة 30 أغسطس، انفجر الوضع بمسير نحو ألفي جندي يتقدّمهم آغا الإنكشارية نحو قصر الجنينة، للإطاحة بالداي و حكومته. و سعى مصطفى باشا في وقتٍ أوّل لينقذ رأسه ببذل المال، على أمل أن يسمح له بترك البلاد و التوجّه إلى المشرق ؛ ثمّ اقترح - كسبًا للوقت - الإجازة بنهب ممتلكات اليهود و كذا البلدية (حضر المدينة). و بعد أنّ رفضت جميع عروضه، تسلّل خارج القصر محاولاً اللجوء مع خزناجيِّه قارة مصطفى إلى إحدى المزارات البكطاشية - و هو ضريح ولي داده، الّذي كان يعتبر ملاذًا مصونًا -، لكنّهما وجدا بوّابته مغلقة، فلحق بهما العسكر الثائر في زقاق و قتلهما شرّ قتلة[2].

و بنهاية مصطفى باشا بتلك الطريقة العنيفة للغاية، أسدل الستار على مرحلة ناهزت الخمسين سنة من الاستقرار النسبي لم تعرف خلالها الجزائر جريمة سياسية على ذاك المستوى الرفيع. و في المرحلة التالية، عاود عدم الاستقرار ليميّز الحكم العثماني، فقد كانت نهاية جميع الدايات الّذين حكموا خلال الاثنا عشر سنة الّتي دامتها هي القتل ؛ و ذلك كان ناجم بشكلٍ أساسي إلى رجوع الجند الإنكشاري إلى سالف عهده من العصيان و التمرّد، حيث لن ينفكّ عن التدخّل الواضح في الحياة السياسية ؛ و في هذا الصدد، يفيض كتاب الإخباري الشريف الزهّار بالعبارات الّتي تنمّ عن مدى تعاظم دور الإنكشارية في تعيين الحكّام أو الإطاحة بهم[3].

---

1. الزهّار، المصدر السابق، ص. 89. و أضاف نفس المصدر أنّ أمر المؤامرة خرج عن إطار السرّية، فخشي المتآمرون أن يصل منه خبر للحاكم ؛ و لذلك تحايلوا على الخزناجي بأن أوهموه أنّ الإنكشارية اتّفقوا على تعيينه بدل مصطفى باشا، فكتم الأمر في نفسه طمعًا : نفسه.

بيد أنّ ساندر رانگ يذكر أنّ جمعًا من الإنكشارية كسر باب دار أحمد خوجة في الصبيحة و اقتاده قسرًا إلى ثكنة باب عزّون، حيث انتخب دايًا من قبل ديوان مرتجل ؛ و من ثمّ، انتقل إلى دار السلطان محاطًا بالإنكشارية الّذين اصطفوا حوله : Sander Rang, Op. cit., pp. 559-560. -

2. نفسه ؛ مجهول، **تقييد...**، المصدر السابق، و. 3 و ْ.

انظر أيضًا : **دفتر مواجبات...**، المصدر السابق، رقم 1978 مكرّر، وو. 2 ظ ْ و 4 ظ ْ.

- de Grammont, **Histoire d'Alger...**, Op. cit., p. 284 ; Broughton, Op. cit., p. 20.

و من فرط غيظ أفراد الإنكشارية عليه، فإنّهم مثّلوا بجثته الّتي جرّت في أزقّة المدينة ؛ و من ثمّ، دفن بعضها بمقبرة باب الوادي و البعض الآخر بتربة عبد الرحمن الثعالبي : الجيلالي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 301.

للمزيد من التفاصيل، انظر الرواية الّتي نقلتها ابنة القنصل الإنكليزي عن انكشاري عايش حادثة اغتيال الداي :

- Broughton, Ibid., pp. 245-246.

و رغم أنّ حمدان خوجة أفاد بأنّ المتآمرين، إثر مقتل الداي و الخزناجي، لم يهدأ لهم بال حتّى قتلوا "**معظم أعضاء حاشية الداي و أهمّ أنصاره**" : حمدان خوجة، نفس المصدر السابق، ص. 150 ؛ فإنّنا لم نجد خلال تدقيقنا في دفتر العلوفات المزامن لتلك الأحداث ما يؤيّد ذلك : **دفتر مواجبات...**، المصدر السابق، رقم 1978 مكرّر، وو. 159 و ْ و 337 و ْ.

3. الزهّار، نفس المصدر السابق، ص ص. 98-99، و ما بعدها. انظر أيضًا : غطّاس، **الدولة...**، المرجع السابق، ص. 59.

2. الأوجاق خلال أواخر عهد الدايات (1791-1817م) (2)

2-1. الفترة الثانية (1805-1817م) : فترة التأزّم

2-1-1. عهد الداي أحمد خوجة (1805-1808م)

رفعت الإنكشارية مدبّر التمرّد الحاج أحمد إلى الدايلك بنفس اليوم الّذي اغتيل فيه سلفه[1]. و بعد أن جلس على سدّة الحكم و لبس قفطان الباشوية الّذي أرسله السلطان مؤخّرًا لسلفه، قبّل الحضور من أعضاء الديوان و العلماء و الأعيان يد الحاكم الجديد ؛ ثمّ تقدّم إنكشاري مسنّ، خطيب بإحدى الثكنات، و ألقى خطبة مبايعة أوجز فيها توصيات الأوجاق الّتي ينبغي أن يتّبعها خلال حكمه، و قد جاء فيها ما يلي : "**نحن نولّيك حاكمًا علينا ؛ إنّك ستّتبع خطى بربروسه** (تحريف اسم بابا عرّوج[2]) **العظيم، و ستعيش بتواضع مثله ؛ سلفك الّذي تحكّم فيه اليهود الحقراء، قوّض الدولة و ركّعها بمصاريف غير محسوبة ؛ و عليه، ستمتنع من أخذ المشورة من أيّ يهودي، و لن تسمح بدخول حرم هذه الدار الكريمة إلاّ لمقدّم اليهود الّذي سيأتيك بالجزية ؛ لن تسمح قطّ بخروج القموح من البلاد، إلاّ إذا كانت هناك زيادة على الكفاية، و لمّا يتأكّد لديك وجود ما يكفي قوت شعبك. و أخيرًا، ستتّخذ منهجًا لك عوايد و قوانين الجزائر القديمة**"[3]. و اختتمت مراسيم المبايعة بكلمة موجزة وعد فيها الداي بأنّه سيكون بمثابة الأبّ لجميع الجنود و أفراد الرعية، و عند حسن ظنّهم[4].

و مع أنّ الداي الجديد أوفى سريعًا بجلّ الوعود الّتي قطعها على نفسه خلال التمرّد للإنكشارية، حيث "**ثنّى الراتب لجميع العساكر، و أعطى القمح لجميع العسكر المتزوّجين، صاعين لكلّ واحد مع الراتب**"[5]،

---

1. الجدير بالذكر أنّ أحمد باشا كانت تربطه علاقة نسب مع مصطفى باشا، حيث كان حمو (والد زوجة) الأوّل محمّد البرباري في ذات الوقت سِلف (أخو زوجة) للآخر : Broughton, Op. cit., p. 101. -

انظر أيضًا : نجوى طوبال، **الزواج و واقع المصاهرات بمدينة الجزائر – الفترة العثمانية – 1122-1246هـ/1710-1830م**، دكتوراه علوم في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر 2، 2014، ص ص. 373-374. و كان هذا الداي الجديد في مصاف حملة العَلم (علمدار) ؛ و قد شغل منصب خوجة الباب مطلع سنة 1794م، قبل أن يتولّى دفتردارًا - كما أسلفنا - في عهد مصطفى باشا : **دفتر مواجبات...**، المصدر السابق، رقم 1973، و. 434 و° ؛ رقم 1985 مكرّر، و. 443 ظ°. انظر أيضًا : حمدان خوجة، المصدر السابق، ص. 150 ؛ مجهول، **تقييد...**، المصدر السابق، و. 3 و°.

2. H.-D. de Grammont, « **Le nom de Barberousse dérive-t-il de Baba-Aroudj ?** », in : R.A. 29, 1885, pp. 226-231.

3. Sander Rang, Op. cit., p. 560.

4. Id.

5. الزهّار، المصدر السابق، ص. 95. - Id.

أتاح لنا تفحّص دفتر المواجبات (رقم 1978 مكرّر) ملاحظة أنّه لم تتمّ مضاعفة علوفات الإنكشارية البتّة، كلّ ما في الأمر أنّه رفعت رواتب عددٍ معتبرٍ منهم إلى أقصى حدّ - و هو ما يعرف بالعثمانية بـ"سكسان"، يعني ثمانين (صايمة) - ؛ و ذلك يجعلنا نجزم أنّ أحمد خوجة منح "**لجميع العساكر**" إكرامية تعادل الراتب الّذي يتقاضونه، علمًا أنّ المنح و العلاوات لا نجد لها أثر على الإطلاق في دفاتر الإنكشارية.

إلاّ أنّ الأمن لم يستتب بسرعة، بل استمرّت الاضطرابات بشكل متقطّع قرابة شهر كامل ؛ و قد كان وراء تلك التجاوزات آغا الإنكشارية المتزعّم للتمرّد الّذي أطاح بمصطفى باشا، حيث أخذه الطمع في أن يكون دايًا، فراح يستثير البلبلة سرًّا على أمل أن يستفيد منها في خاتمة المطاف. و حاول استمالة الجنود و بعض سكّان المدينة بأن بذل لهم وعدًا بتنظيم عملية اعتداء جديدة ضدّ حارة اليهود ؛ و لم يكتشف أمره إلاّ مع انتهاء فترة آغويته، فقام الداي بقتله جزاء دسائسه[1].

و فيما يخصّ بايلك وهران، فقد سارع أحمد خوجة إلى إرسال مراكب محمّلة بالمؤونة إلى مستغانم و وهران المحاصرتين، بعد أن شارفت الأرزاق بهما على النفاذ ؛ كما قام بتعيين محمّد المقلّش بن محمّد الكبير بايًا جديدًا في نوفمبر 1805م محلّ مصطفى العجمي، الّذي أثبت قصوره[2].

أمّا أوّل قرار عسكري اتّخذه الداي، فكان تسيير محلّة تحت قيادة آغا الصبايحية ضدّ قبيلة مزاية[3]، الّتي انضمّت إلى صفّ القبائل الثائرة - إذ شاركت في مهاجمة محلّة وهران المتراجعة في يونيو المنصرم - ؛ و لكن بعد أن تعرّضت المحلّة لمقاومة شديدة زادها صعوبةً افلات أفراد القبيلة و اعتصامهم بالمرتفعات الممتنعة و تقاطر قبائل الجوار لمعاضدتهم، فضّل الآغا التراجع أمام عقم الحلّ العسكري و محاولة تسوية الوضع بوساطة مرابط قليعة "سيدي" محي الدين بن سيدي علي بن مبارك[4].

و لكي يتمكّن الداي من الإيفاء بتلك النفقة الطارئة صادر أملاك وزراء مصطفى باشا و مقرّبيه، كما لجأ إلى بيع ما بالخزينة "**من مصوغ و حجر كريم و جوهر**" غير محدّد القيمة بالمزاد العلني ؛ دون أن يمسّ كداسات النقود المخزّنة في خزينة الدولة و المسجّلة قيمتها بعناية في دفاتر الخزناجي، و إلاّ كان سيثير بذلك ضدّه استهجانًا غير محمود العواقب لبعض أفراد الإنكشارية. انظر : الزهّار، نفسه.

- Merouche, **Monnaies…**, Op. cit., p. 191.

1. الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص ص. 252-253. - de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 285.

بينما يوحي دي غرامون أنّ الداي كان يعلم بالمناورات السرّية لحليفه السابق، و أنّه لم يقدم على إعدامه إلاّ بعد أن تبرّم منها، يفيد دفتر العلوفات أنّ المدعو مصطفى بن حسين التركي، الّذي انتمى إلى الجماعة 51 و شغل على الأرجح منصب آغا القمرين خلال التمرّد ضدّ مصطفى باشا، عاش ما لا يقلّ عن أربعة أشهر أخرى بمستغانم - بعد أن صار معزول آغا -، قبل أن يلقى حتفه : **دفتر مواجبات…**، المصدر السابق، رقم 1978 مكرّر، و. 8 و°. انظر أيضًا : - Id.

2. **دفتر مواجبات…**، نفس المصدر السابق، و. 117 ظ°. انظر أيضًا : الزياني، **دليل…**، المصدر السابق، ص. 276.

- Mercier, **Histoire de l'Afrique…**, Op. cit., p. 464 : de Grammont, Ibid., pp. 286-287.

3. قبيلة مزاية أو موزاية البربرية تقع مضاربها بين وادي الشفّة و واد جر، على منحدرات جبل موزاية و سفحه ؛ و كانت بالتالي تتحكّم في منفذي الطريقين السلطانيين المؤدّيين إلى عاصمتي بايلكي التيطري و وهران : ناصر الدين سعيدوني، **الحياة الريفية بإقليم مدينة الجزائر (دار السّلطان) أواخر العهد العثماني (1791-1830)**، طبعة خاصّة، البصائر الجديدة، الجزائر، 2013، ص ص. 656-659.

4. الزهّار، المصدر السابق، ص. 95.

انظر فيما يخصّ شخصية سيدي محي الدين بن سيدي علي بن مبارك و نفوذ أسرته الديني في المنطقة : سعيدوني، نفس المرجع السابق، ص. 483.

جرّاء فشل محلّة الآغا في تأمين منفذ الطريق السلطاني الغربي، اضطرّت المحلّة المكوّنة من حوالي خمسين خباءً - أي ما يقارب 1150 إنكشاري - الّتي خرجت بعد عدّة أسابيع بقيادة محمّد آغا الصبايحية و محمّد باي المقلّش إلى أن تعرّج على شرشال، حيث أقلّتها سفنٌ مباشرةً إلى وهران[1].

فور وصوله إلى المدينة المحاصرة، شرع الباي الجديد في إنزال العتاد و الذخائر الحربية المعتبرة الّتي حملها معه، كما أزال التسوير، الّذي أقامه سلفه - خشية دهم الثوّار - على أبواب المدينة الخمس، إيذانًا بقرب المواجهة مع العدو. و لمّا كملت استعداداته في أوائل يناير 1806م، فاجأ المحاصِرين بقصف مدفعي مكثّف دام ساعات أربك صفوفهم، قبل أن تفتح الأبواب لخروج فرق الإنكشارية تعاضدها فلول القوّات المخزنية الّتي التجأت إلى وهران قبل الحصار ؛ و إزاء ذلك، انفرط عقد الدرقاويين، و لم يسع ابن شريف إلاّ الأمر بالانسحاب، بما تبقى من جموعه[2].

بعد أن أقام عسكره خارج المدينة، أرسل الباي المقلّش إلى القبائل المخزنية يستحثّها للّحاق به، واعدًا الّتي انضمّت لصفّ الدرقاوي بالصفح عمّا ارتكبوه ؛ كما راسل أعيان و شيوخ باقي قبائل المنطقة، و تألّف الّذين أقبلوا عليه ببذل العطاء لهم[3]. و لم يطل كثيرًا بالنسبة للباي جني ثمار تلك السياسة الحصيفة، إذ قامت قبيلة الغرابة أوّلاً بدافع الثأر لقتلاها، و من ثمّ قبيلتي البرجية و بني شقران بدافع الولاء

---

1. الزياني، **دليل...**، المصدر السابق، ص. 275 ؛ المزاري، المصدر السابق، ج. 1، ص. 309.

- Esterhazy, **De la domination...**, Op. cit., p. 205.

في غضون ذلك، فشلت جميع محاولات ابن الشريف الدرقاوي في اقتحام وهران، بما فيها المحاولة الّتي أمر فيها "سفير النوايا الحسنة" مولاي العربي البوبريحي الدرقاويين بالتسلّح بالمعاول و الفؤوس لتحطيم أبوابها واعدًا إيّاهم بالظفر ؛ و هكذا، بقي الثوّار محدقين بالمدينة عدّة أشهر بلا طائل، بسبب افتقارهم لقطع المدفعية من جهة و مناعة أسوارها و استبسال المحاصرين من جهة أخرى. و إزاء ذلك، اتّفق المذكور مع شيخه مولاي العربي على حثّ السلطان سليمان العلوي على التدخّل عسكريًا في الغرب الجزائري دعمًا لهم، و حاولوا إقناعه بذلك عن طريق إرسال بيعة أهالي تلمسان و نواحيها - من دون كراغلتها، الّذين كانوا وقتئذٍ محاصرين بقلعة المشور - في أواخر شهر أغسطس 1805م ؛ لكن السلطان المغربي فضّل التريّث، و اكتفى بإرسال فرق من جيشه إلى التخوم المقابلة لوجدة و تلمسان فحسب، مترقّبًا مآل الأوضاع :

- الناصري، المصدر السابق، ج. 8، ص ص. 110-111 ؛ محمّد بن أحمد أكنسوس، **الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي**، تقديم و تحقيق أحمد بن يوسف الكنسوسي، ج. 1، الوطنية، مراكش، 1994، ص ص. 283-284 ؛ الفاسي الفهري، المرجع السابق، ص ص. 44-45 ؛ الزياني، نفس المصدر السابق، ص ص. 277-278 ؛ محمّد الضعيف الرباطي، **تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعيدة)**، تقديم و تحقيق أحمد العمّاري، دار المأثورات، الرباط، 1986، ص. 339 ؛ المنصور، المرجع السابق، ص ص. 285-286.

2. المزاري، نفس المصدر السابق، ص ص. 309-310 ؛ الناصري، نفس المصدر السابق، ص. 110.

- Esterhazy, Ibid., pp. 204-205 ; É. Lapène, **Tableau historique de la province d'Oran depuis le départ des Espagnols, en 1792, jusqu'à l'élévation d'Abd-El-Kader, en 1831**, impr. de S. Lamort, Metz, 1842, p. 12 ; Delpech, Op. cit., pp. 45-46.

3. الزياني، نفس المصدر السابق، ص. 280 ؛ الزهّار، المصدر السابق، ص. 87 ؛ المزاري، نفس المصدر السابق، ص ص. 311-312.

للبايلك بمهاجمة الدرقاويين خلال تراجعهم باتجاه معسكر و هزموهم في كلتا الواقعتين، و افتكّوا منهم جلّ ما كان بحوزتهم من الغنائم و السبايا ؛ كما انتفض المعسكريون حيث منعوا "**الدرقاوي... من الدخول لبلدهم و أطردوه عنها، و تمكّنوا من... جميع درقاوة الّذين بها**"[1].

و بعد أن وافته معظم القبائل المخزنية، اتّجه محمّد المقلّش إلى معسكر، حيث عاين مدى التقتيل الّذي اقترفه الثوّار ضدّ الأتراك و الكراغلة، و عمومًا كلّ من يمتّ إليهم بصلة. و لقد راسل الباي مجدّدًا شيوخ و أعيان قبائل البايلك يعلمهم باندحار الدرقاويين و ينذرهم من مغبّة مناصرتهم، كونه عقد النيّة على القضاء عليهم نهائيًا ؛ و ترقّبًا للمعارك القادمة ضدّ الدرقاويين، وضع مكافأةً قدرها عشرة سلطاني تحفيزاً لكلّ من يقتل واحدًا منهم و يقدّم رأسه كبرهان[2].

و خلال شهر، جرت عدّة معارك متتالية استمات فيها كلا الطرفين، لكن رجحت فيها كفّة النصر دومًا إلى جانب المقلّش، بفضل قتال قوّاته النظامي ؛ فيما اعتمد ابن الشريف على عاملي القوّة العددية و المباغتة، اللّذان فقدا فاعليتهما إزاء خصوم متأهّبين خبروا الحرب سنين طويلة[3]. و كانت محصّلة تلك المواجهات الأكثر شناعة تجميع آلاف الرؤوس من قتلى الثوّار في أكمات، قبل أن ترسل لتستعرض

---

1. الزياني، **دليل...**، المصدر السابق، ص. 279.

انظر أيضًا : المزاري، المصدر السابق، ج. 1، ص ص. 311-312 ؛ بلغيث، المرجع السابق، ص ص. 68-69.

- Delpech, Op. cit., p. 46.

تجدر الإشارة إلى أنّ الزياني و المزاري ذكرا أنّه تمّ إلقاء القبض على "**نساء الدرقاوي و أولاده**" بمعسكر، و إرسالهم بناءًا على طلب الباي إلى وهران ؛ و من ثمّ نقلوا بحرًا إلى الجزائر، حيث أعدم أغلبيتهم بحسب بعض المراجع الفرنسية : الزياني، نفس المصدر السابق، ص ص. 279-280 ؛ المزاري، نفسه.

- Mercier, **Histoire de l'Afrique...**, Op. cit., p. 464 ; Lapène, Op. cit., p. 13.

بيد أنّ الظاهر أنّ كلّ ما ذكر بهذا الخصوص عاري من الصحّة، فقد أورد محمّد باشا ابن الأمير عبد القادر أنّه، بعد سلسلة الهزائم الّتي تكبّدها، "**فرّ ابن الشريف بأهله و أولاده إلى نواحي تلمسان، ثمّ لحق بجبل بني يزناسن من أعمال المغرب الأقصى، و لا زال مقيمًا إلى أن مات ؛ فرجع أهله و أولاده، و نزلوا في حمى سيدي الجدّ** (محيّ الدين) **بالقيطنة لائذين به، فعفا عنهم الباي حفظًا لذمّته و رعايةً لمقامه...**" :

- Esterhazy, **De la domination...**, Op. cit., p. 205. محمّد باشا، المصدر السابق، ص. 76. انظر أيضًا :

كان الدرقاويون الّذين طيف بهم في أزقّة مدينة الجزائر تشهيراً و أعدموا عن بكرة أبيهم في فبراير 1806 على الأرجح أبناء عمومة ابن الشريف الدرقاوي و أفرادٌ من عشيرته، من الّذين أسروا في معسكر :

- Esterhazy, Ibid., p. 206.

2. الزهّار، المصدر السابق، ص. 87.

3. لا يمكن انكار أنّ ابن الشريف الدرقاوي وضع خطّة محكمة لاستعادة زمام المبادرة، من خلال تحرّك قبائل مجاهر، الأحرار و بني عامر و من والاهم على ثلاث محاور، بشكلٍ كان سيحصر الباي مع قوّاته في مدينة معسكر غير الحصينة ؛ غير أنّ ضعف التنسيق أو بالأحرى فشل التواصل بين القبائل الموالية للدرقاوي و تفطّن مجلس الباي الحربي للخطّة قضى عليها بالفشل. و اقتضت خطّة الباي المضادّة أن يتحرّك على رأس قوّاته شرقًا باتّجاه بلاد مجاهر و فليتة، و تتولّى قبيلتي الحشم و البرجية الجبلية صدّ الدرقاويين من جهة الجنوب، فيما ترسل مفارز من قوّات المخزن لرصد تحرّكات ثوّار بني عامر، في انتظار أن يتكلّف الباي بأمرهم لاحقًا. انظر : الزياني، نفس المصدر السابق، ص ص. 280-284 ؛ المزاري، نفس المصدر السابق، ص ص. 312-315.

- Mercier, Ibid., pp. 464-465 ; Delpech, Ibid., pp. 47-51.

على أسوار معسكر و وهران، و الجزائر[1]. أمّا ابن الشريف الدرقاوي، فاعتصم مؤقّتًا مع حفنةٍ من رجاله بمنطقة وعرة في الجنوب الوهراني، فيما فرّ معظم أتباعه إلى جبال طرارة شمال غرب تلمسان أو لجأوا إلى الأراضي المغربية المجاورة[2].

بعد أن كسر شوكة الدرقاوي، عرّج الباي المقلّش بقوّاته غربًا على مضارب بني عامر، الّتي دحرها و انتهب مطاميرها في طريقه لنجدة صهره علي قره باغلي قائد تلمسان ؛ فقد كان أتراك و كراغلة المدينة المذكورة قد شارفوا على الهلاك جوعًا بعد قرابة ثمانية أشهر بقوها محاصرين بقلعة المشور. و قبل دخوله المدينة، "**أعطى** (الباي) **الأمان لكبراء الحضر، و أرسل إليهم ليأتوه، فأتاه جماعةٌ منهم، و أصلح بينهم و بين القرغلية**(كذا)**، و ألّف بين الفريقين...**"[3] ؛ أمّا القوّات تحت إمرته، فقامت - مجازاةً بالمثل - بانتهاب الدور الّتي سبق أن هجرها سكّانها، بعدما أعملوا السيف في رقاب الدرقاويين المتخلِّفين بالمدينة و أحوازها[4].

عقب تلك السلسلة الأوّلية من الانتصارات، عاد الباي إلى وهران بعد أن سرّح جلّ أفراد قوّاته المخزنية ليأخذوا قسطًا من الراحة و يبرأ المجاريح ؛ و لنفس السبب، أرسل الداي أحمد بقيادة الآغا حاجي محمّد قوّات دعم من أربعين خباءً، أي حوالي تسعمائة من الإنكشارية، لتخلّف القوّات السابقة

---

1. الزهّار، المصدر السابق، ص. 87 ؛ المزاري، المصدر السابق، ج. 1، ص. 315.

في نفس الصدد، أشارت زوجة القنصل البريطاني إلى وصول أربعين بغلاً إلى الجزائر محمّلاً برؤوس متمرّدين - بلا أدنى شكّ درقاويين - من نواحي وهران في أواخر أبريل 1807م : - Broughton, Op. cit., p. 55.

2. الزياني، **دليل...**، المصدر السابق، ص. 287 ؛ محمّد باشا، المصدر السابق، ص. 76 ؛ المزاري، نفس المصدر السابق، ص. 321.

- Delpech, Op. cit., p. 52 ; P. Boyer, "**Contribution à l'étude de la politique religieuse des Turcs dans la Régence d'Alger (XVIe-XIXe siècles)**", in : R.O.M.M. 1, 1966, p. 43.

3. الزياني، نفس المصدر السابق، ص. 288.

4. لمّا أحسّ مولاي سليمان العلوي بتحوّل ميزان القوى لصالح العثمانيين، تنصّل من عمل سفيره البوبريحي و سارع إلى إرسال قائده أبي السرور عيّاد إلى تلمسان ظاهريًا ليتوسّط بين الطرفين المتناحرين بالمدينة - الحضر الّذين تعصّبوا للدرقاوي و أعلنوا مبايعتهم للسلطان المغربي من جهة، و الكراغلة الّذين اعتصموا مع أهاليهم بقلعة المشور مع رجال الحامية "التركية" و بقوا أوفياء للسلطة الجزائرية من جهة أخرى -، و يقوم بتهدئة الأوضاع حتّى يبدّد شكوك الجزائريين في مسألة تورّطه في الأحداث، حيث "**أمره أن يحجز بين الحضر و الترك حتّى يقدم الباي إلى تلمسان**" ؛ و لكنّه في الواقع حجز بين الطرفين لحماية الحضر و من حذا حذوهم من بطش الأتراك حتّى يؤمّن عملية الإخلاء، إذ "**جلا أهل تلمسان عنها إلى بلاد المغرب، و كذا عربها و أهل جبالها كلّهم جلوا عن أوطانهم، حتّى لم يبق لباشا الترك مع من يتكلّم فضلاً عن أن يتأمّر**" : الناصري، المصدر السابق، ج. 8، ص. 111.

انظر أيضًا : الزياني، نفس المصدر السابق، ص. 286 ؛ المزاري، نفس المصدر السابق، ص. 317 ؛ الغالي الغربي، **الثورات الشعبية أثناء العهد التركي**، ماجستير في التاريخ، جامعة دمشق، 1985، ص. 77.

الّتي بدأت تعاني من الإجهاد و من عددٍ كبيرٍ من الجرحى في صفوفها[1]. و منتصف ربيع 1806م، خرج الباي مجدّدًا على رأس تلك القوّات مجتمعة لجوب مناطق البايلك - لا سيّما الشرقية منها -، الّتي كانت لا تزال خارج السيطرة ؛ و قام بإنزال عقوبات مشدّدة أو اكتفى بفرض خطيّات (غرامات حربية)، بحسب درجة تورّط كلّ قبيلة في الثورة الدرقاوية.

قبل أن نعود لرصد تحرّكات ابن الأحرش في الشرق خلال تلك الفترة، يجدر بنا ذكر إحدى تفاصيل الثورة الدرقاوية في وسط البلاد الّتي لم يعط لها بال ؛ و هي أنّ ابن الشريف الدرقاوي لمّا فرض الحصار على وهران، أرسل أوامره إلى قبائل ذوي حسن و مطماطة و جندل، مدعّمة بقبائل من حوض الشلف بالتحرّك إلى عاصمة بايلك التيطري المجاور، بغية طرد الأتراك منها و جعلها رأس جسر في محاولة لإقامة طرق تواصل و إمداد مع المتمهدي الدرقاوي الآخر، الّذي كان يعاني بعض الصعوبات في بايلك قسنطينة. بيد أنّه لمّا اقتربت جموع أولئك الثائرين من المدية، انقضّت عليها قبيلة أولاد مختار الحليفة للعثمانيين بقيادة شيخهم دهيلس، فتضعضعت صفوفهم ؛ و لم تلبث، بعد أن خرجت إليها القوّات بإمرة الباي حسن، أن اندحرت بالكامل لوقوعها بين فكيّ كمّاشة[2]. ففشل بذلك مسعى الدرقاويين بجعل المناطق الثائرة الواقعة تحت نفوذهم جبهة موحّدة، و الّذي كان سيعدّ بلا أدنى شكّ خطوة هامّة في مخطّطهم للإطاحة بالنظام العثماني بالجزائر و الهيمنة على البلاد بأكملها.

بالرجوع إلى ابن الأحرش، كنا قد رأينا أنّه اختفى أثره بعد الهزيمة الّتي تلقاها على يد عبد الله باي، حتّى ظنّ كثيرون أنّه قتل ؛ لكن الآمال بموته خابت بظهوره مجدّدًا في شهر فبراير 1806م في السهل المقابل لبلدة بجاية، محاولاً الاستيلاء عليها على رأس جيش مؤلّف من ألفين أو ثلاثة آلاف رجل من بلاد القبائل الصغرى (بين جبال البابور و وادي الصومام)، استمالهم بطرائقه المعهودة ؛ و فشلت محاولته تلك بسبب تصدّي مفارز عثمانية عاضدتها قوّات إسنادٍ من حلفائهم المقرانيين[3].

و من معقله بهضبة جبل مقرس شمال سطيف، غزا ابن الأحرش بعدئذٍ بلاد الدهامشة الغنية (شمال شرق سطيف) ؛ لكن قوّاتٍ أرسلت على عجل من قسنطينة تمكّنت من هزيمته بعد أن قتلت له الكثير من الأتباع. و أمكنته مساندة مرابط - من نفس جبلة الزبّوشي - من أولاد درّاج (نواحي مسيلة) يدعى ابن بركات

---

1. Esterhazy, **De la domination…**, Op. cit., p. 206.

- المزاري، المصدر السابق، ج. 1، ص. 321.

2. Federmann & Aucapitaine, Op. cit., 1965, pp. 289-290 ; 1967, pp. 361-362.

- عبّاد، المرجع السابق، ص. 206.

3. Mercier, **Histoire de Constantine**, Op. cit., p. 318 ; Féraud, « **Les Chérifs…** », Op. cit., p. 222.

- فيرو، **تاريخ…**، المرجع السابق، ص. 167 ؛ ناصر الدين سعيدوني، "**ثورة ابن الأحرش بين التمرّد المحلّي و الانتفاضة الشعبية**"، في : ورقات جزائرية. دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، البصائر الجديدة، الجزائر، 2012، ص. 282 ؛ عبّاد، نفس المرجع السابق، ص. 200.

الرحماني، أن يضمّ العديد من القبائل الّتي تقع مضاربها بين الحضنة و مجّانة، و كان ينوي أن يثأر من المقرانيين حلفاء العثمانيين ؛ لكنّهما هزموه في واقعة الرابطة (جنوب برج بوعريرج) في فبراير 1807م قبل أن يستكمل حشد قوّاته[1]. و إثر المعركة الأخيرة، اختفى أثر ابن الأحرش، ممّا جعل الأهالي يشيعون مجدّدًا أنّ جنود الإنكشارية قتلوه، لكنّه في الواقع انتقل مع فلول أتباعه إلى الناحية الغربية لينضمّ إلى ابن الشريف[2].

رغم أنّ وضع البلاد الأمني كان يبدو أحسن بكثير عمّا كان عليه عند توليّ أحمد الحكم، إلاّ أنّه لا يمكننا قول نفس الشيء عن الوضع المالي ؛ فبسبب عجز خزينة الباشا، اضطرّ الحاج أحمد إلى الغرف من خزينة الدولة مبالغ هامّة من الأموال أنفقها في المتطلّبات العسكرية لمحاربة الدرقاويين، و لمّا لم يكن بوسع الجباية الإيفاء بما يلزم لإعادة تلك الأموال، نظرًا لاستمرار آثار الثورة و المسغبة على قسمٍ معتبر من الرعية، فإنّه حُمل على أن يشدّد على الدول الأوروبية دفع الإتاوات و الهدايا المستحقّة عليها في آجالها، و لم يتوان عن سجن بعض قناصل الدول الّذين تأخّروا عن ذلك[3].

أمّا الدولتين العظمتين فرنسا و إنكلترا، فحاول الداي ما أمكنه التزام الحياد حيال الصراع القائم بينهما ؛ غير أنّ عدم انتظام دفع لزمة الباستيون في أوقاتها المعلومة من قبل الفرنسيين و تراكم المستحقات المتأخّرة، إلى جانب رفضهم دفع أيّة هدايا قنصلية، أوغرت صدر الداي أحمد تجاههم. و ممّا زاد العلاقات بين البلدين سوءًا مطالبات نابليون المتكرّرة بانهاء حالة الحرب القائمة مع جنوة و نابولي دون شروط أو ترضيات[4]، إضافةً إلى تهديده بإعلان الحرب إن لم يتمّ الإفراج عن الأسرى الإيطاليين بالجزائر،

---

1. فيرو، **تاريخ...**، المرجع السابق، ص. 167. - Mercier, **Histoire de Constantine**, Op. cit., p. 319.

2. يذكر فيرو أنّ ابن الشريف قتل في معركة الرابطة مستندًا على مصدر أهلي مفاده أنّ "**في سنة 1222هـ** (1807م)، **يوم مجيء علي باشا كان محمّد بن الأحرش قد قتل**" ؛ غير أنّ الداي علي الغسّال تولّى في 18 رمضان 1223هـ (الموافق لـ 7 نوفمبر 1808م)، أي بعد أزيد من سنة و نصف من تاريخ المعركة المذكورة آنفًا، كما هو معروف أنّ ابن الأحرش ظهر بالغرب الجزائري إلى جانب ابن الشريف عبد القادر، حيث خاض معه عدّة معارك ضدّ الأتراك العثمانيين : فيرو، نفسه ؛ سعيدوني، "**ثورة...**"، المرجع السابق، 2012، ص. 282 ؛ شويتام، **نهاية...**، المرجع السابق، ص. 104 ؛ عبّاد، المرجع السابق، ص. 200. - Mercier, Ibid. ; Féraud, « **Les Chérifs...** », Op. cit., p. 222.

انظر فيما يخصّ تاريخ توليّ الداي المذكور : الزهّار، المصدر السابق، ص. 103. - Broughton, Op. cit., p. 98.

3. سامح التر، المرجع السابق، ص ص. 589-590 ؛ أمير، المرجع السابق، ص. 94. - Sander Rang, Op. cit., pp. 563-564.

4. كان من نتائج التوسّعات النابليونية في شبه الجزيرة الإيطالية أن ألحقت جنوة بالإمبراطورية (1805م) و أسند حكم مملكة نابولي لجيروم أخّ نابليون (1806م) : قنان، **معاهدات...**، المرجع السابق، ص ص. 241-242. - Masson, « **À la veille...** », Op. cit., p. 75.

يمكننا أن نضيف إلى مطاعن الحاكم الجزائري، تجاهل الطرف الفرنسي لمطلب إعادة أموال تركة نفطالي بوشناق، الّتي استأثر بها أخوه ميشال كونها أضحت ملكًا للخزينة ؛ و كان هذا الأخير قد فرّ في خريف 1805م على متن سفينة فرنسية :

- Eisenbeth, Op. cit., p. 377 ; Plantet **Correspondance des deys...**, Op. cit., T. 2, pp. 508-509.

و أمره باحتجاز جميع الجزائريين الموجودين في مرسيليا ؛ و هذا ما دفع الداي في النهاية إلى انتزاع امتياز استغلال الباستيون من الفرنسيين كتدبير ثأري، و منحه في يناير 1807م للإنكليز الّذين تعهّدوا بدفع لزمة و عوايد أعلى[1].

و في هذا الصدد، يعلّل المؤرّخون الفرنسيون سبب إعدام الباي عبد الله بإرساله مكتوبًا إلى الداي في نوفمبر 1806م، ينبّه فيه من مغبّة تململ قبائل المنطقة المتعاملة تجاريًا مع الفرنسيين، الّتي ستتضرّر من قراره المتّخذ بمنح الامتيازات للانكليز، و يعرب فيها عن تخوّفه من تقلّب ولائها، لا سيّما أنّ الإيالة كانت مقبلة على حربٍ مع تونس ؛ فغضب الداي لما عدّه تدخّلاً في شؤون الحكم العليا، و أمر بقتل الباي مشنّعًا بتواطؤه مع باي تونس[2].

و بدل الباي المحنّك المقتول، عيّن الداي شابًّا عديم الخبرة هو حسين بن صالح باي في ظرف قطيعة محقّقة مع تونس[3] ؛ فبعد أن رفض الباي التونسي ربيع 1806م عرضًا بدفع غرامة نقدية بدل متأخّرات

---

1. Devoulx, **Les archives…**, Op. cit., pp. 144-145 ; Plantet, **Correspondance des deys…**, Op. cit., T. 2, pp. 510-515 ; Mercier, **Histoire de Constantine**, Op. cit., p. 320 ; Plantet, **Correspondance des beys…**, Op. cit., T. 3, p. 468.

- زهرة، المرجع السابق، ص ص. 66-73 ؛ الزبيري، المرجع السابق، ص ص. 228-235.

تجدر الإشارة إلى أنّ نابليون اعتبر المبادرة الجزائرية إهانةً و ميلاً لأعدائه ؛ و بناءً على ذلك، اتّخذ قرار التحضير لحملة ضدّ الجزائر و كما هو معلوم كلّف نقيب الهندسة بوتان باستطلاع نواحي الجزائر لأجل إعداد مخطّط هجومي : زهرة، نفس المرجع السابق، ص ص. 75-78 ؛ قنان **معاهدات…**، المرجع السابق، ص ص. 243-244.

- Gabriel Esquer, **Reconnaissance des villes, forts et batteries d'Alger, par le chef de bataillon Boutin (1808), suivie des Mémoires sur Alger par les consuls de Kercy (1791) et Dubois-Thainville (1809)**, Librairie ancienne Honoré Champion, Paris, 1927, pp. I-XIX.

انظر بهذا الشأن مقتطفات من تقريري بوتان (1808م) و القنصل ديبوا تانفيل (1809م) عن الجزائر في : قنان، نفس المرجع السابق، ص ص. 247-252.

2. في الحقيقة، هذا التعليل مقصور من عدّة أوجه، لعلّ أهمّها أنّ الأنشطة التجارية الفرنسية في الشرق الجزائري اضمحلت منذ سنوات، بسبب منافسة اليهود القرانة و نشاط القرصنة الإنكليزية ؛ و زاد الأمر سوءًا هزيمة الفرنسيين المنكرة في معركة الطرف الأغرّ البحرية (1805م). و بحسب القناعة الّتي خلصنا إليها من استقراء المصادر المحلّية، لا يمكننا أن نفسّر مقتل باي قسنطينة إلاّ بقصور الداي أحمد، الّذي عاد ليرتكب تقريبًا نفس أخطاء سلفه مصطفى، إذ بعد أن تشدّد في بداية حكمه مع كبار التجّار اليهود، فإنّه ألان موقفه إزاءهم و أعاد لداود كوهين بكري شريك بوشناق نفوذه إلى حدّ منحه احتكارًا تجارة نواحي بجاية (1807م ؛ كما أنّه أعاد إحياء سنّة "**عزل و قتل البايات للاستيلاء على أملاكهم و ثرواتهم**" مثلما ذكر حمدان خوجة، و يمكن اعتبار التعذيب الّذي تعرّضت له زوجة الباي دليلاً نوّه به الزهّار. و الأسوأ من ذلك، أنّه سمح لأنسبائه و مقرّبيه بالتدخّل في تعيينات الموظّفين السامّين مقابل رشًى، دون اعتبار للأهلية و الخبرة : حمدان خوجة، المصدر السابق، ص ص. 150-151 ؛ مجهول، **أخبار بلد…**، المصدر السابق، ص. 71 ؛ الزهّار، المصدر السابق، ص. 87.

- Mercier, Ibid. ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 288 ; Eisenbeth, Op. cit., pp. 377-380 ; Masson, « **À la veille…** », Op. cit., p. 76.

3. استغلّ حمّودة باي تونس القلاقل الناجمة عن الثورتين الدرقاويتين ليتنصّل عن إرسال الإتاوة و كافّة الالتزامات، الّتي فرضت على بايات تونس بموجب معاهدة 1756م ؛ و كان قد اغتنم حملة نابليون على مصر ليقوم بتحصين عاصمته و زيادة عديد قوّاته النظامية من الأتراك،

الإتاوة العينية، أمر الداي الحاج أحمد باي قسنطينة عبد الله القيام بإغارة داخل التخوم التونسية، حيث "**غزا رعية تونس، فقاتل و سبى و ساق الأموال، و توغّل بأخذ رعية تونس حتّى قرب من الكاف**"[1] ؛ كما أرسل في نهاية السنة فرقاطتين إلى خليج تونس، لفرض ما يمكن اعتباره دورية رقابة، و من ثمّ عزّزها بأربعة سفن أخرى كي تحكم عملية الحصار على ميناء حلق الوادي. و كانت تلك التدابير الزجرية ستعتبر مقدّمات للحرب، إن لم ترغم الباي حمّودة باشا على الإذعان لمطالبه[2].

بيد أنّ حمّودة باي كان قد عقد العزم آنفًا على الحرب، إذ أقنعه مصطفى إنكليز باي الشرق السابق و ابنه بأنّ النصر سيكون حليفه إن هو بادر بقوّات كثيفة بمهاجمة قسنطينة الّتي تعتبر مفتاح الإقليم، و وعده بوقوف جلّ الأهالي و القبائل إلى جانبه. و خرج الجيش التونسي بقيادة سليمان الكاهية في 24 يناير 1807م متوجّهًا إلى الحدود ؛ لكن أدّت غزارة الأمطار و الثلوج إلى انقطاع السبل و تباطؤ القبائل عن الالتحاق به، فرجع القهقرى في انتظار ظروف أفضل، و لم يعاود المسير إلاّ بحلول منتصف مارس[3].

عندما وصل الأربعون ألف تونسي على مقربة من قسنطينة، لم يكن بوسع حسين بن صالح باي أن يصفّ أمامهم سوى سبعة آلاف رجل، من بينهم ما يربو عن ألف أو ألف و مائتي إنكشاري (54 خباء)[4]

الّذي بلغ قرابة أحد عشر ألفًا، حيث كان يعوّل عليها للتفوّق على أوجاق الجزائر. انظر : الباجي المسعودي، المصدر السابق، ص. 136 ؛ ابن أبي الضياف، المصدر السابق، 1999، ص ص. 37-39 ؛ عبد العزيز المسعودي، **عقد الفرائد في تذييل الخلاصة و فوائد الرايد**، مطبعة بيكار و شركائه، تونس، 1323هـ، ص. 7 ؛ الإمام، المرجع السابق، ص ص. 194 و 421-424. - Rousseau, **Annales…**, Op. cit., pp. 252-254.

و المستلفت للانتباه أنّ نابليون فكّر - كونه منشغلاً بحروبه عن جرد حملة ضدّ الجزائر - في إمكانية النيل منها عن طريق تشجيع إحدى جاراتها ضدّها ؛ و توفّرت له الفرصة لمّا تقدّم حمّودة باي بطلب شراء 6000 قطعة بندقية دون حراب في منتصف ديسمبر 1806م : قنان، نفس المرجع السابق، ص ص. 242-243. - Plantet, **Correspondance des beys…**, Ibid., pp. 469-470 & 472.

من جهته، دعم السلطان المغربي سليمان هو الآخر المجهود الحربي التونسي خلال شتاء 1804م، بعد أن أوعز له حمّودة عن نيّته المبيّتة في خلع نير التبعية للجزائريين و استعداداته لحربهم، حيث "**هادى الباي بجانب وافر من النحاس أذابه مدافع بالحفصية** (حارة بشمال العاصمة التونسية)، **ينيف عددها على المائة مدفع**" : ابن أبي الضياف، نفس المصدر السابق، ص. 39.

انظر أيضًا في هذا الصدد : عبد الهادي التازي، **التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم**، مج. 9، مطابع فضالة، المحمّدية، 1988، ص. 49 ؛ الإمام، نفس المرجع السابق، ص ص. 412-413. - Plantet, Ibid., p. 459.

1. بن العطّار، المصدر السابق، ص. 117.

2. الزهّار، المصدر السابق، ص. 96 ؛ الإمام، المرجع السابق، ص. 425 ؛ عبّاد، المرجع السابق، ص. 209.

- Mercier, **Histoire de Constantine**, Op. cit., p. 321.

3. Mercier, **Histoire de l'Afrique…**, Op. cit., p. 469 ; L. Féraud, « **Un vœu d'Hussein Bey** », in : R.A. 7, 1867, p. 87.

- ابن أبي الضياف، المصدر السابق، 1999، ص. 41.

4. S., Op. cit., pp. 165 & 168 ; Plantet, **Correspondance des beys…**, Op. cit., T. 3, p. 470.

على اعتبار جهل الجزائريين المسبق لتحرّكات الجيش التونسي، و بالنظر للوقت المبكّر لخروج المحلاّت، لا يمكننا الجزم أنّ ذلك العدد من الإنكشارية كان يمثّل أفراد محلّة الشرق المكلّفة بمرافقة و دعم قوّات الباي خلال جولتها لجباية الضرائب، أم القوّات المكلّفة بمحاربة ابن الأحرش الدرقاوي.

و الباقي من القوم[1] ؛ و بعد أن سارع لإعلام الداي بخبر تغلغل الجيش التونسي في أراضي الإيالة، حاول باي قسنطينة بقوّاته أن يصدّ أيّامًا الجيش الغازي عن الوصول لموقع سطح المنصورة المقابل للمدينة، لكن دون جدوى بسبب ضعف قوّاته العددي. فانسحب الباي منها إلى غرب ميلة، و من ثمّ إلى ريغة بنواحي سطيف، فيما توجّه خليفته إلى عنّابة، و مكثا في محلّهما ينتظران وصول النجدات[2].

و رغم قلّة امكانياتهم، استطاع القسنطينيون الصمود محاصرين شهرًا كاملاً، بفضل الذخائر الّتي خزنها عبد الله الباي السابق و زمر الإنكشاريين الّذين احتموا بالمدينة إثر الهزيمة مع جملة الفارّين ؛ و لم يفتّ في عضدهم كثافة عدوهم بسبب حصانة مدينتهم و أسوارها، و لا القصف المدفعي الّذي طالها بسبب عدم دقّته.

و كان سليمان الكاهية - بعد أن استيقن من صعوبة اقتحام المدينة الأيّام الأولى من الحصار - أرسل إلى بايه يستمدّه، فأرسل له تعزيزات عسكرية على دفعات قدرها بضعة آلاف رجل كانت إحداها تحت قيادة مصطفى انكليز ؛ و عوض أن يقوي هذا الدعم صفّ التونسيين و مواليهم، زادهم وهنًا و انقسامًا كون كلا القائدين المذكورين يبغيان حكم قسنطينة، فلم يسعيا إلى توحيد جهودهما و ناور كلّ واحد بمنأًى عن الآخر[3].

أمّا قوّات النجدة الّتي أرسلها الداي الحاج أحمد برًّا بقيادة أحمد باش آغا في مطلع شهر أبريل، فشاءت الصدف أن تتعطّل في الطريق أزيد من أسبوعين بسبب ثورة عشائر فليسة و نزليوة ؛ فاضطرّ الباش آغا أن يتفاوض مع الثوّار و يراضيهم بالمال، و جرى الاتّفاق على أن تنضمّ أعداد من فليسة إلى

---

1. القوم هم مجموعات الخيّالة المسلّحة الّتي كانت بعض القبائل ترسلها لأمير البلاد عند الحاجة ؛ و هو الاسم الّذي كانت تعرف به عادةً القوّات المخزنية و الرديفة في اللهجة الجزائرية :

- Dozy, Op. cit., T. 2, p. 424 ; Belkassem Ben Sedira, **Dictionnaire français-arabe de la langue parlée en Algérie**, 5e éd., Adolphe Jourdan, Éditeur, Alger, 1910, p. 265.

2. عبّاد، المرجع السابق، ص. 210.

- Mercier, **Histoire de Constantine**, Op. cit., p. 322 ; Féraud, « **Un vœu…** », Op. cit., p. 88.

تتّهم بعض المصادر المحلّية الموقف المتخاذل للقومان (جمع قوم) خلال تلك المواجهات الأوّلية، حيث تصفهم تارةً بالخوار و تارةً أخرى بالخيانة، و لا نشكّ أنّ ذاك الأمر غير صحيح، بل عائد إلى أشجان القسنطينيين برؤية قوّات بلدهم تنهزم تاركة المجال للتونسيين ليحاصروا مدينتهم ؛ كما أنّ المواجهات اتّخذت طابع مناوشات قوية بالنظر إلى كونها سبعًا، و لم يكن غرض الباي حسين الاستماتة في القتال حسب اعتقادنا، لعلمه بأنّ قوّات كبيرة تتأهّب للمسير من الجزائر من جهة و خشية أن تسحق قوّاته القليلة العدد من جهة أخرى. انظر في هذا الصدد :

- بن العطّار، المصدر السابق، ص ص. 118-119.

- S., Op. cit., pp. 165-166 & 168-169.

3. مجهول، **أخبار بلد…**، المصدر السابق، ص. 75 ؛ بن العطّار، نفس المصدر السابق، ص ص. 119-120 ؛ حمدان خوجة، المصدر السابق، ص. 167 ؛ العنتري، **مجاعات…**، المصدر السابق، ص. 38.

- Rousseau, **Annales…**, Op. cit., pp. 257-259 ; Mercier, **Histoire de l'Afrique…**, Op. cit., p. 470 ; Féraud, Ibid., pp. 88-89.

قوّاته[1]. و خدم هذا التأخير الجزائريين من وجهين : أوّلها أنّ الفشل دبّ في صفوف التونسيين[2]، كما تحيّنت القبائل الجزائرية مثل الحنانشة و الحراكتة الّتي انضمّت إلى صفّهم الفرص لتفارقهم ؛ و ثانيها أنّ محلّة الباش آغا - الّتي بلغ عديدها 80 خباءً من الإنكشارية و الزواوة، و بضعة آلاف من الصبايحية و المخازنية - دنت من قسنطينة في مطلع شهر مايو، أي يومًا قبل محلّة الإنكشارية المكوّنة من 40 خباءً، الّتي أرسلت بحرًا على متن ثلاثة فرقاطات إلى عنّابة[3].

عندما سمع سليمان الكاهية بقدوم محلّة الباش آغا، رفع الحصار جزئيًا و عسكر جنوب المدينة وراء وادي بومرزوق، فيما أقام الباش آغا معسكره عند ضفة وادي الرمل[4]. و ابتدر التونسيون القتال بعد العصر بتقدّم نحو مائة و خمسين إنكشاري من طلائعهم ساعين للمواجهة، فتصدّى لهم عدد مماثل من نظرائهم الجزائريين تحت نظر الجيشين ؛ و بعد تبادل وجيز لإطلاق النار، استلّت الأسلحة البيضاء و انتهى الالتحام لصالح الأخيرين[5].

و مطلع النهار التالي، كلّف القائد التونسي سلاح الخيالة القيام بهجوم مباغت على معسكر الأعداء أتبعه بأمر الزحف لباقي فرق جيشه الجرّار ؛ و كادت هذه المناورة في وقت أوّل أن تضعضع صفوف الجزائريين الّذين انكشف معسكرهم، حيث تقهقروا و حصل بداية ارتباك سرعان ما زال بفضل تماسك الإنكشارية و ثبات الصبايحية في مواقعهم. و استمات كلا الطرفين في القتال طيلة ساعات، لكن الكفّة بدأت تميل لصالح الجزائريين الّذين استعادوا كافّة مواقعهم. و لمّا انتصف النهار، وصلت القائد التونسي أنباء عن ظهور المحلّة الجزائرية الثانية شمالاً، فأصدر الأوامر للجيش بفضّ الاشتباك و التراجع بحذر إلى معسكره ؛ و ضيّق الخوف من أن تطبق المحلّتان الجزائريتان على الجيش التونسي مجال مناورة القيادة التونسية، و شلّها عن اتّخاذ أيّ قرار صائب.

---

1. Robin, « **Les Oulad…** », Op. cit., p. 45 ; Guin, « **Notes historiques sur les Nezlioua (1).** », in : R.A. 6, 1862, p. 425.

- الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 257. انظر أيضًا : - Broughton, Op. cit., pp. 54 & 55-56, n. 20.

2. ابن أبي الضياف، المصدر السابق، 1999، ص. 42.

- الزهّار، المصدر السابق، ص. 96. 3. S., Op. cit., pp. 166 & 170.

انظر أيضًا : - Vayssettes, Op. cit., 1869, p. 484.

من فرط العجلة لإرسال العمارة الناقلة لمحلّة عنّابة، لم يُستكمل دفع العلوفات المستحقّة في شهر محرّم 1222هـ (الموافق لـ 11 مارس-9 أبريل 1807م) لمئاتٍ من أفراد الإنكشارية ؛ و تمّ استيفاؤها بفضل قرضٍ قدره آلاف الريالات الإسبانية تقدّم به نائب قنصل بريطانيا اسكوديرو (Escudero) المقيم في المدينة المذكورة : - Broughton, Ibid., p. 55.

4. الميلي، نفس المرجع السابق، ص ص. 257-258.

- Vayssettes, Ibid. ; Mercier, **Histoire de l'Afrique…**, Op. cit., p. 471 ; Rousseau, **Annales…**, Op. cit., pp. 259-260.

5. Féraud, « **Un vœu…** », Op. cit., p. 89 ; Mercier, **Histoire de Constantine**, Op. cit., p. 324.

و كان هذا الجمود الظرفي أكثر من كافي بالنسبة للقبائل الجزائرية الّتي ساندت التونسيين لتستشعر خطورة موقفها، و تنسلّ من المكان عند هبوط الليل ؛ و كذلك كان الأمر بالنسبة للقبائل التونسية الّتي يدعوها المسعودي بالأعراب. لأجل ذلك، لم يعد بوسع سليمان الكاهية سوى الأمر بالانسحاب ليلاً دون أن يتفطّن الجزائريون ؛ غير أنّ التسرّع و الهلع الّذي سرى بالتتابع في فرق الجيش التونسي أربك العملية، و حوّلها إلى فرارٍ مخزٍ[1].

و لمّا انجلى صباح الثالث من مايو، اكتشف الجزائريون اختفاء معظم فرق جيش العدو تاركًا في الميدان مدافعه و عتاده و ذخائره، لكنّه خلّف وراءه عددًا من الجنود و أفراد القبائل الّذين كانوا متفرّقين في نواحٍ مختلفة ؛ فاتّحدت قوّات المحلّتين تحت قيادة أحمد باش آغا و بادرت إلى ملاحقة الفارّين المتخلّفين، و أوقعت الآلاف منهم في الأسر[2].

---

1. الزهّار، المصدر السابق، ص. 96.

- S., Op. cit., pp. 166 & 170 ; Mercier, **Histoire de Constantine**, Op. cit., pp. 324-325.

2. ابن أبي الضياف، المصدر السابق، 1999، ص. 42 ؛ الباجي المسعودي، المصدر السابق، ص. 137 ؛ بن العطّار، المصدر السابق، ص ص. 121-122.

- Féraud, « **Un vœu…** », Op. cit., pp. 89-90.

خلال ديوان المحلّة الّذي انعقد للبتّ في مصير الأسرى، تقرّر فيه إرسال الإنكشارية المأسورين الّذين بلغ عددهم 1167 إلى الجزائر حيث سجّل الأتراك منهم - الّذين تراوح عددهم ما بين خمسمائة و ستّمائة - في الدفتر إلزاميًا، و أمّا البقية الّذين كانوا من الكراغلة و الأهالي، فإنّهم حبسوهم في برج باب الواد أشهرًا، ثمّ أرسلوهم و أرجعوهم لبلادهم في إطار مبادلة أسرى مع الطرف التونسي : الزهّار، نفس المصدر السابق، ص. 97 ؛ حمدان خوجة، المصدر السابق، ص. 167.

– S., Ibid. ; Mercier, Ibid., p. 325 ; Vayssettes, Op. cit., 1869, p. 485 ; Rousseau, **Annales…**, Op. cit., pp. 262-263.

و لقد أمكن تمييز الأتراك المسّجلين في الدفتر بوجود عبارة "**نو**" في الغالب مكتوبة على هامش الاسم، و تقاضيهم لنصف علوفة كاملة (أي 40 صايمة) ؛ و الجدير بالذكر أنّ العديد منهم سرّحوا بعد تقاضي علوفة أو علوفتين، كما قام الداي الحاج علي باشا خلال فترة حكمه (1809-1815م) بنفي عدد آخر : **دفتر مواجبات…**، المصدر السابق، رقم 1978 مكرّر، وو. 86وْ، 93ظْ و 95ظْ ؛ رقم 1975، وو. 98ظْ و 99وْ. انظر أيضًا : الزهّار، نفسه.

أمّا الأسرى من المقاتلين غير النظاميين، فبعد أخذ و ردّ حول إذا كان يجدر إعدامهم أم لا، قرّر الديوان المذكور تركهم أحياء على أن تقطع لهم إحدى أذنيهم (و ذلك أصل القول المأثور فيما مضى لدى القسنطينيين الّذين يتهكّمون فيه من التونسيين : "**قصّ ودينة و خلّي ودينة**")، مع تحذيرهم أنّ من وُجد منهم مستقبلاً حاملاً للسلاح في وجه الجزائريين، فإنّه سيتمّ إعدامه فورًا ؛ و بهذا الخصوص، نستشفّ النيّة الّتي عقدها أركان الديوان في نقل الحرب إلى التراب التونسي، بعد أخذ الموافقة من الداي و الديوان بالجزائر. انظر : - Féraud, Ibid., p. 90.

و لم يستثن من هذا التدبير "الاحترازي" (أي قطع الأذن) إلاّ أفراد قبيلة دريد التونسية، الّذين وقع معظمهم في الأسر، حيث تقرّر جعلهم رعايا جزائريين، بعد أن أطلق سراح نسائهم و أطفالهم ؛ و بموجب هذا القرار، عُيِّنت لهم أرض ليعيشوا عليها أطلق عليها فيما بعد "بحيرة دريد" : ابن أبي الضياف، المصدر السابق، 1999، ص. 42. - Id.

و بقي علينا أن نشير في هذا الصدد أنّ الستّمائة قتيل تونسي في معركة وادي الرمل (2 مايو) تمّ حزّ رؤوسهم، و أرسلت كتذكار نصر - مع الآذان المقطوعة - إلى الجزائر محمّلة على 43 بغلاً، حيث تمّ عرضها أيّامًا بأعلى سور باب عزّون :

- Broughton, Op. cit., p. 56 ; S., Ibid. ; Vayssettes, Ibid.

و بعد أقلّ من أربعة أيّام، تمكّنت القوّات الجزائرية من اللحاق بفلول الجيش التونسي، و أوقعت به هزيمة أخرى قبل بلوغه الحدود[1].

و مثلما كان منتظرًا، أمر الداي أحمد الباي حسين الاستعداد للتوجّه بقوّاته إلى تونس للإطاحة بحمّودة، و ضمّ منطقة الكاف للجزائر ؛ و كلّف حسن آغا الصبايحية ليخلف الباش آغا على رأس جيش الإيالة. و بعد أن استكملت القوّات الجزائرية عدّتها و عديدها في قسنطينة، تحرّكت خلال الأسبوع الأوّل من يونيو في محلّتين منفصلتين على أن تجتمع عند الحدود بين البلدين[2].

و من جهته، لم يبق حمّودة باشا مكتوف الأيدي، حيث كلّف وزيره يوسف صاحب الطابع بقيادة القوّات التونسية المكلّفة بالدفاع عن إيالته، و الّتي بلغ مجموع أفرادها أربعة و عشرين ألفًا - بعد انضمام فلول المنهزمين قرب الكاف - ؛ و لزيادة حظوظه، أعمل شبكة عملائه في بايلك قسنطينة، الّذين تقرّبوا من عددٍ من القادة القبليين و المخزنيين، و رشوهم بالمال[3].

لمّا تقابل الجيشان عند وادي سرّاط الواقع غير بعيد من الكاف في 10 يوليو، مرّ ذاك اليوم و اللّذان يليانه في مناوشات دون أهمّية على طول جبهة المواجهة ؛ لكن عندما حمي الوطيس نهار اليوم الثالث كانت الغلبة على التونسيين، الّذين تزحزحوا حتّى دنت قوّات الجزائريين من معسكرهم، و باشرت نهب أطرافه ساعات قبل الغروب ؛ حينئذٍ أمر القائد التونسي بإطلاق بضع طلقات المدفعية باتجاه صفوف المهاجمين، و كانت تلك الإشارة المتفق عليها مع القادة المرتشين. و بالفعل، انكفأ مصطفى بن عاشور قائد فرجيوة و الباش سرّاج قائد الحراكتة بفرسانهما هاربين من ميدان المعركة، و تبعهم الحنانشة بقيادة الماحي بن عثمان في حركتهم[4] ؛ و بانكسار أحد جناحيهم، تضعضعت صفوف باقي القوّات الجزائرية

---

1. Broughton, Op. cit., p. 56.

2. Broughton, Ibid., p. 56 ; S., Op. cit., pp. 166 & 170 ; Vayssettes, Op. cit., 1869, pp. 486-487 ; Rousseau, **Annales…**, Op. cit., pp. 261-262.

- مجهول، **أخبار بلد…**، المصدر السابق، ص ص. 75-76.

3. الإمام، المرجع السابق، ص ص. 426-427 ؛ ابن أبي الضياف، المصدر السابق، 1999، ص ص. 43-46.

4. علاوة على تذبذب الولاء الّذي عرف به الحنانشة بين تونس و الجزائر بسبب انقسام أراضيهم على جانبي حدود الإيالتين، ساهمت عدّة عوامل في خيانتهم للطرف الجزائري، من بينها غارة عبد الله باي على مضاربهم بنواحي قلعة سنان داخل التراب التونسي نهاية ربيع 1806م، و عدم تقبّلهم لمنح امتيازات الباستيون و عنّابة للانكليز أواخر ذات السنة، بالإضافة إلى الصراعات الداخلية من أجل زعامة القبيلة.

للمزيد من المعلومات حول قبيلة الحنانشة، و دورها في العلاقات بين البلدين، انظر : معاشي، "**أسرة…**"، المرجع السابق، ص ص. 151-161.

- Féraud, "**Les Harar…**", Op. cit., pp. 358-359.

- و بالأخصّ البايلكية -، حيث تولّوا فارّين بغير هدى : قسمٌ منهم عاد أدراجه - مثل الباي الغِرّ الّذي انجرّ هو الآخر - باتجاه قسنطينة ؛ و قسمٌ آخر لاذ بالجبال المجاورة، لكنّهم أُسروا فيما بعد[1].

بعد أن باتت قوّات الإنكشارية في وضع جدّ حرج لفقدها دعم الخيّالة، قامت بالتراجع كيفما كان إلى المعسكر، الّذي سادت فيه فوضى يتعذّر وصفها ؛ و لم يجد حسن آغا من مسلك غير الأمر الفوري بالانسحاب مغتنمًا العتمة، تاركًا المدفعية و العتاد و كلّ ما احتواه المعسكر غنيمةً باردة للتونسيين[2].

و خلال الأيّام القليلة الّتي تلت الانهزام، تمكّنت القوّات التونسية من قتل عدد معتبر من الفارّين، بحيث بلغ مجموع خسائر الجزائريين في تلك الحملة من 600 إلى 700 قتيل، إلى جانب أسر 7000 آخرين حُصروا في الجبال دون زاد و لا ماء[3]. و أمر الداي، الّذي اغتاظ من الهزيمة كثيرًا، بإعدام جميع من له يدٌ في وقوعها، و على رأسهم الباي حسين و الباش سرّاج[4] ؛ و قد طالت عمليات الإعدام الجنود

---

1. Féraud, « **Un vœu…** », Op. cit., pp. 94-95 ; Vayssettes, Op. cit., 1869, p. 487 ; Mercier, **Histoire de Constantine**, Op. cit., p. 327.

- الإمام، المرجع السابق، ص. 428 ؛ ابن أبي الضياف، المصدر السابق، 1999، ص ص. 47-48.

انظر أيضًا في هذا الصدد :

- Thomas Maggill, **Nouveau voyage à Tunis**, trad. par Ragueneau de la Chesnaye, C. L. F. Panckoucke, Paris, 1815, pp. 39-42.

- سامح التر، المرجع السابق، ص. 591.

2. الزهار، المصدر السابق، ص ص. 97-98 ؛ عبّاد، المرجع السابق، ص ص. 210-211.

- S., Op. cit., pp. 166-167 & 170.

3. مجهول، **أخبار بلد...**، المصدر السابق، ص. 76.

- Mercier, **Histoire de l'Afrique…**, Op. cit., pp. 471-472 ; Plantet, **Correspondance des beys…**, Op. cit., T. 3, p. 471.

الجدير بالذكر أنّ عدد الإنكشاريين الّذين وقعوا في الأسر بلغ أزيد من 500 فرد ؛ و قد خيّرهم حمّودة باشا بين الدخول في خدمته أو إعادتهم إلى الجزائر. فاختار غالبيتهم الأوبة، و تمّت مبادلتهم بأفراد الأوجاق التونسي المحتجزين بالجزائر في أكتوبر. و يذكر روسو أنّ الداي أحمد امتعض لهذه المبادلة، لكنّه اضطرّ إلى مداراة إرادة الديوان، فأطلق سراح التونسيين الّذين كان من ضمنهم مئتين من الكراغلة، دون أن يسمح للأتراك الّذين سبق تسجيلهم في الأوجاق الجزائري بذلك. غير أنّنا سجّلنا عددًا معتبرًا من حالات توقّف العلوفة في صفوف تلك الفئة الأخيرة خلال نفس الفترة، ممّا يجعلنا نعتقد - في ظلّ غياب أيّ تعليق أو إشارة هامشية بهذا الخصوص في الدفتر - أنّه سمح لبعضهم (المتزوّجين ؟) بتكتّم العودة إلى موطنهم، في إطار المبادلة المذكورة مع الآخرين.

انظر في هذا الصدد : **دفتر مواجبات...**، المصدر السابق، رقم 1978 مكرّر، وو. 86و°، 93ظ° و 95ظ° ؛ الزهّار، نفس المصدر السابق، ص. 97 ؛ ابن أبي الضياف، نفس المصدر السابق، ص. 49.

- Rousseau, **Annales…**, Op. cit., pp. 262-263.

4. مجهول، نفسه ؛ بن العنتري، **مجاعات...**، المصدر السابق، ص. 39.

- Mercier, **Histoire de Constantine**, Ibid., pp. 327-328 ; Féraud, Ibid., p. 95.

أضيفت إلى بيان الباي المذكور لفظة "**مغضوب** [عليه]" تعبيراً عن الحنق الّذي استشاط بالداي و مقرّبيه تجاهه : **دفتر مواجبات...**، المصدر السابق، رقم 1978 مكرّر، و. 195و°.

أمّا فيما يخصّ شيخ فرجيوة، فقد تمّ تعيين ابن عمّه بدلاً عنه، فيما فرّ هو إلى جبال البابور، و فشلت كلّ المحاولات لإلقاء القبض عليه : عبّاد، نفس المرجع السابق، ص ص. 211-212.

- Vayssettes, Ibid., pp. 497-498.

الفارّين - من الأهالي و الأتراك - الّذين عادوا فرادى إلى العاصمة، حيث تمّ شنقهم تباعًا عند شَرفات سور باب عزّون[1].

و زادت الإعدامات الأخيرة من التململ في أوساط الإنكشارية، الّتي حمّلت الداي مسؤولية مآل الأحداث، بالنظر لقتله غير المبرّر للباي المحنّك عبد الله و استبداله بالغِرّ حسين[2]، و كذا تضحيته بالباي قوي الشكيمة محمّد المقلّش، الّذي أنقذ الوضع في بايلك الغرب لمصلحة آنية فقط. فلقد كان هذا الأخير ضحية غير مباشرة للحرب، فبسبب حاجة الداي للأموال لإعداد حملة جديدة ضدّ تونس، فإنّه استمع إلى أقوال المغرّضين الّذين صوّروا له غنى باي وهران بفضل الغنائم و الغرامات الباهظة، الّتي فرضها على القبائل المتواطئة مع الدرقاوي. و عليه، أرسل الآغا عمر الدلجي في شهر أغسطس 1807م ليقتله، بعد أن يستصفي جميع أمواله ؛ لكن المقلّش رفض أن يبوح بمكان كنوزه، رغم العذاب الشديد الّذي تعرّض له، و أعدم خنقًا ليحلّ مكانه سلفه مصطفى العجمي، الّذي أثبت عجزه في مواجهة ثورة ابن شريف الدرقاوي عند بدايتها[3].

إلى جانب ذلك، كانت السفن الجزائرية الّتي أرسلها الداي إلى نواحي شبه جزيرة طبرقة في بداية صيف 1807م لمحاصرتها في وقتٍ أوّل، قد فشلت في وقتٍ ثاني في محاولة احتلالها أواخر أغسطس

---

1. de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 288 ; Mercier, **Histoire de Constantine**, Op. cit., p. 328.

انظر أيضًا : عبّاد، المرجع السابق، ص ص. 211-212. - Broughton, Op. cit., p. 69.

2. لقد كان هذا الرأي يتشاطره معهم عددٌ من الكتّاب المحلّيين مثل أحمد بن المبارك الّذي وصف عبد الله باي أنّه "**كان رجلاً شجاعًا شهمًا**"، مضيفًا بشكلٍ متباين أنّ خلفه حسين "**كان ولدًا صغير السنّ، حضريًا لا يقدر على الركوب و الغزو، و لا له معرفة بالحروب و سياسة الملك.**" ؛ و هو يوافق ما ذكره صاحب "أخبار بلد قسنطينة و حكّامها" من أنّه "**كان هذا ولد صالح باي المذكور ولدًا صغير السنّ… يخفي نفسه حين يتكلّم الرعد في السماء، و لا يخرج في الليل لدار الوضوء إلاّ بالأنيس معه ؛ لكن من سوء تدبّر الأعجام**(كذا) **أهل المملكة في ذلك الوقت و التضاربهم**(كذا) **لأخذ الأموال، نزعوا الأسد و وضعوا في منزله الأرنب… جاءوا فولّوا** [حسين ولد] **صالح باي، و ألبسوه القفطان و وضعوه على الكرسي كأنّه بنت عروسة…**". انظر : بن العطّار، المصدر السابق، ص ص. 116 و 118 ؛ مجهول، **أخبار بلد…**، المصدر السابق، ص ص. 72-73.

انظر أيضًا : حمدان خوجة، المصدر السابق، ص. 166 ؛ الزهّار، المصدر السابق، ص ص. 87 و 96.

3. المزاري، المصدر السابق، ج. 1، ص. 325 ؛ حمدان خوجة، نفس المصدر السابق، ص. 169 ؛ **دفتر مواجبات…**، المصدر السابق، رقم 1978 مكرّر، وو. 10ظ ْ و 117ظ ْ. - Fey, Op. cit., pp. 300-301 ; Mercier, **Histoire de l'Afrique…**, Op. cit., p. 466.

لتعليل قتل المقلّش غير المبرّر في نظر الرعية و المخزن و العسكر، أشيعت أعذار أقبح من الجرم كان أوّلها حمله الدنّوش على ظهر البقر ؛ و لمّا لم تؤتِ هذه القصة أُكلها و بقي الناس يهمهمون، رموه بالفجور - و هي تقريبًا ذات التهمة الّتي ألصقها اليهود بأخيه عثمان عند عزله من بايلك وهران في 1802م - في قصص أقلّ ما يقال عنها أنّها مخالفة للصواب بالنسبة لعقلية ذاك الزمان. انظر : الزياني، **دليل…**، المصدر السابق، ص. 292 ؛ المزاري، نفسه.

- Fey, Ibid., p. 300 ; Lapène, Op. cit., pp. 14-15 ; Esterhazy, **De la domination…**, Op. cit., pp. 208-209.

بسبب القلّة العددية للقوّات المهاجمة و قلّة الحيوية الّتي أظهرتها من جهة، و القوّات الإضافية الّتي دعّم بها باي تونس عامله من جهة أخرى[1].

في هذا الظرف، توجّب على الداي إرسال عمارة في غضون شهر سبتمبر بقيادة الرايس حميدو إلى إزمير لجلب مجنّدين جدد، سدًّا للنقص الحاصل في صفوف الإنكشارية جرّاء حرب الدرقاويين و التونسيين. و في الطريق، انفصلت إحدى سفن العمارة الّتي كانت تقلّ وكيل حرج دار السلطان قارة أحمد لتتوجّه إلى إسطنبول ؛ فقد كان هذا الأخير مكلّفًا من قبل الداي القيام بسفارة لدى الباب العالي ليلتمس له رتبة بايلرباي، ممّا كان سيخوّل له حمل لقب باشا على غرار غريمه التونسي حمّودة[2].

و الطريف في الأمر أنّ تكليف القپوجي باشي بمهمّة حمل القفطان و فرمان التولية و وصوله إلى الجزائر في منتصف مايو 1808م كان منوطًا أيضًا بمساعي حمّودة باشا تجاه الباب العالي و الهدايا جدّ المعتبرة الّتي أرسلها لاستصدار أمر سلطاني يلزم الداي بالكفّ عن محاربته ؛ بيد أنّ الداي الّذي كان على علم مسبق بمهمّة المبعوث السلطاني المزدوجة، سارع إلى إخراج المحلّة بقيادة باش آغا قبل أن يصل المذكور[3].

و تجدر الإشارة إلى أنّ الحاج أحمد داي، لإعادة الكرّة على تونس، كان قد قام بتعيين رجل كفء على رأس بايلك قسنطينة اسمه سباولي علي شاوش "**له شجاعة و مهابة، دائمًا حكمه يكون مستويًا بين الترك و العرب خلافًا لغيره من البايات**"[4] ؛ و قد عكف هذا الأخير على الإعداد بشكل حثيث للحملة

---

1. Plantet, **Correspondance des beys…**, Op. cit., T. 3, pp. 471-472 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 289.
- الإمام، المرجع السابق، ص. 430.

تجدر الإشارة إلى أنّه بعد انهزام التونسيين أمام قسنطينة، طلب حمّودة باشا من البرتغال أن تقوم قطعٌ من أسطوله الحربي بحماية سواحل تونس من هجوم متوقّع من الأسطول الجزائري : الإمام، نفسه.

2. Devoulx, **Le Raïs…**, Op. cit., pp. 104-105.

3. Sander Rang, Op. cit., p. 564.

و الجدير بالذكر أنّ قدوم القپوجي باشي تأخّر إلى التاريخ الوارد أعلاه، بسبب عوامل ظرفية هي : قيام الديوان الهمايوني بإعادة ترتيب أمور الدولة بعد ثورة قپاقجي، الّتي أطاحت بالسلطان سليم الثالث (1789-1807م) و نظامه الجديد من جهة ؛ و انهماكه بحالة الحرب القائمة مع روسيا، و من ثمّ المفاوضات التمهيدية الّتي أنهت تلك الحرب في خريف 1807م، من جهة أخرى.

فيما يخصّ تاريخ وصول المبعوث السلطاني إلى الجزائر، انظر : - Broughton, Op. cit., p. 86.

انظر بخصوص الأحداث الّتي هزّت عاصمة الدولة العثمانية : سامح التر، المرجع السابق، ص ص. 592-593.

- A. de Juchereau de Saint-Denis, **Révolutions de Constantinople en 1807 et 1808, précédées d'observations générales sur l'état actuel de l'Empire Ottoman**, T. 2, Librairie de Brissot-Thivars, Paris, 1819, pp. 103-154.

4. بن العنتري، **فريدة…**، المصدر السابق، ص. 97. انظر أيضًا : الزهّار، المصدر السابق، ص. 98 ؛ **دفتر مواجبات…**، المصدر السابق، رقم 1978 مكرّر، و. 16ظ ؛ **المراسلات العثمانية**، م.و.ج.، مجموعة 3206-3، رقم 58.

المزمع تسييرها في أواخر ربيع 1808م ضدّ حمّودة. و انضمّ إليه حسن - حساين في بعض المصادر - باش آغا بمحلّة كبيرة من الجزائر في النصف الأوّل من شهر يونيو، و أقام معسكره على مقربة من المدينة ؛ و بينما كان يتهيّأ كلّ من الباي و الباش آغا للمسير بقوّاتهما ورد عليهما خبرٌ بالتريّث، كون الداي قام بإرسال أخو زوجته على رأس حانبة ليلتحق بهما.

و انتهز شاوش سابق يدعى أحمد "القبائلي"[1] ورود هذا الخبر ليؤلّب الجند الإنكشاري خفيةً عن القادة، حيث صوّر لهم أنّ سِلف الداي - الّذي كان من حضر الجزائر - هو من سيتولّى فعليًا قيادة الجيش، و يوردهم المهالك كما حدث مع حسين بن صالح باي في وادي سرّاط ؛ و لكي يقنع المتردّدين في الانضمام لمؤامرته الإنقلابية "**وعدهم بأن يعطي لكلٍّ مائة محبوب ذهبًا، فأجابوه و اتّفقوا على قتل علي باي و حسن آغا**"[2].

و اغتنم المتمرّدون وجود الرجلين في أحد مساجد المدينة لآداء صلاة الجمعة كي يغتالوهما غدرًا ؛ و من ثمّ، توجّهوا نحو المعسكر حيث قتلوا سِلف الداي ابن سيدي قدّور، الّذي كان قد وصل منذ وقتٍ قريب. و كان أوّل عمل قام به أحمد شاوش بعد أن نصّب نفسه بايًا هو الوفاء بتعهّده حيال الجند، حيث وزّع عليهم من الأموال المخصّصة لنفقات الحرب أو الّتي وجدها في خزائن البايلك سبعين محبوبًا لكلّ واحد، كما أجزل العطاء للمتملّقين من العوام و شيوخ العشائر الّذين قصدوه لتهنئته[3].

---

1. يذكر الزهّار بشأن أحمد شاوش أنّه "**كان هاربًا عند القبائل من قضية وادي الزهور**"، بينا تذكر مصادر أخرى أنّه نفي إلى قسنطينة إثر الاشتباه في ضلوعه في مؤامرة اغتيال مصطفى باشا في 1801م ؛ و هاتين الروايتين يدحضهما ما ورد في دفتر العلوفات، حيث نجد أنّ المعني الّذي اسمه الكامل بورنوه لي أحمد بن خليل صار شاوشًا بدار الإمارة في محرّم 1218هـ (الموافق لأبريل/مايو 1803م)، و أنّه أخرج من جماعة الشوّاش عقوبةً بعد آخر علوفة تقاضاها في رمضان 1220هـ (الموافق لنوفمبر/ديسمبر 1805م).

و الجدير بالاهتمام شطب بيانه بلفظة "**ميت**" مجانبة لـ "**صبايحي**"، ممّا يدلّ أنّه تقرّر في وقت أوّل إعدامه، قبل أن يصفح عنه و يسمح له بأن يصير صبايحيًا بقسنطينة الّتي كانت تحت حكم عبد الله باي. و يمكننا أن نفترض بثقة أنّ أحمد شاوش كان متواطئًا مع آغا الإنكشارية الّذي أثار متاعب للداي الحاج أحمد في بداية حكمه - حيث كان على الأرجح ينقل له كلّ ما كان يجري في "المحكمة (مقرّ الحكم)" -، و أنّ إلى ذلك يعود سبب إبعاده و ضغينته للداي المذكور.

انظر في هذا الصدد : الزهّار، المصدر السابق، ص. 98 ؛ **دفتر مواجبات...**، نفس المصدر السابق، وو. 152ظ° و 449و°.

- Mercier, **Histoire de Constantine**, Op. cit., p. 329 ; Vayssettes, Op. cit., 1869, pp. 489-491.

أمّا فيما يخصّ نسبة "القبايلي" الّتي لصقت به في بعض المصادر، فنعتقد أنّ ذلك عائد بالأحرى إلى خلط وقع بينه و بين أحد اليولداش الزواتنة من أذنابه يدعى أحمد بن الأطرش القبايلي، الّذي كان مقتل الباي علي بن يوسف على يديه. انظر بهذا الخصوص :

- بن العطّار، المصدر السابق، ص. 146 ؛ الزهّار، نفسه.

- Mercier, Ibid., p. 330 ; Vayssettes, Ibid., pp. 494 & 496.

2. بن العطّار، نفس المصدر السابق، ص. 147. انظر أيضًا :

- Mercier, **Histoire de l'Afrique...**, Op. cit., pp. 473-474 ; Vayssettes, Ibid., pp. 492-493.

3. نفسه، ص ص. 147-149.

و كان من أهمّ التدابير الّتي اتّخذها هذا الغاصب خلال فترة مكوثه في قسنطينة، إرساله مكتوبًا للباي حمّودة يطلب فيه مهادنته و يعلمه بعزمه تحويل القوّات المتجمّعة في قسنطينة عن مسارها الأصلي إلى تونس باتجاه العاصمة الجزائرية ذاتها، للإطاحة بالداي و الحلول مكانه. و بعد أن ترك خليفته أحمد طوبال في قسنطينة مع قسم من القوّات احتياطًا، خرج في أواخر شهر يونيو بالقسم الأكبر منها متيقّنًا من النصر[2].

أمّا الداي أحمد باشا و ديوانه، فقد علما في وقتٍ مبكّر بالأحداث الخطيرة الّتي كانت عاصمة الشرق مسرحًا لها من الحاج أحمد بن إسماعيل الوهراني خليفة الباي علي، الّذي نجا بجلده هاربًا حال سماعه بالاعتداء و هرع مسرعًا إلى الجزائر. ارتعب الداي للوهلة الأولى ممّا سمع و فكّر جدّيًا في الفرار، غير أنّ وزراءه ثنوه عن ذلك، حيث أشاروا عليه برصانة الخليفة الّذي تركه أحمد شاوش وراءه بقسنطينة و إمكانية الاعتماد على ولاء قوّات المخزن و قبائل العمالة (القوم) ؛ و عليه، "**كتب أمرًا إلى أحمد طوبال بالولاية على قسنطينة و بعث له قفطان الولاية، و كتب إلى الدائرة و العرب أن ينصروه و أن يقتلوا عساكر الترك القائمين مع "القبائلي""**[3]، كما أرسل إلى العسكر رسالة يحثّهم فيها على نبذ صفّ المتمرّد و تسليمه، واعدًا إياهم بالعفو الشامل عمّا بدر منهم[4].

و أفلح الداي بشكلٍ غير مؤمّل في مسعاه المذكور[5]، إذ قامت قوّات مخزنية و قبلية متفوّقة عدديًّا بالإحاطة بمحلّة أحمد شاوش قرب ميلة و ناوشتها من بعيد ؛ و لقد وجد المذكور نفسه مضطرًّا إلى الرجوع لقسنطينة، الّتي وجد أبوابها قد سدّت في وجهه. فقد قبل أحمد طوبال عرض الداي على الفور،

- [Boutin], **Reconnaissance…**, Op. cit., p. 14 ; S., Op. cit., pp. 167 & 171 ; Broughton, Op. cit., p. 89 ; Rousseau, **Annales…**, Op. cit., p. 265 ; Vayssettes, Op. cit., 1869, pp. 493-495 & 501-502.

2. S., Ibid. ; Gaston Loth, **Arnoldo Soler, chargé d'affaires d'Espagne à Tunis et sa correspondence, 1808-1810**. Thèse de Doctorat présentée à la Faculté des lettres de Paris, Société anonyme de l'imprimerie rapide, Tunis, 1905, p. 41 ; Mercier, **Histoire de l'Afrique…**, Op. cit., pp. 474-475.

3. بن العطّار، المصدر السابق، ص. 149.

4. Mercier, **Histoire de Constantine**, Op. cit., p. 332 ; Vayssettes, Ibid., pp. 503-505 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 289 ; [Boutin], Ibid.

5. كان الداي قد أخذ احتياطاته في حال فشل مسعاه السالف الذكر، حيث شحن برج تافورة بالمدفعيين - معظمهم كراغلة وضع فيهم ثقته - و زوّده بكلّ ما يلزم من ذخائر حربية، كما أمر بنصب أو إعادة توجيه عددٍ من قطع المدفعية باتجاه الجنوب الشرقي، كي يتيسّر من البرج التحكّم بالشطر من الطريق الرئيسي المؤدي إلى مدينة الجزائر الواقع بين باب عزّون و عين الربط ؛ و على صعيدٍ آخر، أرسل أمرًا عاجلاً إلى كلّ من باي التيطري و قايد سيباو ليحشدا قوّاتهما و يعسكرا بهما في حمزة، ثمّ يتجها إلى البيبان بقصد سدّ الطريق في وجه "الباي" أحمد شاوش و القوّات المرافقة له : - Sander Rang, Op. cit., p. 564 ; Mercier, **Histoire de l'Afrique…**, Ibid., p. 474 ; Vayssettes, Ibid., p. 503.

كونه "**رجل عاقل سيرته مليحة**"[1]، و يبغض بطبعه التجاوزات و المظالم الّتي اقترفها الغاصب خلال ذلك الظرف الوجيز ؛ و كذلك فعلت قوّات الإنكشارية الّتي تخلّت سريعًا عن أحمد شاوش، فألقي عليه القبض و أعدم خنقًا[2].

بعد أن زال خطر أحمد شاوش، تملّكت الداي الرغبة في الثأر من الّذين قتلوا سِلْفه و هدّدوا حكمه ؛ فتراجع عن العفو الشامل الّذي أصدره آنفًا، و أرسل إلى باي قسنطينة الجديد طوبال أحمد أمرًا بإعدام جميع العسكر الّذين شاركوا في المؤامرة. و بما أنّ عدد المتورّطين كان يعدّ بالعشرات، فإنّ الباي ارتأى أن تكون الإعدامات سرّية ما أمكن و متباعدة زمنيًا حتّى لا يثير تململ الجنود ؛ لكن العكس هو الّذي حدث، إذ سرت في أنفس العديدين من أفراد الإنكشارية سواء بقسنطينة أو الجزائر خشية و بلبلة من أن تطالهم يد الجلاّد. و قد كان ذلك مدعاة لتنامي سخط الإنكشارية على الداي، سخطٌ ممزوج بطعم المرارة جرّاء الهزائم و الخيانات الّتي تعرّضوا لها، لا سيّما أنّهم عدّوا سقوط تسعمائة من زملائهم قتلى خلال الحروب و القلاقل الّتي شهدها عهده[3].

و كما لو كان ذلك غير كافٍ، كان آخر سلسلة أخطاء الحاج أحمد باشا الّتي لا تغتفر بالنسبة لمناوئيه إتمامه أواسط أكتوبر لبناء قصر يأوي زوجته الشابّة لصيق بدار الإمارة، حيث جعل له باب خفيّ يمكّنه من ارتياده متى شاء ؛ و اعتبر ذلك بالنسبة للإنكشاريين المتشبّثين بالعوايد خرقًا مرفوضًا لقانون قديم غير مكتوب يمنع على الداي إيواء حريمه في مقرّ الحكم[4].

يذكر شريف الزهّار أنّ من بوادر انفجار الثورة تمرّد سفرات الإنكشارية على متن السفن الجزائرية - الّتي خرجت إبّان شهر أكتوبر تطارد المراكب البرتغالية -، حيث أجبروا الريّاس على العودة إلى الجزائر قبل أن يتمّوا مدّة سفرهم[5]. و لكن الداي لم يتنبّه لتلك الأمارات المنذرة بسوء أو بالأحرى تصنّع عدم المبالاة بها، آملاً أن تكون سحابة صيف سرعان ما تنقشع ؛ و لا يسعنا إلاّ القول بأنّ آماله خيّبت يوم السابع نوفمبر، إذ اغتنمت جموع الثائرين، الّذين بلغ عددهم ما يربو عن الخمسمائة إنكشاري فترة دفع

---

1. بن العنتري، **فريدة...**، المصدر السابق، ص. 101.

2. بن العطّار، المصدر السابق، ص. 149 ؛ مجهول، **أخبار بلد...**، المصدر السابق، ص ص. 79-80.

- Vayssettes, Op. cit., 1869, pp. 505-508 ; S., Op. cit., pp. 167 & 171-172 ; Mercier, **Histoire de Constantine**, Op. cit., pp. 332-334 ; [Boutin], **Reconnaissance...**, Op. cit., p. 14.

- مجهول، المصدر السابق، ص. 80.

3. Vayssettes, Ibid., p. 510 ; Devoulx, **Le Raïs...**, Op. cit., p. 109.

4. de Grammont, **Histoire d'Alger...**, Op. cit., p. 289 ; Mercier, **Histoire de l'Afrique...**, Op. cit., p. 476.

5. الزهّار، المصدر السابق، ص. 98.

علوفة رمضان ليقوموا بمحاصرة دار الإمارة ؛ فيما تمكّن عددٌ منهم النفاذ بأسلحتهم عنوةً إلى الداخل بحثًا عنه. و لئن استطاع الداي الفرار من القصر المذكور آنفًا من خلال القفز لأسطح الدور المجاورة، إلاّ أنّ رصاصة مسدّدة بإحكام من قبل يولداش تعقّبه عبر الأزقّة، أسقطته جثّة هامدة. و بتلك الطريقة المأساوية - الّتي تشبه إلى حدٍّ ما ظروف مقتل سلفه مصطفى باشا - انتهت حياة هذا الداي، لينضاف اسمه إلى قائمة الدايات القتلى، الّتي تكفّل هو بالذات بإعادة فتحها قبل ثلاث سنوات[1].

---

1. للمزيد من التفاصيل حول ظروف مقتل الداي أحمد باشا، انظر : - Devoulx, **Le Raïs…**, Op. cit., pp. 109-112.

انظر أيضًا : الزهّار، المصدر السابق، ص. 99 ؛ بن عمّار، المرجع السابق، ص. 115 ؛ التميمي، **بحوث…**، المرجع السابق، ص. 142.

- Broughton, Op. cit., p. 98 ; Sander Rang, Op. cit., p. 565 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 289.

لا يمكن أن نطوي صفحة هذا الداي، دون أن نشير إلى محاولته تصفية الوضع إقليميًا مع تونس و المغرب الأقصى، لإدراكه أنّ مفتاح عددٍ من المشاكل الّتي عانت منها الإيالة يعود إلى سوء تسيير العلاقات مع الدولتين الجارتين، الّذي ميّز سالف عهده و عهود من سبقوه من الدايات ؛ لأجل ذلك نراه فيما يتعلّق بتونس يرسل سفارة إلى حمّودة باشا - أشار إليها الزهّار بشكل عابر (و في غير إطارها الزمني) - أوائل سبتمبر 1808م للتفاوض حول الصلح، و الّتي أفضت إلى عقد هدنة في 2 نوفمبر كانت ستسمح بتخفيف التوتّر و استئناف العلاقات التجارية بين البلدين، لو لم تزامن أحداث الثورة الّتي أدّت إلى مقتل الحاكم الجزائري : الزهّار، نفس المصدر السابق، ص. 97.

- Rousseau, **Annales…**, Op. cit., pp. 265-266 ; Plantet, **Correspondance des beys…**, Op. cit., T. 3, p. 478.

أمّا فيما يخصّ العلاقة مع المغرب الأقصى، فقد استقبل الداي أحمد في أواسط مايو من نفس السنة سفارة مغربية يقودها ابن أخّ مولاي سليمان لإزالة "سوء التفاهم"، الّذي نتج بين البلدين بسبب ثورة الدرقاويين ؛ و قد كانت أهمّ النقاط الّتي تناولتها هذه السفارة عودة الرعايا الجزائريين اللاجئين بالمغرب جرّاء قمع الثورة المذكورة، و إقرار الحدود رسميًا كما كانت عليه عند وفاة مولاي محمّد بن عبد الله، و مناقشة تهديد نابليون المحتمل بغزو المغرب انطلاقًا من إسبانيا.

انظر في هذا الصدد : الفيلالي، المرجع السابق، ص. 20 ؛ المنصور، المرجع السابق، ص. 286 ؛ قدور الورطاسي، **معالم من تاريخ وجدة**، مطبعة الرسالة، الرباط، 1972، ص ص. 39-40 ؛ الضعيف الرباطي، المصدر السابق، ص ص. 342 و 344-346.

- Broughton, Ibid., p. 86.

و نجهل إن كان لهذا التقارب علاقة بنهاية ابن الأحرش، فقد كاتب السلطان بعد أشهر معدودة ابن الشريف الدرقاوي يطلب منه الإمساك بقرينه المغربي و إرساله إليه، غير أنّ العملية لم تتمّ كما خطّط لها، حيث قتل المعني خلال محاولة إلقاء القبض عليه : الزهّار، نفس المصدر السابق، ص. 87 ؛ محمّد باشا، المصدر السابق، ج. 1، ص. 77 ؛ سعيدوني، "**ثورة…**"، المرجع السابق، 2012، ص. 283 ؛ شويتام، **نهاية…**، المرجع السابق، ص. 97. - Delpech, Op. cit., p. 55 ; Esterhazy, **De la domination…**, Op. cit., p. 208.

و مهما يكن من أمر، فلم يلبث ابن شريف الدرقاوي - بعد أن اضمحلّت قوّته - أن التجأ إلى المغرب الأقصى، هربًا من ملاحقة باي وهران محمّد بوكابوس. و لقد حاول الخروج مجدّدًا في عهد الباي علي قاره باغلي في صيف 1817م، قبل أن توافيه المنية في المغرب بعد فترة وجيزة بوباء الطاعون : الزياني، **دليل…**، المصدر السابق، ص. 307 ؛ المزاري، المصدر السابق، ج. 1، ص. 345 ؛ سعيدوني، نفس المرجع السابق، ص. 285. - Esterhazy, Ibid. ; de Neveu, Op. cit., p. 171 ; Boyer, « **Contribution…** », Op. cit., p. 44.

2-1-2. عهد الداي علي (1808-1809م)

بعدما ثار العسكر على أحمد باشا و قتلوه، انتخبوا أحد زعماء الثورة، بورسه لي محمد بن علي، الّذي عرف بعلي، ليكون دايًا. و لن يسع هذا الاختيار أن يكون موفّقًا البتّة، كون المذكور لم يسبق له أن تولّى منصبًا ذا مسؤولية سواءً في حياته العسكرية أم المدنية ؛ إذ بعد أن تقاعد لدى وصوله لرتبة وكيل حرج - بالموازاة مع اشتغاله غسّالاً للموتى في مؤسّسة بيت المال -، فإنّه عمل كخوجة في "مسيد" (مدرسة) باب عزّون[1].

و مع افتقاره لأيّة خبرة في الإدارة أو شؤون الحكم، حيث وصفه القنصل البريطاني بلانكلي عند مقابلته لأوّل مرّة بأنّه "**كان يبدو عليه أنّه شيخ بسيط أبلد، يجهل حتّى الدور المنوط بالقنصل**"[2]، فقد كان الداي الجديد ذا شخصية ضعيفة، جرّاء خوفه الشديد من أن يقع ضحية مؤامرة و يغتال ؛ و هذا ما يفسّر أنّه خلال البضعة أشهر الّتي حكم فيها البلاد حدثت عدّة عمليات إعدام ضدّ زمر المتآمرين، الّذين كان يتمّ اكتشاف أمرهم[3].

و لنتبيّن ضيق أفق الرجل، يكفي أن نشير إلى أنّه قام بنفي الرايس حميدو إلى بيروت[4]، لأنّه لم يكن يرق له بصفته قبطانًا حضريًا يتمتّع بصفات الرجولة و الشكيمة، و لا يخفي ازدراءه ممّا تقترفه حثالة الأتراك[5] ؛ كما تجلّت عصبيّته و خوره في إقدامه على إخراج فقراء البلد الّذين كانوا يستفيدون لقاء مبلغ زهيد من الدور و الحوانيت الموقوفة على الحرمين، و أكراها للإنكشاريين من "الأتراك" كي يتألّفهم و يجاريهم، بعد أن اعتذر عن منحهم "العوايد" - و هي عبارة عن إكراميات توليه الحكم - لكون خزينة الباشا شبه فارغة[6].

و انتدب قسمٌ من الإنكشارية الّذين لم يعجبهم الأمر إلى الداي وفدًا، كي يعلموه أنّه في حال لم تدفع العوايد، فإنّهم يزمعون تنظيم نهب منظّم للمدينة ؛ و يطلبون موافقته على ذلك. لقد رفض علي الغسّال بطبيعة الحال الإنذار مشيرًا أن ذلك مستحيل من عدّة أوجه، و أشار عليهم بالمقابل أنّه يفضّل

---

1. الزهّار، المصدر السابق، ص. 103 ؛ **دفتر مواجبات...**، المصدر السابق، رقم 1978 مكرّر، و. 401وْ ؛ رقم 1973، و. 406ظْ ؛ رقم 1985 مكرّر، وو. 288ظْ و 416ظْ.

2. Broughton, Op. cit., p. 99.

3. Id., pp. 99-102 & 105-106.

كان أوّل ما قام به الداي هو إعدام زعيم المتمرّدين على الداي أحمد باشا، و هو آغا الإنكشارية أحمد اللباني : بن عمّار، المرجع السابق، ص. 116.

- محمّد باشا، المصدر السابق، ج. 1، ص. 78.

4. Devoulx, **Le Raïs...**, Op. cit., p. 113.

5. Broughton, Ibid., p. 152.

6. الزهّار، نفس المصدر السابق، ص. 111 ؛ بن عمّار، نفسه.

- de Grammont, **Histoire d'Alger...**, Op. cit., p. 289.

تقسيم خزينة الدولة، موضّحًا أنّ ذلك سيؤدي في كلا الحالتين عمليًا إلى حلّ الأوجاق و زوال النظام العثماني برمّته[1].

و بعد أن عجز الداي الجديد عن دفع علوفات ذي القعدة في ميعادها المحدّد لنفس السبب المذكور أعلاه، بدأت الاضطرابات تزداد حدّةً يومًا بعد يوم في العاصمة بفعل زمرٍ من حثالة الإنكشارية الّتي انتشرت في الأزقة و الفحوص تتعدّى و تنهب دون خوفٍ من العقاب[2]. و حيال ذلك، أشار خوجة الخيل على الداي بمعالجة الوضع قبل أن ينفلت ؛ الداي الّذي تملّكه الخوف أن تثور الإنكشارية ضدّه إن هو ضرب على أيدي الجناة، ارتأى أن يرسل أعضاء الديوان إلى القشلة الأكثر شغبًا الّتي انطلقت منها الثورة الأخيرة و المعروفة بالقشلة الخضراء[3]، ليعقدوا اجتماعهم فيها. و بعين المكان، أقرّ الديوان أنّ الدولة لن تتحمّل المزيد من الاضطرابات، و عقب سؤال موجّه لليولداش حول ما إذا كانت علوفاتهم كافية أم لا، أعلن مستندًا على الصمت المخيّم أنّه لن يُسمح بأعمال النهب أو توزيع أموال - من غير العلوفات - على حساب الخزينة ؛ مضيفًا أنّ قوانين البلاد ستحترم بصرامة و أيّة مخالفة سيعاقب عليها بشدّة. و كما جرت العادة خلال تلك الاجتماعات، قرئت سورة الفاتحة ختامًا لإضفاء صبغة أكثر ارتسامية على القرارات المتّخذة[4].

بالموازاة مع هذا الديوان المرتجل، اتّخذ الداي منتصف يناير 1809م سلسلة من القرارات ظنّها حصيفة، حيث قام بتجديد حظر حمل السلاح على الإنكشارية خارج الثكنات و الأبراج، كما أمر باسم الدين بغلق الخمّارات و بمنع عزف الموسيقى في المقاهي، كي يخفّ ارتياد الإنكشارية لها و يعيد بالتالي الأمن بشكلٍ تدريجي إلى المدينة[5]. غير أنّ حظر الخمر و الاتّجار به أثار ثائرة مجموعة من الإنكشارية من محبّي ذاك الشراب - و أغلبيتهم كانت من أتباع الطريقة البكطاشية[6] -، الّذين انضافوا إلى العدد المتزايد

---

1. Sander Rang, Op. cit., pp. 565-566.

2. Broughton, Op. cit., pp. 104 & 106.

3. "الثكنة" الخضراء : اسمها بالعثمانية يشيل قپو، الّتي تعني حرفيًا "[ذات] الباب الخضراء"، و هو الاسم الّذي عرفت به لدى الأتراك العثمانيين كلّ من ثكنتي صالح پاشا و علي پاشا، اللّتان كان لهما مدخلٌ واحد ؛ و ذلك سبب اعتبار العديد من المؤرّخين لها خطأً على أنّها تشكّل ثكنة واحدة : خلاصي، **التنظيمات...**، المرجع السابق، ج. 1، ص. 158.

4. Sander Rang, Ibid.

5. Broughton, Ibid., p. 104.

6. انظر بخصوص الطريقة البكطاشية :

- Albert Doja, « **A political history of Bektashism from Ottoman Anatolia to Contemporary Turkey** », in : Journal of Church and State 48 (2), 2006, pp. 423-450 ; Metin Ziya Köse, « **Yeniçeri ocağının Bektaşîleşmesi süreci ve yeniçeri-bektaşî ilişkileri** », in : Türk Kültürü ve Hacı Bektaş Velî - Araştırma Dergisi - 49, 2009, pp. 195-208.

من النادمين على تولية علي الغسّال - كما بات يعرف - دايًا[1]. و دون أن يعطي بالاً لتوصية الديوان بعدم سفك المزيد من الدماء، واصل الداي علي - غير آبهٍ بالعواقب - عمليات الاغتيال، حيث أمر بقتل أحد المتآمرين الّذين كشف أمرهم داخل مزار صوفي التجأ إليه، فقام السادن برفع علمٍ أسود تعبيراً عن غضب الوليّ الدفين لانتهاك حرمة ضريحه![2] ؛ كما قام للتخلّص من أحد ضبّاط الإنكشارية من "الثكنة الخضراء" بتعيينه قائدًا لقليعة، و أمر حرس موكبه بإغراقه في الطريق بوادي مزفران، لكنّ المعني أفلت بطريقةٍ ما و عاد إلى ثكنته ليروي لزملائه الغدر الّذي كاد أن يروح ضحيته. و مثلما كان متوقّعًا حدث تمرّد، غير أنّه كان عفويًا و محدودًا، و رغم ذلك لم يتمكّن الداي من إخماده إلاّ بصعوبة بالغة[3]. و عوض أن يعزّز سلطته بتلك التصفيات الرعناء، فقد الداي علي الغسّال على العكس القليل ممّا تبقّى له من اعتبار في أعين أفراد الأوجاق.

و بلغ السيل الزبى عندما التجأ آغا الصبايحية عمر الدلجي إلى "الثكنة" المذكورة آنفًا صبيحة 4 مارس، خوفًا من انتقام الدولتلي ؛ إذ كان قد عاتب هذا الأخير صراحةً على عملٍ جائر ارتكبه من فوره. و سارع الإنكشارية للدعوة إلى عقد ديوان مرتجل بمحضر عمر آغا، تقرّر فيه رفض أن يستمرّ ذاك الداي الضعيف و المخاتل في الحكم، على أن يقوم ديوان الإنكشارية بتعيين واحدٍ أكفأ مكانه[4]. و بالفعل، توجّه وفدٌ من الإنكشارية إلى القصبة لإعلام الديوان بما عقدوا العزم عليه ؛ و إثر ذلك، أصدر هذا الأخير أمره بتنحية علي عن الحكم و تعيين سميّه خوجة الخيل - بناءً على تزكية جنود "الثكنة" الخضراء - بدلاً عنه. و تمّ إرسال اثنان من شوّاش العسكر إلى دار الإمارة ليعلموا الداي بالقرار، الّذي ينهي حكمه و حياته في ذات الآن ؛ و إزاء رفضه - لاعتبارات دينية - أن ينتحر بتناول السمّ الّذي قُدّم له، تمّ جرّه إلى مقرّ آغا الإنكشارية المعروف بسركاجي، حيث خنق هناك دون إنظار[5].

---

1. المدني، **محمّد...**، المرجع السابق، ص. 57.

- Broughton, Op. cit., p. 104.

2. Id., p. 105.

3. Sander Rang, Op. cit., p. 566.

4. Id.

- سامح التر، المرجع السابق، ص. 594.

5. Sander Rang, Ibid. ; Broughton, Ibid., pp. 107-108 ; Mercier, **Histoire de l'Afrique...**, Op. cit., p. 476.

- الجيلالي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 312.

يروي شريف الزهّار أحداث الإطاحة بالداي علي الغسّال بتفاصيل مختلفة بعض الشيء، حيث يصوّرها خطأً على أنّه انقلاب من تدبير الحاج علي خوجة الخيل : الزهّار، المصدر السابق، ص. 105. انظر أيضًا :

- Filippo Pananti, **Relation d'un séjour à Alger, contenant des observations sur l'état actuel de cette régence, les rapports des états barbaresques avec les puissances chrétiennes, et l'importance pour celles-ci de les subjuguer**. Trad. de l'anglais. Le Normant, Paris, 1820, pp. 420-421.

2-1-3. عهد الداي الحاج علي (1809-1815م)

الجدير بالذكر بخصوص تولية الحاج علي بن خليل أنّه لم يتمّ ترشيحه من قبل الأوجاق للدايلك - كما ذكرت بعض المصادر - لكونه أعزبًا، بل لأنّ عمر آغا الصبايحية الّذي اقترُح عليه تولّي المنصب أوّلاً رفض بأدب تلك الحظوة، معلّلاً بأنّه رجل حرب لا رجل سياسة[1].

و كان الحاج علي - الّذي كان معروفًا أيضًا بلقب خدا ويردي "عطا الله"[2] - أحد الوزراء في حكومة الداي السابق، لكنّه لم يكن له أي منصب سامٍّ خلال السنوات العشر الماضية ؛ أيّ منذ نحّاه عن منصب خوجة الباب الداي مصطفى بُعيد تولّيه، على خلفية اقتحام عددٍ من الإنكشارية لسرايا دار الإمارة - كما مرّ علينا - عندما كان خال هذا الأخير على فراش الموت[3].

رغم نجاح الانقلاب، واصلت زمرٌ من الإنكشاريين تعدّياتها على الأفراد و الممتلكات، و اكتفى الداي الجديد بنفي بعضٍ من أولئك المعتدين ؛ فما كان من أقسامٍ واسعةٍ من الإنكشارية الّتي كانت تنشد الهدوء إلاّ أن أعلمت الحاج علي على لسان ديوانها، أنّه إن لم يعاقب بصرامة أكبر الجناة، فيخشى أن يسعى عددٌ متزايد منهم - لا سيّما الأتراك المتزوّجين و الكراغلة - إلى الاقتصاص، فتشيع بذلك عمليات القتل و الفتنة في الأوجاق. لقد اعتبر الداي - الّذي كان بطبعه شرسًا - ذلك بمثابة ضوءٍ أخضر لينزل أقسى العقوبات على أهون خطأ أو حتّى لمجرّد الشكّ[4].

و خشية أن يلقى نفس مصير الدايات الثلاث السابقين، ضاعف الحاج علي عدد المخبرين الّذين بثّهم في أوساط الإنكشارية بشكل أساسي، كي يأتوه بكلّ صغيرة أو كبيرة تجري في أماكن تجمّعهم. و عليه، طالت الإعدامات خلال فترة حكمه كلّ من تُشْتّم فيه رائحة التآمر أو يشكّل تهديدًا محتملاً، بشكلٍ جعل منه بشهادة بعض من عاصروه، أحد أكثر حكّام الجزائر سفكًا للدماء، و استحقّ معه لقب "النمر" الّذي أطلقه عليه أفراد الإنكشارية[5].

---

1. Sander Rang, Op. cit., p. 566 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 290 ; Mercier, **Histoire de l'Afrique…**, Op. cit., p. 476.

2. **دفتر مواجبات…**، المصدر السابق، رقم 1985 مكرّر، و. 222ظ ؛ محمّد الكاتب، المصدر السابق، و. 14و.

انظر أيضًا : الجيلالي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 312. - Barbier de Meynard, Op. cit., 1er vol., p. 689.

يذكر نقيب أشراف الجزائر أنّ هذا الداي، الّذي يعود أصله إلى بلدة أماسيه بشمال الأناضول، كان "**يدّعي الشرف و يلبس عمامة خضراء إلى اليوم الّذي تولّى فيه.**" : الزهّار، المصدر السابق، ص. 105. انظر أيضًا : **دفتر مواجبات…**، نفس المصدر السابق، رقم 1971، و. 195و.

3. **دفتر مواجبات…**، نفس المصدر السابق، رقم 1978 مكرّر، و. 197و ؛ رقم 1973، و. 216ظ ؛ رقم 1985 مكرّر، و. 222ظ ؛ رقم 1985، و. 188ظ ؛ رقم 1972، و. 185و.

4. Sander Rang, Ibid., p. 567.

5. Broughton, Op. cit., pp. 125, 142 & 160 ; Pananti, Op. cit., pp. 423-424. - حمدان خوجة، المصدر السابق، ص. 151.

و بادر الداي فور توليه إلى إيلاء اهتمامه لتعزيز القوّات البحرية، حيث أرسل في استدعاء أكفأ الريّاس الجزائريين القبطان حميدو من منفاه في بيروت[1] ؛ كما "**اجتهد في تنشئة**(كذا) **المراكب الجهادية**" حسبما ذكر الزهّار، ناهيك عن الغنائم الّتي أدمجت في الأسطول، لزيادة عدد قطعه[2]. و لم يكن الداي يسعى من وراء ذلك فقط إلى إعطاء دفع جديد لنشاط البحرية، بل كان همّه منصّب بالمقام الأوّل إلى التحضير لمرحلة جديدة من العمليات الحربية ضدّ تونس[3].

كان وصول قپوجي باشي في 12 يوليو 1809م حاملاً معه رموز التولية - و هي القفطان و "القليج" (السيف)، و الفرمان -، دون أن يكون الداي الجديد قد تقدّم بطلب بهذا الخصوص، سابقة في تاريخ الإيالة[4] ؛ لكن الحاج علي لم يكن ليجهل وقوف حمّودة باشا وراء تلك المهمّة، لا سيّما أنّ الفرمان السلطاني نوّه بشدّة على ضرورة أن تعيش الأوجاقات المغربية في وئام و حسن جيرة. و لقد كان هذا الحدث بعينه سبب احتداد الداي ضدّ باي تونس، لأجل ما اعتبره تدخّلاً سافرًا في شؤون حكمه و علاقته الخصوصية مع الباب العالي.

مهما يكن من أمر، قام الداي في نهاية ذات السنة بإرسال هدايا و تحف فخمة إلى السلطان العثماني محمود الثاني[5] على متن سفينة إنكليزية[6]. و كان الغرض من ذلك كسب ودّ العاهل و وزرائه، إضافةً إلى

- الزهّار، المصدر السابق، ص. 111 ؛ شالر، المصدر السابق، ص. 162. انظر أيضًا : الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 259.

1. Devoulx, **Le raïs…**, Op. cit., p. 113.

2. الزهّار، المصدر السابق، ص. 105. انظر أيضًا في نفس الصدد :

- الجيلالي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 312. - Devoulx, « **La marine…** », Op. cit., pp. 415-416.

3. الإمام، المرجع السابق، ص. 430.

4. Broughton, Op. cit., p. 113.

5. محمود الثاني : هو ابن عبد الحميد الأوّل بن أحمد الثالث (1199-1255هـ/1785-1839م). كان السلطان الثلاثون للدولة العثمانية، استقرّ عزمه على إصلاح أمور الدولة بداية من تنظيم الإنكشارية و إعادة بعثها على أسس حديثة، بيد أنّ محاولته قوبلت بثورة عارمة في رمضان 1223هـ/نوفمبر 1808م قتل خلالها الصدر الأعظم و أحرقت عدّة أحياء من العاصمة ؛ فاضطرّ السلطان إلى أن يتراجع، لكنّه اتّخذ قرار القضاء على تلك الفئة الباغية الّتي حطّمت جميع جهود إصلاح السلاطين السابقين. و قد واتته الفرصة إلى ذلك في سنة 1241هـ/1826م، فيما عرف بالواقعة الخيرية تيمّنًا. و يعتبر محمود الثاني أوّل سلطان عثماني استطاع إدخال إصلاحات جذرية في الجيش و أجهزة الدولة لتجاري الدول الأوروبية من جديد ؛ غير أنّ الظروف الدولية الصعبة المتمثّلة في الحروب مع روسيا، حرب استقلال اليونان و تمرّد محمّد علي أنهكت الدولة، و زادت من تدخّل الدول الكبرى بشكل غير مسبوق. توفي السلطان محمود بمرض السلّ بعد أن دام حكمه قرابة 31 سنة، و خلفه ابنه عبد المجيد : المحامي، المرجع السابق، ص ص. 398-454 ؛ أوزتونا، المرجع السابق، مج. 2، ص ص. 664-679 ؛ مج. 3، ص ص. 9-23.

6. Devoulx, **Tachrifat**, Op. cit., p. 62.

انظر أيضًا : - Broughton, Ibid., p. 125.

التماس مساعدات حربية ؛ و بالفعل، عادت البعثة إلى الجزائر في محرّم 1225هـ الموافق لفبراير 1810م، بعد أن أهدى السلطان كربيط[1] مسلّح بعشرين مدفعًا و كمّية معتبرة من العتاد البحري[2].

و في ربيع 1810م، أمر الحاج علي باشا الريّاس لدى خروجهم للبحر بمضايقة السفن التجارية الّتي ترتاد السواحل التونسية، في ظلّ استمرار القطيعة بين البلدين ؛ و كان ينوي بذلك استخدام قوّاته البحرية للضغط على التونسيين[3]. و على هذا الأساس، قام القبطان رايس حميدو بمصادرة بضاعة تونسية كانت تنقلها سفينة أوروبية[4].

و لقد بلغ هوس الداي بعداوة حمّودة باشا أن قام بإعدام داڤيد كوهين بكري و صادر ثروته، لكونه قام بوسق ثلاثة مراكب بالقمح إلى تونس في يناير 1811م[5] ؛ و من ثمّ، دون اعتبار للخدمات الجليلة الّتي قدّمها في تهدئة بايلك الشرق، قام بعد نحو شهرٍ و نصف بخنق باي قسنطينة أحمد طوبال - و كذا خليفته و صهره -، لأنّه رخّص لليهودي المذكور بالوسق من عنّابة[6].

---

1. كربيط : سفينة حربية شراعية غالبًا ذات ثلاث صواري، أصغر من الفرقاطة :

- P. E. Herbin de Halle, **Des bois propres au service des arsenaux de la marine et de la guerre**, S. C. L'Huillier, Paris, 1813, p. 264.

2. سامح التر، المرجع السابق، ص. 594. انظر أيضًا : الزهّار، المصدر السابق، ص. 105.

- Devoulx, « **La marine…** », Op. cit., p. 415.

3. الإمام، المرجع السابق، ص ص. 430-431. - Rousseau, **Annales…**, Op. cit., p. 268.

عاود حمّودة حشد قوّاته بنواحي الكاف في نهاية شتاء 1810م، تحسّبًا لهجوم جزائري محتمل : - Loth, Op. cit. pp. 80-81.

- الزهّار، نفس المصدر السابق، ص. 106. 4. Devoulx, « **Le registre…** », Op. cit., 1872, p. 154.

5. Broughton, Op. cit., pp. 154-155.

لم تكن تلك هي الإدانة الوحيدة، الّتي من أجلها أعدم مقدّم اليهود ؛ فقد اتّهمه غريمه داڤيد دوران أيضًا باختلاس أموال الطائفة، و زعم أنّه تقدّم بشكوى لدى السلطان العثماني ضدّ الداي :

- Eisenbeth, Op. cit., p. 380 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 290.

و تزعّم دوران الطائفة اليهودية حتّى 18 أكتوبر 1811م، و هو تاريخ شنقه ؛ و كانت تلك دسيسة حبكها له جوزيف بكري انتقامًا لمقتل ابنه داڤيد : بن صحراوي، المرجع السابق، ص. 204.

بعد أسبوعين من هذا التعيين، أشعلت النار عمدًا في مخازن آل كوهين بكري ؛ و اتّهم أحد أفراد أسرة ثابت بن طيبي المنافسة بالجرم، و أعدم. و الأمر الجدير بالاهتمام في ذلك هو أنّ عددًا من أفراد الأسرة اليهودية المذكورة التجأوا إلى ثكنتي صالح باشا و علي باشا بحثًا عن ملاذ : - Broughton, Ibid., pp. 172-173.

6. Broughton, Ibid., p. 158 ; Sander Rang, Op. cit., p. 567 ; Vayssettes, Op. cit., 1869, p. 511.

نعتقد أنّ القمح كان على ما يبدو موجّهًا لتموين حامية كورفو الفرنسية ؛ و في كلا الحالتين الأمر سيّان، إذ أنّ خروج القموح كان مرهونًا بترخيص صريح من الداي من جهة، و العلاقات مع الفرنسيين آلت وقتذاك إلى شبه قطيعة من جهة أخرى. انظر في هذا الصدد :

- Plantet, **Correspondance des beys…**, Op. cit., T. 3, p. 498 ; Sander Rang, Ibid., pp. 566-567 ; Devoulx, **Les archives…**, Op. cit., pp. 145-147.

و في أوائل شهر مايو من نفس السنة، هاجمت عمارة جزائرية من ستّة سفن و أربع لنجونات بقيادة حميدو جربة، غير أنّه بسبب محاولة مباغتة قصبة الجزيرة قبل طلوع الشمس حرثت السفن في القيعان الرملية قليلة الغور الواقعة قرب رأس الرمل، و تطلّبها الأمر للافلات عدّة ساعات من العمل المضني ؛ و عند وصول خبر الإغارة إلى تونس، أمر حمّودة البحرية التونسية بالخروج على عجل لتقطع طريق الجزائريين، و التقت بها بخليج الحمّامات في 19 من الشهر المذكور. المعركة العنيفة الّتي دارت بين فرقاطتي القبطانين فحسب من منتصف النهار حتّى العشيّة انتهت لصالح الجزائريين، و اقتيدت السفينة التونسية غنيمة إلى الجزائر، فيما تراجعت باق السفن التونسية الاثنا عشر إلى ميناء منستير[1].

قبيل تلك الواقعة البحرية بقليل، دخلت الأعمال العدائية بين تونس و الجزائر مرحلة جديدة تمثّلت في الحرب غير المباشرة، حيث كان كلّ طرف يملك بياذق يمكنه بطريقة أو بأخرى تحريكها لخلق متاعب للطرف الآخر : كان الزواوة يشكّلون فرقة عسكرية لا تقلّ أهمّية عن الإنكشارية في الجيش النظامي التونسي، بفضل ولائها للبيت الحسيني و ثباتها في القتال ؛ و لم يكن صعبًا على حاكم تونس التحريض أو الإيعاز لجنوده القبائليين العائدين لمناطقهم بالثورة على "الأتراك" و خلق متاعب لهم، لا سيّما بقطع الطريق السلطاني الحيوي الرابط بين قسنطينة و الجزائر. و عليه، يجب أن تعتبر ثورة فليسة الّتي اندلعت في أوائل أبريل كإحدى حلقات الحرب المذكورة[2]. أمّا الطرف الجزائري، فكانت بيده ورقة أتراك تونس الّذين كان لهم ميلٌ واضح له و ولاء متذبذب لحاكمهم ؛ إذ كان هؤلاء دائمو التطلّع للجزائر و دايها بروح الموالاة و المطاوعة، لاعتبارهم أنّها ولاية عثمانية بحقّ يحكمها جند الترك، فهم الّذين يتولّون أوّلاً و آخرًا انتخاب حاكمها[3]. و لقد فتح حمّودة باشا باب التجنيد للأهالي في صفوف الإنكشارية، كما قام بالموازاة مع الاستكثار من الجند التركي بالحدّ من سطوتهم و امتيازاتهم شيئًا فشيئًا، بسبب قلّة ثقته بهم[4].

---

1. الزهّار، المصدر السابق، ص ص. 106-107 ؛ الإمام، المرجع السابق، ص ص. 431-432 ؛ التميمي، **بحوث...**، المرجع السابق، ص. 58، ه. 9.
- Rousseau, **Annales...**, Op. cit., p. 268.

أرجع ابن أبي الضياف سبب هزيمة القبطان التونسي المورالي إلى خذلان بقية ريّاس بلاده، الّذين كان أغلبهم من الأرناؤوط : ابن أبي الضياف، المصدر السابق، 1999، ص. 51. بيد أنّ عدم احتدام معركة شاملة منذ البدء بين جميع المراكب المتواجهة خير دليل على اتّفاق القبطانين على أن ينحصر القتال بين مركبيهما، حقنًا للدماء و حفاظًا على سلامة المراكب الجهادية لبلديهما.

2. ابن أبي الضياف، نفس المصدر السابق، ص ص. 121-122 ؛ العبيدي، المرجع السابق، ص. 156 ؛ الإمام، نفس المرجع السابق، ص. 209. انظر أيضًا :
- **Registre du beylik**, A.O.M., 15MI-14, n° 13, fol. 1v° ; Broughton, Op. cit., p. 161.

3. رسالة القنصل الانكليزي ماجرا إلى حكومته، تونس، 7 يونيو 1793، خزينة الوثائق البريطانية، ملف 77/3. نقلاً عن : الإمام، نفس المرجع السابق، ص. 198.

4. Armand de Flaux, **La régence de Tunis au dix-neuvième siècle**, Librairie orientale, algérienne et coloniale de Challamel, Ainé, Paris, 1865, p. 219.
- ابن أبي الضياف، نفس المصدر السابق، ص ص. 53-54 ؛ الإمام، نفس المرجع السابق، ص. 204.

و أدّى تفطّن الأتراك التونسيين إلى سياسته المداهنة تجاههم، بالإضافة إلى حالة الحرب مع الجزائر الّتي حمّلوه مسؤوليتها، إلى تزايد مشاعر الغيظ ضدّه ؛ و أفضت اجتماعاتهم إلى التخطيط لاغتيال الباي و جميع الأمراء الحسينيين يوم 30 أغسطس، و قاموا بانتخاب واحدٍ منهم ليصبح دايًا، كما عيّنوا وزراء له حتّى يصبح نظام الحكم في تونس بأيديهم على شاكلة ما هو قائم بالجزائر[1].

بيد أنّ حمّودة تناهى إلى علمه أمر المؤامرة، فأخذ احتياطاته. و لمّا تيقّنوا فشل خطّتهم الأوّلية، ثار ما يربو عن الثلاثة آلاف من الجنود الأتراك في تونس، غير أنّ العديد منهم انشغلوا بنهب الحوانيت ؛ و كذلك ثارت حاميات حلق الواد، الحمّامات و الكاف. من جهته، كلّف حمّودة باشا وزيره يوسف صاحب الطابع بمواجهة الثوّار على رأس قوّات من المخازنية و الزواوة و المماليك، الّذين جعل منهم حرسه الخاصّ ؛ أمّا الثوّار الأتراك، فانزووا بشكلٍ غير مدروس في قلعة القصبة، الّتي لم يكن بها من القوت و البارود ما يكفي لحصار يومين. و باستعانة الوزير ببعض ضبّاط المدفعية الفرنسيين و الإنكليز، استطاع اليوم التالي استنزاف ذخيرة المتحصّنين و فتح ثغرات كبيرة في سور القلعة. و قبل انبلاج صبح الأوّل من سبتمبر، هرب نحو 1200 ثائر من قلعة القصبة - من ضمنهم الداي الّذي انتخبوه و وزراؤه - و توجّهوا غربًا آملين بلوغ الأراضي الجزائرية، فيما انسلّ مئات آخرون من على أسوار القلعة و تواروا في نواحي المدينة ؛ أمّا المتبقّون في القلعة، الّذين بلغ عددهم حوالي 1300، فألقوا السلاح و استسلموا لقدرهم. لقد أرسل حمّودة صبايحيته يقتفون أثر الفارّين و أدركوهم على مسيرة يومين، فقتلوهم عن آخرهم ؛ و بذلك، مع الّذين أمر الباي بإعدامهم، بلغ عدد الّذين أبيدوا في هذه الثورة ما يزيد عن ثلاثة آلاف إنكشاري تركي[2].

و في أوائل شهر يوليو 1812م، قدِم مير أحمد قپوجي باشي إلى الجزائر حاملاً فرمان إقرار الحاج علي باشا في منصبه ؛ و قام بإعلام الداي و الديوان أنّ الپاديشاه لن يقبل استمرار حالة العداء بين الجزائر و تونس، و رفع النبرة مهدّدًا أنّه إن لم يستجاب لطلب مولاه، فإنّه سيتمّ اعتبار الجزائريين عصاة و تغلق في وجههم موانئ المشرق[3].

---

1. de Flaux, Op. cit., pp. 219-220.

- الإمام، المرجع السابق ، ص. 205.

2. ابن أبي الضياف، المصدر السابق، 1999، ص ص. 54-56 ؛ الإمام، نفس المرجع السابق، ص ص. 205-206.

- Rousseau, **Annales…**, Op. cit., pp. 271-275 ; de Flaux, Ibid., pp. 219-223 ; Broughton, Op. cit., pp. 169 & 178 ; T. Bachrouch, « **La milice turco-ottomane de Tunis. *Tunus yeniçeri ocaghı*** », in : A.H.R.O.S. 45-46, 2012, pp. 51-52.

في الواقع، تمكّن العشرات من إنكشارية تونس اللجوء إلى الجزائر، من بينهم مجموعة فرّت على مركب قرصنة صغير مزوّد بأربع مدافع من نوع صيّادة (مركب سريع ذو صاريين و أشرعة مستطيلة تعلوها أخرى مثلّثة) : - Devoulx, « **La marine…** », Op. cit., p. 415.

3. Sander Rang, Op. cit., p. 568.

- سامح الترّ، المرجع السابق، ص. 597 ؛ زهرة، المرجع السابق، ص ص. 86-87.

بعد أيّام، أمر الداي القبطان حميدو بالخروج بعمارة كبيرة مكوّنة من أحد عشر سفينة حربية و ستّ لنجونات، بالإضافة إلى غليوطة و صيّادة، و كلّفه أن يضرب حصارًا جديدًا على ميناء حلق الواد الّذي وصل قبالته في 24 يوليو ؛ و كان قد أرفقه بأحد أعضاء الديوان مفوّض بتقديم رسالة منه إلى حمّودة باشا و السعي إلى تسوية سلمية تتضمّن عقد صلح نهائي، بشرط أن تتعهّد تونس ببعض الالتزامات. لكن بعد أن تعثرت المفاوضات بخصوص تفاهة اعتبار حمولة الزيت "لإضاءة جوامع مدينة الجزائر" عربون ولاء أم تطوّع ديني، قامت العمارة - وفقًا للأوامر - بقصف محدود لقلعة حلق الواد. حينئذٍ، أمر حمّودة المراكب التونسية بالتصدّي للهجوم ؛ و بعد تبادل وجيز لإطلاق النار، ارتأى الجزائريون نشر قلاعهم للمغادرة يوم 10 أغسطس، مفضّلين مواصلة عمليات القرصنة على قتال أخوي عقيم، فيما أرسِل مركب إلى الجزائر ليعلم كلّ من الداي و القپوجي باشي برفض باي تونس. و في حين ترك تصرّف السفن الجزائرية انطباعًا لدى عامّة التونسيين بأنّهم انتصروا في تلك المواجهة، كان الباي يدرك جيّدًا أنّ الأمر لن يتوقفّ عند هذا الحدّ[1].

و لم يخطء الباي في ذلك، إذ لمس القپوجي باشي تصلّب الموقف الجزائري لدى أعضاء الديوان، الّذين ردّوا على تحذيراته بالقول : "**إذا لم نحصل على حقوقنا بأنفسنا، فإنّنا لا نقبل أيّ أمر**" ؛ فعاد المبعوث إلى استانبول خائبًا. و لقد أمر السلطان محمود الثاني، الّذي استشاط غضبًا أن تعصى أوامره بتلك الطريقة، بحجز ممتلكات رعايا الأوجاقات الثلاث، و مقاطعة سفنهم في جميع "الممالك العثمانية"[2].

بعد أن أعلمت الإيالة الدول الّتي ترتبط معها بمعاهدة سلم بعملية الحصار، واصلت السفن الجزائرية دورياتها بشكل متقطّع قرب السواحل التونسية[3]. و الجدير بالذكر أنّ حادثين مرتبطين بتلك العمليات الحربية كانت وراء تردّي العلاقات مع الولايات المتّحدة، بشكل سيفضي إلى طرد قنصلها في أواخر يوليو - و هو الأمر الّذي سيعتبره الطرف الأمريكي بمثابة إعلان حرب مع وقف التنفيذ، بسبب انشغاله وقتئذٍ بالحرب الأنكلو أمريكية (يونيو 1812- فبراير 1815م) - : كان أوّلهما احتجاز سفينة تجارية أمريكية

---

1. ابن أبي الضياف، المصدر السابق، 1999، ص. 58 ؛ الإمام، المرجع السابق، ص. 433.

- Sander Rang, Op. cit., p. 568 ; Rousseau, **Annales…**, Op. cit., pp. 284-285.

2. تاريخ جودت، مج. 10، ص. 15. نقلاً عن : سامح التر، المرجع السابق، ص ص. 597-598. - Sander Rang, Ibid., p. 569.

كان قرار السلطان مبرّر أيضًا بتصرّفات بحريّات الجزائر و تونس و طرابلس الغرب، الّتي لم تكن تتوانى عن الاستيلاء على المراكب التجارية العائدة ليونانيين من الرعايا العثمانيين. انظر في هذا الصدد :

- Plantet, **Correspondance des beys…**, Op. cit., T. 3, p. 509 ; Devoulx, « **Le registre…** », Op. cit., 1872, pp. 152-156 & 233-237 ; Devoulx, « **La marine…** », Op. cit., pp. 415-416.

3. Sander Rang, Ibid.

على مقربة من المياه التونسية، بسبب تخلّص ربّانها من الأوراق الخاصّة بالحمولة ؛ و ثانيهما افتكاك فرقاطة أمريكية تونسيين أسيرين بالقوّة من مركب حربي جزائري أصغر حجمًا[1].

في ربيع 1813م، أمر الحاج علي باشا بتجهيز محلّة قوية لتجتمع بقوّات باي قسنطينة، حيث كان قد خطّط لغزو الأراضي التونسية برًّا، بينما يتولّى الأسطول الحربي الجزائري بكامل قطعه ضرب تونس و مينائها ؛ و كانت الخطّة المرسومة ستضع حمّودة أمام موقف و خيار عسكري صعب للغاية، و هو ضرورة سحب قسم من قوّاته على الجبهة الغربية، لتعزيز دفاعات عاصمته[2].

و كان أركان الحرب يدركون جيّدًا أنّ نجاح هذه الخطّة الطموحة مرهون بهدوء الجبهة الداخلية، غير أنّ ريح التمرّد الّتي هبّت على فليسة و العشائر القبائلية مسّت كذلك عددًا من الزعامات القبلية في البيبان و الحضنة ؛ و نرجّح أنّه لأجل ذلك تمّ تكليف باي وهران محمّد المشهور ببوكابوس - لمّا دنّش في شهر أكتوبر 1812م - بمهمّة تأمين طريق الشرق على رأس قوّاته المخزنية، و المرابطة في تلك الأثناء بالمنطقة المضطربة[3].

---

1. ابن أبي الضياف، المصدر السابق، 1999، ص. 58 ؛ منصور عمر الشتيوي، **حرب القرصنة بين دول المغرب العربي و الولايات المتّحدة من محاضر مجلس الأمّة الأمريكي**، مؤسّسة الفرجاني، طرابلس، 1970، ص. 284.

- Maameri Fatima, **Ottoman Algeria in Western Diplomatic History, with Particular Emphasis on Relations with the United States of America, 1776-1816**, Doctorat en langues, Université Mentouri, Constantine, 2008, p. 403.

انظر أيضًا : - Devoulx, « **Le registre…** », Op. cit., 1872, pp. 235.

كان هناك سببين رئيسيين وراء القطيعة أوّلهما عدم إيفاء الأمريكيين بالعتاد و الإتاوة المتّفق عليهما من حيث القيمة، بحسب الطرف الجزائري : شالر، المصدر السابق، ص ص. 142-143 ؛ راي و. إروين، **العلاقات الديبلوماسية بين دول المغرب و الولايات المتّحدة (1776-1816)**، ترجمة إسماعيل العربي، ش.و.ن.ت.، الجزائر، 1978، ص ص. 238-239 و 245.

- Walter Lowrie & Walter S. Franklin, **Documents, legislative and executive, of the Congress of the United States**, vol. IX, Gales and Seaton, Washington, 1834, pp. 615-616 & 619-620 ; Sander Rang, Op. cit., p. 569 ; Devoulx, **Le raïs…**, Op. cit., p. 132.

و ثانيهما إيعاز قنصل بريطانيا - في إطار الحرب الّتي اندلعت بين بلاده و الولايات المتّحدة - للداي : "**سنستولي على سفنهم** - أي الأمريكان - **الحربية، و يمكنكم أنتم الاستيلاء على سفنهم التجارية**" :

- Frederick C. Leiner, **The end of Barbary terror. America's 1815 war against the Pirates of North Africa**, Oxford University Press, New York, 2006, p. 111.

2. الزهّار، المصدر السابق، ص ص. 107-108 ؛ المزاري، المصدر السابق، ج. 1، ص. 333.

3. L. Péchot, **Histoire de l'Afrique du Nord avant 1830**, Gojosso, Imprimeur-Éditeur, Alger, 1914, p. 121 ; Mercier, **Histoire de l'Afrique…**, Op. cit., p. 479. - الزهّار، نفس المصدر السابق، ص. 107.

تاريخ الدنوش الوارد في ترجمة دفتر التشريفات (3 أكتوبر 1827م) خاطئ ؛ و لقد اعتمدنا في تحديده على تاريخ آخر علوفة تقاضاها الباي خلال سنة 1227هـ، وفق ما ذكره الزهّار : **دفتر مواجبات…**، المصدر السابق، رقم 1986، و. 272و°.

- Devoulx, **Tachrifat**, Op. cit., p. 49.

و أبدى زعماء المخزن للوهلة الأولى تحفّظهم و تمنّعهم من الأمر، و حاولوا ثني الباي عن المشاركة في الحملة، إذ صوّروا له مغبّة مواجهة ثوّار متأصّلين في معاقلهم الجبلية يتجنّب حتّى الآغا محاربتهم بالقوّات الّتي تحت يده ؛ و لأجل ذلك، حاول بوكابوس أن يماطل بدعوى خشيته من أن يغتنم الدرقاويون غيابه و يثيروا قلاقل مجدّدًا[1].

بحلول شهر مايو، كان الداي لا يزال يتجلّد بالصبر تجاه الباي محمّد بوكابوس، بسبب الاعتبار الّذي كان يكنّه له ؛ و لم يستطع آغا الصبايحية عمر اقناعه أنّ عدم امتثال مرؤوسه مخاتلة و عصيان[2]. إزاء تصرّف باي وهران المثير للريبة، وجّه له الداي مكتوبًا شديد اللهجة بمثابة تحذير أخير، يأمره فيه بالالتحاق فورًا و دون مواربة على رأس خيرة قوّاته المخزنية ببايلك قسنطينة - للمشاركة في الحملة ضدّ تونس، حسبما أوردته بعض المصادر -، و إلاّ سيعتبره عاصيًا مع كلّ ما يترتّب عن ذلك من عواقب. حسم الباي المذكور عندئذٍ أمره بالخيار الثاني، خصوصًا أنّ قادة مخزنه الّذين وردت أسماؤهم بالتعيين في المكتوب خشوا أن يكون ذلك مكيدة فقط لاستدراجهم و معاقبتهم[3]، فشاطروه مخاوفهم و زيّنوا له أمر

تذكر العديد من المصادر أنّ الداي أرسل في طلب الباي بوكابوس ليساهم بقوّاته المخزنية في حملة تونس، لكن تجدر الإشارة في هذا الصدد - دون أن نحاول دحض هذا الطرح - أنّ زعماء المخزن يُستأذنون عادةً عندما يكون ميدان العمليات خارج حدود البايلك التابعين له ؛ و هذا ما نوّه به بن عودة المزاري عند حديثه عن حملة الباي المذكور في 1811م ضدّ قبيلة عريب المخزنية المتمرّدة الّتي تقع مضاربها بالسفوح الجنوبية لجبال جرجرة المحيطة ببرج حمزة (البويرة حاليًا) - و كانت بالتالي محصورة بين بايلكي قسنطينة و التيطري -، حيث يقول : "**...فأمره الباشا بالغزو على عريب، و كان ذلك لا يتعقّل** (كذا) **لعدم تصرّف باي الغرب في غير رعيته بكلّ وجه بعيد أو قريب ؛ و بَعُد مكانهم عنه بالأحوال السوية، إذ حال بينه و بينهم باي المدية، فنهض الباي من ساعته...، فجمعهم و عرّفهم بالخبر، فأشاروا عليه بأنّه لابدّ من فعل هذا الأمر، لأنّها مزية عظيمة...**" : المزاري، المصدر السابق، ج. 1، ص. 331 و ما يليها.

و عليه، فإنّنا لا نميل إلى الطرح المذكور آنفًا. انظر أيضًا : - Federmann & Aucapitaine, Op. cit., 1865, p. 291.

1. الضعيف الرباطي، المصدر السابق، ص. 377 ؛ حمدان خوجة، المصدر السابق، ص. 171.

- Fey, Op. cit., p. 303 ; Lapène, Op. cit., p. 17.

2. أورد الشريف الزهّار في هذا الصدد : "**الآغا... كان يبغظه** (كذا) **و لا يستطيع أن ينفذ فيه كلمته، لأنّ الأمير قال لوزرائه يومًا من الأيّام : لا تأذوني** (كذا) **في الباي محمد و لا في القبطان حميدو، إنيّ لا أقبل فيهما أيّ كلام.**" : الزهّار، المصدر السابق، ص. 109.

أمّا بخصوص بغض الآغا الدفين للباي، فمرده حسب الزهّار إلى أنّ "**الباي قتل أخا عمر قبل أن يتولىّ آغا.**" : نفسه، ص. 107.

و لئن رصدنا وجود الأخ المذكور في دفاتر العلوفات، و اسمه مولوه لي حسن بن محمّد، الّذي كان يشغل وظيفة شاوش خليفة باي الغرب، فإنّ تاريخ وفاته (بين أبريل و أغسطس 1807م) يضعنا أمام احتمالين : الاحتمال الأوّل هو مقتله على يد محمّد المقلش خلال الأشهر الأخيرة من بايلكه ؛ و الثاني يوافق ما ذكره الزهّار، حيث تولىّ محمّد بوكابوس خليفة للباي مصطفى في أغسطس من السنة المذكورة : **دفتر مواجبات...**، المصدر السابق، رقم 1978 مكرّر، وو. 264و° و 272و°.

و قد ذكر شالر بهذا الصدد : "**و لمّا أصبح أخوه مشبوهًا فيه، قتل بأمر من أحمد باشا ؛ و قد نجا عمر من نفس المصير بالتجائه إلى إحدى الثكنات، حيث تولىّ الجنود حمايته**" : شالر، المصدر السابق، ص. 162.

3. **Registre du beylik**, A.O.M., 15MI-14, n° 13, fol. 53r°.

الإطاحة بالداي مغتنمًا فرصة خروج محلّة تونس و قلّة الجنود بالعاصمة، حيث لن تعدمهم وسيلة للتسلّل إلى المدينة أو اقتحامها لمّا يحين الوقت[1].

و عندما عزم الباي "الدرقاوي" على الخروج بالقوّات المعتبرة الّتي جمعها على عجل آملاً أن يبقى تحرّكه غير معلوم، كان يجهل أنّ الداي أرجأ خروج محلّة تونس و وجّه ضدّه برًّا الآغا عمر الدلجي على رأس محلّة الغرب المكوّنة من خمسين خباء (حوالي 1150 جندي إنكشاري) ؛ و أرسل كذلك في 14 مايو عمارة من ثلاثة سفن إلى وهران أقلّت قوّات أكثر من كافية و وكيل حامل لأمر حُسِم فيه مصيره. فلقد بلغت العاصمة قبل أيّام معدودة أنباء مؤكّدة نقلها جنود تمكّنوا من الفرار تفيد بأنّ محمّد بوكابوس أقدم على سجن العديد من الضبّاط الأتراك من صفّ قيّاد و آغوات نوبات تنس، تلمسان، معسكر، وهران و مستغانم، بالإضافة إلى عددٍ من أعيان الأهالي الّذين شكّ في ولائهم ؛ و أنّه تجرّأ حتّى على إعدام العشرات من الإنكشارية أو قام بحثّ القبائل على تعقّب الفارّين منهم و قتلهم[2].

و لم يقف بوكابوس على خبر مسير الآغا و ما يتهدّده، إلاّ حينما كان على وشك ولوج سهل مينا (غليزان) ؛ فطار لبّه لذلك. و بعد تفشي الخبر وسط قوّاته، انفضّت عنه سريعًا ؛ و لم يسعه سوى الرجوع

---

1. الزهّار، المصدر السابق، ص. 109 ؛ حمدان خوجة، المصدر السابق، ص ص. 171-172.

- Fey, Op. cit., p. 303 ; Lapène, Op. cit., p. 17.

2. الزهّار، نفس المصدر السابق، ص. 107 ؛ المزاري، المصدر السابق، ج. 1، ص. 335 ؛ محمّد باشا، المصدر السابق، ج. 1، ص ص. 78-79 ؛ بلغيث، المرجع السابق، ص. 73.

- Devoulx, **Tachrifat**, Op. cit., p. 48 ; Fey, Ibid. ; Lapène, Ibid. ; Esterhazy, **De la domination…**, Op. cit., pp.212-213 ; Faure-Biguet, Op. cit., p. 428.

ورد في ترجمة ألبير ديقو لدفتر التشريفات أنّ العمارة أرسلت إلى وهران في 13 شوّال 1228هـ (الموافق لـ 9 أكتوبر 1813م) ؛ و هذا لا يمكن أن يكون صحيحًا البتّة، و نجزم أنّه قراءة خاطئة لجمادى الأولى (الموافق لشهر مايو). و عليه، قمنا بتصويب التاريخ كما ورد أعلاه، علمًا أنّ الباي الجديد "**في ثامن جمادى الثانية سنة توليته غزى** (كذا) **ترارة و معه عمر آغا…**" : المزاري، نفس المصدر السابق، ص. 340.

- Devoulx, Ibid.

إنّ الطرح القائل بأنّ الباي بوكابوس انتسب إلى النحلة الدرقاوية أو أنّه والى سليمان سلطان المغرب ما هو إلاّ تقدير استقرائي غير مؤسّس، إذ ارتبط من جهة بصفة "الدرقاوي" الّتي وُسم بها، و الّتي كانت تعني ببساطة "ثائر"، و من جهة أخرى، لأنّ الباي طلب التزوّد - دون طائل تجدر الإشارة - بكمّيات معتبرة من البارود و الذخائر الحربية من المغرب الأقصى، على غرار ما فعله مع إسبانيا و إنكلترا بوساطة نائبي قنصل تلكما الدولتين بوهران. انظر : مولاي بلحميسي، "**الثورة على الأتراك في الجزائر : شواهد مستقاة من وثائق إسبانية لم تنشر**"، في : مجلّة الثقافة 48، 1978، ص ص. 40-42.

- B. Caporal, **Oran, capitale du beylik de l'ouest (1792-1830)**, Éditions Alpha, Alger, 2012, pp. 104-105.

انظر أيضًا :

- Boyer, « **Contribution…** », Op. cit., p. 43.

القهقرى مع حفنة من رجاله إلى عاصمة بايلكه، الّتي سبقه إليها الوكيل أحمد خوجة. و حين أدرك عقم أيّة مقاومة، استسلم الباي للقضاء المبرم و أسلم نفسه[1].

و قبل أن يلقى بوكابوس جزاءه، خرج عمر آغا رفقة الباي الجديد علي قاره باغلي إلى منطقة طرارة المستعصية، أحد معاقل الدرقاويين ؛ و قاما بغزوها، في 8 يونيو، بحثًا - أغلب الظنّ - عن ابن الشريف الدرقاوي، الّذي أفادت الإشاعة بعودته من المغرب الأقصى مغتنمًا الفوضى[2]. و بعد عودته، أمر الآغا الجلاّدين بتعذيب الباي المعزول عذابًا شديدًا لجعله يبوح بمخبأ كنوزه ؛ و لمّا تبيّن أنّ المعذَّب سيحمل مهما يكن سرّه إلى قبره، "رأف" به الآغا و أمر بقتله توًّا ؛ و بالعوض، سطا على خزينة البايلك و جميع المنقولات الّتي كانت موجودة بقصر الباي و ملكياته[3].

بعد أن أعلم بالقضاء على الباي المتمرّد، لم ينتظر الحاج علي عودة آغا العرب، بل بادر في منتصف يوليو إلى توجيه الأسطول الجزائري - المكوّن من 29 سفينة من مختلف الأحجام و 25 لنجون - بقيادة وكيل الحرج و القبطان حميدو إلى تونس. لمواجهتهم، صفّ حمّودة باشا بقيادة وزيره القدير يوسف صاحب الطابع جميع قطع البحرية التونسية، الّتي عزّزها بمئة من اللنجونات الّتي تمّ صنعها خلال السنتين الماضيتين ؛ و ذلك ناهيك عن المراكب التجارية الّتي سلّحت بالمناسبة بقطعة مدفعية أو اثنتان من العيار الصغير[4].

و خلال العمليات الّتي استمرّت حتّى 4 أغسطس، وافقت رواية شريف الزهّار شهادة القنصل الفرنسي بيلون (Billon) بأنّ الريّاس الجزائريين - بما فيهم القبطان - قاتلوا بشكلٍ غير جدّي. و لا نستبعد أن يكون تصرّفهم نابع عن اقتناعهم بعدم جدوى الصراع مع التونسيين، و الّذي عزّزهم في ذلك هو الأمر السلطاني

---

1. حمدان خوجة، المصدر السابق، ص. 172 ؛ المزاري، المصدر السابق، ج. 1، ص ص. 335-337.

- Fey, Op. cit., pp. 303-304 ; Esterhazy, Op. cit., pp. 213-214 ; Péchot, Op. cit., p. 122 ; Lapène, Op. cit., pp. 17-18 ; Mercier, **Histoire de l'Afrique…**, Op. cit., p. 479 ; Faure-Biguet, Op. cit., pp. 428-429.

2. المزاري، نفس المرجع السابق، ص ص. 336 و 340.

انظر أيضًا : الضعيف الرباطي، المصدر السابق، ص. 377.

3. المزاري، نفس المرجع السابق، ص ص. 337 و 339 ؛ حمدان خوجة، نفسه. - Mercier, Ibid.

الجدير بالذكر أنّ بيانات الباي محمّد بن أحمد - و هو للإشارة ابن أخ و ليس أخ محمّد الكبير مثلما ذكرته المصادر المحلية - و أقربائه المسجّلين في الدفتر، أشّرت - على الأرجح في رمضان 1228هـ - بعبارة "إخراج"، أيّ أنّه تمّ طردهم من الأوجاق بسبب التمرّد الجاري. و ردّ الاعتبار لأفراد عائلة محمّد الكبير في وقت لاحق، بفضل توليّ علي قاره باغلي صهر المذكور آنفًا زمام بايلك الغرب : **دفتر مواجبات…**، المصدر السابق، رقم 1986، و. 109و°. - Lapène, Ibid., p. 18.

انظر أيضًا : **دفتر مواجبات…**، نفس المصدر السابق، رقم 1985 مكرّر، و. 130و° ؛ 1976، و. 110و°.

4. الزهّار، المصدر السابق، ص ص. 107-108 ؛ الإمام، المرجع السابق، ص ص. 433-434، ه. 3.

- Rousseau, **Annales…**, Op. cit., p. 286.

بالمقاطعة الّذي نجح الحاج علي نسبيًا في إبقائه طيّ الكتمان، و لا سيّما الجزء المتضمّن تهديدًا صريحًا في حالة الإصرار على عدم الامتثال، بإرسال القپودان باشا على رأس الأسطول العثماني إلى الجزائر لمعاقبة العصاة و قطع رأس الداي المتمرّد على الإرادة الهمايونية[1]. و دون أن نهمل أهمّية الأعطاب الّتي ألحقتها المدفعية التونسية، نعتقد أنّ تلك هي إجمالاً أسباب إخفاق الحملة البحرية[2].

و خشية أن يفسد المزيد من التأخّر حظوظ الحملة، أمر الداي بعد شهر من خروج الأسطول عمر آغا الدلجي بالتحرّك على رأس المحلّة، الّتي بلغ تعداد أفرادها حوالي الثمانية آلاف من المشاة و الفرسان، بعد أن انضمّ إليه باي التيطري بقوّاته. و كما لو كان الأمر منسّقًا أغلق الثوّار القبائليون و العرب المسالك المؤدّية إلى قسنطينة في عدّة نقاط، بحيث عرقلت بشكل كبير تقدّم القوّات المركزية ؛ و في ذات الوقت، هاجمت قوّات تونسية تدعمها القبائل الحدودية أراضي الإيالة، لكن الباي محمّد نعمان استطاع ردّها على أعقابها. و عندما وصلت القوّات المركزية الّتي أنهكها المسير و الاشتباكات أخيراً قرب قسنطينة بلغها نبأ أنّ الأسطول ارتدّ عن تونس قبل عدّة أسابيع[3].

في أوائل أكتوبر، تحرّكت القوّات الجزائرية بقيادة عمر آغا - يعاضده كلّ من بايي قسنطينة و التيطري و خليفة باي وهران الّذي قدم حديثًا على مفرزة من خمسمائة مخزني - رغم كلّ شيء باتّجاه الكاف ؛ و واجهت التونسيين بقيادة يوسف صاحب الطابع في 12 أكتوبر غير بعيدٍ من قلعتهم الحصينة.

و لم تجر الأمور لصالح الجزائريين، إذ علاوة أنّ جيش المدافعين فاقهم بنسبة الضعف، صنعت الستّة آلاف بندقية حديثة من طراز فرنسي الّتي زوّد حمّودة بها جنوده الفارق ؛ و عليه، فبعد يوم واحد من القتال اقتصر على مناوشات و تبادل لإطلاق النار، و خلّف خسائر ليست بقليلة في صفوفهم دون

---

1. Plantet, **Correspondance des beys…**, Op. cit., T. 3, pp. 509-510 ; Rousseau, **Annales…**, Op. cit., p. 286 ; Mercier, **Histoire de l'Afrique…**, Op. cit., p. 482.

- الزهّار، المصدر السابق، ص. 108 ؛ سامح التر، المرجع السابق، ص. 598.

لقد حمل الأمر السلطاني المذكور أعلاه المبعوث محمّد آغا المرسل من قبل القپودان باشا محمّد خسرو، لكن الداي حاج علي باشا لم يعط بالاً لأوامر الباب العالي. و بهذا الخصوص، وصف القپودان باشا في التقرير الّذي رفعه للسلطان الداي بالرجل "**ذو الطباع الفاسدة**" ؛ و أشار في مناسبة أخرى بأنّه "**قد تجاوز الحدّ في تعدّيه على المراكب التجارية لنصارى** [من رعايا] **الدولة** (المقصود بهم هنا اليونانيون)" : الأرشيف التابع للوزارة الأولى التركية بإستانبول، رصيد "خط همايون"، رقم 44477 و a 44515. نقلاً عن : زهرة، المرجع السابق، ص. 84.

2. Rousseau, Ibid.

- الإمام، المرجع السابق، ص. 434.

3. **Registre du beylik**, A.O.M., 15MI-14, n° 13, fol. 2v° ; Péchot, Op. cit., p. 122 ; Vayssettes, Op. cit., 1869, p. 513 ; Boulifa, Op. cit., p. 278 ; Robin, « **Les Oulad…** », Op. cit., pp. 45-48.

- محمّد باشا، المصدر السابق، ج. 1، ص. 79.

أن يتمكّنوا من فرض الحصار على قلعة الكاف، اتّفق ديوان المحلّة على الانسحاب تحت جنح الظلام، بعدما لمسوا هبوط معنويات الجنود و رفضهم مواصلة القتال[1].

و خلال تراجع المحلّة قافلةً إلى الجزائر، تعرّضت مجدّدًا إلى هجمات من قبل القبائل الثائرة كان أخطرها على يد المقرانيين و حلفائهم الثائرين : إذ تحيّن الأخيرون مرور القوّات المركزية في شعب البيبان[2] لينقضّوا على ساقة فيلق الطليعة، و يمعنوا في الجنود المتأخّرين تقتيلاً ؛ غير أنّ هجومًا معاكسًا قاده بإحكام عمر آغا - الّذي هرع للنجدة بالفيلق الرئيسي - سمح بتدارك الوضع، و كبّد خلاله المقرانيين ما لا يقلّ عن 260 قتيلاً[3].

برّر آغا العرب هزيمة الكاف أمام الداي بالدعم الّذي قدّمه الفرنسيون في سلاح المدفعية و البنادق الّتي زوّدوا بها جيش حمّودة، كما نوّه بالتصرّف الغادر لبعض شيوخ القبائل الّذين ترصّدوا قوّاته في الطريق[4] ؛ فأصدرت أوامر بموجب ذلك إلى كلّ من بايي التيطري و قسنطينة و قايد سيباو، كي يخرجوا قوّاتهم بلا إبطاء ليقوموا بمعاقبة القبائل المتمرّدة. امتثالاً، وجّه نعمان باي أواخر ديسمبر فرقة إلى واد الساحل تتعقّب "جماعة قطّاع طرق" يقودها فردين من عشيرة المقراني، لكنه تمّ استدراجها إلى خانق جبلي، حيث طوّقها القبائليون و قتلوا نحو 195 من رجالها. و في نفس الوقت تقريبًا، انهزم جافر باي التيطري في الحضنة خلال حملته ضدّ أولاد ماضي، الّذين هاجموا و نهبوا قبيلتي أولاد سلامة و العذاورة التابعتين لبايلكه[5]. و مثلما يمكن توقّعه، أجّجت تلك الإخفاقات الجزئية الاضطرابات في المناطق السالفة الذكر، بشكلٍ استدعى خروج عمر آغا لمساندة نعمان باي في نواحي بوسعادة.

---

1. **Registre du beylik**, A.O.M., 15MI-14, n° 13, fol. 55r° ; Devoulx, **Tachrifat**, Op. cit., p.44 ; Vayssettes, Op. cit., 1869, pp. 513-514 ; Rousseau, **Annales…**, Op. cit., p. 286 ; Mercier, **Histoire de l'Afrique…**, Op. cit., p. 482 ; Péchot, Op. cit., p. 122 ; Plantet, **Correspondance des beys…**, Op. cit., T. 3, pp. 507 & 509.

- الإمام، المرجع السابق، ص ص. 434-435 ؛ الزهّار، المصدر السابق، ص. 108.

ذكر القنصل الفرنسي بيلون بتونس أنّ جيش الباي بلغ تعداده قرابة 40000 رجل، من ضمنهم 23000 من الخيّالة و 5000 من الأتراك (الإنكشارية) و الزواوة : - Plantet, Ibid., p. 510.

2. البيبان، نسبة إلى دمير قپو[ر] "بيبان الحديد"، و هو الاسم الّذي أطلقه الأتراك على تلك الشعب الجبلية الّتي تضيق في ثلاثة مواضع، بحيث لا تسمح إلاّ بمرور رجل واحد ؛ و يذكر شارل فيرو أنّ الشواهد تدلّ على أنّ هذا الممرّ الاستراتيجي و الخطير على الطريق السلطاني الرابط بين قسنطينة و الجزائر هيّأه العثمانيون على الأرجح خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر :

- Féraud, **Histoire des villes…**, Op. cit., pp. 188-190.

3. Féraud, Ibid., pp. 284-285 ; Boulifa, Op. cit., p. 278 ; Mercier, Ibid.

4. Vayssettes, Ibid.

5. Mercier, Ibid., p. 483 ; Vayssettes, Ibid, p. 516 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 291 ; Henri Aucapitaine, « **Notice sur Bou-Sada**(sic) », in : R.A. 6, 1862, p. 57.

أرسل الباي محمّد نعمان، الّذي أقام معسكره بمسيلة، الباش سيّار على رأس مفرزة - رفقة ابنه - لملاقاة محلّة الآغا ؛ غير أنّه سقط في كمين و قتل مع جميع أفراد موكبه على يد الثوّار في فبراير 1814م. من شدّة تأثّره لوفاة ابنه، انزوى المذكور في سبْخ غير آبه بما يدور حوله ؛ و قد كتب عمر آغا من فوره يخبر الداي الحاج علي بأنّ الباي غير المتعّزي لم يعد قادرًا على القيام بمهامه، مزكّيًا صبايحي من معارفه القديمة ليقوم مقامه. و بعد نحو ثلاثة أسابيع، جاء ردّ الداي يأمر بقتل الباي المسكين و يوليّ بدله صنيعة الآغا محمد شاكر[1]. و لقد لاقى جاقر باي هذا نفس المصير بعد فترة قصيرة، حيث استخدم عمر آغا نفوذه لدى الداي للإطاحة به[2].

إنّ وقوف عمر آغا وراء اغتيال ثلاث بايات في ظرف أقلّ من سنة يجعلنا نتساءل حول دوافع هذا السلوك المكياڤيللي ؛ و لا نجد له من إجابة مقنعة سوى أنّه كان يخشى من بطش الداي و يبذل جهده ليضّحي بآخرين في سبيل اتقاء شرّه، و كان في ذات الوقت يطمح إلى الحكم و يتحيّن الفرصة للوصول إلى مبتغاه، مستغلاً تراجع شعبية الدولتلي لدى أفراد الأوجاق[3]. و في هذا الصدد، تجدر الإشارة إلى أنّ الإنكشارية كانت جدّ مستاءة من الداي الحاج علي أوّلاً بسبب عصيانه للأوامر السلطانية[4]، الأمر الّذي

---

1. Mercier, **Histoire de l'Afrique…**, Op. cit., pp. 483-484 ; Vayssettes, Op. cit., 1869, pp. 516-518 ; Aucapitaine, « **Notice…** », Op. cit., 1862, p. 57.

- بن العنتري، **فريدة…**، المصدر السابق، ص ص. 103 و 105.

و لم يكن ذاك هو المطعن الوحيد بحقّ الباي، فقد آخذه الآغا على حلمه المفرط و تضييعه للحزم حيال الرعية و المخزن حتّى جرّأهم على نبذ الطاعة و التمرّد، كما قام بإلقاء اللائمة عليه فيما يتعلّق بهزيمة الكاف حسبما ذكرته المصادر ليتنصّل من أيّة مسؤولية بشأنها : مجهول، **أخبار بلد…**، المصدر السابق، ص ص. 81-82 ؛ بن العنتري، نفس المصدر السابق، ص ص. 102-103، ه. 1.

ورد اسم الباي في دفتر الإنكشارية على الشكل محمّد بن عبد الله، ممّا يجعل من جاقر المذكور في المصادر المحلّية لقبًا ألحق باسمه ؛ و هذا اللقب على الأرجح مشتقّ من اللفظ العثماني چاكر "خادم" : **دفتر مواجبات…**، المصدر السابق، رقم 1975، و. 172ظ. انظر أيضًا :

- Barbier de Meynard, Op. cit., 1er vol., p. 566.

2. Federmann & Aucapitaine, Op. cit., 1865, pp. 295-296.

3. انظر في هذا الصدد : شالر، المصدر السابق، ص ص. 162-163.

4. بالإضافة إلى مواصلته الحرب ضد تونس، أطلق الداي العنان للريّاس لأسر مراكب اليونانيين، الّذين هم من رعايا الدولة العثمانية. و الجدير بالذكر أنّ اليونانيين قاموا بتشجيع من روسيا القيصرية و فرنسا النابوليونية - الّتي سيطرت من 1809 إلى 1813م على الأقاليم الإليرية (قسم من سلوفينيا، كرواتيا و دالماسيا و الجبل الأسود) - ببناء عددٍ من المراكب "التجارية" المزوّدة بمدفعية معتبرة تحضيرًا للثورة، و كانت أكبر السفن الّتي استولى عليها الجزائريون منهم تضمّ 14، 24 و 30 مدفعًا على التوالي ؛ و كانوا يقومون بالموازاة مع أنشطتهم التجارية بالقرصنة و التهريب كلّما سنحت لهم الفرصة. و ذاك ما دعا الداي حاج علي باشا - حسب ما ذكره الزهّار - إلى أن ينبّه أعضاء الديوان الهمايوني بفظاظة حيث "**قال لهم إن بقيتم على هذه الحالة، فإنّ الگريگ** (يعني اليونانيين) **يأخذون نساءكم**" ؛ و قد أضاف الزهّار أنّ بعد وفاة الداي بسنوات ثار اليونانيون على الأتراك العثمانيين مصداقًا لقوله التنبّؤي، فتذكّروا كلامه و "**صاروا يترحّمون عليه**" : الزهّار، المصدر السابق، ص. 110.

انظر أيضًا :

- Devoulx, « **Le registre…** », Op. cit., 1872, pp. 153-156, 233-241 & 292 ; Devoulx, « **La marine…** », Op. cit., pp. 415-416.

ترتّب عنه إضعاف الأوجاق، جرّاء حرمانه من مجنّدين جدد من الأناضول[1] ؛ و قد حمّلته كذلك مسؤولية إعادة إشعال فتيل الحرب ضدّ باي تونس، و هي حرب اعتبرتها بلا طائل و وبالاً على البلاد، على اعتبار أنّها كبّدت القوّات الجزائرية خسائر ليست بالهيّنة خلال السنوات القليلة الماضية، بل و نجمت عنها - كما رأينا آنفًا - العديد من الاضطرابات داخل البلاد[2].

من أجل امتصاص غضب الإنكشارية، كان الداي قد قام بإعلان الحرب ما بين عامي 1812 و 1814م ضدّ دول مثل الولايات المتّحدة، إسبانيا، الأراضي المنخفضة[3]، الدانمارك و السويد - و هي دولٌ التزمت إلى حدّ كبير ببنود الاتفاقيات، و سعت جهدها للحفاظ على حالة السلم مع الإيالة في غضون تقلّبات الحروب النابليونية في أوروبا - ؛ و ذلك بشكلٍ أساسي لإرضاء رغبة أفرادها المنخرطين في النشاط البحري بالغنائم[4].

حتّى سنة 1815م، المعلوم أنّ الحاج علي استطاع أن يحترز من جلّ مؤامرات الإنكشارية قبل أن تشكّل تهديدًا لحكمه، مستخدمًا شبكة عالية الكفاءة من المخبرين الّذين بثّهم في كلّ مكان ؛ بيد أنّه لم يخطر بباله أنّ يخطّط اثنان من مقرّبيه لاغتياله، و هما عمر آغا الصبايحية و عبد الله وكيل حرج دار السلطان. و يبدو أنّ خيوط المؤامرة حبكت بعيدًا عن الجزائر، و بالتحديد في بلاد الزواتنة، حيث كان الآغا يتولّى منذ أشهر بناء قنطرة[5] على وادي يسّر و تهيئة الطريق المؤدّية لها، فيما كان يراقب عن كثب عمليات حصر الفليسيين الثائرين في معاقلهم[6].

---

1. تظهر دفاتر العلوفات الّتي تغطّي عهد الداي الحاج علي أنّ ما يزيد عن ثلاثة أرباع جماعات الإنكشارية لم تحظ بأيّ مجنّد جديد خلال الفترة الممتدّة من رمضان 1226 إلى ربيع الأوّل 1230هـ (أي ما بين سبتمبر/أكتوبر 1811 و فبراير/مارس 1815م)، إذا ما استثنينا يتامى العسكر الّذين صاروا يولداشًا ؛ و الأمر الّذي لفت انتباهنا أكثر هو أنّ الداي - رغم انهيار التجنيد الأناضولي - تحاشى خلال نفس الفترة المذكورة تعويض النقص بمجنّدين جدد من العناصر الكرغلية، على الأرجح كي لا يختلّ التوازن بين الفئتين في صفوف الأوجاق، أو بتعبير أدقّ لكي لا يتفوّق الكراغلة عدديًا على الأتراك : **دفتر مواجبات...**، المصدر السابق، رقم 1975 و 1986. انظر المطلب الخاصّ بتجنيد أوجاق الإنكشارية في المبحث الثاني من الفصل الخامس. انظر فيما يخصّ عدد المجنّدين الجدد الّذين وفدوا على الجزائر أواخر عهد الداي الحاج علي :

- **Registre du beylik**, A.O.M., 15MI-14, n° 13, fol. 71r°.

2. Sander Rang, Op. cit., p. 570.

3. الأراضي المنخفضة هو الاسم الّذي عرفت به الأقاليم المتّحدة سابقًا، ابتداءً من ديسمبر 1813م، أي بعد زوال النفوذ الفرنسي عنها :

- J.-H. Janssens, **Histoire des Pays-Bas depuis les tems** (sic) **anciens jusqu'à la création du royaume des Pays-Bas, en 1815**, vol. 3, Riga, Imprimeur-Libraire, Bruxelles, 1840, pp. 420-429.

4. إروين، المرجع السابق، ص. 245. - Krieken, Op. cit., p. 127.

انظر أيضًا : شالر، المصدر السابق، ص ص. 143-144.

5. قنطرة ابن هيني، المعروفة أيضًا بقنطرة الترك، بناها عمر آغا على طريق قسنطينة، ليجنّب المحلّة المرور بمحاذاة بلاد فليسة المضطربة :

- الزهّار، المصدر السابق، ص. 111. - Robin, « **Les Oulad…** », Op. cit., pp. 45-48.

6. Id., p. 48.

و تكفّل عبد الله بتنفيذ الجريمة في ضحى 22 مارس، حيث اغتنم دخول الضحية للحمّام ليوصد عليه الباب بإحكام و يأمر العبد الوقّاد بزيادة الإحماء حتّى أغمي على الداي، فدخل إليه و قتله ؛ ثمّ أغلق الباب، و ذهب إلى عمله المعتاد ليثبت حجّة غياب. و بعد ساعة، أرسل عبدًا آخر لينظر لما تأخّر الداي في الحمّام، فوجده قتيلاً. و بعد أن توعّد الخدم من أن يفشوا الخبر، أرسل بريدًا على وجه السرعة يستدعي شريكه في المؤامرة عمر آغا[1].

خلال الديوان الّذي انعقد يوم الأربعاء 22 مارس لاختيار خلف للداي المغتال، اقترُِح المنصب أوّلاً على عمر آغا ؛ "**و لكنّه، لأسباب مجهولة، رفض التاج، و ألّح على ضرورة انتخاب الخزنجي**(كذا)**، أي رئيس الوزراء، لهذا المنصب**"[2].

2-1-4. عهد الداي الحاج محمّد (1815م)

ذكر القنصل الأمريكي شالر بشأن الحاج محمّد أنّ "**الشيء الّذي نعرفه اليوم عن هذا الشخص قليل، و لا يكاد يتجاوز أنّه رجل معتدل و متقدّم جدًّا في السنّ**"[3] ؛ فيما قرّظه حمدان خوجة الّذي عرفه عن كثب، معتبرًا إيّاه "**رجلاً فاضلاً**" و "**نموذجًا حقيقيًا للأتراك القدماء**"[4]، على غرار الدايات الكبار الّذين حكموا القرن الماضي.

---

1. الزهّار، المصدر السابق، ص. 112 ؛ حمدان خوجة، المصدر السابق، ص. 152.

2. شالر، المصدر السابق، ص. 163.

انظر أيضًا : الزهّار، نفسه. - Sander Rang, Op. cit., p. 570.

من جهتنا، نرجّح أن يكون رفض الآغا بديهيًا مردّه إلى تفضيله قيادة الجيش براحة بال حيث كان يتمتّع بسمعة طيّبة لدى أفراد الأوجاق، على حكم الإيالة في منصب متزعزع كان مآل جميع متولّيه منذ أمد قريب بشكلٍ مؤكّد القتل.

3. شالر، نفسه.

4. حمدان خوجة، نفسه.

ورد في بعض دفاتر العلوفات أنّ أصله من بالي كسير (Balikesir)، فيما أشارت أخرى أنّه من صومه (Soma) ؛ و كلا البلدتين تقعان في لواء قره سي، بولاية خداوندكار الواقعة في شمال غرب الأناضول. و عليه، رجّحنا أن يكون مسقط رأسه إحدى القرى الصغيرة الّتي تقع بين البلدتين المذكورتين. انظر : موستراس، المرجع السابق، ص ص. 143 و 335.

- Sezen Tahir, **Osmanlı yer adları**, Devlet Arşivleri Genel Müdürlüğü, Ankara, 2006, pp. 61 & 453.

انخرط محمّد بن مصطفى في أوجاق الإنكشارية في شهر محرّم 1181هـ الموافق ليونيو 1767م، ضمن الجماعة رقم 399 ؛ و لقد سمح له ظفره بلقب پهلوان - أي بطل في المصارعة التركية (گورش) - مرّتين، بالإضافة إلى دمائة خلقه بأن يقبل في صفّ شواش العسكر (رجب 1198هـ/يونيو 1784م - رجب 1203هـ/أبريل 1789م) : **دفتر مواجبات...**، المصدر السابق، رقم 1983 مكرّر، و. 423وْ ؛ رقم 1970، و. 379وْ ؛ رقم 1971، و. 376ظْ ؛ رقم 1972، وو. 24ظْ، 350وْ و 372ظْ ؛ رقم 1985، و. 24وْ.

و مثل عمر آغا، "**رفض الخزنجي بكلّ حزم المنصب المحفوف بالأخطار الّذي عرض عليه**"[1]، غير أنّ إجماع أعضاء الديوان عليه كان أمرًا ليس بالوسع التملّص منه، لأنّ عصيان أوامره صراحةً قد تكون عقوبته الموت[2] ؛ و لأجل ذلك، اضطرّ إلى قبول الدايلكية على كرهٍ منه و تمّت ساعتئذٍ مبايعته[3].

بسبب الانخفاض المقلق في أعداد الإنكشارية - و لا سيّما الأتراك منهم -، اغتنم الداي حلول ميقات علوفة جمادى الأولى ليأمر بإحصاء دقيق لأفراد الأوجاق، مقرون بعملية تفتيش عن الأنفار مجهولي المصير ؛ و كان يحذوه في ذلك أيضًا كشف الاختلاسات، الّتي كان يقوم بها بعض الأوده باشية بقبض رواتب أنفار متوّفين أو فارّين. و لقد كان الحاج محمّد على اعتباره خزناجيًا سابقًا يعلم يقينًا بتلك التلاعبات.

أسفر الإحصاء الأوّلي على تعداد أربعة آلاف تركي فقط مسجّل في دفاتر العلوفات، من بينهم نحو سبعمائة خارج الخدمة العسكرية[4]. إزاء ذلك النقص، كان الداي قد قام بإيفاد سفارة إلى إسطنبول لتسوية المشاكل العالقة و الحصول على مجنّدين جدد كما في السابق[5] ؛ غير أنّ الأيّام لم تسعفه ليشهد نتيجة مبادرته، إذ تآمر عليه عمر آغا في الأثناء. و السبب الّذي تحرّك لأجله هذا الأخير ضدّ الداي هو خشيته من أن تفضي مراجعة الدفاتر إلى اكتشاف اختلاساته بصفته أوده باشي الجماعة رقم 232[6] ؛ كما أنّه كان يستريب من الداي الحاج محمّد، المدين للحاج علي بتعيينه في منصب الخزناجي، بأنّه سيسعى للقصاص من قتلته.

---

1. شالر، المصدر السابق، ص. 163.

2. نفسه.

3. **Registre du beylik**, A.O.M., 15MI-14, n° 13, fol. 46v°.

4. الزهّار، المصدر السابق، ص. 115.

- Sander Rang, Op. cit., pp. 570-571 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 292 ; Merouche, **Monnaies…**, Op. cit., p. 55.

5. سجّل أحد دفاتر البايلك وصول قپوجي باشي على متن "پادشاه فرقطه" في يوم 10 جمادى الآخر 1230هـ الموافق لـ 20 مايو 1815م، و قد حمل معه أحد عشر مجنّد جديد ؛ ممّا يوحي بأنّ مبادرة الداي محمّد باشا - المتوفّى في ذلك التاريخ - لاقت القبول من قبل السلطان و الديوان الهمايوني : - **Registre du beylik**, A.O.M., 15MI-14, n° 13, fol. 71r°.

انظر أيضًا : سامح الترّ، المرجع السابق، ص. 602.

6. اطّلعنا على جلية الأمر من خلال ملاحظة تمويه بيانات علوفة أفراد المجموعة المذكورة، الّتي تستهلّ بشهر رجب 1230هـ/يونيو 1815م - أي قرابة خمسة أسابيع بعد تولّي الأوده باشي عمر آغا دايًا -، علمًا أنّ تاريخ بداية الدفترين رقمي 1975 و 1986 يعود إلى رجب 1225 و رجب 1226هـ، الموافقين لأغسطس 1810 و أغسطس 1811م على التوالي : **دفتر مواجبات…**، المصدر السابق، رقم 1975، و. 230و° ؛ 1986، وو. 206و°-206ظ°.

انظر أيضًا : - Sander Rang, Ibid., p. 571.

و يوجز لنا الزهّار فصول المؤامرة بشكل مضبوط، حيث ذكر أنّه كان للداي ابن، "**فادعى الآغا المذكور بأنّ ابنه يخرج المال من السراية و كذا و كذا**[1] ؛ **فذهب اليوم السابع عشر من ولاية الأمير** - أي صبيحة يوم الخميس 7 أبريل - **إلى قشلة العسكر**[2]، **كأنّه هارب، و كان مراده خلع الباشا الجديد و أن يتولّى هو مكانه. فثار معه العسكر من أجل هروبه إليهم**"[3] ؛ و بعد أن اجتمع أعضاء الديوان توًا، "**ذهبوا لدار الإمارة، و بعثوا له بالخلع ؛ فأخرجوه من دار الإمارة و أدخلوه لموضع قتل العسكر و خنقوه رحمه الله، و كان رجلاً كبيراً دخل في مدّة التعمير**"[4].

2-1-5. عهد الداي عمر (1815-1817م)

بعد قتل الداي الحاج محمّد و ابنه و خزنداره[5] في ذات اليوم، عرض الديوان المرتجل المنعقد في ثكنة الإنكشارية الحكم على الآغا عمر الدلجي[6] ؛ فتصنّع الرفض بادئ الأمر لعلمه أنّه المرشّح الوحيد لحكم الإيالة[7]. و غداة الجمعة، ولاّه الديوان الّذي اجتمع في دار السلطان بكلّ مظاهر الارتسامية دايًا

---

1. إنّ ما تحاشى الزهّار الإفصاح عنه عن تلك الاتّهامات الملفّقة، أورده ابن حمدان خوجة الّذي ذكر أنّ ابن الداي، مصطفى، علاوة على نهبه الخزينة، طالب بالباشوية رغم كونه من الكراغلة، كما أنّه توعّد - على حدّ قول عمر آغا - بكسر شوكة الأتراك : علي رضا پاشا، **مرأت**(كذا) **الجزاير**، ترجمه عن العربية علي شوقي، استنبول، 1293هـ، ص ص. 137-138. انظر أيضًا : سامح التر، المرجع السابق، ص ص. 601-602، ه. 5.

و حقيقة الأمر أنّ الداي الّذي كان قد جاوز الثمانين من عمره فوّض بعضًا من سلطاته إلى ابنه، و جعله بمثابة ساعده الأيمن ؛ و هذا لم يرق للآغا الّذي كان يروم أن يلعب ذات الدور. انظر في هذا الصدد : سامح التر، نفس المرجع السابق، ص. 601.

2. رغم انتمائه إلى ثكنة يالي (المعروفة أيضًا بثكنة الدروج)، فإنّ عمر آغا توجّه إلى الثكنة الخضراء - مثلما فعل ذلك مرّتين على الأقلّ في السابق، و حيث كان متأكّدًا من إيجاد الدعم المنشود لإنجاح خطّته -، كون هذه الأخيرة معروفة بجيشان قاطنيها من الجنود و نزعتهم إلى الثورة.

3. الزهّار، المصدر السابق، ص. 115. انظر أيضًا :

- Devoulx, **Tachrifat**, Op. cit., p. 130 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 292.

4. الزهّار، نفسه.

- Sander Rang, Op. cit., p. 571 ; Plantet, **Correspondance des deys…**, Op. cit., T. 2, p. 531, n. 3.

5. **دفتر مواجبات…**، المصدر السابق، رقم 1975، و. 9ظ.

6. الدلجي لقب أطلقته طائفتي الإنكشارية و الصبايحية العرب على المذكور ؛ و هو لفظ مشتقّ من العثمانية دلجو "العزيز على القلب" :

- Kieffer & Bianchi, Op. cit., 1er vol., p. 538.

7. الجدير بالذكر أنّ عمر آغا استطاع أن يزهد غيره عن الترشّح للدايلك، بسبب نفوذه و صيته في الأوجاق من جهة، و التهيّب الّذي ولّده دوره في المؤامرات الّتي أودت بحياة الدايات الأربع السابقين من جهة أخرى ؛ و هذا التسلسل الحدثي يذكّرنا بما أورده القنصل الأمريكي وليام شالر عن جوّ الصراع على السلطة الّذي ساد تلك الفترة : "**إذا كان انتخاب الداي من حيث المبدأ من اختصاص الديوان، فإنّ هذا الانتخاب يجري عادةً في جوّ من المؤامرات و تنتصر فيه الفئة القويّة من الإنكشارية. و هذا الانتخاب تصحبه دائمًا مأساة دامية، فإنّ الداي يُذبح لكي يترك العرش لمغامر أسعد حظًّا منه ؛ و كذلك يقتل أنصاره و أصدقاؤه، و تنهب أموالهم أو يبعدون. و هذه العمليات تقطع الهدوء الّذي يسود البلد و الشؤون العامّة ؛ و في ظرف أربع و عشرين ساعة ينتهي كلّ شيء. و هذه الثورات تتابع بسرعة يصعب على المرء تصوّرها، إذا لم يكن يعرف سلوك الأتراك…** " : شالر، المصدر السابق، ص ص. 44-45. انظر أيضًا في هذا الصدد : الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 183.

جديدًا، و تمّت مبايعته من قبل أعضاء "**الديوان و الفقهاء و نقيب الأشراف و أعيان البلد و رؤساء المراكب الجهادية، و أطلقوا المدافع و رفعوا العلم العثماني و ضربت النوبة**[1]"[2].

عمر بن محمّد هذا كان ابن علج يوناني، يعود أصله إلى بلدة مولوة (Molivo، حاليًا مثيمنا Mithimna) الواقعة شمال جزيرة مدللي، و قد التحق بأخيه حسن، الّذي كان جنديًا قديمًا (اسكي يولداش) في أوجاق الجزائر منتصف سنة 1801م ؛ و بعد أقلّ من خمس سنوات، وُلِّيَ عمر قائدًا على منطقة شرشال بفضل الخصال العالية من لباقة و جرأة الّتي تمتّع بها، ثمّ قائدًا على قبائل عريب المخزنية الّتي كانت تتبع سلطة الآغا. و في نوفمبر 1808م، عيّنه الداي علي الغسّال آغا الصبايحية العرب مجازاة على الدور الّذي لعبه كأحد وجوه المؤامرة ضدّ سلفه أحمد باشا ؛ و هو المنصب الّذي شغله بشكل متواصل تحت ثلاث دايات كما رأينا سابقًا[3].

خلال الأيّام الأولى من حكمه، تنامى إلى سمع الداي عمر أنّ الإنكشارية لا يزالون يخوضون في ظروف مقتل الداي الحاج علي الغامضة ؛ و لإبعاد الشبهة عنه في أعين مشايعيه، أصدر أمره بإعدام نساء الداي القتيل ايهامًا بأنّهن من يقفن وراء ارتكاب الجريمة[4].

"**كان الدور الّذي ينتظر عمر باشا لدى اعتلائه العرش صعبًا و دقيقًا للغاية**"[5]، فقد ورث أوضاعًا لا تنذر بخير سواء على المستوى الداخلي، أو الخارجي : فعلى الصعيد الداخلي، أفادنا شريف الزهّار بأنّ اجتياح هائل للجراد - مزامن لموجة جفاف شديد - أتلف قسمًا كبيرًا من المحاصيل الزراعية في أنحاء البلاد بين شهري مايو و يوليو من تلك السنة (1815م) ؛ ممّا أدّى إلى ارتفاع كبير في أسعار الموّاد الغذائية، و لا سيّما الحبوب[6].

---

1. في هذه الحالة، النوبة تعني الجوقة العسكرية (المهتارية، أو الزرناجية كما لا تزال تعرف في اللغة الدارجة)، الّتي كانت تعزف في القصر في مواعيد محدّدة أو خلال المناسبات الكبرى. انظر في هذا الصدد : الخطيب، المرجع السابق، ص ص. 411 و 426.

- Barbier de Meynard, Op. cit., 2e vol., p. 831 ; Kieffer & Bianchi, Op. cit., 2e vol., p. 1143.

انظر بهذا الخصوص جماعة المهترخانه (الزرناجية) في المطلب ما قبل الأخير من الفصل السابع.

2. الزهّار، المصدر السابق، ص. 117.

3. **دفتر مواجبات...**، المصدر السابق، رقم 1978 مكرّر، وو. 238وْ و 264ظْ.

انظر أيضًا : شالر، المصدر السابق، ص ص. 160-162 ؛ موستراس، المرجع السابق، ص. 474.

- Pananti, Op. cit., pp. 425-426 & 435 ; Colin, Op. cit., pp. 199 & 202 ; Sezen, Op. cit., p. 686.

4. شالر، نفس المصدر السابق، ص ص. 163-164.

5. نفسه، ص. 164.

6. الزهّار، نفسه.

انظر أيضًا : موساوي القشاعي، **الصحّة...**، المرجع السابق، ص ص. 91- 92 ؛ سعيدوني، **الحياة...**، المرجع السابق، ص ص. 324-328.

- Merouche, **Monnaies...**, Op. cit., pp. 120-121.

و لمواجهة المسغبة الّتي طالت آثارها العاصمة، أصدر الداي قرارًا يقضي بمنع تصدير الحبوب من بايلكي قسنطينة و وهران، كما أمر بإخراج حوالي 10000 صاع جزائري[1] من مخازن قمح البايلك ؛ و وزّع ذلك القمح على أفران المدينة، "**و جعل له سعرًا على سعر أيّام الرخاء، و أمر الخبّازين أن يقوموا بعمل ما يلزم للبلاد، لكن صار الناس يقتتلون على ذلك الخبز**"[2]. و على الرغم من التدابير المذكورة، فإنّ الأزمة الغذائية - الّتي يستحسن بنا أن نسمّيها مجاعة، بالنظر إلى آثارها شبه الكارثية في دواخل البلاد - استمرّت، بل و ازدادت سوءًا - كما سنرى لاحقًا - إلى غاية سنة 1819م[3].

أمّا على الصعيد الخارجي، فقد تطوّرت القطيعة بين الإيالة و الولايات المتّحدة إلى حالة حرب ؛ و الجدير بالذكر أنّ إعلان الحرب على الجزائر من قبل الكونغرس الأمريكي تأخّر حتّى عام 1815م، بسبب انشغال الولايات المتّحدة بحربها مع إنكلترا (1812-1815م) ؛ و لقد تمّ بموجبه تجهيز أسطول صغير من عشرة سفن حربية بقيادة القبطان ستيفن ديكاتور (Stephen Decatur)، الّذي خرج من ميناء نيويورك في شهر مايو متوجّهًا إلى البحر المتوسّط بغرض مهاجمة السفن الجزائرية و أسرها، و بالتالي حمل الجزائريين على قبول الصلح وفق شروط مشرّفة للولايات المتّحدة[4].

وصلت القوّة البحرية الأمريكية إلى مضيق جبل طارق بحلول شهر يونيو، و جابت المياه القريبة بحثًا عن قطع البحرية الجزائرية. القبطان حميدو الّذي وقف على خبر التحرّكات الأمريكية لدى عبوره المضيق بفرقاطته، فضّل بحكمة العودة إلى الجزائر ليعلم الداي، و كذا زملاءه من الريّاس بالأمر ؛ لكن وكيل حرج البحرية و الداي انتهراه لقطعه خرجته و عودته الباغتة[5] ؛ فقام القبطان المغتاظ باستئذان الداي

---

1. الصاع الجزائري، الّذي كان يعرف أيضًا بصاع الرحبة، هو مكيال حبوب طافح تراوحت سعته ما بين 58 و 60 لتر :

- Merouche, **Monnaies…**, Op. cit., pp. 288-289 ; Esprit Tocchi, **Notice sur les poids et mesures et sur les monnaies d'Alger**, Imprimerie militaire de Dufort Cadet, Marseille, 1830, pp. 21-22.

2. الزهّار، المصدر السابق، ص. 117. انظر أيضًا :

- غطّاس، "**أوضاع…**"، المرجع السابق، ص. 364 ؛ البزّاز، المرجع السابق، ص. 102.

- Devoulx, **Tachrifat**, Op. cit., pp. 116-117.

في الواقع، كان تسقيف سعر القمح بنحو 15 ريال دراهم صغار للصاع الواحد من قبل الداي عمر هو السبب الرئيسي في اختفاء الميرة من الأسواق. و قبل إصدار القرار، كان السعر تجدر الإشارة قد بلغ 37.5 ريال دراهم صغار : - Merouche, Ibid., p. 120.

3. سعيدوني، **الحياة…**، المرجع السابق، ص ص. 334-335 و 337.

4. شالر، المرجع السابق، ص ص. 146-147 ؛ إروين، المرجع السابق، ص ص. 245-248 ؛ وولف، المرجع السابق، ص. 419 ؛ زهرة، المرجع السابق، ص ص. 104-105. - Leiner, Op. cit., pp. 49-85.

5. حسب ما أورده ألبير ديفو، عاتب الداي عمر - الّذي لم يكن يعرف من أمور البحر شيئًا باعترافه - حميدو قبيل خروجه الأخير قائلاً : "**إذًا هكذا، أتيت بالفرقاطة البرتغالية لمصطفى و الفرقاطة التونسية للحاج علي ؛ [و] أنا أريدك أن تجلب لي فرقاطة أمريكية.**" :

- Devoulx, **Le raïs…**, Op. cit., p. 138.

بالإبحار مجدّدًا، و خرج بعد ثلاثة أيّام، غير أنّه اصطدم في 16 يونيو بالأمريكيين، بالقرب من رأس غاطا[1] : بفرقاطته "مسعودة" ذات 46 مدفعًا إزاء تسع سفن حربية مجموع مدفعيتها يربو عن 240 مدفعًا، كان لحميدو حظوظ قليلة للإفلات من قبضة أعدائه ؛ و بعد قتال بطولي لكن يائس، قتل خلاله القبطان الجزائري و عشرات البحّارة و الجنود، استسلم الناجون الّذين كان معظمهم جرحى. و بعد يومين، استولى ديكاتور على سفينة جزائرية أخرى ذات صاريتين من نوع بريك قرب السواحل الإسبانية ؛ و اتّجه نحو خليج الجزائر، الّذي وصله أواخر الشهر المذكور[2].

خوفًا من أن تعترض عمارة ديكاتور السفن الجزائرية العائدة فرادى إلى الميناء، اضطرّ الداي عمر النزول عند شروط الأمريكيين، حيث أسفرت مفاوضات الصلح على إلغاء الإتاوة الّتي كانت تدفعها الولايات المتّحدة و إطلاق سراح أسراها، و دفع تعويض مقداره عشرة آلاف دولار عن السفينة الأمريكية - و حمولتها - الّتي استولى عليها الجزائريون قبل سنتين ؛ كما نصّت المعاهدة على طريقة معاملة الأسرى في حالة استئناف الأعمال العدائية، و اعتبارهم أسرى حرب لا عبيدًا. و كان عزاء الداي الوحيد هو قبول الأمريكيين إرجاع الفرقاطة و البريك مع الناجين من طاقميهما[3].

شكّلت كسرة الجزائريين أمام الأمريكيين عاملاً مشجّعًا للأروبيين ليسعوا إلى افتكاك تنازلات مماثلة، فلقد جاءت ثلاثة أسابيع بالضبط بعد ختام مؤتمر فيينا، الّذي كان من بين مقرّراته الدعوة إلى محاربة "قراصنة الدول المغاربية" و وضع حدّ لاسترقاق الأوروبيين في المنطقة[4]. و جاءت أوّل مبادرة من الأراضي المنخفضة الّتي أرسلت عمارة حربية في غضون شهر نوفمبر قصد تجديد معاهدتها مع الجزائر

---

1. رأس غاطا - قابوا گاطة عند الزهّار (ص. 118) - رأس بحري يقع على بعد نحو ثلاثين كيلومتر جنوب شرق المرية (إسبانيا).

2. الزهّار، المصدر السابق، ص ص. 117-118 ؛ شالر، المصدر السابق، ص. 147 ؛ إروين، المرجع السابق، ص. 247 ؛ شويتام، **نهاية...**، المرجع السابق، ص ص. 144-145.

- Devoulx, **Le raïs…**, Op. cit., pp. 133-140 ; Leiner, Op. cit., pp. 90-106 ; Panzac, **Les corsaires…**, Op. cit., p. 226.

3. إروين، نفس المرجع السابق، ص ص. 249-250 ؛ الزهّار، نفس المصدر السابق، ص. 118 ؛ شويتام، نفس المرجع السابق، ص. 145.

- Leiner, Ibid., pp. 110-113.

4. شويتام، نفس المرجع السابق، ص ص. 145-149 ؛ زهرة، المرجع السابق، ص ص. 93-99.

- Panzac, Ibid., p. 228.

لم تكن تلك المقرّرات مدرجة أصلاً في جدول أعمال مؤتمر فيينا، بل تمّ تباحثها عقب استهجان المؤتمرين لغزو عمارة جزائرية مكوّنة من خمس مراكب الأراضي النابولية و أسر ما لا يقلّ عن 250 مسيحيًا في شهر يناير 1815م : الزهّار، نفسه ؛ زهرة، نفس المرجع السابق، ص ص. 95-96.

- **Registre du beylik**, A.O.M., 15MI-15, n° 19, fol. 84r° ; Devoulx, « **Le registre…** » », Op. cit., 1872, pp. 292-293.

بشروط مماثلة للّتي تحصّل عليها، إلاّ أنّ الداي عمر باشا رفض أيّ تفاوض مع اللواء البحري ڤان كاپلن (van Capellen) قبل أن تدفع الإتاوات المتأخّرة[1].

أمّا إنكلترا، الّتي عادت لتتبوّأ مكان الصدراة على الساحة الأوروبية بعد انهيار الإمبراطورية النابليونية، فقد ارتأت اتّخاذ سياسة أكثر عدائية تجاه الإيالات المغاربية مدفوعة بعدّة اعتبارات، أهمّها رغبتها في إرساء وجودها الاستراتيجي في جزيرة مالطة - و كان بعض المتدخّلين في مؤتمر فيينا اقترحوا إعادة إحياء رهبانية القديس يوحنا، لمجابهة أعمال "القرصنة البربرية" -[2]، و كذا نيّتها في تحويل امتيازاتها في كلّ من عنّابة و القالة (الباستيون) إلى قواعد عسكرية - تستعيض بها عن ميناء ماهون (Mahòn) بجزر البليار، الّذي أرجعته لإسبانيا بموجب معاهدة أميان سنة 1802م -[3]، و أخيرًا بضغط من الرأي العامّ الداخلي، الّذي استنكر بشدّة هجوم القراصنة التونسيين المستترين بالعلم الإنكليزي على جزيرة سانت انتيوكو (Sant'Antioco)، قرب ساردينيا في منتصف أكتوبر 1815م[4]. و عليه، تقرّر تكليف البارون اكسموث اوف كانونتين ادوارد پليو (Edward Pellew, Baron Exmouth of Canonteign) بقيادة أسطول البحر المتوسّط في ديسمبر من تلك السنة، و أسندت له مهمّة تحرير أسرى الدويلات الواقعة تحت النفوذ البريطاني من العبودية و حمل "البرابرة" على معاملة المسيحيين، الّذين يقعون في قبضتهم كأسرى حرب لا باعتبارهم عبيدًا.

كان الإنكليز يعلمون جيّدًا أنّ الجزائريين لن يقبلوا الإذعان لتلك المطالب على الإطلاق، و أنّ السبيل الوحيد لحملهم على ذلك هو استخدام القوّة. و لأجل ذلك، وضعوا خطّة مرحلية تشتمل على عملية مسح دقيق لتحصينات و طبّانات الجزائر مع سبر عمق البحر في نقاط متعدّدة قريبة من الميناء، بقصد إعداد مخطّط هجومي مدروس ؛ و بالفعل، أمر اكسموث قبطان سفينة يدعى وارد (Warde) بالتوجّه إلى المدينة المذكورة مطلع سنة 1816م و أن يراعي لدى قيامه بالمهمّة الاستطلاعية منتهى السرّية، دون أن يخبر حتّى القنصل الإنكليزي ماكدونل (McDonnell)[5]. و في أوائل شهر مارس، قدم اكسموث للجزائر حيث قام

---

1. Krieken, Op. cit., p. 128.

- شويتام، **نهاية...**، المرجع السابق، ص ص. 149-150.

انظر أيضًا : شالر، المصدر السابق، ص. 149 ؛ الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 261.

2. زهرة، المرجع السابق، ص ص. 97-98 ؛ روسو، المرجع السابق، ص. 394. - Panzac, **Les corsaires...**, Op. cit., p. 228.

3. الزبيري، المرجع السابق، ص ص. 235 و 241. - Féraud, **La Calle...**, Op. cit., pp. 592-593.

4. Rousseau, **Annales...**, Op. cit., pp. 305-306 ; Plantet, **Correspondance des Beys...**, Op. cit., pp. 545-547 ; Panzac, Ibid. ; Mercier, **Histoire de l'Afrique...**, Op. cit., p. 491.

5. F. T. Michell, **Personal recollections of the Expedition to Algiers in august 1816**, H. Toms, Totnes, 1865, p. 12 ; Mercier, Ibid., p. 492 ; Playfair, « **Épisodes...** », Op. cit., 1879, pp. 462-464 ; Panzac, Ibid., pp. 230-231.

- زهرة، نفس المرجع السابق، ص ص. 123-124.

بالمطالبة بتحرير الأسرى الإيونيين[1] باعتبارهم رعايا إنكليز، كما توسّط لكلّ من نابولي و سردينيا من أجل افتداء أسراهما ؛ و في غضون ذلك، تسلّم المخطّطات و الملاحظات الّتي استوفاها القبطان وارد، و شرع في وضع خطّة هجومية تمكّنه من تجاوز وابل المدفعية الجزائرية. بعد أن استكمل المرحلة الأولى من مهمّته بلا عائق، تمكّن خلالها من الحصول على موافقة الداي عمر لمجمل مطالبه، قاد اكسموث الأسطول الانكليزي إلى تونس و من ثمّ طرابلس الغرب، حيث أسقط القناع بإنذاره باييْهما بالحرب إن لم يذعنا و يتعهّدا علاوة على ذلك بالتوقّف عن نشاط القرصنة - و هو مطلب لم يعرضه على داي الجزائر - ؛ و تحت طائلة التهديد، اضطرّ كلا الباييْن على التوالي إلى النزول عند مطالب الأميرال الإنكليزي المصمّم[2].

بعدئذٍ، عرّج الأميرال بالأسطول على الجزائر في 14 مايو ليحاول التوصّل إلى نفس النتيجة المحقّقة، ألا و هي إبطال استرقاق المسيحيين ؛ و إزاء رفض الداي، هدّد صراحةً بأنّه سيصطحب معه القنصل الإنكليزي و يقصف المدينة. و فيما مُنع القنصل - لكونه في ذات الوقت ممثّل البرتغال - من الرحيل، استعدّ الجزائريون للمجابهة. بيد أنّ عدم تمكّن اكسموث من التموقع بسفنه وفق الخطّة المرسومة، ألجأه بعد أيّام إلى خفض التصعيد و الاتفاق على هدنة مدّتها ستّة أشهر[3]. في أثناء ذلك، كان الداي عمر قد أرسل إلى بايي قسنطينة و وهران يأمرهما بالاحتياط من التهديد المحدق. قام چاكر باي امتثالاً في عنّابة بحشد قوّات متأهّبة و كافية للتصدي للإنكليز، الّذين كانت امتيازات الشرق بأيديهم منذ 1807م ؛ و هذا في حال ما إذا قرّروا تحويلها بالقوة إلى قاعدة عسكرية دائمة[4].

---

1. الإيونيون : هم سكّان الجزر الإيونية السبع (Heptanese)، الّتي أهمّها كورفو، و الواقعة بالبحر الإيوني غرب إقليمي شبه جزيرة المورة و إبيروس (اليونان) ؛ و قد سيطر الإنكليز على الجزر المذكورة إثر الحروب النابليونية، و وضعت تحت حمايتهم بموجب معاهدة باريس في 5 نوفمبر 1815م :

- Alain Blondy, « **L'Heptanèse et Malte sous domination britannique** », in : Revue d'Histoire Maritime 15, 2012, pp. 357-368.

2. Mercier, **Histoire de l'Afrique…**, Op. cit., pp. 491-492 ; Plantet, **Correspondance des beys…**, Op. cit., T. 3, pp. 548-550 ; Playfair, « **Épisodes…** », Op. cit., 1879, p. 465 ; Rousseau, **Annales…**, Op. cit., pp. 312-314 ; Panzac, **Les corsaires…**, Op. cit., pp. 228-229.

- شويتام، **نهاية…**، المرجع السابق، ص ص. 150-151 ؛ زهرة، المرجع السابق، ص ص. 124-125 ؛ ابن أبي الضياف، المصدر السابق، 1999، ص ص. 113-114 و 116 ؛ روسو، المرجع السابق، ص. 394.

3. R. L. Playfair, **The scourge of Christendom. Annals of british relations with Algiers prior to the french conquest**, Smith, Elder, & Co., London, 1884, pp. 255-256 ; Ch. W. Janson, **A view of the present condition of the states of Barbary**, W. Smith and Co., London, 1816, pp. 29-32 ; Playfair, « **Épisodes…** », Ibid., 1879, pp. 465-467 ; Panzac, Ibid., p. 229.

- الزهّار، المصدر السابق، ص. 120 ؛ شالر، المصدر السابق، ص ص. 152-154 ؛ زهرة، نفس المرجع السابق، ص ص. 125-127 ؛ **المراسلات العثمانية**، م.و.ج.، مجموعة 3190-1، رقم 386.

4. الزبيري، المرجع السابق، ص. 238.

- Caporal, Op. cit., p. 109 ; Sander Rang, Op. cit., p. 573.

في هذا الجوّ المشحون، صادف يوم 23 مايو تقاطر 350 من مراكب صيادي المرجان الإيطاليين إلى الساحل العنّابي، للاحتفال بأحد الأعياد الكاثوليكية المهمّة. و بسبب استرابة قادة القوّات المرابطة بعنّابة أن يكون إقبال هذا العدد غير المعهود من المسيحيين، الّذين اجتذبتهم في الواقع صدى جولة اكسموث الإيجابي، حيلةً لأخذ المدينة على حين غرّة، فإنّهم قرّروا مهاجمة العدو المفترض استباقيًّا. و قد أسفر الهجوم المباغت للقوّات العنّابية - الّتي بلغ تعدادها نحو الألفي رجل - إلى وقوع ضحايا قدّر عددهم ما بين 50 و 60 صيّادًا و أسر ما لا يقلّ عن 800 آخرين، بينما تمكّن عدد أكبر من الإفلات في قواربهم ؛ و بعد أن أدرك الطرف الجزائري الخطأ المرتكب، أطلق سراح جميع الصيّادين و الرعايا الإنكليز من الغدّ[1].

كانت للحادثة أصداء بعيدة في الأوساط الأوروبية، الّتي تناقلت روايات تمّت المبالغة فيها بعدد القتلى. و في إنكلترا، استهجن الرأي العامّ "غدر" الجزائريين، و النتائج المتواضعة الّتي حقّقها اكسموث أمامهم ؛ و عليه، تمّ تكليف هذا الأخير في شهر يوليو على رأس أسطول أكبر للقيام بحملة ثأرية ضدّ الجزائر[2]. و في طريقها، تعزّزت قطع الأسطول الحربي الإنكليزي المكوّن من خمس بوراج و خمس فرقاطات و خمس قربيطات و أربع حرّاقات عند جبل طارق بخمس و خمسين لنجون و زورق مسلّح، بالإضافة إلى عمارة هولندية مشكّلة من خمس فرقاطات و قربيط، بقيادة ڤان كاپلن[3].

---

1. Anonyme, « **Biserta, 25 maggio 1816** », in : Gazzetta di Genova, Sabbato 16 Giugno 1816, N° 48, p. 192 ; Anonyme, « **Biserta, 26 maggio 1816** », in : Gazzetta di Genova, Sabbato 16 Giugno 1816, N° 48, p. 192 ; Anonyme, « **Livorno 4 Giugno** », in : Gazzetta di Cremona, samedi 15 juin 1816, N° 24, p. 192.

انظر أيضًا : شالر، المصدر السابق، ص ص. 154 و 165 ؛ الزهّار، المصدر السابق، ص. 121 ؛ زهرة، المرجع السابق، ص ص. 128-129.

- Janson, Op. cit., pp. 54-57 ; Playfair, **The scourge…**, Op. cit., p. 258 ; Vayssettes, Op. cit., 1869, pp. 528-529.

يروي القنصل الأمريكي حادث عنّابة بشكل مغاير، حيث أورد أنّ الداي بعدما تيقّن أنّ الحرب ستندلع لا محالة مع الإنكليز، "**…كان من بين الإجراءات الاحتياطية الّتي اتّخذها… أنّه أمر والي عنّابة**(كذا) **و وهران بأن يعتقلا جميع الرعايا البريطانيين و الأشخاص الخاضعين للحماية البريطانية و يضمنوا حياتهم. و هذه الأوامر نفّذت بكلّ ما ينبغي من الدقّة و الشدّة في عنّابة، حيث كان يوجد عدد كبير من الإيطاليين و الكورسكيين الّذين يعملون في صيد المرجان تحت الحماية البريطانية، و في نطاق الامتيازات الّتي منحت لهذا البلد. و في هذه العملية قتل عدد من الأشخاص الّذين حاولوا مقاومة رجال السلطة أو هربوا للنجاة من هذا الإجراء. كانت الإيالة تتمتّع بحقّ القبض على أشخاصهم، و لكنّهم قاوموا الأوامر و اضطرّت إلى استعمال القوّة معهم.**" : نفسه، ص. 154.

2. شالر، نفس المصدر السابق، ص. 155 ؛ شويتام، **نهاية…**، المرجع السابق، ص. 154 ؛ زهرة، نفس المرجع السابق، ص ص. 129-131.

- A. Salamé, **A narrative of the expedition to Algiers in the year 1816**, John Murray, London, 1819, pp. 2-5 ; Pananti, Op. cit., pp. 542-543 ; Playfair, « **Épisodes…** », Op. cit., 1879, pp. 467-470 ; 1880, pp. 22-23 ; Panzac, **Les corsaires…**, Op. cit., p. 229 ; Mercier, **Histoire de l'Afrique…**, Op. cit., pp. 493-494.

3. Salamé, Ibid., pp. 7-8 ; Krieken, Op. cit., p. 128 ; Chabaud-Arnault, « **Attaque des batteries algériennes par Lord Exmouth en 1816** », in : R.A. 19, 1875, p. 195.

- شالر، نفس المصدر السابق، ص ص. 155-156.

و كان اكسموث قد أحيط علمًا من قبل قبطان سفينة قادمة من الجزائر بأنّ الجزائريين وصلهم خبر الحملة و استعدّوا للقائه بثبات[1].

عند بلوغه خليج الجزائر يوم الثلاثاء 27 أغسطس 1816م، لم يلبث اكسموث أن أرسل ترجمانه ليسلّم قائد المرسى إنذارًا أخيرًا تضمّن شروطًا كان يعلم تبصّرًا أنّها لن تقبل قط. و قد استغلّ مهلة الثلاث ساعات الممنوحة كي يقوم بالترتيبات النهائية للهجوم ؛ و حتّى يخادع الدفاعات الجزائرية، أمر سفن الأسطول المتحالف أن ترفع الراية البيضاء بينما تقترب شيئًا فشيئًا من الميناء لتتّخذ مواقعها المحدّدة. في الأثناء، كان الطرف الجزائري جامدًا بلا حراك بسبب نوم الداي عمر، فلا الديوان انعقد في حينه من أجل التباحث في مضمون الشروط الإنكليزية، و لا وكيل الحرج - مع أنّه يملك صلاحية على جميع الاستحكامات البحرية - أمر بإطلاق النار لإيقاف مناورة اكسموث الحاسمة، رغم تنبيه القبطان و الريّاس الملحّ بخطورة الوضع[2].

لمّا استيقظ الداي أخيرًا، كانت المهلة قد انقضت و سفن الأعداء قد اصطفّت الكبيرة منها على مقربة من مدخل الميناء و الصغيرة بإزاء الجزيرة ؛ فهرع إلى برج الفنار فزِعًا و أمر بإطلاق طلقات تحذيرية في الهواء، لكن بعد فوات الآوان، إذ اختلطت مع صليات مدفعية البوارج الّتي راحت تقصف الطبّانات و الأبراج المواجهة لها. احتدم القتال مدّة سبع ساعات دون توقّف، تكبّد خلالها الطرف المدافع خسائر أكثر من مضاعفة مقارنةً بالطرف المهاجم[3]، الّذي تمكّن عند الغسق من تحطيم منشآت الميناء جزئيًا

للمزيد من المعلومات حول تشكيل الأسطول الإنكليزي الهولندي، انظر :

- William Pelham Brenton, **The naval history of Great Britain from the year MDCCLXXXIII to MDCCCXXXVI**, vol. II, Henry Colburn, London, 1837, pp. 565-566 ; Panzac, **Les corsaires…**, Op. cit., p.234 ; Michell, Op. cit., p. 69.

1. **المراسلات العثمانية**، م.و.ج.، مجموعة 3190-1، رقم 72.

انظر أيضًا : زهرة، المرجع السابق، ص ص. 132-133. - Pananti, Op. cit., pp. 543-544.

- انظر أيضًا : - Salamé, Op. cit., pp. 14-17 & 34 ; Playfair, **The scourge…**, Op. cit., pp. 260-261.

2. Salamé, Ibid., pp. 26-30 & 34-37 ; Michell, Ibid., p. 27 ; **Registre du beylik**, A.O.M., 15MI-14, n° 13, fol. 36r° ; Belhamissi, **Marine…**, Op. cit., T. 2, pp. 75-76.

- الزهّار، المصدر السابق، ص. 122 ؛ زهرة، نفس المرجع السابق، ص ص. 133-135.

انظر أيضًا : المزاري، المصدر السابق، ج. 1، ص ص. 345-346 ؛ الضعيف الرباطي، المصدر السابق، ص. 396.

3. اليوم التالي للمعركة، عدّ الإنكليز 160 قتيلاً و 692 جريحًا، و الهولنديون 13 قتيلاً و 52 جريحًا. أمّا الجزائريين، فأورد الرحّالة التنلاني الّذي كان شاهدًا وفيًا للأحداث أنّ عدد قتلاهم بلغ 341 ؛ و هذا يتوافق مع رقم الثلاثمئة قتيل الّذي ذكره قائد المرسى في تقرير وجّهه إلى الديوان الهمايوني بتاريخ 17 أكتوبر 1816م، و مع ما ذكره شالر : "**المرجّح أنّ الجزائريين لم يفقدوا عددًا من الرجال يوازي العدد الّذي خسره العدو. و تقول التقديرات (تستحقّ ما تستحقّه مثل هذه التقديرات من الثقة) أنّ عدد القتلى و الجرحى من الجزائريين في هذه المعركة بلغ 600 قتيل. و الواقع أنّه لا يوجد ما يدلّ بعد المعركة، على أنّ خسارتهم كانت كبيرة في الأرواح.**" : شالر، المصدر السابق، ص. 292 ؛ عبد الرحمن بن إدريس التنلاني، **رحلة إدريس التنلاني**، مخطوط بخزانة كوسام، أدرار، و. 7. نقلاً عن : بليل رحمونة، **القناصل و القنصليات الأجنبية بالجزائر العثمانية من 1564 إلى 1830**،

- ناهيك عن مئات المباني بالمدينة - و إشعال النار في معظم المراكب الجزائرية الّتي كانت راسية داخل الميناء، ممّا أمال كفّة النصر في الأخير إلى جانبه[1].

بعد أن شارفت ذخيرتهم على النفاذ و تضرّرت سفنهم بشكل متفاوت الخطورة، بدأ الإنكليز بالتراجع قبيل منتصف الليل إلى وسط الخليج ؛ و أمر اكسموث بأن تستدبر قطع الأسطول جهة المدينة، لكي لا يتبيّن الجزائريون مبلغ عطبها. و في الغدّ، أرسل موفد إنكليزي رفقة ترجمان ليبلغ الداي أنّ القتال سيستأنّف إن لم يذعن للإملاءات السابقة. في غضون الديوان العامّ الّذي انعقد لمناقشة المسألة، تمّ تجاهل رأي الريّاس - للمرّة الثانية في ظرف أربعة و عشرين ساعة -، الّذين أشاروا بأرجحية عطب سفن العدو و إمكانية مواصلة القتال ؛ و أخذ الداي بالرأي الانهزامي لبعض الأوده باشية خشية أن يثور ضدّه العسكر. و عليه، تمّ الإمضاء بتاريخ 30 أغسطس على معاهدة صلح، الّتي تمّ بموجبها إلغاء الاسترقاق نهائيًا و إطلاق سراح 1211 أسير دون فدية و إرجاع مبلغ الفدى الّذي دفع قبل أشهر بوساطة اكسموث، كما قام الداي بالاعتذار علانية للقنصل الإنكليزي لما لحق به و دفع له مالاً تعويضًا ؛ و تلاها بيوم عقد معاهدة صلح أخرى مع هولندا[2].

في ذلك الظرف الحرج، "**كان الداي عمر يعرف بالأخطار الّتي تترقّبه، و مع ذلك، فقد قصد إلى ثكنات الجيش ليخطب أمام الجنود لرفع روحهم المعنوية، قائلاً أنّ المصائب الّتي حلّت بالبلد كبيرة، و لكن ما حدث ليس ممّا لا يمكن إصلاحه، و أنّ البلد لا يزال يملك موارد كثيرة، و أنّهم إذا تذرّعوا**

دكتوراه في التاريخ الحديث و المعاصر، جامعة وهران، 2011، ص. 280 ؛ شويتام، **نهاية...**، المرجع السابق، ص. 157، ه. 3 ؛ التميمي، **بحوث...**، المرجع السابق، ص. 149. - Salamé, Ibid., pp. 167-169 ; Krieken, Op. cit., p. 129 ; Brenton, Id. ; Michell, Ibid., pp. 68-73.

من جهة أخرى، بناءً على إحصاء دقيق لعدد الوفيات في صفوف الإنكشاريين في المرحلة الزمنية الممتدّة من محرّم 1230 هـ (يناير 1815م) إلى ذو القعدة 1234هـ (سبتمبر 1819م)، توصّلنا إلى أنّ عدد القتلى خلال المدّة المزامنة لحملة اكسموث لم يتجاوز الستّين فردًا، بما فيهم الطوبجية و البوناجية ؛ و هذا يكشف اللثام عن حقيقة إسناد معظم المواقع الدفاعية الثانوية من طبخانات و أبراج إلى متطوّعة من الكراغلة و البلدية من خارج الأوجاق كانوا يعرفون بالطوبجية العرب : **دفتر مواجبات...**، المصدر السابق، رقم 1975 و 1986. انظر الملحق رقم 51.

و يظهر أن قسم معتبر من الخسائر الجزائرية عائد إلى صليات الإنكليز الأولى، الّتي فاجأت عددًا كبيرًا من الجنود و المدفعيين المكشوفين خارج معاقلهم : شالر، نفس المصدر السابق، ص. 291. - Panzac, Ibid., pp. 240-241.

1. Devoulx, **Tachrifat**, Op. cit., pp. 18-19 ; Michell, Op. cit., pp. 31-47 ; Salamé, Op. cit., pp. 162-163, n. ✸ ; Sander Rang, Op. cit., p. 574 ; Playfair, « **Épisodes…** », Op. cit., 1880, pp. 157-158. - شالر، المصدر السابق، ص ص. 158 و 289-292.

2. الزهّار، المصدر السابق، ص ص. 124-125 ؛ التنلاني، المصدر السابق، و. 7 ؛ شالر، نفس المصدر السابق، ص ص. 157 و 166-167 ؛ زهرة، المرجع السابق، ص ص. 139-141.

- Salamé, Ibid., pp. 50-109 ; Abdeljelil Temimi, « **Documents turcs inédits sur le bombardement d'Alger en 1816** », in : R.O.M.M. 5, 1968, pp. 129-130 ; Devoulx, Ibid., pp. 134 & 136 ; Brenton, Op. cit., pp. 567-568 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 296 ; Chabaud-Arnault, Op. cit., pp. 200-202 ; Playfair, Ibid., pp. 29-35 ; Caporal, Op. cit., p. 245 ; Belhamissi, **Marine…**, Op. cit., T. 2, pp. 75-76.

بالصبر و الشجاعة، فإنّ قوّة الجزائر قد تصبح مبعثًا للرعب أكثر من ذي قبل. و لكن الشقاق و العنف سيجعل البلد يخسر كلّ شيء. و يختتم قائلاً أنّهم إذا كانوا يجدون في شخصه عقبة في طريق الحظّ و السعادة، فما عليهم إلاّ أن يتخذوا منه كبش الفدا(كذا)"[1] ؛ و رغم رباطة الجأش الّتي اتّسم بها الداي في موقفه المذكور، فإنّه ضحّى بوكيل الحرج ازميرلي محمد چاوش الّذي حمّل مسؤولية الكسرة، و عوّضه بوكيل حرج دار السلطان حسين أربعة أيّام بعد الهجوم[2].

بسبب انتشار أنباء الدمار الّذي حلّ بالعاصمة و أخبار مغلوطة باستيلاء النصارى عليها، "**انقطعت الطريق و قلّ الأمان بها في جميع نواحيها، كلّ قافلة كانت في طريق من طرق الجزائر وقع فيها النهب و القتل حتّى مضي لذالك**(كذا) **نصف شهر و نحوه، من مدينة قسنطينة إلى تلمسان كلّها وقع فيها الخلل...**"[3] ؛ و هدأت تدريجيًا الأمور بعد أن أرسل الداي عمر إلى البايات و حكّام المدن في طلب البنّائين و الحرفيين. و إضافةً إلى ذلك، فرضت السخرة على جلّ السكّان بشكل دوري و الأشغال الشاقّة على المساجين لتوفير يد عاملة بديلة عن أسرى البايلك المحرّرين ؛ و ذكر القنصل الأمريكي أنّه، في غضون ستّة أشهر فحسب، تمّ إعادة بناء و ترميم المباني العامّة و الاستحكامات الّتي دمّرها الهجوم الإنكليزي الهولندي. أمّا فيما يخصّ البحرية المحطّمة، فقد أهدى السلطان العثماني إلى جانب باي طرابلس و السلطان المغربي ما مجموعه ستّة مراكب، فيما تمّ شراء بعض المراكب من تجّار أوروبيين و بناء مراكب أخرى في ترسانة الجزائر. و بفضل ذلك، ستتمكّن الإيالة بحلول عام 1820م من استعادة قوّتها البحرية - من حيث عدد القطع و المدفعية - و تجديد أسطولها، الّذي دمِّر بشكل شبه كامل خلال يوم 27 أغسطس المشهود[4].

---

1. شالر، المصدر السابق، ص ص. 167-168. انظر أيضًا :

- Sander Rang, Op. cit., pp. 574-575 ; Playfair, **The scourge…**, Op. cit., pp. 278 & 281.

2. **Registre du beylik**, A.O.M., 15MI-14, n° 13, fol. 23r° ; Salamé, Op. cit., pp. 158-159, n. † ; Pananti, Op. cit., p. 563.
انظر أيضًا : شالر، نفس المصدر السابق، ص. 173.

3. التنلاني، المصدر السابق، و. 10. نقلاً عن : أحمد جعفري، "**الحملة الإنجليزية الهولندية على مدينة الجزائر سنة 1231هـ/ 1816م، من خلال مخطوط رحلة الشيخ سيدي عبد الرحمان التنلاني (ت. 1233 هـ)**"، في : مجلة تراث (العين) 131، أغسطس 2010، ص. 140 و ما بعدها.

4. Brenton, Op. cit., pp. 566-567 ; Devoulx, **Tachrifat**, Op. cit., pp. 61-62 ; Anonyme, **Mémoires de la congrégation de la mission**, T. 3, Maison principale de la congrégation de la mission, Paris, 1864, p. 675 ; Paul Crombet, « **Alger au temps des Turcs** », in : La revue de Paris 65, 1958, p. 84 ; Playfair, Ibid., pp. 280-281 ; Sander Rang, Op. cit., p. 575 ; Devoulx, « **La marine…** », Op. cit., pp. 416-418 ; Belhamissi, **Marine…**, Op. cit., T. 2, pp. 77-78 ; Panzac, **Les corsaires…**, Op. cit., pp. 241-242.

علاوة على ذلك، قام الداي عمر باشا - خلال السنة الأخيرة من حكمه - لرأب الخلل الملاحظ في صفوف المدفعيين بتطويع 29 متدرّب "جزائرلي" في أوجاق البومبجية[1]، و حوالي 159 متدرّب أغلبهم من الكراغلة - من ضمنهم 127 من مدينة الجزائر، و 7 من باق أنحاء الإيالة - في أوجاق الطوبجية[2].

و كانت من بين أولى الأمور الموجبة، الّتي ابتدرها الداي، إرسال قائد المرسى على رأس بعثة إلى إسطنبول ليستمدّ الدولة الأمّ بالعدّة و العتاد و الرجال ؛ و لقد أثمر مسعى الجزائريين بتجنيد ما يقرب من 1036 نفر من "برّ الترك" على 18 دفعة في ظرف عشرة أشهر (منتصف ذو القعدة 1231 - منتصف رمضان 1232هـ)[3].

الراجح أنّ الطاعون الّذي ضرب الجزائر نهاية ربيع سنة 1817م لم تنتقل عدواه - كما ذكرته بعض المراجع - على متن أحد المراكب الّتي أقلّت أولئك المجنّدين من إزمير ؛ بل بفعل مركبٍ أقلّ حجّاجًا جزائريين من الإسكندرية، بدليل تسجيل نسبة وفيات منخفضة في أوساط الإنكشارية في تلك الآونة. و اشتدّت وطأة الوباء المذكور خلال فصل الصيف، حيث بلغ ذروته مع تسجيل أزيد من مئة وفاة يوميًا في شهر أغسطس ؛ و قد خلّف بحلول سبتمبر مقتل إثنان و خمسين و مائة و ثلاثة آلاف شخص في العاصمة وحدها[4].

- الزهّار، المصدر السابق، ص ص. 127 و 139 ؛ الضعيف الرباطي، المصدر السابق، ص. 401، ه. 2431 ؛ زهرة، المرجع السابق، ص ص. 141-143 و 148 ؛ التميمي، **بحوث...**، المرجع السابق، ص ص. 62-63 ؛ قاسيمي، المرجع السابق، ص. 73.

تجدر الإشارة إلى أنّ الداي أمر في غضون شتاء سنة 1817م بمنع تموين الإنكليز بالحبوب و أسلم امتيازات الشرق للفرنسيين، بعد أن اطمأن لإعادة بناء استحكامات الميناء و المدينة : قنان، **معاهدات...**، المرجع السابق، ص ص. 249-250.

- Pananti, Op. cit., p. 563 ; Masson, « **À la veille…** », Op. cit., pp. 82-83.

1. **دفتر مواجبات...**، المصدر السابق، رقم 1975، و. 396ظ٠.

2. نفسه، وو. 403و٠-404و٠ و 406ظ٠-408و٠.

3. **Registre du beylik**, A.O.M., 15MI-14, n° 13, fol. 13.

- **دفتر مواجبات...**، نفس المصدر السابق، رقم 1975.

انظر أيضًا : ر. د. أ.ع.، المصدر السابق، ص ص. 126-129 ؛ **المراسلات العثمانية**، م.و.ج.، مجموعة 3190-1، رقم 73 ؛ التميمي، **بحوث...**، المرجع السابق، ص. 59.

الجدير بالذكر أنّ عددًا ليس بالقليل من أولئك المجنّدين "الأتراك" الجدد تلقّى علوفة مبدئية قدرها أربعون صائمة بدل الثمانية المقرّرة ؛ و هذا ما دفعنا للتخمين بأنّ المعنيين كانوا أصلاً جنودًا محترفين سابقين (؟) في الجيش العثماني : **دفتر مواجبات...**، نفس المصدر السابق، رقم 1975، و. 265ظ٠.

4. الزهّار، المصدر السابق، ص. 127 ؛ غطّاس، "**أوضاع...**"، المرجع السابق، ص ص. 366-367 ؛ موساوي القشاعي، **الصحّة...**، المرجع السابق، ص ص. 92-94.

- J. L. G. Guyon, **Histoire chronologique des épidémies du Nord de l'Afrique depuis les temps les plus reculés jusqu'à nos jours**, Imprimerie du Gouvernement, Alger, 1855, pp. 372-376, 408-410 & 427.

بالنسبة لعموم الإنكشارية و الأهالي على السواء الّذين يعتقدون بالطيرة، جاء هذا الطاعون خاتمة لسلسلة من الوقائع التعسة، و اثباتًا بأنّ الداي عمر باشا منكود الحظّ[1] ؛ و لقد انضافت تلك الوصمة إلى اتّهامات أخرى[2] تذرّع بها جمع من ضبّاط و جنود إنكشارية محلّة الغرب عقب عودتهم إلى العاصمة يوم 7 سبتمبر للإقدام على الإطاحة بالداي. و بعد أن أعلم بأمر تجمّعات أفراد الإنكشارية في الثكنات صبيحة اليوم التالي، أرسل عمر باشا إليهم كبراء الديوان لدعوتهم إلى التعقّل. غير أنّ العكس هو الّذي حدث، إذ أظهر المتآمرون أنّ عزمهم تنحية الدولتلي لا رجوع فيه ؛ و عليه، رافقت مجموعة منهم - تراوح عدد أفرادها ما بين 25 و 30 - أعضاء الديوان إلى دار الإمارة، و أبلغوا عمر باشا بقرار عزله.

و الجدير بالذكر أن نوبتجية الباب لم يتصدّوا للوافدين على اعتبار إجماع الإنكشارية بذاك الشأن، و الّذي تجلّى في مرافقة كبراء الديوان لهم. و قد أدرك عمر استحالة المقاومة، فاستسلم للأمر المحتوم و خنِق لتوّه في فناء القصر[3].

انظر الملحق رقم 51.

1. في هذا الصدد، كتب القنصل الفرنسي پيير دوڤال (Pierre Deval) إلى وزير خارجيته متحدّثًا عن وضعية الجزائر العسيرة : "**لقد ذكّرت هذه الأيّام بكلّ أنواع المصائب الّتي حلّت بالبلاد منذ توليّ عمر باشا مقاليد الحكم : هزيمة البحرية الجزائرية على يد الأمريكيين، و السلم المخجل الّذي تلا ذلك ؛ ثمّ عرّاصة الجراد القادمة من الصحراء الّتي انتشرت صيف 1815 في كامل أنحاء الإيالة، متلفةً القسم الأكبر من المحاصيل الزراعية، و متسبّبةً في المجاعة الّتي عمّت البلاد ؛ و أخيراً، تدمير أسطول الجزائر و الخسارة الّتي لحقت البلاد إثر قذف مدينة الجزائر من قبل الأسطول الإنكليزي، ثمّ السلم المهين و الباهظ الّذي اضطرّت الإيالة إلى توقيعه.**" :

- A.E.P./C.C.C., Algérie XLII, fol. 389.

انظر أيضًا : الزياني، **دليل...**، المصدر السابق، ص ص. 307-308 ؛ شالر، المصدر السابق، ص. 172.

- Crombet, Op. cit., p. 82.

2. وجّه زعيم المتآمرين علي خوجة الّذي تولّى دايًا خلفًا لعمر رسالة إلى السلطان محمود الثاني، بتاريخ 25 ذو القعدة 1232هـ الموافق لـ 6 أكتوبر 1817م اتّهم فيها سلفه بأنّه "**كان مستبدًّا لا يتّبع سوى أهواءه الشخصية ؛ كما لم يهتمّ قطّ بأحوال الفقراء و الضعفاء، حيث انصرف إلى تبديد أموال خزينة المسلمين في تشييد بعض الأبنية الّتي لا فائدة ترجى منها، ... و أوقع البلاد في ذلك الظرف العسير في مصائب كانت ناتجة عن سوء تدبيره و أنانيته، و كذا تقصيره.**" : الدفتر الهمايوني، أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول، رقم 22474. نقلاً عن : التميمي، **بحوث...**، المرجع السابق، ص. 231.

3. الزهّار، المصدر السابق، ص. 131 ؛ شالر، نفسه ؛ **دفتر مواجبات...**، المصدر السابق، رقم 1975، و. 21ظ ؛ الزياني، نفس المصدر السابق، ص. 307 ؛ سامح التر، المرجع السابق، ص. 612.

- Guyon, Op. cit., pp. 376-377 ; Sander Rang, Op. cit., p. 575 ; de Grammont, **Histoire d'Alger...**, Op. cit., pp. 296-297.

الفصل الرابع :

الأوجاق في أواخر عهد الدايات (2) : فترة النهاية (1817-1830م)

1. الأوجاق في نهاية عهد الدايات (1817-1830م)

2. الأيام الأخيرة (1791-1817م) : فترة السقوط

الفصل الرابع :

الأوجاق في أواخر عهد الدايات (2) : فترة النهاية (1817–1830م)

1. الأوجاق في نهاية عهد الدايات (1817–1830م)

1-1. السنوات الأخيرة (1817-1830م) : فترة ما قبل السقوط

1-1-1. عهد الداي علي خوجة (1817-1818م)

كان زعيم المؤامرة الّتي أطاحت بالداي عمر يولداش قديم يدعى علي بن أحمد ؛ و كما يوحي به لقبه، فيبدو أنّه انتمى إلى سلك الخوجات[1]. و الراجح أنّ الانتقام من قاتل الداي الحاج علي كان أحد الدافعين الرئيسيين لتحرّك المذكور، إلى جانب الطموح بطبيعة الحال ؛ فقد كان كلا الدايين الحاج علي و علي خوجة تربطهما عدّة نقاط مشتركة مثل مسقط الرأس و انتسابهما إلى نفس الجماعة و الأوضة بثكنة علي باشا[2].

اغتنم علي خوجة لحبك مؤامرته الاستياء الشديد الّذي عبرّ عنه أفراد محلّة الغرب، و رغبتهم في رؤية باي وهران علي قاره باغلي - صهر محمّد الكبير، الّذي أثبت جدارته في تسيير بايلكه - على رأس الإيالة[3] ؛ و ممّا لا ريب فيه أنّه هو و شركاءه استغلّوا اسم هذا الأخير ليحرّضوا فعليًا على التمرّد. هذا ما

---

1. **دفتر مواجبات...**، المصدر السابق، رقم 1975، و. 190ظ ؛ الزهّار، المصدر السابق، ص. 131.

الجدير بالتنويه أنّه لم يرد ذكر علي بن أحمد في سلاسل الخوجات المهمّين الواردة قوائمهم في سجل البايلك التالي :

- **Registre du beylik**, A.O.M., 15MI-53, n° 90 (seconde partie).

و في هذا الصدد، ذكر شالر : "**كان علي خوجة رجلاً كثير العمل واسع الاطلاع، و لربمّا كان أكبر عالم متطلّع في الجزائر في ذلك الوقت. و أمّا لقب خوجة، فقد كان الأتراك هم الّذين أطلقوه عليه، و لكنّه لم يمارس قطّ مهنة الكاتب.**" : نفسه، ص. 175.

2. مسقط رأس المشار إليهما هي بلدة مكري (Mekri)، و يطلق عليها حاليًا اسم فتحية (Fethiye)، الواقعة على بعد 260 كيلومتر جنوب شرق إزمير بلواء منتشه، إيالة آيدين، على الخليج الّذي يحمل نفس الاسم : موستراس، المرجع السابق، ص ص. 467 و 563 ؛ كما أنّهما تشاطرا لما يزيد عن ربع قرن الانتساب لجماعة الإنكشارية رقم 177 بالأوضة المسمّاة سپاهي، حيث تجنّد علي بن أحمد - رفقة أخيه سليمان، الّذي توفي بعد بضع سنوات - في شهر محرّم 1204هـ الموافق لسبتمبر/أكتوبر 1789م : **دفتر مواجبات...**، نفس المصدر السابق، رقم 1975، وو. 190ظ و 195و ؛ رقم 1985، وو. 186و، 187ظ و 188ظ.

3. Fey, Op. cit., pp. 305-306 ; Caporal, Op. cit., p. 109 ; Lapène, Op. cit., p. 18.

- الزياني، **دليل...**، المصدر السابق، ص ص. 304-305.

يفسّر أنّه حالما تمّت مبايعته دايًا و خشية ردّة فعل الإنكشارية حيال انتحاله "**طلع للسراية، و أتى بمايتين من العسكر و أبقاهم معه، لا يفارقونه ليلاً و لا نهارًا**"[1].

و في غضون الأيّام التالية، قام علي خوجة بتعقّب المقرّبين من سلفه عمر باشا و صادر أملاكهم، حيث قام بعزل الوزراء و أغلب العمّال ؛ و فيما تمكّن بعضهم من الفرار من بطشه، أعدم أو نفى البعض الآخر إلى بايلك الغرب[2]، و ذلك من أجل أن يتّخذ من قضيتهم لاحقًا ذريعة في حقّ منافسه المحتمل، علي قاره باغلي، الّذي كان لا يزال يحظى بصيت حسن و تفضيل أفراد الإنكشارية ؛ و احترازًا من أن يقدم أفراد من الأوجاق على اغتياله، اعتصم بدار الإمارة عدّة أسابيع و لم يخرج منها حتّى لأداء صلاة الجمعة في جامع السيّدة الملاصق[3].

في الأثناء، حاول الداي كسبًا لرضا الأوجاق تصفية النزاع مع الإيالة المجاورة، حيث بعث مطلع أكتوبر الحاج يوسف وكيل الحرج السابق إلى تونس ؛ و قام هذا الأخير بعقد معاهدة صلح مع محمود باي تجنّب فيها المسائل الخلافية. و بناءً على تعليمات من الداي، قام المفاوض الجزائري بشراء شحنة من الزيت بعين المكان، من أجل ايهام أفراد الديوان أنّ الطرف التونسي أذعن أخيرًا لدفع الإتاوة الّتي كانت السبب الأوّل في الحرب[4].

و تجدر الإشارة إلى إنّه "**لم يغفل عن أمر العسكر، و جعل بينهم جواسيس يلتقطون له الأخبار عنهم**"[5]، و هذا ما سمح له بتبيّن خيوط مؤامرة للإطاحة به كانت ستجري فصولها عمّا قريب لدى قدوم باي وهران إلى الجزائر لدفع الدنوش. و عليه، بادر إلى إرسال شاوشين أعدما علي قاره باغلي قرب مليانة

---

1. الزهّار، المصدر السابق، ص. 131-132.

مع أنّ تعداد أفراد أوضة سپاهي الّتي انتمى إليها الداي المنصّب كان يربو عن المئتين، إلاّ أنّه احتمال بأنّه اتّخذ من رفقائه حصرًا حرسًا خاصًّا غير وارد، بسبب غياب قرابة ثلثهم وقتئذٍ في محلّة الشرق : **دفتر مواجبات...**، نفس المصدر السابق، رقم 1986، وو. 168و°-171ظ° و 270ظ°-274و°.

2. الزهّار، نفس المصدر السابق، ص. 132 ؛ حمدان خوجة، المصدر السابق، ص. 153.

- Guyon, Op. cit., p. 378 ; Rousseau, **Annales...**, Op. cit., pp. 327-328.

انظر أيضًا : - **Registre du beylik**, A.O.M., 15MI-14, n° 13, ff. 23r°, 26r° & 49r°-50r°.

3. Guyon, Ibid. ; Sander Rang, Op. cit., p. 575.

4. **Registre du beylik**, A.O.M., 15MI-14, n° 13, fol. 56r° ; Rousseau, Ibid., pp. 328-329.

انظر أيضًا : الزهّار، نفس المصدر السابق، ص. 138. - Guyon, Ibid., p. 379.

الجدير بالذكر أن إبقاء هذا التفصيل طي الكتمان، سيجعل خلف علي خوجة يطالب محمود باي بدفع إتاوة الزيت في عام 1818م، معيدًا العلاقة بين البلدين إلى حالة التوتّر السابقة.

5. نفسه، ص. 136.

ثلاثة أو أربعة أيّام قبل أن يصل إلى العاصمة[1] ؛ و لإدراكه أنّ دار الإمارة لا تشكّل ملاذًا آمنًا في حال ثارت الإنكشارية، فإنّه عزم على نقل مقرّ الحكم إلى قلعة القصبة.

تمهيدًا للانتقال، أمر علي خوجة الباش طوبجي باشي (بالعثمانية باش طوپچي باشي) رفع تسليح القصبة بقطع المدفعية و شحنها بمختلف أنواع الذخائر و الأسلحة ؛ ثمّ وظّف "**أهل الصنائع البلدية، و لم يكن فيهم أحدٌ من الأتراك**"[2] ليلة السبت الأوّل من نوفمبر في نقل أثاث سراية و محكمة دار الإمارة، كما حمّل محتوى خزينة الباشا أو الخزنة الصغرى من أموال و تحف على ظهر أربعمائة بغل، و انتهت العملية صبح يوم السبت بتثبيت سنجاق (علم) دار الإمارة عند باب القصبة[3].

عندما شاع خبر انتقال الداي إلى القصبة، سادت في المدينة حركة غير اعتيادية لا تنذر بخير ذاك اليوم. علي خوجة، الّذي كان على دراية بما ستهمّ به الإنكشارية، استبقّ الأحداث بفطنة حيث أمر صباح يوم 2 نوفمبر بإدارة مدافع القصبة نحو قشلات العسكر و إغلاق أبواب المدينة، فيما أمر البرّاح بأن ينادي : "**من كان من حزب الباشا فليطلع، و من كان من حزب هذه الفرقة الباغية فليذهب إليهم**"[4] ؛ بالتفاف الكراغلة و البلدية و جنود الزواوة و السودان إلى جانب موالاة عدد متزايد من الإنكشاريين، بات ظاهرًا أنّ بؤر التمرّد الّتي تركّزت في ثكنتي باب عزّون و الخرّاطين لا قبل لها على المواجهة و سرعان ما أذعنت، لا سيّما بعدما وصل باي الغرب الجديد حسن مدنّشًا[5]، و عُلم أنّ الباي علي قاره باغلي الّذي عقد المتمرّدون آمالهم فيه قد أُعدم. حينئذٍ، أرسل الداي علي خوجة الشواش في أثر محرّكي التمرّد البالغ عددهم عشرة، و "**أمر بقطع رؤوسهم عند باب القصبة إهانةً لهم، لأنّ العسكري الّذي يستوجب القتل يخنق في دار سركاجي**"[6].

---

1. الزياني، **دليل...**، المصدر السابق، ص ص. 308-309 ؛ المزاري، المصدر السابق، ج. 1، ص ص. 346-347.

- Fey, Op. cit., p. 306 ; Esterhazy, **De la domination…**, Op. cit., pp. 215-216 ; Caporal, Op. cit., p. 110 ; Lapène, Op. cit., pp. 18-19.

2. الزهّار، المصدر السابق، ص. 132.

3. نفسه، ص ص. 132 و 134 ؛ حمدان خوجة، المصدر السابق، ص. 153.

- Sander Rang, Op. cit., pp. 575-576 ; Guyon, Op. cit., p. 379.

الجدير بالذكر أنّ خزينة الدولة أو الخزنة الكبرى بقيت لبضعة أيّام أخرى في قصر الجنينة تحت حراسة فرقتي النوبتجية، ريثما ألجم الداي جيَشان الزمر المناوئة له في صفوف الإنكشارية ؛ و عندما قام بنقلها إلى الأقبية المخصّصة لها في قلعة القصبة، فإنّ الأمر تطلّب استخدام ثلاثمائة من البغال طيلة ستّة و ثلاثين ليلة : الزهّار، نفس المصدر السابق، ص ص. 134 و 136.

4. نفسه، ص ص. 134 و 144.

5. **Registre du beylik**, A.O.M., 15MI-14, n° 13, fol. 9v°.

6. نفسه، ص. 136. انظر أيضًا : المزاري، نفس المصدر السابق، ص. 347.

- Sander Rang, Ibid., p. 576.

رفض عددٌ لا يستهان به من الإنكشاريين الاعتراف بالهزيمة، حيث راحوا ينفلتون من المدينة للالتحاق بمحلّة الشرق، الّتي أدركوها في طريق العودة بنواحي برج حمزة (البويرة حاليًا) ؛ و بعد أن أقنع هؤلاء أفراد تلك القوّات على التمرّد، اتّفقوا على تولية شاوش المحلّة أحمد بن حسين رغمًا عنه حاكمًا للبلاد و جعلوا له وزراء، و واصلت محلّة المتمرّدين تقدّمها نحو مدينة الجزائر الّتي بلغت مشارفها في 29 نوفمبر. كلّف الداي آغا الصبايحية ممش على رأس ستّة آلاف رجل بمجابهة الخطر الداهم، لكنّ هذا الأخير تكبّد خسائر خلال المواجهة، دون أن يتمكّن من إيقاف الزحف ؛ و حالما وصل المتمرّدون إلى عين الربط، وقعوا تحت النيران المتقاطعة لمدفعية برجي راس تافورة و مولاي حسن، فأجبروا على التقهقر إلى جوار ضريح سيدي محمد، حيث عاجلهم الداي بقصف من اللنجونات الّتي أرست بمحاذاة الساحل.

من الغدّ، خرجت قوّة مكوّنة من 1200 رجل من باب عزّون - أغلبهم من الكراغلة و الزواوة يؤطّرهم ضبّاط من الإنكشارية - شتّتت النواة المتبقية من العُنُد، و تعقّبت الفارّين بالقتل ؛ و أمّا الّذين أسروا فقد تمّ إعدامهم، و علّقت رؤوسهم بشنار على أسوار القصبة. و بحلول الأوّل من ديسمبر، كان بوسع علي خوجة الاحتفال بالانتصار المحقّق، الّذي أسفر عن مقتل عدد يتراوح ما بين 100 و 200 - كحدٍّ أقصى - من الإنكشاريين المتمرّدين. و اليوم التالي، أعطى أمانه لأولئك الّذين تمكّنوا من النجاة بحياتهم، بما فيهم الشاوش أحمد الّذي ولاّه العسكر الثائر، إذ اكتفى بنفيه مع عددٍ من الأتراك ؛ أمّا الكراغلة الأكثر تورّطًا، فقام بشطبهم من الدفتر[1].

عقب الواقعة مباشرةً، لم يتردّد الداي في إلغاء امتيازات الإنكشارية الّتي تتعارض مع الشرع، حيث ساوى بين العسكر و غيرهم من الرعايا أمام القضاء، كما قام بإبطال الدعارة، و أبعد البغايا اللائي كنّ

---

1. الزهّار، المصدر السابق، ص ص. 136-137 ؛ **دفتر مواجبات...**، المصدر السابق، رقم 1975، و. 381ظ ؛ سامح التر، المرجع السابق، ص. 614 ؛ الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص ص. 265-266.

- Sander Rang, Op. cit., pp. 576-577 ; Guyon, Op. cit., pp. 378 & 380 ; Boyer, « **Le problème…** », Op. cit., p.92 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 297 ; Boyer, « **Des pachas…** », Op. cit., p. 121 ; Boulifa, Op. cit., p. 286 ; **Registre du beylik**, A.O.M., 15MI-53, n° 90 (seconde partie), fol. 41v° ; 15MI-14, n° 13, fol. 49v°.

المستلفت للانتباه أنّ تقديرات مختلف المصادر الّتي تحدّثت عن 1000، 1250 أو 1500 قتيل في صفوف الإنكشارية جرّاء قمع التمرّد المذكور لا أساس لها من الصحة، بالنظر إلى احصائنا الشامل للوفيات خلال فترة الثلاثين يومًا من الاضطرابات المتقطّعة الّتي امتدّت من 22 ذو الحجّة 1232هـ/2 نوفمبر 1817م إلى 21 محرّم 1233هـ/1 ديسمبر 1817م ؛ و تجدر الإشارة إلى أنّنا أخذنا بالحسبان في الفارق العددي الّذي أوردناه نسبة متوسّطة من الإصابات بالطاعون، الّذي كان يعصف وقتئذٍ بالبلد : **دفتر مواجبات...**، المصدر السابق، رقم 1975 و 1986. انظر الملحق رقم 51. انظر أيضًا : موساوي القشاعي، **الصحّة...**، المرجع السابق، ص. 95 ؛ شالر، المصدر السابق، ص. 176.

- Guyon, Ibid., pp. 379-380 ; Antoine de Juchereau de Saint-Denys, **Considérations statistiques, historiques, militaires et politiques, sur la régence d'Alger**, Delaunay, Paris, 1831, p. 127 ; Boulifa, Ibid.

و عليه، يمكننا التخمين بأنّ التقديرات المذكورة - إن صحّت - تخصّ بالأحرى مجموع خسائر المواجهات بالنسبة لكلا الطرفين.

يسكنن على مقربة من الثكنات إلى شرشال، و أغلق الحانات في سجون الأسرى الّتي كانت تبيع الخمر لليولداش، "**و من وجدوه مخمورًا أو زانيًا، فيبعث به للقاضي لإجراء الحدّ الشرعي ؛ و أمر الناس بالصلاة مع الجماعة و نادى مناديه أنّ من يبقى بدكّانه بعد الآذان، فلا يلومنّ إلاّ نفسه**"[1].

و لتعزيز مركزية السلطة، "**أحدث أمرًا لم تحدثه قبله ملوك الجزائر في الأوامر. فولّى خليفة الشرق من الجزائر، كما ولّى قائد تلمسان و كان قبله لا يولّى من الجزائر إلاّ الباي بالبرهان**"[2] ؛ كما زاد من رقابته على أفعال و أعمال البايات و مقرّبيهم، و هذا ما تترجم بعزل محمّد جاقر باي بسبب مظالمه و رفضه - علاوة على ذلك - إعدام مثيري الفتن من الإنكشارية في ديسمبر 1817م، و إعدام خلفه قارة مصطفى باي المتهتّك و غير المؤهّل بعد شهر واحد من الحكم[3].

على كلّ حال، إنّ مجمل التدابير الّتي اتّخذها الداي في ذاك الظرف الوجيز، كانت - وفق رأينا - في الواقع إصلاحات جذرية لم تمليها ظرفيًا علاقته المتأزّمة مع أوجاق الإنكشارية و حسب، بقدر ما أوجبتها الأوضاع العصيبة الّتي مرّت بها الإيالة خلال الاثنا عشر أو الثلاث عشر سنة الفارطة، و الّتي أفرزتها بالأساس أعراف سياسية و إدارية و عسكرية و مالية بالية عزّزت من الخلل العلائقي فيما بين الحاكم و المرؤوسين (الموظّفين الإداريين) و العسكر و الرعية.

لو كتب لتلك التجربة الّتي عرفت بثورة علي خوجة الاستمرارية، لشكّلت بحقّ نقطة تحوّل في التاريخ العثماني بالجزائر ؛ و ذلك بتعزيز التماسك الاجتماعي بين تلك الفئات و توطيد الاستقرار السياسي في الإيالة، بظهور جدّ محتمل لحكم سلالي على غرار الحسينيين بتونس و القرمانليين بطرابلس الغرب.

و من هذا المنطلق، يظهر أنّ أغلب المصادر التاريخية المعاصرة لم تنصف الرجل، و ذلك مردّه - بخاصّة في أعين المحلّيين - إلى الأخطاء البالغة على المستوى الاقتصادي الّتي لم يستطع المذكور

لم نجد خلال بحثنا ما يؤكّد الطرح القائل بأنّ الداي علي خوجة عزم على إيقاف التجنيد من "برّ الترك"، بل سجّلنا على العكس خلال فترة حكمه القصيرة وصول 282 مجنّدًا تركيًا عثمانيًا إلى الجزائر : **Registre du beylik**, A.O.M., 15MI-14, n° 13, fol. 13v°.

1. الزهّار، المصدر السابق، ص. 136.

انظر أيضًا : Sander Rang, Op. cit., p. 577 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 297.

- الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 265 ؛ الجيلالي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 334.

2. المزاري، المصدر السابق، ج. 1، ص. 346. انظر أيضًا : Vayssettes, Op. cit., 1869, p. 539.

3. بن العنتري، **فريدة…**، المصدر السابق، ص ص. 105-108 ؛ مجهول، **أخبار بلد…**، المصدر السابق، ص ص. 83-87 ؛ الزهّار، نفس المصدر السابق، ص ص. 137-138. Vayssettes, Ibid, pp. 539-549 ; S., Op. cit., p. 172.

في هذا الصدد، يذكر صاحب أخبار بلد قسنطينة بخصوص موقف جاقر باي غير المكترث لانتهاكات بعض الإنكشارية في حقّ أهالي قسنطينة : "**…كان لا يحكم في العسكر، فتركهم يفعلون كما يحبّون سواء قتلوا أحدًا، أو نهبوا أموال الناس، أو غصبوا إمرأة أو ولد، فلا ينهيهم**(كذا)." : مجهول، نفس المصدر السابق، ص. 84.

تداركها، على غرار إنقاص قيمة العملات الجزائرية الّذي تمّ في عهد سلفه أواخر سنة 1816م[1]، ممّا أدّى إلى تراجع ذريع لحجم المبادلات التجارية، بسبب إحجام الناس عن بدل عملاتهم الجيّدة ؛ و لأهمّية الأمر، أصدر الداي علي خوجة قرارًا ثانيًا أيّام حكمه - في 9 سبتمبر - يأمر بإعادة العملات إلى قيّمها الأصلية، و عطفه بقرار آخر في 26 أكتوبر. بيد أنّ كلا القرارين الإداريين بقيا حبرًا على ورق، بسبب الظرف المتأزّم على أكثر من صعيد[2]. و الأخطر من ذلك، حظره أواسط نوفمبر تحت طائلة الإعدام بيع القمح بأزيد من دولارين[3] للصاع - قبل هذا القرار، كان سعر القمح قد بلغ 5 دولارات - و الزيت بأكثر من 20 ريال دراهم للقلّة[4] الواحدة ؛ و نتيجةً لذلك، اختفت هاتين السلعتين تمامًا من السوق، ممّا زاد المسغبة سوءًا. و رغم أنّه تراجع عن هذا القرار قبل نهاية السنة، إلاّ أنّ الضرر وقع فعلاً[5]. كما يجب أن نأخذ بعين الاعتبار الأثر النفسي للظرف القاتم المتميّز بردع الداي الدموي لجيشان الإنكشارية، الّذي كان أحد تجلّياته الرهيبة الرؤوس المقطوعة المعلّقة بين جنبات القصبة ؛ و دون أن ننسى وقع الطاعون المقرون بالمَحْل، الّذي كان يحصد في مدينة الجزائر وحدها عشرات الأرواح يوميًا.

و بالحديث عن الطاعون، أسهمت تنقّلات المصابين في تفاقم الوباء، و انتشاره في المناطق الداخلية ؛ و بحلول ربيع 1818م، واصل ضرباته القاسية حيث كان يقضي يوميًا على ما يربو عن 40 فردًا. و في أوّل مارس، توفي الداي علي خوجة في القصبة بهذا الداء، الّذي أصيب به قبل خمسة أيّام[6].

---

1. S., Op. cit., p. 167 ; Merouche, **Monnaies…**, Op. cit., p. 46.

الجدير بالذكر أنّ جلّ المصادر المحلية تنسب إلى علي خوجة خطأً تغيير صرف العملة، و تلقي عليه باللائمة على ذلك : المزاري، المصدر السابق، ج. 1، ص. 346 ؛ الزياني، **دليل…**، المصدر السابق، ص. 308 ؛ بن العنتري، **فريدة…**، المصدر السابق، ص ص. 105-106.

انظر أيضًا : الجيلالي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 332. - Merouche, Ibid., p. 55.

يرجّح أن لقب "لوكو" الّذي أطلق استهجانًا على الداي - و هي لفظة فرنكية تعني "مخبول" - عائد إلى ضمّه قسرًا لفتيات يهوديات إلى حريمه : الزهّار، المصدر السابق، ص. 138 ؛ الجيلالي، نفس المرجع السابق، ص. 331.

- Guyon, Op. cit., pp. 379-382 ; M. Modica, « **Le Rôle du Comte Dattili Della Torre, agent et consul général de Sardaigne à Alger, avant et après la rupture des relations diplomatiques entre la France et la Régence** », in : B.S.G.A.A.N., 1914, pp. 77-78.

2. Merouche, Ibid.

3. الدولار الإسباني هو الريال الإشبيلي أو الريال المثمّن، الّذي كان أساس المعاملات التجارية الدولية خلال الفترة الحديثة، و كانت قيمته وقتئذٍ تعادل 7,5 ريال دراهم من سكّة الجزائر : - Id., pp. 35 & 42-46.

4. القلّة هي وحدة كيل استخدمت في الجزائر للزيت و الخلّ، و كانت تعادل حوالي 16 لترًا : - Id., p. 288.

5. A.N.P., 253 Mi 4 vol. 9, lettre du 22 novembre 1817.

نقلاً عن : - Merouche, Ibid., p. 120.

6. الزهّار، نفس المصدر السابق، ص ص. 139 و 141 ؛ شالر، المصدر السابق، ص. 176 ؛ غطّاس، "**أوضاع…**"، المرجع السابق، ص. 367. - Guyon, Ibid., p. 381 ; Boulifa, Op. cit., p. 288.

1-1-2. عهد الداي حسين (1818-1830م)

قبيل وفاته، كان علي خوجة - حسبما ذكرته المصادر - قد أوصى بالولاية لخوجة الخيل صندقللي حسين بن حسن[1]. و بما أنّ الموصى له كان الأكثر تعقّلاً و دعةً من بين الوزراء، فإنّ الجميع ارتضوا ذاك الاختيار ؛ و رغم أنّ حسين أبدى بعض التردّد في بادئ الأمر لقبول المنصب، غير أنّه لم يكن بوسعه الرفض إزاء إجماع الديوان، و تمّت مبايعته دايًا في نفس اليوم[2].

و خلافًا لسلفه، الّذي عامل أفراد الإنكشارية بمنتهى الصرامة، فإنّ حسين ألان لهم الجانب فور تولّيه، حيث قصد الثكنات و أعلن للجنود أنّه إذا كان انتخابه لا يروق لهم، فهو مستعدّ للتنحّي عن الحكم و العودة إلى مرتبته السابقة ؛ فكان ردّهم أنّهم يقبلون به دايًا، بشرط أن يحترم القوانين القديمة، و يرجع الجزائر إلى عوائدها الأولى[3].

و قد سارع الداي حسين إلى تقويض جلّ التدابير الإصلاحية الّتي اتّخذها سلفه علي خوجة، إذ أباح للمومسات المنفيات إلى شرشال العودة إلى نشاطهن الشائن بالجزائر[4]، كما سمح لمتمرّدي الإنكشارية

---

1. الزهّار، المصدر السابق، ص. 141.

- Augustin Jal, « **Détails sur Hussein Pacha, dey d'Alger** », in : Revue de Paris 33, 1831, p. 295.

الجدير بالذكر أنّ الداي علي خوجة لم يترك وصيةً مكتوبة، حيث أنّ الحاج مصطفى بن مالك - صهر هذا الأخير و ذراعه الأيمن - هو من أبلغ المعني قبل أيّ أحدٍ بالوصية، بعد أن أخذ عليه عهدًا بأن لا يضرّه و لا يخدعه. بيد أنّه، بعد أسبوعٍ فقط، أسلم حسين ابن مالك و ابن أخيه للزبانية، الّذين سجنوهما و عذّبوهما حتّى الموت. و لقد نكث الداي الجديد بعهده ليلبّي رغبة "الأتراك" في الثأر ممّن اعتبروهما سبب نكبتهم أيّام علي باشا : نفسه، ص ص. 142 و 183.

يعود أصل آخر دايات الجزائر إلى بلدة صندقلو (تنطق صندقلي Sandıklı بالتركية)، الواقعة جنوب غرب مدينة آفيون قره حصار، و على بعد 270 كيلومتر غرب مدينة إزمير : **دفتر مواجبات...**، المصدر السابق، رقم 1985 مكرّر، و. 121وْ ؛ موستراس، المرجع السابق، ص. 330.

بعد أن انخرط في الجيش العثماني بإسطنبول بصفة خمبره جي (بومباجي) متدرّب في 1792م، فضّل حسين التجنّد - مع أخٍ له - في أوجاق الجزائر، حيث سجّل في دفتر الإنكشارية في شهر رجب 1210هـ الموافق لفبراير 1796م : **دفتر مواجبات...**، نفس المصدر السابق، رقم 1973، و. 125وْ. - Id., p. 292.

2. حمدان خوجة، المصدر السابق، ص ص. 154 و 173-174 ؛ الجيلالي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 335 ؛ فتيحة صحراوي، **الجزائر في عهد الداي حسين (1818-1830م)**، ماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر، جامعة الجزائر 2، 2011، ص ص. 53-54.

- **Registre du beylik**, A.O.M., 15MI-14, n° 13, fol. 51r° ; Devoulx, **Tachrifat**, Op. cit., pp. 129-130 ; Sander Rang, Op. cit., p. 577 ; Jal, Ibid., p. 296 ; Guyon, Op. cit., p. 381.

بحسب ما يشير إليه بيانه في دفاتر الإنكشارية، خرج حسين بن حسن من الخدمة الفعلية بصيرورته علمدارًا (بيرقدار) في أواخر سنة 1811م ؛ و بفضل استقامته و ثقافته العالية، ترقّى في عهد الداي عمر من منصب **وكيل راسوطه** - أحد أحواش البايلك الكبيرة -، في سنة **30**[12]هـ/1815م إلى **كاتب جنينة** - أي أحد الكتّاب بدار الإمارة -، و أخيرًا **خوجة الخيل** في سنة **32**[12]هـ/1817م : **دفتر مواجبات...**، نفس المصدر السابق، رقم 1975، و. 125 ؛ رقم 1986، و. 103وْ. انظر أيضًا : - Jal, Ibid., pp. 294-296.

3. Jal, Ibid., p. 296 ; Sander Rang, Ibid. ; Vayssettes, Op. cit., 1869, p. 582 ; Juchereau de Saint-Denys, Op. cit., p. 129.

4. الزهّار، نفس المصدر السابق، ص ص. 144. انظر أيضًا : الشويهد، المصدر السابق، ص. 130، ه. 2.

الّذين طالتهم أحكام الإخراج (بالنسبة للكراغلة) أو النفي (بالنسبة للأتراك) بالعودة مجدّدًا إلى صفوف الأوجاق[1]. و لم يطل الأمر بالداي حسين ليجني ثمار هذا الانبطاح، حيث جرّأت ضدّه زمر من الإنكشاريين اغتنمت خروجه من القصبة لبعض شؤونه لتحاول مرّتين قتله، من دون سبب يستحقّ الذكر ؛ و تلقى الداي الدرس جيّدًا، إذ تقوقع مندئذٍ بالقصبة، و لم يخرج منها إلاّ بعد اثنا عشر سنة، إثر زوال حكمه[2]. و هكذا، نرى أنّ رغم كلّ الخصال المعروفة أو الظاهرية الّتي تمتّع بها الرجل، فذلك يجب أن لا ينسينا نقائص أقلّ جلاءً، لعلّ أهمّها قلّة الشجاعة - الّتي يمكن أن يصفها البعض بالوجل - و الرجعية - أو لنقل المحافَظة - الّتي ميّزت حكمه منذ البداية.

في تلك الفترة، واصل الطاعون فتكه بأعداد كبيرة من سكّان الجزائر، إذ أدّى إلى مقتل ما لا يقلّ عن 18890 شخص في العاصمة وحدها، من بينهم 15866 خلال السنتين الأوليين (يونيو 1817-أغسطس 1819م) فقط ؛ و لم يقتصر نطاق انتشار هذا الوباء - الّذي لم يخمد إلاّ بحلول أواسط 1822م - على منطقة دون أخرى، بل اكتسح أرجاء الإيالة و أسهمت تنقّلات المصابين في تفشيه إلى المناطق الداخلية، حتّى بلغ مشارف الصحراء. و بالنظر إلى الخسائر البشرية الهامّة الّتي خلّفها هذا الوباء الطاعوني الأخير، تاركًا عدّة نواحي شبه خالية من السكّان، فإنّه يعدّ بحقّ أكبر كارثة ديموغرافية عرفتها البلاد منذ مطلع القرن[3].

و يمكن أن نستشف تبعات ذاك الوباء بالأخصّ في بايلك قسنطينة، الّذي عرف حالة من عدم الاستقرار السياسي و الأمني، حيث توالى على حكمه ستّ بايات في ظرف أقلّ من ثمان سنوات ؛ و كان مرد ذلك أساسًا نقص المداخيل الجبائية و عجز خزينة البايلك، تباعًا لتناقص عدد الرعايا و تراجع النشاط الاقتصادي المنوط به تناسبيًّا، و المتمثّل في المساحات المزروعة. و بما أنّ المجبى الّذي كانت تدفعه كلّ واحدةٍ من قبائل الإقليم كان محدّدًا بشكلٍ عامّ في دفاتر جباية خاصّة، فإنّ العديد منها وجدت نفسها تدفع أكثر ممّا يجب، و ترتّب عن ذلك حالات تمرّد و هجرٌ للأراضي زاد الطين بلّة[4].

اعتبر أحمد توفيق المدني - محقّق شريف الزهّار - أنّ ذلك القرار كان للحيلولة دون وقوع اتصالات مخالفة للطبيعة بين أنفار الإنكشارية : الزهّار، نفس المصدر السابق، ص. 183. أمّا فيما يخصّنا، فنعتقد أنّه كان مبرّرًا من أجل الحدّ من حالات الاعتداء ضدّ النساء و الأطفال، و الّذي كان الدافع الرئيس لشرعنة الدعارة بمدينة الجزائر منذ السنوات الأولى للإيالة. انظر : حمدان خوجة، نفس المصدر السابق، ص. 123.

1. سامح الترء المرجع السابق، ص. 618. - de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 298.

انظر أيضًا : **دفتر مواجبات…**، المصدر السابق، رقم 1975 و 1986.

2. Anonyme, **Mémoires…**, Op. cit., T. 3, pp. 679-680 ; Jal, « **Détails…** », Op. cit., p. 297 ; de Grammont, Ibid.

3. غطّاس، "**أوضاع…**"، المرجع السابق، ص. 367 ؛ موساوي القشاعي، **الصحّة…**، المرجع السابق، ص ص. 92-107 ؛ الزهّار، المصدر السابق، ص. 145. - Guyon, Op. cit., pp. 372-397 & 438-456.

4. انظر في هذا الصدد : مجهول، **أخبار بلد…**، المصدر السابق، ص ص. 87-96 ؛ بن العنتري، **فريدة…**، المصدر السابق، ص ص. 109-115. - Mercier, **Histoire de Constantine**, Op. cit., pp. 352-370.

و استلزم الأمر على الداي ثمان سنوات كي يدرك حقيقة الوضع أخيراً، و يكلّف آغا الصبايحية يحي آغا في يونيو 1826م بمهمّة استقصائية رفقة الباي المنصّب حديثًا الحاج أحمد بن محمّد الشريف في ربوع البايلك، من أجل ضبط المطالب المخزنية على أسس صحيحة و كبح تجاوزات الملتزمين و العمّال[1].

أمّا بايلك وهران، الّذي بقي في قبضة باي واحد هو حسن بن موسى الباهي طيلة السنوات المتبقية من الوجود العثماني، فقد كانت الأوضاع فيه أكثر استقراراً بعض الشيء، من جرّاء الحزم و الشدّة الّتي عامل بها المذكور كلّ من سوّلت له نفسه إثارة القلاقل، و لو بالخوض في مظالم "الأتراك" أو التنبّؤ بقرب زوال حكمهم للبلاد، كما شاع ذلك لدى بعض المتصوّفين و الدجاجلة المتأثّرين بالدرقاويين.

و لعلّ أخطر قضية واجهتها السلطة البايلكية وقتذاك هي نفوذ الطريقة التيجانية المتزايد و الثورة، الّتي قادها ابن مؤسّسها محمّد الكبير بن أحمد[2] ؛ لكن الباي استطاع أن يقضي على الثورة قبل أن يستفحل أمرها، و من ثمّ تعقّب دون هوادة كلّ من تورّط فيها أو ألصقت به التهمة بالتغريم و الحبس و القتل[3].

---

1. بن العنتري، **فريدة...**، المصدر السابق، ص ص. 115-116 ؛ الزهّار، المصدر السابق، ص. 160 ؛ صحراوي، المرجع السابق، ص ص. 58-60.

- **Registre du beylik**, A.O.M., 15MI-14, n° 13, fol. 35r° ; Vayssettes, Op. cit., 1869, pp. 587-589.

انظر أيضًا : ناصر الدين سعيدوني، "**مذكّرة حول إقليم قسنطينة (الشرق الجزائري)**"، في : الشرق الجزائري. بايلك قسنطينة أثناء العهد العثماني و بداية الاحتلال الفرنسي من خلال وثائق الأرشيف، البصائر الجديدة، الجزائر، 2013، ص ص. 161-181.

2. محمّد الكبير (1796-1826م) هو ابن مؤسّس الطريقة أحمد بن محمّد التجاني (نسبة إلى القبيلة البربرية بني توجين) المتوفّى في منفاه الاختياري بفاس سنة 1815م. عملاً بوصية أبيه، عاد محمّد في بداية عهد الداي حسين - على الأرجح - إلى مسقط رأسه عين ماضي، بعد أن حصّنها أتباعه تأهّبًا لمناوأة السلطة العثمانية. و كان له ما أراد، بعد أن قطع اللزمة الّتي كانت تدفعها البلدة سنويًا للبايلك و طرد منها المعارضين من عصبة أبيه (التجانة) الّذين استنجدوا بالداي، فأمر هذا الأخير يحي آغا بمهاجمة معقل التيجانية في سنة 1820م، بالتنسيق مع الباي حسن. و بعدما استعصت الدسكرة على القائدين المذكورين، فشل أيضًا باي التيطري مصطفى بومزراق، الّذي كلّفه الداي بنفس المهمّة في سنة 1822م. أكسب هذين الانتصارين محمّد الكبير نفوذًا كبيراً، حيث تهافتت عليه وفودٌ كثيرة طلبًا للانتساب إلى طريقته. بالنسبة للسلطة العثمانية، كان هذا الجيشان الطرقي المتعاظم ينذر بانفجار مماثل لثورة درقاوة قبل عقدين من الزمن ؛ و عليه، حاول العثمانيون إلقاء القبض على زعيم التيجانية عند ذهابه إلى الحجّ في سنة 1824م، لكن دون جدوى ؛ كما أخفقت محاولة أخيرة قام بها باي وهران في سنة 1825م لحمل أهل البلدة على تسليمه. اغترّ الحاج محمّد الكبير، الّذي اكتسب أتباعًا كثراً حتّى بين أفراد القبائل المخزنية، بأنّ لا شيء يمكنه الوقوف في طريقه، و اعتقد أنّ الوقت قد حان للانتقال من الدفاع إلى الهجوم لكسر شوكة "الأتراك"، لا سيّما بعد أنّ أبدت عدّة القبائل - و على رأسها قبائل حشم غريس - عن استعدادها لدعم ثورته. الباي حسن، الّذي أحيط علمًا بتحرّك التيجانيين في وقتٍ مبكّرٍ، جهّز محلّة من خيرة قوّاته المخزنية على عجل و عاجل محمّد الكبير بالقرب من مدينة معسكر المحاصرة ؛ و إثر معركة مهولة، قتل الشابّ الثائر مع ثلّة من أتباعه المخلصين، بعد أن انفضّ عنه حلفاؤه من قبائل المنطقة : الزياني، **دليل...**، المصدر السابق، ص ص. 313-320 ؛ المزاري، المصدر السابق، ج. 1، ص ص. 352-360 ؛ الزهّار، نفس المصدر السابق، ص ص. 159-160 ؛ بن يوسف تلمساني، **الطريقة التجانية و موقفها من الحكم المركزي بالجزائر (الحكم العثماني - الأمير عبد القادر - الإدارة الاستعمارية) "1782-1900"**، ماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر، جامعة الجزائر، 1998، ص ص. 138-154.

- Esterhazy, **De la domination...**, Op. cit., pp. 216-226 ; de Grammont, **Histoire d'Alger...**, Op. cit., p. 299 ; Faure-Biguet, Op. cit., pp. 439-443 ; Mercier, **Histoire de l'Afrique**, Op. cit., pp. 523-525.

3. المزاري، نفس المصدر السابق، ص ص. 361-368 ؛ صحراوي، نفس المرجع السابق، ص ص. 75-80.

- Caporal, Op. cit., pp. 118-121 & 129.

في بلاد القبائل، واجهت السلطة العثمانية كذلك اضطرابات عديدة على مرّ تلك السنين، تمكّن خلالها يحي آغا الصبايحية العرب أن يثبت أكثر من مرّة حنكته و قوة شكيمته في إخماد بؤر التمرّد، تارةً بالقوة و تارةً بالسياسة ؛ و الجدير بالتنويه أنّه لم يكن للآغا أن يصل إلى تلك النتائج الإيجابية، الّتي أكسبته احترام الجميع، لولا معاضدة شاوشه القبائلي محمّد بن كانون، الّذي كان لا يقلّ عنه جدارة[1].

و هكذا، نلحظ أنّه فيما يخصّ مجمل الأحداث الداخلية الّتي عاشتها الإيالة في عهد الداي حسين، كان هناك اتجاه تدريجي لكنه ملموس نحو المزيد من الاستقرار عزّزه امتداد عهود البايات الثلاث : اثنا عشر سنة و نصف بالنسبة للباي حسن الباهي، و أحد عشر سنة بالنسبة لباي التيطري مصطفى بومزراق ؛ أمّا الأربع سنوات الّتي قضاها باي قسنطينة الحاج أحمد تحت سلطة الداي، فهي تعتبر مدّة محترمة مقارنة بمدد أسلافه المباشرين[2].

و نحن إذ نتحدث عن نوعٍ من الاستقرار على المستويين السياسي و الأمني، يجدر بنا الايضاح أنّه كان نسبيًا و ظرفيًا ؛ فمخطئٌ من يرى في ذلك الاستقرار تحسّنًا كان يبشّر بفاتحة مرحلة جديدة بالنسبة للدولة الجزائرية، بيد أنّ الاحتلال الفرنسي وضع لها حدًّا : ففي الواقع، لم يطرأ على نظام الدولة أي تغيير جذري، لا من حيث التوريث أو نمط انتقال الحكم[3]، و لا من حيث فكّ ارتباط السلطة بأوجاق الإنكشارية، و هي السياسة الّتي باشرها علي خوجة بوضوح، لكنّ الداي حسين وأدها كما رأينا. و عليه،

من بين أولئك الّذين تعرّضوا للمحاسبة، والد الأمير عبد القادر محي الدين بن مصطفى، حيث اشتبه فيه الباي حسن لعدّة أسباب : ثبوت تورّط أخيه علي بوطالب ؛ و نفوذه الروحي على قبائل الحشم و عموم سكّان المنطقة، فلا يعقل أن يحضر التيجاني إلى منطقة نفوذ طرقي آخر دون أن تكون لهذا الأخير يدٌ أو يكون على الأقلّ على علم مسبق ؛ و أخيرًا، خروجه المفاجئ للحجّ رفقة ابنه المذكور في ذلك الظرف، الّذي اعتبر عملية فرار مقنّع من قبل السلطة البايلكية. و بعد أن وضع تحت الإقامة الجبرية ما يقرب السنة، أطلق سراح الشيخ و ابنه، و سمح لهما بالذهاب للحجّ. انظر في هذا الصدد : المزاري، نفس المصدر السابق، ص ص. 361-362. - Id., pp. 118-119.

1. لقد كانت أهمّ الثورات الّتي عرفتها المنطقة القبائلية في تلك الفترة : تمرّد مخزن عمراوة (1819-1820م)، بعد أن رفض المسير ضدّ التيجاني ؛ ثورتي بني عبّاس و وادي الساحل (1823-1824م)، اللّذيْن قُطع خلالهما طريق قسنطينة و بجاية الحيويين ؛ و تمرّد بني جنّاد (1824-1825م)، الّذين رفضوا الترخيص للداي باستغلال أخشاب غاباتهم في صناعة السفن. انظر في هذا الصدد : عبّاد، المرجع السابق، ص ص. 224-227 ؛ صحراوي، المرجع السابق، ص. 74. - Devoulx, **Tachrifat**, Op. cit., pp. 48 & 52.

- N. Robin, « **Note sur Yahia Agha** », in : R.A. 18, 1874, pp. 59-75 & 89-118 ; Mercier, **Histoire de l'Afrique**, Op. cit., pp. 515-516.

2. صحراوي، نفس المرجع السابق، ص ص. 59-61.

3. كان نظام التوريث السائد لدى السلالة الحسينية في تونس غير قابل للتطبيق عمليًا في الجزائر، فلم يكن للداي حسين وريث ذكر، حيث توفي ابنه الوحيد أحمد بمرض الطاعون آخر أيّام جمادى الثانية الموافق لـ 6 مايو 1818م : **دفتر مواجبات...**، المصدر السابق، رقم 1975، و. 120ظ ؛ رقم 1986، و. 103و. انظر أيضًا : - Guyon, Op. cit., p. 383.

و الميزة الوحيدة الّتي أدخلها الداي حسين في نمط انتقال الحكم هو أنّه احتفظ لنفسه بحرّية تقديم انسحابه متى شاء، بموافقة أعضاء ديوان المبايعة : الجيلالي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 336.

بقيت إيالة الجزائر في عهد المذكور محافظة تقليديًا على نظامها الأوليغارشي القديم، و بدت غير متأثّرة بالإصلاحات العسكرية و الاقتصادية الّتي شرع فيها وقتذاك محمّد علي في مصر[1].

أمّا بالنسبة للأوضاع الخارجية، فأمكننا الخلوص إلى أنّ عهد الداي حسين عرف على العموم ثلاثة أطوار متباينة :

- **طور التؤدة (1818-1823م)** : شكّلت إعادة بناء ميناء و بحرية الجزائر الّتي بلغت مراحل متقدّمة في سنة 1818م، عامل خيبة بالنسبة للأوروبيين الّذين اعتبروا حينذاك أنّ حملة اكسموث لم تفلح في أهدافها، خصوصًا و أنّها اقترنت باستئناف السفن الجزائرية لدورياتها البحرية و عمليات تفتيش السفن التجارية[2] ؛ و عليه، لمّا عقد الأوروبيون مؤتمر اكس-لا-شاپل في أواخر شهر سبتمبر من نفس السنة أدرجت بين المواضيع المناقشة قضية وضع حدّ للصوصية البحر "البربرية" و طرق التوصّل إلى ذلك ؛ و تقرّر بموجبه تكليف فرنسا و بريطانيا بإرسال عمارة مشتركة لإشعار الجزائر و الإيالتين الأخريين بوقف أيّ مساس بأمن ملاحة و تجارة الدول الأوروبية.

و عندما أُبلغ الداي في سبتمبر 1819م بتلك المطالب من قبل مبعوثي الدولتين - الأميرال الإنكليزي فريمانتل (Freemantle) و نظيره الفرنسي چوريين دُه لا گرافيير (Jurien de la Gravière) -، أجاب شفاهيًا أنّ الإيالة ملتزمة بالمعاهدات الّتي تربطها بالدول الأخرى، و أنّه لا يمكن بأيّ حالٍ من الأحوال التخلّي عن حقّ التفتيش لأجل التعرّف على السفن الصديقة من العدوة ؛ و لذا، رفض بحصافة الإقرار كتابيًا بتلك المطالب كما طلب منه مبعوثا الدولتان المذكورتان، لأنّ ذلك كان سيعني على نحو مؤكّد التنازل عن الحقّ السيادي في إعلان الحرب[3].

و هذا الموقف الحصيف الّذي اتّخذه الداي، لم يكن نابعًا عن موقع قوّة بدليل إرساله سفارة قادها قائد المرسى علي غرناوط قبل ستّة أشهر إلى لندن ؛ و كان هدفها تسوية بعض المشاكل العالقة الّتي أفرزتها حملة اكسموث حسمًا لمباعث التوتّر بين البلدين، و كان معظمها عائد إلى تصرّفات القنصل

---

1. لمعلومات حول إصلاحات محمّد علي، انظر : الشيخ خليل بن أحمد الرجبي، **تاريخ الوزير محمّد علي باشا**، تحقيق دانيال كريسليوس، حمزة عبد العزيز بدر، و حسام الدين إسماعيل، دار الآفاق العربية، القاهرة، 1997، ص. 177 و ما بعدها ؛ محمد صبري، **تاريخ مصر الحديث من محمّد علي إلى اليوم**، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1926، ص ص. 38-57 ؛ صلاح أحمد هريدي، **الحرف و الصناعات في عهد محمّد علي**، دار المعارف، الإسكندرية، 1985، ص ص. 141-231.

أمّا فيما يخصّ إلغاء أورطات الإنكشارية من قبل السلطان محمود الثاني، فستتطرّق إلى انعكاساته في الجزائر لاحقًا.

2. زهرة، المرجع السابق، ص ص. 146-148.

3. شويتام، **نهاية...**، المرجع السابق، ص ص. 158-159 ؛ قنان، **معاهدات...**، المرجع السابق، ص ص. 258-263 ؛ قنان، **نصوص...**، المصدر السابق، ص ص. 265-272.

- Plantet, **Correspondance des deys...**, Op. cit., T. 2, pp. 542-545 ; Anonyme, **Mémoires...**, Op. cit., T. 3, pp. 680-682.

الإنكليزي، الّذي لم يتقيّد بحدود وظيفته و صلاحياتها. و على الرغم من فشل السفارة، فإنّ السلطات الجزائرية ستتجلّد بالصبر أربع سنوات أخرى حيال تجاوزات القنصل المتشامخ[1].

على صعيد آخر، عرفت العلاقات مع الإيالة المجاورة تجدّد التوتّر في سنة 1820م لأسباب واهية ؛ فبعد تعقّب قوّات من مخزن باي قسنطينة پاشالي إبراهيم في مارس لمتمرّدين من قبيلة الحنانشة على التراب التونسي[2]، تخوّف محمود باي تونس من أن يكون هذا الاقتحام العابر و المحدود مقدّمة لغزوة أكبر، فأمر قوّاته بالاستعداد و أرسل تحسّبًا طلائع إلى الحدود. أخبار الاستعدادات العسكرية التونسية الّتي وصلت الجزائر على الأرجح في غضون شهر يونيو، بالتزامن مع فرار سفينة حربية تونسية كانت راسية بالميناء تحت جنح الليل دون أن يعطى لها الإذن، أثارت حفيظة الجزائريين بدورهم و جعلتهم يخمّنون أنّ جيرانهم ينوون على شرّ ؛ فصدرت أوامر للريّاس بمطاردة السفن التونسية، و في ظرف أقلّ من شهر سيقت ثلاثٌ منها غنائم. و كان ردّ فعل الطرف التونسي تسليح عمارة من تسعة سفن خرجت في 28 أكتوبر لتطارد السفن الجزائرية، لكنّها قفلت راجعة بعد شهرين خائبة.

سارعت الدولة العثمانية، الّتي تناهى إليها خبر تجدّد الأعمال العدائية بين إيالتيها المغربيتان، إلى إرسال مبعوث سلطاني في مطلع عام 1821م إلى تونس، و من ثمّ الجزائر لتسوية الخلاف ؛ و كان يحذوها إلى ذلك حاجتها الماسّة إلى مساندة قطع أسطولهما في قتال اليونانيين، الّذين ثاروا في شبه جزيرة المورة قبل سنة. و قد أثمر هذا المسعى بإمضاء معاهدة صلح نهائي بين الإيالتين العثمانيتين في العاصمة التونسية، بعد مفاوضات امتدّت من 14 إلى 20 مارس من نفس السنة[3].

و مثلما كان متوقّعًا ورد في شهر أغسطس أمر سلطاني إلى الجزائريين، لكي يقوموا بإرسال عددٍ من السفن دعمًا للمجهود الحربي العثماني في المورة ؛ و سارع الداي للاستجابة للأمر، حيث خرجت عشر سفن بقيادة الحاج علي غرناوط في مطلع سبتمبر[4]. و قضت تلك السفن إلى جانب الأسطول العثماني

---

1. خليفة حمّاش، "**سفارة علي رئيس إلى لندن في عام 1819 : نموذج للدبلوماسية الجزائرية في العهد العثماني (من خلال وثائق جديدة)**"، في : م.ت.م. 87-88، ماي 1997، ص ص. 507-535.

2. محتمل أنّ هذا الخرق كان أحد أسباب عزل الباي المذكور من قبل الداي حسين الميّال إلى السلم، و تعويضه بأحمد باي المملوك في مطلع شهر يونيو 1820م : - **Registre du beylik**, A.O.M., 15MI-14, n° 13, fol. 19r°.

انظر أيضًا في هذا الصدد : مجهول، **أخبار بلد...**، المصدر السابق، ص ص. 90-91.

3. Rousseau, **Annales...**, Op. cit., pp. 338-344 ; Mercier, **Histoire de Constantine**, Op. cit., pp. 355-359 ; Plantet, **Correspondance des beys...**, Op. cit., T. 3, p. 579.

انظر أيضًا : الزهّار، المصدر السابق، ص ص. 138-139 و 146-147 ؛ ابن أبي الضياف، المصدر السابق، 1999، ص. 134.

4. خليفة حمّاش، "**الجزائر و الحرب اليونانية العثمانية (1821-1827م)**"، في : م.ت.م. 65-66، أوت 1992، ص ص. 176-177، ه. 7.

- **Registre du beylik**, A.O.M., 15MI-14, n° 13, fol. 39r°.

مدّة تناهز ستّة و عشرين شهرًا، أبلى خلالها جنودها و بحّارتها بلاءً حسنًا، حيث يذكر شريف الزهّار أنّه "**وقع القتال بينهم و بين الگريگ** (يعني اليونانيين) **اثنتا عشر مرّة، و احترق اثنان من** [سفن] **الظلالمة**[1]، **و مات بها خلقٌ كثير**"[2].

بحلول عام 1823م، كان بإمكان الداي أن يكون مطمئنًا من جهة قوّات الجزائر البحرية و دفاعاتها، بالنظر إلى النشاط المشرّف جدًّا للعمارة الجزائرية في حرب اليونان، و عودة عدد قطع البحرية - و تعداد مدافعها الإجمالي - إلى نفس المستوى الّذي كانت عليه تقريبًا خلال أوج قوّتها قبل عشرين سنة[3] ؛ إضافةً إلى أنّه تمّ استكمال بناء استحكامات الميناء و الواجهة البحرية للمدينة، الّتي بلغت درجة غير مسبوقة من التحصين[4].

- **طور التعاظم (1823-1827م)** : استمرّت علاقات الجزائر بالدول الأوروبية حسنة على العموم حتّى خريف سنة 1823م ؛ و من ثمّ، بدأت تسوء مع بعضها نتيجة تدخّل تلك الدول عن طريق قنصلياتها في شؤون الجزائر الداخلية. ففي ذات السنة، ثارت عدّة قبائل من نواحي بجاية، فأمر الديوان كما جرت العادة بإلقاء القبض على أفراد تلك القبائل الموجودين بالعاصمة، كورقة ضغط و تدبير احترازي ؛ و بما أنّ بعضهم كان يخدم في القنصليات الأوروبية، فقد امتثل أغلب القناصل، ما عدا القنصلين الأمريكي شالر و الإنكليزي ماكدونل، اللّذين رفضا تسليم القبائليين العاملين لديهما متذرّعين بالحماية القنصلية. و لأنّ أوّلهما كان لبقًا و يتمتّع بنوع من الحظوة لدى الحكومة الجزائرية، فلم يتمّ إزعاجه ؛ أمّا ثانيهما، الّذي كان متشامخًا بدون تحفّظ - منذ الظفر الّذي نالته بلاده على الإيالة قبل سبع سنوات -، فقد أعذرته السلطات عدّة مرّات دون جدوى، قبل أن تأمر باقتحام مسكنه الريفي لاعتقال الخدم المعنيين. و تسبّب هذا الحادث في قطع العلاقات بين الجزائر و إنكلترا، بعد انسحاب القنصل ماكدونل إلى بارجة قدِمت خصيصًا في يناير 1824م ليتّخذها مقرّا له يملي منه على الداي شروط حكومته، الّتي كانت بالأساس بنود إضافية لمعاهدة 1816م رفض الداي حسين التفاوض بشأنها[5].

---

1. الظلالمة، لفظة دارجة محرّفة من الكلمة العثمانية دونانمه، الّتي تعني "أسطول، عمارة بحرية". انظر : الزهّار، المصدر السابق، ص. 184، ه. 28 ؛ الخطيب، المرجع السابق، ص. 188. - Barbier de Meynard, Op. cit., 1er vol., p. 769.

2. الزهّار، نفس المصدر السابق، ص. 148. انظر أيضًا : حمّاش، "**الجزائر...**"، المرجع السابق، ص. 178.

الجدير بالذكر أنّه انضمّت ثلاثة سفن أخرى إلى العمارة الجزائرية ببحر إيجة في ربيع 1822م، بعد أن واكبت فرقاطة مصرية في طريقها إلى الإسكندرية، خوفًا من أن يهاجمها اليونانيون : الزهّار، نفس المصدر السابق، ص ص. 149-150 ؛ حمّاش، نفس المرجع السابق، ص. 177.

3. Devoulx, « **La marine...** », Op. cit., pp. 413-419.

4. خلاصي، المرجع السابق، ج. 1، ص ص. 144-146 و 225-226. - Colin, Op. cit., pp. 222-224 & 226-230.

5. شالر، المصدر السابق، ص ص. 193-225 ؛ الزهّار، نفس المصدر السابق، ص ص. 151-153 ؛ شويتام، **نهاية...**، المرجع السابق، ص ص. 160-163 ؛ زهرة، المرجع السابق، ص ص. 149-152.

على إثر ذلك، بادر الإنكليز إلى فرض حصار بحري على سواحل الجزائر، و بدأوا في تعقّب السفن الجزائرية و أسروا بعضها، بالموازاة مع محاولاتهم الدخول في مفاوضات. و لم يخفَ على الداي أنّ إنكلترا تريد تكرار ما وقع في سنة 1816م، فأمر باتخاذ كافّة الاحتياطات العسكرية ؛ كما كتب رسالتين سرّيتين إلى الباب العالي يطلب فيهما إمداد الجزائر بالمجنّدين حتّى يعوّض الخسائر الّتي انجرّ عنها الوباء الأخير، على أن يتمّ إرسالهم على دفعات عن طريق طرابلس الغرب و تونس، نظرًا للحصار الإنكليزي المفروض[1].

أجرى نائب الأميرال هاري نيل (Harry Neal) الّذي قاد الحصار مدّة ستّة أشهر، عدّة مفاوضات مع الحكومة الجزائرية، إلاّ أنّها باءت بالفشل بسبب تشبّث كلّ طرف بموقفه. و لمّا رأى الإنكليز أن لا أمل في إرغام الطرف الجزائري على قبول شروطهم، قرّروا تجميع قطع أسطولهم في البحر الأبيض المتوسّط بخليج الجزائر بقصد شنّ حملة عسكرية ضدّ المدينة ؛ و قد قرّر القنصل الفرنسي دوڤال في رسالة وجّهها إلى وزير خارجيته بخصوص حملة نيل : "**...أنّ الأسطول الإنكليزي تقدّم من جديد إلى الجزائر يوم 11 يوليو، و كان يتكوّن من ستّ سفن كبيرة، منها بارجة و ثلاثة فراقط و حرّاقتين، بينما بقيت عشر سفنٍ أخرى متوسّطة الحجم بعيدة عن الميناء. و في اليوم التالي، اقتربت إحدى السفن من الميناء و قصفت التحصينات ؛ و عندئذٍ، صدرت الأوامر للأسطول الجزائري بمواجهتها و إرغامها على الابتعاد عن الميناء. و في 13 يوليو، انسحبت السفن الانكليزية لتلتحق ببقية الأسطول الموجود في عرض البحر. و في يوم 24 يوليو، أعاد الإنكليز الكرّة، و بلغ أسطولهم هذه المرّة اثنان و عشرين قطعة ؛ و لمّا اقتربوا من الميناء، شرعت المدفعية الجزائرية و الأسطول في إطلاق القذائف و القنابل على الإنكليز**"[2].

- A. Berbrugger, "**Guerre de 1824 entre l'Angleterre et Alger**", in : R.A. 8, 1864, pp. 202-203 ; Mercier, **Histoire de l'Afrique...**, Op. cit., pp.516-517.

1. زهرة، المرجع السابق، ص ص. 153-154.

2. « **Lettre de Deval au Comte de Châteaubriant, Ministre des affaires étrangères à Paris, Alger le 26 Juillet 1824** », C.C. Alger 1824 Juillet 1829, T. 47, AR. M.R.E. France. 1824.

نقلاً عن : شويتام، **نهاية...**، المرجع السابق، ص ص. 165-166.

إنّ تشكيلة الأسطول الإنكليزي الّتي ذكرها الفرنسي غير دقيقة، حيث أورد هاري نيل أنّ "**القوّات البريطانية إزاء الجزائر اشتملت على بارجة، و خمس فرقاطات، و أربع حرّاقات مزوّدة كلّ واحدة منها بمدفعي هاون، و ثلاث قطّاعات تحمل كلّ واحدة مدفع هاون، و مركب بخاري بقوة مائة حصان، و عدّة صيّادات، قلعيات و مراكب نقل ؛ بالإجمال 23 سفينة**"، مدعيًا أنّ تلك "**قوّات أكثر من كافية لتدمير الجزائر حتّى أساساتها.**" : - Berbrugger, "**Guerre...**", Op. cit., pp. 212-213.

و يظهر من رواية الزهّار أنّ الإنكليز حاولوا استخدام نفس الخدعة الّتي أتت أُكلها مع اكسموث، حيث أورد في هذا الصدد : "**جمع الميرانتي**[1] **مراكبه في مالطة، و قدم الجزائر و كان مراده أن يخدعنا كما خدعنا سابقًا ؛ فلمّا قرب من رمي الكور، رفع الراية البيضاء علامة أنّه يريد الكلام، و شرع في الدخول. فأطلقت عليه المدافع من جميع الحصون و الأبراج و لم تصله الكورة، فعندما رأى ذلك رجع القهقرى...**"[2] ؛ و بعد أن ثبت عجزه، أرسل نائب الأميرال الإنكليزي مركبًا رفع عليه العلم الأبيض ليتفاوض مع الحكومة الجزائرية. و قد توصّل الطرفان إلى عقد اتفاقية صلح في يوم 26 يوليو، اضطرّ الإنكليز بموجبها إلى استبدال قنصلهم بآخر و دفع العوائد القنصلية ؛ وبالمقابل، منحهم الجزائريون بعض الترضيات أهمّها تثبيت معاهدة 1816م[3].

بالتزامن، عرفت الإيالة حربًا أخرى معروفة بدرجة أقلّ هي الحرب مع إسبانيا ؛ فقد حدثت القطيعة فعليًا بين البلدين إثر انسحاب القنصل الإسباني أورتيز دي زوغاستي (Ortiz de Zugasti) من الجزائر في بداية ربيع سنة 1822م، بسبب مطالبة الداي من الحكومة الإسبانية استرداد ديون معتبرة لآل كوهين بكري خلّفها قنصل سابق[4]. غير أنّ هذه القطيعة لم تفضِ بشكل مباشر إلى عمليات حربية، بسبب مشاركة العديد من قطع الأسطول الجزائري في حرب اليونان ؛ و لم يأمر الداي بتعقّب السفن الإسبانية، إلاّ بحلول يناير 1824م، حيث ساق الريّاس في ظرف أسابيع عدّة غنائم إسبانية. و في غضون ذلك، كانت فرنسا قد تدخّلت إلى جانب الملك الإسباني، و عرضت وساطتها أوائل مارس لتسوية النزاع القائم[5].

و في يوم 19 سبتمبر من ذات السنة، أعلِم القنصل الفرنسي دوڤال الّذي كان يشغل أيضًا منصب القنصل الإنابي لإسبانيا بكون الإيالة قد أوقفت أعمالها العدائية ضدّ الإسبان "مراعاةً لوساطة بلده"[6] ؛

---

1. الميرانتي : كلمة فرنكية ذات أصل إيطالي تعني "أميرال".

2. الزهّار، المصدر السابق، ص. 153. انظر أيضًا : زهرة، المرجع السابق، ص. 158.

- Anonyme, **Mémoires…**, Op. cit., T. 3, p. 685.

3. شالر، المصدر السابق، ص ص. 226-238 ؛ الزهّار، نفس المصدر السابق، ص. 154 ؛ زهرة، نفس المرجع السابق، ص. 159.

- Devoulx, **Tachrifat**, Op. cit., pp. 21-22.

4. شالر، نفس المصدر السابق، ص ص. 180-181 ؛ فكاير، المرجع السابق، ص ص. 287-288.

لقد كانت تلك الديون مترتّبة عن قروض حصل عليها المذكور من التاجر جوزيف بكري ؛ و كانت الحكومة الإسبانية قد تعهّدت في سنة 1814م بتسديدها لورثته، لكنّها ماطلت عدّة سنوات : جمال قنان، **العلاقات الفرنسية الجزائرية 1790-1830**، ط.خ.، منشورات متحف المجاهد، الجزائر، 2005، ص ص. 341-342.

5. شالر، نفس المصدر السابق، ص ص. 201-220 ؛ قنان، نفس المرجع السابق، ص. 344 ؛ فكاير، نفس المرجع السابق، ص ص. 289-290.

- Juan Luis Quintana Moraira, **Los últimos años del corso berberisco (1815-1830) a través de la correspondencia consular españa**, Tesis doctoral, Universidad de Alcalá, 2009, pp. 366-370 ; Devoulx, **Tachrifat**, Ibid., p. 42.

6. قنان، نفس المرجع السابق، ص. 346.

- Quintana Moraira, Ibid., pp. 63 & 359.

بيد أنّ المفاوضات تعثّرت مرارًا و طال أمدها، بسبب الادعاءات المبالغ فيها للدائن الرئيسي جاكوب كوهين بكري من جهة، و اعسار الحكومة الإسبانية نتيجة الظرف الصعب، الّذي كانت تمرّ به آنذاك من جهة أخرى. و لقد تبدّت نية الداي في تسوية الخلاف نهائيًا خلال الأيّام الأخيرة من سنة 1825م في قبوله بتخفيض المبلغ المطالب به إلى ثلاثمائة ألف دورو[4]، نزولاً عند مقترح تقدّم به المفاوض الإسباني أورتيز دي زوغاستي مطلع أبريل الفارط، بشرط أن يُدفع المبلغ نقدًا و على الفور. و هو ما يمثّل تنازلاً كبيرًا، بالنظر إلى المطلب الأصلي الّذي حدّد بمليون و ثلاثمائة ألف دورو. الداي، الّذي عيل صبره من كلّ تلك المماطلات، رخّص مجدّدًا للريّاس في يناير 1826م بمطاردة السفن الإسبانية كوسيلة ضغط ؛ و بالفعل، شهد النصف الثاني من السنة غنم عددٍ كبيرٍ من المراكب التجارية[5]. و هكذا، اضطرّ الإسبان في منتصف شهر يناير 1827م إلى الإيفاء للداي بالتزامهم المالي : "**ماية ألف دورو دفعوها له ثمن الصلح، و مايتي ألف دورو مقابل الدين**"[1] ؛ و وضع بذلك حدٌّ لحرب دامت فعليًا ثلاث سنوات.

و تجدر الإشارة إلى الدور السلبي للوسيط الفرنسي پيير دوڤال خلال المفاوضات، حيث حاول الإيعاز للحكومة الإسبانية بعدم دفع الديون، كما كان بلا شكّ وراء مقترح نقل المطالب الجزائرية لينظر فيها أمام المحاكم الإسبانية[2] ؛ و لا يجب أن نستغرب هذا الموقف من القنصل المذكور، بالنظر إلى تورّطه في قضية ديون مماثلة بقيت تسمّم العلاقات الجزائرية الفرنسية لما يقرب من ثلاثة عقود.

بعد توليّ الداي حسين، شدّد للقنصل دوڤال على ضرورة تصفية مشكل ديون آل بكري و بوجناح، بالأخصّ أنّ قسمًا منها مستحقّ للخزينة الجزائرية بصفتها الدائنة الرئيسية للمذكورين ؛ و قد تجاوب كلّ

---

1. دورو : قرش إسباني فضي تمّ ضربه في عام 1808م ؛ و قد أصدرت دار سكّة الجزائر عملة شبيهة في الشكل و الوزن حملت نفس الاسم، و كانت تساوي 2 ريال بوجو (علمًا أنّ قرشًا إسبانيًا واحدًا كان يساوي ثلاثة بوجو) : - Merouche, **Monnaies…**, Op. cit., p. 45.

2. في تقرير للقنصل الفرنسي بالجزائر عائد للأيّام الأولى من سنة 1827م، تمّ إحصاء 27 مركبًا إسبانيًا استولى عليها الريّاس الجزائريون، و أسر 199 من أفراد طواقمها، فيما بين 11 يونيو 1826 و 5 يناير 1827م ؛ كما ذكر التقرير أنّ قيمة حمولتها بلغت 148569 ريال. نقلاً عن : فكاير، المرجع السابق، ص ص. 291-291.

انظر أيضًا : الزهّار، المصدر السابق، ص. 157 ؛ **المراسلات العثمانية**، م.و.ج.، مجموعة 3190-1، رقم 175. - Id., pp. 410-424.

3. الزهّار، نفس المصدر السابق، ص. 158. - Quintana Moraira, Op. cit., pp. 426-430.

و لقد ذكر الزهّار بخصوص إتاوة الصلح : "**ثمّ إنّ الباشا أخذ الماية ألف دورو الّتي كانت ثمن الصلح، و فرّق منها على العسكر عشرة دورو لكلّ واحد، و أعطى رجال دولته على حساب مقاماتهم من الأربعة آلاف دورو إلى الخمسماية دورو، حتّى الماية دورو، و فرّق على خدّامهم أيضًا.**" : نفسه.

انظر أيضًا : حمدان خوجة، المصدر السابق، ص ص. 181-182.

4. Id., p. 369, n. 34.

انظر أيضًا : - Id., pp. 393-395 & 436.

من القنصل و وزير خارجيته تاليران مع هذا المطلب، لا سيّما أنّه تمّ رشوتهما من قبل ممثّلي الأسرتين اليهوديتين[1]. و قد أثمر مسعى الوزير المنتفع بقبول الحكومة الملكية تسديد الديون، الّتي حدّدت قيمتها بسبعة ملايين فرنك من قبل لجنة مختصّة و مفوّض عن اليهود الجزائريين ؛ و صيغ اتفاق في ثمان بنود بموجب ذلك، أهمّ ما جاء فيه أنّه سيتمّ السداد على اثني عشر تقسيطًا بين يدي الوكيل المفوّض، على أن يتمّ الاحتفاظ بجزء من المدفوعات في صندوق ودائع احتسابًا لمعارضات دائنين آخرين[2].

و بما أنّ الاتفاق لم يكن ليدخل حيّز التنفيذ، إلاّ بعد أن يعطي الداي موافقته الكتابية ؛ فقد تكفّل يعقوب بكري و القنصل دوڤال بإقناعه على ذلك (20 أبريل 1820م)، لكنّهما لم يعلماه عمدًا أنّ استرداد دين الخزينة مرهون بتقديم معارضة لدى المحاكم الفرنسية. "**و هكذا فإنّ هذه الصفقة الّتي أقيمت لأجله، قدّمت بالنتيجة خصوصية كون الدائن الوحيد الّذي اعترف لفائدته بالدين هو الوحيد الّذي لم يحصل على أيّ نصيب**"[3].

لأجل كلّ ما سبق ذكره، يتّضح لنا سبب سعي القنصل المدلّس إلى تعقيد العلاقات بين البلدين بحيث تفضي إلى الحرب، لأنّه رأى في ذلك السبيل الوحيد لينجو بفعلته.

و في هذا الصدد، كان أوّل المؤشّرات إثارة القنصل دوڤال لموضوع تجريد حملة برّية ضدّ الجزائر في مشروع الاحتلال الأوّل الّذي أعدّه سنة 1819م، حيث رأى أنّه "**يجب اقتلاع الشرّ من جذوره عن طريق فرض حصار على مدينة الجزائر من ناحية البرّ ؛ فسهولة تنفيذ هذه العملية تبدو بارزة للعيان، حتّى بالنسبة للأشخاص قليلي الدراية بهذه الأمور**"[4]. و إضافة إلى ذلك، حاول تكريس ادعاء ملكية فرنسا لامتيازات الشرق، على الشريط الساحلي الممتدّ من مصبّ وادي سيبوس عند مدينة عنّابة إلى الحدود

---

1. حمدان خوجة، المصدر السابق، ص ص. 179 و 185 ؛ سيمون فريدريك بفايفر، **مذكّرات جزائرية عشية الاحتلال**، ترجمة و تقديم و تعليق أبو العيد دودو، دار هومه، الجزائر، 2009، ص. 41 ؛ الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص. 271.

- de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 302, n. 1.

2. عمّار حمداني، **حقيقة غزو الجزائر**، ترجمة لحسن زغدار، ط. 2، منشورات ثالة، الجزائر، 2008، ص ص. 45-46 ؛ محمد أمين، "**احتلال الجزائر سنة 1830 : الأبعاد و الأصداء**"، في : م.ت.ع.د.ع. 30، 2004، ص. 18.

- Mercier, **Histoire de l'Afrique…**, Op. cit., pp. 526-527.

3. Alexandre de Laborde, **Au Roi et au chambres, sur les véritables causes de la rupture avec Alger, et sur l'expédition qui se prépare**, Truchy, Paris, 1830, pp. 18-19.

انظر أيضًا : حمداني، نفس المرجع السابق، ص. 48.

4. قنان، **العلاقات…**، المرجع السابق، ص. 369.

ليس أجدر ما يصف السياسة الفرنسية تجاه الجزائر ممّا ذكره بفايفر، حيث أورد أنّها "**منذ سنة 1815 تتّسم بغموض لا سبيل إلى استجلائه، و قد وجّهت بصورة تثير الفضيحة و لا توحي بالثقة.**" : بفايفر، نفس المصدر السابق، ص. 220.

التونسية، و بعمق حوالي أربعين كيلومتر. و لإعطاء سند لمزعمه، قام بتحريف ديباجة المعاهدة المبرمة بين الإيالة و المملكة سنة 1695م ؛ كما أوّل محتوى بنودٍ أخرى، عن طريق تحريف ترجمتها[1].

و لقد تبنّت الحكومة الفرنسية دون صعوبة هذا الإدعاء الخيالي، و دعّمته احتمالاً لتحويل الامتيازات إلى مكسبٍ إقليمي يكون بمثابة موطئ قدم على الأرض الإفريقية ؛ و تترجم ذلك في تحويل مركز القالة إلى موقع محصّن، حيث كلّف القنصل - بتفويض من الحكومة - نائبه في عنّابة الكسندر دوڤال بالإشراف على العملية في سنة 1825م. و في رسالة بعث بها الداي حسين إلى الباب العالي، ذكر أنّ الفرنسيين انتهكوا اتفاق الامتيازات بإقامتهم مبنًى عسكريًا جيّد التحصين، وضعوا فيه أربعة عشر مدفعًا من الحديد، و مدفعين من البرونز، و مدفعي هاون (قاذفي قنابل)، يقوم على خدمتها ما يربو عن مئة جندي تحت إمرة ضابط[2]. هذا المطعن الأخير، الّذي انضاف إلى مسألة الديون، أغاظ الداي حسين كثيرًا و جعله يسلّم أواخر السنة للقنصل رسالة إلى ملكه[3].

بالإضافة إلى ذلك، اتّخذ الداي عدّة تدابير سعيًا إلى تقليص نشاط الفرنسيين أهمّها : ① فرض رقابة صارمة على التجّار الأوروبيين في مدينة عنّابة، و تفتيش منازل و مخازن من يشتبه منهم في تهريب الأسلحة و البارود[4] ؛ ② إعطاء تعليمات بعدم السماح باكتراء أكثر من خمس إلى ستّ منازل لصيادي المرجان، في الوقت الّذي كانوا فيه بحاجة إلى ما لا يقلّ عن عشرين منزلاً[5] ؛ ③ رفع الرسوم الجمركية على الواردات إلى عشرة في المئة في مدينة عنّابة وحدها، دون بقية المدن الأخرى[6].

---

1. قنان، **العلاقات...**، المرجع السابق، ص ص. 353-358 و 387 ؛ قنان، **معاهدات...**، المرجع السابق، ص. 265.

2. قنان، **العلاقات...**، نفس المرجع السابق، ص. 365 ؛ زهرة، المرجع السابق، ص ص. 167-169. انظر أيضًا :

- Ch. Féraud, « **La prise d'Alger en 1830, d'après un écrivain musulman** », in : R.S.A.C. 1865, pp. 70-71 ; Masson, « **À la veille…** », Op. cit., pp. 116-117.

3. الزهّار، المصدر السابق، ص ص. 163-164.

4. برزت مسألة تهريب البارود و الأسلحة في 1825م، عندما دقّ يحي آغا ناقوس الخطر بعد أن واجهته صعوبات جمّة في إخماد تمرّد منطقة بجاية ؛ و أسفر تفتيش السلطات لمحلاّت التجّار المشتبه فيهم مثل وكيل الامتيازات دوبري في العثور على كمّية معتبرة من الأسلحة و الذخيرة و البارود. و اعترافًا بهذا النشاط، ذكر دوڤال أنّه لو تمكّن أولئك التجّار - يعني المهرّبين - من تنسيق نشاطهم مع المتمرّدين "**لما أصبح هناك وجود لحكومة الجزائر**" : قنان، **العلاقات...**، نفس المرجع السابق، ص ص. 362-363.

5. كان هذا التدبير راجع لإدراك السلطات الخطر الّذي يمثّله وجود طواقم حوالي ثلاثمائة مركب صيد في المنطقة العنّابية ؛ و هو ما كان سيتيح حسب القنصل دوڤال "**إمكانية تسليح ثلاثة آلاف رجل، فإذا انضمّوا إلى المتمرّدين، فإنّهم سوف يشكّلون خطرًا حقيقيًا على الإيالة**" : نفسه، ص. 363.

6. رفض الداي الشكوى الّتي تقدّم بها القنصل بخصوص الرسوم الجمركية الجديدة، موضّحًا أنّ على الفرنسيين قبولها أو التخلّي عن الامتيازات ؛ كما نبّهه أنّه يوجد من هو مستعدّ لدفع مبلغ ربع مليون فرنك على امتياز صيد المرجان فحسب على الساحل المجاور لمدينة عنّابة وحدها، في إشارةٍ على الأرجح للإنكليز، الّذين كانوا قد افتكّوا ظرف سنة امتيازات صيد المرجان بإيالة تونس من الفرنسيين في مطلع 1825م : نفسه، ص ص. 363-364. انظر أيضًا :

و في شهر أغسطس 1826م، قام الداي حسين، الّذي كان لا يزال ينتظر سداد الديون، بسجن يعقوب بكري بتهمة الإفلاس ؛ و لمّا رأى هذا الأخير زوال ثروته بحيث لم يبق لديه شيءٌ يخسره، قام بإفشاء أسرار خطيرة أهمّها رشوته القنصل الفرنسي بمبلغ كبير[1]. في حينه، اقتصر ردّ فعل الداي فحسب على كتابة رسالة لبقة - بدون إثارة الدور المدلّس لدوڤال - إلى وزير الشؤون الخارجية البارون دُه داماس (Baron de Damas) في سبتمبر[2].

و عوض أن يتلقّى الداي ردًّا على المطالب الّتي وجّهها للملك الفرنسي، تفاجأ بقدوم عمارة فرنسية أواخر شهر أكتوبر تحمل مطالب معاكسة تندّد بعمليات "القرصنة" الّتي ارتكبها الجزائريون[3] ؛ و خلال اللقاء الصاخب الّذي جمعه يوم 29 من الشهر بالقنصل و قائد العمارة، أعرب الداي عن تبرّمه من مخاتلة الطرف الفرنسي الّذي تجاهل الردّ على مطالبه، و رفض بدوره أن يستجيب لمعظم الشكاوي الّتي عرضت عليه[4].

حمل التجاهل الفرنسي لمطالبه الداي على الاعتقاد بأن القنصل يحتجز الرسائل الّتي كان يوجّهها عن طريقه لحكومة بلاده، و هو ما دفعه إلى استخدام قنوات أخرى للمراسلة[5] ؛ و فوق ذلك، أصدر قرارًا - كورقة ضغط - يسمح فيه لجميع الدول بصيد المرجان في شرق الإيالة، و بالتجارة في كلّ من القالة و عنّابة، ممّا كان يعني بشكلٍ حتمي نهاية امتيازات فرنسا[6].

- Plantet, **Correspondance des beys…**, Op. cit., T. 3, pp. 610-611 ; Rousseau, **Annales…**, Op. cit., pp. 363-364.

1. العربي، المرجع السابق، ص. 66 ؛ حمداني، المرجع السابق، ص. 50.

2. حمداني، نفسه.

رسالة الداي إلى الوزير دُه داماس مؤرّخة في منتصف محرّم 1240هـ ؛ و قد أخطأ المترجم الفرنسي في موافقة التاريخ الهجري، حيث أرّخها بـ26 أغسطس 1826م، و الأصحّ هو 8 أو 9 سبتمبر : - Plantet, **Correspondance des deys…**, Op. cit., T. 2, pp. 554-556.

3. في غضون سنة 1825م، أعلم القنصل دوڤال الداي حسين أنّ الملك أسبغ حمايته على السفن الّتي ترفع الراية البابوية، و أنّه ينتظر من الجزائريين بالتالي أن يحترموا خفارته. و قد ردّ الداي عليه بأنّ السبيل الوحيد لعدم التعرّض لسفن تلك الدويلة هو أن تربطها معاهدة سلم مع الإيالة ؛ و عليه، ذكر له أنّه - مراعاةً للملك - سيمنح الكرسي البابوي مهلة سنة واحدة في انتظار تجسيد ذلك. لكن بنيّة مبيّتة، حرّف دوڤال قول الداي لوزيره و مليكه، و أوهمهم أنّ الحاكم الجزائري قد قطع على نفسه وعدًا - شفهيًا - منذ ذلك الحين فصاعدًا باحترام الراية المذكورة : قنان، **معاهدات…**، المرجع السابق، ص ص. 269-270 ؛ زهرة، المرجع السابق، ص ص. 171-174 ؛ حمداني، نفس المرجع السابق، ص. 50.

4. قنان، **العلاقات…**، المرجع السابق، ص. 365 ؛ حمداني، نفس المرجع السابق، ص ص. 51 و 53.

انظر أيضًا فيما يخصّ مجمل المطالب الفرنسية : - Plantet, Ibid., pp. 557-558.

أشار بفايفر إلى هذا اللقاء بقوله أنّ : "**قنصل فرنسا العامّ السيّد دوفان**(كذا)**… أطلق للسانه العنان في حديث كان قد أجراه مع الداي في السنة السابقة (1827)**(كذا)**، ممّا أدّى إلى نشوب خصام عنيف بينهما، نتج عنه توتّر في علاقة أحدهما بالآخر.**" : بفايفر، المصدر السابق، ص. 38. انظر أيضًا : - Alfred Michiel, « **La prise d'Alger racontée par un captif [S.-F. Pfeiffer]** », in : R.A., 19, 1875, p. 477.

5. حمدان خوجة، المصدر السابق، ص ص. 179-180 ؛ قنان، **العلاقات…**، نفس المرجع السابق، ص. 365، ه. 18.

6. الزبيري، المرجع السابق، ص. 282.

و على إثر ذلك، أزمعت الحكومة الفرنسية في نوفمبر 1826م أن تبدأ تطبيق الحصار على الموانئ الجزائرية[1]، و هي عملية تعتبر في الأعراف الدولية بمثابة مقدّمات حرب ؛ لكن هذا القرار بقي سرًّا، و لم يدخل حيّز التنفيذ، لأنّه تبيّن لبعض أعضاء الحكومة - و في مقدّمتهم رئيسها ڤيلل (Vilèle) - أنّه غير مؤسّس بما يكفي إزاء الرأي العامّ الداخلي و الدولي لتبرير تحرّك مماثل.

و هكذا، نرى أنّ فتور العلاقات بين البلدين قد اتّخذ منحىً تصاعديًا منذرًا بالتأزّم، ليس فقط بسبب وجود شخصٍ من جِبِلة دوڤال، الّذي بذل كلّ ما في وسعه لحدوث القطيعة، جرّاء تورّطه في صفقة الديون المشبوهة، بل كذلك بسبب الملك الفرنسي شارل العاشر الّذي وجد في شخصية وزيره للخارجية أحسن منفّذ لإرادته، فهو كان يروم إلى استعادة سلطة أسلافه المطلقة، من خلال مجد حملة مظفّرة تضع في متناوله أموالاً كفيلة بخدمة رؤاه.

و لقد اغتنم الفرنسيون ثورة اليونانيين الّتي استدرّت عواطف المسيحيين في أنحاء أوروبا، لا سيّما أنّه كان يتبدى وقتئذٍ أنّ الأتراك العثمانيون ماضون في إخماد أوارها، ليضفوا غطاءً على تحرّكهم المقرّر ضدّ "البرابرة".

بتوفّر الدوافع و الغطاء، كان ينقص الفرنسيين سبب حرب (Casus Belli) مقبول ليقدِموا على خطوتهم ؛ و قد تولّى القيام بتلك المهمّة البارون دُه داماس و دوڤال، حسب الوسائل المتوفّرة لكلّ واحد منهما. ففي 28 فبراير 1827م، عرض الوزير المذكور على مجلس الوزراء رسالة شديدة اللهجة محرّرة لداي الجزائر، غير أنّها رفضت لانطوائها على تهديد صريح بالحرب[2] ؛ و بعد ستّة أسابيع، أي في 11 أبريل، عاد دُه داماس بمبادرة أخرى تتمثّل في تقرير أكثر تفصيلاً موجّه للملك هذه المرّة. و تكمن أهمّية تلك الوثيقة في كونها تبيّن الإصرار الفرنسي لبدء الأعمال الحربية ضدّ الإيالة، كما نستشفّ منها على وجود تعليمات محدّدة للقنصل يتصرّف بموجبها في حال رفض أو قبول الداي لسلسلة الإملاءات الفرنسية ؛ و رغم أنّنا لا نعتقد بأنّ التعليمات تضمّنت أمر استفزازٍ صريحٍ للداي، فإنّنا نجزم أنّ القنصل الفرنسي، و هو على دراية بمشاريع وزيره، أدرك أنّها الفرصة المنتظرة الّتي تخرجه من ورطة شخصية[3].

لمّا كانت ليلة عيد الفطر، 29 أبريل 1827م، ذهب القنصل الفرنسي كما جرت العادة ليهنّئ الداي ؛ و خلال المناقشة الحادّة الّتي دارت بينهما، سأل الداي إن كان لم يتلق جوابًا عن الرسالة الّتي وجّهها

---

1. Masson, « **À la veille…** », Op. cit., p. 116 ; Plantet, **Correspondance des deys…**, Op. cit., T. 2, p. 558, n. 2.
- حمداني، المرجع السابق، ص ص. 53-54 ؛ زهرة، المرجع السابق، ص. 174.

2. انظر نصّ رسالة البارون دُه داماس في :
- Plantet, Ibid., pp. 558-563.

3. حمداني، نفس المرجع السابق، ص ص. 54-68.
انظر أيضًا : قنان، **العلاقات…**، المرجع السابق، ص. 366.

لملكه، فردّ عليه دوڤال بكلام جرح كرامته : "**إن ملك فرنسا لا يتنازل لإجابة رجل مثلكم**". لم يتمالك الداي نفسه، فانتهره شاتمًا و دفعه بمقبض منشّة كانت بيده مشيرًا إليه بالخروج ؛ حينئذٍ، انسحب دوڤال مهدّدًا "**أنّ حكومته تفضّل أن ترسل أسطولها و جيوشها إلى السواحل الجزائرية، و ترفع أعلامها فوقها لتكون عبرة للداي، على أن تستجيب لمطالبه**"[1].

أرسلت الحكومة الفرنسية فور ورود تقرير القنصل عن الحادثة قوّة بحرية من ستّ سفن وصلت إلى الجزائر في 11 يونيو ؛ و بعد أربعة أيّام، وُجِّه إنذار أخير صاغ القنصل دوڤال شروطه بشكلٍ يستحيل على الداي قبوله. و كما كان متوقّعًا رفض هذا الأخير الإنذار، و أعلن الحصار في 16 يونيو على الجزائر كخطوة تمهيدية للحرب[2].

- **طور التأزّم (1827-1830م)** : درجت أغلب الكتابات التاريخية على تصوير الإيالة في سنواتها الأخيرة كدولة مترنّحة تراجعت قوّتها العسكرية جرّاء انخفاض تعداد جنودها النظاميين[3]، و فقدت معظم قطع بحريتها في معركة ناڤارين (1827م)[4] ؛ كما كانت تعاني، بالإضافة إلى ذلك، من أوضاع اقتصادية مزرية[5]

---

1. انظر الروايات المحلية الأقرب للصحة حول حادثة المروحة في : بفايفر، المصدر السابق، ص ص. 38-39 ؛ حمدان خوجة، المصدر السابق، ص ص. 180-181 ؛ الزهّار، المصدر السابق، ص. 164 ؛ أحمد الجزائري، **كيف دخل الفرنسيّون الجزائر. وصف شاهد عيان**، نشر و تقديم صلاح الدين المنجّد، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1962، ص. 21 ؛ حمداني، المرجع السابق، ص ص. 69-75 ؛ زهرة، المرجع السابق، ص ص. 176-178 ؛ صحراوي، المرجع السابق، ص ص. 173-174 ؛ الجيلالي، المرجع السابق، ج. 3، ص ص. 372-374 و 376. انظر ايضًا :
- de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 303 ; Mercier, **Histoire de l'Afrique…**, Op. cit., pp.527-528.

2. قنان، **العلاقات…**، المرجع السابق، ص. 367 ؛ زهرة، نفس المرجع السابق، ص ص. 179-180 ؛ سامح التر، المرجع السابق، ص ص. 631-632 ؛ أمين، المرجع السابق، ص ص. 20-21 ؛ الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص ص. 273-274 ؛ **المراسلات العثمانية**، م.و.ج.، مجموعة 3190-1، رقم 362.
- Plantet, **Correspondance des deys…**, Op. cit., T. 2, pp. 563-564.

3. شالر، المصدر السابق، ص. 51 ؛ أبو القاسم سعد الله، **محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث : بداية الاحتلال**، دار الرائد، عالم المعرفة، الجزائر، 2009، ص. 36 ؛ حنيفي هلايلي، **بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني**، دار الهدى، عين المليلة، 2007، ص. 93 ؛ حنيفي هلايلي، **العلاقات الجزائرية الأوروبية و نهاية الإيالة 1815-1830**، دار الهدى، عين مليلة، 2007، ص. 69 ؛ جميلة معاشي، **الإنكشارية و المجتمع ببايلك قسنطينة في نهاية العهد العثماني**، دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث، جامعة منتوري، قسنطينة، 2008، ص. 338.

4. انظر أدناه.

5. الجدير بالذكر أنّ الأوضاع الاقتصادية للإيالة عرفت تراجعًا ملحوظًا - و ليس تردّيًا كما صوّرته الكتابات التاريخية -، و كان ذلك راجع إلى عدّة عوامل ظرفية أهمّها وباء الطاعون الأخير الّذي قضى على عشرات الآلاف من السكّان في ظرف خمس سنوات، ممّا تسبّب في تراجع المساحات المزروعة في أغلب أنحاء الإيالة، بالموازاة مع انخفاض النشاط الحرفي و التجاري ؛ و إضافة إلى ذلك، تضرّرت التجارة بشكلٍ مؤكّد من انعكاسات الثورة اليونانية (لصوصية البحر)، و الحرب مع كلّ من انكلترا و فرنسا (الحصار البحري).

بيد أنّنا مرتابون من تأثّر الاقتصاد سلبًا بفعل النظام الاحتكاري الّذي اعتمده الداي حسين على تصدير بعض المنتجات المحلية، حيث اتّخذت هذه الخطوة كتدبير حمائي من هيمنة التجّار الأوروبيين و اليهود على التجارة الخارجية ؛ كما أنّ الاحتكار سمح من جهة أخرى بتوفير مداخيل إضافية للخزينة : شالر، نفس المصدر السابق، ص ص. 58-60 و 101-104 ؛ شويتام، **نهاية…**، المرجع السابق، ص ص. 61-64 و 72-74 ؛ صحراوي، نفس المرجع السابق، ص ص. 102-104.
- Panzac, **Les corsaires…**, Op. cit., p. 255.

و أزمة مالية خانقة[1] ؛ و تلك العوامل المذكورة، بحسب رأي أولئك المؤرّخين، تعتبر مؤشّرات أكيدة على دنو أجلها و نهايتها المحتومة على يد قوّات الحملة الفرنسية في سنة 1830م.

و لو أنّنا نتّفق مع هذا الطرح بخصوص ضعف الدولة نسبيًا وقتئذٍ من بعض الأوجه، إلاّ انّنا نجد النقاط المذكورة آنفًا مجانبة للحقيقة التاريخية : إذ فيما يتعلّق بتعداد الإنكشارية، فقد أحصينا وجود 9163 جندي و ضابط في الخدمة الفعلية في شهر ذي القعدة 1245هـ (أواخر أبريل-أوائل مايو 1830م)، دون حسبان 780 من الخارجين عن الخدمة و 722 يتيم[2] ؛ و لا تقلّ تلك الأرقام كثيراً عن تلك المحصاة مثلاً خلال عامي 1158 و 1159هـ/ 1745 و 1746م، حيث تمّ عدّ حوالي 9519 جندي و ضابط، بالإضافة إلى ما مجموعه 2593 من اليتامى و الجنود المتقاعدين[3].

و الانخفاض الطفيف المسجّل مردّه إلى عدّة عوامل، منها تبعات قمع ثورة الإنكشارية من قبل الداي علي خوجة (1817-1818م)، و فتك وباء طاعون (1817-1822م)، كما أنّ عمليات التجنيد عرفت تراجعًا بفعل تأثّرها دون شكّ بثورة اليونانيين (1821-1829م) و الحصار الفرنسي (1827-1830م)[4].

أمّا فيما يخصّ معركة أو الأصحّ غارة ناڤارين الّتي جرت وقائعها يوم 20 أكتوبر 1827م، فلم تكن بحرية الإيالة طرفًا مشاركًا فيها أصلاً[5]، حيث خرجت العمارة الجزائرية من ثمان سفن لتحارب الثوّار اليونانيين

---

1. بالرغم من أنّ الإيالة عانت، بحسب ما أورده القنصل الأمريكي، من عجز ميزانية الدولة السنوية و كذا الميزان التجاري في سنة 1822م ؛ إلاّ أنّ اختلال الموارد المالية لم يصل إلى درجة الأزمة : شالر، المصدر السابق، ص ص. 58-60 و 102-103.

انظر أيضًا : شويتام، **نهاية...**، المرجع السابق، ص ص. 77-78.

و الدليل على ذلك احتواء خزينة الدولة الكبرى على ما لا يقلّ عن مائتي و سبعين مليون فرنك من الأموال و النفائس في عام 1830م، لمّا استولى عليها الفرنسيون : حمداني، المرجع السابق، ص ص. 333-337. و حتّى خلال الظروف العصيبة الّتي اضطرّ معها الخزناجية (وزراء الخزينة) إلى الغرف من الخزينة الكبرى لسدّ عجز الخزينة الصغرى أو خزينة الباشا، فإنّ المبالغ المقترضة طيلة الأربعة عشر سنة الأخيرة من عمر الإيالة بلغت 28 مليون فرنك فقط بشهادة سبعة من كبار الأعيان و الموظّفين ؛ و الّذين أكّدوا جميعًا أنّ الثروات الّتي أدخلها الداي حسين خلال فترة حكمه لم يسبق لها مثيل، مقارنةً بالستّ دايات الّذين سبقوه : نفسه، ص. 340.

انظر أيضًا : ناصر الدين سعيدوني، "**الخزينة الجزائرية 1800-1830**"، في : م.ت.م. 3، يناير 1975، ص ص. 18-29.

2. انظر في هذا الصدد الملحق رقم 53.

3. انظر الملحق رقم 54.

4. شويتام، نفس المرجع السابق، ص ص. 55-56.

سجّل كولومب أنّ عدد المجنّدين الّذين وصلوا إلى الجزائر من 1215 إلى 1225هـ (1801-1809م) بلغ 2264 ؛ و ارتفع هذا الرقم خلال العشرية التالية إلى 4115، قبل أن يتراجع من 1236 إلى 1245هـ (1820-1829م) إلى 2154 ؛ و عليه، يكون مجموع المجنّدين 8533 إبّان العقود الثلاث الأخيرة من الإيالة العثمانية :

- M. Colombe, "**Contribution à l'étude du recrutement de l'odjak d'Alger dans les dernières années de l'histoire de la Régence**", in : R.A. 18, 1943, p. 180 ; Michiel, Op. cit., 1876, p. 41.

5. انظر في هذا الصدد : حمّاش، "**الجزائر...**"، المرجع السابق، ص ص. 183-185 ؛ صحراوي، المرجع السابق، ص ص. 134-136.

إلى جانب الأسطول العثماني - في المرحلة الثانية - في 5 رمضان 1240هـ/23 أبريل 1825م[1]، و عادت "**إلى الجزائر أواخر سنة 41**[12هـ (الموافق لأواسط 1826م)]. **و كانت مدّة سفرها سنة و شهرين**"[2].

ما يهمّنا في الأمر هو أنّ العمارة الجزائرية انفصلت عن الأسطول العثماني و قفلت راجعة إلى الجزائر يوم 13 ذو القعدة 1241هـ/19 يونيو 1826م، دون استئذان من القپودان باشا محمّد خسرو ؛ و قام بهذا العمل التمرّدي السر عسكر عبد الله شاوش بضغط من الجند الإنكشاري، فور ما بلغتهم أنباء الواقعة الخيرية و التقتيل الّذي راح ضحيته زملاؤهم من الإنكشارية بإسطنبول يومي 14 و 15 من نفس الشهر[3].

و بالمثل، سيدفع استهجان إنكشارية الجزائر للواقعة - و ما تلاها - الداي حسين إلى عدم الإستجابة لطلب محمّد خسرو بإرسال السفن الجزائرية إلى بحر إيجة، في رجب 1242هـ/فبراير 1827م[4] ؛ و عليه، لا نجد أيّ ذكر في المصادر التاريخية عن مشاركة جزائرية في المرحلة الأخيرة من حرب استقلال اليونان. و أمّا ما قيل من أنّ السفينتين "مفتاح الجهاد" و "رهبة"، اللّتان كانتا موجودتين بالإسكندرية، هما من فلول العمارة الجزائرية الّتي دمِّرت جلّ قطعها في ناڤارين[5]، فما هو إلاّ سوء تقدير بالنظر إلى أنّهما في الواقع أقلعتا من الجزائر في 16 مارس 1827م لتقلّا الحجيج الجزائريين إلى الميناء المذكور، حيث سيفرض عليهما الفرنسيون الحصار ابتداءً من شهر يوليو، و يمنعونهما بالتالي من العودة للجزائر أو الانضمام للأسطول العثماني المصري المتوجّه إلى المورة[6].

- Péchot, Op. cit., p. 139.

1. حمّاش، "**الجزائر...**"، المرجع السابق، ص ص. 180-183 ؛ صحراوي، المرجع السابق، ص. 132.

2. الزهّار، المصدر السابق، ص. 156.

3. نفسه.

انظر أيضًا : حمّاش، نفس المرجع السابق، ص ص. 181-182 ؛ أوزتونا، المرجع السابق، مج. 2، ص ص. 676-678 ؛ **المراسلات العثمانية**، م.و.ج.، مجموعة 3204-1، رقم 20 و 22.

- Charles Deval, **Deux années à Constantinople et en Morée (1825-1826)**, Nepveu, Paris, 1828, pp. 123-140 ; A. P. Caussin de Perceval, **Précis historique de la destruction du corps des janissaires par le sultan Mahmoud, en 1826**, Firmin Didot Frères, Paris, 1833, pp. 108-140 ; Erhan Afyoncu, Ahmet Önal & Uğur Demir, **Osmanlı imparatorluğu'nda Askeri İsyanlar ve Darbeler**, Yeditepe Yayınevi, İstanbul, 2010, pp. 244-248.

4. حمّاش، نفس المرجع السابق، ص ص. 183 و 185.

5. سعد الله، **محاضرات...**، المرجع السابق، ص. 27، ه. 1 ؛ ناصر الدين سعيدوني، "**معركة نافرين 1827**"، في : ورقات جزائرية، البصائر الجديدة، الجزائر، 2012، ص ص. 327-337 ؛ هلايلي، **العلاقات...**، المرجع السابق، ص. 84 ؛ عبّاد، المرجع السابق، ص. 244.

6. خليفة حمّاش، "**حول السفينتين الجزائريتين اللتين كانتا في الإسكندرية قبيل الحملة الفرنسية على الجزائر**"، في : م.ت.م. 79-80، ماي 1995، ص ص. 323-330 ؛ بفايفر، المصدر السابق، ص. 43 ؛ الزهّار، نفس المصدر السابق، ص. 170.

- **Registre du beylik**, A.O.M., 15MI-14, n° 13, fol. 30r°.

انظر أيضًا : **المراسلات العثمانية**، م.و.ج.، مجموعة 3204-1، رقم 29، 32 و 33.

و لا شكّ أن غياب تلكما القطعتين الكبيرتين سيؤثر في نتيجة المعركة البحرية الّتي جرت صبيحة 4 أكتوبر 1827م، حينما خرجت أحد عشر سفينة في محاولة لفكّ الحصار المفروض على ميناء الجزائر من قبل خمس سفنٍ فرنسية.

و لو أنّ الجزائريين أجبروا العمارة الفرنسية على التراجع بعد قتال دام ما يقرب من أربع ساعات، إلاّ أنّهم أخفقوا في تحقيق ما أمرهم به الداي، و هو الاستيلاء على الأقلّ على سفينةٍ من سفن العدو أو إغراقها ؛ و هذا ما جعله ينتهر الريّاس بشدّة رغم تفوّقهم، و يطرد الأكثر تقاعسًا منهم[1]. و مهما يكن، فإنّ "نصف الانتصار" الجزائري لم يغيّر شيئًا في الوضع، إذ عاد الفرنسيون بعد أسبوعين و نصف بإثني عشر سفينة ليحكموا بها الحصار[2].

فور بدء الحرب، ارتكزت الاستعدادات الجزائرية على تزويد حصون و أبراج خليج الجزائر بكلّ ما يلزم من أسلحة و ذخائر، و تعزيزها بفرق من العسكر و الطوبجية العرب الّتي كانت تتناوب على الحراسة فيها[3]. و بعد أن أسرّ القنصل الهولندي ليحي آغا الصبايحية بالخطّة الهجومية للفرنسيين، الّتي تحدّد شاطئ سيدي فرج غرب العاصمة كأنسب نقطة إنزال، عرض هذا الأخير على الداي و على أعضاء الديوان هذه المعلومة المستجدّة البالغة الخطورة.

و خلال الديوان المذكور، تخالف يحي آغا بشدّة مع الخزناجي إبراهيم و وكيل الحرج إبراهيم صهر الداي حول الترتيبات الدفاعية الواجب اتّخاذها ؛ فقد كان من رأي الآغا تشييد برج قوي بسيدي فرج قادر على التصدّي لأيّ محاولة إنزال، بيد أنّ الوزيرين المذكورين ارتأيا أنّه عملٌ غير مجدٍ و هدرٌ لمال الخزينة، بالنظر إلى أنّ نشر قوّاتٍ على امتداد الساحل المذكور كفيلٌ بذلك، فضلاً عن أنّ الأزمة

- Plantet, **Correspondance des beys…**, Op. cit., T. 3, p. 634.

1. يتعلّق الأمر بالرئيس أحمد بن خليل جزايرلي (ج. 372)، الّذي "**أخرج من العلوفة**" بحسب التعبير الوارد في الدفتر : **دفتر مواجبات…**، المصدر السابق، رقم 1977، و. 341 ظ°.

2. بفايفر، المصدر السابق، ص ص. 43-47 ؛ الجزائري، **كيف…**، المصدر السابق، ص ص. 23-24 ؛ الزهّار، المصدر السابق، ص. 168 ؛ صحراوي، المرجع السابق، ص ص. 177-178 ؛ **المراسلات العثمانية**، م.و.ج.، مجموعة 3190-1، رقم 257 و 259.

- Devoulx, **Tachrifat**, Op. cit., pp. 23-25 ; Michiel, Op. cit., 1875, pp. 479-482 ; Quintana Moraira, Op. cit., p. 442.

انظر أيضًا : - Pierre Berthézène, **Dix-huit mois à Alger**, Auguste Ricard, Montpellier, 1835, p. 16.

و الجدير بالذكر أنّ الحصار لم يضيّق الخناق على البحرية الجزائرية كما كان يأمل الفرنسيون، فقد استطاع الريّاس مرارًا التسلّل عبره و مضايقة التجارة الفرنسية، بدليل عديد الغنائم الّتي استولوا عليها خلال عامي 1827 و 1828م. انظر : الجزائري، نفس المصدر السابق، ص. 24 ؛ صحراوي، نفس المرجع السابق، ص ص. 176-177 ؛ **المراسلات العثمانية**، م.و.ج.، مجموعة 3190-1، رقم 277 و 316.

3. الزهّار، نفس المصدر السابق، ص. 164 ؛ زهرة، المرجع السابق، ص. 193.

في بدايتها، و قد تجد لها حلاً بالمفاوضات. و في الأخير، فصل الداي النقاش المحتدم بحلٍّ وسط تمثّل في قبوله إقامة برج صغير، أو بالأحرى بطّارية ساحلية ذات اثنا عشر مدفعًا[1].

مهما يكن من أمر، لا نعتقد أنّ البرج، الّذي استكمل بناؤه على الأرجح قبل نهاية 1827م، قد تمّ تسليحه بقطع المدفعية ؛ و السبب في ذلك أنّ متعهده يحي آغا عزل عن منصبه في أواخر أغسطس من تلك السنة، جرّاء مؤامرة مدبّرة أوغرت صدر الداي حسين ضدّه، و اشترك فيها الوزيرين المذكورين مع أحمد باي قسنطينة[2]. و كان "**يحي آغا هذا، هو أحسن رجال تلك الدولة عقلاً و معرفة**"[3]، "**و يعرف كيف يحبّب نفسه خاصّة إلى العرب و القبائل، و لو أنّه ظلّ في هذا المنصب مدّةً أطول لاستفادت منه الجزائر أشياءً كثيرة**"[4] ؛ و بعد شهر من تنحيته، تمّ إعدام هذا القائد المحنّك المحبوب من قبل الإنكشارية بأمرٍ من الداي عقب اتهامه تلفيقًا بالتآمر، فيما سيعتبر أفدح الأخطاء الّتي ارتكبها الأخير خلال فترة حكمه الطويل نسبيًا[5].

و بالحديث عن الأخطاء، وصل حينذاك مبعوث من الباب العالي إلى الداي حاملاً لأمر سلطاني باعتماد النظام الجديد[6]، لأجل تشكيل جيش "**على الطريقة الأوروبية قوامه أربعون ألفًا، و لكن الداي رفض القيام بذلك، و قال للرسول إنّ احترامه لقوانين آبائه و تقاليدهم أكبر من أن يسمح له بتقليد تجديدات**

---

1. الزهّار، المصدر السابق، ص ص. 163، 168 و 171 ؛ سعد الله، **محاضرات...**، المرجع السابق، ص. 26 ؛ الميلي، المرجع السابق، ج. 3، ص ص. 282 و 284. انظر أيضًا : شالر، المصدر السابق، ص. 76.

- Paul Azan, « **Le rapport du Marquis de Clermont-Tonnerre sur une expédition à Alger (1827)** », in : R.A. 70, 1929, pp. 232-233 ; M. Rozet, **Relation de la guerre d'Afrique pendant les années 1830 et 1831**, T. 1, Firmin Didot Frères, Paris, 1832, p. 62.

2. الزهّار، نفس المصدر السابق، ص ص. 162-163 ؛ علي رضا پاشا، المصدر السابق، ص ص. 60-61 ؛ بفايفر، المصدر السابق، ص. 193.

- **Registre du beylik**, A.O.M., 15MI-14, n° 13, fol. 58v° ; Robin, « **Note...** », Op. cit., pp. 115-117 ; L. E. Chennechot, **Histoire résumée de la guerre d'Alger, d'après plusieurs témoins oculaires**, J. Corréard, Paris, 1830, p. 11 ; F. A. Desprez, **Journal d'un officier de l'armée d'Afrique**, Anselin, successeur de Magimel, Paris, 1831, p. 73.

انظر أيضًا : شالر، نفس المصدر السابق، ص ص. 228-229.

3. الزهّار، نفس المصدر السابق، ص. 163.

4. حمدان خوجة، المصدر السابق، ص. 188.

5. نفسه، ص ص. 188-189. - Robin, Ibid., pp. 117-118 ; Plantet, **Correspondance des beys...**, Op. cit., T. 3, p. 648.

6. النظام الجديد، أو بتعبير آخر العسكر النظامي، أسّسه السلطان العثماني محمود الثاني (1223-1255هـ/1808-1839م) قبيل قضائه على الإنكشارية (الواقعة الخيرية)، الّتي أضحت العقبة الكأداء في سبيل تطبيق إصلاحات في الدولة العثمانية ؛ و كانت هذه العملية المزدوجة في مقدّمة الحركة الإصلاحية الّتي باشرها هذا السلطان ليعيد للدولة قوّتها السالفة. و قد عمّم هذا التجديد على إيالات الدولة، حيث شرع في تطبيقه في طرابلس الغرب أواخر 1242هـ/منتصف 1827م حال وصول الأمر السلطاني، بإنشاء فرقٍ عسكرية من العبيد السوداني ؛ أمّا في تونس، فتأخّر تعويض الإنكشارية بالعسكر الجديد إلى أوائل 1244هـ/صيف 1829م. و الجدير بالذكر أنّ الروس اغتنموا ضعف القوّات النظامية العثمانية الّتي كانت قيد الإنشاء و التدريب، كي يعلنوا الحرب على الدولة و يهزموها في عام 1829. انظر : حسن الفقيه حسن، **اليوميات الليبية**، تحقيق محمد الأسطى و عمّار جحيدر، ج. 1، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، بنغازي، 2001، ص ص. 353-354.

الكفّار، و أفهم الرسول بأنّ السلطان لا أمر له في الجزائر و أن عليه أن يهتمّ ببلدانه"[1]. و هكذا، أحجم الداي حسين عن طاعة الأمر السلطاني، و أبدى امتعاضه بشأنه، ليس فقط بسبب تعنّته و روحه المحافظة العصية عن كلّ تجديد، و الكره الشديد الّذي كان يتشاطره مع باق الإنكشارية للسلطان، و الّذي وصل - حسب شهادة بفايفر - إلى حدّ التكفير[2]، بل أيضًا لأنّه كان سيكلّف أموالاً لا يحتمل تقتيره إخراجها من "كنز القصبة" ؛ و الأخطر من ذلك أنّه سيفضي إلى تجنيد الآلاف المؤلّفة من الأهالي في صفوف القوّات النظامية، محطّمًا هيمنة العناصر التركية العثمانية على الجيش الجزائري، و مهدّدًا في نظره وجود الأوجاق بذاته.

و لن يلتزم الداي حسين بالأمر إلاّ في منتصف عام 1829م، بعد قدوم قپوجي باشي مكلّف بمهمّة مزدوجة : الأولى طلب إعانة مالية كانت الدولة في أمسّ الحاجة إليها لدعم مجهودها الحربي ضدّ الروس، و الثانية تجديد "**أمر السلطان بأن يكتب عسكر النظام. لكنّه ردّ القبجي باشي**(كذا) **خائبًا**"[3] فيما يتعلّق بالمطلب الأوّل. و لكي لا يظهر بمظهر المتمرّد لأوامر السلطان، قبِل المطلب الثاني ؛ لكنّه اكتفى بإنشاء فرقٍ من العسكر النظامي قوامها نحو الألفين فقط - عوض الأربعين ألفًا المقرّرة -، من أبناء الزواوة و العرب. و خلافًا لما ذكره الزهّار، لم يتمّ كتابة هؤلاء المجنّدين الجدد في دفتر الإنكشارية، بل في دفترٍ منفصل عن الأوّل[4]. و إن كنّا لا نشكّ في أنّ التأطير و التدريب كان يتمّ على يد ضبّاطٍ من الإنكشارية، إلاّ أنّنا نجهل أيّ شيءٍ آخر بخصوص الفرق الجديدة، على غرار اللباس و التثكّن. الحاصل أنّ تطبيق القرار المتأخّر، و بذلك الشكل المحتشم، لن يؤثّر بشيء في نتيجة الصدام القادم.

بالموازاة مع استمرار الحصار المكلّف و غير المجدي، قام الفرنسيون بعدّة مبادرات لتسوية الخلاف مع داي الجزائر بطريقة "دبلوماسية"، لكن دون أن يخفّضوا من سقف مطالبهم الأوّلية، الّتي صاغها القنصل دوڤال قبيل إعلان الحرب ؛ و هذا ما يعلّل بلا شكّ سبب الرفض المتكرّر للداي لتلك المحاولات، رغم نيّته الّتي عبّر عنها مرارًا - هو الآخر - في إنهاء الخلاف.

انظر أيضًا : أوزتونا، المرجع السابق، مج. 3، ص ص. 9-13 ؛ الباجي المسعودي، المصدر السابق، ص. 143 ؛ عبد العزيز المسعودي، المصدر السابق، ص. 12. - Rousseau, **Annales…**, Op. cit., pp. 384 & 386.

1. بفايفر، المصدر السابق، ص. 49.

2. نفسه. تجدر الإشارة إلى أنّ هذا الرأي لم يكن مقصورًا على الداي و بعض إنكشارية الجزائر، فقد كانت أقسام واسعة من رعايا الدولة غير الموافقين على إصلاحات محمود الثاني يلقّبونه "كاوور پادشاه"، أي العاهل الكافر : أوزتونا، المرجع السابق، مج. 3، ص. 21.

3. الزهّار، المصدر السابق، ص. 165. في الحقيقة، كان القپوجي باشي مكلّفًا أيضًا بالاستفسار حول أسباب الأزمة مع الفرنسيين و حثّ الداي على التوصّل إلى حلّ سلمي، كونه الأمر الوحيد الكفيل بالسماح للسفن الجزائرية التوجّه لمساعدة الدولة في حربها ضدّ روسيا. انظر : - Rousseau, **Annales…**, Op. cit., pp. 379-381 ; Plantet, **Correspondance des beys…**, Op. cit., T. 3, pp. 679, n. 1 & 681-682.

4. نفسه، ص ص. 165-166. انظر أيضًا : - Ben Cheneb, Op. cit., p. 80.

في منتصف سنة 1829م، بناءً على طلب سابق من وزير خارجيته، قام دوڤال بإعداد مشروع معاهدة من خمسة و أربعين بندًا، في إطار تصوّر حلّ للأزمة عن طريق المفاوضات[1]. و يتبيّن بشكل جلي، بعد الاطلاع على بنود تلك المعاهدة، أنّه لن تكون هناك مفاوضات بمعنى الكلمة، و إنّما إملاء لشروط غير قابلة للنقاش ؛ و هي الشروط الّتي كانت ستفضي إلى نتائج مماثلة للّتي ستحقّقها حملة عسكرية ناجحة. و بالفعل، كانت المحاولة الأخيرة الّتي كلّف بها الكونت دُه لا برتونيير (Comte de la Bretonnière) تتمثّل أساسًا في إقناع الداي بإرسال مبعوث رفيع المستوى إلى فرنسا تكون مهمّته تقديم اعتذار للملك في حفلٍ رسمي عن "حادثة المروحة"، و من ثمّ التوقيع على المعاهدة السالفة الذكر[2].

بعد قدوم قائد عمارة الحصار دُه لا برتونيير، على متن بارجة "لا پروڤانس (La Provence)" ترافقها سفينة أصغر "لا لَرْت (L'Alerte)"، أواخر يوليو 1829م قبالة ميناء الجزائر، و قيامه بعرض جملة المطالب الفرنسية على الداي حسين، تروى هذا الأخير في الردّ حتّى اليوم الثاني من أغسطس ؛ و لا شكّ أنّ الداي أصيب بخيبة أمل عندما اعتقد أنّ فرنسا قبلت فتح مفاوضات حقيقية و ليس إملاء شروطها على الجزائر، شروطٌ كان سيعتبر قبولها بمثابة انتحار. و لذا، كان جوابه رفضًا قاطعًا، كما ردّ على تهديدات المفاوض الفرنسي بأنّ لديه هو الآخر مدافع و بارود يقابل بها[3].

و تتفّق جلّ المصادر على أنّه لمّا قامت بارجة المفاوض بالتحرّك دفعها ريح شمالي غربي على مقربة من استحكامات الميناء، حيث تعرّضت دون سابق إنذار لنيران المدفعية الجزائرية خلّفت أضرارًا طفيفة[4] ؛

---

1. الجدير بالذكر أنّ المعاهدة بقيت مجرّد مشروع، لأنّ الداي رفض مبدئيًا التفاوض على أساسها. و أهمّ بنود تلك المعاهدة تكرّس من جهة ملكية فرنسا لشريط ساحلي يمتدّ من وادي سيبوس - الّذي يقع مصبّه على قرابة ثلاثة كيلومترات جنوب جنوب شرق مدينة عنّابة - إلى الحدود التونسية و بعمق حوالي خمسين كيلومتر نحو الداخل، و من جهة أخرى احتكار النشاط التجاري في المنطقة الساحلية الممتّدة من بجاية إلى وادي سيبوس ؛ و بالإضافة إلى ذلك، يتخلّى الداي عن مطالبة الحكومة الفرنسية بديون بوشناق(كذا) و بكري، في الوقت الّذي يتعهّد فيه بدفع تعويضات متنوّعة للفرنسيين جرّاء الخسائر المترتّبة عن الحرب. انظر: قنان، **نصوص...**، المصدر السابق، ص ص. 289-294 ؛ قنان، **العلاقات...**، المرجع السابق، ص ص. 379-380.

2. مذكّرة حول المهمّة الّتي قام بها الكونت دُه لا برتونيير لدى الداي، مؤرّخة في شهر سبتمبر 1829م في : A. E. P./M. D. Algérie 2 - نقلاً عن : قنان، **معاهدات...**، نفس المرجع السابق، ص. 273.

انظر أيضًا : قنان، **العلاقات...**، نفس المرجع السابق، ص ص. 375 و 378.

3. قنان، **العلاقات...**، نفس المرجع السابق، ص. 379 ؛ زهرة، المرجع السابق، ص ص. 187-188.

4. الزهّار، المصدر السابق، ص ص. 166-167 ؛ الجزائري، **كيف...**، المصدر السابق، ص ص. 26-27.

- T. X. Bianchi, « **Relation de l'arrivée dans la rade d'Alger du vaisseau de S. M. la Provence, sous les ordres de M. le comte de la Bretonnière et détails de l'insulte faite au pavillon du roi de France par les Algériens, le 3 aout 1829** », in : R. A. 21, 1877, pp. 431-432 ; Playfair, « **Épisodes…** », Op. cit., 1880, pp. 200-201 & 203 ; Rozet, **Relation…**, Op. cit., p. 6.

و عليه، ألقيت اللائمة وفق سياق الأحداث المذكور بالكامل على الداي، الّذي أثبت مجدّدًا دناءته و سوء نيّته، فيما عرف بحادثة "لا پروڤانس". لكن هذه الرواية يدحضها شاهدٌ عاين عن كثب كلّ ما حدث، و هو طبيب الخزناجي پفايفر الّذي أورد أنّ البارجة اقتربت من المواقع الجزائرية رغم سلسلتين من إشارات الدخان التحذيرية، تلتها ثلاث طلقات مدفع تحذيرية، دون أن تتوقّف عن السير أو تغيّر اتجاهها ؛ "**و عندما رأى الجزائريون أنّ الفرنسيين لا يهتمّون بذلك أدنى اهتمام، صوّبوا نحو السفينة بضعة قذائف ؛ و لمّا لم تفد هذه أيضًا، راحت الحامية الجزائرية تمطرها حممًا**"[1].

و نكاد نجزم أنّه أعطِيت تعليمات سرّية لدُه لا برتونيير، في حال فشل المفاوضات - و هو الاحتمال الأكثر ورودًا على ضوء ما سبق ذكره بخصوص بنود المعاهدة -، بافتعال "حادث لا يغتفر"، لإقناع و تغيير رأي قوى المعارضة في البرلمان الفرنسي، الّتي لطالما رفضت مشروع توجيه حملة عسكرية ضدّ الجزائر ظاهريًا بسبب الضائقة المالية، و في الواقع خشية أن يستقوى عليها الملك في حال الظفر ؛ كما لا نشكّ في أنّ تلك المناورة الماكرة أفادت كثيرًا مهندسين عسكريين فرنسيين، اللّذان ثبت وجودهما على متن البارجة، في وضع مخطّطات دقيقة لأبراج و استحكامات الجزائر[2]، لا سيّما أنّ الكونت المذكور كان قد دعا لمشروع غزو تكون مقدّماته قصف ميناء الجزائر و تحصيناته[3].

و قام الداي فور علمه بالحادثة بتنحية وكيل الحرج و أمر بنفيه، كما عزل باش طوبجية البطّاريات الّتي قصفت البارجة، دون أن يتحقّق من مسؤولية الطرف الفرنسي ؛ و لقد اتّخذ هذه التدابير المتسرّعة و المجحفة فقط ليبرئ اسمه إزاء العدو من جناية ظنّ أنّها ارتكبت في حقّه[4]. و مثلما يمكن توقّعه "**تصرّفه هذا قد أثار أحقاد عددٍ كبيرٍ من الإنكشاريين عليه، فضلاً عن أصدقاء وزير الحرب القتيل، و أصدقاء وزير البحر الطريد، الّذين قرّروا في الخفاء أن يثأروا من الداي**"[5] ؛ و لكنّهم بقوا يتحيّنون الفرصة لتحقيق ذلك.

---

1. پفايفر، المصدر السابق، ص. 60. انظر أيضًا : نفسه، ص. 122، ه. 20.

2. A.E.P./M.D., Alger 4. Paris, 24 avril 1829.

نقلاً عن : قنان، **العلاقات...**، نفس المرجع السابق، ص. 378.

انظر أيضًا : زهرة، المرجع السابق، ص ص. 189-190 ؛ حمداني، المرجع السابق، ص. 137 ؛ شويتام، **نهاية...**، المرجع السابق، ص. 190.

- Plantet, **Correspondance des deys...**, Op. cit., T. 2, pp. 566-567, n. 4 ; de Grammont, **Histoire d'Alger...**, Op. cit., pp. 304-305.

3. Bianchi, Op. cit., pp. 409-410 & 431.

انظر الملحق رقم 65.

4. پفايفر، نفس المصدر السابق، ص ص. 61-62 ؛ زهرة، نفس المرجع السابق، ص. 189 ؛ حمدان خوجة، المصدر السابق، ص. 184.

- Modica, Op. cit., pp. 96-97 ; Prince Sixte de Bourbon, **La dernière conquête du roi - Alger 1830** -, Calmann-Lévy, Paris, 1930, pp. 90-92.

5. پفايفر، نفس المصدر السابق، ص. 63.

على إثر فشل مفاوضات دُه لا برتونيير، تأكّدت الحكومة الفرنسية بأنّه لا أمل لها في إرغام الجزائر على قبول مطالبها، من دون الاضطرار إلى تجريد حملة عسكرية ضدّها ؛ لكن الإقدام على خطوة مماثلة كان لا يزال يثير لديها مخاوف غير معلنة من تبعات فشل الحملة على استقرار الحكم الملكي و مكانة فرنسا الدولية. و لأجل ذلك، فإنّها ستتلقف أوّل إشارة وصلتها من قنصلها بمصر دروڤيتي (Drovetti) حول احتمال قبول والي مصر القوي، محمّد علي، المشاركة في تلك الحملة[1].

فقبل ذلك بأشهر، كانت الحكومة الفرنسية برئاسة الأمير دي پولينياك (prince de Polignac) قد طلبت من سفيريها في اسطنبول و القاهرة التدخّل لدى السلطان و واليه المذكور ليقوما بإقناع داي الجزائر على الإذعان للصلح مع فرنسا. و بالفعل، أرسل كلّ منهما في أواخر ربيع 1829م مبعوثين إلى الجزائر، لكن حسين أصرّ على موقفه الرافض، و أساء فيما يخصّ الموفد المصري الردّ على المبادرة[2]. و استغلّ القنصل الاستياء الشديد لمحمّد علي على ما اعتبره إهانة لشخصه ليقترح عليه مشروع ضمّ الإيالات المغربية بجيشه البرّي، فيما يتولّى الأسطول الفرنسي مساندته ؛ و قد جرت مباحثات كثيفة بهذا الخصوص امتّدت تقريبًا من أكتوبر 1829م إلى فبراير من العام التالي[3].

لكن بعد فشل المباحثات مع محمّد علي باشا، لم تجد الحكومة بدًّا في النهاية من خوض المغامرة مهما كانت النتيجة ؛ فسمعة الدولة و مصالحها، بل و مصير العرش نفسه، أضحت كلّها مرتبطة بتجريد تلك الحملة الّتي صارت بالنسبة لصنّاع القرار في فرنسا خيارًا لا ثاني له. و في 7 فبراير 1830م، بدأت الاستعدادات لتجهيز الحملة، و أعلنت التعبئة في الجيش ؛ و في 12 مارس، بعث رئيس الحكومة بمذكّرة إلى الحكومات الأوروبية، يخطرها بقرار تسيير الحملة، مرفقة بتوضيح المسوّغات الّتي دفعتها إلى القيام بذلك[4].

---

1. قنان، **العلاقات...**، المرجع السابق، ص. 380. انظر أيضًا : حمداني، المرجع السابق، ص. 134.

2. سامح التر، المرجع السابق، ص. 634 ؛ زهرة، المرجع السابق، ص ص. 218-219 ؛ الفقيه حسن، المصدر السابق، ج. 1، ص ص. 415-416.

– Plantet, **Correspondance des beys...**, Op. cit., T. 3, pp. 681-682 ; Mercier, **Histoire de l'Afrique...**, Op. cit., p. 530.

3. جورج داون، **مشروع حملة محمد علي على الجزائر (1829-1830)**، ترجمة عثمان مصطفى عثمان، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2010، ص ص. 39-126 ؛ زهرة، نفس المرجع السابق، ص ص. 200-214 ؛ شويتام، **نهاية...**، المرجع السابق، ص ص. 178-182 ؛ حمداني، نفس المرجع السابق، ص ص. 120-126.

انظر أيضًا : بفايفر، المصدر السابق، ص. 50 ؛ الفقيه حسن، نفس المصدر السابق، ص ص. 457-458.

4. قنان، نفسه.

انظر ايضًا : شويتام، نفس المرجع السابق، ص. 184. - de Grammont, **Histoire d'Alger...**, Op. cit., pp. 308-310.

2. الأيّام الأخيرة (1830م) : فترة السقوط

2-1. مجريات سقوط أوجاق الجزائر و حيثياته

2-1-1. أوجاق الجزائر خلال فترة الترقّب

بينما كانت تجري الاستعدادات العسكرية على قدمٍ و ساق في ميناء طولون في غضون ربيع 1830م، بدأت أنباء الحملة و قرب خروجها ترِد على الداي من مصادر مختلفة تعمّد الفرنسيون دسّ معلومات مغلوطة فيها حول نقاط الإنزال على الساحل الجزائري، على الأرجح قصد التشويش و التعمية على الوجهة الحقيقية بسيدي فرج[1].

و قد أفلحت تلك الدسائس نسبيًا، حيث حملت الداي حسين عند إعلانه التعبئة و الاستعداد للجهاد إلى أن يأمر الباي حسن بالبقاء ببايلكه على رأس معظم قوّات وهران، و أن يكتفي بإرسال خليفته بن عودة البورسالي مع قوّاته المخزنية لا غير إلى مليانة ؛ كما أمر أحمد باي بأن يوجّه بضعة آلاف من قوّاته إلى عنّابة، فيما يرابط هو بالقسم الأكبر منها بحمزة منتظرًا إشارة منه بالتحرّك صوب دار السلطان، مثلما جرت العادة سابقًا في ظروف مماثلة[2].

أمّا فيما يخصّ ساحل سيدي فرج، فإنّ الداي أمر إبراهيم آغا في مطلع مايو على عجل القيام بما يلزم لتحصينه. لكن آغا الصبايحية لم ينجز المهمّة الموكلة إليه كما يجب، إذ بالكاد سيقوم بنصب ثلاثة

---

1. على سبيل المثال لا الحصر، وردت رسالة مؤرّخة في 5 رمضان 1245هـ/28 فبراير 1830م من مصطفى رئيس السفينة الجزائرية مفتاح الجهاد بالإسكندرية إلى الداي حسين، يعلمه فيها بأنّ سفينة فرنسية قدمت إلى الميناء المصري أخبره قبطانها بأنّ فرنسا أعدّت أربعين ألف جندي للهجوم على الجزائر عبر مستغانم و المرسى الكبير و سيدي فرج ؛ و ستقلّهم إلى السواحل الجزائرية مائة و خمسة عشر سفينة حربية، بالإضافة إلى أربعمائة مركب نقل محمّلة بالمؤن و الذخائر : **المراسلات العثمانية**، م.و.ج.، مجموعة 3190-1، رقم 350.

و في 23 شوّال 1245هـ/17 أبريل 1830م، أرسل الحاج خليل مبعوث الباب العالي الموجود في تونس إلى حسين باشا مكتوبًا، يخبره فيه أيضًا أنّ سفينة فرنسية قدمت من مارسيليا إلى تونس و أخبره قائدها بأنّ الفرنسيين أكملوا إعداد حملتهم الّتي سيرسلونها إلى الجزائر، و عدد سفنها مائة سفينة ؛ كما أعلمه بأنّ الهجوم سيتوزّع على شرشال و أرزيو و سيدي فرج، و أنّ الأسلوب الّذي سيتّبعه الفرنسيون في مواجهة القبائل الّتي ستنضمّ إلى الجيش الجزائري يتمثّل في مماطلة محسوبة لإطالة حالة الاستنفار لديها حتّى تسأم و تعود إلى أوطانها : نفسه، رقم 353.

و اشترك حسين باي تونس كذلك في المكائد الفرنسية بإرساله مكتوبًا وصل في 19 ذو القعدة 1245هـ/12 مايو 1830م إلى باي طرابلس حليف الداي حسين يخبره فيه عن رفضه طلب ملك فرنسا "**الاذن في نزول العسكر الفرنساوي في البرّ في حدّ عمالة تونس و الجزاير**(كذا)، **لأجل ينزل العسكر في البر**" ؛ و ذلك ايهامًا بلا أدنى شكّ بأنّ هدف الحملة استعادة منطقة الامتيازات الفرنسية غصبًا، و الاستيلاء على مدينة عنّابة : الفقيه حسن، المصدر السابق، ج. 1، ص ص. 469-470. انظر أيضًا :

- [Boutin], **Reconnaissance…**, Op. cit., p. 46.

- بفايفر، المصدر السابق، ص ص. 64 و 66 ؛ شويتام، **نهاية…**، المرجع السابق، ص. 196 ؛ الجيلالي، المرجع السابق، ج. 3، ص ص. 386-387.

2. Caporal, Op. cit., p. 134 ; Esterhazy, **De la domination…**, Op. cit., p. 226 ; Mercier, **Histoire de Constantine**, Op. cit., p. 383.

– حمدان خوجة، المصدر السابق، ص. 187 ؛ أحمد باي بن محمّد الشريف، **مذكّرات أحمد باي**، ش. و. ن. ت.، الجزائر، 1981، ص. 11 ؛ الجيلالي، نفس المرجع السابق، ص. 387.

بطّاريات ميدانية بلغ مجموع مدفعيتها ثلاثة عشر مدفعًا إضافةً لمدفعي هاون، فيما جرّد البرج الّذي أنشأه يحي آغا قرب الشطّ عند بداية الحرب من المدفعية، ظنًّا عدم إمكانية الدفاع عنه في حالة هجومٍ بحري عليه[1] ؛ و لا يمكن أن يعلّل ذاك التقصير الخطير البتّة بضيق الوقت المتاح، إذ هو راجع إلى التنفّج إلى حدّ الغرور و كذا الرخاوة اللّذين طبعا شخصية الآغا[2].

و علاوة على ذلك، اعتمد الفرنسيون لزيادة فرص نجاح حملتهم أساليب الحرب النفسية، حيث طبعوا بيانًا دعائيًا قام عملاء و مندّسون بتفريق مئات النسخ منه في مختلف أرجاء الإيالة، انطلاقًا من تونس ؛ و لقد كان غرضهم من ذلك شقّ وحدة الصفّ الجزائري، لإدراكهم جيّدًا أنّه - كما حدث مرارًا في السابق - فور إعلان الجهاد ضدّ الكفّار يتناسى سكّان البلاد أحقادهم و يصطفّون تحت راية واحدة. و قد جاء في البيان المذكور أنّ الفرنسيين جاؤوا إلى الجزائر لتأديب الداي الّذي أساء إلى شرف فرنسا، و ليس ليحاربوا أهل البلاد ؛ و عليه، فإنّهم يطلبون من الأهالي الانضمام إلى الفرنسيين و التعاون معهم، و يتعهّدون بأنّهم سيحترمون مقدّسات و أملاك الأهالي[3].

و كان لهذا البيان أثر مؤكّد، بحسب كتّابٍ فرنسيين، بالنظر إلى عزوف عددٍ من القبائل في وقتٍ لاحق عن المشاركة في مواجهة الفرنسيين أو على الأقلّ في فتورهم خلال القتال. و لهذا السبب، سارع الداي لمنح مكافأة مجزية لكلّ من يأتيه بنسخٍ من ذاك البيان[4] ؛ و كردّ فعل، ذكر پفايفر أنّه "**أصدر كذلك**

---

1. Desprez, Op. cit., pp. 73-74 ; E. Pellissier de Reynaud, **Annales algériennes**, T. 1, Librairie militaire, Paris, 1854, pp. 35-36 ; M. A. Gaudin, **Nouveaux documents sur la conquête d'Alger par les français**, Benjamin Duprat, Paris, 1864, p. 16 ; A. M. Perrot, **La conquête d'Alger ou relation de la campagne d'Afrique**, H. Langlois Fils, Paris, 1830, p. 101 ; J.-T. Merle, **Anecdotes historiques et politiques pour servir à l'histoire de la conquête d'Alger en 1830**, G.-A. Dentu, Paris, 1831, p. 86 ; Armand Jehannot Bartillat, **Relation de la campagne d'Afrique en 1830**, 2e éd., G.-A. Dentu, Paris, 1832, p. 143 ; G. Jacqueton, « **Papiers du Général Valazé relatifs à la conquête d'Alger** », in : R.A. 36, 1892, pp. 144-146 ; Rozet, **Relation…**, Op. cit., pp. 109-110.

- حمدان خوجة، المصدر السابق، ص. 190 ؛ پفايفر، المصدر السابق، ص. 65. انظر الملحق رقم 67.

2. انظر في هذا الصدد : الزهّار، المصدر السابق، ص. 168 ؛ حمدان خوجة، نفس المصدر السابق، ص. 189.

3. شويتام، **نهاية…**، المرجع السابق، ص ص. 198-199. انظر المنشور الفرنسي الّذي وزّع بالجزائر قبيل الاحتلال في :

- A. Berbrugger & Leclerc, « **La première proclamation adressée par les français aux algériens en 1830** », in : R. A. 6, 1862, pp. 147-156.

- عبد الحميد زوزو، **نصوص و وثائق في تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1900**، د.م.ج.، الجزائر، 2007، ص ص. 24 و 26-28.

انظر أيضًا :

- Plantet, **Correspondance des beys…**, Op. cit., T. 3, pp. 690-691.

4. d'Aubignosc, **Alger. De son occupation depuis la conquête en 1830, jusqu'au moment actuel**, Delaunay, Dentu, Paris, 1836, pp. 15-16 ; A. Nettement, **Histoire de la conquête d'Alger**, Lecoffre Fils et Successeurs, Paris, 1867, pp. 263-264 & 272 ; Plantet, Ibid., p. 698 ; Playfair, **The scourge…**, Op. cit., p. 315.

- Playfair, « **Épisodes…** », Op. cit., 1880, p. 204.

انظر أيضًا : حمداني، المرجع السابق، ص. 160.

بيانات للشعب الجزائري، تملّقه فيها ما وسعه التملّق، و أعطاه وعودًا سيفي له بها في وقتٍ متأخّر ؛ و قال إنّه لم يدفعه إلى هذه الحرب مع فرنسا إلاّ حبّه للشعب و حرصه على رفاهيته، و حتّى لا يستعبد الفرنسيون الجزائر، و لا يتاح لهم أن يعلّقوا صليبهم الكريه فوق بقاع المسلمين المقدّسة"[1].

و ما كان يخشاه الأتراك العثمانيون، و على رأسهم الداي، هو أن يقف الأهالي على الحياد، أي في موقفٍ تسويفي، منتظرين عمّا قد تسفر عنه المواجهة القادمة مع الفرنسيين ؛ و الأكثر من ذلك، أن يسعوا ضدّهم بسبب ما ألحقوه بهم في أزمنةٍ مضت من أذى و إهانة و اضطهاد[2]. و الداي حسين، الّذي لم يخفَ عليه ما يدور في خلد رعاياه، أوعز لأفراد الإنكشارية "**بأنّ يتصرّفوا بتعقّل و فهامة تجاه الأفارقة** (يعني الأهالي) **في هذه المرحلة الدقيقة ؛ و ألاّ يلحقوا بهم أيّة إذاية من شأنها أن تثيرهم، و أن يغضّوا بدورهم الطرف عن بعض الإهانات الّتي قد يتعرّضون لها من قبلهم**"[3]. و هكذا، اضطرّت الظروف القاهرة الداي خلال الأشهر الأخيرة من حكمه إلى أن يعود إلى مبدأ المساواة المطلقة بين الجزائريين، الّذي أقرّه سلفه قبل اثني عشر سنة ؛ و غنيٌّ عن الذكر أنّ هذا الترتيب الجديد لم يرق لبعض الإنكشاريين الوِطانيين لوقتٍ مضى كانوا لا يرتدعون فيه[4].

و رغم أنّ الجنود الإنكشاريين بدت معنوياتهم مرتفعة ظاهريًا من اعتنائهم بأسلحتهم و مواظبتهم على الشعائر و ما إلى ذلك، حسبما يظهر من الوصف التفاؤلي للمفتي الحنفي الحاج محمّد بن محمود عن وضع الجزائر أشهرًا قبل الوقعة في رسالة إلى أحد معارفه بإزمير[5]، فإنّ جماعات واسعة منهم انتابها قلقٌ من مجرى الأحداث : ففيما الأنباء تتوارد عليهم من كلّ جانب عن تضخّم الحملة الفرنسية و قرب خروجها، لم يظهر على الآغا إبراهيم أدنى اكتراث، لعدم خروج نشاطه عن المعتاد ؛ و هو ما اعتبروه جمودية و لا مسؤولية من قبله، بالأخصّ إذا ما قارنوه بالمأسوف عليه يحي آغا الّذي كان محنّكًا و مفعمًا بالنشاط. و بمرور الوقت، تحوّل هذا القلق إلى انهزامية - أو لنقل تسليمًا - لدى البعض[6]، بينما قرّر البعض الآخر

---

1. بفايفر، المصدر السابق، ص ص. 73-74.

2. نفسه، ص ص. 72-73.

- Plantet, **Correspondance des beys…**, Op. cit., T. 3, pp. 695-696 ; M. Rozet, **Voyage dans la régence d'Alger ou description du pays occupé par l'armée française en Afrique**, T. 2, Arthus Bertrand, Paris, 1833, pp. 79 & 283.

3. S. F. Pfeiffer, **The voyages and five years' captivity in Algiers, of doctor G. S. F. Pfeiffer**, Trad. I. Daniel Rupp, John Winebrenner, Harrisburg, 1836, p. 181.

انظر أيضًا : نفسه، ص ص. 73-74. - Michiel, Op. cit., 1876, p. 112.

4. نفسه، ص. 73.

5. **المراسلات العثمانية**، م.و.ج.، مجموعة 3190-1، رقم 117.

6. الزهّار، المصدر السابق، ص ص. 168-169 ؛ بفايفر، نفس المصدر السابق، ص. 72 ؛ حمدان خوجة، المصدر السابق، ص. 189.

التحرّك قبل فوات الأوان. كان الأمر يتعلّق بمجموعة من ستّة و أربعين إنكشاري اجتمعوا بضريح سيدي بنّور عند سفح جبل بوزريعة، حيث اتّفقوا على اغتيال الداي و وزرائه بعد ثلاثة أيّام بضحى عيد الأضحى، و تولية أحدهم دايًا يتولّى التفاوض مع الفرنسيين بأيّ ثمن من أجل وضع حدٍّ للأزمة ؛ و "**أمّا إذا لم ترض حكومة فرنسا بعروضهم، فإنّهم سيفضّلون وضع أنفسهم تحت حماية الإنكليز على الاستسلام للفرنسيين**"[1].

بيد أنّ المؤامرة كشفها وكيل الضريح يومين قبل تنفيذها، في 8 ذي الحجة الّذي وافق 30 مايو، فأمر الداي على الفور بإعدام سبعة من كبار المتورّطين سرًّا[2] ؛ أمّا البقية، فقد أحجم الداي عن قتلهم - حسب الإخباريين المحلّيين - خشية إثارة سخط الإنكشارية في ذلك الظرف المحفوف بالمخاطر، حيث "**تعوّد أن يستقبل كلّ واحد من رعاياه صبيحة هذا اليوم لتهنئته بالعيد و تقبيل يده**"[3] ؛ و فيما يخصّنا، نرجّح أن يكون إنباؤه بلمح طلائع الأسطول الحربي الفرنسي في الأفق آخر أيّام شهر مايو هو ما شغله عن ذلك[4].

و هكذا فشلت مؤامرة سيدي بنّور الّتي اعتبرت إحدى الفرص الأخيرة للمخلَص، مثلما أخفقت قبلها بأيّام قلائل مهمّة چنگل زاده طاهر محمد باشا، الّذي أوفده الباب العالي في أواسط أبريل 1830م لحلّ الأزمة بشكلٍ نهائي ؛ و لو أنّه كان الآخر في سلسلة المبعوثين العثمانيين، فقد تميّز عمّا سبقوه في كونه كرغلي جزائري[5]، كلِّف بأمرٍ سلطاني أن يتوجّه إلى الجزائر بصفته وسيط مفاوضات بين البلدين، و كان مزوّدًا بفرمانٍ ثانٍ و تعليمات سرّية تفوّض له - لمّا تسنح الفرصة – أن يقوم بالإطاحة بالداي و إعدامه، و من ثمّ يمنح فرنسا الترضيات الّتي تطلبها، في إطار مفاوضات مباشرة لإطفاء فتيل

---

1. بفايفر، المصدر السابق، ص. 75. - Pfeiffer, Op. cit., p. 183.

2. الزهّار، المصدر السابق، ص. 169 ؛ الجزائري، **كيف...**، المصدر السابق، ص. 28 ؛ بفايفر، نفسه.

انظر أيضًا : - Playfair, « **Épisodes…** », Op. cit., 1880, p. 204.

3. بفايفر، نفسه. تجدر الإشارة إلى أنّ الداي لم يوفّق في مرماه، إذ "**كان كثير من الناس يجهل سبب قتلهم، و الجناية الّتي همّوا بارتكابها، حتّى نفرت قلوب العساكر من ذلك. و دبّت الوحشة و العداوة فيما بين العساكر و الباشا...**" : الجزائري، نفسه.

4. A. T. Matterer, **Journal de la prise d'Alger, par le capitaine de frégate Matterer 1830**, présenté et commenté par P. Jullien, Éditions de Paris, Paris, 1960, pp. 50-51 ; G. Gautherot, **La conquête d'Alger 1830, d'après les papiers inédits du Maréchal de Bourmont, commandant en chef de l'expédition**, Payot, Paris, 1929, pp. 67-68 ; Desprez, Op. cit., p. 66 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 311. فيما يتعلّق بمسير أسطول الحملة الفرنسية الغامض، انظر أدناه.

5. داون، المرجع السابق، ص. 205 ؛ آرجمنت كوران، **السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر**، ترجمة عبد الجليل التميمي، منشورات الجامعة التونسية، 1970، ص ص. 54-55 ؛ ر. د. أ. ع.، المصدر السابق، ص ص. 158-163. شغل طاهر باشا عدّة مناصب رفيعة في البحرية العثمانية، حيث ترقّى في إدارة الترسانة العامرة بإسطنبول، ثمّ تولّى رتبة لواء بحري (نائب أميرال) في 1827م، و كان أحد قادة الأسطول العثماني في واقعة ناڤارين. انظر : **المراسلات العثمانية**، م.و.ج.، مجموعة 3205-3، رقم 2 و 21 ؛ كوران، نفس المرجع السابق، ص. 49، ه. 24. - Mehmed Süreyya, **Sicill-i Osmanî**, ed. Nuri Akbayar an Seyit Ali Kahraman, vol. 5, Türkiye Ekonomik ve Toplumsal Tarih Vakfı, Istanbul, 1996, p. 1616 ; N. Robin, « **Notes historiques sur la Grande Kabylie (de 1830 à 1838)** », in : R.A. 20, 1876, pp. 54-55.

الحرب[1]. بيد أنّ حسين باي تونس المتواطئ مع الفرنسيين منع طاهر باشا، الّذي وصل العاصمة التونسية على متن فرقاطة عثمانية في 8 مايو، من المرور برًّا إلى الأراضي الجزائرية ؛ و اضطرّه إلى التوجّه إلى الجزائر بحرًا، حيث أوقفته سفن الحصار الفرنسي، و وجّهته إلى طولون تحت حراسة إحدى الفرقاطات. و في الطريق، صادف الأسطول الحربي يوم 26 مايو يومًا بعد خروجه من الميناء المذكور قاصدًا الجزائر، و أدرك حينئذٍ أنّ مسعاه قد خاب[2].

بالرجوع إلى الطرف الفرنسي، الجدير بالذكر أنّ خزينة الدولة الّتي كانت تعاني من عجز مالي ألجأت الحكومة لتغطية نفقات الحملة إلى طرح اكتتاب ابتداءً من منتصف يناير 1830م، بقيمة ثمانين مليون فرنك في شكل سندات بفائدة قدرها 4 %. و من فوائد هذا التمويل، أنّ بنك روثشيلد (Rothschild) الإنكليزي غطّى الاكتتاب بالكامل[3] ؛ و هذا ما ساهم في التخفيف من حدّة معارضة الإنكليز للحملة بعض الشيء، و قصُر منذئذٍ الخلاف مع الحكومة البريطانية حول ما إذا كانت فرنسا ستحتفظ بالجزائر بعد احتلالها أم لا ؟[4].

كانت استعدادات الحملة قد استكملت تقريبًا أواخر شهر أبريل، حيث تركّزت 103 سفينة حربية في ميناء طولون، ناهيك عمّا يقرب من 572 مركب نقل في كلّ من مينائي طولون و مرسيليا، تمّ نول قسمٍ منها من إسبانيا و الدويلات الإيطالية[5] ؛ و كان هذا الأسطول الضخم سيتكفّل بنقل قوّات برّية تعدادها ما لا يقلّ عن 37617 رجل و 4546 حصان و بغل، بالإضافة إلى عددٍ كبير من قطع الأسلحة و المدافع و عتاد الحرب و مختلف المؤن الضرورية. و تمّ الإبقاء على فرقة قوامها 10285 ضابط و جندي احتياطًا في نواحي طولون، و مرسيليا و اكس، تنقل إلى البرّ الإفريقي فقط إن دعت الحاجة إلى تعزيزات[6].

أسنِدت قيادة كلّ من القوّات البرّية و القيادة العامّة للحملة إلى وزير الحربية الكونت دي بورمون (Comte de Bourmont)، و هو ملكي مخلص وضع شارل العاشر كلّ ثقته فيه ؛ فيما اختير لقيادة الأسطول البارون دوپيريه (Baron Duperré)، لكونه اللواء البحري الأكثر كفاءة، رغم معارضته مبدئيًا للحملة بسبب

---

1. Nettement, Op. cit., p. 319 ; Édouard d'Ault-Dumesnil, **De l'expédition d'Afrique en 1830**, Delaunay, Paris, 1832, p. 21, n. 1 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 311.

- كوران، المرجع السابق، ص. 55، ه. 41.

2. زهرة، المرجع السابق، ص ص. 223-224 ؛ كوران، نفس المرجع السابق، ص ص. 59-60، ه. 46 ؛ ابن أبي الضياف، المصدر السابق، 1999، ص ص. 166-167.

- Rousseau, **Annales…**, Op. cit., p. 389 ; Robin, « **Notes…** », Op. cit., p. 55 ; Jacqueton, Op. cit., pp. 131-132.

3. حمداني، المرجع السابق، ص ص. 163 و 337.

4. زهرة، نفس المرجع السابق، ص ص. 234-238 و 244.

- Pellissier de Reynaud, Op. cit., T. 1, 1854, pp. 19-20 ; Gautherot, Op. cit., pp. 31-35.

5. Nettement, Ibid., pp. 253-255.

- زهرة، نفس المرجع السابق، ص ص. 239-241 ؛ حمداني، نفس المرجع السابق، ص. 163.

6. Gautherot, Ibid, pp. 46, 49 & 55 ; Perrot, Op. cit., p. 42 ; Rozet, **Relation…**, Op. cit., pp. 12-33 & 50-51.

ميوله الليبرالية. و لنتبيّن مدى ثقة الملك في دوبيريه، تكفي معرفة أنّه زوّد دي بورمون بأمر سرّي يخوّله قيادة البحرية، إن صدر عن الأوّل أمرٌ ينافي المصالح الّتي تنتظرها فرنسا من هذه الحملة[1].

و في الواقع، استطاع دوبيريه أن يفسد حسابات الحزب الملكي الّذي عقد آمالاً على حملة الجزائر ليميل الكفّة لصالحه في انتخابات 23 يونيو و 3 يوليو : فالحملة الّتي كانت من المفروض أن تقلع مطلع مايو نحو الضفّة الجنوبية للمتوّسط، تأجّل خروجها إلى يوم 25 من الشهر المذكور كونها رهن إشارة الأميرال، بسبب انتظار وصول بارجتين و فرقاطتين من موانئ الأطلسي، ثمّ تأخّر استلام كوابل حديدية من إنكلترا، و أخيرًا الأحوال الجوّية غير المؤاتية ؛ كما جزم البعض، بناءًا على تصرّفه المشبوه خلال الحملة، أنّه كان على علمٍ مسبق بالدسائس الّتي كانت ستفضي إلى ثورة يوليو، على اعتبار مشايعته للحزب الأورلياني الّذي سيرفع لويس فليپ إلى العرش، و ترقيته إلى وزير البحرية في نوفمبر من نفس السنة[2].

فرضت ضخامة أسطول الحملة ضرورة تقسيمه إلى ثلاثة أقسام : الأسطول الحربي في طولون، و قافلة مراكب الإنزال مع موكب نقل العتاد و المؤن في مرسيليا ؛ و أمر الأميرال لأسباب تنظيمية أن تخرج القافلة يوم 18 مايو و تتوجّه إلى نقطة الملتقى في خليج پالما بجزيرة ميورقة، من أجل انتظار بقية الأسطول[3] ؛ و كما سبق ذكره، تأخّر خروج الأسطول الحربي حتّى 25 مايو، و تلاه الموكب الّذي تدرّج خروج معظم مراكبه اليومين التاليين[4]. و رغم بطء التحرّك، وصلت مجمل قطع الأسطول الفرنسي قرب رأس الخشين (Cap Caxine) في صبيحة يوم 31 مايو، و كان من المفترض أن تصل إلى وجهتها قبالة سيدي فرج اليوم التالي ؛ غير أنّ الأميرال دوبيريه ارتأى أنّ حالة البحر ستعيق عمليات الإنزال، و اتّخذ قرارًا مفاجئًا بالانعطاف شمالاً و الرجوع بالأسطول إلى ميورقة للاحتماء، ريثما يتحسّن الطقس[5].

كانت هذه الخطوة الاحترازية في الواقع تندرج ضمن الخطّة التسويفية، الّتي اتّبعها دوبيريه منذ جهوز الحملة للأسباب المذكورة أعلاه ؛ غير أنّه سيكون لتلك الخطوة بالذات أبلغ أثر في إمالة كفّة

---

1. Chennechot, Op. cit., pp. 8-9 ; d'Ault-Dumesnil, Op. cit., p. 8 ; Gautherot, Op. cit., pp. 26-28 & 68-72 ; Desprez, Op. cit., p. 67 ; Gabriel Esquer, **Les commencements d'un empire. La prise d'Alger (1830)**, L'Afrique latine, Alger, 1923, p. 234 ; Théodore de Quatrebarbes, **Souvenirs de la campagne d'Afrique**, 2e éd., G.-A. Dentu, Paris, 1831, pp. 3-4.

2. Gautherot, Ibid., p. 70 ; Desprez, Ibid., pp. 57-59 ; Nettement, Op. cit., p. 253 & 310-313 ; Rozet, **Relation…**, Op. cit., pp. 49 & 66 ; Merle, Op. cit., pp. 269-270. - حمداني، المرجع السابق، ص. 193.

3. Nettement, Ibid., pp 315-316 & 320 ; d'Ault-Dumesnil, Op. cit., p. 18.

4. Matterer, Op. cit., pp. 35-38 ; Perrot, Op. cit., p. 89 ; Réveillé de Beauregard, **1830. Relation des évènements se rapportant à l'expédition d'Alger observés et décrits jour par jour à bord du brick l'Alerte**, Imprimerie J. Nicot, Aix, 1890, p. 12.

5. Pellissier de Reynaud, Op. cit., T. 1, 1854, p. 32 ; Matterer, Ibid., pp. 51-52 ; Réveillé de Beauregard, Ibid., pp. 13-14 ; d'Ault-Dumesnil, Ibid., pp. 22-23 ; Merle, Ibid., pp. 56-58 ; Jacqueton, Op. cit., p. 134 ; Rozet, Ibid., pp. 78-82 & 96-97.

النصر كما سنرى لاحقًا ؛ و ذلك لأنّ عددًا معتبرًا من مراكب النقل الّتي خرجت يوم 27 مايو، كانت قد شتّتها العاصفة بحيث فوّتت الالتحاق بالأسطول عند پالما، فخرجت في أثره متّجهة صوب الساحل الجزائري. و فيما كان الأسطول عائدًا أدراجه، مرّت تلك المراكب على مقربة منه ليلة 1 يونيو، لكنّها لم تلمحه لانعدام الرؤية بسبب سوء الأحوال الجوّية ؛ و لمّا لم تجد المراكب المتخلّفة الأسطول في طريقها، قامت بالتوجّه تلقائيًا غرب رأس الخشين[1]. بالنسبة للجزائريين، المائة مركب إنزال و نقل الّتي تموقعت خلال الفترة من 1 إلى 5 يونيو في عرض البحر قبالة شبه جزيرة سيدي فرج، كانت تمثّل بلا أدنى شكّ طلائع أسطول العدو ؛ و عليه، سارع الداي إلى استنفار قوّات البايات و النواحي لتقدم إلى الجزائر[2].

كان الحاج أحمد باي أوّل الواصلين على رأس قوّاته البالغ عددها حوالي ثلاثة عشر ألف رجلاً - ما يربو عن ثلاثة آلاف منهم من فرسان المخزن - في يوم 7 يونيو ؛ و مثلما فعل سلفه صالح باي قبل خمسة و خمسين سنة ساق معه ما لا يقل عن ألفي جمل، كي يستخدمها في صدّ الإنزال الفرنسي[3]. و بعد أن أقام معسكره في وقت أوّل قرب ضفّة وادي الحرّاش، ذهب لملاقاة الداي و أداء الدنّوش المقرّر في قصر القصبة[4]. و بعد يومين، وصل بومزراق، الّذي حمل هو الآخر معه الدنّوش ؛ لكنّ قوّاته كانت أقلّ بكثير عن نظيره الشرقي، حيث قدّرناها ما بين ألفين و ثلاثة آلاف رجل بحسب إمكانيات الإقليم الضعيفة[5]. و في نفس اليوم، أي 9 يونيو، قدم بن عودة بورسالي خليفة باي الغرب على رأس قوّة مخزنية صغيرة قدرها ألف و مائتي رجل لا غير ؛ و كان قد حضر إلى الجزائر خلال الفترة من 13 إلى 19 مايو لدفع الدنّوش الصغير[6].

---

1. Pellissier de Reynaud, Op. cit., T. 1, 1854, p. 32 ; Matterer, Op. cit., pp. 51-52 & 58-60 ; Nettement, Op. cit., p. 323 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., pp. 311-312 ; Auguste Pétiet, **Souvenirs militaires de l'histoire contemporaine**, Dumaine & Martinon, Paris, 1844, pp. 294-296 ; Jacqueton, Op. cit., pp. 134-135.

- حمداني، المرجع السابق، ص. 194.

2. Berthézène, Op. cit., pp. 55-56 ; Nettement, Ibid., p. 326 ; Gautherot, Op. cit., pp. 72-73 ; Merle, Op. cit., p. 58 ; Gaudin, Op. cit., pp. 13-14 ; Pellissier de Reynaud, Ibid., pp. 32-33 ; Robin, « **Notes…** », Op. cit., pp. 46-47 ; A. Lomon, **Captivité de l'amiral Bonard et de l'amiral Bruat**, Librairie Claye, Paris, 1863, p. 36.

انظر أيضًا : بن العنتري، **فريدة…**، المصدر السابق، ص. 117 ؛ المزاري، المصدر السابق، ج. 2، ص. 83.

3. Playfair, « **Épisodes…** », Op. cit., 1880, p. 205 ; Plantet, **Correspondance des beys…**, Op. cit., T. 3, pp. 688-689, n. 1 ; Matterer, Ibid., pp. 63-64 ; Gautherot, Ibid., pp. 72-74 ; Jacqueton, Ibid., pp. 136 & 140 ; Féraud, « **La prise…** », Op. cit., p. 72.

الجدير بالذكر أنّ الباي كان قد استبقى - بأمر من الداي - على بضعة آلافٍ من المقاتلين لحماية ثغر عنّابة من إنزال فرنسي أو مصري مفترض : - Juchereau de Saint-Denys, Op. cit., p. 166.

- أحمد باي، المصدر السابق، ص. 11 ؛ الزهّار، المصدر السابق، ص. 171 ؛ حمدان خوجة، المصدر السابق، ص. 187.

4. Mercier, **Histoire de Constantine**, Op. cit., p. 383 ; Robin, Ibid., pp. 50-51.

- أحمد باي، نفسه ؛ الزهّار، نفسه.

5. الزهّار، نفس المصدر السابق، ص. 172.

- Gautherot, Ibid. ; Playfair, Ibid.

6. Caporal, Op. cit., p. 134 ; Fey, Op. cit., p. 312 ; Gautherot, Ibid. ; Playfair, Ibid. ; Esterhazy, **De la domination…**, Op. cit., p. 226 ; **Registre du beylik**, A.O.M., 15MI-12, n° 4, fol. 148v°.

الحال أنّ إقلاع المراكب الفرنسية الّتي كانت راسية غير بعيدٍ من سيدي فرج يومي 4 و 5 يونيو، بعد أن استدعاها دوبيريه للالتحاق بالأسطول المتجمّع قبالة پالما، وضع القيادة الجزائرية في حيرة بادئ الأمر، سرعان ما حلّت محلّها قناعةٌ و حبور بأنّ الفرنسيين تراجعوا - خشيةً أو لسببٍ آخر - عن حملتهم[1]. و عليه، عجّل الداي - نزولاً عند نصيحة الخزناجي و الآغا - بإصدار أمر للبايات و شيوخ القبائل بصرف التعزيزات الّتي أحضروها، ففضّت المعسكرات الثلاث الّتي أقيمت قرب سيدي فرج، و برج مولاي حسن، و مصبّ الحرّاش ؛ كما أرسل في الأنحاء بإبطال التعبئة لزوال الخطر الداهم حسب زعمه، لكنّه احترازًا أبقى على حالة الاستنفار على طول النقاط المهمّة للساحل الجزائري. و امتثالاً، ريثما ينهي عملية الدنّوش الّتي تدوم أسبوعًا، لم يُبق الحاج أحمد باي إلاّ على خمسمائة فارس و أربعمائة راجل، و هي القوّة الّتي تشكّل موكب التدنيش في الأزمنة العادية ؛ و كذلك فعل الباي بومزراق، الّذي احتفظ بعدد ضئيل من الفرسان. و فيما يخصّ الخليفة بن عودة، فإنّه عاد أدراجه بالقوّات الّتي معه باتّجاه وهران للمرّة الثانية في ظرف شهر[2].

أمّا آلاف القبائليين الّذين بدأوا يتقاطرون على متيجة، فتمّ إفهامهم بأنّه لم تعد هناك حاجةٌ إلى خدماتهم، و تمّ صرفهم دون أن يتلقوا أدنى إعانة على عنائهم. و عن هذا التصرّف الارتجالي و غير المسؤول من قبل حسين، ذكر شريف الزهّار بأنّ "**الباشا نائم، كأنّه لم يكن عنده عدو، حتّى أنّ العساكر الّذين عنده خرجوا في محلّة الشرق**"[3]، و يكون خروج هذه المحلّة قد تمّ على الأرجح يوم 10 يونيو[4].

و هكذا، في الوقت الّذي أمر الأميرال دوبيريه أخيرًا قِطع الأسطول الفرنسي بالتحرّك تجاه الجزائر، أسقط الجزائريون درعهم غير واعين بما تخبّئه لهم الأيّام المقبلة، بينما بقي ثغر سيدي فرج - و البلد ككلّ - مكشوفًا في ظلّ تهاون الآغا إبراهيم عن تحصينه[5] ؛ و هنا يمكن أن نفهم لما لم يصدّق الداي و وزراؤه

تجدر الإشارة إلى أنّ حسن باي بقي مع معظم قوّات البايلك في تليلات - 20 كيلومتر جنوب شرق وهران - لحماية الثغور الساحلية (مستغانم، أرزيو و مرسى الكبير)، الّتي أوهم الفرنسيون بأنّ حملتهم العسكرية ستستهدفها أيضًا : Caporal, Ibid. -

انظر أيضًا : الوهراني، المصدر السابق، ص. 36. - [Boutin], **Reconnaissance…**, Op. cit., p. 46.

1. انظر بهذا الخصوص دفتر خوجة الخيل، ذو الرقم القديم 13 : **Registre du beylik**, A.O.M., 15MI-53, n° 237, fol. 80v°. -

2. الزهّار، المصدر السابق، ص. 171 ؛ أحمد باي، المصدر السابق، ص. 11 ؛ بوعزّة بوضرساية، **الحاج أحمد باي، رجل دولةٍ و مقاوم (1826-1848)**، ماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر، جامعة الجزائر، 1991، ص. 104.

- Pellissier de Reynaud, Op. cit., T. 1, 1854, p. 38 ; Hubert Lauvergne, **Histoire de l'expédition d'Afrique en 1830**, Imprimerie de Baume, Toulon, 1831, p. 168 ; Jacqueton, Op. cit., p. 137.

3. الزهّار، نفسه.

4. أمّا محلّة الغرب، فكانت قد خرجت قبل قرابة شهر (الثلاثاء 17 ذو القعدة الموافق لـ 11 مايو)، وفق الروزنامة المدرجة في أحد سجلات البايلك : **Registre du beylik**, A.O.M., 15MI-12, n° 4, fol. 148v°. -

5. Lauvergne, Ibid., pp. 18-19 & 28 ; Galibert, Op. cit., p. 282 ; Pétiet, Op. cit., p. 298 ; M. Fernel, **Campagne d'Afrique en 1830**, 2ème éd., Théophile Barrois Père et Benjamin Duprat, Paris, 1831, p. 31. - حمدان خوجة، المصدر السابق، ص ص. 188-190.

خبر رؤية قسمٍ من أسطول العدو عند غروب يوم 12 يونيو، كما نتصوّر مدى دهشتهم اليوم التالي عندما مخرت المئات من قطع ذاك الأسطول بخُيلاء أمام ناظريهم، و مرّت قدّام مدينة الجزائر[1].

و في المجلس الحربي الّذي عقده القادة الجزائريون على عجل عشية 13 يونيو بالمرتفعات المطلّة على سيدي فرج، فرض الآغا رأيه - بحسب رواية أحمد باي - بمجابهة الإنزال، الّذي بدا أنّ الفرنسيين سيقومون به اليوم التالي، بقوّات هزيلة في عداد الآلاف فقط، و بطّارية مدفعية نصبت خلف متراس ترابي[2].

و لم يلق الفرنسيون خلال عملية الإنزال الّتي انطلقت فجر 14 يونيو مقاومة جدّية تذكر، حيث تمكّنوا من نقل عشرين ألف جندي إلى البرّ مع منتصف النهار، و ارتفع ذاك العدد إلى أزيد من ثلاثين ألفًا بحلول عشيّة ذاك اليوم ؛ و لم تسفر المناوشات أو القذائف المعدودة الّتي أطلقها الجزائريون، إلاّ في وقوع أربعة و ثلاثين قتيلاً و مائة و ثمانية و عشرين جريحًا من الجانب الفرنسي. أمّا الجانب الجزائري، فعدا خسارته لثلاثة عشر مدفعًا و مدفعي هاون، فإنّ عدد قتلاه و جرحاه بلغ الثلاثمائة. و دون تضييع وقت، اتّخذ الفرنسيون من ضريح سيدي فرج مركزًا للقيادة، و باشروا في إقامة معسكر محصّن على أرض شبه الجزيرة أحاطوه بسلسلة من المتاريس و الخنادق، فيما واصلوا إنزال الذخائر و العتاد و المؤن الضرورية[3].

---

1. Playfair, « **Épisodes…** », Op. cit., 1880, p. 205 ; Michiel, Op. cit., 1876, pp. 114-115 ; Gautherot, Op. cit., pp. 75-76 ; Perrot, Op. cit., pp. 92-93 ; Matterer, Op. cit., pp. 73-74 ; de Quatrebarbes, Op. cit., p. 31 ; Lomon, Op. cit., p. 169 ; Paul-Auguste Allut, « **Expédition contre Alger (1830)** », in : Carnet de la Sabretache, Vol. 10, 1902, pp. 160-161.

- الزهّار، المصدر السابق، ص. 171 ؛ بفايفر، المصدر السابق، ص. 76.

تجدر الإشارة إلى أنّ الأميرال دوبيريه همّ صبيحة 12 يونيو بتغيير اتّجاه الأسطول شمالاً مجدّدًا متذرّعًا بسوء حالة البحر، لكنّ دي بورمون بصفته القائد الأعلى تدخّل و ثناه عن المضي، فيما اعتبر نيّة مبيّتة لإفشال الحملة : - Gaudin, Op. cit., p. 15.

2. أحمد باي، المصدر السابق، ص ص. 12-15 ؛ بفايفر، نفس المصدر السابق، ص ص. 76-77.

انظر أيضًا : حمدان خوجة، المصدر السابق، ص ص. 190-191 ؛ الجزائري، **كيف...**، المصدر السابق، ص ص. 28-29.

- Berthézène, Op. cit., pp. 279-280 ; Desprez, Op. cit., pp. 74-77 ; Fernel, Op. cit., p. 32.

و كان باي التيطري مصطفى بومزراق قد تغيّب عن حضور ذاك المجلس، على الأرجح بسبب إيابه إلى بايلكه لإحضار تعزيزات ؛ و الدليل على ذلك أنّ إبراهيم آغا لا يشير إلاّ لوجود باي واحدٍ إلى جانبه (أحمد باي)، في رسالة مؤرّخة في صبيحة 26 ذو الحجّة 1245هـ/18 يونيو 1830م : **المراسلات العثمانية**، م.و.ج.، مجموعة 3190-3، رقم 356. انظر أيضًا : حمدان خوجة، نفسه.

انظر فيما يخصّ المدفعية الجزائرية المستخدمة في أسطه والي : خليفة حمّاش، "**انهزام العثمانيين في فيينا عام 1683م و في أوسطه والي عام 1830م، بين رؤية المؤرّخين و الواقع**"، في : م.ت.ع.د.ع. 50، 2014، ص ص. 36-37. - Rozet, **Relation…**, Op. cit., p. 109.

3. Matterer, Ibid., pp. 83-87 ; Lauvergne, Op. cit., pp. 19-20, 24-27 & 79 ; Pellissier de Reynaud, Op. cit., T. 1, 1854, pp. 35-37 ; Gaudin, Op. cit., pp. 18-21 ; Playfair, Ibid. ; Perrot, Op. cit., pp. 101-102 ; Chennechot, Op. cit., pp. 11-13 ; Gautherot, Ibid., pp. 79-82 ; Berthézène, Ibid., pp. 68-75 & 281 ; Merle, Op. cit., pp. 84-89 ; Galibert, Op. cit., pp. 282-285 ; Bartillat, **Relation…**, Op. cit., p. 65 ; Juchereau de Saint-Denys, Op. cit., p. 170 ; Rozet, Ibid., pp. 115-122 ; Réveillé de Beauregard, Op. cit., pp. 18-20 ; Allut, Ibid., pp. 162-164 ; Villeneuve-Bargemon, « **L'expédition d'Alger vue par un marin** », in : Carnet de la Sabretache, Vol. 3, 1930, pp. 338-341.

2-1-2. 19 يونيو : معركة أسطه والي المصيرية

كان الداي حسين قد أمر صهره إبراهيم بالارتداد إلى هضبة أسطه والي، الّتي تحدّ سيدي فرج من جهة الشرق و تنيف عليها، و إقامة معسكره هناك ؛ كما أمره بأن لا يهاجم الفرنسيين، حتّى تتعزّز قوّاته بما يكفي من المدد[1]. و في هذا الصدد، أرسل وراء محلّة الشرق الّتي خرجت قبل أربعة أيّام يأمرها بالرجوع على الفور إلى الجزائر ؛ و كذلك بعث استدعاءً مماثلاً لآغا و ديوان محلّة الغرب، بيد أنّ هذه المحلّة ستستغرق عودتها أكثر من أسبوع لخروجها المبكّر، و ستفوّت بالتالي المعركة الحقيقية الأولى[2]. أمّا محلّة التيطري الصغيرة الّتي كانت تتأهّب للتوجّه إلى البايلك المذكور عندما ظهر الأسطول الفرنسي، فقد أرسلت مباشرةً إلى أسطه والي يوم 14 أو 15 يونيو[3].

بحسب إفادة ضابط صفّ (أوده باشي؟) من الإنكشارية وقع أسيرًا بيد الفرنسيين خلال معركة 14 يونيو الصغيرة، كانت القوّات الجزائرية المتوفّرة حينئذٍ في مدينة الجزائر و نواحيها يبلغ تعدادها أربعة عشر ألف من جنود الإنكشارية و الزواوة و فرسان المخزن و المتطوّعة و غيرهم[4] ؛ و كان قائد الجيش الجزائري الآغا إبراهيم "**ينضمّ إليه في كلّ يوم بضعة آلاف من العرب و القبائل**"[5]، على أنّ أكبر نسبة منهم

- الزهّار، نفسه ؛ شويتام، **نهاية...**، المرجع السابق، ص ص. 199-200.

1. بفايفر، المصدر السابق، ص. 77.

2. الزهّار، المصدر السابق، ص. 172. انظر أيضًا : - Berthézène, Op. cit., p. 281.

3. **المراسلات العثمانية**، م.و.ج.، مجموعة 3190-1، رقم 356.

4. Chennechot, Op. cit., p. 11.

5. بفايفر، نفسه. انظر أيضًا : **المراسلات العثمانية**، م.و.ج.، مجموعة 3190-1، رقم 357.

رغم المدد المتواصل الّذي كان يصل معسكر أسطه والي يوميًا، فإنّ القائد العامّ دي بورمون قدّر عدد الجزائريين بعشرة أو أحد عشرة ألف رجل على الأكثر يوم 17 يونيو، ثلثيهم تقريبًا من الخيّالة : - Chennechot, Ibid., pp. 14-15.

لكن من الواضح أنّ هذا التقدير المتدنيّ كان الغرض منه التقليل من شأن القوّة العددية للخصم ؛ إذ يوجد تقدير لضابط فرنسي آخر في ذات اليوم ذكر أنّ "البدو" (يعني الجزائريين) بلغ عددهم عشرون ألفًا، و هو تقديرٌ واقعي أكثر مصداقية : - Matterer, Op. cit., p. 94.

و في نفس الصدد، سنرى أغلب الفرنسيين بعد انتصارهم في معركة 19 يونيو يتحرّون المبالغة في تقدير للجيش الجزائري الّذي بلغ تعداده وفق ما أوردوه في كتاباتهم إلى أربعين أو خمسين ألفًا، و حتّى ستّين ألفًا بالنسبة لبعض النبهاء منهم ؛ و كلّ ذلك، فقط ليعظّموا من حجم انتصارهم على الجزائريين و يتمادحوا على ذلك :

- Chennechot, Ibid., p. 15 ; Lauvergne, Op. cit., pp. 43 & 79 ; Pétiet, Op. cit., p. 308 ; Camille Rousset, **La conquête d'Alger**, E. Plon et Cie, Paris, 1879, p. 135.

صحيح أنّ بفايفر ذكر، من جهته، أنّه وصل "**باي قسنطينة إلى سطح الولي**(كذا) **مع حوالي إثني عشر ألفًا، و باي تيطري مع ثمانية آلاف، و خليفته ثلاثة آلاف، و خليفة باي وهران ستّة آلاف و شيوخ القبائل ما بين الستّة عشر و الثمانية عشر ألفًا، و أمين الميزابيين مع حوالي أربعة آلاف ؛ و بذلك أصبح الجيش الجزائري، بإضافة حرس الآغا أفندي و سكّان الجزائر الّذين تواصلوا إلى المعسكر** [في] **دفعاتٍ كبيرة، يضمّ خمسين ألف رجل على الأقلّ. و الحقيقة أنّ كلاً من الداي و الآغا أفندي يجهل مقدار القوّات الجزائرية المحاربة**" : بفايفر، نفسه.

شكلّها القبائليون، و في مقدّمتهم الفليسيون و حلفاؤهم الأشدّاء، و يليهم سكّان متيجة الّذين، باستثناء قبائل حجّوط المخزنية، كان معظمهم - استنادًا إلى وصف حمدان خوجة التهكّمي بشأنهم - مزارعين مسالمين لم يخبروا الحرب أو يسبق لهم أن رفعوا راية التمرّد من قبل[1].

على أنّ هذا الترتيب سينقلب جرّاء حادث مأساوي سرد سيمون پفايفر فصوله و عواقبه الوخيمة، الّتي لم تقدّر في حينها : فخلال الهجمات الخاطفة الّتي كان يقوم بها الجزائريون باستمرار ضدّ المراكز المتقدّمة للفرنسيين بسيدي فرج، حدث صباح 18 يونيو أن "**قتل انكشاري قبائليًا من الجند كان معه في دغل، و قطع رأسه ليأخذ عليه جائزة من الداي، ظانًّا أنّه لم يره أحد ؛ إلاّ أنّ صديقًا للقتيل كان مختفيًا خلف صخرة، رأى ما فعل الإنكشاري بصديقه. و عندئذٍ، أقبل القبائليون نحو الإنكشاري يريدون قتله، و لكن جمعًا من الإنكشارية حالوا بينهم و بينه. و إزاء تصميم القبائليين على الأخذ بالثأر ممّن قتل صديقهم في الحال، حاول الأتراك جهدهم تهدئتهم ؛ و حين رأوا عناد القبائليين و إصرارهم على الانتقام، اقترحوا عليهم حمل القاتل إلى الآغا افندي، ليعدم على الأقلّ كما جرت العادة التركية في ذلك. فارتضى القبائليون هذا الاقتراح، شريطة أن يقتادوه بأنفسهم إلى الوزير**"[2].

و رغم أنّ الإنكشاريين أقرّوا بحدوث جريمة موجبة للقصاص، إلاّ أنّ إبراهيم آغا تبنّى ذريعة المجرم الّذي قال أنّه قتل القبائلي خطأً، "**إذ ظنّه فرنسيًا لدى رؤية رأسه العارية و شعره الطويل**"[3] ؛ و لم يكتف الآغا بهذا العمل غير الجدير بقائد عسكري، إذ أرسل الإنكشاري تحت الحراسة إلى العاصمة ليحميه من

بيد أنّه في الواقع، الآغا و كذا الخزناجي - الّذي استقى طبيبه الأسير پفايفر منه مباشرة أو من محيطه كلّ تلك الأرقام -، لم يكونا ليجهلا تعداد القوّات الجزائرية، بل نعتقد أنّهما أخفوا حقيقة بطء التعبئة على الداي خشيةً، كونهما هما من أشارا عليه قبل عشرة أيّام فقط بتسريح القوّات الّتي اجتمعت إثر الإنذار الأوّل... الخاطئ. و يسهل تصحيح معظم الأرقام الّتي أوردها پفايفر، ففيما يخصّ باي قسنطينة، كان بحوزته تسعمائة رجل - علمًا أنّ الباي لا يتذكّر سوى اصطحابه لأربعمائة فارس أو أقلّ -، و ربّما ارتفع هذا الرقم إلى ألف و مائتين بما قدم من بايلكه من متطوّعين ؛ و باي التيطري "**لم يكن معه أكثر من ألف فارس**" بشهادة حمدان خوجة ؛ أما الخليفة بن عودة، فرافقه مئات المخازنية - ألف و مائتين حسب فاي - ؛ كما أنّ الأربعة آلاف ميزابي المذكورين لا وجود لهم، إذ كانت هذه الفئة البرّانية يعدّ أفرادها بالمئات في مدينة الجزائر. قصارى القول، معظم تلك الأرقام ضوعفت عشرة مرّات، و هو ما يعزّز الطرح الّذي افترضناه آنفًا.

انظر في هذا الصدد : بفايفر، نفسه ؛ أحمد باي، المصدر السابق، ص. 11 ؛ حمدان خوجة، المصدر السابق، ص. 191 ؛ محرز، المرجع السابق، ص. 153. - Fey, Op. cit., p. 132 ; Robin, « **Notes…** », Op. cit., pp. 48-50 ; Galibert, Op. cit., p. 349.

و نفس المبالغة استشفّها القنصل الإنكليزي ر. و. سانت جون (R. W. Saint John) بتاريخ 17 يونيو 1830م بخصوص "**حشد من العرب و القبائليين، الّذين نزلوا هذا الصباح من الجبال، لمهاجمة الفرنسيين. يقال أنّ عددهم يبلغ 26.000 ؛ لكن، وفق جميع الاحتمالات، هذا الرقم مبالغٌ فيه بنسبة الثلاثة أرباع.**" : - Playfair, « **Épisodes…** », Op. cit., 1880, p. 205.

1. حمدان خوجة، المصدر السابق، ص ص. 190-191. انظر أيضًا : الزهّار، المرجع السابق، ص. 171.

2. بفايفر، المصدر السابق، ص. 78.

- S. F. Pfeiffer, **Meine Reisen und meine fünfjährige Gefangenschaft in Algier**, Ricker, Giessen, 1834, pp. 196-197.

3. نفسه، ص ص. 78-79.

انتقامهم، و راح يوبّخهم قائلاً "**أنّهم يستحقّون أن يقتلوا سهوًا، ما داموا لا يرتدون العمامة مثل باقي المسلمين**"[1]. طفح كيل القبائليين من كلّ ذلك الضيم، لا سيّما أنّ الآغا و مرؤوسيه لم يكونوا يمنحونهم من الأكل و من الذخيرة إلاّ ما قلّ ؛ فقرّر قسمٌ معتبرٌ منهم في حدود الساعة الحادية عشر الانسحاب من المعسكر، حيث سار بعضهم باتّجاه سيدي فرج كأنّهم سينازلون الفرنسيين، و من ثمّ انعطفوا شرقًا للعودة إلى مواطنهم، و بقيتهم أخذوا طريق العاصمة مخترقين فحوصها الجنوبية. حينئذٍ أرسل الباي مصطفى بومزراق و قايد سباو مصطفى بوكرش وراءهم بعض رجالهم، و كذلك سعى بعض ضبّاط الإنكشارية ليثنوهم عن قرارهم ؛ لكنّ المنسحبين رفضوا بإباء، و قد جرحت كرامتهم بتلك الطريقة الشائنة[2].

أرسل الداي حسين، الّذي أُخطر بتلك الحركة غير الاعتيادية و المقلقة، كوكبة من الفرسان إلى قنطرة الحرّاش، الّذي كان يمثّل المعبر الوحيد لتلك الجموع المتقهقرة ؛ و ذلك بقصد اعتراض طريقها و محاولة اقناعها على الرجوع إلى معسكر أسطه والي. أفلحت الوعود الّتي بذلت بأن ينظر الداي شخصيًا لمطالبهم و المؤن الّتي زوّدوا بها من مخازن برج القنطرة[3] في حمل قسمٍ من القبائليين أخيرًا على قبول العودة، غير أنّ الآوان كان قد فات، حيث سيفوّتون معامع معركة الغدّ، و لن يحضروا إلاّ ليشهدوا ساعة اندحار جيش الإيالة[4].

قبل انسحاب أولئك القبائليين، كان تعداد القوّات الجزائرية قد وصل إلى أقصاه ؛ و إثره تراجع إلى ما بين خمسة و عشرين و ثلاثين ألف رجل[5]. و لا يبدو أنّ الآغا إبراهيم كان يأبه لخسارته أولئك

---

1. بفايفر، المصدر السابق، ص. 79.

2. **المراسلات العثمانية**، م.و.ج.، مجموعة 3190-1، رقم 357 ؛ حمدان خوجة، المصدر السابق، ص ص. 191-192 ؛ الزهّار، المصدر السابق، ص. 173 ؛ بفايفر، نفس المصدر السابق، ص. 80. - Berthézène, Op. cit., p. 281 ; Robin, « **Notes…** », Op. cit., pp. 51-53 & 82, n. 2.

3. برج القنطرة أو برج الحرّاش، عبارة عن موقع محصّن للصبايحية أقيم قرب قنطرة الحرّاش، كان مربّع الشكل - و منه استوحي اسمه الفرنسي (Maison-carrée) خلال الفترة الاستعمارية -، و ضمّ اسطبلات و مخازن و قاعات إيواء. يعود بناؤه على الأرجح إلى القرن السابع عشر، و أعيد ترميمه بالكامل في سنة 1824م من قبل يحي آغا ؛ و لأجل ذلك عرف أيضًا ببرج الآغا :

- Ali Khelassi, **Constructions militaires ottomanes de la ville d'Alger**, Musée central de l'armée, Alger, 1985, pp. 110-111.

4. حمدان خوجة، نفس المصدر السابق، ص. 192 ؛ الزهّار، نفسه ؛ بفايفر، نفسه.

- Robin, « **Notes…** », Op. cit., p. 83 ; Michiel, Op. cit., 1876, p. 118 ; Sidy Hamdan-ben-Othman Khoja, **Aperçu historique et statistique sur la régence d'Alger, intitulé en arabe "Le Miroir"**, Trad. de l'arabe par H[assuna] D[eghiès], T. 1, Imprimerie de Gœtschy Fils et C[ie], Paris, 1833, p. 179.

5. Anonyme, **La conquête d'Alger, racontée par un sergent des zouaves**, Librairie populaire des villes et des campagnes, Paris, 1850, p. 38 ; Pierre Grandchamp, « **La chute d'Alger (1830), d'après une relation du consul sarde** », in : R. T. 1935, p. 239 ; Playfair, « **Épisodes…** », Op. cit., 1880, p. 205 ; Galibert, Op. cit., p. 290 ; Péchot, Op. cit., p. 149 ; Rozet, **Relation…**, Op. cit., p. 142. - التميمي، **بحوث…**، المرجع السابق، ص. 125.

المقاتلين المشاة المتمرّسين، فلم يغيّر خططه المتعلّقة بتحديد اليوم التالي (السبت 19 يونيو) موعدًا للمعركة الحاسمة ضدّ الفرنسيين[1].

و المفارقة الّتي تستلفت الانتباه أنّه رغم جميع النقائص الّتي اتّصف بها الآغا كرجل حرب، و الّتي تجعلنا نتّفق مع المصادر التاريخية على اعتباره قائدًا قليل الكفاءة[2] ؛ إلاّ أنّ الخطّة العسكرية الّتي اختمرت في ذهنه يوم الإنزال، و ضبطها إثر جولة استطلاعية على مشارف المعسكر الفرنسي يوم 17 يونيو كانت محكمة على المستوى الاحترابي، و احتمالات نجاحها نسبيًا عالية. فقد لاحظ إبراهيم بنباهة أنّ الفرنسيين عند إقامتهم لمعسكرهم بشبه الجزيرة و تموقع وحدات جيشهم خارجه تركوا ثغرتين، حيث أهملوا الشاطئ الرملي و شريط محاذٍ له يبلغ عرضهما الكلي أزيد من أربعمئة متر من جهة الشمال الشرقي، و مجرى وادي بريجة على امتداد ثمانمائة متر حتّى مصبّه من جهة الجنوب ؛ و تمثّلت خطّته في هجوم التفافي يقوم به الإنكشارية من جهة ميسرة الفرنسيين و آخر يتولاّه الفرسان وراء ميمنتهم ينتهي بفصلهم عن معسكرهم الرئيسي بشبه الجزيرة و تطويقهم، فيما تتولىّ قطعة من ميسرة الجزائريين و كذا القلب - الّذي نصبت فيه قطع المدفعية - بإشغال القوّات الفرنسية المواجهة لها، ريثما تُستكمل الحركة التطويقية و يطبق عليها[3].

بيد أنّ هذه الخطّة الطموحة لن يكتب لها النجاح، و لم يكن ذلك عائد بالأساس لقصور الآغا في تنفيذها، بل في الحقيقة إلى حدوث أكثر من خيانة في معسكره، حيث سرّبت معلومات حاسمة إلى الفرنسيين ليلة 19 يونيو الّتي سبقت الهجوم الجزائري[4]. و نستشفّ من روايات الضبّاط الفرنسيين أنّ أخطر التسريبات جاءت عن مصدرين، أحدهما شخصٌ يدعى أحمد بن شعنان، من شيوخ قبيلة بني جعد، الّذي - من شدّة مقته للأتراك - خاطر بإرسال ثلاثة من أبنائه متفرّقين آخر النهار ليضمن إعلام

---

1. Berthézène, Op. cit., pp. 282-283. - **المراسلات العثمانية**، م.و.ج.، مجموعة 3190-1، رقم 357.

2. حمدان خوجة، المصدر السابق، ص ص. 188-197 ؛ الزهّار، المصدر السابق، ص. 171-172 ؛ أحمد باي، المصدر السابق، ص ص. 14-15 ؛ علي رضا پاشا، المصدر السابق، ص ص. 67-71.

3. Nettement, Op. cit., p. 376 ; Péchot, Op. cit., pp. 148-149 ; Lauvergne, Op. cit., p. 45 ; Rozet, **Relation…**, Op. cit., pp. 128 & 146 ; Berthézène, Ibid., pp. 76-77 ; Esquer, Op. cit., p. 322 ; Barchou de Penhoën, **Mémoires d'un officier d'état-major**, Charpentier, Paris, 1835, pp. 165-166 ; Rousset, Op. cit., p. 137 ; G. Rouquerol, **Expédition de 1830 et prise d'Alger par les Français. Organisation et rôle de l'artillerie du corps expéditionnaire**, Berger-Levrault et Cie, Paris, 1894, p. 52.
لقد أثنى الجنرال الفرنسي برثيزن على هذه الخطّة بقوله : "**مخطّط واسع النطاق و مصمّم جيّدًا، لكن** [تنفيذه] **فوق طاقة الأتراك**". نقلاً عن :
- Nettement, Ibid.

4. Gautherot, Op. cit., pp. 84-85 ; Lauvergne, Ibid., p. 43 ; Chennechot, Op. cit., p. 15 ; Desprez, Op. cit., p. 100 ; d'Ault-Dumesnil, Op. cit., p. 40 ; Joseph Pocard-Kerviler, **Mémoires d'un capitaine de frégate**, Pierre de Boishéraud, s.l., 2010, p. 184 ; Gaudin, Op. cit., p. 26 ; Juchereau de Saint-Denys, Op. cit., p. 174 ; Rozet, Ibid., pp. 143-144 ; Allut, Op. cit., p. 169.

الطرف الفرنسي بأنّ الجزائريين بلغ تعداد قوّاتهم ما يربو عن عشرين ألفًا، و أنّهم سيهاجمون فجرًا[1] ؛ و ثانيهما تحزّبٌ من حضر مدينة الجزائر يتزعّمه أحمد بوضربة[2]، الّذي أرسل خادمًا سودانيًا متدثّرًا بحايك عند الغسق يحمل مكتوبًا كشف فيه خطّة إبراهيم آغا بكلّ تفاصيلها للقائد العامّ الكونت دي

---

1. Pellissier de Reynaud, Op. cit., T. 1, 1854, p. 42 ; Desprez, Op. cit., pp. 99-100 ; d'Ault-Dumesnil, Op. cit., pp. 39-40 ; Berthézène, Op. cit., p. 79 ; Esquer, Op. cit., pp. 318-321 ; Anonyme, **La conquête…**, Op. cit., pp. 36-37 ; Galibert, Op. cit., pp. 288-289 ; Matterer, Op. cit., pp. 97-99 & 101 ; Barchou de Penhoën, Op. cit., p. 164 ; Villeneuve-Bargemon, Op. cit., p. 346.

علاوة على تأثّره بمحتوى البيان الدعائي الأوّل الّذي بثّه الفرنسيون، كان دافع أحمد بن شعنان الرئيسي إلى الخيانة على الأرجح هو الانتقام، و تصفية حسابات قديمة مرجعها تنحيته عن منصب خوجة آغا العرب الّذي شغله في فترة سابقة من جهة، و مشاركة قبيلته - بنو جعد - من جهة أخرى في جميع الانتفاضات الّتي عرفتها بلاد القبائل الكبرى و الأطلس البليدي ضدّ الحكم التركي العثماني خلال الاثني عشر سنة الأخيرة ؛ و لو أنّنا لا نستبعد أن يكون العامل الأوّل مرتبطًا بالثاني : سعيدوني، **الحياة …**، المرجع السابق، ص ص. 155-156 و 660 ؛ بفايفر، المصدر السابق، ص ص. 65-66. - Pellissier de Reynaud, Op. cit., T. 2, 1836, p. 368 ; Bartillat, **Relation…**, Op. cit., pp. 172-173.

و تجدر الإشارة إلى أنّه مكافأةً له على عمالته، اقترحه الدوق دي روڤيگو (Duc de Rovigo) - الّذي تولّى قائدًا عامًّا للقوّات الفرنسية في الجزائر من ديسمبر 1831 إلى مارس 1833م - لتوليّ منصب آغا العرب في متيجة، خلفًا لمرابط قليعة محيّ الدين بن سيدي امبارك - الّذي كان مسموع الكلمة لما يتمتّع به من نفوذ ديني في وسط قبائل المنطقة -، قبل أن يعدل عن رأيه، كون مرشّحه - على عكس الأوّل - شبه نكرة و لا نفوذ فعلي له خارج نطاق قبيلته : سعد الله، **محاضرات…**، المرجع السابق، ص. 71. - Pellissier de Reynaud, Ibid., T. 1, 1854, pp. 255-256.

2. أحمد بوضربة هو تاجر جزائري - وصفه حمدان خوجة لاحقًا بأنّ "**لا دين له و لا ملّة**" - كان يدير أعمال عمّه مصطفى في مدينة مارسيليا، الّتي أقام بها خلال الفترة الممتّدة من 1820 حتّى 1829م ؛ و لقد تزوّج من فرنسية رزق منها بولد في مطلع سنة 1823م. بعد أن أدّى الحصار الفرنسي المفروض على السواحل الجزائرية إلى كساد تجارته، و من ثمّ إفلاسه، حاول الهرب إلى إيطاليا في 1829م، لكنّ المركب الّذي أقلّه اضطرّ إلى الإرساء في ميناء فريجوس (Fréjus) الفرنسي، فألقي عليه القبض و حوكم بتهمة الإفلاس الاحتيالي. الغريب في الأمر أنّه عوض أن يقبع بضع سنواتٍ في السجن، أخلي سبيله سريعًا ليعود إلى الجزائر ؛ و لا نشكّ مطلقًا أنّه تحصّل على صكّ الغفران ذلك - و محتملٌ أنّه بذلت له كذلك وعودٌ، من بينها استعادة ابنه إسماعيل - مقابل أن ينشط كعميل دسّاس لصالح الفرنسيين، كما سنرى لاحقًا : حمدان خوجة، المصدر السابق، ص. 202، ه. 14. - Id., T. 2, 1836, pp. 368-369 ; Mohamed Amine, « **Rapports entre commerçants musulmans et ḏimmīs dans le commerce d'Alger (début XIXe siècle)** », in : Histoire économique et sociale de l'Empire ottoman et de la Turquie (1326-1960), Peeters, Leuven, 1995, p. 103 ; Jean Dubief, **L'Ajjer, Sahara central**, Éditions Karthala, Paris, 1999, p. 61.

شاءت الصدف أن يسبق رجوع أحمد بوضربة إلى الجزائر بقليل قدوم دُه لا برتونيير أواخر يوليو 1829م، فسعى - مع قريبيه حمدان بوركايب و حمدان بن عثمان خوجة، اللّذان جرّهما إلى مرافقته "من أجل مصلحة الجميع" - إلى إقناع الداي حسين بأنّه يتعيّن عليه قبول مطالب المبعوث المذكور ؛ و هو ما كان سيعني لا أكثر و لا أقلّ وضع البلاد تحت النفوذ الفرنسي. و بعد أن فشل مسعاه، قام الثلاثي بالتواري عن الأنظار لبعض الوقت، خوفًا من غضب الإنكشارية، الّذي أثاره تلميح بوضربة غير المتبصّر للداي بأنّ الجيش الفرنسي من العدّة و العدد بحيث قد يتعذّر صدّه : - Paul Eudel, **L'orfèvrerie algérienne et tunisienne**, Adolphe Jourdan, Alger, 1902, pp. 315-316.

و بضعة أسابيع قبل خروج الحملة، بعد أن وصلته نسخٌ من البيان الدعائي من تونس حمله متصوّفة مغاربة، كانت لازمة حديث تحزّب الحضر الّذي كان يقوده بوضربة أنّهم سيفقدون كلّ شيء، إذا لم يُهزم طغاتهم من الأتراك من قبل الفرنسيين، و تواصوا لذلك على تحريض مواطنيهم على الثورة ضدّهم حالما يظهر الأسطول الفرنسي : - Plantet, **Correspondance des beys…**, Op. cit., T. 3, pp. 695-696.

انظر أيضًا : بفايفر، نفس المصدر السابق، ص. 72 ؛ التميمي، **بحوث…**، المرجع السابق، ص. 119.

بيد أنّ أولئك الحضر الّذين كانت تعوزهم القوّة و الشجاعة و يتملّكهم الخوف من أن يكتشف أمرهم، لن يقدموا على شيء ممّا خطّطوا له، مفضّلين العمل في الخفاء عبر تثبيط العزائم و نشر الأراجيف، الّتي كان أبلغها وقعًا إشاعة وجود طاهر باشا في معسكر الفرنسيين، و أنّ هؤلاء

بورمون[1]. مدركًا الموقف الحرج الّذي قد تؤول إليه قوّاته في وضعيتها الحالية ساعاتٍ قلائل قبل هجوم الجزائريين، قام هذا الأخير بإتّخاذ التدابير الدفاعية اللازمة على ضوء المعلومات الحاسمة الّتي وردته، حيث أصدر سلسلة من الأوامر لأركان حربه على الفور لإيصاد الثغرتين المذكورتين و إقامة استحكامات إضافية على طول الخطوط الأمامية : بادئ ذي بدء، أمر بتعجيل إنزال المدافع الميدانية الّتي كان الجيش بحاجة إليها، و هي العملية الّتي استغرقت طيلة الليل[2]. و من هذه المدافع، وضع بطّارية جبلية تتشكّل من ستّة قذّافات بإزاء ثغرة وادي بريجة ؛ كما أمر أن تتموقع بارجة و باخرتين حربيتين في الجون الغربي لسيدي فرج، كي تمنع بنيرانها المتقاطعة العدو من الاحتماء في الثنايا الّتي تتميّز بها الأرض من ذلك الجانب[3].

إضافةً لذلك، أشار دي بورمون إلى الجنرالين قائدي الفرقتين الأولى و الثانية برثيزن (Berthézène) و لوڤردو (Loverdo) بتدعيم الخطوط الأمامية بكتائب إضافية، و نصب حواجز خشبية و متاريس ترابية لحمايتها[4] ؛ و الأهمّ من كلّ ذلك، من الجانب الاحترابي، هي إزاحته فيالق اللواء الأوّل من الفرقة الثانية - الّتي كانت بمثابة قوّات احتياط - شمالاً ؛ و هي حركة من شأنها سدّ الثغرة الممتدّة أقصى الميسرة.

الأخيرين يعملون بأمر السلطان العثماني، من أجل الإطاحة بالداي حسين و تنصيب ذاك الموظّف السامي محلّه ؛ و عليه، فالواجب عدم مقاومتهم و ترك الأمر يتمّ كما أريد له. و الملفت للانتباه أنّ هذا الإرجاف الّذي خدم الفرنسيين كثيرًا، لم يعرفوا به إلاّ بعد سقوط مدينة الجزائر، دون أن يتوصّل كتّابهم و مؤرّخوهم إلى تحديد المصدر الّذي كان وراءه : - Robin, « **Notes…** », Op. cit., pp. 55-56 & 80-81.

انظر أيضًا : - Berthézene, Op. cit., p. 53.

لقد أثار الصدى الّذي عرفته هذه الإشاعة لدى سكّان العاصمة من بلدية و كراغلة و حتّى أتراكًا مخاوف حكومة الداي، بحيث طلب هذا الأخير من بومزراق (باي التيطري) - الّذي تولّى قائدًا للجيش الجزائري في 20 يونيو - التحقّق من الأمر ؛ فردّ عليه هذا الأخير في رسالة مؤرّخة في 23 يونيو ما يلي : "**حين التاريخ، قبضنا** [على و]**احد رومي**(كذا) **سألناه عن عساكر الغرناوط** (يعني الأرناؤوط) **و طاهر باشا ؛ فجاوب أنّ هذا ليس له أصل. فوجب علينا إفادتك بالخبر…**" : **المراسلات العثمانية**، م.و.ج.، مجموعة 3190-1، رقم 358.

1. Anonyme, **La conquête…**, Op. cit., p. 37 ; Barchou de Penhoën, Op. cit., pp. 164-165.

و يبدو أنّ تحزّب الحضر المذكور - الّذي سيعرف خلال السنوات الأولى من الاحتلال تحت اسم (Comité maure)، الّذي يعني حرفيًا "لجنة المغاربة" - اتّخذ من الوصفان السود وسيلة آمنة لتمرير المعلومات للفرنسيين، حيث سجّل معتمد التموين راينال قدوم زنجي آخر مرّتين للمعسكر الفرنسي يومي 21 و 22 يونيو ؛ و لقد كان حاملاً لمعلوماتٍ هامّة عمّا كان يجري في العاصمة و المعسكر الجديد بغربها في تلك الأثناء : - Paul Raynal, « **La conquête d'Alger, d'après la correspondance de l'intendant Raynal** », publ. par Augustin Bernard, in : Revue de l'histoire des colonies françaises 23, 1930, pp. 8 & 12-13.

2. Matterer, Op. cit., p. 97 ; Rozet, **Relation…**, Op. cit., p. 145.

انظر أيضًا : - Merle, Op. cit., p. 123.

3. Rousset, Op. cit., pp. 137-138 ; Anonyme, Ibid., p. 41 ; Esquer, Op. cit., p. 322 ; Nettement, Op. cit., p. 375 ; Gautherot, Op. cit., p. 85. انظر الملحق رقم 67.

4. Lauvergne, Op. cit., p. 43 ; d'Ault-Dumesnil, Op. cit., p. 41 ; Nettement, Ibid., pp. 374-375 ; Esquer, Ibid. ; Rousset, Ibid., pp. 136 & 138 ; de Quatrebarbes, Op. cit., p. 33 ; Barchou de Penhoën, Op. cit., p. 166.

و لصدّ الهجوم المزمع و منع اختراق صفوف القوّات الفرنسية، تمّت إقامة معقل ناتئ (redan) عند تلك النقطة، و تزويد كلّ فيلق بقذّافتين ؛ فيما تموقعت لنفس الغرض أربعة قلعيات و باخرة حربية في الجون الشرقي لسيدي فرج[1]. و الجدير بالذكر أنّ كلّ تلك التدابير جرت تحت جنح الظلام، دون أن يتفطّن لها الجانب الجزائري.

فجر 19 يونيو، تقدّمت القوّات الجزائرية في صمت لمواجهة العدو ؛ و قد ساهم ضباب الصباح في التمويه على تحرّكهم. و على الساعة الرابعة و النصف، تعالى التكبير ايذانًا ببدء المعركة على طول خطّ هجوم الجزائريين، الّذي اتّخذ حسب الخطّة شكل هلال ؛ و أعقبه صلية نار من بنادق المهاجمين و مدافع البطّاريتين، اللّتين أقامهما الآغا قبل يوم قدّام معسكر أسطه والي. رغم تفاجؤ الصفوف الأولى بالعقبات غير المنتظرة الّتي نصبها الفرنسيون ليلاً، إلاّ أنّهم واصلوا هجومهم، و وقع التحام شديدٌ على الجناحين ؛ و على إثره، تضعضع الصفّ الأوّل من أقصى الميسرة الفرنسية[2]، و كاد ينهار تحت ضربات سبعة آلاف فرد من الإنكشارية و قبائل حجّوط المخزنية التابعة للآغا. بيد أنّ انقشاع الضباب، سمح للسفن الحربية بحرث صفوف الجزائريين غير الملتحمة بقذائف الشظايا، و أوقعت فيهم خسائر فادحة ؛ و الأمر ذاته وقع للميسرة الجزائرية الّتي كانت مكوّنة من ما يربو عن عشرة آلاف فارس عربي و راجلٍ قبائلي، تحت قيادة أحمد باي[3].

---

1. Barchou de Penhoën, Op. cit., p. 165 ; de Quatrebarbes, Op. cit., p. 33 ; Rousset, Op. cit., p. 138 ; Esquer, Op. cit., pp. 321-322 ; Nettement, Op. cit., pp. 374-375 & 378 ; Berthézène, Op. cit., p. 79 ; Gautherot, Op. cit., pp. 85-86 ; Fernel, Op. cit., p. 41 ; Perrot, Op. cit., p. 108.

2. لقد ولّى أفراد الفيلق رقم 20 و الكتيبة الأولى من الفيلق رقم 28 الأدبار أو اضطرّوا إلى التراجع كما حدث للفيلق رقم 37 (و كلّهم ينتمون إلى اللواء الأوّل)، بعد أن تعرّضوا إلى خسائر معتبرة خلال الساعتين الأولتين من المعركة ؛ و قد استبشر لذلك الآغا إبراهيم معتقدًا بقرب انهيار الميسرة الفرنسية، فبعث متسرّعًا إلى الداي رسولاً يبشّره بأنّ "**الصناجق دخلت المتارز الفرنسية**" (الزهّار) و أنّ الأعداء على وشك أن يهزموا. و بعد أن آلت معركة أسطه والي إلى صالح الفرنسيين، جمّل هؤلاء كبوات جيشهم - أو ضربوا صفحًا عنها، ما عدا بعض الاستثناءات - و صوّروا من جملتها هذا الفرار على أنّه "انسحاب منظّم تمّ بأمر من قيادة الأركان في حدود الساعة الثالثة و نصف"، بحجّة أنّ بعضًا من الفرق المذكورة كانت تحتّل مواقع متقدّمة ؛ و هو أمر مكذوب بالنظر إلى أنّها شغلت خطّ مائل و داخل مقارنةً بالفرق الأخرى من الجيش الّتي كانت واقعة على يمينها : الزهّار، المصدر السابق، ص. 172 ؛ بفايفر، المصدر السابق، ص. 79 ؛ سامح الترّ، المرجع السابق، ص. 646.

- Nettement, Ibid., pp. 377-378 ; Esquer, Ibid., p. 322 ; Berthézène, Ibid., p. 80 ; Desprez, Op. cit., pp. 101-102 ; Lauvergne, Op. cit., pp. 44-45 ; Gautherot, Ibid., pp. 86-87 ; Armand Jehannot Bartillat, **Coup d'œil sur la campagne d'Afrique en 1930**, Delaunay et Dentu, Paris, 1831, p. 45 ; Rousset, Ibid., pp. 140-145 ; Anonyme, **La conquête…**, Op. cit., p. 40 ; Barchou de Penhoën, Ibid., pp. 170-171 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 313 ; Paul Azan, **L'armée d'Afrique de 1830 à 1852**, Librairie Plon, Paris, 1936, p. 26 ; Rozet, **Relation…**, Op. cit., pp. 147-148 ; Féraud, « **La prise…** », Op. cit., p. 73.

3. Nettement, Ibid., pp. 376-378 ; Pocard-Kerviler, Op. cit., p. 184 ; Réveillé de Beauregard, Op. cit., pp. 22-23 ; Berthézène, Ibid. ; d'Ault-Dumesnil, Op. cit., p. 41-42 ; Desprez, Op. cit., pp. 100-102 ; Rozet, Ibid., pp. 149-151 ; Lauvergne, Ibid., pp. 44-46 ; Perrot, Ibid., pp. 107-108 ; Gautherot, Ibid., pp. 85-87 ; Bartillat, Ibid. ; Rousset, Ibid., pp. 138-144 ; Anonyme, Ibid., pp. 39-41 ; Barchou de Penhoën, Ibid., pp. 166-174 ; Fernel, Ibid., pp. 55-56 ; Pellissier de Reynaud, Op. cit., T. 1, 1854, p. 43 ; Rouquerol, Op. cit., pp. 52-53.

بعد قرابة ثلاثة ساعات من القتال، استيقن القادة الجزائريون عقم محاولاتهم في اختراق أقاصي الجناحين الفرنسييْن، لا سيّما بعدما حصدت مدفعية السفن و البطّاريات الميدانية بنيرانها المتقاطعة أعدادًا كبيرة من المهاجمين، و ضعضعت صفوفهم ؛ فولّوا مدبرين إلى مسافة آمنة بعيدة عن طلقات المدفعية، فيما انكفأت الإنكشارية المتموقعة على أقصى الميمنة في انسحاب منظّم. أمّا الكتائب الفرنسية، فاحتلّت تباعًا المواقع الّتي تقهقر عنها الجزائريون مضطرّين. و هكذا، تحوّلت مرحلة الالتحام الأولى من المعركة إلى مرحلة قنص و مناوشات.

و خلال ما يزيد على الساعة، يمكن القول بأنّ قوّات الطرفين بارحت مكانها، أو بتعبير أصحّ، لم تقم بتحرّكات كبرى على العموم، إذا ما استثنينا الفرقة الفرنسية الثانية الّتي استغلّ قائدها لوڤردو ذاك الوقت في صفّها على خطّ واحد مع الفرقة الأولى. و لقد اختلفت أسباب هذا الثبات و الترقّب بالنسبة لكلا الطرفين : فبالنسبة للفرنسيين، بقي قائدهم دي بورمون منزويًا دون سببٍ ظاهري في مقرّ أركانه المؤقّت بضريح سيدي فرج حتّى الساعة الثامنة، رغم إلحاح جنرالاته المتكرّر له بالحضور إلى ميدان المعركة و معاينة الوضع ؛ و لم يتحرّك إلاّ بعد أن تيقّن من فشل هجوم الطرف المعادي. أمّا بالنسبة للجزائريين، فلم يكن للآغا إبراهيم على ما يبدو من خطّةٍ بديلة، حيث لم يقم سوى بتقديم قوّات الساقة الهزيلة الّتي تركت قدّام معسكر أسطه والي ؛ و هو ما يعتبر دليلاً إضافيًا على غرارته، إذ جرّد بذلك المعسكر من حمايته، دون أن يعزّز تناسبيًّا من قلب جيشه، الّذي كان بلا ريب أوهن حلقة في قوّاته[1].

في الأثناء، قام قائد سلاح المدفعية الڤيكونت دُه لا هيت (Vicomte de la Hitte) بتجميع المدافع الميدانية المتحرّكة و صواريخ كونگريڤ (Congreve) عند القلب، بإزاء بطّاريات المعسكر الجزائري

---

1. Berthézène, Op. cit., pp. 80-81 ; Barchou de Penhoën, Op. cit., pp. 170-178 ; Bartillat, **Coup…**, Op. cit., pp. 45-46 ; Fernel, Op. cit., pp. 57-58 ; de Quatrebarbes, Op. cit., p. 34 ; Anonyme, **La conquête…**, Op. cit., pp. 40-42 ; Pocard-Kerviler, Op. cit., pp. 184-185 ; Rousset, Op. cit., pp. 144-149 ; Esquer, Op. cit., pp. 324-326 ; Nettement, Op. cit., pp. 378-380 ; d'Ault-Dumesnil, Op. cit., p. 42 ; Desprez, Op. cit., pp. 102-103 ; Lauvergne, Op. cit., pp. 46-47 ; Gautherot, Op. cit., p. 87 ; Pellissier de Reynaud, Op. cit., T. 1, 1854, pp. 43-45 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., pp. 313-314 ; Gaudin, Op. cit., pp. 27-28 ; Merle, Op. cit., p. 125 ; Galibert, Op. cit., p. 291 ; Matterer, Op. cit., p. 102 ; Rozet, **Relation…**, Op. cit., pp. 159-160.

كون القلب أضعف حلقة في القوّات الجزائرية - كما ذكرنا - عائد لعدّة أسباب : ① اعتمدت خطّة الآغا على الجناحين، فضمّنها أكثر القوّات تجانسًا و أحسنها على المستوى القتالي : الإنكشارية بالميمنة، و عشائر فليسة و المخزن القسنطيني بالميسرة ؛ و باستثناء بطّاريتي المعسكر، لم يحظ القلب بنفس درجة الاهتمام. ② كان القلب ذو قيادة مزدوجة : قوّات القلب من جهة الميمنة بقيادة باي التيطري مصطفى بومزراق، و من جهة الميسرة بقيادة خليفة الغرب بن عودة ؛ و لا يخفى ما لوجود أكثر من قائد في تشكيلة جيش رئيسية من إضعاف. ③ كانت قوّات القلب عبارة عن خليط من عرب متيجة و الكراغلة و القبائليين و البلدية و قوّات المخزن التيطري و الوهراني، و هو ما أضعف تماسكها. ④ وجود مرجفين و فاترين ميّالين للفرار بنسبٍ أكبر من باقي تشكيلات الجيش على الجناحين. انظر في هذا الصدد :
- Barchou de Penhoën, Ibid., pp. 174-175 & 178 ; Rousset, Ibid., p. 146 ; Nettement, Ibid., p. 379.

الثلاث ؛ و أمر دون إطالة بإطلاق النار بشكل تدرّجي من اليمين إلى اليسار على الصفوف الأمامية للجزائريين. بحسب اعتقادنا، يتموقع مشهد فرار القبائليين - الّذي قدّمه بفايفر كسببٍ رئيسي في الهزيمة - في سياق القصف المركّز الّذي سلّطته المدفعية الفرنسية بادئ ذي بدء على الميسرة ؛ و تضعضع هذا الجناح هو الّذي سيحثّ الفرنسيين على المضي قدمًا و توجيه الضربة القاضية لجيش الإيالة[1]. أمّا القوّات الموجودة في القلب، فاضطربت بشدّة لذاك القصف و تراجعت تلقائيًا إلى الوراء. و لقد أفضت هذه الحركة إلى تعطيل مؤقّت لمدافع البطّاريتين الثابتة، حيث دخلت تلك الجموع المتقهقرة في مرماها، كما كسرت خطّ الجبهة في عدّة مواضع كاشفةً ميمنة جيش الإيالة.

و على ضوء هذه المستجّدات، أقنع الجنرال برثيزن دي بورمون بعدم تفويت الفرصة المتاحة من أجل هزيمة الجزائريين، و الاستيلاء على معسكرهم ؛ فأصدرت الأوامر في حدود الساعة التاسعة بخروج لواءين من الفرقة الثالثة من معسكر سيدي فرج كقوّاتٍ إحتياطية تتموقع في الساقة، و بتحريك ألوية الجيش في حركة محورية ترتكز على اليسار، و تستهدف إلجاء أكبر قسمٍ من جيش الإيالة إلى ناحية البحر، و محاصرته هناك. بيد أنّ ألوية الفرقة الثانية بقيادة لوڤردو أبطأت المسير، على الأرجح، بسبب بقاء عناصر من الميسرة الجزائرية متربّصين في الأحراش، الّتي تغطّي الضفّة الجنوبية لوادي البريجة ؛ و لم تماش جرّاء ذلك الفرقة الأولى بقيادة برثيزن. فما كان من هذا الأخير، الّذي عيل صبره من انتظار دام قرابة الساعة كبّدته المدفعية الجزائرية خلالها عشرات الإصابات في صفوف جنوده، إلاّ أن أمر ألويته بالتحرّك بشكل منفصل في مناورة ذكّية استطاعت أن تباشر فصل قلب جيش الإيالة عن ميمنته في وقتٍ أوّل، و عجّلت في انكسار الجيش[2]. إذ، خلال تلك الهجمة، - إذا صدّقنا رواية إسبانية ملتبسة مستقاة من مدينة ماهون، الّتي اتّخذها الفرنسيون كقاعدة خلفية للحملة - نجا باي التيطري (؟) الّذي جرح حصانه بأعجوبة، بعد أن كاد يقع في أيدي الفرنسيين ؛ غير أنّ محلّ اللبس أنّ صاحب المخطوط يتحدّث عن "**القائد العربي ابن باي**

1. بفايفر، المصدر السابق، ص. 80.

- Rouquerol, Op. cit., pp. 53-54 ; Esquer, Op. cit., p. 328 ; Gaudin, Op. cit., p. 28 ; Réveillé de Beauregard, Op. cit., pp. 23-24 ; Nettement, Op. cit., pp. 391-392 ; Michel Habart, **Histoire d'un parjure**, Éditions de Minuit, Paris, 1960, pp. 31-32.

2. Berthézène, Op. cit., pp. 81-82 ; Barchou de Penhoën, Op. cit., pp. 178-182 ; Bartillat, **Coup…**, Op. cit., pp. 46-47 ; Fernel, Op. cit., pp. 58-59 ; Anonyme, **La conquête…**, Op. cit., pp. 41 & 43-44 ; Rousset, Op. cit., pp. 149-154 ; Esquer, Ibid., pp. 326-328 ; Nettement, Ibid., pp. 379-382 ; Desprez, Op. cit., pp. 103-105 ; Gautherot, Op. cit., pp. 87-88 ; Pellissier de Reynaud, Op. cit., T. 1, 1854, pp. 45-46 ; Juchereau de Saint-Denys, Op. cit., p. 177 ; Gaudin, Ibid., pp. 28-29 ; Galibert, Op. cit., pp. 291-292 ; Rouquerol, Ibid. ; Péchot, Op. cit., pp. 149-150 ; Villeneuve-Bargemon, Op. cit., p. 346 ; Charles-André Julien, **Histoire de l'Algérie contemporaine. La conquête et les débuts de la colonisation (1827-1871)**, Casbah Éditions, Alger, 2005, p. 53.

التيطري"[1]، و هذا ما يجعلنا نخمّن أنّ الأمر يتعلّق في الواقع بالآغا إبراهيم، الّذي ترك موقعه حينئذٍ في الجناح الأيمن دون سابق إنذار، ليهرع إلى خيمته بالمعسكر المهدّد بتقدّم الفرنسيين، و الدافع الأكثر احتمالاً لقيامه بذلك هو إنقاذ الحريم، الّذي اصطحبه معه إلى أسطه والي[2] ؛ لكن بارتداده إلى الوراء بتلك الطريقة غير المفهومة، تهاوت صفوف القوّات الّتي اخترقها إلى فرارٍ مخزٍ[3].

و بمواصلة القوّات تحت قيادة برثيزن تقدّمها على محورين شرقي و جنوبي شرقي، بات واضحًا أنّها تنوي قطع الطريق على الميمنة، حيث تركّزت الإنكشارية، و القسم الباقي من القلب المتموقع إزاء المعسكر. و عليه، سارعت القوّات الباقية هي الأخرى إلى الانفلات، قبل أن يحاط بها ؛ و تمكّنت الأغلبية من الهروب من الطوق، ما عدا قرابة الألفين الّذين ألقى بعضهم السلاح. غير أنّ هذا لم يمنع الجنود الفرنسيين من إردائهم جميعًا قتلى رميًا بالرصاص، انتقامًا لزملائهم الّذين كانوا يعدمون منهجيًا خلال الأيّام السابقة و تحزّ رؤوسهم، فور وقوعهم في قبضة الجزائريين[4].

كان الآغا إبراهيم و نائبه في القيادة مصطفى خوجة الخيل في عداد الهاربين ؛ لكنّهما، على عكس الباي بومزراق الّذي لم يبتعد عن ميدان المعركة، اختفيا و تركا القوّات المغلوبة على أمرها دون قيادة. و الجدير بالذكر أنّ فلول الإنكشارية و القوّات المخزنية و المتطوّعة حاولت لمّ الشعث عند مؤخّرة معسكر أسطه والي ؛ غير أنّ قلّة عددهم و انفراط عقد الجيش في ظلّ تواصل الفرار الجماعي، جعلهم لا يثبتون إلاّ قليلاً قبل أن يولّوا الأدبار أمام المفارز و المدفعية الفرنسية، الّتي اخترقت المعسكر قصد تعقّب جموع الفارّين[5].

بعد أن انكشف المعسكر الجزائري، كانت العناصر الأخيرة الّتي بقيت في مراكزها هم أفراد الطوبجية و الملحقين بأوجاقهم من الإنكشارية، الّذين واصلوا بشكل بطولي إطلاق قذائف المدفعية حتّى اللحظة الأخيرة لتأمين هروب المتخلّفين ؛ و لكنّهم قتلوا بحراب البنادق عن بكرة أبيهم، من قبل جنود الفيالق

---

1. Francisco Aledo, **Anales menorquines : recopilación mensual de los acontecimientos que por años van sucediendo en Menorca y principalmente en la ciudad de Mahon**, Manuscrits castellans, Barcelona, 1830, ff. 38-39.

انظر أيضًا في هذا الصدد :

- A. Abi Ayad, « **Un témoignage espagnol sur la prise d'Alger par les Français en 1830** », in : Insaniyat 19-20, 2003, p. 204.

2. de Quatrebarbes, Op. cit., p. 35 ; Anonyme, **La conquête…**, Op. cit., p. 48 ; d'Ault-Dumesnil, Op. cit., p. 51 ; Barchou de Penhoën, Op. cit., pp. 188 & 190-191.

3. Aledo, Ibid., ff. 38-39 ; Abi Ayad, Ibid.

4. Matterer, Op. cit., pp. 100-101 ; Pocard-Kerviler, Op. cit., p. 185 ; Villeneuve-Bargemon, Op. cit., p. 346.

انظر أيضًا : حمداني، المرجع السابق، ص. 195. - Desprez, Op. cit., pp. 106-107.

5. Barchou de Penhoën, Ibid., pp. 181-182 ; Rouquerol, Op. cit., p. 54 ; Anonyme, Ibid., p. 45 ; Rozet, **Relation…**, Op. cit., p. 157.

- حمدان خوجة، المصدر السابق، ص. 196 ؛ بفايفر، المصدر السابق، ص. 80 ؛ الزهّار، المصدر السابق، ص. 172.

رقم 20 و 28، و 37. و كان برثيزن قد منحهم مزية أن يكونوا مع أُوّل الداخلين للمعسكر شبه المهجور، اعترافًا و تشريفًا لهم على تضحياتهم في أوّل المعركة[1].

و لم ينتصف النهار حتّى كان معسكر أسطه والي بكلّ ما احتواه من ذخيرة و مؤونة و مواشي و غيرها بيد الفرنسيين، حيث لم يستطع الجزائريون حمل شيءٍ خلال الفوضى العارمة الّتي صاحبت اندحارهم. و كانت آخر فصول المعركة لمّا لاحقت كتيبتين الجيش المنهزم على مسافة ثلاث كيلومترات توجّسًا من هجوم معاكس ؛ و لم تتوقّف إلاّ حوالي الثانية زوالاً، بعد أن تأكّدت من خوض فلوله شعب بوزريعة[2].

و في نفس الوقت تقريبًا، وصل مع طلائع المنهزمين خبر انهزام جيش الإيالة إلى مسامع الداي حسين ؛ فقام باستنفار القوّات المرابطة بالمدينة للدفاع عنها، كما أمر بإغلاق أبواب قلعة القصبة، على أن لا تفتح إلاّ لصهره إبراهيم[3]. و كان السبب وراء هذا التدبير الأخير حدوث بداية انتفاضة داخل المدينة حرّكها تحزّب الحضر للإطاحة بالحكم، إذ ظنّوا أنّ الفرنسيين على الأثر و لن يطول الوقت قبل ظهور مقدّمة أرتالهم بإزاء الأسوار ؛ بيد أنّها لم تلبث أن انقشعت، بعد أن رفض أغلب الكراغلة مساندتها ولاءً أو خوفًا، وسط الهرج المصاحب لاندفاع شتات الهاربين داخل أزقّة الجزائر، الّذين تعالى صراخ بعضهم تنديدًا بالخيانة و النذالة الّتي تعرّضوا لها غداة ذلك اليوم[4].

---

1. Matterer, Op. cit., pp. 100 & 102 ; Rousset, Op. cit., pp. 154-155 ; Bartillat, **Relation…**, Op. cit., pp. 71 & 149-150 ; Merle, Op. cit., p. 125 ; Rouquerol, Op. cit., p. 54 ; Fernel, Op. cit., p. 58 ; Chennechot, Op. cit., p. 16 ; Pocard-Kerviler, Op. cit., p. 185 ; Esquer, Op. cit., pp. 328-329 ; Nettement, Op. cit., p. 391 ; Rozet, **Relation…**, Op. cit., p. 164 ; Teodoro Armengaud, **Campaña de Argel**, Impr. de la viuda é hijos de Gorchs, Barcelona, 1830, p. 57 ; Villeneuve-Bargemon, Op. cit., p. 347.

من بين جميع فرق الجيش الفرنسي، كان الفيلق رقم 28 أكثرها تضرّرًا، حيث فقد ما يوازي عشر جنوده جرّاء هجوم الإنكشارية، بما فيهم قائد الفيلق العقيد مونييه (Colonel Mounier) الّذي مات متأثّرًا بجراحه :

- Anonyme, **La conquête…**, Op. cit., p. 40 ; Gaudin, Op. cit., p. 28 ; Chennechot, Ibid. ; Matterer, Ibid., p. 100.

2. Rouquerol, Ibid., p. 55 ; Perrot, Op. cit., p. 109 ; d'Ault-Dumesnil, Op. cit., p. 44 ; Nettement, Ibid., p. 382 ; Esquer, Ibid., p. 328 ; Bartillat, **Coup…**, Op. cit., p. 47 ; Rousset, Ibid., pp. 155-156 ; Playfair, « **Épisodes…** », Op. cit., 1880, pp. 205-206 ; Gautherot, Op. cit., pp. 88-89 ; Raynal, Op. cit., p. 7 ; Juchereau de Saint-Denys, Op. cit., p. 179 ; Rozet, Ibid., pp. 158-159 ; Féraud, « **La prise…** », Op. cit., p. 73.

- بفايفر، المصدر السابق، ص ص. 80-81.

3. نفسه، ص. 80.

- Barchou de Penhoën, Op. cit., pp. 183-184 ; Galibert, Op. cit., p. 293 ; Péchot, Op. cit., p. 150 ; Esquer, Ibid., p. 333.

4. Chennechot, Ibid., p. 17 ; Anonyme, Ibid., pp. 47-48 ; Raynal, Ibid., p. 13 ; Barchou de Penhoën, Ibid., pp. 183-184 & 196 ; Matterer, Ibid., p. 111 ; Lomon, Op. cit., p. 191 ; Armengaud, Ibid., pp. 65-66 ; Villeneuve-Bargemon, Ibid., p. 352.

أرسل تحزّب الحضر سودانيًا ثانيًا في 21 يونيو ليلاً ليعلم الفرنسيين بالحركة التمرّدية الّتي أثاروها، و حالة الاضطراب الّتي سادت العاصمة عقب الهزيمة ؛ و بأنّهم لو لاحقوا فلول الجيش حتّى أسوار الجزائر، لكانوا قد استولوا دونما شكّ على المدينة و مقاليد الحكم فيها :

- Raynal, Ibid., p. 8 ; Desprez, Op. cit., pp. 118-119 ; Juchereau de Saint-Denys, Ibid.

و قام حسين بعزل إبراهيم عن قيادة الجيش، بعد أن بلغته عدّة شهادات تتّهمه بالتقصير و الجبن، و تحمّله تبعًا لذلك مسؤولية الهزيمة ؛ و لم يحل دون إصدار الداي أمر الإعدام بحقّه، سوى تذرّع هذا الأخير بخيانة قسمٍ من القبائليين، و رابط المصاهرة الّذي يجمعه به. و لأجل ذلك، اكتفى باحتجازه - أو بالأحرى وضعه تحت الإقامة الجبرية - في إحدى دوره الريفية، كتدبير حمائي أكثر منه عقابي[1].

لقد كانت معركة أسطه والي المصيرية بمثابة كسرة حقيقية لجيش الإيالة، بالنظر إلى الخسائر الفادحة الّتي خلّفها القتال في صفوف أحسن قوّاته، إذ قضى ألفٌ و خمسمائة من الإنكشارية نحبه أو احتسبوا في عداد المفقودين[2]، فيما جرح - حسب تقديرنا - ما بين ألفٍ و مائة و ألفٍ و مائتي فرد منهم بشكلٍ جعل معظمهم غير قادرٍ على مواصلة المعركة[3]. و على اعتبار أنّ عدد الإنكشارية المشاركين في المعركة كان

انظر أيضًا : حمدان خوجة، المصدر السابق، ص ص. 196-197 ؛ بفايفر، نفس المصدر السابق، ص. 82. - Lauvergne, Op. cit., p. 74.

و بناءًا على المعلومات الّتي وردتهم من التحزّب المذكور، ارتأى دي بورمون بعد استشارة أعوانه تحرير "**نداء موجّه من طرف الجيش الفرنسي إلى الكراغلة أولاد الأتراك و العرب القاطنين بإيالة الجزائر**" على غرار البيان الدعائي الأوّل، الّذي وزّع انطلاقًا من تونس ؛ و ذلك بقصد دفع الكراغلة، الّذين بقي أكبر قسمٍ منهم وفيًا للأتراك، إلى الانفصال عنهم و الوقوف على الحياد.

و الظاهر أنّ البيان الثاني تمّت صياغته و طبعه يومي 22 و 23 يونيو، إذ ألقي القبض على المترجم الأرمني الّذي تطوّع لتوزيعه يوم 24 يونيو، و أعدم مباشرةً بعد استجوابه من قبل الداي. انظر في هذا الصدد : زوزو، المرجع السابق، ص ص. 30-32.

- Playfair, Ibid., p. 206 ; Hamdan-ben-Othman Khoja, Op. cit., pp. 417-419.

1. Raynal, Op. cit., p. 8 ; Lauvergne, Op. cit., p. 79 ; A. Jal, « **Une visite au dey d'Alger** », in : Revue de Paris, T. 30, 1831, pp. 48-49 ; Playfair, **The scourge…**, Op. cit., p. 316.

انظر أيضًا : الزهّار، المصدر السابق، ص. 172.

2. Pocard-Kerviler, Op. cit., p. 189.

نوّه برثيزن بأنّ "الأتراك" فقدوا خلال المعركة أزيد من ثلاثة آلاف رجل، بالنظر إلى "**الحمية الّتي قاتلوا بها خلال بضع ساعات، و إذا ما قارننا ذلك** [الرقم] **بالأرماس العديدة الموجودة في عدّ نقاط من ميدان العمليات.**" : - Berthézène, Op. cit., p. 84.

3. بفايفر، المصدر السابق، ص. 84.

ذكر الطبيب النمساوي غير المتمرّس بفايفر، الّذي سهر على معالجة الجرحى مساء 19 يونيو، أنّه أمر بتجميع عزّاب الإنكشارية البالغ عددهم ثمانمائة و ستّين في أكبر ثكنات الجزائر (الثكنة الخضراء؟) ؛ أمّا المتزوّجين منهم، فكانوا مفرّقين مع الفئات السكّانية الأخرى (البلدية، الكراغلة، البرانية، إلخ.) على بنايات عامّة أخرى أو في منازلهم الخاصّة، و كان عددهم إجمالاً يناهز السبعمائة : نفسه.

انظر أيضًا في هذا الصدد : - Esquer, Op. cit., pp. 392-393.

رغم اجتهاد الجزائريين في حمل قتلاهم و جرحاهم خلال اندحارهم، فقد "**بقي مع ذلك الآلاف من القتلى و الجرحى جرحًا خطيراً في أرض المعركة ؛ و كان الطريق كلّه من سطح الولي** (نسخ خاطئ، يجب قراءة "أسطه والي") **إلى الجزائر مغطّى بالجرحى، و تسلّل الكثير منهم إلى الأدغال، حيث عثر المسلمون على بعضهم فيما بعد، و الفرنسيون على بعضهم الآخر، من بينهم عددٌ من الموتى الّذين نهشت لحومهم الحيوانات المفترسة.**" : نفسه، ص. 81. انظر أيضًا : - Rousset, Op. cit., p. 157.

و الجدير بالإشارة في هذا الصدد أنّ الجنود الفرنسيين كانوا يجهزون منهجيًا و بكلّ وحشية على الجزائريين المصابين، بحيث لم يأسروا إثر معركة 19 يونيو سوى خمسة أو ستّة أعداء فقط، ثلاثةٌ منهم كانوا جرحى ؛ و لقد ذكر ضبّاطهم حالات عديدة لإنكشاريين مصابين بجروح بليغة كانوا يفضّلون قتل أنفسهم على الوقوع أحياء في أيدي جنودهم، و عدّوا ذلك الفعل منتهى البسالة :

يفوق بقليل أربعة آلاف، بالنظر إلى المائتي و سبعين خباءً الّتي ضمّها معسكر المحلّة[1]، فهذا يعني أنّ نسبة الإصابات ناهزت الثلثين ؛ و تشهد هذه النسبة العالية الّتي فاقت حدّ الاستنزاف على حماسة الإنكشارية و استماتتهم أوّل القتال، كما أنّها تعلّل حتمًا سرعة انهيار صفوفهم و تهاويهم للفرار آخره. أمّا إجمالي الخسائر في صفوف الجزائريين، فكانت تقديرات الضبّاط الفرنسيين الأقرب للصحة تجعلها خمسة آلاف أو أكثر، ما بين قتيلٍ و جريح[2]، نصفهم كما رأينا من أفراد الأوجاق.

ترتّب عن نكبة جيش الإيالة و الخسائر الفادحة الّتي لحقت به هبوطٌ في معنويات الكثيرين، الّذين فقدوا الرغبة في الجهاد و وطّنوا أنفسهم تسليمًا أنّ الحرب لم تعد تعنيهم، و إنّما هي شأنٌ بين "الأتراك" و الفرنسيين يقضي فيه الله ؛ و تبدّى ذلك - بشكلٍ نسبي - في تفرّق آلافٍ من المتطوّعين العرب و القبائليين الّذين عادوا رأسًا إلى مواطنهم، و في تزايدٍ ملحوظٍ في حالات الفرار من التجنيد بالنسبة لسكّان العاصمة و فحوصها[3].

أمّا عن خسائر الجانب الفرنسي، فقد بلغت وفق رواية شبه رسمية سبعة و خمسين قتيلاً و أربعمائة و ثلاثة و سبعين جريحًا، أغلبهم مصابون بجراحٍ خفيفة[4]. و لقد قدّر برثيزن قائد الفرقة الثانية من جهته إجمالي خسائر الجيش بما بين سبعمائة و ثمانمائة، من بينهم حوالي ستّين قتيلاً، فيما ذكر ضابط البحرية اِڤييه دي بورگار أنّ عدد القتلى بلغ المائتين، منهم ثلاثة ضبّاط، و وصل عدد الجرحى إلى الثلاثمائة، من بينهم خمسة عشر أو ستّة عشر ضابطًا[5].

و ما بين مقلّلٍ و مكثر، تبقى الأرقام المذكورة آنفًا محيّرة بالنسبة لعدد القتلى، بالنظر إلى الالتحام المهول و الدامي الّذي ميّز بداية المعركة، و الّتي نذكّر أنّها دامت قرابة الثمان ساعات. و يؤيّد هذا الطرح، على سبيل المثال، ما ذكره جندي مجهول الهوية - سيصير لاحقًا خلال الفترة الاستعمارية رقيبًا في فرقة

- Berthézène, Ibid. ; Pocard-Kerviler, Ibid., p. 185 ; Raynal, Ibid., p. 11 ; Esquer, Ibid., p. 329 ; d'Ault-Dumesnil, Op. cit., p. 48 ; Anonyme, **La conquête…**, Op. cit., p. 46 ; de Quatrebarbes, Op. cit., p. 37 ; Fernel, Op. cit., p. 63 ; Lauvergne, Ibid., pp. 74-75 ; Julien, Op. cit., p. 55 ; Matterer, Op. cit., p. 103 ; Juchereau de Saint-Denys, Op. cit., pp. 178-179 ; Rozet, **Relation…**, Op. cit., pp. 164 & 199 ; Merle, Op. cit., p. 199 ; Villeneuve-Bargemon, Op. cit., pp. 347 & 379-380.

1. Galibert, Op. cit., p. 293 ; Gaudin, Op. cit., p. 31 ; Desprez, Op. cit., pp. 106 & 110 ; Juchereau de Saint-Denys, Op. cit., p. 176.

2. Nettement, Op. cit., p. 392 ; Gaudin, Ibid., p. 30 ; Esquer, Op. cit., p. 328 ; A. Hugo, **France militaire. Histoire des armées françaises de terre et de mer de 1792 à 1837**, T. 5, Delloye, Paris, 1838, p. 329.

3. de Quatrebarbes, Op. cit., p. 37 ; Pocard-Kerviler, Op. cit., p. 185 ; Esquer, Ibid., p. 330 ; Matterer, Op. cit., p. 107.
- Playfair, « **Épisodes…** », Op. cit., 1880, p. 206 ; Robin, « **Notes…** », Op. cit., pp. 81-83. انظر أيضًا :

4. Desprez, Ibid., pp. 109-110 ; Rousset, Op. cit., p. 157 ; Gautherot, Op. cit., p. 89 ; Gaudin, Ibid. ; Bartillat, **Relation…**, Op. cit., p. 153.

5. Berthézène, Op. cit., p. 85 ; Réveillé de Beauregard, Op. cit., p. 25 ; Allut, Op. cit., p. 171.

الزواوة (Zouaves)[1] - من أنّه جرّاء صدمة هجوم الإنكشارية على أقصى الميسرة الفرنسية فقد الفيلق رقم 28 لوحده ما يوازي ثلث كتيبة - أي حوالي مائتين و ثمانين جنديًا، علمًا أنّ كتائب جيش الحملة رفع وزير الحربية دي بورمون تعدادها إلى متوسّط ثمانمائة و أربعين رجل - من جنوده[2] ؛ و بإضافة إلى ذلك، هناك مصدرٌ طرابلسي استقى معلوماته - ربمّا مع بعض المبالغة (؟) - من ربّان فرقاطة هولندية، ذكر أنّه خلال العراك الّذي وقع بين الجزائريين و أعدائهم "**مات من الفرنساوي 1300 - ألف و ثلاثماية، و من الإسلام كذلك مات لن عرفوا قدرهم**(كذا)"[3].

يمكن أن يعلّل الفارق بين الأرقام المقدّمة من قبل الضبّاط السامّين و الأرقام الحقيقية الّتي نجزم أنّها كانت أعلى بكثير بأسبابٍ انتخابية - سبق أن أشرنا إليها سابقًا -، حيث كانت الصحف الفرنسية، و بالأخصّ التابعة للمعارضة، تتناقل كلّ صغيرة و كبيرة عن أحداث الحملة العسكرية ؛ و عليه، لم يكن الحزب الملكي يحبّذ بتاتًا ورود أي خبر منغّص من إفريقيا في ذلك الظرف الحسّاس من شأنه أن يخلط حساباته. و علاوةً على ذلك، نعتقد أنّ دي بورمون لم يمانع اختزال الأرقام للحفاظ على معنويات جنوده مرتفعة، لا سيّما أنّ نسبةً معتبرةً منهم كانوا أغرارًا[4].

و للتمويه على عدد القتلى، أُصدرت أوامر برمي عددٍ غير معروف من جثث الجنود الفرنسيين خِلط مِلط مع جثث الأتراك و الأهالي في قبور جماعية حفرت في أسطه والي[5] ؛ و المرجّح أنّه لم يوار من القتلى في المقبرة الّتي أقيمت خصيصًا عند معسكر سيدي فرج سوى العدد المحدّد المذكور آنفًا[6]. و الجدير بالإشارة إلى أنّ العملية - أو بالأحرى الغاية منها لنكون أكثر دقّة - لم يتفطّن لها أحدٌ في غمرة النشوة بالانتصار على الجزائريين الّتي عمّت الجيش الفرنسي يومذاك.

---

1. انظر فيما يخصّ أصل هذه الفرقة المطلب الثالث من الفصل السادس.

2. Anonyme, **La conquête…**, Op. cit., p. 40.

3. الفقيه حسن، المصدر السابق، ج. 1، ص ص. 480-481.

4. Juchereau de Saint-Denys, Op. cit, p. 169 ; Azan, **L'armée…**, Op. cit., p. 27.

5. Barchou de Penhoën, Op. cit., p. 192.

عندما نعلم أنّ الضابط المكلّف بالمعتمدية العسكرية، البارون دونييه (Baron Denniée)، هو نفسه الّذي تورّط مع دي بورمون و آخرين في عملية اختلاس مبالغ هامّة من خزينة القصبة بعد سقوط الجزائر لفائدة الملك الفرنسي - و حرموا بذلك خزينة الدولة الفرنسية منها -، ندرك أنّ هذا النوع من الأشخاص - تعصّبًا للملكية أو بدافع الانتهازية بكلّ بساطة - قادرٌ على الإتيان بعمل مماثل.

انظر فيما يخصّ دور هذا الضابط السامي قبل و بعد 5 يوليو 1830 : حمداني، المرجع السابق، ص ص. 343-359 و 567-568. انظر أيضًا :

- Bartillat, **Relation…**, Op. cit., pp. 72-73 & 169 ; Gautherot, Op. cit, pp. 50, 107-108, 113 & 175 ; Nettement, Op. cit., pp. 257, 482-483 & 513 ; Esquer, Op. cit., pp. 239, 245, 381-383 & 441 ; Pierre Péan, **Main basse sur Alger. Enquête sur un Pillage : Juillet 1830**, Chihab Éditions, Alger, 2005, pp. 120-121 & 127-134.

6. Anonyme, Ibid., p. 46.

2-1-3. الأيّام الأخيرة لأوجاق الجزائر

في هذا الظرف الحرج، دعا الداي في مساء ذات اليوم "**إلى عقد جلسة حربية، حضرها جميع الوزراء و الموظّفين و كبار الضبّاط، كما دعا العلماء عربًا و أتراكًا للتشاور معهم. و كانت نتيجة هذه الجلسة أن وجّه الداي و كبار رجال الدولة أكثر من ثلاثين رسالة إلى مختلف المناطق الجزائرية، لإعادة تنظيم القوّات المشتّتة**[1]" ؛ و كانت أهمّ الرسائل موجّهة إلى باي وهران حسن و خليفة باي قسنطينة تحثّهما على القدوم بأسرع وقت بكلّ القوّات الّتي تحت أيديهم، بيد أنّ بعد المسافة لن يسمح لهما بإدراك العاصمة و نجدتها، حيث سيصادفهما نبأ سقوط المدينة بيد الفرنسيين، و هم في منتصف الطريق[2]. و كلّف الداي الخزناجي بقيادة حامية قلعة مولاي حسن - أو حصن الإمبراطور بالنسبة للأروبيين -، الّتي كانت تمثّل آخر خطّ دفاعي ثابت يمكنه أن يحول دون وصول الأعداء إلى المدينة. و لأنّ القلعة المذكورة كانت شبه مهملة[3]، فقد تمّ تزويدها خلال نفس الليلة بثلاثة و أربعين مدفعًا، الّتي انضافت للعشرة الّتي كانت موجودة ؛ كما شحنت بالمقاتلين، حيث رفع تعداد الحامية من حوالي أربعين بلوكباشيًا إلى ما يربو عن ألف إنكشاري و طوبجي[4]. من جانب آخر، تمّ تعيين مصطفى باي بومزراق على رأس قوّات الإيالة، و يعاضده الحاج أحمد باي ؛ و ذلك في مكان الآغا إبراهيم و مصطفى خوجة الخيل، اللّذين تمّ عزلهما[5].

لرفع المعنويات المنهارة بفعل الهزيمة و لمّ شتات الجزائريين، استدعى الداي حسين - كما ذُكر آنفًا - جمعًا من العلماء البارزين، و طلب منهم أن يحثّوا الناس على الجهاد ؛ و في ذلك السياق، قام بشكلٍ رمزي بتسليم سيفٍ لشيخ الإسلام محمّد بن محمود ولد العنّابي، ليتولّى التعبئة و القيادة المعنوية

---

1. بفايفر، المصدر السابق، ص. 86. انظر ايضًا : - Nettement, Op. cit., p. 393 ; Rousset, Op. cit., p. 163.

2. المزاري، المصدر السابق، ج. 2، ص. 85. انظر أيضًا في هذا الصدد : - [Boutin], **Reconnaissance …**, Op. cit., p. 47.

3. المرجّح أنّ، بعد نقله مقرّ الحكم إلى القصبة و ثورة الإنكشارية عليه، قام علي خوجة بتجريد قلعة مولاي حسن من قسمٍ من مدفعيتها، كما قلّص حاميتها إلى ثلاثة سفرات من الجند الإنكشاري ؛ و حذا به إلى ذلك تخوّفه من موقع القلعة الّذي كان يعلو القصبة ببضع عشرات من الأمتار، و لا يبعد عنها سوى حوالي ثمانمائة متر.

انظر في هذا الصدد : الزهّار، المصدر السابق، ص. 173. - Gautherot, Op. cit., p. 97.

و يبدو أنّ حتّى الداي حسين سلك نفس مسلك سلفه، حيث تملّكه الخوف من الإنكشارية بعد محاولات اغتياله، و لم يُبق بالقلعة إلاّ على عشرة مدافع. انظر في هذا الصدد : الزهّار، نفسه. - Jacqueton, Op. cit., p. 140.

4. الزهّار، نفس المصدر السابق، ص ص. 172-173 ؛ بفايفر، نفس المصدر السابق، ص ص. 86-87.

- Nettement, Ibid. ; Esquer, Op. cit., p. 334 ; [E. Pellissier de Reynaud], **Mémoire sur les opérations de l'armée française sur la côte d'Afrique**, Typographie Duclaux, Alger, 1863, p. 66.

5. Playfair, « **Épisodes…** », Op. cit., 1880, p. 206 ; Anonyme, **La conquête…**, Op. cit., p. 58 ; Féraud, « **La prise…** », Op. cit., p. 72 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 314 ; Esquer, Ibid. ; Eudel, Op. cit., pp. 316-317.

- حمدان خوجة، المصدر السابق، ص. 199 ؛ حمداني، المرجع السابق، ص. 196 ؛ بفايفر، نفس المصدر السابق، ص. 93.

للجيش[1]. و لقد أفلح هذا المسعى بادئ الأمر في شحذ همم عدّة آلاف، تدافعوا طوال الليل لنقل الذخائر و البارود و قطع المدفعية إلى قلعة مولاي حسن[2] ؛ و من قرابة خمسة آلاف رجل الّذي بلغه تعداد قوّات الإيالة اليوم الّذي تلا الهزيمة[3] تضاعف ذلك العدد بمقدار ثلاث مرّات بحلول نهار 23 يونيو[4].

و رغم ذلك، فقد كان الرقم المتوصّل إليه - أي خمسة عشر ألف - غير كافٍ لمواجهة الفرنسيين ؛ و كان هذا الخلل في التعبئة مردّه جزئيًا إلى إحجام الكثيرين من فاتري الهمّة و المتردّدين أو تباطؤهم عن الالتحاق بالقوّات، الّتي عاودت التجمّع عند السفح الجنوبي الغربي لجبل بوزريعة. و هذا ما جعل السلطة الجزائرية تدرك أنّه لا بدّ لها من التصدّي للعمل التقويضي، الّذي أثارته شائعة وجود طاهر باشا في معسكر الفرنسيين. و المرجّح أنّه انكشف لها رواج تلك الإشاعة إثر فشل محاولة الثورة الّتي حرّكها في الخفاء تحزّب الحضر بمدينة الجزائر، خلال الساعات القليلة الّتي أعقبت معركة أسطه والي ؛ و على ضوء ذلك، أمر الداي قائد الجيش الجديد بالتحقّق من الأمر، من خلال أسر جنودٍ فرنسيين و استنطاقهم بذاك الشأن.

و يوم 23 يونيو، بعث الباي بومزراق برسالة إلى الداي ينفي له بشكلٍ قاطع صحّة ما أشيع بشأن طاهر باشا[5]. و لو أنّنا لا نشكّ في أنّ هذا التكذيب كان موضوع بيان أمر الداي بإذاعته في أنحاء المدينة[6]، إلاّ أنّه جاء متأخّرًا بعض الشيء ليكون له أثر ملموس، حيث لم تفصله غير ساعاتٍ معدودة عن معركة 24 يونيو الّتي سنتطرّق إليها لاحقًا[7].

- **معركة العين الزرقاء (23 يونيو)**

تمثّل نشاط الجزائريين الحربي، على كلٍّ، خلال يومي 21 و 22 يونيو في مناوشات محدودة مع مراكز العدو المتقدّمة[8] ؛ و ذلك في حين أمر بومزراق بتحصين المرتفعات المشرفة على نجْد أسطه والي، و باشر

الجدير بالذكر أنّ الداي سمح لصهره يوم 21 يونيو بالتوجّه إلى المعسكر الجديد، الّذي شرع في إقامته على بعد أربعة كيلومترات من معسكر أسطه والي ؛ و لكن للخدمة تحت إمرة بايي التيطري و قسنطينة، دون أن يكون له أي دورٍ قيادي : Playfair, Ibid. -

1. حمدان خوجة، المصدر السابق، ص ص. 197-198. Gautherot, Op. cit., p. 92 ; Anonyme, **La conquête…**, Op. cit., p. 58. -

تجدر الإشارة إلى أنّ ولد العنّابي انتمى إلى الأوجاق، و تحديدًا للجماعة رقم 7 : **دفتر مواجبات…**، المصدر السابق، رقم 1977، و. 33 و°.

2. بفايفر، المصدر السابق، ص. 87. Nettement, Op. cit., p. 393. -

3. Anonyme, Ibid.

4. Barchou de Penhoën, Op. cit., p. 203 ; de Quatrebarbes, Op. cit., p. 39.

5. **المراسلات العثمانية**، م.و.ج.، مجموعة 3190-1، رقم 358.

6. انظر : بفايفر، نفس المصدر السابق، ص ص. 73-74.

7. كانت الحسنة الوحيدة - إن صحّ التعبير - الناجمة عن ذلك هو أنّ تحزّب الحضر قلّص كثيرًا منذئذٍ من نشاط الإرجاف و إرسال سعاة إلى الطرف الفرنسي ؛ و هو ما ترجم دخول معظم أعضائه فترة من الاشتباه و التردّد و الترقّب القلق للأحداث، لا سيّما بعد أن سلّطت عقوبة الإعدام على كلّ من تثبت في حقّه تهمة التعامل مع العدو : Lomon, Op. cit., pp. 194-195 ; Robin, « **Notes…** », Op. cit., p. 56. -

8. de Quatrebarbes, Ibid. ; Chennechot, Op. cit., p. 17 ; Gaudin, Op. cit., p. 34 ; Galibert, Op. cit., p. 295.

بنقل عددٍ من قطع المدفعية إليها، كي يجعل منها خطوط دفاعية متدرّجة مستغلاً تعرّجات تضاريسها[1]. و تموقعت بعض فرق الإنكشارية عند بداية الفحص بالقرب من المكان المعروف بسيدي يخلف[2]، بمحاذاة وادٍ خصبٍ - عرف عند الأتراك بباغچه دەره (Backché-Derré في المصادر)، الّذي يعني "واد الجنائن"[3] - يمكن اعتباره الخطّ الدفاعي الأوّل، بقصد حماية أقرب الممتلكات الريفية من مواقع العدو.

و تكشف لنا رسالة بالغة الأهمّية مؤرّخة بيوم الأربعاء 2 محرّم الموافق لـ 23 يونيو عن مدى تقدّم تحضيرات المواجهة لدى الجزائريين، حيث أعلم مصطفى بومزراق فيها الداي أنّ المتاريس الّتي بوشر في إقامتها يومذاك سيتمّ الانتهاء منها في الغدّ (الخميس)، و أنّ جرد أفراد "المحال المنصورة" من إنكشارية و زواوة و صبايحية عرب لن يتمّ إلاّ يوم السبت، و حالما ينتهي الخوجة المكلّف من تجريد القوائم سيقوم بإرسال بيانٍ وافٍ له[4]. و يتبيّن لنا ممّا ورد ذكره أنّ القوّات الجزائرية لم تكن متأهّبة لصدام جديد حينئذٍ، لا سيّما أنّ تعدادها كان أقلّ من نظيرتها الفرنسية. و بحسب تخميننا، نمِي ذاك الأمر إلى دي بورمون في 22 يونيو بواسطة نفس السوداني الّذي نقل ماجريات ما بعد الهزيمة بالعاصمة يومًا من قبل[5] ؛ و هذا ما عزّز الاعتقاد لدى المذكور بأنّ بومزراق سيتفادى الاصطدام في معركة مفتوحة خلال الأيّام القليلة المقبلة، ريثما يكمل عدّته و استعداداته[6]. و على ضوء هذه القناعة، قرّر القائد الفرنسي إنفاذ ثلاثة سرايا - أي نصف كتيبة من جنود المشاة - من معسكر أسطه والي لترافق الجنرال ڤالازيه (Valazé) و فوج مكلّف بالهندسة في مهمّة استطلاعية، بغرض إيجاد نقطة إنزال ملائمة و قريبة من ميدان العمليات على الشريط الساحلي الممتدّ من شرق شبه جزيرة سيدي فرج إلى رأس الخشين[7].

---

1. Pocard-Kerviler, Op. cit., p. 186 ; Esquer, Op. cit., p. 336 ; Juchereau de Saint-Denys, Op. cit., p. 181.

انظر أيضًا : **المراسلات العثمانية**، م.و.ج.، مجموعة 3190-1، رقم 358. - Rousset, Op. cit., p. 161.

2. سيدي يخلف (Sidi Yek[h]lef)، الّذي يعرف خطأً في أغلب المصادر الفرنسية بسيدي خالف (Sidi Khalef)، هو ضريحٌ كان محاطًا بعدد من الدور الريفية و يقع على الضفّة الغربية لوادي الدفلى - أحد روافد وادي بني مسوس -، على الطريق الرابط بين الجزائر العاصمة و سيدي فرج (بلدية الشراقة حاليًا). انظر في هذا الصدد : - Rousset, Ibid., p. 165 ; Rouquerol, Op. cit., p. 57.

3. Juchereau de Saint-Denys, Ibid., pp. 175-176.

4. نفسه.

5. Raynal, Op. cit., pp. 11-13 ; Desprez, Op. cit., pp. 118-119 ; Lomon, Op. cit., pp. 194-195.

6. نستشفّ أيضًا أنّ دي بورمون كان على دراية مسبقة بعدم استعداد القوّات الجزائرية، من خلال تأكيده لقادة أركانه عشية 23 يونيو بأنّه اتّخذ كافّة الترتيبات كي يدحرها على مسافة فرسخين عند أوّل هجوم ؛ و لا يمكن أن يكون هذا الجزم من فمّ قائد اشتهر بتردّده و شدّة احتراسه، إلاّ مبنيًا على معلومات مؤكّدة. انظر في هذا الصدد :

- Bartillat, **Coup…**, Op. cit., p. 125 ; Anonyme, **La conquête…**, Op. cit., pp. 58-59 ; Esquer, Ibid., p. 335 ; Nettement, Op. cit., p. 401 ; Hugo, Op. cit., p. 329. - بفايفر، المصدر السابق، ص. 93.

7. Rousset, Ibid., p. 162 ; Rozet, **Relation…**, Op. cit., p. 176 ; Pellissier de Reynaud, **Mémoire…**, Op. cit., p. 54.

بعد أن اكتشف الجزائريون أمر هذه الخرجة، ارتأوا قطع الطريق عليها لدى عودتها من استكشاف الساحل ؛ و عليه، تقدّم فيلق من الإنكشارية بعد وقت الظهيرة باتجاه الغرب الشمال الغربي، و انقضّ على القوّة الفرنسية المتراجعة في مكانٍ ما نعتقد أنّه كان غير بعيدٍ عن العين الزرقاء[1]. و خلال هذا الهجوم المفاجئ، كاد ڤالازيه و رفيقه الجنرال أشار (Achard) و جنودهما أن يقعوا جميعًا في قبضة المغيرين ؛ لولا أنّهم غيّروا اتّجاههم غربًا نحو سيدي فرج مسرعين، بحيث أفلت منهم ما يقارب الثلثين، فيما قتل بقيتهم تقريبًا دون استثناء[2].

و لدى سماع إطلاق النار و دوي بعض طلقات المدفعية في أسطه والي، سرى الاعتقاد بالمعسكر أنّ الأمر لا يعدو عن كونه تجدّد لمناوشات الجزائريين مع المراكز الأمامية[3]. هذه الواقعة الّتي يجدر تسميتها بمعركة العين الزرقاء، تكتّم عليها دي بورمون، و جهلها الفرنسيون لأنّها لم تكن لصالحهم[4] ؛ و قد لمّح إليها مصطفى باي بومزراق بشكلٍ مقتضب جدًا عندما أفاد الداي بأنّ قوّاته انقضّت على "**الكفرة المناحس من عسكر الفرناوصية**(كذا) **ما يتجاوز** [تعدادهم] **عن الأربعماية و ستّين نفرًا، فماية و ستّين منهم ماتو**(كذا) **و الباقي...** (فراغ)"[5].

تجدر الإشارة أنّ بحث دي بورمون عن نقطة إنزال جديدة أملته الظروف المتأتية عن تعطيل دوپيريه لوصول عتاد الحصار و الخيول و المؤن و الذخائر المتبقية، حيث تأخّر أسطول النقل حتّى يومي 22 و 23 يونيو :

- Desprez, Ibid., pp. 118-119 ; Gautherot, Op. cit., pp. 90-92 ; Rousset, Ibid., pp. 161-162.

1. العين الزرقاء، هي غير العين الّتي تحمل نفس الاسم الموجودة بحومة القصبة بأعلى مدينة الجزائر، فقد كانت هذه توجد على الأرجح إمّا أقلّ من كيلومتر غرب قبّة سيدي يخلف، أو نحو كيلومترين إلى شمالها الغربي غير بعيد من ضفاف وادي بني مسّوس.

2. لقد نوّه الشيخ أحمد الجزائري بالنصر الّذي حقّقته "عساكر المسلمين" في تلك الواقعة، حيث قال : "**...فساروا إلى أن وصلوا إلى الموضع المسمّى العين الزرقاء، و كانت الفرنسيس**(كذا) **هناك. فوقعت العين على العين، و التحم القتال بين الفريقين، فلم يمض بعض اللحظات من الزمن حتّى انهزمت الفرنساوية و ولّوا مدبرين، و تمادوا على هزيمتهم حتّى وصلوا إلى الموضع المسمّى سيدي فرج**" :

- الجزائري، **كيف...**، المصدر السابق، ص. 30.

3. Rousset, Op. cit., pp. 162-163.

4. على حسب علمنا، لم يشر دي بورمون إلى هذا العمل الحربي في أيٍّ من إعلاناته اليومية للجيش أو مراسلاته الرسمية ؛ و اكتفى بوصفه بمناوشاتٍ على نطاق واسع اجترأ عليها "الأتراك" و "البدو"، بعد أن هدأ خاطرهم لعدم مبارحة الجيش الفرنسي لمواقعه، دون أن يفقهوا السبب وراء ذلك :

- Fernel, Op. cit., p. 73 ; Bartillat, **Relation...**, Op. cit., pp. 155-156 & 181 ; Barchou de Penhoën, Op. cit., pp. 202-203 ; Rousset, Ibid., p. 163 ; Bartillat, **Coup...**, Op. cit., pp. 124-125 ; Nettement, Op. cit., p. 400 ; Berthézène, Op. cit., p. 86 ; Chennechot, Op. cit., p. 17 ; Gautherot, Op. cit., p. 92 ; Galibert, Op. cit., p. 295.

5. **المراسلات العثمانية**، م.و.ج.، مجموعة 3190-1، رقم 358.

رغم وجود فراغ في آخر العبارة، لكن يفهم من السياق أنّ الباقي فرّوا و نجوا بجلدتهم من قبضة الجنود تحت إمرة السر عسكر بومزراق.

مهما يكن من أمر، شدّد هذا الانتصار التعبوي عزيمة الجزائريين، الّذين تقدّم بضعة آلاف منهم عصر ذاك اليوم بالذات لمناوشة المراكز الفرنسية الأمامية و فرق الحراسة بمعسكر أسطه والي موقعين بضعة إصابات إضافية[1].

- **معركة باغچه ده‌ره (24 يونيو)، المعروفة لدى الفرنسيين بسيدي خالف**

لعلمه جيّدًا أنّ الجزائريين سيعيدون الكرّة و يعاودون المناوشات، حدّد دي بورمون لأركان جيشه صبيحة يوم الغدّ موعدًا لهجومٍ (مضادٍ) كبير يفقدهم على الأقلّ فرسخين و يجعل الفرنسيين يثبتّون أقدامهم عند السفح الجنوبي لبوزريعة[2] ؛ بيد أنّه تحاشى مشاطرة المعلومات الّتي تفيد عدم جهوزية الجيش الجزائري جرّاء ضعف تعداده، و ذلك لتضخيم حجم الانتصار[3]. و لأنّ أصداء الحملة كانت تستغرق قرابة الأسبوع لتنشر على صفحات الجرائد، كان المذكور يأمل أنّ خبر ظفره السهل و المكتسح سيصل في الوقت الملائم ليؤثّر على الانتخابات الّتي ستجرى يوم 3 يوليو.

فجر 24 يونيو، انتقل دي بورمون من مقرّه بسيدي فرج إلى معسكر أسطه والي ليتولىّ قيادة الهجوم المزمع شخصيًا ؛ و في الأثناء، كان قد اقترب أربعة آلاف جزائري من المراكز المتقدّمة بقصد مناوشتها[4]. بعد أن عاين استعداد القوّات، أمر المذكور الجنرال برثيزن بأن يتقدّم بكامل فرقته باتّجاه طريق الجزائر و يكنس المغيرين أمامه، فيما يعاضده على الميمنة اللواء بقيادة دانرمون (Danrémont) من الفرقة الثانية ؛ أمّا اللواءين الآخريْن من نفس الفرقة، فبقيا بقيادة لوڤردو بأسطه والي لحراسة المعسكر[5].

لم يصمد الجزائريون - الّذين كانوا على شكل زمر مبعثرة - إلاّ سويعة أمام الهجوم الفرنسي غير المترقّب، قبل أن يبدأوا في التقهقر. و خلال تراجعهم، حاولوا مرارًا التجمّع في صفوف قتالية و القيام

---

1. Lauvergne, Op. cit., p. 76 ; Rousset, Op. cit., p. 163 ; Barchou de Penhoën, Op. cit., p. 203 ; Allut, Op. cit., p. 221.

2. Nettement, Op. cit., pp. 400-401 ; Pocard-Kerviler, Op. cit., p. 186 ; Bartillat, **Coup…**, Op. cit., p. 125 ; Rousset, Ibid., pp. 163-164 ; Merle, Op. cit., p. 140 ; Gaudin, Op. cit., pp. 34-35 ; Villeneuve-Bargemon, Op. cit., p. 352.

3. انظر الهامش التالي.

4. Gaudin, Ibid., p. 35 ; Rozet, **Relation…**, Op. cit., pp. 176-177 ; Esquer, Op. cit., p. 336 ; Desprez, Op. cit., p. 121.

تبعًا لمنظور دي بورمون، قامت معظم المصادر الفرنسية بتضخيم تعداد المهاجمين الجزائريين فجر 24 يونيو، إذ تراوحت معظم تقديراتها بين اثنا عشر ألف و ثلاثين ألف رجل ؛ كما عدّ بعضها في ذات الصدد المناوشات الّتي تعرّضت لها المراكز الأمامية عند بداية معركة سيدي يخلف هجومًا شاملاً "يعوزه النظام" :

- Juchereau de Saint-Denys, Op. cit., p. 180 ; de Quatrebarbes, Op. cit., p. 39 ; Rousset, Ibid., p. 164 ; Bartillat, Ibid., p. 125 ; d'Ault-Dumesnil, Op. cit., p. 54 ; Chennechot, Op. cit., p. 17 ; Lauvergne, Ibid. ; Gautherot, Op. cit., p. 92.

5. Gaudin, Ibid. ; Galibert, Op. cit., p. 295 ; Barchou de Penhoën, Ibid. ; Rousset, Ibid. ; Allut, Ibid. ; Nettement, Ibid., p. 401 ; Desprez, Ibid. ; Lauvergne, Ibid. ; Gautherot, Ibid. ; Rozet, Ibid., p. 177.

بارتدادات هجومية ؛ بيد أنّ ذلك لم يسهم في إبطاء زحف الفرنسيين باتجاه سيدي يخلف، بسبب قلّتهم العددية و انتشارهم على أرض مبسوطة خالية من عقبات يلوذون بها، ما خلا بعض الأحراش القليلة[1].

شكّل موقع سيدي يخلف نقطة تألّب للمئات من جنود الأوجاق، حيث ناوروا في وقت أوّل للالتفاف حول لواء فرنسي متقدّم ؛ غير أن لحاق لواء آخر على ميسرته هدّد الإنكشاريين بالتطويق، فاضطرّوا من ثمّ إلى الانسحاب سريعًا دون أن يفضّوا الاشتباك. و أتاح ذلك للفرنسيين اجتياز وادي الدفلى وقت الضحى دون صعوبة تذكر[2].

في الأثناء، كان باقي القوّات الجزائرية، المقدّر عددها من قبل بعض الفرنسيين بثمانية آلاف رجل، قد تحرّكت نزولاً من المرتفعات الّتي كانت مرابطة بها، و كمنت بشكل متدرّج في المنحدرات على طول الجبهة، الّتي صارت ممتدّة من فحص بني مسّوس إلى حوش دالي إبراهيم[3]. و الجدير بالإشارة أنّ قسمًا منهم فقط انضمّ إلى القوّات الّتي كانت حينئذٍ تقاتل الفرق الفرنسية بباغچه دەره - أي المنطقة الواقعة تقريبيًا بين واديْ الدفلى و اللارنج، اللّذان يشكّلان رافدين لوادي بني مسّوس - ؛ و هذا ما يعكس بشكلٍ مؤكّد ضعف استعداد الطرف الجزائري، الّذي أحسن دي بورمون استغلاله في هجومٍ فاجأ الجميع، و في مقدّمتهم مصطفى بومزراق.

أمّا قوّات الخيالة الجزائرية، الّتي اقتصرت تقريبًا على فرسان المخزن، فاتبعت خطّة سبق أن اقترحها الحاج أحمد باي قبل معركة أسطه والي، فقد هاجمت جانبيًا اللواء بقيادة دانرمون الّذي كان يشكّل الجناح الأيمن ؛ و من ثمّ، شنّت هجمات متتابعة على ساقته بشكلٍ أجبره على التوقّف عدّة مرّات، و عرقلت مسيره بحيث لم يصطفّ مع باقي الألوية إلاّ مساءً[4]. و بالإضافة إلى ذلك، قامت عدّة مفارز من الخيّالة بقطع الطريق الرابط بين معسكر أسطه والي و القوّات الفرنسية الزاحفة، بعد أن استطلعت نواحي المعسكر المذكور بحثًا دون جدوى عن فرصٍ للإغارة عليه[5].

بعد تجاوز الفرنسيين لسيدي يخلف و الوادي الّذي يليه، بدأ تقدّمهم يتباطأ نظرًا لاشتداد مقاومة الجزائريين، الّذين وفّرت لهم التضاريس و الغياض و الديار معاقل شتّى يناوشون أو يشنّون انطلاقًا منها هجمات خاطفة، في حرب كرٍّ و فرٍّ لم يعهدها الغزاة. و في حدود الساعة الثانية زوالاً، بينما كانت القوّات

1. Gautherot, Op. cit., p. 92 ; d'Ault-Dumesnil, Op. cit., p. 55 ; Rousset, Op. cit., p. 164.

2. Berthézène, Op. cit., p. 86 ; Rozet, **Relation…**, Op. cit., pp. 178-179.

3. Berthézène, Ibid., pp. 86-87 ; Matterer, Op. cit., p. 112.

4. Esquer, Op. cit., p. 337 ; Barchou de Penhoën, Op. cit., pp. 204-205 ; Desprez, Op. cit., p. 122 ; Nettement, Op. cit., p. 402 ; Galibert, Op. cit., pp. 295-296 ; Gaudin, Op. cit., p. 35.

5. Rousset, Ibid., p. 170 ; Barchou de Penhoën, Ibid., p. 205 ; Desprez, Ibid. ; Esquer, Ibid. ; Galibert, Ibid., p. 295.

الفرنسية قد بلغت قبّة سيدي بن عدّي[1]، دوّى بشكلٍ مفاجئ انفجارٌ قويّ على مقربةٍ منهم ؛ و كان وراء هذا الانفجار أفرادٌ من الإنكشارية قاموا بإشعال النار في مخزن بارود أقاموه في دار كانت على وشك أن تسقط، و ذلك آملاً في أن يتسبّب في أكبر عددٍ من الخسائر في صفوف أعدائهم. و لو أنّ الانفجار لم يخلّف إلاّ إصابات معدودة، إلاّ أنّ وقعه على نفسية الجنود الفرنسيين كان كبيرًا، حيث هالهم أمر أن تكون مواقع أخرى قريبة ملغّمة بشكل مماثل. و لأجل ذلك، تراجعت طلائع الميمنة بحوش دالي براهيم تلقائيًا، و عادت إلى صفوف لوائها ؛ كما أمر دي بورمون لوائي القلب بالتموقع بضع مئات من الأمتار إلى الخلف، و كان يحذو به إلى ذلك أيضًا الرغبة في فضّ الاشتباك، لا سيّما أن قوّاته نال منها الإرهاق، بعد قرابة تسع ساعات من بدء المعركة[2]. و على الساعة الرابعة، أمر المذكور الفيلق رقم 28 الّذي كان في أقصى الميسرة بالنكوص حوالي كيلومتر إلى سيدي يخلف، لتأمين ساقة الجيش[3].

و تجدر الإشارة إلى أنّ المواقع الجديدة الّتي اتّخذها الجيش الفرنسي كانت رديئة من وجهة النظر التعبوية، إذ كانت مكشوفة نسبيًا في عدّة نقاط للعدو، الّذي كان - فضلاً عن ذلك - يشرف عليها من المرتفعات الّتي تحصّن بها على طول خطّ المواجهة ؛ و ستستغلّ القوّات تحت إمرة بومزراق هذا التفوّق كما يجب خلال الأيام الأربعة التالية مخلّفةً خسائر معتبرة في صفوف قوّات دي بورمون[4].

هذا الأخير، مثلما كان متوقّعًا، نوّه في تقاريره بأنّه حقّق انتصارًا عكسه تقدّم الجيش الفرنسي مسافة تقارب الخمسة كيلومترات حتّى سفوح جبل بوزريعة، بالإضافة إلى أنّه غنم أزيد من أربعمائة رأس من البقر ؛ و و ذلك مع القليل جدًّا من الخسائر القليل جدًّا من الخسائر. لكن ما لم يذكره هو أنّ الفرسان الجزائريين استطاعوا أن يعترضوا عدّة مرّات سبيل المواكب بين المعسكرين و جبهة القتال، و لعلّ أهمّها كان الاستيلاء على موكب لنقل الذخائر الحربية، رغم كونه تحت حراسة سريّتين قوامهما مائتين و ثمانين

---

1. سيدي بن عدّي هو ضريح صوفي اتّخذ كما جرت العادة في ذلك العصر مزارًا ؛ و كان يقع في حوش قاوش بفحص الزواوة - بلدية دالي براهيم حاليًا -، قرب الطريق المؤدّية إلى سيدي يخلف (شراقة). و يبدو أنّ أغلب الفرنسيين الّذين رووا سير عمليات الحملة خلطوا بين هذا الضريح و آخر يحمل اسم سيدي بوناقة يبعد بنحو كيلومتر إلى الشرق الشمال الشرقي، و خصّوه بتسمية (Chapelle et Fontaine).

2. Juchereau de Saint-Denys, Op. cit., p. 180 ; Galibert, Op. cit., p. 296 ; Lauvergne, Op. cit., p. 77 ; Nettement, Op. cit., pp. 403-404 ; Pocard-Kerviler, Op. cit., p. 186 ; Rousset, Op. cit., pp. 166-167 & 169 ; de Quatrebarbes, Op. cit., pp. 39-40 ; Barchou de Penhoën, Op. cit., pp. 205-206 ; Fernel, Op. cit., p. 77 ; d'Ault-Dumesnil, Op. cit., pp. 61-62 ; Pétiet, Op. cit., p. 313 ; Allut, Op. cit., pp. 222-223 ; Villeneuve-Bargemon, Op. cit., pp. 353-354.

3. Lauvergne, Ibid. ; Berthézène, Op. cit., p. 87 ; Barchou de Penhoën, Ibid., p. 210.

4. Juchereau de Saint-Denys, Ibid., p. 181 ; Gaudin, Op. cit., pp. 37-38 ; d'Ault-Dumesnil, Ibid., pp. 59-60 & 63 ; Berthézène, Ibid., pp. 87-88 ; de Quatrebarbes, Ibid., pp. 44-45 ; Barchou de Penhoën, Ibid., pp. 208-209 ; Pellissier de Reynaud, Op. cit., T. 1, 1854, p. 50 ; Rozet, **Relation…**, Op. cit., pp. 193 & 271.

- سامح الترّ، المرجع السابق، ص. 648.

جنديًا من المشاة[1]. و هذا ما يثير تساؤلنا إن كان جميع أو قسمٌ من هؤلاء الجنود في عداد الخسائر "القليلة جدًّا" الّتي يتحدّث عنها دي بورمون، و الّتي قدّرت من قبل بعض المصادر بنحو ستّين إصابة فحسب، سبعة و ثلاثين منها في صفوف لواء دانريمون وحده[2].

أمّا الطرف الجزائري، فمن أصل عشرين ألف رجل كانوا يشكّلون نظريًا قوّات الباي مصطفى بومزراق، اثنا عشر ألف إلى خمسة عشر ألف على الأكثر شاركوا فعليًا بشكلٍ غير منسّق - كما رأينا - في المواجهات المتعاقبة الّتي شهدها يوم 24 يونيو[3]. و لا يوجد إلاّ سببين يمكنهما أن يعللا هذا التباين، أحدهما ناجم عن الروح الإنهزامية و عدم الاكثرات الّذي بدأ عددٌ متزايدٌ من البلدية و الكراغلة يظهرونه[4]، حيث "**وجد الكثيرون أنّه من غير المجدي أن يخاطروا بأنفسهم من أجل مساندة حساين**(كذا) **باشا... ؛ و عليه، كنت تراهم في الأزقّة يدخّنون غلاييهم و يلعبون لعبة الضامّة في كلّ هدوء كأنّ لا شيء غير مألوف يحدث. و أولئك الّذين كانوا مجبرين إلى الذهاب للقتال حرصوا أن لا يعرّضوا أنفسهم كثيراً للخطر، فكانوا يتوارون وراء أشجار الجنائن**"[5] ؛ و ثانيهما يتمثّل في انشغال المئات في إتمام متاريس بطّاريات المدفعية الّتي نصبهما قائد الجيش عند المرتفعات، و الّتي ذكر للداي أنّه سينتهي منها في ذات اليوم الّذي حدثت فيه المعركة، و هو العمل الّذي تطلّب أيضًا - بالموازاة - نقل قطع المدفعية الثقيلة و كمّيات كبيرة من البارود و القذائف[6].

---

1. Chennechot, Op. cit., p. 18 ; Gautherot, Op. cit., p. 93 ; Fernel, Op. cit., pp. 79-80.

انظر أيضًا : - Playfair, « **Épisodes…** », Op. cit., 1880, p. 206.

2. Pocard-Kerviler, Op. cit., p. 186 ; Desprez, Op. cit., p. 125 ; Gaudin, Op. cit., p. 36.

3. بفايفر، المصدر السابق، ص. 93. - Gaudin, Ibid., p. 36.

4. Dr. Barrachin, **Note traduite de l'arabe adressée par les principaux habitants d'Alger**, Paulin, Paris, 1833, p. 16.

5. Robin, « **Notes…** », Op. cit., pp. 81-82.

مفهوم الإجبار الوارد أعلاه مرده بشكل أساسي أنّ الداي حسين فرض السخرة على أفراد الجماعات الحرفية و البرّانية بشكلٍ دوري، لسدّ النقص الفادح في اليد العاملة الضرورية لنقل الذخائر، جرّ المدفعية و إقامة المتاريس ؛ أمّا بخصوص الجهد الحربي، فلم تشمل إلزامية الخدمة سوى العناصر الّتي تتقاضى رواتب من خزينة الدولة مثل جماعات الإنكشارية و الزواوة و السودانيين : - Raynal, Op. cit, p. 17.

6. Juchereau de Saint-Denys, Op. cit., p. 181 ; Gaudin, Ibid., pp. 37-38 & 40 ; d'Ault-Dumesnil, Op. cit., p. 60 ; Péchot, Op. cit., p. 152 ; Gautherot, Ibid., pp. 94-95 ; Chennechot, Ibid. ; Rouquerol, Op. cit., p. 59.

كانت البطّاريات الجزائرية (أ، ب، ج) المقامة في نقاط استراتيجية بالمنطقة عددها ثلاثة، و مجموع مدافعها ثلاثة و عشرين أو خمسة و عشرين مدفعًا : أ. البطّارية الأكثر شمالاً ضمّت من ثمانية إلى عشرة مدافع كبيرة، اثنان منها من العيار 24 ؛ و أقيمت على خاصرة جبل بوزريعة من الجهة الجنوبية الغربية، بحيث كان مجال قصفها يغطّي شعاب بني مسّوس. ب. البطّارية الوسطى ذات خمسة مدافع، و نعتقد أنّها كانت على مقربة من قبّة سيدي بوناقة، حيث يتشعّب الدرب باتّجاه فحص بني مسّوس و زواوة. ج. البطّارية الأكثر جنوبًا، ذات ستّة مدافع، المرجّح أنّ موقعها كان بأكمة تشرف على حوش دالي إبراهيم، و لا تبعد كثيراً عن غيضة دي كار (Bois des Cars). و إلى جانب هذه البطّاريات، لا بدّ أنّه وُجدت بطّارية صغيرة ذات أربعة مدافع (؟)، غير أنّنا نجهل موقعها لعدم توفّر أيّة معلومات بشأنها :

و مهما يكن من أمر الهزيمة، فإنّها لم تفتّ من عزيمة فئةٍ قليلة نسبيًا من الجزائريين، الّتي بقيت تنازل العدو حتّى تعذّر عليها ذلك بسبب هبوط الليل[1]. و في الأثناء، تمّ تفكيك معسكر القوّات الإنكشارية و المخزنية الّذي أقيم عند نهاية هضبة الأبيار، و نقلت أخبيته إلى داخل المدينة أو نصبت على مقربة منها[2] ؛ فبعدما دنت الخطوط الفرنسية إلى أقلّ من كيلومترين منه، اتّخذت القيادة الجزائرية هذا القرار من باب الاحتراس دونما شكّ، خشية أن يتكرّر مشهد سقوط المعسكر مجدّدًا بيد الأعداء.

- **معركة سيدي عبد الرحمان بوناقة (25-29 يونيو)**

في نفس الليلة، أمر دي بورمون بأن تنقل قيادة الأركان من سيدي فرج إلى معسكر أسطه والي، لتكون أقرب إلى مسرح العمليات ؛ كما أمر بانتقال ألوية الفرقة الثالثة -، الّتي كانت مرابطة بشبه الجزيرة و لم تشارك بعد في القتال، بناءً على طلب من قائدها الدوق دي كار/ديكار (duc des Cars/d'Escars) - بالتوالي إلى الجبهة. و في ذات السياق، صدر أمر للّواء بقيادة مونك دوزر (Monck-d'Uzer) بالتراجع من أسطه والي إلى سيدي فرج، لكي يحلّ محلّ الفرقة المذكورة و لا يبقى المعسكر الأساسي مكشوفًا[3]. إضافةً إلى ذلك، أصدرت أوامر إلى فرق الهندسة لإقامة ثلاثة معاقل على الطريق المؤدّي من سيدي يخلف إلى سيدي بن عدّي، بحيث تفصل بينهما مسافة تتراوح من ألف إلى ألف و مائتي متر[4].

ترجمت هذه الترتيبات و التحرّكات، الّتي عزّزت الجبهة بلواءين إضافيين، تنبّه القيادة الفرنسية بصعوبة المرحلة المقبلة من القتال، إزاء خصمٍ مصمّم و متجلّد رغم تقلّص تعداد رجاله إلى أقلّ من النصف - كما رأينا - بسبب القتل و الفرار و الهجر. و ذاك بالذات ما سوف يصعّب تلك العمليات، بشكلٍ

- Rouquerol, Ibid. ; Matterer, Op. cit., p. 116 ; Pocard-Kerviler, Ibid., p. 189 ; Perrot, Op. cit., p. 121 ; Lauvergne, Op. cit., p. 77 ; Villeneuve-Bargemon, Op. cit., p. 361. انظر الملحق رقم 67.

1. Berthézène, Op. cit., p. 88 ; Barchou de Penhoën, Op. cit., p. 206 ; Nettement, Op. cit., p. 404 ; d'Ault-Dumesnil, Op. cit., pp. 55-56.

2. Playfair, « **Épisodes…** », Op. cit., 1880, p. 206.

3. Barchou de Penhoën, Ibid., p. 211 ; Rousset, Op. cit., p. 171 ; Esquer, Op. cit., p. 338 ; Nettement, Ibid., pp. 404-405 ; Berthézène, Ibid. ; d'Ault-Dumesnil, Ibid., p. 63 ; Gautherot, Op. cit., p. 94 ; Rouquerol, Op. cit., pp. 57-58 ; de Quatrebarbes, Op. cit., p. 45 ; Desprez, Op. cit., pp. 128-129.

ليترك مجالاً للفرقة الثالثة على الميسرة، انزاحت الفرقة الأولى بقيادة برثيزن يمينًا و حلّت بحوش دالي براهيم محلّ لواء دانريمون، الّذي تلقّى فيما يخصّه اليوم التالي أمرًا بالعودة إلى أسطه والي :

- Berthézène, Ibid., pp. 88-89 ; Barchou de Penhoën, Ibid. ; Rousset, Ibid., p. 176.

4. Barchou de Penhoën, Ibid., pp. 211-212 ; Rousset, Ibid., p. 172 ; d'Ault-Dumesnil, Ibid., p. 64 ; Gautherot, Ibid. ; Esquer, Ibid., p. 341 ; Fernel, Op. cit., p. 84 ; Desprez, Ibid., p. 137.

سيتطلّب من الفرق العسكرية يوم 25 يونيو بأكمله لإتمامها ؛ إذ كثّف الجزائريون بشكلٍ غير مسبوق مناوشاتهم و هجماتهم ضدّ الفرنسيين، ليس فقط على خطوط المواجهة، بل أيضًا خلفها و على طول طريق الإمداد : فلقد هاجمت الخيّالة - الّتي بلغ تعدادها ستّة أو سبعة آلاف رجل - خلال الصبيحة أوّل لواءٍ خروجًا من سيدي فرج في الطريق، و انتهبت جزئيًا متاعه المنقول في ساقة الرتل ؛ و تعرّضت كذلك للّواءين اللاحقين، حيث أرهقتهما بهجمات متتابعة على جوانبهما و عطّلت مسيرهما، فلم يبلغا مقصدهما إلاّ العاشرة ليلاً[1]. و ما خلا تلك العمليات، تمكّنت القوّة المذكورة من الاستيلاء، قرب سيدي يخلف، على قافلة تموين متوجّهة للقوّات الفرنسية المتمركزة بباغچه دەره[2].

و لم تكن الأمور بأحسن حالاً على خطّ الجبهة، إذ ارتفعت الخسائر الفرنسية إلى ما بين المائتين و المائتين و خمسين إصابة، جرّاء المناوشات و الهجمات الخاطفة الّتي كان يشنّها الجزائريين دون هوادة، مستغلّين معرفتهم الجيّدة لميدان القتال. و من جانب آخر، باشرت بطّاريتان جزائريتان عملهما خلال النهار دون أن تخلّف خسائر تذكر في البدء، إذ كان مسار القذائف طويلاً بحيث كانت تهوي خلف الخطوط الفرنسية ؛ لكن الطوبجية ضبطوا التصويب تدريجيًا، بفضل جنودٍ أرسلوا خصيصًا لاستطلاع وقع المدفعية على مواقع العدو[3].

آخذًا تلك المستجدات بعين الاعتبار، تناقش دي بورمون مع قادة أركانه حول احتمال القيام بانسحاب تعبوي إلى أسطه والي بشكل مؤقّت أو التحضير لهجوم سريع للاستيلاء على المرتفعات الّتي يشغلها الجزائريون ؛ و فيما استبعد الاقتراح الأوّل خوفًا من أن يحسبه الأعداء انهزامًا يجرّئهم أكثر و يقنع المتردّدين بالانضمام لقتالهم، أرجئ الثاني أيّامًا بالأساس بسبب عدم وجود قطع مدفعية ثقيلة تضاهي تلك الّتي نصبها الجزائريين، كون المراكب الحاملة لمدافع الحصار و الخيول و العتاد الضروري وصلت للتو بإزاء سيدي فرج، و لم يتمّ البدء في إنزال حمولتها بعد[4].

---

1. Rousset, Op. cit., p. 172 ; Gaudin, Op. cit., pp. 39-40 ; Desprez, Op. cit., p. 130 ; Esquer, Op. cit., pp. 338 & 341 ; Rozet, **Relation…**, Op. cit., p. 180.

2. Desprez, Ibid., pp. 129-130 ; Gaudin, Ibid., p. 39 ; Barchou de Penhoën, Op. cit., pp. 212-213 ; Pétiet, Op. cit., p. 317. - Pocard-Kerviler, Op. cit., p. 187 ; Rozet, Ibid., p. 185. انظر ايضًا :

3. Playfair, « **Épisodes…** », Op. cit., 1880, p. 207 ; Galibert, Op. cit., p. 298 ; Gautherot, Op. cit., pp. 94-95 ; d'Ault-Dumesnil, Op. cit., p. 67 ; Rousset, Ibid., pp. 174-176 ; de Quatrebarbes, Op. cit., p. 46 ; Barchou de Penhoën, Ibid., pp. 216-218 ; Rouquerol, Op. cit., p. 59.

4. Bartillat, **Relation…**, Op. cit., p. 158 ; de Quatrebarbes, Ibid., pp. 45-46 ; Nettement, Op. cit., pp. 409-410 ; Berthézène, Op. cit., p. 89 ; Desprez, Ibid., pp. 133-134 ; Chennechot, Op. cit., p. 18 ; Perrot, Op. cit., pp. 118-119 & 121 ; Gaudin, Ibid., p. 40 ; d'Ault-Dumesnil, Ibid., p. 65 ; Esquer, Ibid., pp. 343-344.

و لم يفضِ الاجتماع سوى إلى ضرورة تعزيز القوّات المكلّفة بضمان سلامة المواكب على الطريق الرابط بين سيدي فرج و سيدي يخلف. و عليه، تمّ تجريد الجبهة اضطرارًا من لواء دانريمون، الّذي أُمر يوم 26 يونيو بالتراجع إلى أسطه والي[1]. و في ذات السياق، راسل دي بورمون قائد الأسطول طالبًا منه أن يضع تحت تصرّفه ثلاثة آلاف من جنود البحرية ليتولّوا حراسة معسكر سيدي فرج، بغية إخلاء سبيل لواء مونك دوزر المرابط به. بيد أنّ دوپيريه، الّذي التزم بتوفير ألف و أربعمائة رجلٍ فقط[2]، لم يستجب إلاّ بتثاقل للطلب، حيث استغرقه الأمر من مساء 26 إلى صباح 28 من الشهر المذكور ؛ و هذا ما استلزم الإبقاء على كتيبة من جنود المشاة لمساندة زملائهم من البحرية[3].

مثل سابقه، شهد يوم 26 يونيو ارتفاع عدد الإصابات في صفوف القوّات الفرنسية، و لا سيّما لوائي برثييه دُه سوڤينيي (Berthier de Sauvigny) و هورل (Hurel) من الفرقة الثالثة، اللّذان كانا في مرمى مدافع بطّاريتين و يواجهان في ذات الوقت أكبر تجمّعات الإنكشارية[4]. و تعترف المصادر بأنّه أصيب من فرقة دي كار ما يناهز المائة و ثمانية و ستّين جنديًا، فيما لم تتجاوز خسائر فرقة برثيزن السبعين[5]. و كانت أكثر المواجهات دموية عندما تجاوز رماة لواء برثييه المراكز المتقدّمة، قبل أن يضطرّوا إلى الارتداد وراءً مسرعين أمام هجوم معاكس من خمسمائة إلى ستّمائة جندي إنكشاري ؛ و قد تطلّب ردّ هذه القوّة على أعقابها تدخّل رماة قنابل الفيلق رقم 36، تدعمهم أربعة سرايا، لكن هذا العمل البطولي كلّفهم مقتل نصف أفراد مجموعتهم[6].

---

1. Berthézène, Op. cit., p. 88 ; Barchou de Penhoën, Op. cit., p. 211 ; Rousset, Op. cit., p. 176 ; Allut, Op. cit., p. 225.

2. علمًا أنّ البحرية كان بمقدورها توفير عشرة آلاف رجل لمؤازرة الجيش عند الضرورة : - Rozet, **Relation…**, Op. cit., pp. 57-58.

3. Barchou de Penhoën, Ibid. ; Pocard-Kerviler, Op. cit., pp. 187-188 ; Nettement, Op. cit., p. 411 ; Berthézène, Ibid., p. 89 ; Desprez, Op. cit., p. 136 ; Chennechot, Op. cit., p. 18 ; Perrot, Op. cit., p. 122 ; Gautherot, Op. cit., p. 95 ; Gaudin, Op. cit., p. 41 ; Galibert, Op. cit., p. 297 ; Matterer, Op. cit., p. 115 ; Bartillat, **Relation…**, Op. cit., p. 159 ; Rousset, Ibid., p. 182.

4. لقد عاد الأتراك العثمانيون و أقاموا معسكرات صغيرة قريبة من خطوط المواجهة مع الفرق الفرنسية ؛ و المرجّح أنّ التجمّع المذكور تموقع قرب قبّة سيدي عبد الرحمان بوناقة، على الطريق الرابط بين الجزائر و سيدي يخلف. انظر الملحق رقم 67. انظر في هذا الصدد : - Perrot, Ibid., pp. 122-123.

5. Gaudin, Ibid., p. 40 ; Berthézène, Ibid. ; Nettement, Ibid., pp. 412-413 ; Rousset, Ibid., p. 176 ; Barchou de Penhoën, Ibid., p. 217 ; Fernel, Op. cit., p. 85 ; Desprez, Ibid., p. 133 ; Pétiet, Op. cit., p. 319 ; Jean-Baptiste Lacroix, **Esquisse historique et médicale de l'expédition d'Alger en 1830**, Imprimerie de Amb. Firmin Didot, Paris, 1831, p. 68.

من باب المقارنة، يذكر روكرول أنّ كلّ يوم من أيّام معركة سيدي بوناقة كان يكلّف القوّات الفرنسية ثلاثمائة أو أربعمائة بين قتيل و جريح ؛ و هذا يتوافق إلى حدٍّ ما مع ما أورده الضابط السامي بارشو ده پنهوان من أنّه، بحلول 27 يونيو، بلغ إجمالي الخسائر الفرنسية قرابة ألفي رجل : - Rouquerol, Op. cit., p. 59 ; Barchou de Penhoën, Ibid., p. 218.

6. Esquer, Op. cit., p. 344 ; Nettement, Ibid., pp. 415-416 ; Rozet, Ibid., pp. 190-191.

إنّ المقاومة الشرسة الّتي أبداها الجزائريون، و الّتي انعكست في ارتفاع حصيلة الخسائر الفرنسية، ألجأت القائد العامّ للحملة إلى طلب إرسال مددٍ على وجه السرعة من تسعمائة رجل كان قد جرى تجميعهم في مستودع الذخيرة بطولون، على متن المراكب الّتي أرسلها دوبيريه إلى الترسانة خصيصًا لجلب مؤنٍ إضافية و لوازم بحرية ؛ لكنه بعد أن أعلِم بأنّ الجنود المذكورين أعيدوا في غضون ذلك إلى وحداتهم الأصلية، أمر قائد فرقة الاحتياط المرابطة بجنوب شرق فرنسا بأن يرسل له اللواء الأوّل - الّذي كان قوامه حوالي 3428 رجل، على غرار باقي الألوية - لتعزيز قوّاته في أقرب وقتٍ ممكن[1].

بما أنّ دي بورمون أحجم عن القيام بهجوم - أو بالأحرى أرجأه إلى إشعار آخر -، بسبب عدم توفّر كلّ العوامل المؤاتية، فقد أذِن لكلّ من برثيزن و دي كار القيام باندفاعات محدودة تتقدّم خلالها قوّاتهم مسافات قصيرة جدًّا، فقط بغاية إزاحة العدو عن مكامنه أو الاستيلاء على نقاط دفاعية تحتمي خلفها.

و لقد تخلّلت تلك الحركات في البدء ردود فعل غير منتظمة يعوزها التنسيق من طرف الجزائريين، لكنّها لم تلبث أن تحوّلت يومي 27 و 28 يونيو إلى هجمات و هجمات معاكسة مركّزة فاجأ بعضها الفرنسيين في إحكامها و سرعة تنفيذها[2] ؛ و مثال عن ذلك، سلسلة الهجمات الّتي شنّت صباح 28 يونيو على جناحي القوّات الفرنسية : فعلى الميمنة، بعد فشل هجوم أوّلي على وادي بوشبوك[3] دام ساعتين و اشترك فيه ما يربو عن ثلاثة آلاف جزائري، نجح المئات من "القبائليين و الأتراك"[4] في التسلّل مباغتين جنود إحدى كتائب فرقة برثيزن بينما كانوا يفكّكون و ينظّفون أسلحتهم ظنًّا منهم أنّ الخطر زال، و أثخنوا فيهم ؛ و تلمّس أغلب الجنود الفرنسيين النجاة بالفرار باتّجاه الكتائب القريبة، الّتي هرعت لنجدتها. و بانضمام فرسان المخزن، تحوّل النزال الجاري إلى معركة حقيقية سقط خلالها المئات من

---

1. Bartillat, **Relation…**, Op. cit., pp. 159-160 ; Desprez, Op. cit., pp. 138-139 ; Perrot, Op. cit., pp. 119-122 ; Bartillat, **Coup…**, Op. cit., p. 129 ; d'Ault-Dumesnil, Op. cit., p. 68 ; Esquer, Op. cit., p. 345 ; Pellissier de Reynaud, T. 1, 1854, Op. cit., p. 55.

انظر أيضًا : - Galibert, Op. cit., p. 298.

تجدر الإشارة إلى أنّه حال سقوط حصن الإمبراطور (برج مولاي حسن كما كان يعرف لدى عموم الأهالي) بيد الفرنسيين يوم 4 يوليو، سارع دي بورمون إلى إرسال أمر إبطال بخصوص المدد المذكور ؛ و وصلت الرسالة حين كانت القوّات تتهيّأ للركوب على متن السفن :

- Desprez, Ibid., p. 139 ; Anonyme, **Suite des détails de la prise d'Alger**, Typographie d'H. Terrasson, Toulon, 1830, p. 2 ; Perrot, Ibid., p. 122.

2. Gautherot, Op. cit., pp. 94-95 ; Nettement, Op. cit., pp. 413, 415-417 & 419 ; Rousset, Op. cit., p. 180 ; Péchot, Op. cit, p. 152.

3. وادي بوشبوك، يقع بحوش دالي براهيم من جهة أولاد فايت ؛ و هو أحد روافد وادي بريجة، الّذي يصب بالقرب من سيدي فرج.

4. تبيّن لنا أنّ عددًا ليس بقليل من المصادر الفرنسية كانت تدرج تحت مصطلح "الأتراك" جنود الإنكشارية و الزواوة النظاميين، إضافةً إلى الكراغلة المتطوّعين أحيانًا ؛ و ذلك نظرًا إلى بعض التشابه في لباسهم.

كلا الجانبين ؛ و انتهت في الأخير بانسحاب الجزائريين إلى مواقعهم الأولى. أمّا على أقصى الميسرة الفرنسية، فاغتنم حوالي ستّمائة إنكشاري فرصة حلول كتيبة محلّ أخرى في موقع متقدّم ليهاجموا بقوّة ؛ فتداعت سريتان للفرار تحت وقع الصولة، فيما حوصرت ثالثة. و لزم الأمر دعم ستّة سرايا إضافية لاحتواء المهاجمين، و من ثمّ ردّهم على أعقابهم. و بعد أن أعاضوا الخسائر في صفوفهم بمتطوّعين، جدّد الإنكشارية هجومهم مرّتين، دون أن يتمكّنوا من ضعضعة الصفوف الفرنسية ؛ و استحال القتال إلى مناوشات بين الجانبين، و تبادل إطلاق المدفعية استمرّ حتّى ما بعد الظهيرة[1].

و هكذا، رغم التصميم و الاستبسال الّذي أبداه الجزائريون في القتال، إلاّ أنّ ذلك لم يمنع القوّات الفرنسية من التشبّث بمواقعها، و حتّى أن تتقدّم بضع مئات من الأمتار باتّجاه المرتفعات الّتي تمركزت بها قوّات بومزراق ؛ و كان السبب الرئيسي وراء ذلك - بلا ريب - هو التفوّق العددي لصالح الفرنسيين على جبهة القتال بباغچه دەره، الّذي من نسبة حوالي اثنين ضدّ واحد عند بداية معركة سيدي عبد الرحمان بوناقة تضاعفت إلى قرابة أربعة ضدّ واحد عند نهايتها : فمن أربعة ألوية فرنسية، ارتفع عددها عشية هجوم 29 يونيو الحاسم إلى سبعة - أي ما يوازي خمسة و عشرين ألف جندي -، و هذه القوّة العددية هي الّتي خفّفت تناسبيًا من وقع الخسائر المعتبرة في صفوف قوّات دي بورمون، الّتي تراوحت بين ثلاثمائة أو أربعمائة يوميًا[2].

---

1. Chennechot, Op. cit., p. 19 ; Desprez, Op. cit., pp. 138-140 ; Berthézène, Op. cit., pp. 89-90 ; Pocard-Kerviler, Op. cit., p. 188 ; Esquer, Op. cit., pp. 344-345 ; Rousset, Op. cit., pp. 177-180 ; de Quatrebarbes, Op. cit., pp. 46-47 ; Barchou de Penhoën, Op. cit., p. 217 ; Fernel, Op. cit., pp. 86-87 ; Gaudin, Op. cit., pp. 41-42 ; Galibert, Op. cit., pp. 298-299 ; Allut, Op. cit., pp. 225-226 ; Pellissier de Reynaud, Op. cit., T. 1, 1854, p. 54 ; Rozet, **Relation…**, Op. cit., pp. 196-197.

الملفت للانتباه أنّ الجنرال برثيزن حاول أن يقلّل من أهمّية القتال الّذي جرى صباح 28 يونيو بين بعض كتائبه و قسمٍ من قوّات بومزراق، حيث ذكر أنّه لم يسفر سوى على قطع رؤوس ثلاثة جنودٍ فرنسيين، و أنّ الجزائريين انسحبوا دون أن يكابدوا أيّة خسائر تقريبًا ؛ و إن علمنا أنّ القنصل الإنكليزي سانت جون، الّذي كان يستقي معلوماته من مصادر موثوقة، أورد أنّ خسائر القبائليين وحدهم في تلك "المناوشة" بلغت حوالي الأربعمائة، فيمكن اعتبار ذلك مؤشّرًا يعطينا تصوّر تقريبي عن الحجم الحقيقي للخسائر الفرنسية، الّتي لطالما تكتمّ عليها ضبّاط الأركان بنيّة الحفاظ على معنويات الجند أو التغطية على أخطائهم :

- Berthézène, Ibid. ; Playfair, « **Épisodes…** », Op. cit., 1880, p. 207.

و لقد انفرد القبطان ماتيرر بإعطاء توضيحات حول القتال السالف الذكر، حيث يفهم من سياق كلامه أنّ جنرالاً لم يذكر اسمه هو من أمر قائد الكتيبة بأنّ يقوم جنوده بتنظيف بنادقهم، و كان المسؤول بالتالي عن هذه العثرة الّتي خلّفت خمسين قتيل و ثلاثمائة جريح ضمن الكتيبة المذكورة : - Matterer, Op. cit., p. 117.

انظر رواية الجنرال المعني پوريه دُه مورڤان (Poret de Morvan) المغايرة للأخرى عن القتال : - Nettement, Op. cit., pp.421-422.

2. Rouquerol, Op. cit., p. 59 ; Villeneuve-Bargemon, Op. cit., p. 357.

انظر أيضًا : - Matterer, Ibid., p. 116.

أمّا خسائر الجانب الجزائري، فكانت أفدح من ذلك بكثير، حيث تزايد عدد الإصابات بالتزامن مع اشتداد المعارك : ففي 27 يونيو، فقد الجزائريون حوالي ألف رجل[1]، أغلبهم في القتال الضاري الّذي اشتدّ على الميسرة الفرنسية ؛ و اليوم الّذي يليه، بلغت الخسائر ألف و مائتين، من بينهم كما أسلفنا أربعمائة متطوّع قبائلي و جندي زواوي[2] ؛ أمّا خلال يوم 29 يونيو الّذي حسمت فيه المعركة، فارتفعت بشكلٍ ملموس إلى ألفٍ و خمسمائة قتيل[3].

و تكبّدت فرق الإنكشارية، كونها دائمًا تقاتل في الصفوف الأمامية، خسائر غير قابلة للتعويض[4]. و للمحافظة على حدٍّ أدنى من الكثافة في المواجهات، لجأ ضبّاطها إلى تشكيل وحداتٍ مقاتلة من أربعين إلى خمسين فردًا، كان يتمّ انتقاؤهم من بين أكثر الرجال تصميمًا و إقدامًا من سكّان الإيالة[5] ؛ و بالإضافة إلى ذلك، اضطرّوا في الأيّام الأخيرة إلى قبول تطوّع إنكشاريين متقاعدين و مقعدين بلغ بعضهم من العمر عتيًّا[6].

ممّا سبق ذكره، يظهر أنّ معركة سيدي بوناقة وازت أسطه والي في حجم خسائرها، لكنّها فاقتها من حيث النسبة، إذ تمخّضت عن مقتل و جرح قرابة نصف أفراد القوّات الجزائرية المجابهين للفرنسيين، الّذين انخفض تعدادهم - بالموازاة مع تواصل حالات الفرار و توقّف التعبئة شبه التامّ - إلى ما يناهز السبعة آلاف وفق حساباتنا[7].

---

1. Playfair, « **Épisodes…** », Op. cit., 1880, p. 207.

2. Matterer, Op. cit., pp. 116-117 ; Playfair, Ibid. ; Raynal, Op. cit., p. 18.

الجدير بالذكر أنّ جنود زواوة النظاميين - الّذين عدّهم الكتّاب الفرنسيون أتراكًا - قاتلوا باستماتة و شجاعة فائقتين ؛ و يمكننا أن نتفهّم ذلك إذا علمنا أنّهم كانوا يذودون عن بيوتهم في الفحص - الّذي حمل اسمهم - أو كانوا يسعون لطرد العدو من الأجزاء الّتي احتلّها به.

من جانب آخر، ذكر القناصل الأوروبيون المحتمون في إقامة السفير الأمريكي - قرب سيدي بنّور - يوم 29 يونيو لدي بورمون بأن خسائر الجزائريين اليوم السابق بلغت ستّمائة قتيل و ألف و أربعمائة جريح : - Lauvergne, Op. cit., p. 79.

انظر أيضًا : - Raynal, Ibid.

3. Matterer, Ibid. ; Pocard-Kerviler, Op. cit., p. 189.

لتتبيّن فداحة الخسائر في صفوف الجزائريين، يكفي أن نعرف أنّه في ظرف أربعة أيّام (25 إلى 28 يونيو) امتدّت المقبرة الّتي أقيمت لدفن الشهداء شرق سيدي بوناقة على طول ثلاثمائة متر، و ناهزت مساحتها هكتارًا واحدًا :

- Ahmed Karim Laibeche, **Haouchs et villages du Sahel algérois**, Imp. Jeunesse, Alger, 2012, pp. 20-21 ; Allut, Op. cit., p. 226.

4. Perrot, Op. cit., p. 124.

5. Nettement, Op. cit., pp. 416-417.

6. أشار ماتيرر إلى وفاة تركي تسعيني يوم 24 يوليو أصيب خلال قتال الفرنسيين برصاصة اخترقت فخذه و خصيتيه ؛ و قد علّق على ذلك قائلاً : " **عندنا، في سنّ التسعين، لا نقاتل بعد من أجل الوطن ؛ إنّ ذاك لهو فعلاً مثالٌ جيّد.**" : - Matterer, Ibid., p. 149.

7. تجدر الإشارة إلى أنّنا لم نأخذ في الحسبان ثلاثة إلى أربعة آلاف من فرسان المخزن، نظرًا لكون مجال عملياتهم لم يكن على اجبهة القتال الرئيسية، بل تركّز في ترصّد المفارز و اعتراض طريق المواكب بين سيدي يخلف و المعسكريْن الآخرين.

و إضافةً إلى القلّة العددية، عانت القوّات الجزائرية بدرجة محدودة من قلّة الانضباط و التسيّب، و بالأخصّ في صفوف المتطوّعين ؛ و من مظاهره الأكثر بروزًا، أنّه فور أسرهم أحد جنود الأعداء أو - في أغلب الأحيان - قتله و حزّ رأسه، كانوا يتركون ميدان المعركة قاصدين العاصمة لقبض المكافأة. و بتصرّفهم ذلك، كانوا يخِلّون بالنظام القتالي للجيش و يوهنون بذاك الشكل صفوفه. و لمعالجة الوضع جذريًا، أصدر الداي حسين - حسب ما ذكره سانت جون - أمره بإيقاف توزيع مكافآة المائة دولار (إسباني) لكلّ رأس ؛ لكنّه، بناءً على التوجّه الجديد بمعاملة الجميع على قدم مساواة، وعد بأنّه سيجازي في وقتٍ لاحقٍ المقاتلين كافّةً بسخاء[1].

و إلى جانب ذلك، تجلّى الفلتان أيضًا في انفصال زمرٍ من المتطوّعين - لا سيّما يوم 27 يونيو - لنهب عددٍ من دور اليهود الريفية في فحصي بوزريعة و الأبيار. و قد أبدى باي التيطري، الّذي رفعت له شكاوى بشأن تلك المشاغب، عجزه في الظرف الراهن عن معاقبة المتسبّبين فيها، خشية أن يفضي ذلك إلى تخلّي المزيد من أفراد القبائل عن قتال الفرنسيين[2].

مهما يكن من أمر أعدائه، و رغم ارتفاع الخسائر المطرّد في صفوف قوّاته، فقد تأنّى دي بورمون إلى 28 يونيو، كي يحدّد فجر اليوم التالي موعدًا للهجوم، الّذي سبق أن أجّله أكثر من مرّة، و كان من المخطّط أن يجعله يسيطر على هضبة الأبيار و مرتفعات بوزريعة الإستراتيجية ؛ و ذلك حتّى تأكّد - بناءً على تقارير من الجنرالين ڤالازيه و دي لا هيت، قائدي سلاح الهندسة و المدفعية - من جاهزية مدفعية الحصار و العتاد الضروري للإحاطة بسلطان قلعه سي أو - كما كان يعرف لدى الأروبيين - حصن الإمبراطور، مفتاح مدينة الجزائر[3].

و استعدادًا لذلك، نقل دي بورمون ظهر ذات اليوم قيادة الأركان إلى معسكر فرقة ديكار (سيدي بن صلدام) عند ميسرة القوّات الفرنسية ؛ كما أمر لوڤردو بأن تتحرّك اثنتان من ألويته بعد العصر من سيدي فرج

---

1. Playfair, « **Épisodes…** », Op. cit., 1880, p. 207.

بالنظر إلى ارتفاع قيمة المكافأة، نعتقد أن القنصل الإنكليزي سانت جون أو ربمّا مواطنه پلايفر - الّذي نشر مقاطع من يومية القنصلية الّتي مسكها الأوّل - خلط بين المكافأة المالية الّتي حدّدها الداي عن كلّ أسير فرنسي حيّ بمائتين أو مائتي و خمسين ريال بوجو، و تلك الّتي خصّصها لكلّ من يأتي برأس جندي مقتول، و الّتي كانت مقدّرة بخمسة و عشرين ريال بوجو : Robin, « **Notes…** », Op. cit., p. 51. -

انظر أيضًا : Matterer, Op. cit., p 119 ; Rozet, **Relation…**, Op. cit., pp. 283-284. -

2. Playfair, Ibid.

3. Gautherot, Op. cit., p. 95 ; d'Ault-Dumesnil, Op. cit., p. 68 ; Nettement, Op. cit., pp. 424-425 ; Rousset, Op. cit., pp. 180-181 ; Barchou de Penhoën, Op. cit., p. 219 ; Fernel, Op. cit., p. 88 ; Rouquerol, Op. cit., p. 60 ; Juchereau de Saint-Denys, Op. cit., pp. 181-182 ; Péchot, Op. cit., p. 152 ; Galibert, Op. cit., p. 299.

و أسطه والي كي لا تثيرا انتباه الجزائريين، و تتركّزان في الوسط على طريق المؤدّي للجزائر، بجنب ألوية برثيزن الثلاث الّتي احتفظت بمواقعها في الميمنة بحوش دالي براهيم[1].

تمثّل مخطّط دي بورمون الهجومي - الّذي استوحاه إجمالاً من خطّة إبراهيم آغا يوم أسطه والي - في مباغتة الجزائريين وقت السحر بتقدّم ثلاث ألوية من الجناحين أوّلاً لتقوم بمناورة إلتفافية (اثنان على ميمنة قوّات بومزراق، و واحد على ميسرتها) ؛ و ذلك بشكلٍ متزامنٍ مع شنّ ثلاث ألوية أخرى لهجوم جبهي، فيما تبقى السابعة في الساقة كقوّة احتياط و حماية لعتاد الحصار، لتوقف الخيّالة الجزائرية في حال قيامها بهجومٍ خلفي[2].

باشرت الألوية المذكورة تحرّكها مدعّمة بأربعين مدفعًا ميدانيًا في صمت بحدود الساعة الثالثة، بينما كان الظلام لا يزال مخيّمًا ؛ و كان يتقدّمها لواء برثييه على أقصى الميسرة، الّذي اتّجه إلى الشمال الشرقي و حاذى وادي بني مسّوس. و وفّر الضباب الكثيف الّذي لفّ المنطقة غطاءً لزحف الفرنسيين، بحيث لم يتفطّن له الجزائريون المتمركزون في الميمنة، إلاّ بعد أن أحيط بهم من الجهتين الأمامية و الجانبية ؛ و رغم وقع المفاجأة، فإنّهم هرعوا إلى أسلحتهم و حاولوا التصدّي للهجوم في مقاومة خاسرة سلفًا، حيث اشتبكوا في إطلاق نار كثيف، و في بعض المواضع التحموا في قتالٍ استخدم فيه الفرنسيون حراب البنادق بفاعليّة[3]. و لم يدم الأمر سوى فترة قصيرة حتّى ولّى "الأتراك و العرب" الأدبار منهزمين، بعد أن سقط المئات منهم صرعى[4]. و على إثر ذلك، غنم الفرنسيون معسكر للإنكشارية قرب سيدي عبد الرحمان بوناقة ضمّ عشرين خباءً، و بطّارية من خمس أو ستّ مدافع لم يتسنّ للجنود المنهزمين إزاحتها[5].

و لم تنتظر أغلب قوّات القلب و الميسرة الجزائرية الّتي بلغتها أصداء القتال الواقع الصدام مع باقي الألوية الفرنسية، و تداعت للانسحاب على عجل ؛ و في غضون ذلك، قامت بجرّ مدافع بطّاريات المواقع الأخرى و ألقتها في وديانٍ و وهادٍ قريبة كي لا تقع في قبضة العدو. و عليه، صادفت القوّات

---

1. de Quatrebarbes, Op. cit., p. 48 ; Fernel, Op. cit., p. 88 ; Rousset, Op. cit., pp. 181-182 ; d'Ault-Dumesnil, Op. cit., p. 68 ; Desprez, Op. cit., pp. 140-141.

انظر الملحق رقم 67.

2. Berthézène, Op. cit., p. 90 ; Esquer, Op. cit., p. 346 ; Rousset, Ibid., pp. 182-183 ; Juchereau de Saint-Denys, Op. cit., p. 182 ; Pétiet, Op. cit., p. 326.

3. Barchou de Penhoën, Op. cit., pp. 220-222 ; Anonyme, **La conquête…**, Op. cit., p. 59 ; d'Ault-Dumesnil, Ibid., p. 69 ; Juchereau de Saint-Denys, Ibid. ; Pétiet, Ibid., pp. 327-328 ; Gaudin, Op. cit., p. 43 ; Villeneuve-Bargemon, Op. cit., p. 357.

4. Desprez, Ibid., p. 143 ; d'Ault-Dumesnil, Ibid., pp. 69-70 ; Berthézène, Ibid., p. 91 ; Rousset, Ibid., p. 184 ; Fernel, Ibid., p. 89 ; Anonyme, Ibid. ; Barchou de Penhoën, Ibid., pp. 221-222 ; Allut, Op. cit., p. 226.

5. Esquer, Ibid., p. 347 ; Desprez, Ibid. ; Chennechot, Op. cit., p. 20 ; Gaudin, Ibid. ; Nettement, Op. cit., p. 430.

بقيادة لوڤردو و برثيزن - على عكس ما حصل مع قوّات دي كار - مقاومة ضعيفة و غير متوقّعة اقتصرت على مناوشات متفرّقة[1].

حاول جنود الإنكشارية و من رافقهم في فرارهم جمع شتاتهم على خطّ الذُرى المؤدّي إلى أعالي بوزريعة، غير أنّ القصف الّذي عاجلتهم به المدفعية الميدانية المرافقة للفرقة الثالثة بدّدهم و اضطرّهم للّوذ بالفرار مجدّدًا ؛ و لمّا رأوا أنّ الجنود الفرنسيون لم ينفكّوا يتعقبونهم كلّما ارتقوا الجبل، انسلّوا جماعاتٍ عبر الوهاد هبوطًا إلى الخندق العميق، و منه توجّهوا إلى جوار سلطان قلعه سي (برج مولاي حسن)[2]. أمّا فرقة دي كار، فواصلت صعودها - وفق الخطّة المرسومة من قبل دي بورمون -، و احتلّت موقع الناظور[3] الاستراتيجي بحلول السادسة صباحًا و تلّ سيدي بن نور بعده بحوالي ساعة[4].

و قرب هذا الموقع الأخير، اعترض الجنود الفرنسيون سبيل عدّة عوائل يهودية، فأردوا ما لا يقلّ عن العشرين من أفرادها قتلى - و كان معظمهم من النساء و الولدان - قبل أن يتدخّل ضبّاطهم سريعًا لإيقاف المقتلة[5]. إنّ هذا الحدث العرضي، الّذي تناقلته أغلب المصادر الفرنسية كمثال للرأفة و الإنسانية، يميط اللثام على العكس عن جانبٍ من الجرائم الّتي ارتكبت ؛ فقد كان أولئك اليهود في الواقع قد فرّوا من بيوتهم ببوزريعة على شكل شتات خوفًا على حياتهم، إذ لم يكن الجنود يتوانون خلال نهبهم الممنهج للدور عن إزهاق أرواح من يجدونهم بها[6].

---

1. Berthézène, Op. cit., p. 91 ; Barchou de Penhoën, Op. cit., p. 222 ; Bartillat, **Relation…**, Op. cit., p. 160 ; Fernel, Op. cit., p. 89 ; Rousset, Op. cit., pp. 184-185 ; Rouquerol, Op. cit., p. 61 ; d'Ault-Dumesnil, Op. cit., pp. 69-70 ; Perrot, Op. cit., pp. 123-124.

انظر أيضًا : - Playfair, « **Épisodes…** », Op. cit., 1880, p. 207.

يذكر الجنرال برثيزن بخصوص ما جرى : "**…كلّ شيء إذًا كان يحملنا على الاعتقاد بمقاومة حامية الوطيس و دؤوبة.** [بيد أنّه] **لم يحصل شيءٌ من ذلك، و هذا ما خيّب حماسة جنودنا. كان العدو، الّذي أُخذ على حين غرّة فجرًا، عديده دون الكفاية لأجل أن يبذل مقاومةً غير مجدية**(كذا)" : - Berthézène, Ibid.

2. Fernel, Ibid. ; Bartillat, Ibid. ; de Quatrebarbes, Op. cit., p. 49 ; Anonyme, **La conquête…**, Op. cit., pp. 59-60 ; Rousset, Ibid., p. 185 ; Nettement, Op. cit., p. 429 ; Juchereau de Saint-Denys, Op. cit., p. 183.

3. الناظور هو برج رصد بحري يتراءى منه خليج الجزائر برمّته حتّى رأس الخشين غربًا، و كان يقع عند قمّة جبل بوزريعة حوالي ثمانمائة متر شرق البلدة الّتي تحمل نفس الاسم.

4. Rousset, Ibid. ; Nettement, Ibid., pp. 429-430 ; Gautherot, Op. cit., p. 96 ; Juchereau de Saint-Denys, Ibid. ; Pétiet, Op. cit., pp. 329-330 ; Allut, Op. cit., pp. 226-227.

5. Rozet, **Relation…**, Op. cit., pp. 204-207 ; Gaudin, Op. cit., p. 48.

- معوشي آمال، **يهود الجزائر و الاحتلال الفرنسي (1830-1870)**، دار الإرشاد للنشر و التوزيع، الجزائر، 2013، ص ص. 25-27.

6. Rousset, Ibid., pp. 185-186 ; Fernel, Ibid., p. 91.

و بهذا الخصوص، ذكر القنصل الأمريكي وليام براون هودجسون (W. B. Hodgeson) لدى حديثه عن اقتحام قنصلية نابولي و قتل ثلاثة من موظّفيها بدمٍ بارد، بنيّة نهب محتوياتها : "**يؤسفني أن ألاحظ أنّ القوّات الفرنسية قد أجرمت بارتكاب العديد من التصرّفات الشائنة، الّتي تناسب أكثر طباع المتوحّشين ؛ و لكن أعداءهم البرابرة** (يعني الجزائريين) **لم يصدر منهم البتّة مثل ما صدر عن هؤلاء**"[1].

و لا بدّ أنّ حالات القتل و هتك الأعراض، الّتي لا نشكّ أنّها واكبت نهب الدور الريفية في بوزريعة و الأبيار يومئذٍ، قد تركت وقعًا بليغًا في نفوس سكّان العاصمة[2] ؛ و هو ما سيكون له دورٌ أكيدٌ - كما سنرى لاحقًا - في ترجيح كفّة الاستسلام على المقاومة يومي 4 و 5 يوليو، بعد سقوط سلطان قلعه سي.

على كلٍّ، بانتهاء المرحلة الأولى من العمليات القتالية، كان الفرنسيون قد استطاعوا أن يدحروا عدوهم من جميع مواقعه، و أن يسيطروا على معظم المرتفعات الّتي تشرف على مدينة الجزائر. بيد أنّ قادة أركانهم بقوا عاجزين لعدّة ساعات عن تحديد موقع هدفهم التالي، سلطان قلعه سي أو برج مولاي حسن، الّذي حجبته التضاريس و الأشجار عن الأنظار ؛ و تشوّشت عليهم الأمور أكثر، بعد أن تراءى لهم سهل متيجة الّذي كساه ضبابٌ صباحي بحرًا، فاتّهموا خريطة بوتان بعدم الدقّة. و كان ذلك سببًا في إصدار دي بورمون لعدّة أوامر مغلوطة لقادة فرقه وقت الضحى، من أجل إعادة الانتشار باتّجاه بوزريعة، ظنًّا منه أنّ الحصن المستهدف يقع إلى الغرب أكثر. و خلال الساعات التالية، اختلّ نظام القوّات الفرنسية بشكلٍ خطير، حيث تشابكت مسارات الأرتال و اختلط أفرادها، فيما تاه بعضها الآخر في سلسلة الوهاد

للتغطية أو أقلّه صرف النظر عمّا وقع، تكتمت أغلب المصادر الفرنسية عن النهب و التقتيل الممنهج الّذي شكّل السبب الحقيقي لفرار و تيهان اليهود في شعاب بوزريعة ؛ و زعمت بدل ذلك أنّ الداي حسين طرد أولئك "المساكين" من مدينة الجزائر، كما أنّها لم تعترف إلاّ بمقتل امرأتين و طفل عن طريق الخطأ في الحادثة :

- Berthézène, Ibid., p. 93 ; d'Ault-Dumesnil, Ibid., p. 71 ; Desprez, Op. cit., pp. 145-146 ; Lauvergne, Op. cit., pp. 79-80 ; Barchou de Penhoën, Ibid., pp. 223-224 ; Bartillat, **Coup…**, Op. cit., p. 131.

انظر أيضًا : - Esquer, Op. cit., pp. 351-352.

1. نقلاً عن : [وليام براون هودجسون]، "**الغزو الفرنسي للجزائر في وثيقة أمريكية معاصرة**"، ترجمة منصور أحمد بوخمسين، في : **احتلال الجزائر من خلال نصوص معاصرة**، جمع و تقديم محمّد الهادي الحسني، عالم الأفكار، الجزائر، 2006، ص ص. 22 و 41. انظر أيضًا :

- Playfair, « **Épisodes…** », Op. cit., 1880, pp. 208 & 212 ; Pellissier de Reynaud, **Mémoire…**, Op. cit., p. 58 ; Allut, Op. cit., p. 228.

2. في هذا الصدد، ذكر شريف الزهّار تلميحًا لبعض ما جرى : "**و أمّا النساء من أهل البساتين فقد تركوا**(كذا) **بساتينهم و أمتعتهم، و أتين هاربين**(كذا) **للبلاد حفاة عراة، بحيث أنّ المرأة كانت في وسط الرجال، و هي لا تشعر بنفسها.**" ؛ و لو أنّ الراوي يضع هذه المجريات بتاريخ 19 يونيو، إلاّ أنّه من الأصوب تحديد تاريخها في 29 من نفس الشهر، إذ أنّ الفرنسيين لم يكونوا قد تغلغلوا في الواقع بجنائن باغچه دهره يوم هزيمة أسطه والي : الزهّار، المصدر السابق، ص. 172.

انظر أيضًا : - Rousset, Op. cit., p. 186 ; Lomon, Op. cit., pp. 192-193 ; Anonyme, **Suite…**, Op. cit., pp. 2-3.

الّتي تميّز المنطقة ؛ و يعترف عددٌ من الضبّاط السامّين أنّه لو قام الجزائريون حينئذٍ بهجومٍ معاكس لقضي على قسمٍ معتبرٍ من القوّات بشكلٍ كان سيرهن حظوظ الحملة[1].

لكن القوّات الجزائرية، الّتي كابدت مقتل ألف و خمسمائة رجل دون احتساب عددٍ أكبر من الجرحى، كانت لا تزال في حالة التضعضع و الانقسام الّتي أعقبت الاندحار : عاودت فلولها الرئيسية - و الّتي كان أغلبها من أنفار الإنكشارية - التجمّع شيئًا فشيئًا عند اصطبلات الداي الواقعة قريبًا من حصن القصبة و كذلك من جهة سلطان قلعه سي، ليتّخذوهما منطلقًا لهجمات محدودة من أجل احتواء تقدّم العدو ؛ و فيما كان المئات، من الّذين فرّوا إلى الجبال أو اختبأوا أينما كان و حُصروا وراء خطوط القوّات الفرنسية، يسيرون بغير هدى محاولين تجنّب الاصطدام بها، هرع آخرون إلى بيوتهم بالفحص و حتّى داخل المدينة، كي يضعوا نساءهم و أغلى ما يملكونه في مأمن[2]. أمّا الخيّالة المخزنية بقيادة

---

1. Azan, **L'armée…**, Op. cit., p. 27 ; Gaudin, Op. cit., pp. 43-47 ; Galibert, Op. cit., pp. 299-300 ; Gautherot, Op. cit., p. 96 ; Desprez, Op. cit., pp. 144-147 ; Berthézène, Op. cit., pp. 91-92 ; Nettement, Op. cit., pp. 432-438 ; Esquer, Op. cit., pp. 348-352 ; Rousset, Op. cit., pp. 187-189 & 191-192 ; Anonyme, **La conquête…**, Op. cit., pp. 60-61 ; Fernel, Op. cit., p. 90 ; Barchou de Penhoën, Op. cit., pp. 222-223 ; Rouquerol, Op. cit., pp. 61-64 ; Rozet, **Relation…**, Op. cit., pp. 208-214 ; Pétiet, Op. cit., p. 330 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 315.

جديرٌ بالذكر أنّ دي بورمون احتاج إلى بعض المساعدة لتحديد موقع برج مولاي حسن ؛ و تمثّلت تلك المساعدة في رفع الراية الإسبانية على مبنى القنصلية الّتي تبعد ستمائة متر إلى الجنوب الغربي منه، إضافةً إلى انتداب بعض القناصل الأوروبيين - الّذين سبق أن أشرنا إلى التجائهم جميعًا (باستثناء قنصل إنكلترا) مع عائلاتهم إلى القنصلية الأمريكية، بجنان بن طالب قرب سيدي بنّور - لدليل قاده إلى الموقع السالف الذكر. و هذا العمل يشكّل خرقًا واضحًا لمبدأ الحياد، الّذي كان يتوجّب على القناصل المعنيين الالتزام به ؛ كما يعكس قناعة عددٍ منهم - لا سيّما القنصلين الإسباني و السرديني - بأنّ الجزائريين خسروا حتمًا الحرب : [هودجسون]، المصدر السابق، ص ص. 18-19 و 24 ؛ زهرة، المرجع السابق، ص ص.239-241 و 244-245.

- Fernel, Ibid., p. 94 ; Rozet, Ibid., p. 211 ; Bartillat, **Relation…**, Op. cit., p. 161 ; Esquer, Ibid., p. 350 ; Nettement, Ibid., p. 439 ; Rousset, Ibid., p. 190 ; Galibert, Ibid., p. 303.

2. Azan, Ibid. ; Raynal, Op. cit., p. 18 ; de Quatrebarbes, Op. cit., p. 50 ; Nettement, Ibid. ; Anonyme, Ibid., p. 61 ; Rozet, Ibid., pp. 208 & 210-214 ; Juchereau de Saint-Denys, Op. cit., pp. 183-184 ; Gautherot, Ibid., p. 98.

من مشارف الأبيار الّتي احتلّوها لتوّهم، أمكن الفرنسيين أن يروا الساحل من جهة باب عزّون مغطّىً بالسكّان الخارجين على عجل من المدينة حاملين أثمن حاجياتهم ؛ و لقد تولّدت حركة الذعر هذه على أثر مئات الفحصية الفارّين من الخطر الداهم، الّذين شقّوا طريقهم من باب الجديد أو باب الوادي عبر الأزقّة سعيًا للالتجاء إلى الفحوص الشرقية :

- Nettement, Ibid., p. 439 ; Rozet, Ibid., p. 214 ; Fernel, Ibid.

انظر أيضًا :

- Juchereau de Saint-Denys, Ibid., pp. 184-185.

و لا نستبعد أن يكون ظهور قطع من الأسطول الفرنسي - بقيادة العميد البحري روزامل (Rosamel) - غرب ميناء الجزائر للقيام بهجوم وهمي تضليلي أسهم هو الآخر في زيادة البلبلة في صفوف الجزائريين :

- de Quatrebarbes, Ibid., p. 55 ; Perrot, Op. cit., pp. 125-126 ; Réveillé de Beauregard, Op. cit., pp. 29-30.

- Chennechot, Op. cit., p. 20.

انظر أيضًا : الزهّار، المصدر السابق، ص ص. 173-174.

الحاج أحمد باي، فبقيت متمركزة على وادي "القلعي"[1]، و واصلت مفارز منها مناوشة اللواء الفرنسي المرابط بباغچه دەره معظم ذاك اليوم ؛ و من ثمّ، قامت بالانسحاب إلى عين الربط بفحص باب عزّون، حيث اقتصر دورها تقريبًا خلال الفترة المتبقية من النزاع على حماية الطريق السلطاني[2].

من جهتها، تراوحت الخسائر الّتي تكبّدتها القوّات الفرنسية ما بين ثمانين و مائة و عشرين إصابة على الأكثر في صفوفها حسب الروايات شبه رسمية ؛ في حين قدّرها القبطان ڤيلنوڤ بارجمون بثلاثمئة قتيل و ستّمائة جريح[3]. بيد أنّ حالة الإرهاق و التشتّت، اللّذان انجرا عن تيه عدّة كتائب و ألوية في خضم الفوضى السالفة الذكر، حالت دون مباشرة الفرنسيين ذاك اليوم للعمليات التمهيدية لمهاجمة سلطان قلعه سي (برج مولاي حسن) ؛ و قد اقتصر نشاطهم مساءً على استطلاع أوّلي لنواحي تلك القلعة و تسليحها، استطلاع بقي غير ناجز جرّاء مضايقة طلقات المدفعية الجزائرية الّتي استمرّت حتّى خيّم الظلام[4].

- **معركة سلطان قلعه سي (30 يونيو-4 يوليو)**

بعد الهزيمة مباشرةً، انهمك الخزناجي إبراهيم بن خليل - الّذي لم يتجاوز في مسيرته العسكرية رتبة اوده باشي[5] - في تقوية الخطّ الدفاعي المتقدّم، الّذي شكّل سلطان قلعه سي ركيزته الأساسية، حيث رفع تعداد حاميته من ألف إنكشاري و طوبجي[6] إلى نحو ألف و ثمانمائة ؛ و قد انضاف إلى العدد المذكور

---

1. وادي القلعي (Oued Kelaï)، نعتقد أنّه هو نفسه الوادي الّذي يدعوه الجنرال برثيزن (Oued el-Call)، و هو أحد روافد وادي الكرمة.

2. M. Emerit, « **Les Mémoires d'Ahmed Bey, dernier Bey de Constantine** », in : R. A., 93, 1949, p. 74 ; Juchereau de Saint-Denys, Op. cit., p. 184 ; Gaudin, Op. cit., pp. 47-48 & 53 ; Barchou de Penhoën, Op. cit., p. 230 ; Esquer, Op. cit., pp. 352-353 ; Desprez, Op. cit., pp. 147-148 ; Nettement, Op. cit., p. 446 ; Rousset, Op. cit., p. 199.

انظر أيضًا : أحمد باي، المصدر السابق، ص ص. 15-16.

3. Chennechot, Op. cit., p. 20 ; Pocard-Kerviler, Op. cit., p. 189 ; Pellissier de Reynaud, **Mémoire…**, Op. cit., p. 58 ; Gaudin, Ibid., p. 48 ; Rozet, **Relation…**, Op. cit., p. 214 ; Pétiet, Op. cit., p. 332 ; Villeneuve-Bargemon, Op. cit., p. 361.

4. Rozet, Ibid., pp. 211-214 ; Juchereau de Saint-Denys, Ibid. ; Fernel, Op. cit., p. 96 ; Rousset, Ibid., pp. 191-192 ; d'Ault-Dumesnil, Op. cit., p. 74 ; Desprez, Ibid., pp. 147-149 ; Barchou de Penhoën, Ibid., p. 232.

5. **دفتر مواجبات…**، المصدر السابق، رقم 1986 مكرّر، و. 347 و° ؛ رقم 1977، 313 و°.

6. Galibert, Op. cit., p. 303 ; Rozet, Ibid., p. 217 ; Barchou de Penhoën, Ibid., p. 237 ; Esquer, Ibid., p. 356 ; Anonyme, **La conquête…**, Op. cit., p. 64. - بفايفر، المصدر السابق، ص. 87.

الجدير بالذكر أنّ نصف الثمانمائة مدفعي الّذين خدموا في سلطان قلعه سي (برج حسن پاشا) على الأقلّ كانوا من فرقة "الطوبجية العرب"، و الّتي ضمّت في صفوفها كراغلة - غير منتسبين للأوجاق - و بلدية، و حتّى سودانيين ؛ فقد كان عدد أفراد أوجاق الطوبجية، الّذين توزّعوا على أبراج الواجهة البحرية و قلعة القصبة و القلعة المذكورة، في حدود الأربعمائة فقط : **دفتر مواجبات…**، نفس المصدر السابق، رقم 1979 مكرّر، وو. 376ظ°-386ظ°. - Galibert, Ibid.

طواعيةً عدد قدّرناه بما لا يقلّ عن خمسمائة كـرغلي، و بلـدي، و برّانـي من العناصر السودانية و القبائلية و البسكرية أساسًا[1].

و على بعد ثلاثمائة متر شمال سلطان قلعه سي، أقيمت بطّارية مدفعية بين أطلال برج محمّد پاشا - المعروف في المصادر الأوروبية ببرج النجمة أو برج "الثغريين" -[2] ؛ و كان بُرَيْج لتخزين البارود غير بعيد عن باب الجديد يستكمل الخطّ الدفاعي المذكور. و تجدر الإشارة إلى أنّ قلعة القصبة - و كذا اسطبلات الداي - من الجهة الشمالية و حصن باب عزّون من الجهة الشرقية شكّلوا الخطّ الدفاعي الخلفي، و ساهمت مدفعيتهم في مساندة سلطان قلعه سي كلّما اقتضى الأمر[3].

من جانب آخر، ارتأى كلّ من قائد الجيش مصطفى بومزراق و إبراهيم آغا ضرورة شحن الدور القريبة من سلطان قلعه سي بالمقاتلين، كي لا يستولي العدو على تلك المواقع البالغة الأهمّية و يتحصّن بها[4] ؛ و إزاء عزوف المتطوّعين عن القيام بتلك المهمّة المحفوفة بالمخاطر، وقع الاختيار على ما يربو عن الأربعمائة فارس من قوّات باي قسنطينة ينتمون إلى قبيلتي أولاد عبد النور و التلاغمة لأجل ذلك، حيث أمروا بالتخلّي عن خيلهم، و الانضمام إلى الحفنة من الإنكشاريين الّذين كمنوا مسبقًا هناك لإيقاف تقدّم الفرنسيين. غير أنّ أولئك الفرسان رفضوا المجازفة بحياتهم كمشاة، و انسحبوا إلى عين الربط في وقتٍ أوّل، قبل أن يتوغّلوا في متيجة خوفًا من العقاب ؛ و هناك انتظروا أيّامًا عمّا ستسفر عنه الحرب[5].

عند المغرب، اختار دي بورمون دارًا ريفية واسعة تبعد حوالي ألف و ثمانمائة متر عن سلطان قلعه سي مقرًّا لقيادة الأركان ؛ و كان المقرّ يتوسّط معسكر الحصار، الّذي شرع في إقامته على مساحة تربو

للمزيد من المعلومات حول جماعة الطوبجية، انظر المبحث الأوّل من الفصل السابع.

1. Rozet, **Relation…**, Op. cit., p. 217 ; Barchou de Penhoën, Op. cit., p. 237 ; Esquer, Op. cit., p. 356 ; d'Ault-Dumesnil, Op. cit., p. 82 ; Pellissier de Reynaud, **Mémoire…**, Op. cit., p. 60.

2. Raynal, Op. cit., p. 19 ; Esquer, Ibid. ; Rousset, Op. cit., p. 202 ; Desprez, Op. cit., p. 169.

انظر أيضًا : - Haëdo, **Histoire…**, Op. cit., p. 144 ; Haëdo, **Topographie…**, Op. cit., p. 42.

الجدير بالتنويه أنّ هذا البرج احتلّ بفحص تاجرارت أو تاگرارت - و الّذي اكتسب منه تسميته "الثغريين" (Tagarins) لدى الأوروبيين - موقعًا بالغ الأهمّية بين قلعتي الجزائر الرئيسيتين ؛ بيد أنّه تهدّم قبل عدّة عشرات من السنين، و أهمل الدايات إعادة بنائه : خلاصي، المرجع السابق، ج. 1، ص ص. 218-219. - Epalza & Vilar, Op. cit., pp. 331, 340 & 346-347 ; Laugier de Tassy, Op. cit., p. 160.

3. Esquer, Ibid. ; Péchot, Op. cit., p. 153 ; Gaudin, Op. cit., p. 54.

ذكر كاثكارت (ص. 84) بخصوص ذلك الموقع : "**إنّ الجزائريين… أهملوا تحصين تلّ يسمّيه المسيحيون «بيلفدير** (يعني مطلّ)**» يشرف على المدينة مباشرة في الجنوب الغربي، يمكن الدفاع منه على قصر**(كذا) **الإمبراطور… سيكون بدون شكّ أوّل موقع يستولي عليه جيش أجنبي يغزو البلاد**".

5. L. Féraud, **Monographie des Oulad-Abd-En-Nour**, Typographie et lithographie Alessi et Arnolet, Constantine, 1864, pp. 49-51.

عن المائتي هكتار بفحص الأبيار[1]. و اتّفق هذا الأخير مع قائديه للهندسة و المدفعية على ضرورة التعجيل في تأمين الجبهة. و عليه، قامت نخب من الجنود الفرنسيين مع ظلمة أوّل الليل بطرد زمر الإنكشارية، الّذين حاولوا المقاومة في بعض الدور المتاخمة لخطّ المواجهة تبعد ما لا يقلّ عن سبعمائة متر عن القلعة. و على الساعة الثانية صباحًا، باشر قرابة ستّمائة رجل العمل في حفر الخنادق للوصل بين المواقع المتقدّمة، و ذلك تحت حماية كتيبتين، أي ما يوازي ألف و خمسمائة جندي[2] ؛ و كان الدافع وراء هذا التبكير عدم إثارة انتباه الجزائريين، ريثما تتقدّم الأشغال بما يكفي لجعل الجنود بمأمن من نيرانهم المباشرة. و بالفعل، لم تتفطّن حامية القلعة لأشغال الفرنسيين الحثيثة خلال الليل ؛ بل راح أفرادها يصدحون لساعاتٍ بأعلى أصواتهم بما بدا على الأرجح أنّه آياتٌ قرآنية، ترهيبًا للعدو و شحذًا للهمم[3].

و حالما تراءت الخنادق غير المكتملة للطوبجية فجرًا حتّى بادروا إلى قطعهم، و فتحوا نارًا كثيفة على العاملين فيها ؛ و تركّز القصف المدفعي على الأجزاء الأقرب من القلعة، الّتي كان بعضها لا يبعد سوى مائتي و خمسين متر.

و بعد نحو ثلاث ساعات، قام ألفٌ من الإنكشارية و المتطوّعة بخرجة فاجأت الجنود الفرنسيين و اضطرّتهم إلى الفرار من مواقعهم ؛ و رغم أنّ الأخيرين قاموا بهجمة معاكسة بقوّات متفوّقة عدديًّا، إلاّ أنّ الإنكشاريين المنسحبين استدرجوهم إلى ميدان مكشوف في مرمى نيران زملائهم الّذين بقوا في القلعة. و لقد كبّدت هذه الخدعة الحربية الجانب الفرنسي خسائر لا يستهان بها قدّرت بمائة و ستّة و ستّين إصابة ؛ و على إثر ذلك، توقّفت الأشغال مؤقّتًا على امتداد كامل الخنادق، و أصدرت قيادة الأركان الأمر

انظر أيضًا :

- Juchereau de Saint-Denys, Op. cit., p. 184.

1. Juchereau de Saint-Denys, Op. cit., p. 184 ; Galibert, Op. cit., p. 303 ; Desprez, Op. cit., p. 149 ; Berthézène, Op. cit., p. 94 ; Esquer, Op. cit., pp. 354-356 ; Rousset, Op. cit., pp. 196-198 ; de Quatrebarbes, Op. cit., pp. 51-52 ; Fernel, Op. cit., pp. 95-96 ; Rozet, **Relation…**, Op. cit., p. 212.

2. Barchou de Penhoën, Op. cit., pp. 232-233 ; Rozet, Ibid., p 219 ; Rousset, Ibid., p. 198 ; Gaudin, Op. cit., p. 47 ; Esquer, Ibid., pp. 356-357 ; d'Ault-Dumesnil, Op. cit., p. 74.

3. Rozet, Ibid., p. 218 ; Gaudin, Ibid., p. 50.

جرت العادة عند المسلمين حتّى العهد العثماني أن يبتدروا إلى قراءة سورة الأنفال - الّتي كانت تسمّى أيضًا سورة الجهاد - قبيل المواجهات العسكرية المصيرية، امتثالاً للسنة النبوية : محمّد بن محمود ابن العنّابي، **السعي المحمود في نظام الجنود**، تقديم و تحقيق محمّد بن عبد الكريم الجزائري، م.و.ك.، الجزائر، 1983، ص ص، 229-230 ؛ باربارو، المصدر السابق، ص ص. 146 و 164-167.

بيد أنّه لا يمكننا أن نستبعد احتمال أن يكون الصياح الّذي تعالى من القلعة عبارة عن أهازيج عسكرية، و لا سيّما الحماسية منها. انظر في هذا الصدد :

- J. Deny, "**Chansons des janissaires turcs d'Alger (fin du XVIIIe siècle)**", in : Mélanges de René Basset, T. 3, Paris, 1925, pp. 92-105.

بالتخلّي عن المقطع المهدّد، و التراجع أزيد من مائتي متر إلى خطّ أقلّ عرضة نسبيًا لهجمات و نيران الأعداء، خلف التضاريس و العقبات الّتي يوفرها الموقع[1].

أدرك القادة الجزائريون متأخّرين الأهمّية الاستراتيجية لمرتفعات بوزريعة ؛ و عليه، وضعوا خطّة خلال مساء اليوم الّذي شهد الهزيمة ترتكز على الالتفاف ليلاً بقسمٍ من القوّات من جهة البحر حول جبل بوزريعة أو مرورًا بسفحه عبر الخندق العميق و مهاجمة الفرنسيين من الخلف، فيما تقوم القوّات المتبقية في المدينة و حواليها بخرجة لاستكمال العملية التطويقية[2]. كان نجاح هذه العملية الواسعة النطاق يتطلّب مساهمة ثمانية آلاف رجل، و يستلزم أن يتمّ الإعداد لها و تنفيذها في منتهى السرّية ؛ بيد أنّ اليهود، الّذين لم يكن ليخفى عليهم شيءٌ ممّا يحدث في المدينة، أفشوا سرّ الخطّة المزمعة للقناصل المجتمعين بسيدي بنّور ؛ و لم يتوان هؤلاء عن إحاطة الجنرال أشار بالخبر صبيحة 30 يونيو[3].

قام دي بورمون على ضوء هذا الإخطار باتّخاذ التدابير المضادّة الضرورية، حيث دعّم لواء الجنرال المذكور بالفيلق رقم 28 و زوّده ببطّارية ميدانية من ستّة مدافع ؛ كما أمره بأن يتموقع قسمٌ من قوّاته باتّجاه الجنوب الشرقي لاحتلال الهضبة الممتدّة بين موقع الناظور و قنصلية نابولي، و أن ينشر قسمًا آخر شمال الناظور حتّى الساحل و يستولي في خضم ذلك على برجي و طبّانة راس الذبّان، الّتي كانت منعزلة و شبه خالية من المدافعين. و بتنفيذ هاتين العمليتين على أكمل وجه، انقطعت السبل أمام الجزائريين للقيام بخطّتهم الجريئة، الّتي استوحوها دونما شكّ من هجوم آغا الإنكشارية الحاج بشر على قلب جيش شارلكان ثلاثة قرونٍ من قبل[4].

---

1. Gaudin, Op. cit., pp. 50-51 ; Galibert, Op. cit., p. 303 ; Lauvergne, Op. cit., p. 80 ; Esquer, Op. cit., pp. 357-358 ; Rousset, Op. cit., p. 200 ; Barchou de Penhoën, Op. cit., pp. 233-234 ; de Quatrebarbes, Op. cit., pp. 52-53 ; Nettement, Op. cit., pp. 446-447 ; Juchereau de Saint-Denys, Op. cit., p. 188 ; Rozet, **Relation…**, Op. cit., pp. 219-220 ; d'Ault-Dumesnil, Op. cit., pp. 74-75 ; Pellissier de Reynaud, Op. cit., T. 1, 1854, p. 62 ; J. P. Bonnafont, **Douze ans en Algérie 1830 à 1842**, E. Dentu, Paris, 1880, p. 57.

2. Rozet, Ibid., p. 221.

في هذا الصدد، ذكر الجنرال برثيزن أنّ "**الناظور** (إحدى قمم جبل بوزريعة) **هو مفتاح الجزائر، و طالما سيطر عليه العدو، فسيكون من المتعذّر فرض الحصار على قلعة الإمبراطور بنجاح ؛ و لم يدرك الأتراك ذلك و تركوا ذاك الموقع قفزًا**" : - Berthézène, Op. cit., p. 93.

انظر أيضًا : - Nettement, Ibid., p. 445 ; Fernel, Op. cit., p. 97 ; Berthézène, Ibid., p. 92.

3. Rozet, Ibid. ; d'Ault-Dumesnil, Ibid., p. 79 ; Allut, Op. cit., p. 229. - بفايفر، المصدر السابق، ص. 94.

4. Berthézène, Ibid., p. 93 ; Esquer, Ibid., p. 360 ; Rouquerol, Op. cit., pp. 66-67 ; Rozet, Ibid. ; Chennechot, Op. cit., p. 20 ; Matterer, Op. cit., p. 121 ; Gaudin, Ibid., p. 55 ; Perrot, Op. cit., p. 128.

انظر ايضًا : - Haëdo, **Histoire…**, Op. cit., pp. 76-77.

بخصوص برجي و طبّانة راس الذبّان، انظر : خلاصي، المرجع السابق، ج. 1، ص ص. 225-227.

من جانبٍ آخر، كلّف دي بورمون قائد أركانه الجنرال ديبريه (Desprez) في ذات اليوم بمهمّة استطلاعية حتّى مسافة قريبة من برج باب عزّون - المعروف أيضًا ببرج راس تافورة -، للنظر في إمكانية نشر القوّات الفرنسية في تلك الناحية و استكمال حصار المدينة. و على الساعة العاشرة صباحًا، انحدر ديبريه على رأس ثلاثة كتائب من جنان قنصلية السويد نزولاً إلى مشارف جنان الآغا[1] ؛ لكنّه عاد أدراجه سريعًا بسبب مئات الفرسان العرب يتبعهم جنود الإنكشارية الّذين هرعوا لملاحقته. و فيما أوقف الفرسان مطاردتهم بسبب العقبات الكؤودة، واصل بضع مئاتٍ من الإنكشارية صعودهم بشكلٍ حثيث، و احتلّوا قنصلية السويد خلال هجومهم المعاكس، حيث لم تتمّ إزاحتهم عنها إلاّ بعد جهدٍ جهيد و خسائر إضافية ناهزت الخمسة و خمسين جنديًا بين قتيل و جريح.

و أسفر هذا الاستطلاع السريع عن استبعاد القائد العامّ لخيار انتشار الجيش إلى باب عزّون و تراجعه عن محاولة قطع طريق قسنطينة، بحجّة عدم امتلاكه لقوّات كافية للقيام بذلك ؛ و بالتالي، واصل التزامه حرفيًا بخطّة بوتان الّتي تقتضي تركيز الجهود على سلطان قلعه سي[2].

في 2 يوليو، تركت عدّة عائلات يهودية المدينة لتضع نفسها تحت الحماية الفرنسية ؛ و لقد أخبرت القادة الفرنسيين عن تسلّل مجموعة من "الأتراك و العرب" عبر شعب بوزريعة الشمالية المحاذية للساحل. و كان الغرض من هذا التحرّك على الأرجح هو استعادة أبراج راس الذبّان الّتي طرد منها الفرنسيون المدافعين قبل يومين، لكن لم يحتلّوها بشكل نهائي حتّى يومئذٍ و اكتفوا بتفكيك مدفعيتها. و إثر هذا البلاغ، أرسل الفرنسيون سريّة لتمشيط تلك الناحية و تعقّب الأعداء :

- Rozet, Ibid., pp. 231-234 ; Desprez, Ibid., pp. 173-174 ; Villeneuve-Bargemon, Op. cit., p. 364.

1. جنان الآغا : هو ملكية آغا العرب في فحص باب عزّون، الّتي كانت تقع بضع مئاتٍ من الأمتار جنوب شرق برج راس تافورة.

2. Gaudin, Op. cit., pp. 53 & 55 ; Esquer, Op. cit., pp. 358-359 ; Gautherot, Op. cit., p. 99 ; Rousset, Op. cit., pp. 198-200 & 203 ; Barchou de Penhoën, Op. cit., pp. 234-235 ; de Quatrebarbes, Op. cit., p. 53 ; Pellissier de Reynaud, **Mémoire…**, Op. cit., pp. 63-64 ; Nettement, Op. cit., pp. 445-446 ; Berthézène, Op. cit., p. 94 ; Desprez, Op. cit., pp. 164-167 ; Rozet, **Relation…**, Op. cit., pp. 220-221 ; Fernel, Op. cit., pp. 98-100 ; Rouquerol, Op. cit., p. 67 ; Bartillat, **Relation…**, Op. cit., pp. 161-162.

الجدير بالذكر أنّ، غداة نكسة 29 يونيو، قرّرت القيادة الجزائرية إعادة نصب معسكر القوّات المتطوّعة و المخزنية في موقعه السالف على الضفّة الشرقية للحرّاش، على بعد خمسة كيلومترات جنوب شرق المعسكر الفرنسي ؛ و بالإضافة إلى ذلك، أقيم معسكرٌ آخر قريب من ميدان العمليات، بين برج باب عزّون و الربض الّذي يحمل نفس الاسم. و لقد ساهم موقع المعسكرين في منع انتشار الأعداء باتّجاه فحص باب عزّون، إذ كانوا سيقعون إن هم قاموا بتلك الحركة بين نارين : القوّات المدافعة بالمدينة و ببرج و معسكر باب عزّون من جهة، و القوّات المتمركزة بمعسكر الحرّاش من الجهة الأخرى. و يمكن التكّهن أنّ خطّة الهجوم الليلي، الّتي تمّ إحباطها من قبل دي بورمون بعد أن عرف بأمرها، لا بدّ أنّها كانت تقتضي على أن تشكّل القوّات المذكورة الجناح الهجومي الأيسر، بحيث يتركّز نطاق عملياتها على الأرجح جنوب معسكر الحصار الفرنسي على واحد أو أكثر من نقاط النفاذ محتملة : جنان قنصلية السويد بفحص الأبيار - عالية واد كنيس بفحص حيدرة (بالتحديد حيدرة القديمة) - جنان سيدي بن سحنون (بن عكنون حاليًا) - عين محمود، قرب واد القلعي (حاليًا في موقع المركّب الرياضي محمّد بوضياف، شمال شرق بلدية دالي براهيم). انظر في هذا الصدد :

- Rouquerol, Ibid. ; Desprez, Ibid., p. 163 ; Berthézène, Ibid., pp. 93-94 ; Nettement, Ibid., pp. 445-449 ; Esquer, Ibid., p. 358 ; Rousset, Ibid., p. 199 ; Fernel, Ibid., p. 98 ; Rozet, Ibid., p. 228 ; Gaudin, Ibid., p. 53.

عند هبوط الليل، استأنف الفرنسيون أشغالهم الحربية بنشاطٍ أكبر على امتداد الخنادق ؛ و ركّزوا اهتمامهم على إقامة البطّاريات الستّ، الّتي تمّ تحديد مواقعها بشكلٍ نهائي، من قبل الجنرالين ڤالازيه و دو لا هيت خلال النهار[1]. أرسلت القيادة الجزائرية، سعيًا منها إلى معرفة ما كان يجري من جانب العدو، عدّة جنودٍ عيونًا ليتسلّلوا سرًّا إلى معسكره تحت جنح الليل ؛ و علاوة على القنابل، أطلقت من سلطان قلعه سي لنفس الغرض عدّة أسهم نارية لإضاءة المواقع الفرنسية الأمامية[2].

خلال اليوم الأوّل من معركة سلطان قلعه سي، فاق إجمالي الخسائر الفرنسية الثلاثمائة - مائتين فقط أو أقلّ من ذلك إذا صدّقنا التقدير التقريبي الّذي تناقله بعض ضبّاط الحملة -، و كان معظمها في صفوف جنود حراسة أو خدمة حفر الخنادق[3] ؛ و تترجم ذلك نهار 1 يوليو في عدم التمكّن من تجنيد سوى خمسمائة جندي متطوّع من أصل عدد الألف و المائتين المطلوب للعمل فيها، بسبب تهرّب الكثيرين عن تلك الخدمة المحفوفة بالمخاطر[4].

للتخفيف قدر الإمكان من تلك الخسائر و صرف تركيز الجزائريين عن الجبهة البرّية، طلب دي بورمون أكثر من مرّة من دوپيريه أن تقوم وحداتٌ من الأسطول الفرنسي بمهاجمة أبراج الواجهة البحرية. و ردًّا على طلب القائد العامّ، أشار الأميرال أنّه ما لم يتمّ تحييد برج باب عزّون أو الاستيلاء عليه، فإنّه سيتعذّر على قطع الأسطول التموقع شرق خليج الجزائر، من أجل قصف طريقي البليدة و قسنطينة، و قطع

---

1. Gaudin, Op. cit., pp. 53-54 ; Galibert, Op. cit., pp. 303-304 ; Esquer, Op. cit., p. 359 ; Rousset, Op. cit., pp. 200-201 ; de Quatrebarbes, Op. cit., p. 53 ; Nettement, Op. cit., pp. 447-448 ; Juchereau de Saint-Denys, Op. cit., p. 188 ; Rozet, **Relation…**, Op. cit., pp. 226-227 ; Pellissier de Reynaud, Op. cit., T. 1, 1854, pp. 62-63 ; Bartillat, **Relation…**, Op. cit., pp. 161 & 163 ; Desprez, Op. cit., pp. 159-160 & 168 ; Rouquerol, Op. cit., pp. 64-65.

في الواقع، تمّ اختيار خمسة مواقع لنصب بطّاريات حصار في البداية، يتراوح بعدها عن سلطان قلعه سي ما بين 450 و 650 متر ؛ و بعد أقلّ من يومين، ارتأى الجنرال المكلّف بالهندسة ضرورة إقامة بطّارية سادسة في حديقة قنصلية السويد على بعد حوالي 850 متر عن القلعة المذكورة. و لقد أُطلق على تلك البطّاريات أسماء شخصيات فرنسية معروفة تمييزاً بينها، و هي من اليمين إلى اليسار : بطّارية هنري الثامن (4 مدافع حصار من عيار 8 بوصات)، بطّارية الملك (6 مدافع من عيار 24)، بطّارية الدوق دو بوردو (مدفعي حصار من عيار 8)، بطّارية "الدوفين" أو وليّ العهد (4 مدافع من عيار 24)، بطّارية الأميرال دوكين (4 مدافع هاون عيارها 10)، و أخيراً بطّارية سان لويس (6 مدافع من عيار 16) :

- Rozet, Ibid., pp. 226-227 ; Fernel, Op. cit., p. 101 ; Desprez, Ibid., p. 168 ; Rousset, Ibid., p. 201 ; Esquer, Ibid.

2. Bonnafont, Op. cit., pp. 58-59.

3. Esquer, Ibid., p. 360 ; Pocard-Kerviler, Op. cit., p. 189 ; Bartillat, Ibid., p. 163 ; Barchou de Penhoën, Op. cit., p. 233 : Rousset, Ibid., p. 202 ; Nettement, Ibid., p. 450 ; d'Ault-Dumesnil, Op. cit., p. 77 ; Perrot, Op. cit., p. 125 ; Gautherot, Op. cit., p. 99 ; Juchereau de Saint-Denys, Ibid., p. 189 ; Galibert, Ibid., pp. 304-305 ; Péan, Op. cit., p. 91.

انظر أيضًا :

- Fernel, Op. cit., p. 104.

4. Esquer, Ibid. ; Pellissier de Reynaud, **Mémoire…**, Op. cit., p. 64.

المنافذ الأخيرة للمدينة مع الخارج[1] ؛ و هذا ما يفسّر اقتصار مناورة عمارة روزامل يوم 1 يوليو على هجوم وهمي تضليلي لم يخلّف أيّة خسائر مادية تقريبًا على الأبراج البحرية الممتدّة من مرسى الذبّان إلى مرسى الجزائر، كون السفن بقيت بعيدة عن مرمى نيران الجزائريين، بحيث كانت أغلب قذائفها تسقط بحرًا. و عليه، لم يسهم هذا الهجوم، الّذي دام أقلّ من ساعة و نصف، كثيرًا في التقليل من وتيرة القصف المدفعي من القلعتين و المواقع الجزائرية الأخرى على خطوط الخنادق، كما كانت ترجو القيادة الفرنسية[2].

و في ذات اليوم، شنّ الجزائريون هجمات بشكلٍ مكثّف ضدّ الخطوط الفرنسية، حيث اغتنموا وهدتين عميقتين على أطراف المعسكر - اعتقد الفرنسيون خطأً أنّه يتعذّر تسلّقهما - كمنفذين لمباغتة الجنود المتموقعين هناك أو لقنصهم عن بعد ؛ و مع أنّ تلك الهجمات الداهمة لم تكن لتشكّل تهديدًا بالغًا، بالنظر إلى قلّة الرجال المشاركين فيها - بضع مئات فحسب - و انحصار منطقة العمليّات في مجال ضيّق، إلاّ أنّ أشغال التمترس تعرقلت نسبيًا في النقاط المستهدفة، كما أنّ الفرنسيين تكبّدوا في غضون ذلك خسائر ليست بالقليلة تراوحت بين المائتين و الثلاثمائة[3].

و نستشفّ من التدابير المتّخذة يوم 2 يوليو لوضع القوّات الفرنسية في حمى من تلك الهجمات أنّ قيادة الأركان اجتمعت الليلة السابقة، الأرجح مخافة قيام الجزائريين بهجومين واسعي النطاق يخترقان الوهدتين المشار إليهما : فقد تمّ نصب بطّارية ميدانية من أربعة مدافع على أكمة أقصى اليسار محمية بمتراس، بالإضافة إلى عدّة استحكامات ترابية و صفّين من الحواجز ؛ و بالمثل، أقيمت أقصى اليمين بطّارية ميدانية أخرى من مدفعين، و تمّ تصويب فوهتيهما نحو المنحدرات. و فضلاً عن ذلك، انتقل

---

1. Esquer, Op. cit., p. 361 ; Rousset, Op. cit., pp. 204-205 ; Nettement, Op. cit., pp. 452-453 ; Galibert, Op. cit., p. 305.

يمكن اعتبار وجهة نظر الأميرال دوبيريه الواردة أعلاه تعليلاً منطقيًا لخرجة الجنرال ديبريه الاستطلاعية يوم 30 يونيو باتّجاه برج باب عزّون.

2. Rozet, **Relation…**, Op. cit., p. 229 ; Fernel, Op. cit., pp. 103-104 ; Rousset, Ibid., p. 204 ; Pocard-Kerviler, Op. cit., p. 189 ; Esquer, Ibid. ; Nettement, Ibid., pp. 453-454 ; d'Ault-Dumesnil, Op. cit., p. 79 ; Desprez, Op. cit., p. 170 ; Chennechot, Op. cit., p. 20 ; Perrot, Op. cit., pp. 125-127 ; Galibert, Ibid. ; Playfair, « **Épisodes…** », Op. cit., 1880, p. 208 ; Gaudin, Op. cit., p. 63 ; Pellissier de Reynaud, **Mémoire…**, Op. cit., p. 63 ; Matterer, Op. cit., pp. 117-118 ; Rouquerol, Op. cit., p. 68, n. 1 ; Allut, Op. cit., p. 231 ; Juchereau de Saint-Denys, Op. cit., p. 190.

- [هودجسون]، المصدر السابق، ص ص. 25-27 ؛ الزهّار، المصدر السابق، ص. 174 ؛ بفايفر، المصدر السابق، ص ص. 93-94.

3. Gaudin, Ibid., pp. 53-54 ; Galibert, Ibid. ; Pellissier de Reynaud, Ibid., p. 62 ; M. de Mont Rond, **Histoire de la conquête de l'Algérie de 1830 à 1847**, T. 1, Imprimerie de E. Marc-Aurel, Paris, 1847, pp. 73-74 ; Rozet, Ibid., pp. 227-228 ; Fernel, Ibid., pp. 101-102 & 104 ; Bartillat, **Relation…**, Op. cit., p. 163 ; Barchou de Penhoën, Op. cit., pp. 235-236 ; de Quatrebarbes, Op. cit., pp. 53-54 ; Rousset, Ibid., p. 203 ; Nettement, Ibid., p. 450 ; Berthézène, Op. cit., pp. 94-95 ; d'Ault-Dumesnil, Ibid., pp. 77-78 ; Desprez, Ibid., pp. 168 & 171 ; Bartillat, **Coup…**, Op. cit., pp. 132-133.

لواء دامريمون لسدّ منافذ جنان قنصلية السويد ؛ أمّا من جهة الميسرة، فتمّ تسليح مائة جندي من أمهر الرماة ببنادق حصار طويلة المدى لقنص الطوبجية من فرجات القلعة و كذا الإنكشارية المهاجمين أو الكامنين في الأحراش[1].

و كان آخر تدبير هو التشديد على الجنود بأن يلبدوا في الخنادق أو خلف الحواجز، و لا يعرّضوا أنفسهم للخطر بلا جدوى في حال هجوم الأعداء ؛ و عليه، كان الجزائريون يرمونهم بالحجارة من مسافة قريبة استفزازًا ليستثيروهم على الخروج من مجاحرهم[2].

و تجدر الإشارة إلى أنّ عدد القتلى و الجرحى من الجانب الفرنسي لم ينخفض بشكل محسوس خلال يومي 2 و 3 يوليو، رغم كلّ الإجراءات الدفاعية الآنفة الذكر ؛ و هذا ما ولّد حالة من التذمّر و نفاذ صبر في صفوف الجنود، لا سيّما أنّ بطّاريات الحصار - الّتي جهزت منها اثنتان ليلة 2 يوليو و خمسة الليلة الّتي تلتها - بقيت صامتة بأمر من دي بورمون، و لم تردّ على قصف مدفعية الجزائريين. فلقد كان من رأي هذا الأخير أن يبدأ إطلاق النار من جميع البطّاريات الستّ بطريقة متزامنة، حتّى لا يتسنّى للمدفعية الجزائرية تركيز نيرانها على بعضها[3].

و لإجبار الجزائريين على تشتيت قوّاتهم و إرسال قسمٍ من مدفعييهم إلى الميناء و الأبراج الساحلية، طلب دي بورمون من دوپيريه بأن تهاجم قطعٌ من الأسطول واجهة الجزائر البحرية بالتزامن مع القصف المدفعي على سلطان قلعه سي، الّذي كان مزمعًا بدؤه فجر 3 يوليو ؛ و جعل له أمارة على ذلك ثلاثة صواريخ تطلق من أعالي جبل بوزريعة منتصف الليل السابق للهجوم. و رغم أنّه لم يتلق الإشارة، خرج قائد القوّات البحرية على رأس عمارة كبيرة صباح اليوم المذكور، و باشر قصف أبراج الجهة الغربية للجزائر وصولاً إلى أبراج الميناء. غير أنّ سفنه الحربية كانت على مسافة أكبر من أن تصل القذائف إلى

---

1. Rouquerol, Op. cit., p. 67 ; Barchou de Penhoën, Op. cit., p. 234 ; de Quatrebarbes, Op. cit., p. 54 ; Rousset, Op. cit., pp. 203-204 ; Desprez, Op. cit., pp. 169-171 ; Gaudin, Op. cit., pp. 54-55 ; Pellissier de Reynaud, **Mémoire…**, Op. cit., pp. 62-63 ; Rozet, **Relation…**, Op. cit., p. 231.

2. يوم 2 يوليو، أمر أحد ضبّاط الصفّ الفرنسيين، الّذي لم يطق ذاك الاستفزاز، فرقته بالخروج من الخنادق ؛ لكنّه قوبل من قبل الجزائريين بوابلٍ من الرصاص، و اضطرّ إلى التقهقر بعد أن فقد 68 جنديًا. و إثر ذلك، كادت البطّارية الّتي كان يتولّى حراستها أن تسقط في أيديهم، لولا ثبات المدفعيين و وصول النجدة سريعًا لدحر المقتحمين :

- Rozet, Ibid., p. 234 ; Fernel, Op. cit., pp. 101-102 ; Barchou de Penhoën, Ibid., p. 235 ; Esquer, Op. cit., pp. 360-361 ; Nettement, Op. cit., pp. 450-451 ; Desprez, Ibid., pp. 174-175 ; Gaudin, Ibid., p. 56 ; Allut, Op. cit., p. 230.

3. Rozet, Ibid., pp. 232-233 & 301-302 ; Rouquerol, Ibid., p. 69 ; Fernel, Ibid., pp. 104-105 ; Bartillat, **Relation…**, Op. cit., p. 162 ; Anonyme, **La conquête…**, Op. cit., pp. 65-66 ; Gaudin, Ibid., pp. 55-56 ; Desprez, Ibid., p. 174 ; Péchot, Op. cit., p. 153.

أهدافها ؛ و للسبب ذاته، كان قصف الجزائريين المضاد بعيد من أن يطال السفن المهاجمة. و هكذا، لم يسفر هذا الهجوم الصاخب الّذي دام قرابة الثلاث ساعات، إلاّ عن خسائر طفيفة بالمدينة و أبراجها ؛ و بالنسبة للطرف الآخر، اقتصرت الخسائر البشرية على إحدى عشر قتيلٍ و خمسة عشر جريحٍ خلّفهم انفجار مدفعٍ كبير على متن البارجة الأميرالية[1].

فيما يخصّ الجانب الجزائري، يتبيّن لنا من قصفه المدفعي المكثّف و شبه المستمرّ من القلعة - الّذي كان يتوقّف عادةً خلال الليل، ما خلا بعض القنابل بين الفينة و الأخرى -، و من خرجات مفارزه الهجومية المباغتة الّتي اتّخذت طابع الكرّ و الفرّ، أنّه كان يعوّل على حرب الاستنزاف دون شكّ لإنهاك العدو و إطالة أمد القتال إلى حين وصول المدد، و لا سيّما القوّات بقيادة حسن باي وهران و خليفة أحمد باي[2]. و يبدو أنّه لم يدرك بالضبط سبب تعطّل الفرنسيين و يكتشف أمر بطّاريات الحصار إلاّ خلال نهار 3 يوليو، كما يظهر ذلك من تغطيته حينها لمصافّ المدافع و مخزن البارود بسلطان قلعه سي ببالات كبيرة من الصوف قصد حمايتها من القصف المدفعي المرتقب ؛ بالإضافة إلى مواصلته القصف خلال تلك الليلة بشكل غير مسبوق و تكثيفه للهجمات، الّتي كان آخرها في حدود الساعة الثالثة من صباح يوم 4 يوليو[3].

---

1. Fernel, Op. cit., p. 104 ; Barchou de Penhoën, Op. cit., pp. 239-240 ; de Quatrebarbes, Op. cit., p. 55 ; Anonyme, **La conquête…**, Op. cit., pp. 66-67 ; Rousset, Op. cit., pp. 206-207 ; Pocard-Kerviler, Op. cit., pp. 190-191 ; Réveillé de Beauregard, Op. cit., p. 31 ; Esquer, Op. cit., pp. 361-362 ; Nettement, Op. cit., pp. 454-455 ; Berthézène, Op. cit., pp. 95-96 ; d'Ault-Dumesnil, Op. cit., pp. 79-80 ; Desprez, Op. cit., pp. 175-176 ; Perrot, Op. cit., pp. 127-129 ; Gautherot, Op. cit., p. 99 ; Gaudin, Op. cit., pp. 56-57 ; Playfair, « **Épisodes…** », Op. cit., 1880, p. 208 ; Juchereau de Saint-Denys, Op. cit., pp. 190-191 ; Pellissier de Reynaud, **Mémoire…**, Op. cit., p. 63 ; Péan, Op. cit., pp. 92-93 ; Matterer, Op. cit., pp. 119 & 121-122 ; Allut, Op. cit., p. 231 ; Abi Ayad, Op. cit., pp. 6-7 ; Rozet, **Relation…**, Op. cit., pp. 235-236 ; Lauvergne, Op. cit., p. 106 ; Villeneuve-Bargemon, Op. cit., pp. 362-364 & 368.

- [هودجسون]، المصدر السابق، ص ص. 27-29.

من الجانب الجزائري، أمر وكيل الحرج بخروج نحو ثلاثين لنجونًا للتّصدي للأسطول الفرنسي ؛ و لكون هذا الأخير لم يقترب من المرسى بحيث يشكّل تهديدًا حقيقيًا، فإنّها لم تطلق أيّة طلقة مدفعية نحوه و عادت أدراجها عند نهاية العملية الاستعراضية. و كانت تلك آخر مناورة حربية لقطعٍ من البحرية الجزائرية :

- Rozet, Ibid., p. 235.

2. خلال الأيّام الخمس الّتي دامتها المعركة، كان أكبر مدد جدير بالذكر لفيف من ثلاثمائة إلى أربعمائة "بدوي" - كانوا على الأرجح متطوّعين من نواحي متيجة - مجرّدين من السلاح. و قد لمحهم الفرنسيون مساء 1 يوليو متّجهين نحو باب عزّون لولوج المدينة، و حاولوا قطع الطريق عليهم ؛ فدافع أولئك المتطوّعون عن أنفسهم برشق الحجارة و جرحوا جنديين :

- Bonnafont, Op. cit., p. 60.

3. Rozet, Ibid., pp. 233-235 & 237 ; Desprez, Ibid., p. 177 ; Anonyme, Ibid., pp. 64-65 & 67 ; Barchou de Penhoën, Ibid., pp. 240-241 ; Rousset, Ibid., p. 208; Rouquerol, Op. cit., pp. 68 & 70 ; Esquer, Ibid., p. 363 ; Nettement, Ibid., p. 457 ; Gautherot, Ibid., pp. 99-100 ; Gaudin, Ibid., pp. 56 & 58 ; Galibert, Op. cit., p. 305 ; Bonnafont, Ibid., pp. 64-66.

سبق هذا الهجوم الأخير بنحو ثلاثة أرباع الساعة بدء القصف النهائي على القلعة ؛ إذ حالما أتاح الشفق تبيّن حوّافها المسنّنة، صدر الأمر من قيادة الأركان الفرنسية - الّتي اجتمعت بقنصلية إسبانيا - بإطلاق صاروخ ايذانًا بفتح النار. و في اللحظة التالية، أطلقت البطّاريات الستّ رشقتها الأولى، و لم تتبعها بثانية حتّى بادر الطوبجية الجزائريون بالردّ، ليس فقط من سلطان قلعه سي، لكن أيضًا من بطّارية أطلال برج النجمة و قلعة القصبة و حصن باب عزّون. و لأكثر من ساعة، كان تصويب الطرفين عمومًا عشوائيًا جرّاء حجب الدخان الكثيف الناجم عن القصف و الضباب الصباحي جزئيًا لمواقع كلاً منهما ؛ و تترجم ذلك بالنسبة للفرنسيين في أنّ معظم قذائفهم و قنابلهم كانت تسقط بعيدًا وراء الهدف، إذ وصل العديد منها إلى قلب المدينة - حيث كان الوقع النفسي لهذه الأخيرة على السكّان أبلغ ضررًا من الخسائر المادية المخلّفة - أو حتّى إلى البحر[1].

و لأنّ القصف خلال الساعة الثانية اتسّم بعدم الدقّة رغم زوال العائق البصري الآنف الذكر، فقد قام الجنرال دي لا هيت المحنّك بإرسال توجيهات مضبوطة لتدارك الأمر، كما قام بعض ضبّاط المدفعية لتلافي نقص خبرة المدفعيين بتوليّ تصويب قطع المدفعية بأنفسهم ؛ و هذا ما سمح للمدفعية الفرنسية بحلول السادسة و نصف صباحًا بأن تكتسب دقّةً و اطرادًا رهيبين[2].

أمّا من الجانب الجزائري، فلقد كان العمل جاريًا على قدمٍ و ساق للردّ بنفس الوتيرة على الأعداء في سلطان قلعه سي، حيث كان الخزناجي يقود الحامية المؤلّفة من حوالي ألفي رجل : ثمانمئة جندي من سلاح المدفعية - معظمهم كما أسلفنا من فرقة الطوبجية "العرب" -، و - حسب تقديرنا - سبعمائة جندي من فرقة الإنكشارية، و خمسمائة جندي من فرقتي الزواوة و السودان، بالإضافة إلى متطوّعين من فئات الفحصية و البرّانية خصوصًا[3] ؛ و كان ما يربو عن الخمسين من الأخيرين مكلّفين بنقل الطوبجية

---

1. Rozet, **Relation…**, Op. cit., pp. 238-242 ; Rouquerol, Op. cit., p. 70 ; Barchou de Penhoën, Op. cit., pp. 242-244 ; Anonyme, **La conquête…**, Op. cit., pp. 68-69 ; Rousset, Op. cit., pp. 208-209 ; Esquer, Op. cit., pp. 363-364 ; Nettement, Op. cit., p. 458 ; d'Ault-Dumesnil, Op. cit., p. 80 ; Desprez, Op. cit., p. 177 ; Gautherot, Op. cit., p. 100 ; Gaudin, Op. cit., p. 58 ; Pellissier de Reynaud, **Mémoire…**, Op. cit., p. 63 ; Bartillat, **Relation…**, Op. cit., p. 163 ; Fernel, Op. cit., pp. 108-109 ; Pétiet, Op. cit., p. 338 ; Galibert, Op. cit., pp. 305-306 ; Juchereau de Saint-Denys, Op. cit., p. 191.

- [هودجسون]، المصدر السابق، ص ص. 29-30 ؛ حمداني، المرجع السابق، ص. 197 ؛ الزهّار، المصدر السابق، ص. 174.

2. Rozet, Ibid., pp. 239-240 ; Rouquerol, Ibid. ; Fernel, Ibid., pp. 109-110 ; Barchou de Penhoën, Ibid., pp. 241 & 243-244 ; Rousset, Ibid., pp. 209-210 ; Bartillat, **Coup…**, Op. cit., p. 133 ; Esquer, Ibid. ; Nettement, Ibid., pp. 458-459 ; d'Ault-Dumesnil, Ibid., p. 81 ; Gautherot, Ibid. ; Gaudin, Ibid., p. 59 ; Desprez, Ibid., pp. 177-178.

- [هودجسون]، نفس المصدر السابق، ص. 30.

3. الجدير بالتنويه أنّه تمّت استعاضة الخسائر الّتي خلّفها قتال الأربعة أيّام السابقة جزئيًا، في صفوف أفراد حامية القلعة المذكورة. انظر :

- Rousset, Ibid., p. 210 ; Gautherot, Ibid.

المصابين إلى أقبية مخصّصة لتلقي العلاج، فيما تولّى باقي المتطوّعين نقل ذخائر المدفعية من المخازن أو إعادة نصب المدافع الّتي كان يطيح بها القصف عن مساندها[1].

و بالنظر إلى أنّ البطّاريات الفرنسية المدعّمة بمتاريس ترابية و المرتبطة فيما بينها بسلسلة خنادق توزّعت على ما يشبه نصف قوس يعلو مستواه موقع القلعة ما بين خمسة عشر و أربعين مترًا، فإنّ المدفعية الجزائرية اضطرّت إلى تشتيت نيرانها على نطاق واسع، بحيث كانت أغلب قذائفها تسقط وراء الخطوط الفرنسية في مخيّم الفرقة الثانية و رحبة السلاح و العتاد، دون أن تخلّف خسائر ملموسة تتناسب مع كثافة القصف ؛ و على العكس من ذلك، أضحت نيران المدفعية الفرنسية المركّزة على واجهتي القلعة الجنوبية و الغربية و البرج الرئيسي داخلها بعد أن احتدم القتال قلّما تخطئ هدفها[2].

لقد قاومت حامية القلعة لأربعة ساعات باستماتة ملفتة للانتباه، قبل أن يبدأ عدد قطع المدفعية في الخدمة بالتراجع، جرّاء مقتل الكثير من سدنتها[3] ؛ و لا سيّما بفعل الرمي الضامّ لبطّارية سان لويس، الّذي كان يحصد صفوفًا بأكملها من الطوبجية[4]. و خشية أن تنهار عزائم جنود الحامية نتيجةً لذلك، انتهض الخزناجي إبراهيم "**يقود المدافعين عنها معاونًا بنفسه على تشغيل المدافع، و موزّعًا حفنات الذهب على رجاله**"[5] تعهّدًا لمعنوياتهم. و في محاولة لقلب الأوضاع المنذرة بأن تسوء أكثر، أجاز الوزير المذكور لجنود حامية القلعة بخرجة لمهاجمة البطّارية، الّتي كانت تفتك بهم فتكًا ذريعًا ؛ غير أنّ هذه المحاولة اليائسة الأخيرة باءت - مثل سابقاتها - بالفشل[6].

---

1. Rozet, **Relation…**, Op. cit., p. 241 ; de Quatrebarbes, Op. cit., p. 57 ; Anonyme, **La conquête…**, Op. cit., p. 70 ; Esquer, Op. cit., p. 364 ; Gautherot, Op. cit., p. 100.

2. Anonyme, Ibid., pp. 69-70 ; Barchou de Penhoën, Op. cit., p. 244 ; Rozet, Ibid., pp. 226-227 & 240 ; Rousset, Op. cit., p. 210 ; Pellissier de Reynaud, **Mémoire…**, Op. cit., p. 64 ; Galibert, Op. cit., p. 306.

3. يذكر قائد الكتيبة فرنل في هذا الصدد : "**...أمكننا حينها أن نعاين إقدام أولئك الجند الشجعان الّذين كانوا يستحقّون مصيرًا أفضل : كانت قذائفنا تحدث فيهم مقتلة مروّعة ؛ فلم يكن بوسع نفس المدفعيين أن يطلقوا مرّتين، كان يتمّ حملهم و استبدالهم على الفور بآخرين يُقبلون بتعجّل لموتٍ محقّق.**" : - Fernel, Op. cit., p. 109.

انظر أيضًا :

- de Quatrebarbes, Ibid. ; Friedrich Fürst zu Schwarzenberg, **Rückblicke auf Algier und dessen Eroberung durch die königlich-französischen Truppen im jahre 1830**, Bei Schaumburg und comp., Wien, 1837, p. 168 ; Rousset, Ibid. ; Gautherot, Ibid. ; Juchereau de Saint-Denys, Op. cit., pp. 191-192 ; Pellissier de Reynaud, Ibid.

4. Barchou de Penhoën, Ibid., p. 244 ; Rozet, Ibid., pp. 240-241 ; Rouquerol, Op. cit., p. 70 ; Rousset, Ibid. ; Esquer, Ibid. ; d'Ault-Dumesnil, Op. cit., pp. 81-82 ; Desprez, Op. cit., p. 178.

- [هودجسون]، المصدر السابق، ص. 30. انظر الملحق رقم 67.

5. نفسه.

6. Pellissier de Reynaud, Ibid.

و بعد أن أتى القصف على شرفات القلعة - بما فيها القسم العلوي من البرج المركزي - و الحماية الهزيلة الّتي شكّلتها بالات الصوف، أضحى واضحًا أن مصافّ المدافع يتعذّر الصمود فيها. و بناءً على ذلك، أصدر الخزناجي حوالي الساعة الثامنة و نصف أمره للطوبجية المتبقين بالتخلّي عن تلك المواقع المكشوفة و النزول إلى الردهات السفلى ؛ و بسبب الاكتظاظ الشديد هناك، كلّف خمسين رجلاً بنقل الجرحى إلى المدينة فسحًا للمجال. هاتان الخطوتان اللّتان أملتهما حراجة الموقف، سواء اعتبرهما بعض الجنود الخائرين إقرارًا بتعذّر الدفاع عن القلعة أو مقدّمة للجلاء عنها، بثتا روح الهزيمة في رُوعهم، فهرعوا إلى باب القلعة المفتوح يريدون الفرار ؛ لكن الخزناجي أمر الحرّاس - أو الشوّاش - الأتراك بالتصدّي لتلك الحركة قبل أن تستفحل، و أدّى قطع ستّة رؤوس إلى إيقافها مؤقّتًا من تلك الجهة[1]، فيما بادر عددٌ من الجنود إلى التسلّل خارجًا من جهات أخرى، "**فمنهم... من ألقى بنفسه من أعلى الجدار، و منهم من تدلّى بحبلٍ**"[2].

في غضون ذلك، لم يفت الداي حسين، الّذي كان يتابع المعركة الجارية من مستشرف قلعة القصبة، تقدّم الآثار التدميرية للمدفعية الفرنسية على سلطان قلعه سي، فأمر صهره إبراهيم آغا و الحاج أحمد باي بأن يشنّا على رأس قواتهما المتموقعة غير بعيدٍ من عين الربط هجومًا على ميمنة معسكر العدو، علّه يخفّف من وتيرة القصف و يمنح للحامية متنفّسًا[3].

قبيل الساعة التاسعة، كان الجنرال دي لا هيت قد أمر لإسكات قطع مدفعية سلطان قلعه سي بتركيز نيران عدّة مدافع عليها الواحدة تلو الأخرى ؛ و هذا ما أدّى تدريجيًا إلى تضاؤل القصف الصادر عنها،

عكس ما ذكره حمدان خوجة - المحسوب على تحزّب الحضر - بشأن دور الخزناجي المشبوه خلال قيادته لحامية سلطان قلعه سي، استمات هذا الأخير في الدفاع عنها معرّضًا نفسه أكثر من مرّة للخطر ؛ و يشهد له الجنرال برثيزن بذلك، حيث يقول : "**كان الخزناجي (وزير الخزينة) مكلّفًا بالدفاع عن ذلك الموقع البالغ الأهمّية ؛ و يحتمل أنّه من دون الكدمات الّتي أجبرته على الانسحاب، لم يكن هذا الحدث ليقع و كانت المقاومة ستستمرّ عدّة أيّام.**" : حمدان خوجة، المصدر السابق، ص. 199. - Berthézène, Op. cit., p. 96.

انظر أيضًا : بفايفر، المصدر السابق، ص. 127، ه. 44.

- de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 316 ; Barchou de Penhoën, Ibid., p. 245 ; Anonyme, Ibid., p. 71 ; Bonnafont, Op. cit., p. 68.

1. Rozet, **Relation…**, Op. cit., p. 242 ; Barchou de Penhoën, Op. cit., pp. 244-245 ; Esquer, Op. cit., p. 364 ; Gaudin, Op. cit., pp. 59-60.

2. الزهّار، المصدر السابق، ص. 174.

انظر أيضًا : حمدان خوجة، المصدر السابق، ص. 199. - Fernel, Op. cit., p. 110.

3. Juchereau de Saint-Denys, Op. cit., p. 192 ; Pellissier de Reynaud, **Mémoire…**, Op. cit., p. 65 ; Rozet, Ibid., p. 252 ; Fernel, Ibid., p. 112 ; Gaudin, Ibid., p. 61 ; de Quatrebarbes, Op. cit., p. 59 ; Esquer, Ibid., p. 365 ; Nettement, Op. cit., p. 462 ; Desprez, Op. cit., pp. 180-181.

بحيث لم يتبق للجزائريين سوى خمس أو ستّ قطع مدفعية تردّ على بطّاريات الأعداء، بعد أن قتل أو جرح أزيد من نصف أفراد الحامية، و من ضمنهم معظم الطوبجية[1]. عندئذٍ، أرسل الخزناجي إبراهيم للداي يخبره بالوضع اليائس الّذي آلت إليه القلعة، و الّذي يتعذّر معه مواصلة القتال ؛ فأصدر الداي، بناءً على تلك المعطيات، الأمر لوزيره بالإخلاء، و اتّخاذ الترتيبات المناسبة لتفجير القلعة الآيلة للسقوط، كي لا يتّخذها الفرنسيون موقعًا حصينًا لقصف القصبة و المدينة بعد أن تقع في أيديهم[2].

و هكذا توقّفت النيران الصادرة عن القلعة تمامًا على التاسعة و نصف، و شرعت زمر الناجين من أفراد الحامية - الّذين تراوح عددهم إجمالاً بين خمسمائة و ألف، من ضمنهم نسبة معتبرة من الجرحى - في الجلاء متوجّهين إلى باب الجديد[3] ؛ في ذات الوقت تقريبًا، أمر قائد المدفعية البطّاريات ببدء ثلم أسوار القلعة تمهيدًا لعملية الاقتحام. و تجدر الإشارة إلى أنّ الفرنسيين في الخنادق لم يتفطّنوا حينها للحراك الجزائري، على عكس جنود الفرقة الأولى الّذين سمحت لهم مواقعهم بمرتفعات بوزريعة بمتابعة كلّ ما كان يجري دون عائق[4].

امتثالاً لأوامر الداي، ترك الخزناجي ثلاثة طوبجية (تركي و سودانييْن) أوكلت لهم مهمّة ترقّب تحرّك الفرنسيين باتجاه القلعة، و إشعال النار في الجبخانة (مخزن البارود و الذخيرة) حالما يقتربون و يبدؤون في تسوّرها، لكي يوقع الانفجار أكبر قدر من الخسائر في صفوفهم ؛ لكن شاء القدر أن يُقتل اثنان منهم بطلقات العدو قبيل حلول العاشرة، فقام الجندي الناجي بنزع اثنان من أعلام الإيالة الحمراء المنصوبة عند ركنين من أركان القلعة - كإشارة متفّق عليها على الأرجح -، قبل أن يشعل فتيل البارود. و لحظات

---

1. Rousset, Op. cit., p. 210 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 316 ; Desprez, Op. cit., p. 178 ; Gaudin, Op. cit., p. 59.

2. Rozet, **Relation…**, Op. cit., p. 243 ; Gautherot, Op. cit., p. 101 ; Juchereau de Saint-Denys, Op. cit., p. 192.

3. Rozet, Ibid., pp. 242-243 ; Anonyme, **La conquête…**, Op. cit., p. 71 ; Rousset, Ibid., p. 211 ; Pellissier de Reynaud, **Mémoire…**, Op. cit., p. 64 ; Juchereau de Saint-Denys, Ibid.

4. Bartillat, **Relation…**, Op. cit., p. 163 ; Anonyme, Ibid. ; Rousset, Ibid., pp. 210-211 ; Nettement, Op. cit., p. 460 ; Berthézène, Op. cit., p. 96 ; Desprez, Ibid. ; Pellissier de Reynaud, Ibid. ; Juchereau de Saint-Denys, Ibid. ; Galibert, Op. cit., p. 306 ; Gaudin, Ibid., p. 60.

يذكر النقيب روزيه بخصوص جلاء الحامية : "**على الساعة التاسعة و نصف، فتحت البوّابة و رأينا جمعًا من الحضر، العرب و الأتراك يهرعون خارجًا. كانت بطّارية قذّافات ميدانية تطلق عليهم النار لدى خروجهم و قتلت بضعة رجال. كان يسهل تمييز الأتراك ضمن غيرهم : كانوا يخرجون بهدوء، و بالكاد كانوا يسرّعون الخطى، بينما كان الحضر و العرب يجرون بكلّ سرعة، تاركين وراءهم على الربوة عددًا كبيراً من الخيول و البغال…**" : - Rozet, Ibid., p. 243.

انظر أيضًا :

- Barchou de Penhoën, Op. cit., pp. 245-246 ; Anonyme, Ibid. ; Rozet, **Voyage…**, Op. cit., T. 2, pp. 286-287.

بعد ذلك، على الساعة العاشرة و عشر دقائق بالضبط، حدث انفجار مهوّل سُمع دويّه من مسافة ثلاثين كيلومترًا، و تصدّعت بفعله منازل تقع على بعد كيلومترين[1].

خلاف ما كان مؤمّلاً، قوّض الانفجار البرج الّذي يتوسّط القلعة و قسم من الواجهة الجنوبية الغربية لا غير، كما أنّه لم يخلّف في الصفوف الفرنسية إلاّ هلعًا مؤقّتًا و سقوط قتيلين و عشرة جرحى جرّاء تساقط الحطام ؛ و السبب الراجح وراء ذلك أنّ السوداني تمكّن من إشعال النار في مخزن البارود الثانوي فقط، دون الرئيسي الّذي كان موجودًا في أقبية البرج المركزي[2].

و مهما يكن من أمر، احتلّ الفرنسيون سلطان قلعه سي بعد قرابة نصف ساعة من وقوع الانفجار، حيث سارعوا إلى نصب مدفعين ميدانيين، إلى جانب ثلاثة قطع مدفعية من الّتي وجدوها سليمة على الواجهة الشمالية الشرقية ؛ و كانت هذه العجلة من أجل الردّ على قصف قلعة القصبة و برج باب عزّون الّذي لم يتوقّف، و أضحى موجّهًا ضدّ الموقع الّذي احتلّوه لتوّهم[3].

أمّا من الجانب الجزائري، فقد اتّخذ الانفجار أبعادًا أكثر مأساوية بكثير، إذ "**سقطت فوق المدينة أحجارٌ كبيرة و ألحقت بها أضرارًا فادحة. لقد كان لهذه الحادثة أثرٌ سيءٌ في نفوس السكّان يستعصي**

---

1. Rozet, **Relation…**, Op. cit., pp. 243-244 ; Barchou de Penhoën, Op. cit., p. 246 ; Merle, Op. cit., pp. 186-187 ; d'Ault-Dumesnil, Op. cit., p. 82 ; Anonyme, **La conquête…**, Op. cit., pp. 71-72 ; Esquer, Op. cit., p. 364 ; Desprez, Op. cit., p. 179 ; Réveillé de Beauregard, Op. cit., pp. 31-32 ; Aledo, Op. cit., f. 49 ; Abi Ayad, Op. cit., p. 206 ; Matterer, Op. cit., pp. 123-124 ; Anonyme, **Relation de la prise d'Alger par l'armée française le 5 juillet 1830**, Imprimerie de Ch. Brugnot, Dijon, 1830, p. 2 ; Lauvergne, Op. cit., p. 92 ; Villeneuve-Bargemon, Op. cit., p. 364.

- الزهّار، المصدر السابق، ص. 174 ؛ بفايفر، المصدر السابق، ص ص. 94-95 ؛ [هودجسون]، المصدر السابق، ص. 30 ؛ حمداني، المرجع السابق، ص. 197.

2. Rozet, Ibid., pp. 244-248 & 251 ; Bartillat, **Relation…**, Op. cit., pp. 163-164 ; Desprez, Ibid. ; Anonyme, **La conquête…**, Ibid., pp. 72-73 ; Rousset, Op. cit., pp. 211-213 ; Esquer, Ibid. ; Nettement, Op. cit., pp. 459-460 ; Gautherot, Op. cit., pp. 100-101 ; Pellissier de Reynaud, **Mémoire…**, Op. cit., pp. 65-66 ; Barchou de Penhoën, Ibid., pp. 247-248 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 316 ; Gaudin, Op. cit., pp. 60 & 62 ; de Quatrebarbes, Op. cit., p. 58 ; Merle, Op. cit., p. 188 ; Bonnafont, Op. cit., p. 68 ; Fernel, Op. cit., p. 111 ; Pétiet, Op. cit., p. 340 ; Villeneuve-Bargemon, Ibid., pp. 364-365 ; Pocard-Kerviler, Op. cit., p. 195 ; Rouquerol, Op. cit., pp. 71-72.

- حمدان خوجة، المصدر السابق، ص. 199 ؛ بفايفر، نفس المصدر السابق، ص. 95.

3. Pellissier de Reynaud, Ibid., p. 65 ; Gaudin, Ibid., pp. 60-62 ; Galibert, Op. cit., pp. 306-307 ; Playfair, « **Épisodes…** », Op. cit., 1880, pp. 208-209 ; Abi Ayad, Ibid. ; Réveillé de Beauregard, Ibid., p. 32 ; Bonnafont, Ibid. ; Rozet, Ibid., pp. 245-249 ; Rouquerol, Ibid., pp. 70-71 ; Fernel, Ibid., pp. 110-112 ; Barchou de Penhoën, Ibid. ; de Quatrebarbes, Ibid., pp. 57-58 ; Rousset, Ibid., pp. 212-213 ; Esquer, Ibid., pp. 364-365 ; Nettement, Ibid., pp. 459-461 ; Berthézène, Op. cit., p. 97 ; d'Ault-Dumesnil, Ibid. ; Desprez, Ibid., pp. 179-181 ; Lauvergne, Ibid., pp. 87-82 ; Féraud, « **La prise…** », Op. cit., p. 75 ; Gautherot, Ibid., pp. 101-102.

الوصف... و ما إن زايل الناس ما خامرهم من ذهول صارم و غيبوبة منكرة، حتّى تردّدت في أرجاء المدينة أصوات البكاء و النياحة ؛ فقد كان هناك آلاف من الجرحى يتألّمون آلامًا مرّة، و صعد الأطفال و النساء إلى السطوح و أخذوا يبكون بشدّة، بينما سرع الرجال إلى القصبة ليحملوا الداي على التفاوض مع الفرنسيين"[1].

في الواقع، هرع أولئك الرجال - الّذين كانوا أعيانًا ينتمون على العموم إلى فئات العلماء و الموظّفين و الأمناء و كبار التجّار و الريّاس و ضبّاط الإنكشارية - لحضور الديوان العامّ الّذي دعا إلى عقده الداي حسين في القصبة على عجل، قصد مناقشة مصير المدينة بعد فقد سلطان قلعه سي و محاولة انقاذ ما يمكن إنقاذه[2]. و خلال ذلك الديوان، لم يستطع دعاة التسليم من "وجوه البلد" - و على رأسهم زعماء ما سيعرف بـ"تحزّب الحضر" : أحمد بوضربة، و حمدان بن عثمان خوجة، و حمدان بوركايب - تغليب أو إعلان رأيهم الداعي إلى فتح باب التفاوض مع الغزاة للحفاظ على الأرواح و الممتلكات ؛ و ذلك بسبب إصرار الداي على موقفه[3]، حيث خطب قائلاً : **"إنّ حسين باشا لن يتفاوض مع الفرنسيين ما وُجدت القصبة، و إنيّ لأفضّل أن أنسف القصبة و المدينة كلّها على أن أخطو خطوة كهذه"**[4].

إزاء هذا التهديد المبطّن الّذي حسم المناقشة، وافق جميع أعضاء الديوان - دون استثناء - في الظاهر على مواصلة القتال[5]. و لمّا جيء لمناقشة خطّة قتالية لمجابهة العدو، اقترح عددٌ من أهل البلد على الداي أن يفتح مخازن السلاح لجميع الرجال الّذين يتراوح سنّهم بين الخمسة عشر و السبعين ليقوموا بخرجة هجومية صبيحة الغدّ ضدّ العدو الفرنسي، الّذي استولى على برج مولاي حسن، فيما يتولىّ الجند الإنكشاري المواقع الدفاعية بأسوار و أبراج المدينة ؛ لكن "كبراء العسكر" - الّذين ارتابوا في نوايا البلدية -

---

الجدير بالذكر أنّ القوّات المقتحمة للقلعة تفاجأت بوجود عدد من الجزائريين جرحى في الأقبية، الّذين لم يتسنّ نقلهم في غمرة الانسحاب و التسرّع في تفجير مخازن البارود ؛ و لم يسعف الفرنسيون أولئك الجنود الّذين كانوا قبل ساعات يثنون على استماتتهم في القتال، بل أجهزوا عليهم بشكيمتهم المعهودة : - Rozet, Ibid., pp. 247-248 ; Anonyme, **La conquête...**, Ibid., p. 73.

1. بفايفر، المصدر السابق، ص. 95. انظر أيضًا : الزهّار، المصدر السابق، ص. 174 ؛ السليماني، المصدر السابق، ص. 257 ؛ الجزائري، **كيف...**، المصدر السابق، ص. 31 ؛ شويتام، **نهاية...**، المرجع السابق، ص. 204.

- Nettement, Op. cit., pp. 460-461 ; Lomon, Op. cit., pp. 196-197 ; Rozet, **Relation...**, Op. cit., p. 245 ; Gaudin, Op. cit., p. 62 ; Esquer, Op. cit., p. 367.

2. علي رضا پاشا، المصدر السابق، ص. 74 ؛ حمدان خوجة، المصدر السابق، ص. 200 ؛ الجزائري، نفسه ؛ صحراوي، المرجع السابق، ص. 190 ؛ سامح التر، المرجع السابق، ص. 650. - Eudel, Op. cit., p. 317 ; Péan, Op. cit., p. 95.

3. حمدان خوجة، نفس المصدر السابق، ص ص. 200-201 ؛ بفايفر، نفس المصدر السابق، ص ص. 94-95 ؛ حمداني، المرجع السابق، ص. 197. - Eudel, Ibid.

4. بفايفر، نفسه. انظر أيضًا : الجيلالي، المرجع السابق، ج. 4، ص. 16.

- Gaudin, Ibid. ; Nettement, Ibid., p. 461 ; Esquer, Ibid., p. 368 ; Rousset, Op. cit., pp. 213-214.

5. حمدان خوجة، نفس المصدر السابق، ص. 200 ؛ بن العنتري، **فريدة...**، المصدر السابق، ص. 118.

عارضوا هذا المقترح غير المعهود، قائلين : "**نحن نخرج إليه و نقاتله، و أنتم تعسّون في الأبراج و على الأسوار كما هي العادة**"[1].

بعد أن انفضّ الديوان العامّ على قرار متابعة المواجهة - و رغم عدم الخلوص إلى خطّة واضحة متّفق عليها -، كان من المنتظر أن يستمرّ الدفاع عن المدينة لعدّة أيّام أخرى ؛ غير أنّ سير الأحداث كان سيتّخذ منحًى مغايرًا تمامًا، خلال الساعات القليلة الّتي تلت[2].

قبيل منتصف النهار، اجتمع عددٌ معتبر من أعيان المدينة شكّل نواته أعضاء تحزّب الحضر بطبّانة باب البحر[3]، و قرّروا وضع السلاح مستأنسين بالبيانات الّتي وزّعها الفرنسيون سابقًا ؛ و تقرّر إرسال وفدٍ لمفاوضة القائد الفرنسي على شروط تسليم المدينة، يتبع بوفدٍ آخر لإعلام الداي بقرارهم و وضعه أمام الأمر الواقع[4].

و تترجم هذا القرار الخطير و المرتجل برفع علمين أبيضين في أحد أحياء المدينة الشرقية على الساعة الثانية عشر و نصف[5]، كما تمّ إيقاف القصف المدفعي من برج باب عزّون باتّجاه حصن الإمبراطور (سلطان قلعه سي) ؛ و قد أسهمت أصداء ذلك المحفل و ما ترتّب عنه - بلا ريب - في شلّ الروح القتالية

- Eudel, Ibid. ; Péan, Ibid.

1. الزهّار، المصدر السابق، ص. 175.

كان ارتياب ضبّاط الإنكشارية حينها من الاقتراح غير المنطقي و صعب التصديق عائد إلى أنّ معظم البلدية رفض حمل السلاح ضدّ الفرنسيين قبل ذلك من جهة، و من جهة أخرى بسبب الحزازات الّتي تبدّت بين أفراد الفئتين فور سقوط القلعة، و كادت تتحوّل إلى مشادّات عنيفة بأزقّة المدينة ؛ و إضافةً إلى ذلك، كان الإنكشارية يخشون من أن يُستخدم السلاح الموزّع ضدّهم، في تمرّد مماثل للّذي حدث بُعيْد هزيمة أسطه والي : - Barrachin, Op. cit., p. 16 ; Pellissier de Reynaud, **Mémoire…**, Op. cit., p. 66.

2. علي رضا پاشا، المصدر السابق، ص. 75 ؛ الزهّار، نفسه ؛ حمدان خوجة، المصدر السابق، ص. 200 ؛ بن العنتري، **فريدة…**، المصدر السابق، ص. 118 ؛ سامح التر، المرجع السابق، ص. 650 ؛ حمداني، المرجع السابق، ص. 199.

3. ورد هذا البرج عند حمدان خوجة تحت اسم برج باب البحرية، و كان يقع قرب باب الكمرك و يشرف على مدخلي ترسانة خير الدين. انظر فيما يخصّه : خلاصي، المرجع السابق، ج. 1، ص. 179 ؛ بن حمّوش و بلقاضي، المرجع السابق، ص ص. 70-74.

- Hamdan-ben-Othman Khoja, Op. cit., p. 192.

تجدر الإشارة إلى أنّه نفس المكان الّذي التقى فيه تحزّب الحضر في ليلةٍ سابقة، حيث خلص إلى أنّ "**الجزائر ضائعة لا ريب في ذلك، و لو أنّ الفرنسيين يدخلون بالقوّة على إثر الهجوم، فإنّهم سينهبون المدينة و يقتلون جميع السكّان و النساء و الأطفال العزل**" : حمدان خوجة، نفس المصدر السابق، ص. 201. - Id., pp. 192-193.

انظر أيضًا : سعد الله، **محاضرات…**، المرجع السابق، ص ص. 44-45 ؛ محمّد بن جبور، **الاحتلال الفرنسي للجزائر و مقاومة الأمير عبد القادر (1830-1847)، من خلال وثائق الأرشيف المغربي**، دكتوراه في التاريخ الحديث و المعاصر، جامعة وهران، 2013، ص. 51.

- Eudel, Op. cit., p. 317.

4. حمدان خوجة، نفس المصدر السابق، ص ص. 201-202 ؛ بفايفر، المصدر السابق، ص. 96 ؛ علي رضا پاشا، نفس المصدر السابق، ص. 76 ؛ بن جبور، نفسه. - Péan, Op. cit., p. 95 ; Eudel, Ibid.

5. Matterer, Op. cit., pp. 124 & 126.

لدى عددٍ متزايد من المدافعين، الّذين راحوا يتخلّون عن مواقعهم للاحتماء داخل المدينة أو السعي للفرار خارجها[1].

إزاء التطوّرات الخطيرة الّتي عرفتها الساعات الأخيرة، دعا آخر آغوات الإنكشارية بيرم بن محمد[2] إلى اجتماع طارئ لأفراد الأوجاق بإحدى ثكنات المدينة. و إبّان ذاك الديوان، لم يشغل التشاور حول الهجوم الّذي تمّ التطرّق إليه في الديوان العامّ إلاّ حيّزًا ثانويًا، إذ طغت مناقشة الأخطاء الّتي ارتكبها الداي حسين أغلب التدخّلات ؛ و أجمع المجتمعون على تحمّل الداي حسين المسؤولية الكاملة لما آلت إليه الأمور، و لا سيّما أمره بتفجير جبخانة القلعة، كما علّقوا على أوامره إلى "**قوّاده أن يفعلوا بحصونهم ما فعله الخزناجي أفندي بقلعة الإمبراطور، إذا هم عجزوا عن الدفاع عنها**"[3]، بأنّها إقرار بيّن عن عجزه ؛ و بناءً على ذلك، قرّروا إسقاطه و تنصيب رجل كفء قادر على مواجهة الوضع بدلاً عنه، و وقع اختيارهم على خزناجيِه إبراهيم بن خليل[4].

قُبيل الساعة الواحدة زوالاً، كان الفرنسيون يحتلّون بطّارية برج النجمة الواقعة على بعد أربعمائة متر فقط عن أسوار القصبة، و الّتي تمّ إخلاؤها من قبل الجزائريين بالتزامن مع سلطان قلعه سي ؛ كما بدأ يتراءى تقدّم الأسطول الفرنسي في خليج الجزائر باتّجاه واجهة المدينة البحرية، ليجدّد قصفه عليها. أدرك حينها الداي حسين، الّذي وردته دونما شكّ أنباءٌ جدّ مقلقة بواسطة مرؤوسيه و مخبريه عمّا كان يجري تباعًا في المدينة (تبدّد المدافعين عن عدّة مواقع و رفع راية الاستسلام أسافل المدينة، إضافةً إلى اجتماع الإنكشاريين بديوانهم الّذي لا ينذر بخير)، أنّه أمسى في وضعٍ ميؤوسٍ منه ؛ و عليه أن يتصرّف سريعًا إن أراد أن يحافظ على حياته[5].

نزولاً عند نصيحة مقرّبيه، ابتعث الداي صهره يوسف وكيل الحرج إلى دوپيريه، ليطلب منه إيقاف العمليات الحربية، و يتباحث معه بخصوص شروط الصلح. و لو أنّ هذا الأخير قبِل بتعليق الهجوم، إلاّ أنّه أوضح لوكيل الحرج أنّ التفاوض ليس من صلاحياته، بل من صلاحيات القائد العامّ ؛ و يتوجّب عليه مكاتبته بهذا الموضوع. و بعد أن استبقى المفاوض الجزائري على متن السفينة الأميرالية حتّى الساعة

---

1. Rozet, **Relation…**, Op. cit., pp. 249 & 253 ; Barchou de Penhoën, Op. cit., p. 249 ; Esquer, Op. cit., p. 367.

2. **دفتر مواجبات…**، المصدر السابق، رقم 1979 مكرّر، و. 9ظ ؛ رقم 1977، و. 9و.

3. بفايفر، المصدر السابق، ص. 96.

4. Galibert, Op. cit., pp. 308-309 ; Barchou de Penhoën, Ibid., p. 250.

5. Pellissier de Reynaud, **Mémoire…**, Op. cit., pp. 66-67 ; Raynal, Op. cit., p. 21 ; de Quatrebarbes, Op. cit., pp. 59-60 ; Esquer, Ibid., p. 368 ; Matterer, Op. cit., p. 124 ; Barchou de Penhoën, Ibid., p. 249.

السادسة و نصف بحجّة انتظار ردّ دي بورمون، أعلمه أخيرًا بأنّه طالما رفرفت الأعلام الجزائرية على أسوار و أبراج المدينة، فإنّه سيعتبر أنّ حالة الحرب لا تزال قائمة[1].

و بالمثل، قام الداي حسين بإيفاد المقاطعجي مصطفى قدري بعد ذلك بقليل إلى دي بورمون، مكلّفًا باقتراح تسوية : يدفع الداي من الخزينة جميع مصاريف الحرب للملك، و يتنازل له عن الديون الّتي كانت سببًا في حدوث الأزمة، كما سيمنح جميع الترضيات الّتي طلبت منه قبل القطيعة ؛ و مقابل ذلك، كان ينتظر من الفرنسيين أن لا يدخلوا المدينة، و أن ينسحبوا بقوّاتهم عن الجزائر عقب دفع غرامات الحرب، مثلما فعلت روسيا قبل أشهر في حربها الأخيرة مع الدولة العثمانية، بعد أن وصلت قوّاتها إلى أدرنة، بحيث باتت تهدّد العاصمة إسطنبول الواقعة على بعد مائتي كيلومتر فقط[2] ؛ بيد أنّ الجنرال الفرنسي ردّه خائبًا، بعد أن ردّ عليه أنّ لا مجال للتفاوض إلى حين تسليم قصبة المدينة و أبراجها و مينائها للقوّات الفرنسية دون شرط مسبق، و حدّد صباح الغدّ مهلة نهائية لذلك[3].

سارع ديوان الإنكشارية، الّذي نرجّح أنّه أحيط علمًا بمهمّة المقاطعجي، من جهته إلى إرسال أحد الخوجات الكبار للقائد العامّ. و دقائق فقط بعد ابتعاد المبعوث الأوّل، قابل موفد الأوجاق دي بورمون الّذي كان محاطًا بقيادة أركانه وسط أطلال القلعة، حيث عرض عليه بلا مواربة رأس الداي حسين كترضية لإيقاف الحرب، كما أكّد له على أنّ الداي الّذي سيعيّنه الإنكشاريون سيعرف كيف يرعى صداقة الملك و مصالح بلاده ؛ غير أنّ دي بورمون قاطع كلام الموفد، و أبدى رفضه لتلك المقترحات جملةً و تفصيلاً،

---

1. Matterer, Op. cit., pp. 125-127 & 130 ; Plantet, **Correspondance des deys…**, Op. cit., T. 2, pp. 567-568 ; Perrot, Op. cit., p. 132 ; Esquer, Op. cit., p. 368 ; Réveillé de Beauregard, Op. cit., p. 32 ; Rousset, Op. cit., p. 216 ; Fernel, Op. cit., p. 115 ; de Quatrebarbes, Op. cit., p. 61 ; de Mont-Rond, Op. cit., pp. 83-84 ; Nettement, Op. cit., pp. 468-469 ; Villeneuve-Bargemon, Op. cit., p. 365. - بفايفر، المصدر السابق، ص. 96.

2. شنّت روسيا القيصرية تلك الحرب ضدّ الدولة العلية في سنة 1828م، لتساند الثوّار اليونانيين الأرثودكس و تغتنم ضعف العثمانيين - بعد إلغائهم للإنكشارية إثر الواقعة الخيرية و خسارتهم لبحريتهم في واقعة ناوارين (ناڤارين) - في تحقيق مكاسب إقليمية ؛ و هو ما توصّلت إليه بموجب معاهدة أدرنة في 14 سبتمبر 1829م.

انظر في هذا الصدد : أوزتونا، المرجع السابق، مج. 3، ص ص. 10-13 ؛ إبراهيم بك، المرجع السابق، ص ص. 209-210.

3. Rozet, **Relation…**, Op. cit., p. 253 ; Barchou de Penhoën, Op. cit., pp. 251-252 ; Anonyme, **La conquête…**, Op. cit., pp. 75-76 ; Esquer, Ibid., pp. 368-369 ; Desprez, Op. cit., pp. 181-182 ; d'Ault-Dumesnil, Op. cit., p. 83 ; de Quatrebarbes, Ibid., p. 60 ; Berthézène, Op. cit., p. 97 ; Pellissier de Reynaud, **Mémoire…**, Op. cit., p. 67 ; Pellissier de Reynaud, Op. cit., T. 1, 1854, pp. 67-68 ; Fernel, Ibid., pp. 113-114 ; Gautherot, Op. cit., p. 102 ; Juchereau de Saint-Denys, Op. cit., p. 193 ; Gaudin, Op. cit., p. 62 ; Galibert, Op. cit., pp. 307-308 ; Raynal, Op. cit., p. 21 ; Perrot, Ibid. ; Bartillat, **Coup…**, Op. cit., p. 134 ; Chennechot, Op. cit., p. 22 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 316 ; Péan, Op. cit., pp. 95-96 ; Nettement, Ibid., p. 463 ; Rousset, Ibid., p. 214 ; Bonnafont, Op. cit., pp. 68-70 ; Julien, Op. cit., p. 55. - بفايفر، نفسه.

متوعّدًا بأنّه سيسلّط أقصى عقوبة - عندما يتمكّن من المدينة - ضدّ كلّ من تسوّل له نفسه مهاجمة القصبة و التعرّض لشخص الداي[1]. و ولّد ذاك التهديد فورة غضب وسط الإنكشاريين المجتمعين الّذين تصوّروا أنّ الداي التمس حماية الفرنسيين، غير أنّ القدماء تمكّنوا في الأخير من تهدئة الخواطر، و أقنعوا بقيّتهم بأن الظرف يستلزم التروي و انتظار ما ستسفر عنه المفاوضات، قبل الإقدام على الخطوة المزمعة[2].

عرف الدرب بين باب الجديد و حصن الإمبراطور حركة دؤوبة للمفاوضين الجزائريين، ففي حدود الساعة الثالثة زوالاً، جاء الدور على ممثلي تحزّب الحضر أحمد بوضربة و حسن بن حمدان خوجة ليمثلا أمام دي بورمون و يتكلّما باسم سكّان المدينة المهدّدة ؛ و كانا هذين الأخيرين ينتميان إلى أكثر الأسر ترفًا فيها و يجيدان الحديث بالفرنسية بطلاقة، و هذا ما يسّر لهما مهمّة التخابر مع القائد العامّ : أعلم بوضربة عن حالة الانقسام السائدة في المدينة، بين دعاة الاستسلام الّذين شكّل هو و معظم البلدية و الكراغلة نواتهم من جهة، و المتمسّكين بمواصلة الدفاع الّذين شكّل الداي و العلماء و معظم "الأتراك" نواتهم من جهة أخرى ؛ و ردًّا على استفسار حسن - على الأرجح بأمرٍ من أبيه - عن وجود مبعوثٍ عثماني إلى جانب الفرنسيين، تجنّب دي بورمون الإجابة بفطنة من خلال التأكيد على أنّه شخصٌ مأمور من طرف الدولة العليّة، و أنّه لن ينتقل من مكانه إلاّ بأمرٍ منها، كون الجزائر من ممتلكات الباب العالي، كما أحاطهما المذكور علمًا بأنّه اشترط على الداي حسين - بواسطة مبعوثه - قبل أيّة مفاوضة الاستسلام (reddition à merci). وحينئذٍ، أشار أحمد بوضربة عليه أنّ الداي و باقي "البرابرة" لن يقبلوا بذلك، بل سيتعنّتون على مواصلة قتالهم الخاسر، إن لم تمنح لهم بالمقابل تعهّدات على حياتهم و أملاكهم ؛ و بعد أن أسدى إليه توصيات أخرى، طلب من دي بورمون كبادرة حسنة أن يتوقّف الفرنسيون عن إطلاق النار على برج باب عزّون ؛ و أكّد أنّ مدافعيه سيقومون بالمثل كون أغلبهم من البلدية، كما أنّهم لن يتأخّروا عن تسليم الموقع للفرنسيين بعد وقتٍ قصير[3].

---

1. Galibert, Op. cit., pp. 308-309 ; Leynadier & Clausel, **Histoire de l'Algérie française**, H. Morel, Paris, 1846, pp. 225-227 ; Bonnafont, Op. cit., p. 70.

انظر أيضًا :

- Desprez, Op. cit., p. 182 ; Barchou de Penhoën, Op. cit., pp. 251-252 ; Gautherot, Op. cit., p. 10 ; Juchereau de Saint-Denys, Op. cit., p. 194 ; Rousset, Op. cit., p. 215 ; Anonyme, **La conquête…**, Op. cit., p. 77.

- حمدان خوجة، المصدر السابق، ص. 203.

2. Galibert, Ibid., p. 309.

3. حمدان خوجة، نفس المصدر السابق، ص. 213 ؛ علي رضا پاشا، المصدر السابق، ص ص. 76-77.

انظر أيضًا : خير الدين سعيدي، "**دراسة تحليلية لكتاب - مرأت الجزاير - لعلي رضا پاشا الجزائري، من العهد العثماني إلى الاحتلال الفرنسي**"، في : مجلة العلوم الاجتماعية، مج. 15، ع. 27، 2018، ص. 160.

و بالفعل، سرعان ما توقّف إطلاق النار بين الجانبين قبل مغادرة زعيم تحزّب الحضر و مرافقه، بيد أنّ الفرنسيين تعجّلوا في إرسال مفرزة من الجنود عصرًا للاستيلاء على البرج المذكور و الطبّانة الواقعة على يمينه قرب جنان الآغا ؛ و كانت القيادة الفرنسية تنوي قطع الطريق أمام آلاف الفارّين من باب عزّون، و تستكمل بذلك تطويق المدينة. و فيما استولىّ الجنود الفرنسيون على الطبّانة الّتي وجدوها مهجورة، إلاّ أنّ زمرة من مدافعي البرج تصدّوا لهم و أجبروهم على الفرار، بعد أن أوقعوا فيهم عددًا من القتلى[1].

في الأثناء، طلب جمعٌ من تحزّب الحضر يقوده حمدان خوجة و حمدان بوركايب مقابلة الداي حسين ؛ و صارحه المذكوران بأنّ الأهالي قرّروا عدم تولّي الدفاع عن المدينة الآيلة للسقوط، و أنّه بقي خيارٌ وحيد للحفاظ على الأرواح و الأملاك و الحرمات هو مفاوضة الفرنسيين على شروط الاستسلام ؛ و لم يذعن الداي لمطلبهم، إلاّ بعد أن اتّهماه "**بأعلى صوتهم أنّه هو السبب في وقوع هذا الأمر**"[2].

و تشكّل الوفد المفاوض الّذي أرسله الداي عصر ذاك اليوم من كاتبه مصطفى قدري و أحمد بوضربة و حسن بن حمدان خوجة، كما أشرك معهم قنصل إنكلترا سانت جون بصفة غير رسمية مع نائبه. من البداية، استبعد دي بورمون وساطة الدبلوماسيين الإنكليزيين ؛ و خلال المفاوضات الّتي جرت بمرج غير بعيد من سلطان قلعه سي، عكف مع قادة أركانه على تحرير بنود معاهدة استسلام المدينة، ثمّ تولىّ المقاطعجي و القنصل نقلها قُبيل الساعة السادسة مساءً إلى الداي و الديوان العامّ، الّذي اجتمع مجدّدًا بأروقة القصبة.

و عندما انفرد دي بورمون ببوضربة، أسرّ له بأنّ "**الجيش الفرنسي لن يبقى في الجزائر أكثر من ستّة أشهر، ...تلك هي نيّة الحكومة، و عندما يشرع في الجلاء، فإنّني أترك البلاد بين أيدي أعيانها و تحت تصرّفهم**"[3] ؛ و ذلك وفقًا لمحتوى البايانات الفرنسية الّتي كانت قد وزّعت على سكّان الإيالة قبل بضعة أسابيع. و كانت تلك الأقوال الموهومة كفيلة بأن تجعل زعيم تحزّب الحضر يخلص في خدمة الفرنسيين أكثر من ذي قبل، آملاً أن يخلفهم لاحقًا في حكم البلاد.

- Bonnafont, Ibid., pp. 70-71 ; Rozet, **Relation…**, Op. cit., pp. 253-254 ; d'Ault-Dumesnil, Op. cit., p. 83 ; Fernel, Op. cit., pp. 114-115 ; Bartillat, **Relation…**, Op. cit., p. 164 ; Desprez, Ibid., pp. 182-183 ; Barchou de Penhoën, Ibid., pp. 252-253 ; de Quatrebarbes, Op. cit., p. 61 ; Juchereau de Saint-Denys, Ibid., p. 194 ; Esquer, Op. cit., p. 369 ; Rousset, Ibid., pp. 215-216 ; Chennechot, Op. cit., p. 22 ; Bartillat, **Coup…**, Op. cit., p. 154 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., p. 316 ; Nettement, Op. cit., pp. 464-465 ; Gaudin, Op. cit., p. 63 ; Julien, Op. cit., p. 55 ; Eudel, Op. cit., p. 318 ; Péan, Op. cit., p. 96.

1. Desprez, Op. cit., Op. cit., p. 187 ; Bartillat, **Coup…**, Op. cit., p. 154 ; Galibert, Op. cit., p. 310 ; d'Ault-Dumesnil, Op. cit., pp. 83-84 ; Gautherot, Op. cit., pp. 102-103 ; de Quatrebarbes, Op. cit., p. 62.

- الزهّار، المصدر السابق، ص. 175.

2. الجزائري، **كيف...**، المصدر السابق، ص. 31.

- Raynal, Op. cit., p 28.

3. حمدان خوجة، المصدر السابق، ص. 213.

على كلٍّ، بعد أقلّ من ساعة، عاد المقاطعجي مصطفى ليلتمس إرسال مترجمٍ فرنسي، حيث لم يتجرّأ أي ترجمان قراءة الشروط ؛ فبعث دي بورمون مترجم الجيش الأوّل براشڤيتز (Bracewitz)، لكي يقوم بتلاوة و ترجمة المعاهدة إلى العربية على أعضاء الديوان و يرفع أي لبس بخصوص بنودها، و يغتنم الفرصة ليسلّم للداي شخصيًا اتفاقية تعهّد يمنحه بموجبها "الأمان لنفسه و أهله و ماله" لقاء التسليم.

بسبب الظرف، لم يتمكّن عددٌ غير قليل من الأعيان حضور الديوان العامّ، الّذي ضمّ بالتالي غالبية من أفراد الأوجاق. و أثارت قراءة الشرط الرابع المتعلّق بطرد "الأتراك" استهجان الأكثرية، و من ضمنهم علماء الأحناف ؛ و بذل الداي و الوزراء و كبار ضبّاط الإنكشارية جهدهم لتهدئة و إقناع المعنيين بأنّه لم يعد هناك إمكانية للمقاومة، بعد أن قتل الآلاف من إخوانهم و أحجم جلّ أهل البلد عن القتال، فيما استغلّ الفرنسيون وقف إطلاق النار لتجهيز بطّاريتين بإزاء القصبة و ثالثة تجاه الأسوار الشرقية للمدينة.

و في الأخير، أرجأ الداي حسين البتّ في المعاهدة إلى الصبيحة، حيث أجابهم "**أنّه سيعمل في الغدّ وفقًا للرغبات الّتي عبرّوا له عنها**"[1] ؛ و فضّ إثر ذلك جلسة الديوان الصاخبة. بعد أن بقي براشڤيتز بمحضر الداي و حاشيته و زعماء تحزّب الحضر، أطلع هذا الأخير على اتفاقية الأمان الّتي تخصّه جلّ بنودها. و عقب استشارة مقرّبيه، لم يتأخّر حسين عن المصادقة عليها بوضع ختمه إلى جانب إمضاء دي بورمون ؛ لكنّه طلب مهلة أربعة و عشرين ساعة، معلّلاً أنّ هذا التمديد سيتيح إعادة النظر بالبند الرابع، الّذي رفض أعضاء الديوان قبوله.

في الوقت ذاته، انعقد ديوان الإنكشارية، الّذي حضره قرابة الألفي جندي، مجدّدًا بنفس الثكنة لمناقشة آخر التطوّرات. و بتحريض من بعض علماء الأحناف، كبُر على قسمٍ من الإنكشاريين أن تذهب تضحياتهم سدًى، و أن يروا المدينة و قصبتها تسقط بأيدي الفرنسيين، فوضعوا مخطّطًا جريئًا يتمثّل في مهاجمة القصبة خلال تلك الليلة و إعدام الداي ؛ و بعد أن يحملوا ما أمكنهم حمله من ثروات الخزينة، يشقّون طريقهم عنوة إلى دواخل البلاد بغرض تنظيم المقاومة ضدّ أعداء الدين.

غير أنّ هذه الخطّة لقيت معارضة شديدة لدى العديد من الكراغلة و الأتراك المتزوّجين، الّذين خشوا من أن يفضي ذلك إلى الإخلال بمعاهدة الاستسلام، و يجعل أغلبية السكّان الباقين في المدينة عرضةً لانتقام القوّات الفرنسية. رغم ذلك، حاولت مجموعة صغيرة من الإنكشاريين اقتحام القصبة لقتل الداي حسين، غير أنّنا نجهل مجريات هذه المؤامرة الأخيرة، و كذا سبب فشلها. و بهذا الخصوص، قيل

1. حمدان خوجة، المصدر السابق، ص. 202.

أنّ الداي حسين لمّا أحسّ بدنو الخطر حمل غدّارة و اتّجه إلى مخزن البارود[1] يزمع تفجيره، غير أنّ بعض مقرّبيه ثنوه بصعوبة عن ذلك.

على الساعة الخامسة و نصف من صباح 5 يوليو، أرسل الداي كاتبه مصطفى قدري إلى مقرّ قيادة الأركان الفرنسية بمعسكر الأبيار. و فيما رفض دي بورمون تمديد مهلة التسليم بأربعة و عشرين ساعة الّتي التمسها الداي، إلاّ أنّه قبِل أن يعدّل الشرط المتعلّق بنفي الأتراك، حيث استثنى منه المتزوّجين - بحسب ما ألمح إليه حمدان خوجة - ؛ و عليه، أعيدت صياغة نصّ معاهدة الاستسلام، الّتي حملت تاريخ 5 يوليو، و سلّمت للمبعوثين بعد أن قام القائد العامّ الفرنسي بإمضائها.

و تكفّل القنصل الإنكليزي سانت جون بتسليم المعاهدة الّتي صادق عليها الداي حسين، بعد موافقة الديوان ؛ و حيال طلب تمديد المهلة بساعتين، اشترط دي بورمون أن يتمّ إطلاق جميع أسرى الحرب على الفور. و عليه، فتحت أبواب المدينة للجنود الفرنسيين منتصف النهار ؛ و في حدود الساعة الثالثة زوالاً، كانت الأعلام الفرنسية قد حلّت محلّ الجزائرية في جميع أنحاء المدينة، ايذانًا بسقوط عاصمة الإيالة و أوجاقها[2].

---

1. كان هذا المخزن الموجود بقلعة القصبة أحد أكبر مخازن البارود بالمدينة، إذ كان يحتوي على مائتي و ثلاثين ألف رطل من البارود :
- Fernel, Op. cit., p. 114 ; Desprez, Op. cit., pp. 232-233 ; d'Ault-Dumesnil, Op. cit., p. 98 ; Nettement, Op. cit., p. 386 ; Rozet, **Relation…**, Op. cit., pp. 291-292.

2. حمدان خوجة، المصدر السابق، ص ص. 202-204، 213-214 و 228-229 ؛ علي رضا پاشا، المصدر السابق، ص ص. 77-78 ؛ بفايفر، المصدر السابق، ص ص. 96-99 ؛ الجزائري، **كيف…**، المصدر السابق، ص ص. 31-33 ؛ [هودجسون]، المصدر السابق، ص. 30 ؛ سعد الله، **محاضرات…**، المرجع السابق، ص. 45 ؛ حمداني، المرجع السابق، ص ص. 213-216 ؛ زهرة، المرجع السابق، ص. 245 ؛ أمين، المرجع السابق، ص ص. 35-36.
- Jal, « **Une visite…** », Op. cit., p. 48 ; Barrachin, Op. cit., pp. 16-17 ; Eudel, Op. cit., pp. 317-318 ; Gautherot, Op. cit., pp. 103-104 ; Perrot, Op. cit., p. 133 ; Merle, Op. cit., pp. 258-268 ; Chennechot, Op. cit., pp. 22-23 ; Desprez, Ibid., pp. 183-192 ; Pellissier de Reynaud, **Mémoire…**, Op. cit., pp. 67-69 ; d'Ault-Dumesnil, Ibid., pp. 84-87 ; Berthézène, Op. cit., pp. 97-99 ; Barchou de Penhoën, Op. cit., pp. 253-260 & 283 ; Fernel, Ibid., pp. 115-116 ; Nettement, Ibid., pp. 465-467 & 472 ; Bartillat, **Coup…**, Op. cit., pp. 153-155 ; Rozet, Ibid., pp. 254-256 ; de Quatrebarbes, Op. cit., p. 62 ; Bonnafont, Op. cit., p. 71 ; Rousset, Op. cit., pp. 216-221 ; Esquer, Op. cit., pp. 370-374 ; Leynadier & Clausel, Op. cit., pp. 227-231 & 235 ; Anonyme, **La conquête…**, Op. cit., pp. 77-82 ; Réveillé de Beauregard, Op. cit., pp. 32-35 ; de Mont-Rond, Op. cit., p. 77 ; Juchereau de Saint-Denys, Op. cit., pp. 194-198 & 210 ; Gaudin, Op. cit., pp. 63-68 ; Playfair, « **Épisodes…** », Op. cit., 1880, pp. 209 & 213 ; Péchot, Op. cit., pp. 154-155 ; Galibert, Op. cit., pp. 309-316 & 336 ; Habart, Op. cit., p. 33 ; Péan, Op. cit., pp. 96-98 ; Pétiet, Op. cit., p. 348 ; Villeneuve-Bargemon, Op. cit., p. 366 ; de Grammont, **Histoire d'Alger…**, Op. cit., pp. 316-317 ; Matterer, Op. cit., pp. 128-129.

فور الاستيلاء على مدينة الجزائر، أمر دي بورمون القيام بإحصاء عدد الأتراك الموجودين بها تمهيدًا لعملية ترحيل العزّاب منهم المنصوصة في معاهدة الاستسلام ؛ و كم كانت دهشة الفرنسيين عندما اكتشفوا أنّ تعدادهم الكلّي في حدود الألفين، من أصل أربعة آلاف و مائتين و واحد إنكشاري الّذين كانت تضمّهم المدينة حينئذٍ. و عليه، أمِر المقاطعجي مصطفى قدري يومي 6 و 7 يوليو بجرد أفراد الأوجاق المدوّنين في سجلي جرايات الإنكشارية ؛ و نتج عن ذلك إحصاء حوالي عشرة آلاف فرد. و لقد أثار ذلك لعدّة أيّام مخاوف بعض ضبّاط القيادة الفرنسية من أن يكون الستّة آلاف إنكشاري الناقصين قد فرّوا من المدينة قُبيل سقوطها، و انتشروا في بعض نواحي الإيالة بغرض إعادة تنظيم صفوفهم و حشد قوّات لمحاولة افتكاك الجزائر من أيديهم[1].

في الواقع، لم يترك المدينة ليلة 5 يوليو سوى ستّمائة إلى سبعمائة إنكشاري فقط، حيث انضمّ أغلبهم إلى قوّات أحمد باي الّتي انسحبت إلى الحرّاش إثر انفجار سلطان قلعه سي، ثمّ قفلت راجعة إلى قسنطينة ؛ أمّا البقية - أي ما يناهز الأربعة آلاف رجل -، فقد استشهدوا خلال المواجهات المختلفة الّتي امتدّت من يوم الإنزال إلى عشية الاستسلام، بعد أن استبسلوا في القتال وفق الشعار الروماني

المستلفت للانتباه أن النسخ الأصلية لمعاهدة الاستسلام و اتفاقية الأمان لم يعثر لها على أثر في أرشيفات الحكومة العامّة أو الدوائر الوزارية الباريسية، و ذلك من قبل جميع الباحثين الّذين عكفوا على دراستها ؛ و هو الأمر الّذي يدعو حقيقةً إلى الاستغراب و التحفّظ بالنسبة لوثيقتين تكتسيان تلك الأهمّية، بالأخصّ مع تسجيل اختلافات بيّنة في مختلف المصادر التاريخية الّتي أوردت نصّها. انظر في هذا الصدد :

- الزهّار، المصدر السابق، ص. 175 ؛ حمدان خوجة، نفس المصدر السابق، ص ص. 203-204 ؛ علي رضا پاشا، نفسه ؛ قنان، **معاهدات...**، المرجع السابق، ص. 401، ه. 1 ؛ قنان، **نصوص...**، المصدر السابق، ص ص. 303-304 ؛ السليماني، المصدر السابق، ص ص. 257-258 ؛ أمين، نفس المرجع السابق، ص ص. 30-31 ؛ حمداني، نفس المرجع السابق، ص ص. 212-228 و ما بعدها ؛ سعيدي، المرجع السابق، ص. 160 ؛ زوزو، المرجع السابق، ص ص. 68-73.

- Bonnafont, Ibid., pp. 73-75 ; Bartillat, **Coup...**, Ibid., pp. 154-155 ; Desprez, Ibid., pp. 190-192 ; Barchou de Penhoën, Ibid., pp. 257-259 ; Bartillat, **Relation...**, Op. cit., pp. 164-165 ; Fernel, Ibid., p. 116 ; Rozet, Ibid., p. 256 ; de Mont-Rond, Ibid., pp. 77-79 ; Leynadier & Clausel, Ibid. ; Galibert, Ibid., pp. 310-312 ; Barrachin, Ibid., p. 17 ; Eudel, Ibid., p. 318 ; Juchereau de Saint-Denys, Ibid., p. 195 ; Pellissier de Reynaud, Ibid. ; Lauvergne, Op. cit., pp. 132 & 146 ; Péchot, Ibid., p. 155 ; Plantet, **Correspondance des deys...**, Op. cit., T. 2, pp. 569-570 ; Michel Habart, « **Variétés et mensonges du 5 juillet 1830** », in : Novembre, n° 1, avril-mai 1963, pp. 11-20.

1. Allut, Op. cit., pp. 234 & 238 ; Gaudin, Op. cit., p. 69 ; Galibert, Op. cit., p. 335, 338 & 349 ; Desprez, Op. cit., pp. 205-206 & 215-216 ; Berthézène, Op. cit., p. 104 ; Nettement, Op. cit., pp. 424 & 427 ; Juchereau de Saint-Denys, Op. cit., p. 75.

انظر الملحق رقم 67.

الجدير بالذكر أنّه لدى دخول الفرنسيين إلى مدينة الجزائر منتصف نهار 5 يوليو، كان يرقد بثكنة باب عزّون نحو ألف جريح من أفراد الإنكشارية ؛ و يمكن أن نفترض أنّ أزيد من نصفهم بقليل كانوا أتراكًا. و دون مراعاة لحالتهم الصحية، أمر الفرنسيون بنقلهم مع جملة المطرودين على متن السفن، الّتي أقلّتهم إلى نواحي إزمير :

- بفايفر، المصدر السابق، ص. 99. - Gaudin, Ibid., p. 67 ; Matterer, Op. cit., pp. 149-150.

(*Pro Aris et Focis*) "في سبيل الإلـٰه و ذودًا عن البلد"، الّذي استخدمه عددٌ من الضبّاط الفرنسيين لتعليل حمِيتهم و استماتتهم[1].

و دون الأخذ بالحسبان أقلّ من ثلاثة آلاف كرغلي المنتسبين للأوجاق الّذين نجوا من رحى الحرب، يمكن القول أنّه، بعد أن تمّ طرد الأتراك العزّاب في مرحلة أولى أواسط شهر يوليو[2]، و من ثمّ المتزوّجين - مع عائلاتهم - في أواخر ذات الشهر و أوائل الّذي يليه[3]، تمّت تصفية العنصر التركي العثماني - الّذي كان يشكّل الركيزة الأساسية لأوجاق جزائر غرب - بشكل كبير، بحيث لم يبق في أنحاء الإيالة البائدة إلاّ أقلّ من ألف فرد على أكثر تقدير، بعد أن كان عددهم إجمالاً يتراوح ما بين خمسة و ستّة آلاف قبل الحملة الفرنسية[4].

---

1. Gautherot, Op. cit., p. 116 ; d'Ault-Dumesnil, Op. cit., pp. 78-79 ; Féraud, « **La prise…** », Op. cit., pp. 76-77 ; Allut, Op. cit., p. 233 ; Anonyme, **La conquête…**, Op. cit., p. 107 ; Barchou de Penhoën, Op. cit., pp. 288-289 ; Lauvergne, Op. cit., pp. 88-89 ; Bartillat, **Relation…**, Op. cit., p. 179 ; Rouquerol, Op. cit., p. 80 ; Bonnafont, Op. cit., pp. 80 & 102 ; Gaston Gangloff, **Les zouaves**, T. 1, Valentin Risser, Rambervillers, 1893, p. 14.

- أحمد باي، المصدر السابق، ص. 16 ؛ سامح التر، المرجع السابق، ص. 656.

الجدير بالذكر في هذا الصدد أنّه في غياب تقديرات بخصوص خسائر الجزائريين الإجمالية خلال الحملة الفرنسية على الجزائر، يمكن اقتراح رقم خمسة عشر ألف ما بين قتيل و جريح. انظر : Réveillé de Beauregard, Op. cit., p. 33. -

بالمقابل، بلغت خسائر الطرف الفرنسي من خمسة إلى ستّة آلاف جندي، بحسب أكثر التقديرات واقعية ؛ ألفين و ثلاثمائة أو ألفين و خمسمائة قتيل و جريح، بحسب الروايات الرسمية : Id. ; Gautherot, Ibid., p. 114 ; Villeneuve-Bargemon, Op. cit., p. 369. -

2. Playfair, **The scourge…**, Op. cit., p. 321 ; Playfair, « **Épisodes…** », Op. cit., 1880, p. 210 ; Pétiet, Op. cit., p. 355 ; Lauvergne, Ibid., pp. 85 & 120 ; Matterer, Op. cit., pp. 142 & 150 ; Berthézène, Op. cit., pp. 113-115 ; Nettement, Op. cit., pp. 509-510 ; Rousset, Op. cit., pp. 239-241 ; Raynal, Op. cit., pp. 35-36 ; Barchou de Penhoën, Ibid., pp. 269-270 & 285-286 ; Bartillat, Ibid., pp. 167-168, 171, 177 & 186-187 ; Leynadier & Clausel, Op. cit., p. 251 ; Fernel, Op. cit., p. 128 ; Rozet, **Relation…**, Op. cit., pp. 276-277 & 299 ; Bonnafont, Ibid., p. 99 ; de Mont-Rond, Op. cit., pp. 95-96 ; Gangloff, Ibid.

- بفايفر، المصدر السابق، ص ص. 105 و 129، ه. 57 ؛ سامح التر، نفس المرجع السابق، ص. 652.

3. Playfair, **The scourge…**, Ibid., pp. 321-322 ; Allut, Ibid., p. 243 ; Pétiet, Ibid., pp. 373-375 ; Leynadier & Clausel, Ibid., p. 257 ; Juchereau de Saint-Denys, Op. cit., pp. 222-225 ; Galibert, Op. cit., pp. 363-364 ; Gautherot, Ibid., p. 118-126 ; Lauvergne, Ibid., pp. 135-139 & 146-148 ; Desprez, Op. cit., pp. 253-257 ; d'Ault-Dumesnil, Ibid., pp. 124-125 ; Nettement, Ibid., pp. 528-530 ; Esquer, Op. cit., p. 453 ; Rousset, Ibid., pp. 255-256 ; Barchou de Penhoën, Ibid., pp. 285-288 & 310-314 ; Bartillat, Ibid., pp. 179-180 & 187-188 ; Fernel, Ibid., p. 144 ; Rozet, Ibid., pp. 277-278, 299-300, 319-320 & 326-328 ; Villeneuve-Bargemon, Ibid., pp. 373-374 ; de Mont-Rond, Ibid., p. 103 ; Gangloff, Ibid.

- حمدان خوجة، المصدر السابق، ص ص. 228-229 ؛ بفايفر، نفس المصدر السابق، ص ص. 102-103 و 106.

4. Raynal, Ibid., p. 27 ; Allut, Ibid., p. 243.

- Fernel, Ibid., p. 157 ; de Mont-Rond, Ibid., pp. 99-100. انظر أيضًا : سامح التر، نفس المرجع السابق، ص. 654.